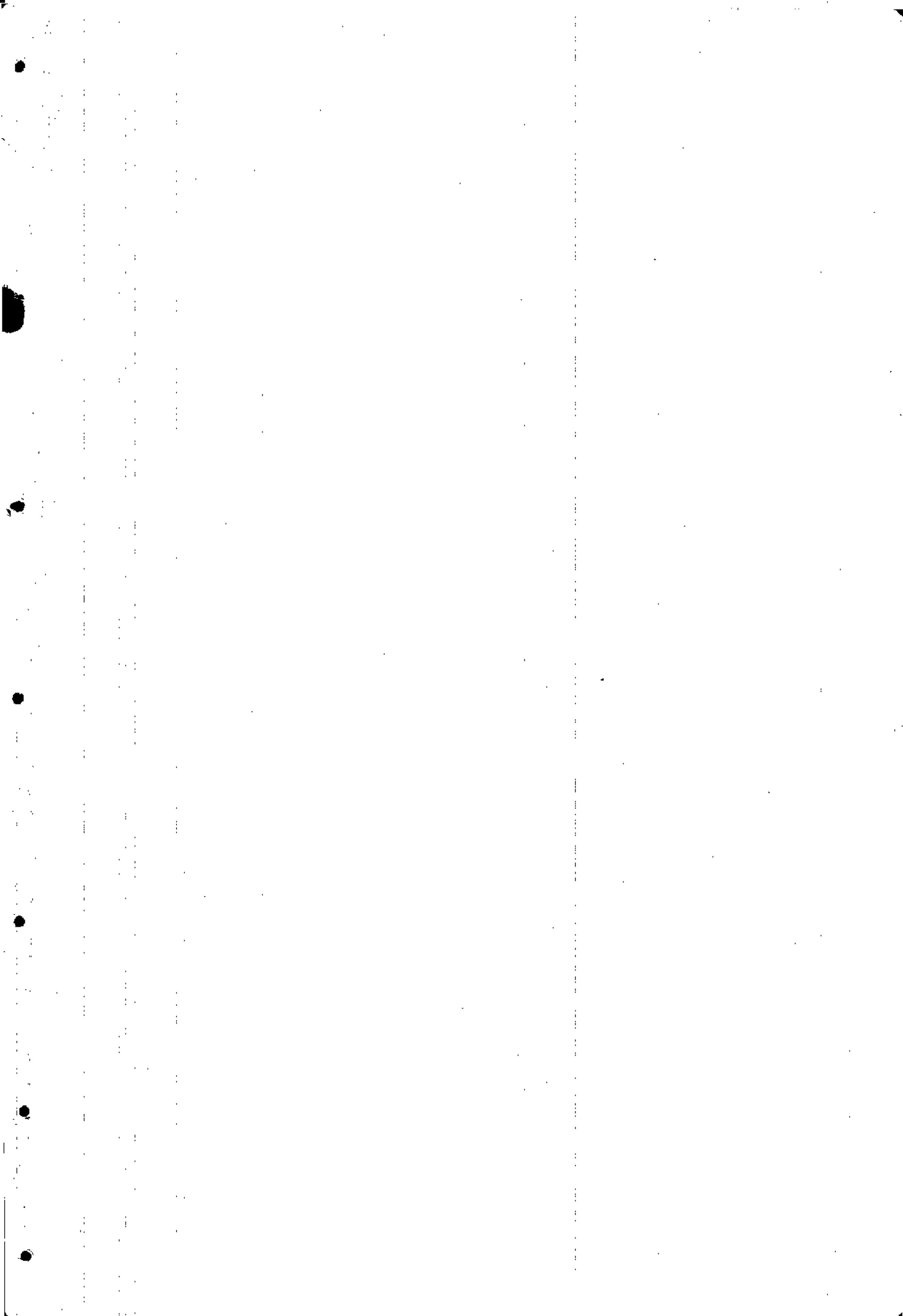
د. محمد الغربي

بداية الحكم المغربي في السودان الغربي

إشراف :
الدكتور نقولا زياده



الحكم المغربي في السودان الغربي
نشأته وآثاره

محمد الغربي

الجزء الأول

إشراف :
الدكتور نقولا زياده

مؤسسة الخليج للطباعة والنشر

تلفون ٨٤٠٣٠٦ - صندوق بريد ٢٧٣٢ الصفاة - الكويت

المدخل

البحث الذي نروم التمهيد له في هذا المدخل ، ليس بحثاً تاريخياً وحضارياً صرفاً ، ولا جغرافياً صرفاً ، ولا هو آخذ بالمنحيين معاً على نحو متمايز أو مستقل . فهمنا مما سنعرضه في الفصول اللاحقة من استقصاء للأحداث وللتفاعل الحضاري في فترة قصيرة لا تزيد عن ثلاث عشرة سنة ، أو مقابلة بينهـا أو تحليل لأسبابهـا ومساق سيرها ونتاجها ، ان يوضع هذا البحث جهد الإمكان لا في الإطار الجغرافي بل أن يخضع للمحك الجغرافي الفاعل والمتأثر ، سائرين في المبنى العام للأبواب والفصول على ما يعرف عند العلماء بالجغرافية التاريخية .

وهناك إطار آخر وضعناه لفصول البحث سوف يبدو بمقتضاه على شكل الوحدة السياسية والاقتصادية والحضارية من حيث تمازج المساحة والموارد والعلاقات الإنسانية المتبادلة ، انطلاقاً من تعريف هارتسون لمادة الجغرافية السياسية « بأنها دراسة التبدل في الأوجه السياسية نتيجة لارتباط هذه الأوجه بالتبدل في طبيعة الأرض كوطن للانسان المتحرك الفاعل[1] .

فنظرتنا إلى الإدارة السعدية التي أقيمت على مساحة شاسعة من الغرب الإفريقي ستكون في الواقع نظرة لسلطة حاكمة على إقليم متميز تقطنه جماعات بشرية لها تقاليدها وخبراتها ونظمها مع خضوع الإقليم للمتغيرات المستجدة وخضوع الجماعات الطارئة أيضاً للمتغيرات المكانية .

(1) Hartshorne, R., «Political Geography in the modern world», Journal of conflict Resolution 1960, 4 P.52

ومن هذه الخطة فان نطاق البحث سيكون محدداً بمضامين الجغرافية السياسية ، من حيث الفكرة الجغرافية للإقليم المحتل ، وكيانه وحدوده وخواصه الاستراتيجية ، والنظم القبلية ، والحكم التقليدي الجمعي ، والموارد والخبرات الأصيلة ، ومهارة الوافدين الجدد والمواصلات واستغلال الموارد ، والمتاجرة بها .

وفي نهاية الكتاب سنخرج بدراسة متكاملة ـ بعد تحليل التفاعلات بين الحدث والمسرح الذي شهدها ـ تبرز ما أنتجه الحكم المغربي في مرحلة التأسيس من عطاء حضاري ومتغيرات ديموغرافية وتطعيم عرقي ، غير غافلين ما طرأ على السكان في الغرب الإفريقي ـ وكانوا قد عاشوا من قبل في تجمعات منكمشة وخضعوا لأعراف حكمت الفرد والأسرة والقبيلة ـ من تبدل فرضه التفكك الذي لحق الخلايا الاجتماعية من جراء تقبل أوضاع إدارية واجتماعية مغايرة ، وهذا ما يعرف عند الباحثين بالجغرافية الاجتماعية .

إن كلاً من تلك الكوادر الثلاثة يعتمد في الأساس كما يعتمد في النهج على الإطار المكاني الذي يفعل وينفعل ، يؤثر ويتأثر ، يدفع ويمسك ، ومن الطبيعي أن يكون الحرص منا كبيراً على تتبع الأحداث في مظانها وتوقيتها من جهة ، وفي أوجهها الكبيرة البارزة أو في نثرياتها من جهة ثانية متتبعين طريق التحليل والاستنتاج ، وما ذلك إلا سعي في ألا نغمط أية فترة أو موقع حقهما إن قاما بدور ما ، فعلاً أو انفعالاً تأثيراً أو تأثراً ، دفعاً أو إمساكاً .

إن دراسة الفترة الزمنية المراد تناولها تاريخياً والمحصورة في السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر والسنوات الأربع الأولى من القرن السابع عشر تفرض تناول الوسط الطبيعي والبشري كما رسمه المؤرخون في تلك الفترة عينها ، ومن البديهي أن تقديم دراسة جغرافية ميدانية عن الغرب الافريقي الراهن ثم محاولة ربطها بأحداث وقعت قبل أربعة قرون تقريباً شيء لا يُقره المنطق العلمي ، خاصة وإن المنطقة التي هي مجال البحث خضعت أكثر من غيرها إلى تغييرات عميقة وواضحة في الطبيعة والجنس ، وهناك من الظواهر البارزة ما يؤكد ذلك

إطلاقاً من أحقاب تاريخية قديمة ثم من العهد الروماني والعهد الإسلامي وربما لا يوجد مكان في العالم أغنى ما يكون بالشواهد على تغير العلاقات الإنسانية بحكم التبدل الأكيد للمناخ أكثر من شمال افريقيا وغربها[1].

فقد كان عصر البليوستوسين الجيولوجي عصر مطر في الصحراء الكبرى ، وتوجد شواهد ماثلة على وديان وأنهار حقيقية ومستنقعات واسعة أعطت للصحراء رطوبة ومظاهر نباتية وحيوانية خاصة في الغرب ، وقد شهد الإنسان المراحل الأخيرة من هذه الفترة الماطرة وعاصر التحول الواضح في المناخ الذي استمر إلى اليوم[2].

وقد عرفت المناطق التي توصف اليوم بأنها صحراء قاحلة حياة الاستقرار وسمحت بالبناء والزراعة والحياة الحيوانية الأمر الذي لا نزال نشاهد صوره مثبتة على صخور الكهوف في طول الصحراء وعرضها ، وسنرى جؤذر باشا وهو يقطع بحملته درب الصحراء يستريح عند واحات وآبار ، يملأ منها آلاف القرب ويروي بمياهها عشرة آلاف دابة ، وأكثر من ذلك سنجد أوصاف تلك الواحات والآبار فيما نقله عبد العزيز الفشتالي مؤرخ أحمد المنصور السعدي ووزيره عن الأدلاء الذين رافقوا الحملة ، وهي تدل على أن صحراء القرن السادس عشر ليست هي صحراء اليوم[3] فالواحات التي ذكرها الفشتالي غارت مياهها أو ردمت بفعل تحول المناخ نحو الجفاف واضطراب الأمن .

وإلى الجنوب من الشريط الصحراوي ، نجد أن مدينة تنبوكتو التي تبدو اليوم كئيبة لا نبات فيها ولا تنزل فيها إلا قطرات من المطر في بعض السنين

---

(١) E.W. Bovill «The golden trade of the Moors Oxford 1961 ترجمة الدكتور زاهر رياض تحت عنوان « الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى » - الانجلو مصرية - القاهرة ١٩٦٨ ص ١٠

(٢) المصدر السابق ص ٨١

(٣) عبد العزيز الفشتالي - مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا - تحقيق الدكتور عبد الكريم كريم - الرباط ١٩٧٢ ص ١٣٥ .

(المتوسط السنوي ١٠٠ ملم)[١]، كانت عند وصول الجيش المغربي إليها أكثر أمطاراً وخضرة ، فقد كان جؤذر باشا يشتكي مما تلحقه الأمطار برجاله ومدافعه وبارودة[٢]، وتحدث المؤرخون السودانيون عن أمطار تنبوكتو التي كانت تنزل من الفجر إلى الغروب وعن هبوب العواصف الثلجية على تلك المدينة واستمرار هطول الأمطار بها لساعات كثيرة[٣]، كما تحدث أولئك المؤرخون عن الجنائن التي كانت تتخلل بيوتات تنبوكتو وعن حدائق جعفر التي بنى فيها الحاكم المغربي منصور باشا دار المخزن[٤].

ولا شك إن العامل البشري ساهم مساهمة مهمة في تغيير المناظر الطبيعية بتلك الأقاليم السودانية ، فبعد الهجرات البربرية والعربية نحو الجنوب ، وشيوع النهب وقطع الطرق ومختلف أنواع التعدي على القرى والمزارع تحولت الأراضي الخضراء إلى صحارى مجدبة[٥]، وحين حضر المغاربة وكانوا في حاجة إلى بناء أسطول قطعوا أشجار المدن واقتلعوا أبواب البيوت[٦]. وأخيراً فعند تتبع أوصاف الرحالة من أمثال حسن الوزان وابن بطوطة ولانزوكايي نقف بالفعل على حقائق مذهلة حول التبدل الذي خضعت له تلك الأصقاع خلال أحقاب تاريخية متقاربة نسبياً .

إننا سنورد في صلب هذا البحث أوصافاً لما كانت عليه البوادي والمدن والقرى في نهاية القرن السادس عشر من غنى زراعي وحيواني ، كما اننا سنرى عند ذكر المواقع العسكرية التي جرى أغلبها وسط الغابات الملتفة وعلى ضفاف الأنهار وحول المسيلات المائية الدائمة الانصباب ، وعلى الجبال الخضراء الآهلة

---

(١) A. Meynier «Air equatorial et front intropical» Noris 1957. T. 2P. P.161 - 173

(٢) محمود كعتو « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » تحقيق هوداس ودولافوس، - مكتبة أمريكا والشرق - باريس ١٩٦٤ ص ١٥٥

(٣) مؤلف مجهول « تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان » - تحقيق هوداس / باريس ص ٥

(٤) عبد الرحمان السعدي « تاريخ السودان » تحقيق هوداس ونينوا ص ١٧٦

(٥) بوفيل مصدر سابق ص ١٤

(٦) السعدي مصدر سابق ص ١٤٥

بالسكان ما كانت تحتويه مختلف تلك الجهات من ثروات غابوية ومائية وحيوانية ، لم نجد لها من أثر قبل خمسة عشر عاماً عندما قمنا بجولة دراسية إلى السودان في بداية إنشغالنا بجمع مواد هذا البحث ، ونحن نعلم الآن ان تغيراً مناخياً بدأ منذ عشر سنوات والحق كل مناطق السودان أي بلاد الساحل بدائرة الجفاف الصحراوية التي تتسع سنة بعد أخرى .

ومن جهة أخرى فما كان ينطبق على الرياح والسحب المحملة بالأمطار انطبق بنفس المقياس على أنهار المنطقة السودانية وفي مقدمتها نهر النيجر ، وإننا نجد من الشواهد ما يثبت أن سهول الفيضان التي شهدت منذ أربعة قرون أغلب التفاعل الحضاري المغربي السوداني قد تراجعت وانحصرت بتوالي السنين والأعوام حول شريط ضيق يتبع الأنهار من منابعها إلى مصابها ، فالفيضان الذي رآه المؤرخون السودانيون المعاصرون لحملة السعديين على السودان يصل إلى تنبوكتو ويغرق دييني وغيرها[1] لم يعد من الأمور المعروفة في تلك الجهات اليوم .

ويذكر الجغرافيون أن فيضان نهر النيجر كان في زمن دخول العرب إلى السودان يغمر بحيرة فاكيبين ، وقد عمل أولئك على مد قناة من تلك البحيرة إلى ولاته وسط الصحراء على مسافة مائتي كيلومتر ، وأقاموا على طول تلك المسافة سدوداً وخزانات للتحكم في مياه الفيضان[2] .

وإذاً فليس التبدل الكبير في المناخ هو الذي استأثر وحده باستقصائنا ودراساتنا المقارنة ، وألح علينا في تتبع ظواهره ومظانه بل كانت هنالك أيضاً التبدلات البشرية على نفس المقدار من الوضوح والعمق ، فقد أعقب الإطاحة بأمبراطورية مالي انتقال واسع لقبائل السونغاي نحو الغرب ، ومنذ وصول المغاربة بعد ذلك بقرن من الزمن بدأ إنحسار تلك الموجات المتلاحقة أولاً ثم أخذت قبائل السونغاي تتجه إلى ما وراء نهر النيجر جنوباً وشرقاً وتختلط بقبائل الحاووصا بدلاً

---

(١) السعدي مصدر سابق ص ٢٢١ ، والمؤرخ المجهول - تذكرة النسيان ص ٥

(٢) Geographie unirerselle. T.X1 Armanb Colin 1937 P462

عن تداخلها الذي كان يمضي قدماً مع قبائل الفولبيه والبامبارا والصنهاجيين والعرب ، ولم تكن الحروب التي عرفتها بلاد السودان في نهاية القرن السادس عشر هي السبب الوحيد في تلك التغيرات الديموغرافية ، بل كان هنالك أيضاً العامل السياسي والنفسي وقد لعب فيهما المغاربة أكبر دور .

إن كل التبدلات في الطبيعة وفي الحياة البشرية ، فرضت علينا قاعدة في منهاج بحثنا تنبع من أن الفهم الصحيح لتطور السودان في العهد المغربي لا يتأتى إلا بالارتكاز على المعرفة الدقيقة والإحاطة التامة بالظروف الجغرافية والبيئية والاحتكاك العنصري من خلال تاريخ تلك الفترة نفسها .

وإن هذا ما سنحاول في بحثنا الإلمام به ، ولو في تلك الحقبة القصيرة التي لا تعطي فكرة شاملة عميقة المدلول واضحة الجوانب .

ولقد واجهتنا تساؤلات ألحت علينا في أكثر فصول البحث ، ووجدنا أن الأمانة العلمية تفرض أن نتناول الإجابة عنها بأكثر ما أمكن من الدقة والصراحة ، مؤيدين بالوثائق المخزنية الرسمية ، وببعض تفسيرات شهود العيان ، ولكن كانت هناك أيضاً أمور وجدناها في جملة من المصادر كان يفترض فيها الحياد والأمانة والاتزان ويتعلق الأمر خاصة باجتهادات غير موفقة وغير مسنودة وصل بعضها في رأينا إلى حد التجني ، وكان العزم منا وطيداً على إرجاع الأمر إلى نصابه مع التماس العذر تلو الآخر لمن اعتقدنا أنهم لم يصلوا إلى بعض المؤيدات ولم يقدر لهم أن يطلعوا على كل موجودات الخزائن المغربية ، ولقد حصرنا تلك الاجتهادات في نقاط ثمان وحاولنا أن نستقصي جوانبها نضع الحقائق المتعلقة بها حيث يجب أن توضع وهذه النقاط هي :

- حدود المنطقة التي خضعت لحكم المغاربة في السودان الغربي .
- نوعية الأجناس والقبائل التي مورس عليها ذلك الحكم .
- إعطاء تعريف محدد للحملة المغربية ، مع تبين دوافعها العلنية والباطنية .

- قضية اختراق الصحراء أو معالجة أمر الحاجز الذي يفصل بين الافريقيتين السوداء والبيضاء .

- الأشكال المتعلق بوصول المغاربة إلى مناجم الذهب السودانية .

- التوفيق بين الأفكار المتعلقة بفتح بلد مسلم ثم وجود قيادة مغربية مشكوك في إسلامها على رأس الإدارة السودانية .

- استمرار أو عدم استمرار الحكم المغربي في السودان بعد موت أحمد المنصور الذهبي عام ١٦٠٣ .

- ما حققه المغرب وإفريقيا الغربية من مكاسب مادية وحضارية ومن استقرار سياسي .

لقد كنت أضع نصب عيني وأنا أمضي في أبواب البحث وفصوله أن أول مهمة يجب أن ينهض بها هي تلمس ورفع كل مظاهر التشويه أو التحريف أو العزل ، واعتماد ما يمكن أن يكون قد تبقّى من الشواهد عن المسار الحقيقي للأحداث وللعطاء الحضاري معاً .

ولا أدعي كما لا أتصور أن في مقدور أي باحث أن يدعي أيضاً على ضوء الموجودات والمستندات الحالية فقط إنه في الإمكان التوصل إلى كل النجاح في وضع الأحداث والتأثيرات في المكان الذي وضعت فيه عندما صنعت ، ولكن يبقى هناك الأمل عندي وعند الآخرين في بلوغ ذلك وتحقيقه في يوم من الأيام .

ثم لا شك ان إشعاع الشمال أو الجنوب أو هما معاً بقبس حضاري كان لا يحمل لذلك الشمال أو هذا الجنوب فضلاً أو سبقاً ، فالمرابطون قدموا من الجنوب وكذلك السعديون والعلويون ، وكان لا يمضي وقت حتى يعود هؤلاء أنفسهم فيستقرون في مواطنهم هم مع ما اكتسبوا وخبروا .

فليس من العدل أن يصار إلى عزل تطور جهة من الغرب الإفريقي عن

الجهة الأخرى ، ولا أخالني كثير التعلق بإظهار ما أعطاه المغاربة الشماليون دون أن أبرز ما أخذوه من الجنوب . ولقد وضعت نصب عيني أن الاعتبارات السياسية أو الوطنية وحتى العرقية مرفوضة كل الرفض في نطاق عمل يستهدف خدمة الحقيقة فقط .

وليس من العدل أيضاً ما يُعمد إليه من تجاهل بعض العناصر الدافعة أو المؤثرة بأي قدر كان وعلى أي سوية ، رعياً لظروف خصوصية أو لتعمد التشكيك في قدرات بعض الشعوب أو مقوماتها الأساسية أو استقلاليتها أو استعدادها للعطاء الحضاري .

وعندما اجتازت مجموعات من المقاتلين الفيافي من المغرب بقيادة أبي بكر بن عمر المرابطي وقوضت امبراطورية غانا فإنها أغنت ذلك الغرب الإفريقي ، كما فعلت مالي عندما أنهت حكم المرابطين ودفعت بعجلة التقدم الحضاري والفكري خطوات إلى الأمام لا في غانا فحسب بل فوق مناطق أوسع شرقاً وغرباً .

وما دام أمر هذا التواصل والتجديد كان ينطلق أول ما ينطلق من حلول مجموعة من المحاربين أرضاً ليست أرضهم بعد انتصار في موقعة أو مواقع ، فإن وصول أحد القواد المغاربة إلى السونغاي على جيش صغير وانتصاره على ألاسكيا بفضل ما حمله من أسلحة نارية وسار عليه من نظام وخطط حديثة ومعرفة دقيقة بالخصم ؛ إن ذلك الوصول يعد قبل كل اعتبار حلقة جديدة في علائق لم تقطع في أي وقت سابق ، غير انها بدت وبعد وقت قصير جداً في حلة متألقة ويكاد يطبعها الانصهار الكامل .

والذي نخرج به ، بعد أن أدار أولئك المغاربة ظهورهم إلى بلادهم الأصلية ، هو أنه لم يكن هناك قصور حضاري قابله رشد حضاري ، كما أن أمراً أعلن عن نفسه وبسرعة وتمثل في اختفاء الوصاية الحضارية ، حيث سار السكان المتعايشون ، مغاربة وسودانيون ، في عملية الأخذ والعطاء ، كانت فائدتها تمتد في الزمان وعلى الأرض .

إن هذا نابع من الاستعداد الفطري للتقبل ، الناتج أصلاً عن عمق الوشائج القديمة التي لم يخطر على بال من أقامها وجود ما سمي فيما بعد بالحاجز الصحراوي .

وإن البعض من المؤرخين لا يطمئنون إلى الفكرة القائلة بأن الحكم المغربي للسودان الغربي الذي امتد ثلاثة قرون كاملة أوجد بالفعل حضارة مغربية زنجية متميزة شاء لها قدرها أن تلعب دوراً مميزاً ومهماً في تطور زهاء سبع مساحة افريقيا وعشر سكانها .

والكثير من المؤرخين يقطعون بأن الشيء البارز الذي افتقدته افريقيا الغربية في ظل الحكم المغربي هو الاستقرار ، ولعلنا سنخرج بعد البحث إلى تقرير العكس والبرهنة على أن الشيء الأهم الذي حققته تلك المنطقة هو ذلك الاستقرار نفسه .

واعترف عندما كنت أطوي المرحلة تلو الأخرى في البحث والتنقيب انني لم أستبعد وازعاً وطنياً أخشى بأن أتهم بأنه هو الذي حركني أصلاً في عملي هذا .

ولقد تمثلت أمامي وباستمرار وإلحاح هذه البضعة القليلة من المغاربة التي بعد أن انجزت مهماتها السياسية ، اختارت أن تقطع صلاتها بوطنها وأن تغامر في مجاهل افريقيا ومتاهات شعوبها معززة الدعوة للإسلام ولو على نطاق محدود ومساهمة بالقدر الذي لا ينكر في تكييف الوضع الحضاري في وطنها الجديد .

وبقطع النظر عن مائة وثمانين حاكماً سموا بالباشوات والكواهي ينتسبون كلهم تقريباً لعائلات مغربية معروفة في مراكش ودرعة وفاس وسلا ، حكموا باسم سلاطين المغرب أو باسم الجيش المغربي مع الاستمرار في الدعاء للسلطان في المساجد ، وقد انكسر آخرهم (الكاهية محمد الرامي) أمام الجيش الفرنسي وقدم مفتاح تمبوكتو عام ١٨٩٤ ، بقطع النظر عن ذلك فإن مئات الصناع والعلماء والتجار والدعاة قد صحبوا الطلائع المغربية الأولى أو لحقوا بها تباعاً . وقد ساهم

أولئك لا في التعريف بل وفي نشر الأسلوب الأندلسي المغربي في مختلف المناحي ، وأثّروا بعمق ملموس في تبديل أغلب الأسس التي قامت عليها من قبل حضارات غانا ومالي والسونغاي .

وقد لاحظنا في أغلب الكتابات الأجنبية إصراراً لا مبرر له على أن فترة الإدارة المغربية بالسودان الغربي أضفت على تاريخه من الضعف السياسي والتفكك القبلي والانهيار الاقتصادي ما لم تعرف له هذه الجهة مثيلاً من قبل . وهذه فكرة تنطبق على بعض الفترات اللاحقة للفترة المعنية بالبحث وقد تصدى مؤ رخو السودان لتبرير ظواهرها على نحو ينفي عن المغاربة أكبر المسؤوليات فيها .

فمن أكبر الخطأ أن نعتبر كما اعتبر المؤ رخون الأجانب ان السبب في الثورات المتلاحقة والشغب وقطع الطرق كان لمجرد وجود (ذوي السحنات البيضاء)[1] على كرسي الحكم بالسودان ، فلم يحدث قط أن وقعت ثورة شاملة بدافع عرقي أو وطني ، والذي وقع بالفعل ، بعد انصرام نصف قرن على وصول الباشا جؤذر ، هو التنازع على السلطة بين قادة ثلاثة جيوش مغربية هي جيوش فاس ومراكش وشراكة ، ولم يستطع أحد منها أن يتقبل مبدأ الطاعة للآخر بعد أن انكفأت يد سلاطين المغرب عن بلاد السودان ولم يعودوا يرسلون مدداً ولا أقواتاً ، فانتهزت بعض القبائل الفرصة للانقضاض والثورة وإن الثمن الذي يدفع عادة في مثل هذه الحالة هو إنحسار السلطان وانعدام الهيبة العامة .

ولا توجد في المحفوظات الخاصة بالقصر الملكي بالرباط إلا إشارات عابرة عن تعليمات وجهت إلى حكام السودان اتخذت شكل النصيحة ، غير إنني عثرت

---

(١) ولقد كانت الصراعات العنصرية مندلعة في الغرب الإفريقي قبل مجيء المغاربة ، فكان سكان تنبوكتو يحتقرون السونغاي (بوفيل مصدر سابق ص ١٣٣) وكانت الحروب القبلية بسبب النسب أو الانتماء الطبقي لا تهدأ (المصدر السابق ص ٢١٥) وقد قطعت يد عبد كان يحج مع الأسكيا الحاج محمد لأنه صافحه بها (كعتو مصدر سابق ص ١١١) .

في تنبوكتو بإحدى الخزائن الخاصة على سبع رسائل مختومة بطابع السلطان مولاي عبد الرحمان ترجع لعام ١٨٤٩ - ١٨٦٠ موجهة لعامله على الصحراء والسودان وهذه الرسائل التي يجهلها المؤ رخون كما يجهلون وجود عامل على تلك النواحي السودانية إلى منتصف القرن التاسع عشر موجود في خزانتي الخاصة الآن .

ولم ينتبه باشوات تنبوكتو الذين كانوا ينتسبون بالتناوب إلى واحد من الفرق المذكورة إلى ما تجره التفرقة على البلاد ، إلا عندما وصل الجنرال ارشنار إلى سيغو عاصمة البطل الشيخ احمادو . فيومئذ فقط ، وبعد ثلاثة قرون من الانقطاع ، وصل مبعوث باشا تنبوكتو إلى فاس في نهاية القرن التاسع عشر يطلب من المولى الحسن الأول إرسال جيوشه لانقاذ جزء من مملكته الشريفة .

ولقد عثرت على كناش التقاييد المخزنية العائدة لذلك الوقت ووجدت تلك الرسائل وأجوبة السلطان التي يخبر فيها أصحاب الحل والعقد بتنبوكتو بأنه يفاوض الفرنسيين ليرفعوا أيديهم عن رعاياه .

وعنصر آخر يفسر به مؤ رخو السودان من أمثال المجهول والسعدي وكعتو مسببات الفوضى والتدهور ، ويتمثل في أن تنبوكتو باتت تحت رحمة فرسان التوارك الذين لم يقصروا في شن الغارات وقطع الطرق ومصادرة أحمال التجارة وخاصة منهم قبيلة (مغشرن) التي قامت قبل قرون بتأسيس المدينة لغرض أن تكون عاصمة للبرابرة ، وبعد أن أصبحت تحت رحمة مالي ثم السونغاي إجتهدت في التضييق عليها دون طائل ، وواتت الفرصة حينما أضحى الحكام المغاربة على حالة من التفرقة والضعف تسمح للتوارك باستعادة مدينتهم المغلوبة ، وحروب التوارك مع حكام تنبوكتو من الأمور التي نقرأها في كل كتب التاريخ مفصلة ومثيرة ، وهي أبرز ما يطالعنا فيها قتامة وسلبية .

ومما نسجله هنا للجماعات المغربية التي استقرت بالسودان وتعايشت مع فئاته السياسية وقبائله وشعوبه انها لم تستأثر بالحكم استئثاراً ولم تذهب إلى الغلو والشطط في القبض على مقاليد الأمور ، بل خضعت لمقاييس قانونية وشرعية

وأخلاقية لفتت أنظار جميع من أرخوا لايالتها . فلم يقع قط أن حاول الباشوات محو سلطة ملك السونغاي أو التقليل من سلطانه على شعوبه ، بل كان الملك الزنجي محل رعاية واحترام من الجيش المغربي . واستمرار الأساكي في التربع على عرشهم لا تفسير له إلا صدوف الحكام المغاربة عن محاولة محو الشخصية التقليدية للحكام الأفارقة ، تلك التي احتفظت بكامل مظاهرها ومقوماتها وبنفوذ الكلمة في هذا المحيط الافريقي الزاخر بالأجناس البشرية واللغات والديانات . فالحكم المغربي لم يقم على التعصب الدموي أو اللغوي بل اعتبر نفسه حكماً افريقياً خالصاً بل ونستطيع أن نذهب إلى القول بأنه كان يستمد أسس نفوذه من المقومات المحلية البشرية والاقتصادية والدينية بعد انصرام أقل من ربع قرن على ميلاد الإدارة المغربية فوق نهر النيجر .

وشيء آخر لا بد من تقريره أيضاً وهو ان التجارة التي أخذت طريقها شكل محورين متصالبين مروراً بمدن دييني وتنبوكتو وأروان وغاو ، حظيت بما لم يحظ به شيء آخر من العناية والحماية ، وأغلب الغزوات والتحركات العسكرية التي عرفتها المنطقة على امتداد فترة الحكم المغربي استهدفت تأمين الطريقين التجاريين المحوريين اللذين حققا لتنبوكتو ودييني أوسع ازدهار اقتصادي حتى في أحلك الظروف السياسية .

وفي مدة وجيزة كانت الحاميات التي كانت تضم مئات الجنود مع كامل عتادهم الناري تستقر في عشرات الحصون المتناثرة على نهر النيجر وعلى الطريق الصحراوي الواصل بين المراكز الكبرى للتجارة .

وقد رأينا من واجبنا أن ننفي تهمة لا شك ان الكثير من المؤرخين حاولوا إلصاقها بالخطة المغربية التي وضعت أساساً لغزو السودان : وتقوم التهمة على أن السلطان السعدي وضع نصب عينيه فقط ذهب السودان وعبيده عندما أجمع أمره للقيام بواحدة من المغامرات الكبرى المعروفة في التاريخ البشري ، فأحمال الذهب ومجموعات الرقيق التي اجتازت الصحراء برسم خزينة الدولة أواخر القرن

السادس عشر هي الوحيدة التي نعرف أنها وصلت لمراكش . ولكن ذهب افريقيا ظل في تدفقه على الأسواق لاعلى خزائن الأسكيا أو السلطان ، ولم يحدث ولا مرة أن تجاوز الصحراء إلا إذا كان الأمر يخص تجارة أو مقايضة .

وليست الغاية من هذا القول هو التقليل من أهمية ما أفاء الذهب السوداني من غنى ورفاهية على المغرب ، فقد تمكن المنصور بعد استيلائه على « معدن الذهب من التوسع في الانفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقراً »[1] وأرسل السفير الانجليزي لورانس مادوك تقريراً إلى حكومته في سبتمبر ١٥٩٤ أكد فيه « ان السلطان أصبح أغنى حاكم في الكون »[2]، « وان الرفاهية الاقتصادية التي أصبحت عليها دولة المنصور بعد فتح السودان ، كانت نتيجة الموارد الضخمة التي أصبحت خزائن المولى أحمد تتلقاها بين الفينة والأخرى من مناطق الأمبراطورية وبلاد السودان بوجه خاص ، ولكثرة الغنى ولشيوع الذهب أصبح المنصور (الأمبراطور الذهبي) فانفتحت أمامه آفاق واسعة وظهرت مشروعات ضخمة كان من أهمها الاعتناء بالأسطول وتقويته » .

« ففتح السودان ونشر النفوذ المغربي في بلاد الحاووصا وبورنو حتى شرق تشاد قد وضع طريق القوافل الواصلة بين السودان والمغرب من جهة وبين افريقيا الشرقية ومصر من جهة أخرى تحت رحمة المنصور ومراقبته . . وعلى امتداد هذه الطريق التجارية الهامة أصبحت التجارة أساسية لضعف الطريق البحرية المتوسطة بسبب انتشار القرصنة[3]

وكنت أريد أن أساير رأي بعض المؤ رخين السودانيين الذين وجدوا للحملة السعدية ، ثم للحكم الباشوي فيما بعد ، هدفاً يختلف كل الاختلاف عما سبق ،

---

(١) مناهل الصفا / الفشتالي ص ١٩٧

(٢) Henry de Castries «les sources inedites de l'histoire du Maroc Anolaterre. T. 2 P86.

(٣) عبد الكريم كريم ـ المغرب في عهد الدولة السعدية ـ جامعة محمد الخامس / الرباط ١٩٧٧ ص ١٧٦ .

ألا وهو السعي في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية (الموسى) التي كانت تقيم على الضفة اليمنى لنهر النيجر وفي بطاح مسينا وفي شمال بنين .

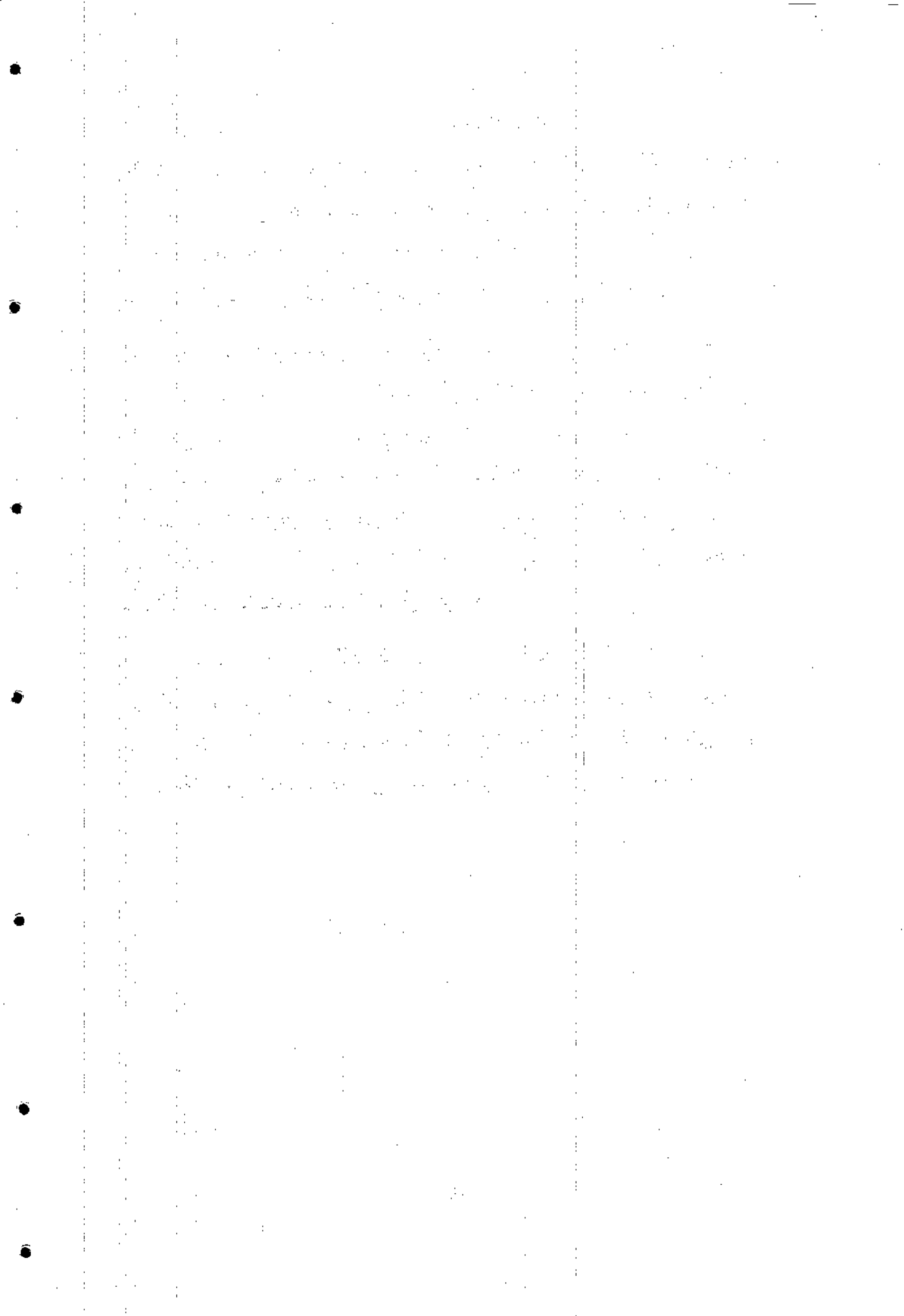
إن ذلك العمل أنجز على نطاق ملموس ، غير انه كان للعلماء والقضاة نفوذ معنوي على الحكم المغربي في السودان لا يضاهيه أي نفوذ محلي قوة واستحكاما ، فكان الباشا الذي يستمد نفوذه الديني من هذه الفئات ذات النفوذ ، لا يبرم شأنا أو يتحرك لعمل الا باشارة منها أو نصيحة . وسنرى قواعد الجيش المغربي - في الوقت الذي كانوا مرتبطين بأوامر سلطانهم - يقصدون بيوت القضاة ويجلسون دونهم ، ويستفتونهم في الصغيرة والكبيرة ، وسنرى القاضي أيضا يزاول في مدينته سلطاته الشرعية التامة دون أن ينازعه أحد تلك السلطة أو يحاول التنقيص منها حتى بعد نكبة علماء تنبوكتو وتغريبهم الى المغرب .

أما الناحية الحضارية فقد عمدنا الى ايلائها الاهتمام الكبير تقديرا لما عمقته من وشائج التشابك الحضاري ، وكرسته من أغناء لا نظير له في تاريخ افريقيا ، ولما حققته من خطوات انتقلت بغرب القارة الى مرحلة جديدة متميزة عن الحضارة القديمة أعمق تمييز ؛ فلقد انتشرت اللغة العربية كتابة وقراءة ، وأصبح اللسان المغربي الدارج - مع بعض التعابير الاسبانية أو الزنجية أو البربرية - شائعا في التخاطب ، ودخلت تقاليد الحكم والادارة المجتمع الافريقي الغربي ، وتجددت أساليب البناء والزراعة أو تغيرت ، وبدت الصناعة - وهي كانت حرفية صرفة وكأنها تقليد لما نراه الى اليوم في أسواق مراكش وسلا وتطوان ، واتخذ الرجال والنساء ألبسة تختلف عما اعتاده أجدادهم ، وغدت تقاليد الأسرة وارتباطاتها مشابهة لمثيلاتها في المغرب ، وازدهرت الآداب والفنون ، حيث تبارى الشعراء في نظم القصائد والكتاب في تدبيج الرسائل ، وتغير الايقاع بما أدخل عليه من آلات وأزجال ، وأحدث لأول مرة نظام هو أقرب الى الخدمات أو الأشغال العامة ، واتجهت همم القضاة والأمناء للمساجد والتكايا بالانشاء والتوسيع والاثارة والصرف على الموظفين والحزابين .

أما البيوت فقد أخذت منذ البـداية شكلهـا المغربـي الزنجـي ، وأصبـح الاعتناء بمظهرها يتزايد مع تكدس الثروات في خزائن التجار والحكام ، والفرش غدا مغربيا حتى في أوغل المناطق بعدا عن العواصـم الثلاث ، والتغيير نفسه أدخل على الطعام من حيث أنواعه أو اعداده وطرق تقديمـه ، ولعـب الشـاي دوره في المجتمع الافريقي على النحو الذي لعبه ويلعبه الى اليوم في المغرب .

وشهدت الزراعة تطورا نحو الأحسن في ذلك الوسط الذي لم تتح له من قبل فرص حقيقية للتجديد ، وليست المزروعات الجديدة ، كالقمـح واللـوبياء والحمص التي عرفت لأول مرة في سهول النيجر ، وليست البذار والمشاتل التي جربت ولم تعط نتيجة مهمة أو غض المزارعون الطرف عنها لسبب من الأسباب كقصب السكر والبطيخ وبعض الخضار ، ليس ذلك وحده هو الذي يظهر عليه تطور المنطقة زراعيا ولكن يضاف اليه ادخال اسلوب جديد متقن يخص التحكم في مياه النهر واستخدامها وقت الشح في ري الحقول .

وحيث سنجد كل ذلك مفصلا ومثبتا في مكانه ، فاننا نود أن نؤكد حقيقة على اكبر قسط من الأهمية وهي أن الآثار التي تركها المغاربة في هذه الجهات من افريقيا كانت هامة ورائدة ، فيجب أن تصاغ تسمية جديدة للمهمة التي انجزها بضعة آلاف من الرماة اتجهوا الى السودان بسبب نزاع على منجم للملح .



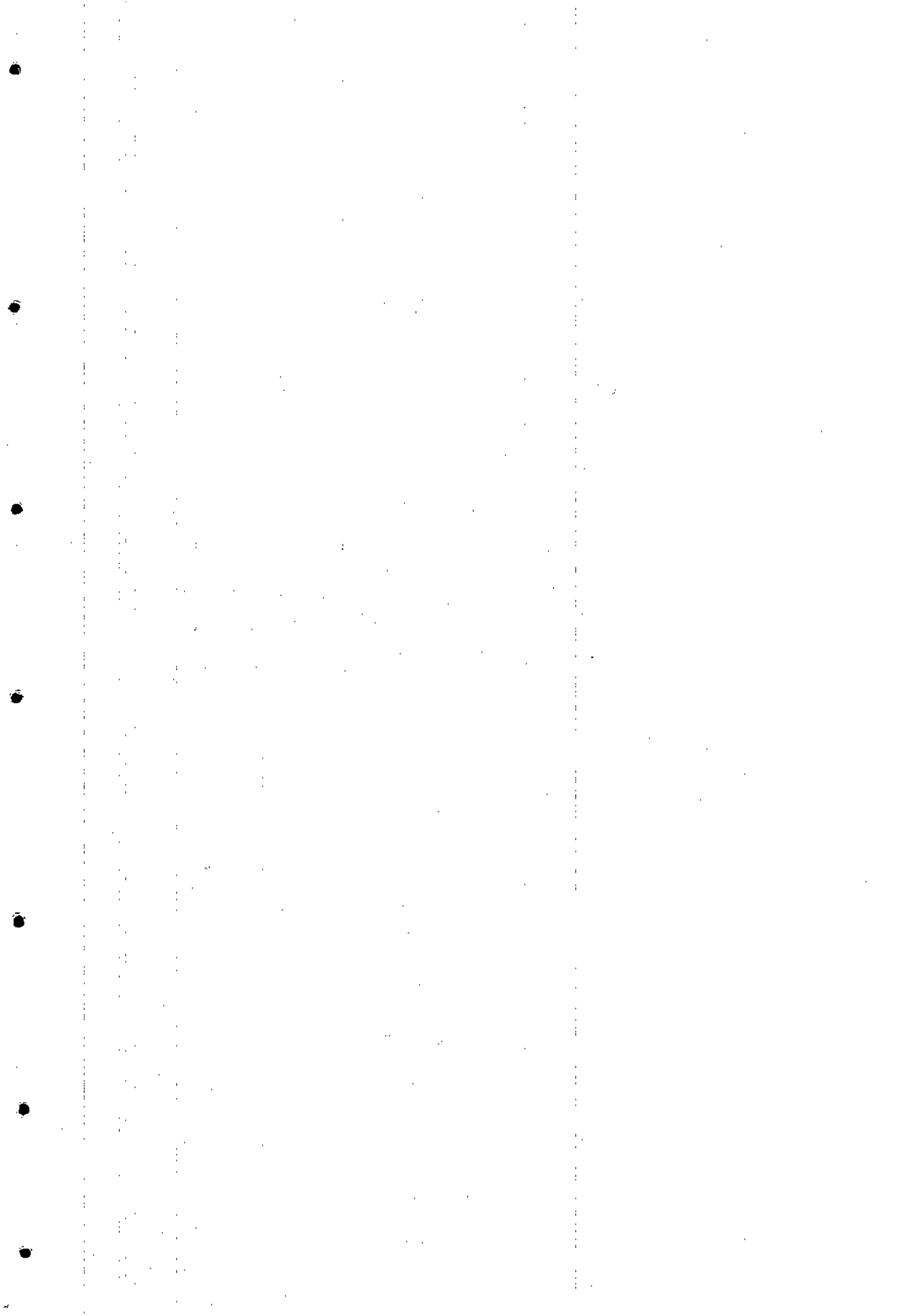
البــاب الأول

١ ـ السودان والمغرب قبل منتصف القرن السادس عشر

١) العلاقات المغربية السودانية قبل منتصف القرن السادس عشر .
- امبراطورية غانا/ غانا والمرابطون
- الموحدون والسودان
- مملكة السونغاي

٢) الاحوال العامة في افريقيا الغربية عند نهاية القرن السادس عشر .
- نهاية السونغاي
- الملوك الستة
- امبراطورية بورنو ـ كانم
- ممالك بلاد الحاووصا
- سلطنة مسينا

٣) أحوال المغرب في نهاية القرن السادس عشر .



الباب الأول

الفصل الأول

السودان والمغرب قبل منتصف القرن السادس عشر

١ ـ العلاقات المغربية السودانية قبل القرن السادس عشر(١)

يقدم لنا التاريخ ، كما تقدم لنا الكشوفات التي ما تزال تغذي معلوماتنا عن العلاقات الافريقية القديمة ، بعض الاضواء عن الصلات التي انتظمت بين الشمال الافريقي والسودان الغربي عبر ما نسميه اليوم بالصحراء الكبرى .

ولقد كان من المسلمات العلمية قبل منتصف القرن الحالي ، ان اجداد سكان افريقيا القدماء أتوا من آسيا ، وبصفة خاصة ، من جاوة والصين وغرب الهند ، وبعد ان اجتازوا مضيق باب المندب نحو القرن الافريقي ووادي النيل ، انتشروا في كل انحاء القارة ، ولكن تبين فيما بعد ان الجماجم التي عثر عليها في شرق افريقيا وحوض النيجر وفي المغرب تعود الى أجناس أقدم من انسان جاوة ، الأمر الذي قد يقلب كل المفاهيم القديمة حول المواطن الأولى للانسان في افريقيا والعالم القديم(٢) .

---

(١) نعني بالسودان افريقيا الغربية السوداء الواقعة وراء الصحراء الكبرى وشمال المنطقة شبه الاستوائية ، أي المناطق التي كان للمغرب علاقات بها على مر التاريخ .

(٢) C Arambourg «L'hominion fosile d'Oldway, sa decouverte et sa signification » Bull stepŕhit ..f.r. L vll, 1960. fase 3-4. pp 223 - 228.

وإذا أمكن تعميق هذه الدراسات ، والوصول الى كشوف أخرى ، فسوف نجد أنفسنا في المستقبل أمام حقائق جديدة من شأنها أن تلقي الأضواء على هجرة الانسان من الجنوب الى الشمال أي من افريقيا السوداء نحو المغرب ، في حين أن ما توفرت عليه المعارف البشرية الى وقت قريب كان يحصر تلك الحركة الانسانية في المحور المعاكس فقط أي من المغرب نحو السودان .

ولم يكن في تلك العهود السحيقة ذلك الحاجز الصحراوي قائما بين الافريقيتين ، بل على العكس كانت الصحراء على جانب من الخصب يعيش فيها أقوام يمتهنون الصيد والرعي ، ويركبون الخيول ، ويقطفون فواكه الاشجار الوارفة . واحتفظت الكهوف برسوم ملونة تعود الى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، تعاصر تلك التي اكتشفت في جبال الأطلس الكبير في جنوب المغرب . ولم تفقد الصحراء خصوبتها الا في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، فلم تعد شعوب افريقيا شمالا وجنوبا تتواصل ويؤثر بعضها في البعض الآخر ، وأثر ذلك على التقدم البشري في القارة كلها[1] .

وكما انصبت الدراسات الحديثة على الأصول البشرية في افريقيا ، وعن التأثير المتبادل بين الشمال والغرب الافريقيين ، فقد انصبت أيضا على الجانب الحضاري لتلك العلاقات وخاصة في ميدانين هامين ، هما اللغة واستخدام المعادن .

إن دراسة اللغات الافريقية ، لم تتوفق لحد الآن الى العثور على اللغة الأم ، وهي في اعتمادها الأساسي على دراسة الكلمات ، وتكوين الجمل ، والاشارات التوضيحية لا تزال بعيدة عن اليقين والقطع في حسم ذلك الموضوع ، ورغم الجهود التي بذلها الباحثون الأوروبيون والأفارقة في الفترة الأخيرة لمحاولة الربط بين بعض اللغات الافريقية ، ولغات وادي النيل للعثور على أصل مصري للثقافة

---

(١) بازيل دافيدسون ـ افريقيا تحت أضواء جديدة ـ ترجمة جمال محمد احمد/ بيروت . ١٩٦٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ .

الافريقية ، فانه لا يوجد شيء يمكن الركون اليه في هذا السبيل[1] .

ولقد أيد الباحث الافريقي الشيخ عنتو ديوب ما ذهبت اليه الآنسة همبرجي ، ولكنه لم يلبث أن اعترف بقوة التأثير المغربي بحكم القرب الجغرافي ، والعلاقات البشرية الواضحة بين السودان وشمال افريقيا ، وربما استعصى على الشيخ ديوب أن يخفي الوازع القومي لديه عندما ذهب الى الافتراض بأن السكان القدماء في مصر والمغرب والصحراء كانوا زنوجا يشتركون مع سكان غرب افريقيا في ثقافة ذات محتد واحد هو المحتد الزنجي[2] .

وتجنح العالمة همبرجي الى الاعتماد كلية على المورفولوجيا في كتابها : « اللغة والتخاطب » ، فتقلل من أهمية التأثير المصري على تطور اللغات الافريقية الغربية ، بحكم التباعد المكاني ، وتؤكد التطور المستقل للغات الزنجية جنوب الصحراء رغم أنها ترجع اللغة المصرية واللغات الافريقية الى أصل واحد هو الدراوية الهندية القديمة[3] .

والخلاصة أن كل الأبحاث المنصبة على الجانب اللغوي لا تزال في بدايتها ، وبعضها لا يبتعد كثيرا عن الاجتهاد وعن المحاولة في الربط بين العرق والثقافة ، ويقر جميع المتصدين لهذه الأبحاث بالصعوبات الجمة التي صادفوها في الدراسات المقارنة للغات الافريقية .

وفيما يخص استخدام الأقوام السوداء للمعادن ، أو انتقالها من العصور الحجرية ، فالتشابه بين غرب افريقيا وشمالها في ذلك بينّ واضح مما يدل على ان العلاقات بين الجهتين كانت قديمة وثابتة الى حد بعيد ، فقد عرفت الصحراء معدن النحاس من ١٣٠٠ قبل الميلاد الى عام ٦٠٠ ق . م ، وهو وقت أحدث قليلا من

---

(١) L. Hombourger « les langues negre - africaines». Paris. Payot 1941. pp 28 - 37.

(٢) Cheikh Anta Diop. Nations negres et culture. Paris E. africaines 1955.

(٣) L. Hombourger « la langue et les languages» Paris. Payot 1953 p. 13 - 18.

استخدام النحاس في المغرب على يد القرطاجيين[1] الذين كانوا يحكمون السواحل المغربية آنذاك .

وقد أمكن التعرف على أدوات من البرونز في دولة البينان على ساحل خليج غينيا ، وعلى قطع من الحديد الأحمر استعملت في نيجيريا حوالي عام ٥٠٠ ق . م ، وكان كل من معدن الحديد والنحاس يقايض عليهما بالذهب أو ببعض دواب الركوب كالحصان والثور .

وبصفة عامة فان الشمال الافريقي لعب ولا شك دورا مهما في تعريف افريقيا الغربية بخواص هذه المعادن ، فأدى الحال الى تقدم حضاري أكيد كان ينتج عن الانتقال من حضارة معدنية الى أخرى[2] وقد كان هناك اتصال لا نعرف مداه تشير اليه الرسوم المنحوتة في صخور الأطلس والصحراء ، ففي كلتا الجهتين عثر المنقبون على صور للعربات والأبقار والحلي والحيوانات وأنواع الأسلحة والشياطين وأصناف المزروعات ، وكانت العربات تشق طريقها من البحر المتوسط الى السودان عبر نفس الطريق الذي سلكته القوافل في العصر التاريخي المعروف (٣) .

وقد سلكت العربات طريقين محوريين من الشمال الى الجنوب مستخدمة الخيول والأبقار : الطريق الأول كان ينطلق من سرتة الى غاو عبر الهكار وجبال ايفوراس ، والطريق الثاني من جنوب المغرب الى النيجر الأوسط عند بلدة كوندام الحالية ، ونجد شكا عند المؤرخين في ان هذا الطريق كان يتعدى نهر النيجر نحو المحيط الأطلسي[4] .

---

(١) R. Mauny: "Un age du cuivre au sahara occidentale Bull. I.F. A.N.,XIII No: 1.1951.PP 155 - 167.

(٢) Paul Huard « Contribution à l'etude du cheval, du fer et du Chameau au Sahara occidental » Bull. I.F.A.N, xxII. B. 1-2-1960. P 134. 178.

(٣) R. Maury «Une route prehistorigue a travers le Sahara Occidental Bull. I.F.A.N. 1947 PP. 341 - 357.

(٤) R. Mauny «Actes de congres gamafricain de prehistoire» IIe Session. Alger, 1952. Paris PP 74 - 746.

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه



محبنا الأرضى البركة الخير الطالب محمد التلمودي أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه وعلمنا ما أخبرت به من حال أقاليم السودان والصحراء وصار عندنا جميعه من ذلك على بال ومر ورقة ما وجهت لحضرتنا الشريفة من البكور السودا إذ كنت انتم تبعثونها لكم وعلمنا ما ذكرت في شأن نازلتكم مع آل الشير السباع وحضور الحق فيها وورود الوكيل بجميع الموجبات مسجلة بعدول مراكش وفصلها بالتوكيل والبيع والإقرار والإبراء فقد كتبنا أمرنا الفضلاء المذكورين بإمعان النظر في النازلة وحين يظهر لهم وجه الحق فيها يعلمونا به ومع أجزاء رد الكتابة بإعلامنا بما ظهر لهم فيها لنمضي ما حكموا به إن شاء الله والسلام في 6 من صفر عام 1277

رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بتاريخ صفر 1277 هـ (1860 م) يخبر فيها عامله بالصحراء والسودان باطلاعه على أحوال السودان، وبتسجيله نازلة حصلت في أقصى الصحراء عند عدول مدينة مراكش.

(الاصل بخزانة المؤلف)

رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بتاريخ جمادى الأولى 1277 (1860م) إلى عامله بالصحراء والسودان يخبره فيها بتسلمه هدية من السودان ويظهر فيها ارتياحه للخصب الذي عم المناطق السوداء

(الأصل في خزانة المؤلف)

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

محبنا الأرضى الفقيه السيد محمد بن عبد الرحمن التلمسوفي وفقنا الله وإياك
لما فيه رضاه وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد وصلنا
كتابك وعرفنا ما فيه واستوعبنا ما تضمنه من الخلاف الواقع بين
[illegible] والأولاد [illegible] وحصوله [illegible] وصار الذكر
منا على بال وعلمنا وصول [illegible] الشريف وما بلغه من
جواب السودان انه عدمت الأخبار بها وان [illegible] ببعض [illegible]
عندنا به محبتك ومسرتك بما سرنا [illegible] بالله وقد وصلنا
ما ذكرته بكتابك [illegible] أعانك الله [illegible] وشكر [illegible]
والسلام [illegible] شوال عام 1286

رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بتاريخ شوال 1286 هـ (1869م) في شان خلاف وقع بين افراد قبيلة موريطانية، وتاخر وصول رسول عامل الصحراء والسودان من السودان.

(الأصل في خزانة المؤلف)



القائد جؤذر باشا الذي قاد الحملة الأولى .

وحاول كثير من المؤرخين أن يرجعوا كل تلك العلاقات الى العهد القرطاجي بالمغرب (٨١٤ـ ١٤٦ ق م) ، والظاهر ان ما دفعهم الى ذلك هو سيطرة القرطاجيين على الملاحة في البحر المتوسط الغربي والمحيط الاطلسي معا ، وما من شك في أنهم وصلوا الى مصب نهر السنغال وتعاملوا من هناك مع سكان الداخل ، كما انه من غير المستبعد ان تكون الطريق البرية الغربية معروفة لديهم اذا ما اعتمدنا معلومات حنون بالنسبة للمناطق التي جرت فيها مبادلات العاج وريش النعام ومسحوق الذهب بالأدوات المصنوعة . ويلاحظ موني ان التجارة في تلك المواد كانت واسعة ولا يمكن تصور ان الفيلة أو النعام بالصحراء المغربية أو ذهب سوس يمكن أن تنهض بها وحدها ، ويذهب بعد ذلك الى الاعتقاد بأن التجارة كانت تقوم بالفعل بين المغرب القرطاجي وبين افريقيا الغربية [١] .

وإذا كانت الدراسات لم تستكمل حتى الآن بالنسبة للعلاقات المغربية الافريقية قبل العهد الروماني ، فان الأوصاف القيمة التي تركها المؤرخون الأقدمون تدل في الأقل على وجود صلات بين شمال وغرب افريقيا ، وبصفة خاصة في الناحية التجارية التي شملت المصنوعات والعبيد وريش النعام والذهب ، وهو أمر له خطر وشأن في ميدان الدفع الحضاري [٢]

ومما لا شك فيه اليوم أن الرومان ربطوا صلاتهم التجارية بافريقيا السوداء ، وقد عثر في مدينة تغازى ضمن طبقات ملحية عميقة على قطع نقدية معدنية ، وايقونات كان يستعملها الرومان في لعب القمار وقد ضربت كلها في بداية العهد الروماني بمدينة Nuzemberg [٣] . وفي جهات متعددة من شاطىء نهر

---

(١) R. mauny, ESSAI su l'histoire des metaux or Afrique occidentale Bull I.F.A.N, Ilv, No: 2 1925 P 545- 595.

(٢) R. Mauny «l, ouest africain chez ptolemee» lishoa, 1950, ti. pp 239- 294.

(٣) R. Mauny «Monnaies anciennes d'Afrique occidentale» Notes africaines No: 42. 1949 . P 60 - 61.

النيجر اكتشف المنقبون نقودا رومانية فضية ضربت في بلا الكول Gaule في أوقات متباعدة (٥٨ قبل الميلاد ٢ ق . م و١١ بعد الميلاد)(١) .

إن العهد الروماني هو العهد الذي ظهرت فيه الوشائج الافريقية ، ولا نقول العلاقات فقط ، بين المغرب والسودان على نحو يمكن تأكيد أهميته ونطاقه ، فلم يعد الأمر يقتصر على التجارة وحسب بل أصبح للحركات الديموغرافية أهميتها في خلق تواصل دموي أو تساكني امتد فيما بعد زمانيا ومكانيا ، وأما الوسيلة الجديدة والهامة في كل تلك الصلات فهي الجمل : سفينة الصحراء .

والمعتقد أنه لولا الجمل لما أمكن لقبائل صنهاجة الوفيرة العدد ان تتجه صوب الصحراء والى ما وراءها(٢) ، وقد دخل الجمل الى المغرب في عهد الأسرة الرومانية Siptimus Sevenus عند بداية القرن الثالث الميلادي ، وذلك بواسطة تجار جلبوه من بلاد الشام ، فأصبح أهم وسيلة في الترحل والتجارة بين المغرب وما يقع الى الجنوب منه(٣) .

وفيما بين القرنين الرابع والخامس للميلاد ، عندما كان المغرب تحت الحكم الروماني ثم الفندالي ، حدثت ثورات متلاحقة نتيجة لاضطهاد المحتلين وعسفهم وفرضهم أعمال السخرة على الأهالي(٤) ، واذا كان الرومان قد أبقوا على بعض مظاهر الشخصية الوطنية ، فان الفندال ارتكبوا اعمالا في منتهى الوحشية فصادروا الأراضي الخصبة التي عدوها ملكا شرعيا لهم ، وطاردوا سكان القرى والواحات الى المناطق الجرداء والجبال(٥) .

---

(١) Lientenent Ziegler ... «Trouvalle de deux monnaies romaines» libuca . Alger. Serie archeolgie. Epigraphie, T. II.2e semestre 1954. P476. 477

(٢) Henri Terrase «Histoire de **Maroc, Edit Atlantid** Casablanca T.I. 1949. P211.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله - تاريخ الحضارة المغربية - دار السلمى - الدار البيضاء ١٩٦٢ . ح . ١ ص ١٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٨٩ .

(٥) H. Terrasse «Histoire du Maroc» T. PII

لقد تولد عن ذلك كله هجرات منتظمة واسعة نحو الجنوب ونحو الصحراء وما وراءها ، وعرفت تلك الجهات موجات متلاحقة من مختلف القبائل البربرية قطنت الصحراء ووسط النيجر وشمال غانا .

وسوف نتناول هنا ثلاث مجموعات من اولئك المهاجرين لما كان لها من أثر على الوضع الديموغرافي والسياسي بالصحراء وافريقيا الغربية .

فالمجموعة الأولى ضمت أفخادا من صنهاجة وخاصة من قبائل لمطة ولمتونة والملثمين المنتسبين الى هوارة ، وقد قطنت الواحات الصحراوية شمال نهر النيجر ، وأصبح يطلق عليها اسم الطوارك[1] .

واتجهت المجموعة الثانية ، وهي من صنهاجة أيضا ، نحو الجنوب الغربي ، وأوغلت في السودان ، واستقرت في منطقة تتوفر فيها المياه والمراعي ثم أسست بها مدينة جعلت منها عاصمة لها في مدينة أودغوشت ، ولم تلبث هذه الظاهرة المدنية ان لفتت نظر الزعماء السود ، فعملوا على تأسيس حواضر زنجية ، ثم تاقت أنفسهم الى تأسيس دولة ذات مؤسسات سياسية وادارية ، واستمر هذا العمل ستة قرون ، حيث لم تتضح معالم مملكة غانا الا في أواسط القرن العاشر[2] .

وقد ظلت قبائل صنهاجة ، التي انطلقت في توسعها الى ضفاف نهر السنغال ، تتخذ من اودغوشت عاصمة لها ، واحتفظت باحترام الحكام الأفارقة وتوقيرهم لها ، وواظبت على دفع الجزية لقاء حماية غانا لتجارتها التي كانت تصل حتى نهر النيجر شرقا والمحيط الأطلسي غربا وحواضر المغرب شمالا[3] . ومما يدل على قوة صنهاجة أن المنطقة سميت ببلاد الزنوج أو بلاد الزناجة ، وان النهر الكبير

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله ـ تاريخ الحضارة المغربية ـ ج ١٠ ص ٢٥ .

(٢) Jean suret - canal «Afrique noire occidentale et centrale» Edit social paris 1961.p.148.

(٣) المصدر السابق

الغربي أطلق عليه اسم السنغال ، والاسمان معا مشتقان من صنهاجة[1] .

ويبدو ان رجال صنهاجة كانوا طيلة وجود دولة غانا هم عمدة الحكم ، والجيش ، والتجارة ، وهذا ما حدا بمؤرخ السودان عبد الرحمن السعدي الى القول بأن الأسرة الغانية كانت لا تباشر الحكم فعليا في جهات مملكتها بل وأكثر من ذلك فقد عد ذك المؤرخ غانا من الممالك البيضاء[2] .

أما المجموعة الثالثة التي أتت في أعقاب اكتساح الفندال للمغرب عند بداية القرن الخامس ، فهي صنهاجية مثل الأولين ، وقد اتجهت على طريق الواحات الوسطى ، باحثة عن مكان للاقامة الدائمة ، ووجدت في منطقة (كوكيا) الواقعة جنوب مدينة غاو ، التربة الخصبة ، والثروة السمكية ، والوسط التجاري المناسب فأقامت بها وعمرتها ، وكان رئيس هذه المجموعة يتخذ لقب (ذا) أو (زا) ، أما اسمه فكان (اليمن) أو (أيمن) وهو اسم حمل بعض المؤرخين السودانيين ومن أخذ عنهم على التصور بأنه وأتباعه قدموا من بلاد اليمن[3] .

امبراطورية غانا :

قامت امبراطورية غانا وتوسعت في خلال ستة قرون ، من القرن السادس وحتى العاشر ، وكانت ظاهرة سياسية وحضارية مركزية فريدة في افريقيا الغربية جنوب الصحراء ، حيث اعتمدت على العنصرين الأبيض والأسود ، وأخذت

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله ـ تاريخ الحضارة المغربية . ج١ ص ٢٢ .

(٢) عبد الرحمان بن عبد الله بن عامر السعدي ـ تاريخ السودان ـ تحقيق هوداس ـ مطبعة بردين انجي ـ باريس ١٨٩٨ . ص ٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤ « الملك الأول زا الأيمن قيل بانه خرج من اليمن هو واخوه سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر الى بلد كوكيا وهو قديم جدا في ساحل البحر (نهر النيجر) في بلاد سغى (سونغاي) وكان ذلك في زمن فرعون » .

Chomik der sultane von Bornu, Gesells chaft. xl, 1960 p 318

أتى احد ابناء سيف ذي يزن من بلاد اليمن واسمه ذو اليمن أو زا أيمن ، واستقر على ضفاف النيجر بين الوثنيين في مدينة كوكيا التي أصبحت عاصمة لتجارة الذهب والكورى » .

بالوسائل المادية التي دفعت بها نحو التطور والقوة ، ومن بين تلك الوسائل تحويل الحديد ، وفرض الضرائب على تجارة الذهب والملح والمواشي ، بالاضافة الى التوسط التجاري ، والاعتناء باستخراج الذهب وتسويقه .

ولقد كان الذهب يستخرج بكيفية رئيسية في غانا ويباع لبلدان البحر المتوسط ، وكان بغانا منجمان رئيسيان ، احدهما في بامبوك ، بين نهري السنغال وفالبي ، وفي بوري القريبة من مدينة سيغري ، وأهم ما كان يدفع مقابل مسحوق الذهب الملح المستخرج من ممالح الصحراء وبعض المصنوعات المجلوبة من المغرب ، وظلت سيطرة برابرة صنهاجة على طريق الذهب في عهد غانا مستمرة لقرون عديدة[1] .

وقد استفادت قبائل السراكولي ، التي كانت لها العصبية في دولة غانا ، والقبائل الأخرى المنضوية تحت حكم تلك الدولة مثل الماندينع والبامبارا ، من خبرة برابرة صنهاجة في صهر الحديد وطرقه وتحويله الى أدوات مختلفة استخدمت في الحرب ومجابهة الطبيعة واخضاعها وفي اقرار الأمن .

وأعانت الأهمية التي ظلت قبائل صنهاجة تحتفظ بها في دولة غانا ، على توسع تلك القبائل نحو الشرق والشمال الشرقي ، ويبدو ان تلك الوضعية المريحة للبرابرة قد ساعدت على اندفاع عدد من القبائل المغربية الأخرى نحو الصحراء والسودان الأمر الذي أدى قبل وصول الفاتحين المسلمين الى هذه الجهات في القرن السابع الى دفع القبائل السوداء نحو الجنوب بشكل متواصل ، والى قيام جنس مختلط بربري ـ سوداني[2] .

ولعل هذا العنصر هو الذي جعل القادة المسلمين يضعون مناطق السودان البربرية نصب أعينهم ، فقد فتح عقبة ابن عامر بن عبد القيس باسم عمرو بن

---

(١) J. S. canal. afrique noire. P. 151

(٢) R. Capot- Roy «le sahara francais. Paris P.V.F 1953 p 169 - 179

العاص مدينة غدامس التي كانت بوابة النيجر الشرقية سنة ٦٦٢ م ، وفي السنة الموالية افتتح وادان وكورا في السودان وأثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوح[١] ، ويذكر ابن عذارى المراكشي ان عقبة انحدر في حملته الثانية الى السودان من بلاد المغرب ، ووصل الى غانا عن طريق وادان وبنى مساجد فيها[٢] .

فاعتماد على مقارنة بين المصادر يتبين أن عقبة قام بحملتين الى السودان احداهما من تونس والثانية من المغرب ، ولا نعثر في أي مصدر على أخبار قتال أو حصار في الحملتين معا ، مما يدل على استجابة الأفارقة السود لدعوة الدين الجديد وهو نفس الأمر الذي كان يحدث تقريبا في بلاد المغرب[٣] .

ونحن نرجح أن وجود قبائل بربرية وفيرة ومتنفذة في الصحراء والسودان ، بالاضافة الى خصائص الدين الجديد وروحه التحررية ، خلقا جوا مناسبا لوصول الفاتح العربي الى بعض أهدافه الروحية ، والثابت ان حملة عقبة هدت أغلب قبائل البربر وبعض قبائل غانا الى الدين الجديد بالقدر الذي فتحت أعين حكام شمال افريقيا على امكانيات السودان .

ونحن لا نوافق بعض المؤرخين الذين يذهبون الى حد القول بأن الفكرة الاسلامية كانت هي العامل القوي في بناء امبراطورية غانا أو بناء الامبراطورية المغربية بالسودان[٤] ، لأن ارتكاز غانا على العنصر الديني كان ضعيفا جدا بدليل تصديها للمرابطين الذين أرادوا حمل الزنوج بالقوة على اعتناق الاسلام ، وهو أمر حدث بعد أربعة قرون من وصول عقبة الى هذه الجهات ، على ان هذا لا ينفي

---

(١) عبد الرحمان بن خلدون ـ كتاب العبر . . . دار الكتاب اللبناني ، المجلد ٣ ص ٢١ .
(٢) احمد بن عذارى المراكشي ـ البيان المعرب في اختصار اخبار ملوك الأندلس والمغرب ـ تحقيق كولان وبروفينصال ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ح ١ ص ٢٧ وانظر أيضا: De la Chappelle - Hesperis No 11. 1930
(٣) عبد العزيز بن عبد الله ـ تاريخ الحضارة المغربية ـ ح ١ ص ٥٨
(٤) المصدر السابق ص ٤١ .

أبدا ان الفكرة الاسلامية قد انتشرت تباعا ولكن على نطاق محدود قبل المرابطين .

وفي عام ٧٣٤ وصلت حملة عربية من المغرب ، استولت على احمال من الذهب استخرجت من السودان وسوس ، وأعقبتها حملة ثالثة لا نعرف لها تاريخا انحدرت من تافيلالت الى نهر النيجر ، واستبدل التجار المرافقون لها ما كان معهم من البضائع بمسحوق الذهب ، وقد نقل Canale عن المسعودي بأن سكان نهر النيجر الذين قايضهم أولئك التجار كانوا عراة تماما[١] .

ويظهر ان الحملات التي تلت مجيء عقبة لم تكن تهتم بالموضوع الديني ، مما تسبب في ردة فعل عكسية لدى الغانيين وصنهاجة لا نعرف مداها ، وأغلب الظن أن ذلك كان من الأسباب التي نبهت زعماء غانا الى ضرورة قيام حكم قوي فيهم للوقوف في وجه الأخطار التي باتت تطل من الشمال ، ولأحكام المراقبة على طريق القوافل .

وفي هذا الوقت ، وفيما كان صراع التصفية النهائية يجري في غانا لاقرار النظام المركزي القوي ، قدم من الشرق أشراف ينتسبون لنفس الأسرة الادريسية التي حكمت المغرب منذ عام ٧٨٨ ، وأقامت لها دولتين اخريين في الأندلس (بنى حمود) وفي اليمامة (بنى الأخيضر) ، ولم يفكر أولئك الأشراف في أمر دعوة أو اصلاح فقط بل سعوا اكثر من ذلك في تأسيس مملكة بالسودان[٢] .

ويظهر ان صالحا الذي أتى من مكة قد لقي من الترحيب ببلاد غانا بالقدر الذي لقيه ادريس الأول في المغرب ، وقد استغل ذلك لاقامة ملك « ببلاد السودان

---

(١) Canale. Afrique noire p 147

(٢) ابن خلدون ـ مجلد ٤ / ص ٢٢١ ، كان موسى الحوف بن عبد الله بن حسن المثنى ثائرا على أبي جعفر المنصور ، وذاق هو وابناء عمومته أدارسة المغرب والأندلس واليمامة الأمرين في بلاد الحجاز ، وبعد موت موسى تولى ابنه اسماعيل اشعال الثورة في غرب الجزيرة العربية ، ونصب نفسه ملكا على مكة والحجاز واليمامة ، ثم تولى أخوه محمد الأخيضر ، وهو الذي بعث حفيده صالحا بن يوسف الى السودان لاقامة ملك بها ، وابن خلدون يجعل صالحا ابنا لموسى أو لعبد الله بن موسى تبعا للروايات التي اعتمدها في كتابة (انظر ابن خلدون مجلد ٤ ص ٢٤٥)

من المغرب الأقصى . . . وبقي عقب الأدارسة هناك معروفا . . . »[1]

ولا نعلم مدى تأثير هذا الوضع الجديد على سير عملية تأسيس غانا المركزية ، ولكننا نميل الى الاعتقاد بأن الأشراف حازوا على تأييد الغانيين وتحزبهم لهم بدليل أنهم نقلوا عاصمتهم من ضفة نهر النيجر الى كومبي صالح التي أسسها الأدارسة وجعلوا منها عاصمة سياسية لهم وهي في منطقة خصبة غرب نهر النيجر[2]

وتدل نتائج التنقيب الذي أجري في مكان كومبى صالح والذي استغرق ثلاثين سنة ، ان البلدة كانت شبيهة بالمدن الاسلامية الكبرى ، فقد أقيمت على مساحة بلغت ميلا مربعا وكانت تتسع لثلاثين ألف نسمة ، وأقدم بنيان فيها يعود الى ٩٠٠ سنة ، مما يدل على أن نواتها كانت موجودة قبل قدوم الشريف صالح ، وقد أحيطت المدينة من كل جوانبها بسور مرتفع ، وأنشئت وسطها قلعة ذات طابقين ، وعثر المنقبون بين الانقاض على أسلحة متخذة من الحديد ومسامير في غاية الدقة ، وموازين مختلفة الاحجام لوزن الذهب وصفائح نحاسية وحديدية مزخرفة بآيات قرآنية ، ورسوم دقيقة على الجدران ، ومقص ، ومطارق حديدية وخشبية وجرار مختلفة الاحجام وغير ذلك من الأدوات[3] .

وقد عمرت المدينة بعناصر مختلفة زنجية وبربرية ، مع أقلية عربية أخذت ولا شك مكانة مهمة في الميدان السياسي والعلمي والتجاري ، حيث كانت تسكن

---

(١) المصدر السابق ص ٢١١ .

(٢) Canale-Afriquenoire p 149 عقد كنال مقارنة بين وصف البكري للعاصمة الجديدة التي انتقل اليها الغانيون وبين العاصمة القديمة التي وصفها الادريسي ، وبينما كانت الأولى تقع على ضفتي نهر النيجر كانت الثانية داخل القارة على بعد ٣٣٠ كيلومترا شمال باماكوا الحالية .

(٣) R. Thomassey et R. Mauny «compagne de Fouilles a koumbi Saleh» Bull I.F.A.N, xlll, No: 2. 1951 p. 438 - 468

كان الموظف الفرنسي Bonnel de Miziere أول من لاحظ وجود الطبقة العليا من أنقاض كومبى صالح عام ١٩١٤ وبعد ربع قرن قام المنقبان P. Thomassey و R. Mauny بالشروع في الحفر وانتهيا من ذلك عام ١٩٥١ ، وتشتمل دراسة العالمين على معلومات مهمة عن المدينة التي تحولت الى عاصمة مملكة مترامية الاطراف .

بيوتا ذات باحات واسعة وغرف متقابلة فسيحة اشتملت حيطانها وأعمدتها على بعض النقوش والكتابات العربية .

ولم تكن كومبي صالح هي المدينة الكبيرة الوحيدة إلى جانب اودغوشت التي حافظت حتى ذلك الوقت على دورها السابق كمركز تجاري أول في غانا ، بل كانت هناك مدن أخرى دونها أهمية وكبرا وخاصة على الطريق التجاري الغربي أو بالقرب من منجمي الذهب ومن بينها مدينة هينيشين التي ضمت جالية عربية أيضاً هي بقايا الجنود، الذين سبق لخلفاء بني أمية في الأندلس أن وجهوهم للسودان فتخلفوا وتزوجوا سودانيات[1] .

وإذا حاولنا أن نجد عند أدارسة المغرب اهتماماً بالسودان وما كان يجري فيه بعد تقلد ابناء عمومتهم الزعامة السياسية فاننا لا نعثر إلاّ على اشارات متباعدة وغير مضبوطة عن اتجاه بعض الدعاة المتطوعين إلى تلك الجهات لنشر الاسلام والدعوة إلى عقيدته ، « فرسالة المغرب الأفريقية قد تبلورت آنذاك في اشعاع بلغ تخوم النيجر[2] ولعله كان من المثير تاريخياً لو أن احتكاكاً أو اتصالاً واسعاً وقع بين الدولتين الادريسيتين . . ولكن ذلك لم يحدث إلاّ على نطاق لا يمكن اعتباره ، ويبدو أن حسن النية ونبل المقاصد كان متوفراً للجهتين معاً ولكن لم يترجم إلى شيء ملموس بالنظر لبعد الشقة وانشغال كل من الطرفين بما يقع داخل حدوده ، وفي الوسع التصور بأن حسن النية ذاك قد ترجم إلى عمل مثمر وغير مباشر ، وتمثل في أعمار المدن التي كانت تمر بها القوافل نحو السودان والمغرب بل وبناء مدينة بكاملها لهذا الغرض هي مدينة تمدلت بسوس وتنصيب أحد الأمراء الأدارسة عاملاً عليها وازدهرت سجلماسة وكوليمين في ذلك الوقت .

وما كادت الدولة الادريسية في المغرب تفقد قوتها ، وتترك البلاد في يد حكام وثوار هنا وهناك حتى عاجلت قوات الزناتيين الذين استقلوا بجهات المغرب

---

(١) J.S. canale, Afrique noire P 151

(٢) عبد العزيز بن عبد الله ـ تاريخ الحضارة المغربية ج ١ / ص ٥٧

الجنوبية الشرقية وضموا سجلماسة ، بلاد السودان بضربات متلاحقة فيما بين ٩٣٢ و ٩٣٣ وكانوا يلقون العون من برابرة اودغوشت الذين أفلتت السلطة من ايديهم منذ مجيء الشرفاء الأدارسة إلى السودان .

وقد تمكن زعيم الزناتيين موسى بن أبي العافية من دفع جند غانا وقادته الأدارسة نحو الجنوب ، وأخذ من كومبي صالح المكوس على الذهب والنحاس والملح ، ولكن سلطانه لم يرسخ بهذه الجهات أو يمتد لفترة طويلة حيث أن الفاطميين نازلوا مراكز امارته وخاصة سجلماسة واجبروه على منازلتهم حيث تمت هزيمته وانقضاء دولته ، واضمحلال دعوته الأموية ، وانكفاء أطراف السودان عن سلطانه[١] .

أما في جهات النيجر الأوسط حيث أسس برابرة صنهاجة منذ القرن الخامس مملكة لهم حول مدينة كوكيا ، فقد كانت بمنأى عن الصراعات التي عرفتها غانا طيلة ثلاثة قرون ، ولقد كان التأثير العربي القادم من مصر ذا اعتبار وأهمية[٢] ويظهر أن الاسلام هناك ينتشر عن طريق الاقناع ، وامتد إلى تشاد شرقاً وإلى بعض قبائل البهل غرباً .

وقبل منتصف القرن العاشر هبت على كوكيا رياح الفتنة الاسلامية ، بينما كان الاسلام لا يزال فتياً بها محدود الانتشار في نواحيها ، فقد التجأ الخوارج الفارون من وجه الفاطميين بتونس ، ولم يلبث زعيم المدينة كيراد أن اعتنق المذهب الخارجي ، ثم قام هو وابنه ابويزيد مخلد بن كيراد بالدعوة للأمويين الذين كان نفوذهم قد تراجع من كل بلاد المغرب ، وقد ظفر ابويزيد مخلد بتأييد مسلمي النيجر الأوسط وصنهاجة أدغوشت الذين كانوا شيعة للأمويين منذ مجيء موسى بن

---

(١) يراجع علي بن أبي زرع - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - دار المنصور - الرباط ١٩٧٣ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) Henri lhot «l'extraordinaire aventure des peuls. pres Africaine xx11- octobre novembre 1958 P 48.57

تترجم طموح صنهاجة إلى واقع . وما دام الأمر يتوقف على استقدام شريف أو فقيه ، فقد خرج يحيى بن ابراهيم إلى الشرق طامعاً في أن يحقق ما فعله الأدارسة والطالبيون ، ورجع إلى بلاد كدالة (من صنهاجة) ومعه أحد الدعاة المسلمين عبد الله بن ياسين الجزولي ، وكدالة كانت تسكن آخر بلاد الاسلام ، وتصل إلى البحر المحيط غرباً[1] ويظهر أن عبد الله بن ياسين كان يميل إلى التنظيم ، والاعداد العسكري المناسب ، فانتقل إلى جزيرة قبالة ساحل السنغال وأخذ في اعداد انصاره وتربيتهم دينياً وعسكرياً .

وكانت امبراطورية غانا لا تزال ـ أثناء ذلك ـ تحتفظ بقدر مهم من القوة الحربية ، ورغم اسلام بعض قبائل التكرور في السنغال بفعل الدعوة المرابطية وثورتها ضد غانا ، فان هذه الأخيرة جمعت قوتها واحتلت بحد السيف مدينة أدفشت التي كانت عاصمة حتى ذلك الوقت لصنهاجة[2] .

وغادر الأمير يحيى بن ابراهيم جزيرته ، وقصد أدفشت ، وافتكها من الحكم الغاني عام ٩٥٧ ، ويظهر أن العملية لم تكن صعبة ، مما دفع بالأمير إلى التقدم شمالاً نحو سجلماسة ، وهناك رحب به (بنويالدس)[3] وبايعوه ، وكان هدف يحيى من هذه العملية واضحاً ، فالمدينة وناحيتها لها من الأهمية التجارية ما لا تتوفر عليه مدينة أخرى في كل الغرب الأفريقي ، وخضوعها للمرابطين ، مع وجود حلفاء مخلصين أمر في غاية الأهمية ، وقد ظل بنويالدس يحرسون القوافل واستقروا بمدينة خطوها لهم هي مدينة تمنطيط وكانت آخر العمران قبل غاو[4] .

وكان أمراء غانا ـ ويظهر أنه لم يكن لهم زعيم واحد ـ قد عادوا لمنازلة أدغوشت بعد أن فاجأهم هجوم المرابطين مستعينين بحلفهم مع بعض قبائل

(١) عبد الله كنون « النبوغ المغربي في الأدب العربي » دار الكتاب اللبناني / بيروت ١٩٦١ صفحة ٥٧
(٢) المهدي البرجالي « صحراؤنا » يوليوز ١٩٦٨ ـ الرباط ص ٦
(٣) ابن خلدون مجلد ٧ ص ١١٩ : بنويالدس من بطون بني ومانو اجداد المرينيين كانوا يضربون في الصحارى إلى الجنوب من سجلماسة .
(٤) المصدر السابق

أبي العافية ، وأمدت ادغوشت أبا يزيد بمقاتلين ودوابا فتمكن من مد سلطانه على بلاد الحمادة وجنوب تونس والجزائر والمغرب ، وعندما استعرت الحرب بينه وبين صاحب تونس اسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي الملقب بالمنصور انتهت بهزيمته ، فعاد إلى كوكيا واعلن نفسه اماماً ، وبايعه السودانيون وصنهاجة ، واصبح أمير البربر زيري بن مناد من قواده وانصاره وقد حاول مهاجمة تونس من جديد ، ولكنه هزم وقتل عام ٩٤٦[١] .

وبانتهاء الحكم الخارجي في كوكيا ، والزناتي الأموي في أدغوشت وغانا الذي قضى على حكم الشرفاء الأدارسة عادت غانا في ظل حكم القادة الوطنيين تتلمس طريقها نحو الحكم السياسي المستقل ، غير أن دعوة المرابطين كانت قد بدأت آنذاك ، وبدأ معها عهد غني بالتواصل بين المغرب والسودان .

المرابطون وغانا :

عادت قبائل صنهاجة إلى احتلال مكانتها السابقة في ظل امراء غانا الأقوياء وسط طموح جامح من اولئك البربر البيض في تأسيس دولة كما فعل الطالبيون قبلهم . وعزز من تطلعهم إلى القوة السياسية توقف الطريق التجاري الشرقي عن النشاط بسبب الزوابع الرملية ، وتحول التجار إلى الطريق الغربي المار من سجلماسة والمتفرع بعدها إلى المسلكين المؤديين إلى كوكيا شرقاً وأودغشت غرباً ، وكان على التاجر العراقي والمصري أن يسلكا نفس طريق التاجر المغربي ، وبهذا اصبحت سجلماسة من أغنى المراكز التجارية والعلمية في كل بلاد الاسلام[٢] .

وضمن قبائل صنهاجة التي توطنت منذ نهاية القرن العاشر جميع مناطق الصحراء الكبرى حتى نهري النيجر والسنغال ، برزت قبيلة شاء لها القدر أن

---

(١) ابن خلدون ـ مجلد ٤ ص ٨٤

(٢) Terrasse. Nistoire du Maroct. 2. P. 204 ويراجع ادريس بن أحمد العلوي ، الدرر البهية والجواهر النبوية / مطبعة حجرية فاس ج ١ ص ٦٣ .

التكرور ، ولم يكن هناك مفر من معركة أخرى على أبواب المدينة خاضها الأمير يحيى المنهك بالسفر البعيد ، فتوفي في تلك المعركة وتقهقر أنصاره نحو رباطهم في الجزيرة عام ١٠٤٨[1] .

ولم يكن عبد الله بن ياسين والأمير الجديد أبو بكر بن عمر في عجلة من أمرهما ، فتأخر زحفهما الشامل على شمال امبراطورية غانا ست سنوات[2] ، وكان نصرهما في هذه المرة عاماً وشاملاً ، وحمل المرابطون جميع قبائل صنهاجة على اعتناق الاسلام على المذهب المالكي ، ومحيت النزعات الشيعية والخارجية تماماً ، وأصبح الدعاء للخليفة العباسي قائماً[3] .

وهنا ظهر التحول الكبير في خطط المرابطين وتطلعاتهم المستقبلية في الجهاد والحكم والعظمة ، فبدلاً من أن يتابعوا طريقهم نحو الجنوب والشرق ، جمعوا القبائل المناصرة لهم وساروا نحو الشمال حيث اسسوا امبراطوريتهم الواسعة التي امتدت إلى حدود تونس شرقاً وحدود فرنسا شمالاً .

ولا شك أن المرابطين وهم يتركون الساحة في جنوب الصحراء[4] كانوا مطمئنين إلى نفاذ دعوتهم ، وتمكن ادارتهم الحازمة من المنطقة ، بل واكثر من ذلك تأكدوا أن القبائل الصنهاجية ستكون أضمن وأوثق رديف لهم في حروبهم المقبلة شمالاً ، وكانت بواعث ذلك الاطمئنان كثيرة :

- تقلص قوة غانا بعد التلاشي المستمر امام ضربات المرابطين خلال القرن الحادي عشر[5] .

---

(١) ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ الجزء الأول من ص ١٧٠ ـ ١٧١

(٢) تمّ هذا الزحف عام ١٠٤٥

(٣) المصدر السابق ص ١٨٥

(٤) عاد الأمير أبو بكر بن عمر إلى السودان من مراكش وأمضى في الجهاد ١٣ سنة ثم جلب نصف جيش المرابطين من المغرب وبقي يجاهد ١٥ سنة (الحلل الموشية ص ١١)

(٥) انهت قوات المرابطين مهمة الأجهاز على غانا عام ١٠٧٧ بعد مقاومة متفرقة دامت ٢٣ سنة J.S. canale. Afrique noire P. 151

- ولاء قبائل صنهاجة .

- خضوع قبائل التكرور والصوصو ودخولها الاسلام واخلاصها لأمراء الملثمين وموالاتها الاغارة على امراء غانا المنسحبين جنوباً .

- تحول أدغوشت وتمنطيط وكوكيا إلى مراكز للسلطة القوية ، وللتجارة المأمونة .

وقد ظلت ادارة صنهاجة تحكم البلاد كلها ، وتحول البلاط الزنجي إلى الحكم الرمزي ، وظل الملك يدفع الغرامات كلما عاد إلى ادغوشت حتى القرن الرابع عشر ، أما الأمراء الغانيون في الأقاليم فقد اعتنقوا الاسلام وانضووا تحت الامارة المرابطية مع اتباعهم من السراكولي والوانغارا والديولا والمادينغا ، وأصبحوا يقومون نيابة عن المرابطين بحملات لنشر الدين الاسلامي بين القبائل الوثنية من البهل والموسى[1] وكان ذلك يتم بأمر ومباركة الخليفة العباسي[2] .

خضعت غانا للتحديات السياسية والعنصرية ، وانجرفت أقاليمها المتباعدة الآهلة بالقبائل ذات المحاتد المتباينة الواحدة تلو الأخرى في تيارات دينية مختلفة ، ولذلك لم تتح لها سوى فرص قليلة لتنعم بالاستقرار ، ولم تتمكن طيلة وجودها من اقامة الحكم السياسي القائم على الوحدة .

ورغم ذلك فان موقعها الجغرافي المتوسط اضافة إلى خيراتها المعدنية والزراعية ، وطموحها الطاغي ، مكنها من بناء اقتصاد لم تمسسه التقلبات إلاّ في النادر ، وقد استفاد سكانها بقطع النظر عن أصولهم ، من عزم كل الذين حكموا غانا أو استقلوا ببعض أرجائها ، على حماية التجارة وتنمية المواردالمعدنية ، ولم

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٣

(٢) من رسالة من المستظهر بالله إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥١٢ (١١٨) « أما ما أنهيته من توفير الأجناد ومثابرتك على الجهاد لدفع أدناس الكفرة مماليك من البلاد ، فانك وطائفتك من حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، فاتخذ التقوى عمادك والحق منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك ، وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على المنابر تكن الظافر بالأعداء الظاهر والسلام عليك وعلى من قبلك من اهل الطاعة » (الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لأبي السماك العامري المالقي ، طبع الرباط ١٩٣٦ ص ٧٣ .

يثبت أن غانا وضعت ـ قبل المرابطين ـ يدها على مكامن الملح في الصحراء ولكن الذي يبدو على غزوات الملثمين وعلى أشكال الحكم التي اقاموها أنهم اتجهوا نحو الذهب بعد أن وضعوا أياديهم على ممالح الشمال .

فالفرق بين المرابطين والغانيين أن الأولين سيطروا على المصدرين معاً ، وتحكموا في طرق التجارة في كل الجهات ، بينما لم يصل الغانيون إلى الملح إلاّ في ركاب الصنهاجيين .

وبخلاف الغانيين أيضاً فان نشر الاسلام عند المرابطين كان هدفاً يتقدم على غيره من الأهداف كانوا ينشرونه بالترغيب أو الترهيب ويسيرون بمقتضى الشرع في الحالتين معاً .

وقد فرضت غانا ـ قبل سقوطها ـ الضرائب على تجار الملح ، فكانت تأخذ ديناراً من الذهب على كل حمولة تدخل غانا منه ، وديناريين على الحمولة التي تخرج باتجاه الجنوب أو الشرق ، وذلك مقابل ما كان يلقاه التجار من الحماية ، وما تجده دوابهم من عشب ومياه ، وأما النحاس الذي يمثل جانباً من مصادر الدخل ، فقد أخذ عنه مكس قدره خمسة مثاقيل من الذهب لكل حمل . وتتساوى العروض المنقولة الأخرى فيما يدفع عليها داخلة أو خارجة وقدر الضريبة عشرة مثاقيل[1] .

وعندما بسط المرابطون حكمهم أبطلوا الضرائب والمكوس ، واحتفظوا منها بالزكاة والأعشار وأخماس الغنائم والجزية تمشياً مع تعصبهم الديني[2] .

ويظن أن الغاء الضرائب على العروض التجارية كان السبب في اقتتال القبائل بعضها مع البعض الآخر ، وحين نشبت الفتنة بين لمتونة ومسوفة التي كانت تختص بحمل الملح أتى الأمير أبو بكر ووضع حداً لخصوماتها وأقر منطوق الشرع بين قبائلها[3] .

(١) ا . حركات المغرب عبر التاريخ ح ١ ص ٢٢٩
(٢) عبد العزيز بن عبد الله ـ تاريخ الحضارة المغربية ح ١ ص ١٠٧
(٣) ابن السماك ـ الحلل الموشية صفحة ١٣

إن التجارة بشكل خاص ، والأعمال الاستثمارية على العموم حافظا على حيويتهما ، وكأن الغزو لم يخرج عن نطاقه السياسي الصرف . والمغرب المرابطي ، رغم الانقطاع العملي بينه وبين الجنوبي الغاني ـ المرابطي ابتداء من نهاية القرن الحادي عشر سعى جاهداً في تأمين الحركة التجارية ودفعها . وقد تحولت مدينة أغمات إلى عاصمة للتجارة مع السودان فكان تجارها من هوارة يذهبون بالقوافل إلى غانا وما يجاورها وهي محملة بالنحاس ونسيج الصوف والأصداف والأحجار الكريمة والعطور والأدوات الحديدية ، ويعودون بالذهب ونتاج السودان والتاجر الواحد كان يمتلك ما بين سبعين ومائة جمل كلها محملة بالبضائع[1] .

واحتلت اللغة العربية إلى جانب لغات الصوصو والمايدنغ والشلحية مكانة مهمة باعتبارها لغة القرآن ، وقد عثر احد المنقبين عن الآثار في ضواحي مدينة تنبوكتو على لوحة صنعت في مدينة (الميرية) بالأندلس وكانت تلك اللوحة التي وجدت في احدى المقابر تحمل تاريخ وفاة الميت التي وقعت عام ١١٠٠ م[2] .

وحمل الأمير المرابطي أبو بكر بن عمر من مراكس هدايا عظيمة لا شك أن الصناع المحليين تأملوها وحاولوا تقليد بعضها ، وفي هذه السفرة ، كما حدث دون ريب في الموجة المرابطية التي ذهبت إلى الشمال انتقلت مجموعات بشرية من المغرب واليه ، ويكفي أن أبا بكر جلب معه نصف الجيش المرابطي إلى السودان[3] .

ونجد واضحاً في التاريخ أن مجموعات كبيرة من السودانيين ، وكانت جزءاً من جيش المرابطين ، حاربت في الأندلس كفرقة مستقلة هامة ، وقد اعتمد المرابطون في كل الجهات على هذه الفرقة وسميت عندهم بفرقة (الحشم) ،

---

(١) عباس بن ابراهيم المراكشي « الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ـ المطبعة الجديدة / فاس ٢٦ ح ١ صفحة ١١٣ .

(٢) محمد الغربي : موريطانيا ومشاغل المغرب الأفريقية ـ مولاطو ـ الرباط ١٩٦٣ ص ١٤

(٣) ابن السماك / الحلل الموشية ١٣ .

ورئيسها كان من ابناء السودان أيضاً[1] ، وحمل السودانيون في معاركهم بالأندلس القنا الطوال والدرق اللمطية والسيوف الهندية[2] وتميزت الفرقة السوداء باستعمالها للطبول عندما كانت تسير إلى المعركة أو أثناء اشتباكها مع العدو ، وتلك عادة في كل السودان وفي جميع أدوار تاريخه[3] وقد تحدث أبو عبيد الله البكري عن اشتراك ملوك التكرور أنفسهم مع المرابطين في حروبهم في الأندلس وقد اشار بصفة خاصة إلى واقعة الزلاقة التي وقعت في اكتوبر ١٠٨٦ والتي انتصر فيها يوسف بن تاشفين على جيش الفونس السادس[4] .

والخلاصة أن الحكم المرابطي ، لم يكن بالنسبة لغانا أسوأ من تسلط برابرة أدغوشت أو ملوك كومبي صالح الطالبيين ، وهو وإن حال دون تحقيق أهداف ملوك غانا وأمرائها في المركزية السياسية والاستقرار ، فانه قدم للمنطقة اعمالاً جليلة ومنجزات في الميدان الاقتصادي لا سبيل إلى نكرانها ، وشملها بمعتقد واحد ، وجعل أسباب الحضارة تطل عليها ، قبل أن تأخذ طريقها إلى الرسوخ .

وربما كانت غانا في حاجة إلى قوة السلطة التي غرسها المرابطون ، وربما كانت أيضاً في حاجة إلى العمق المكاني السياسي والتجاري الذي وفرته الادارة المرابطية الممتدة على جل الشمال الأفريقي واسبانيا .

وبشكل عام فان فترة المرابطين كانت انتقالاً ذا خطر وشأن من مرحلة الاعتماد على التجارة والرعي وبيع الذهب إلى طور الاستخدام الواسع للمعادن .

الموحدون والسودان :

بينما كان اهتمام المرابطين باقاليم السودان الغربي التي كانت ، قبلهم ،

---

(١) المصدر السابق ص ٥٩

(٢) المصدر السابق ص ١١ وأحمد بن محمد المقري ـ نفح الطيب ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٩٤٩ ج ٦ ص ١٠١

(٣) ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ٢٢٤

(٤) أبو عبيد الله البكري المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ـ نشر البارون دي سلان ص ١٧٢ ـ ١٧٤

منضوية اسمياً تحت حكم غانا اهتماماً دينياً ـ سياسياً ، واقتصادياً تجارياً ، ركز الموحدون الذين خلفوهم (١١٤٧ ـ ١٢٦٩) على ضمان سير التجارة في الوقت الذي كانت دولة مالي تشهد ميلادها ، ولا شك أن الطريق التجاري الغربي استمر في نشاطه الأول ، وكانت الدولة الموحدية تعمل جاهدة على تأمين السير العادي لهذا الشريان الحيوي ، ولا أدل على ذلك من رواية محمد القسطلاني الذي دخل على عامل الموحدين في سجلماسة ، أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن[1] فوجد بين يديه رؤوس جماعة من قطاع الطرق الصحراوية ادينوا باعتراض سبل القوافل فيما بين سجلماسة ونهر النيجر[2] .

وقد عثر في المغرب على نسخة من رسالة وجهها الأمير سليمان المذكور إلى ملك مالي يعيب عليه احتباسه للتجار الوافدين إلى مملكته ، ومن سياق الرسالة يتبين (أ) ان الملك الزنجي لم يكن معتنقاً للدين الإسلامي ، (ب) وإن الموحدين لم يكونوا يعتبرون السودان داخلاً تحت سيادتهم (ج) وإن الرغبة كانت قائمة لدى ملوك الموحدين لتأسيس تعاون تجاري ينبني على تبادل المنافع[3] .

وقد سجلت خلال العهد الموحدي بالمغرب حادثتان لهما صلة بافريقيا السوداء ، الأولى هي التجاء أحد أمراء البيت المالك المطالبين بالعرش في عهد السلطان عبد الواحد الرشيد (١٢٣٢ ـ ١٢٤٢) إلى بني معقل وتوغله في أرض

---

(١) الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي تولى عمالة مرسية بالأندلس بعد تعيينه في سجلماسة ، وكان من كبار أغنياء عصره ، وقد ثار على المنصور الموحدي في مدينة سلا ، فانهزمت شرذمته وقتل مع امير موحدي آخر يسمى عمر الرشيد (ا . حركات المغرب عبر التاريخ ١ ص ٢٨٤ .

(٢) المهدي البرجالي ـ صحراؤنا عدد ١٨ غشت ١٩٦٨ ـ نشر وزارة الصحراء ـ الرباط .

(٣) « نحن نتجاور بالإحسان ، وإن تخالفنا في الأديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتآلف على الرفق بالرعية ، ومعلوم إن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا يعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة ، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من جهتنا من أهل تلك الناحية ، لكننا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي مثله والسلام » عبد الله كنون ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي ج ٢ ص ١٦ .

السودان ، ونقل الثائر معه الكثير من أتباعه وأمتعته وكتبه ، وقيل بأنه وصل في فراره إلى نهر النيل[1] وتمكن من الوقوف على منابعه .

وإذا صحت هذه الرواية فيمكن القول بأنه كان في استطاعة هذا الثائر أن يستقر بإحدى مدن السودان كما فعل ثوار سابقون ، ولا يجشم نفسه عناء تسلق جبال فوتاجلون حيث توجد منابع نهرالسنغال والنيجر معاً ، غير انه ربما كان خائفاً من أن يسلمه عرب معقل المجاورين للسودان إلى السلطان أو أن في الأمر ما يشير إلى عدم رغبة حكام السودان في استقبال ثائر مغربي اجتناباً لنقمة السلطان وانتقامه .

وهناك جانب آخر يفوق ما تقدم أهمية ، هو نزوح قبيلتين عربيتين إلى المغرب[2] هما بنو جشم وبنو هلال ، وكانت تنضوي تحتهما قبيلة أقل شأناً هي قبيلة بني معقل التي لم تستقر في سهول المغرب الأطلسية بل انحدرت صوب الصحراء ، ووصل أحد أفخادها ذوو حسان إلى نهر السنغال ، وكان لهذا التحرك البشري النوعي أثره في الغارات التي عرفتها طرق القوافل لفترة طويلة ، ولكنه ساهم بقدر لا يستهان به في تعريب القبائل البربرية بمنطقة الحوض ، وإن النهضة العلمية القائمة على اللغة العربية التي عرفتها تنبوكتو بعد قرن من ذلك مدينة بالفضل ولا شك لهؤلاء الأعراب ، فمع عملية الدفع السكاني للأقوام السوداء التي كانت تقطن الحوض ((حيث توجد تاودني وتغازا) وشمال تنبوكتو (حيث أروان وأزواد وأبراز) حول الأعراب هذه الجهات إلى مراتع لهم ، فاختص الترارزة من بني حسان بنهر السنغال وأولاد عبد الله بالحوض وانتشر البرابيش من تغازي إلى تنبوكتو[3]

ويتضح مما سبق أن الموحدين ـ رغم الصراع القوي على السلطة في مجموع

---

(١) نهر السنغال أو نهر النيجر كان المؤرخون القدامى يسمونهما كليهما بنهر النيل أو البحر .

(٢) حول عام ١١٨٨ م .

(٣) م الغربي : موريتانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ص ٢٩

أقطار السودان الغربي - لم يكن لهم مطمع سياسي أو تفكير في غزو أو إلحاق ، كما إن النية في نشر الإسلام أو الجهاد كانت ضعيفة لديهم وبالمقابل فإنهم رغبوا في تنشيط التجارة ، ولم يدخروا جهداً في توفير أسباب الأمن لها ، كحماية القوافل من هجمات الأعراب ، وتجهيز الأسواق على أبواب الصحراء[1]

والعنصر الهام الذي برز أثناء حكمهم ، ولم تكن لهم يد فيه ، هو وصول قبائل عربية إلى أطراف السودان إيذاناً بقيام عهد التعريب بعد أن ساكن بنو حسان قبائل صنهاجة ، واختلطوا بها ، ولقنوها التقاليد العربية واللغة[2] .

المرينيون ومالي :

نشأت دولة مالي في جهات الشرق والغرب من نهر النيجر ، فهنا وهناك تنافس الأمراء الغانيون الذين تركهم المرابطون قبل قرنين في حالة من الفرقة والانقسام ، في أن يعطوا روحاً جديدة لمملكة زنجية قوية . وقد عمل كل منهم ضمن مدينة أو مقاطعة لبلوغ ذلك الهدف ، وجرت عملية تصفوية رتيبة ، قادت في الأخير إلى بروز بطل إسمه (كواي كيتا)[3] بسط حكمه انطلاقاً من مدينة ماندوغو على أكثر أقاليم غانا القديمة . وكان على الأمير المؤسس أن يحارب قبائل الصوصو في الجنوب ، وصنهاجة والأعراب في الشمال ، ولم يستطع إلا خليفته سانديانا (١٢٣٠ - ١٢٥٥) أن يخضع أولئك المناوئين ويؤسس مملكة قوية حملت اسم (مالي) .

---

(١) يصف ابن خلدون مدينة تمنطيط الواقعة جنوب شرق سجلماسة التي كانت مفتاح التجارة إلى السودان في عهد المرابطين ، فقد اهتم بها الموحدون أيضاً ولعبت دورها في التجارة مع غاو شرقاً وولاته غرباً ، وبينما كان سكانها في السابق من بني يالدس وغيرهم من برابرة عبد الواد ومصاب وبني مرين وغيرهم ، أصبح عرب المعقل (قبيلة عبيد الله) عند نهاية عهد الموحدين يمتلكون بعض أجنتها من النخيل يسكنونها في فصل الشتاء (ابن خلدون - العبر - مجلد ٧ ص ١١٨ و١١٩) .

(٢) E.F Ga utier. le passe de l'Afrique du nord nouvelle edition. Rays. Paris 201. 229

(٣) بداية القرن الثالث عشر

قامت مالي على أساس تجانس عنصري وروحي ، فأغلب قاطنيها من قبائل السراكولي ، وأقوى الأديان كان الدين الإسلامي على المذهب المالكي الأوزعي ، والقوة الرئيسية فيها رجال الدين ذوو الكلمة النافذة في البلاط وفي أوساط القبائل[1] .

وفيما امتد نفوذ سانديانا على بلاد النيجر الأوسط والصحراء ، بعد إخضاعه أراضي غانا القديمة سنة ١٢٤٠ وتخريب عاصمتها التاريخية كومبي صالح ، وتخطيط عاصمة جديدة هي نياني[2] ، كانت اقتصاديات الدولة الوليدة تقوم على الزراعة ونسيج القطن نظراً لتسط الأعراب على طرق القوافل المتجهة إلى الشمال والشمال الشرقي .

ومضى ساكورا (١٢٨٥ - ١٣٠٠) في نفس الوقت الذي اجتهد المرينيون في استلام مقاليد حكم المغرب والشمال الإفريقي وإسبانيا ، يضيف إلى مملكته بلاد مسينا التي كانت على الوثنية ، وبلاد التكرور التي حافظت حتى ذلك الوقت على الولاء للمرابطين[3] .

ولم يستقم الحكم المركزي بمؤسساته السياسية الواضحة إلا في عهد الملك كانكو موسى[4] (١٣٠٧ - ١٣٣٢) .

وقد تولى في نفس السنة التي تولى فيها عرش المغرب يوسف الناصر بن يعقوب أحد كبار ملوك بني مرين . وهذا الملك اشتهر في التاريخ شهرة مدوية ليس لأنه بلور التقاليد السودانية ، ونظم البلاد والحكومة وعين العمال على الأقاليم ، بعد أن أضاف إليها بحد السيف تنبوكتو وغاو ، وليس لكونه استخرج

---

(١) الحلل الموشية لابن السماك العامري ص ٩

(٢) كانت العاصمة قبل ذلك هي ديبريبا ، أما نياني فكانت تقوم بالقرب من مدينة كونيا الحالية ، وتحيط بها البساتين والجنات ـ محمود كعتو ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ـ تحقيق هوداس ودولافوس / باريس ١٩٦٤ / ص ٣٨ وما بعدها .

(٣) J. Suret - canal, Afrique noire P154

(٤) يسميه مؤرخو المغرب كانكان ، ومنسى

النحاس من مناجم تيكيدا في صحراء أكاديس[1] والملح من تغازي واضعاً يده بعد أن سيطر على مناجم الذهب على المعدن الأصفر والملح معاً[2] ، وليس لأعمال الإنشاء ونشر الزراعة والبناء ، ليس لكل ذلك ، ولكن للقصص والأخبار التي عمت بعد ذهابه إلى الحج واستلامه خلافة الخلافة من العباسيين بمصر[3] .

حج الملك كانكو موسى عام ١٣٢٤ ، سالكاً طريق الشمال عبر ولاته وتوات من أرض المغرب ، وأخذ معه ستين ألف رجل وخمسمائة عبد يمسك كل واحد منهم بقضيب من الذهب[4] وقيست قافلته بالأميال ، وصحب معه ٤٠ بغلة محملة بالذهب ، أما زوجته (ايناري) فكانت مرفقة بخمسمائة وصيفة[5] ، ووجه كانكو موسى رسالة للسلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره بأن قافلته ستمر من الطريق الأمبراطوري المحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط[6] .

وفي مصر قابل حاجب السلطان المريني (هلال) ملك مالي ، واستحكمت بينهما المودة[7] .

ولا شك إن الأمر الوحيد الذي اهتم له الملك الزنجي ، والسلطان المريني قبل ذلك اللقاء هو منع أعراب الفلاة من قطع طرق القوافل ، وكما فعل المرابطون

---

(١) يسميها المؤرخون السودانيون أكدس ، وعرفت عند المغاربة باسم أكدر

(٢) المصدر السابق

(٣) « مالي إقليم واسع وأرض كبيرة عظيمة مشتملة على المدن والقرى ، ويد سلطان مالي مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة وكنا نسمع من أعوام جمهور عصرنا يقولون : سلاطين الدنيا أربعة ، ما خلا السلطان الأعظم سلطان بغداد (وفي مخطوط آخر أخذت الآستانة مكان بغداد) ، وسلطان مصر وسلطان بورنو وسلطان مالي « محمود كعتو » تاريخ الفتاش ص ٣٨ .

(٤) السعدي ـ تاريخ السودان ص ٦ و٧

(٥) محمود كعتو ـ تاريخ الفتاش ص ٣٣

(٦) م . الغربي ـ ص ٢١

(٧) ابن خلدون ـ كتاب العبر مجلد ٧ ص ٢٣٦ : الحاجب هلال من سبي النصارى عرف بالمؤامرات السياسية حتى وصل إلى حجابة السلطان . . وكان فظاً غليظاً فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس بسطوته فاستولى على السلطان ، واستأذن السلطان في الحج وركب إليه بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة فنزل الاسكندرية ولقي في طريقة سلطان السودان » .

الشبانات من بني حسان

والموحدون ، فإن المرينيين أمدوا بني عمومتهم من الشبانات وإخوانهم المرينيين وعرب المعقل في تمنطيط بأسباب التحكم في طرق القوافل ، وذلك بعد أن وصل السلطان المريني يوسف الناصر بن يعقوب نفسه إلى هذه الجهة ، وقاد حملة من اثني عشر ألف مقاتل وصلت حتى حدود السودان عام ١٢٨٧ أي قبل تولي كانكو موسى بعشرين سنة [١] .

وقد حاول أحد الأمراء المرينيين بعد ذلك ، وهو أبو علي ابن السلطان أبي سعيد وشقيق أبي الحسن ، أن يستقل بسجلماسة وينطلق منها لاحتلال المغرب وفي البداية أخذ يراقب القوافل بنفسه ولفائدته ، وتقدم بجيشه الثائر إلى الهكار شرقاً ودرعه غرباً وكوكيا جنوباً ، ولكن السلطان أبا الحسن أجهز على الأمير المنفصل وأعاد حسن الجوار مع السودان إلى سابق عهده في بداية عام ١٣٣١ [٢] .

وكان لهذا الحادث ، الذي يظهر ان كانكو ساهم مع جيش المرينيين في وضع نهاية له ، أثره في توثيق الصلات بين البلاطين المالي والمريني ، فقد وجه السلطان كانكو موسى سفارة إلى فاس مع ترجمان من الملثمين الصنهاجيين عام ١٣٣١ ، بقصد التهنئة بالانتصار والفوز بالعدو ويقول ابن خلدون بأنه نزع إلى طريقته في الفخر فانتخب طرفاً من متاع المغرب وماعونه وذخيرة داره وأسناها « وحمّلها للسفير عند قفوله [٣] .

وأنفذ أبو الحسن سفارة مرينية مماثلة عين على رأسها كاتب الديوان أبا طالب محمد بن أبي مدين ، يعاونه مولاي عنبر الخصي ، « وأوعز إلى أعراب الفلاة من عرب معقل بالسير معهم ذاهبين وجائين ، فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جار

---

(١) ابن خلدون ـ العبر مجلد ٧ ص ١٣٩

(٢) نفس المصدر السابق و « حركات ـ المغرب عبر التاريخ » ج ٢ ص ٤٤

(٣) ابن خلدون ـ كتاب العبر ـ مجلد ٧ ص ٥٥٤ « كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف يتطاول به إلى مخاطبة الملوك الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأمثال والأنظار ، وإنفاذ الرسل إلى ملوك القاصية والتخوم البعيدة ، وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاوراً لملكه بالمغرب على مائة مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبلية (الجنوبية) » .

الله من المعقل وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان ، وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول المشقة فأحسن مبرتهم وأعظم موصلهم وكرم وفادتهم ومنقلبهم وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي[1] يعظمون سلطانه ، ويوجبون حقه ، ويؤدون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان وأعماله في مرضاته ما استوصاهم به فأدوا رسالتهم وبلغ السلطان أربا من اعتزازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه »[2]

وتجددت هذه الصلات السفارية عندما وفدت على السلطان أبي الحسن سفارة ثالثة من مالي أرسلها الملك سليمان[3] تحمل التهنئة بفتح تونس[4] فزودها السلطان كعادته بهدية سنية ، وعند وصول السفارة المالية إلى بلادها اختار الملك سليمان هدية من قبله ووجهها مع سفارة أخرى . وقد « اعتمل سليمان في مكافأته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده[5] » وقبل أن تصل السفارة إلى المغرب بلغها وهي في ولاته خبر موت منسى سليمان ، فلم تبرح هذه المدينة لأن « ملوك السودان تواثبوا على الأمر ، وقتل بعضهم بعضاً وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسى جاطة واستوثق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية وأخبر بأنها بولاتن فأمر بانفاذها إلى المغرب وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل[6] » .

---

(١) سفارة ثانية من كانكو موسى

(٢) نفس المصدر السابق

(٣) أو منسى سليمان ، ومنسى معناها الملك

(٤) ابن خلدون كتاب العبر مجلد ٧ ص ٥٧٦ « وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب أوفدهم ملكهم منسى سليمان للتهنئة بسلطان افريقيا » وقد وصلت السفارة بعد محاصرة الأعراب لأبي الحسن في مدينة القيروان وهروبه إلى الجزائر سنة ١٣٤٩

(٥) المصدر السابق ص ٦٤٤

(٦) المصدر السابق « فوصلوا إلى فاس في صفر (٧٥٢) فبراير ١٣٥١ وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض . . وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر ، واستقر الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته وهلك السلطان قبل انصرافهم فوصلهم القائم من بعده أبو عنان وانصرفوا إلى مراكش ، وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب السوس من المعقل المتصلين ببلادهم ولحقوا من هنالك بسلطانهم » .

لم تعمر هذه العلاقات طويلاً ، فبعد موت أبي عنان المريني[1] مخنوقاً عام ١٣٥٧ ، أطلت الفتنة في المغرب وعلى تخومه الجنوبية ، وقد حقق (السلطان عبد الحليم) حلم أبيه أبي علي بن أبي سعيد واستقل بسجلماسة وأعمالها ، وحضرت بيعته قبائل الصحراء من بني معقل ، وإخوته الأمراء ، وتقدم نحو فاس ولكن الصلح انعقد بينه وبين السلطان على ان يستقل أبو علي بسوس والصحراء ، غير ان أحد اخوته وهو أبو زيان أتى عرب بني حسان في الغرب فتحزبوا عليه ، فاستولى بواسطتهم على سجلماسة ، عندها سافر السلطان عبد الحليم إلى السودان واستقر عند سلطان مالي ثم اصطحب ركاب الحج إلى مصر[2] .

لقد شهدت هذه الفترة قيام علاقات قوية بين المغرب ومالي دامت قرابة ثمانين عاماً وامتازت بتبادل السفارات وحسن الجوار بين دولتين احترمت كل واحدة منهما سيادة الأخرى على أراضيها ، وبالسعي الحثيث الموصول لتأمين طرق التجارة وكبح جماح الأعراب وبتبادل الهدايا على نحو شجع الكثيرين على السفر وتعرف أبناء القطرين كل منهم على وضعية الآخر ومشاغله وأحواله ، وسارت التجارة قدماً بين سجلماسة وتنبوكتو وغاو ، ووظف ملوك مالي المغاربة والمصريين في بلاطهم[3] وازدهرت الزراعة في بعض الجهات بفضل البذور الجديدة الطارئة ، والخبرة المستحدثة ، وكان الموظفون الدينيون كالأئمة والمؤذنين في أكبر المدن السودانية مغاربة ، وكذلك وجد طلبة قدموا من المغرب للدراسة بعاصمة مالي وكانوا يقطنون في حي خاص ببني جلدتهم[4] .

وقد أنشد ابن خلدون أمام السلطان عند عرض الزرافة بفاس قصيدة في وصفها ، وهي دالية أورد منها ابن خلدون ٣٧ بيتاً (نفس المصدر) .

(١) قام ابن بطوطة برحلته إلى مالي عام ١٣٥٢ في عهد سليمان ١٣٤١ - ١٣٦٠ وأبو عنان هذا الذي أرسله لأن ابن بطوطة يقول « ولما عدت إلى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين . . . آمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية » الرحلة دار التراث ص ٦٨ / بيروت ١٩٦٨

(٢) ابن خلدون مجلد ٧ ص ٦٦٥

(٣) J. Suret - canale, Afrique noire P157

(٤) ابن بطوطه - الرحلة ص ٦٦٥

وقد تفنن المهندسون المغاربة والأندلسيون في بناء القصور الجميلة ، على نحو لم تعرفه هذه الجهات من قبل ، فبنى المهندس الأندلسي أبو إسحق الطويجن قصراً للملك ، وداراً ومسجداً في غاو ، وحسب الأوصاف التي نقرأها فإن تلك الأبنية كانت على النمط المغربي الجنوبي مع تأثيرات سودانية[١] .

لقد نعمت مالي بالاستقرار المحلي ، ولولا ثورات المطالبين بالعرش بعد موت الملك موسى ، وهجوم سلطان موشى الوطني على تنبوكتو عام ١٣٣٧[٢] لكانت مالي إحدى الأمثلة القليلة في التاريخ الإفريقي على الأمن والاستقرار .

وبينما كانت غانا من قبل ، وسونغاي من بعد تتلقى هجمات المغاربة ، فإن السلام والتعاون كانا أساسيين في كل اتصال جرى بين القطرين في عهد مالي ودولة بني مرين[٣]

ويمكن بشكل عام ارجاع عظمة مالي وازدهارها الى العوامل التالية :

١ ـ اتساع الرقعة مع تنوع الخيرات
٢ ـ استتباب الأمن مع قوة السلطة وحيوية الادارة
٣ ـ السيطرة الفعلية على طرق التجارة
٤ ـ التطور الاجتماعي والعلمي والعمراني
٥ ـ الوحدة الدينية
٦ ـ نمو الصناعة الى جانب التجارة[٤] .

---

(١) المكان السابق Canale
(٢) المصدر السابق والسعدي تاريخ السودان ص ٦ وما بعدها
(٣) لم تكن الدول المسيحية تتعاون مع السودان إلا بواسطة المغرب في هذا العهد وبواسطة معلومات مغربية رسم عدد من الجغرافيين أطلساً يحتوي على خريطة كاتالان التي رسمها إبراهام سركيس عام ١٣٧٥ ، وقد ظهرت عليها جبال الأطلس في المغرب وبينها ممر تجاري يصل سجلماسة بمدينة دييني وتنبوش ، (تنبوكتو) .
(٤) بازيل دافيدسون ، افريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة م . احمد بيروت ١٩٦٢ ص ١٤٨ : « لقد نجحت مالي حيث اخفقت غانا ، حين مدت سلطانها الى أقصى الشمال وأقصى الجنوب في

مملكة السونغاي :

يرجع تفكير قبائل السونغاي المتباينة المحتد ، المتعددة اللغات في اقامة دولة مستقلة الى القرن الخامس أي الى الوقت الذي أتى فيه برابرة صنهاجة الى شرق النيجر وأسسوا مملكة بيضاء حول مدينة كوكيا ، وعلموا السكان طرق استخدام الحديد وتحويله الى أدوات للزراعة والقتال في هذه الجهة[١] وتجعل بعض المصادر ذلك في القرن السابع[٢] ، ولكن الثابت أن أميرا بربريا عاش في كوكيا ، اسمه ضياء بن قس أو ضياء اليمن (أوزا الأول) هو الذي فكر في احداث هذه الدولة ، واعتنق زا الرابع عشر في تلك الأسرة واسمه كنكن الاسلام سنة ١٠٠٩ أي قبل مجيء المرابطين ، وتغلب على السراكولي بتأييد من برابرة كوكيا ومهاجرين آخرين ، وفي عام ١٠١٠ استولى على غاو[٣] .

ان سواد شعب السونغاي أصله من دندى شمال الداهومي ، صعد مع مجرى نهر النيجر ، حتى وصل الى منطقة كوكيا الوفيرة الخيرات ، فاستقر حولها ، وبعد أن كانت القبائل الطارئة تأتمر بأوامر (زا) ، وتسير وراءه في حروبه ، طمحت الى الحكم والسيادة ، فخضع لها البربر بنصيحة من التجار المسلمين ، وبدا أن مدينة كوكيا تخلت عن أمجادها للسونغاي[٤]

ولقد انتهت المرحلة الأولى في حياة هذه الدولة مع ظهور واتساع قوة مالي

الاقليم ، فاحتوت بذلك مصادر الثروة أجمع : النحاس ، والملح والذهب بجانب احتلالها طريق القوافل بين شطري الاقليم .... أصبحت وقد ازدهر الدين في مساجدها محجة العلماء العرب والمسلمين ، فقد كانت آمنة رخية تضفي على العلماء ما يريدونه من سكينة وسلام وانقطاع للدرس ، ونمت الثقافة المكتوبة التي عرفها السودان الغربي منذ قرون طويلة فاتت ثمراتها يانعة في تنبوكتو في الوقت الذي اجتاحت فيه أوروبا حرب المائة عام ».

(١) بازيل دافيدسون ـ افريقيا تحت اضواء جديدة ص ١٥٧

(٢) نقولا زيادة ـ المغرب والسودان في ايام المنصور الذهبي / بيروت ١٩٦٧ ص ٣٠ و Grand LAROUSSE incyclopediqui 1962 (V. Koukya)

(٣) بازيل دافيدسون ـ افريقيا تحت اضواء جديدة ص ١٥٧

(٤) J.S. canale Afrique noire p. 160

وسيطرتها على جميع المدن الواقعة على النيجر ومن بينها غاو ، ولكن أمراء السونغاي ظلوا يحتفظون بطموحهم كما كانت شعوبهم تمحضهم المحبة والاخلاص ، وتعاقب واحد وثلاثون أميرا على حكم السونغاي حكما اسميا ، ولم ينلهم أي عسف أو إضطهاد من ملوك مالي لأنهم كانوا على دين الاسلام ، ولأن تجار السونغاي كانوا سادة التجارة بفضل سوقي غاو وكوكيا اللتين اشتهرتا في تلك الفترة ببيع العبيد مقابل المصنوعات القادمة من البحر المتوسط[١] .

وكانت لسونغاي مكانة خاصة عند ملوك مالي ، فقبلوا اولادهم في الخدمة العامة ووظفوهم في البلاط والجيش ، وقد نال زا السادس والعشرون واسمه زاياسبي حظوة كبيرة ، وكان ولداه سنى[٢] على كلن وسلمان يدرسان في مدرسة القصر ويخضعان لتربية البلاط ، وعندما صلب عودهما ، توجها الى قبيلتهما ، وحين فشل سلمان في كسب محبة رجال القبيلة ، تولى سنى على الزعامة على قومه (١٤٦٤ ـ ١٤٩٢) ، وكان قويا شجاعا ماكرا في مجالس الرأي ، وكان يعيب على علماء الدين تنكبهم عن الأخذ بالمنطق ، وتعلقهم بالقوالب الجوفاء[٣] وكرهه لرجال العلم والفقهاء مرده فيما يبدو الى نفوذهم القوي في المدن ، وبين القبائل ، ذلك النفوذ الذي كبل يده في اكثر من ظرف ، فهو يأبى على نفسه أن يصبح أسيرا كملوك مالي الذين شاهد صنيع العلماء بهم ، ولهذا بادر الى تخريب مدينة تنبوكتو وغرب علماءها ولاحقهم بالقتل واتخذ من بناتهم جواري له ، كما رأينا الموشى يفعلون قبل حين ، وكما فعل محمود بن زرقون في بداية عهد المغاربة[٤] .

ومن أجل ذلك حاز على كراهية العلماء والمؤ رخين ، وشكك الكثيرون في

---

(١) grand LAROUSSE incyclopidiquel. L 1962 T. 6P 504

(٢) سن وردت في مختلف المراجع ، أو صوني ، أو سنى ، والأصح الأخير ، وهو نسبة الى السنة والاسم على هذا النحو شائع حتى اليوم في تنبوكتو .

(٣) بازيل دافيدسون ـ افريقيا تحت اضواء جديدة ص ١٦٠

(٤) عبد الرحمان السعدي ـ تاريخ السودان ص ٦

اسلامه وعدوه مسلما بالاسم ، أو وثنيا متظاهرا بالاسلام[1] .

وتنسب لسنى على جميع الفتوحات حتى كامبي وكورما وأراضي صنهاجة غربا ، ولكن كان هناك فاتحان قبله هما يا طانغا نابا الذي قاد حملات ناجحة الى بحيرة ديبو (١٤٠٠) وما مادوتوري الذي حاول عبثا أن يعيد الحكم الى مالي باعتبار أصله السراكولي[2] . وعلى العموم فان امبراطورية السونغاي أخذت شكلها الكامل في نهاية القرن الخامس عشر ، بعد الاستيلاء على ولاته (١٤٨٠) شمالا وبلاد التكرور حتى ساحل المحيط غربا[3].

واشتهر سنى على بانزاله اشنع أنواع العسف بالطبقة المثقفة عموما ، ونتجت عن ذلك هجرة واسعة للعلماء والطبقة النيرة الى بيرو وتيكيدة والمغرب ، وبالمقابل كان يجامل التجار والأعيان حفاظا على الوضع الاقتصادي لبلاده ، وقد رفع الحجاج المسلمون في وقفة عرفات لعام ٨٩٢ (١٤٨٧) الدعاء على سنى على وقال صاحب تاريخ السودان في حديث طويل عن هذا الملك وأعماله أنه لم ترفع له راية منذ تلك السنة .

وبعد موت سنى على ، قام احد قواد الجيش محمد بن أبي بكر التورى ، وهو من أصل سولانكي ، بانقلاب ضد أبي بكر داعو بن سنى علي ، وبعد معارك طاحنة استولى على غاو (٣ مارس ١٤٩٣) ، ولقب نفسه بالأسكيا محمد التورى ، وبعد ادائه فريضة الحج أصبح يسمى الأسكيا الحاج محمد ، وهو من أعظم ملوك السونغاي ، وقد « فرج الله به على المسلمين الكروب وأزال به عنهم البلاء والخطوب ، حيث اجتهد في اقامة ملة الاسلام واصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد وميز الخلق »[4]

---

(١) نقولا زياده ـ المغرب والسودان في عهد المنصور ص ٣٣ ـ بازيل دافيدسون ـ افريقيا تحت اضواء جديدة ص ١٦٠ .

(٢) J.S. canale Afrique noire p. 161

(٣) المصدر السابق .

(٤) عبد الرحمان السعدي ـ تاريخ السودان ص ٧٣

وقد حج الأسكيا محمد ، وغادر بلاده قبل موسم الحج بعشرة أشهر (نوفمبر ١٤٩٥) وكان في ركبه ١٥٠٠ فارس عدا عن مجموعة من العلماء والأعيان ، وأخذ معه ٣٠٠ الف دينار ذهبي[1] مما يدل على قوته وازدهار دولته[2] ، ومما يلاحظ انه بعد رجوعه صب اهتمامه كله على محاربة الوثنيين في الجنوب لحملهم على اعتناق الاسلام وعلى تنظيم الدولة بمقتضى ما شاهده في الديار الشرقية ، وتنصيب قاضي تنبوكتو للقضاء والافتاء وقضاة مدن المملكة الأخرى[3] ، وكمثال على تعلقه بالعدل ورجاله ، فانه حضر بنفسه من غاو الى تنبوكتو لاستقبال القاضي أبي البركات محمود بن عمر عند رجوعه من الحج(١٥٠٨) .

وقام نجل الأسكيا موسى بانقلاب أبيض ضد أبيه الحاج محمد عندما كان في المصلى يؤدي صلاة عيد الأضحى (٢٦ غشت ١٥٢٨) فبايع الحاج محمد ابنه وصلى وراءه صلاة العيد .

وما كاد موسى يتولى الملك حتى قام اخوته ضده ، فاعتصم عثمان في تانديرما[4] وبكركيني في تنبوكتو ، وتقدم موسى بجيشه نحو اخويه الواحد تلو الآخر ، وقبل وصوله تنبوكتو خرج العلماء وعلى رأسهم القاضي محمود يسعون للصلح بين الأخوين ، وقد أمضى موسى بقية حياته يحارب مجموعات من الثائرين ضده ، وقتل على يد أحد أخوته (١٢ ابريل ١٥٣١)

ولم تهدأ هذه الحروب بين الأخوة ، رغم اعتلاء الاسكيا محمد بنكن العرش بعد مقتل أخيه ، ولم يمنعه ذلك من متابعة الحرب ضد مملكة كانطا التي بدأت تتحرش بحدود السونغاي مستغلة سؤ الأحوال الداخلية ، وعاد الأسكيا من معاركه التي جرت داخل منطقة مستنقعية ، بالهزيمة ، فتطير سكان المدن منه ، وقلت هيبته ، ولم تنفع حملاته ضد الوثنيين في رد الاعتبار اليه .

(١) المصدر السابق ص ٧٤
(٢) المصدر السابق
(٣) غرب تنبوكتو وجنوب رأس الماء
(٤) نفس المصدر ص ٨٣ وما بعدها .

ولسؤ طالعه فان الأمطار حبست في أيامه وعم مرض الطاعون الذي مات به عدد وفير من سكان المدن ، وفي احدى غزواته انقلب ضده قائد جيشه (فاري مارتمزا) وقيده بالأصفاد ، ونادى بأخيه اسماعيل ملكا على السونغاي (٢٣ ابريل ١٥٣٧) ، فواصل اسماعيل هذا اعمال التهدئة في الأقاليم ، وعين أخوته على رأس حكومات محلية (وهو أول تنظيم اداري واضح المعالم) ، وأخرج والده الحاج محمد من سجنه في جزيرة كنكاك ، وأسكنه قصر غاو ، ثم خرج لمحاربة الوثنيين في كورما ، أما اخوته الذين تولوا أعمال الاقاليم فانهم احسنوا السيرة واحترموا العلماء وضربوا على أيدي المرابين ، وحددوا الأسعار[1] .

ومن الأمور البارزة في عهد الأسكيا اسماعيل قيام مجلس للبلاط ، ولقواد الجند في غاو ، وكان من الضروري تأسيسه تلافيا للانقسامات المدمرة ، ومنعا لتطاول القادة العسكريين على العرش ، والحقيقة أن هذا المجلس كان شبيها بالمجلس الاثنى عشري الذي كان موجودا في بورنو المجاورة ، والغريب أن أول عمل أنجزه المجلس هو التصويت على خليفة الأسكيا اسماعيل الذي توفي في ١٥ نوفمبر ١٥٣٩ .

لقد اكتسب الأسكيا اسحق الذي اعتلى العرش قوة وهيبة ، وتقدم العلماء والأعيان والتجار لمبايعته بالملك ، ولكن ثقته بمجلس البلاط كانت مزعزعة ، فدبر مباشرة مذبحة راح ضحيتها وجوه الجند ومن اشتم فيه رائحة العصيان من البيت المالك ، ووجه بعض رجاله لاغتيال عمال الجهات ، ثم ذهب بنفسه الى تنبوكتو ودخل دار القاضي محمود آقيت طالبا دعاءه وشفاعته .

كانت أيامه كملك أياما حمراء ، عم فيها الخوف والارهاب ، وأطلق فيها العنان لأعراب الصحراء الذين اعتمد عليهم الأسكيا في تنفيذ مؤامراته ، وعندما

(١) من ضمن الأشياء التي وقع تحديد أسعارها العبيد ، فقد تحدد سعر العبد بـ ٣٠٠ ودع ، والودع هو الصدف السوداني المعروف وكان يسمى بالسودانية كورى ـ تراجع التفاصيل الوافية في المكان السابق ص ٧٣ .

مرض عام ١٥٥٠ كانت أغلب منجزات أبيه قد أخفتها زوابع الثورة ورياح الفساد[1] واستمرت الدولة تسير في الانحدار تحت حكم الأسكيا داود ومن خلفه والى مجيء الجيش المغربي .

والخلاصة أن سونغاي عرفت ثلاث مراحل في مجال الحكم :

المرحلة الأولى استمرت من القرن الخامس أو السابع الى منتصف القرن الخامس عشر تقريبا ، وكانت طيلة هذه المدة تحت نفوذ دولتين أجنبيتين عنها هما غانا ومالي .

المرحلة الثانية ، بدأت في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في عهد سنى علي وانتهت بمجيء الجيوش المغربية .

المرحلة الثالثة ، استمرت سونغاي خلالها تحت الحكم المغربي مع الاحتفاظ بمظاهر رمزية للحكم التقليدي كما سنرى .

وما دام الذي يعنينا هنا هو الفترة الثانية ، فان الملاحظ ان سنى على كان فاتحا عظيما ، ولكنه امتاز ببطش لا نظير له في التاريخ الافريقي ، فهو حيث نجح في توحيد مملكته وتوسيع أطراف الدولة سدد للحركة الفكرية والدينية والحضارية أقس الضربات ، أما الأسكيا العظيم الآخر فهو الحاج محمد ، الذي نجح في دفع الحركة العلمية ، وتنظيم البلاد واعطاء الحكم مظاهره السياسية والادارية ، ولكنه لم يستطع أن يجنب البلاد اخطار الفرقة والتقسيم .

كان هذا العاهل شغوفا بتزويد بلاده بمظاهر الدولة القوية وأسباب النهضة ، ولا شك أن ما رآه في مصر كيّف تفكيره وأوحى اليه بعمل الكثير في المجالات السالفة ، فقد أعطى لتنبوكتو ودييني خاصة دورا علميا بارزا وكان علماء من المغرب يأتون للجلوس مع نظرائهم السود في الجوامع ومؤسسات التدريس وأتى المؤدب والعلامة الكبير القاضي وشيخ الشيوخ محمد الكابري للتوطن في

(١) المصدر السابق .

تنبوكتو ، وبرز من علماء الوقت أندغا محمد الكبير والامام المغيلي التواتي ، وسيدي يحي التادلسي ، وكانت المدن عامرة بأهل المغرب من مراكش ودرعة ، وكانت اللغة العربية قد أخذت مكانها لا كلغة للعلم ولكن كلغة رسمية أيضا ، وانتظمت أطوار التعليم الأولية والثانوية والعليا ، وكبرت الخزائن العلمية بالجلب والاستنساخ ، وكان التطور مدهشا وخاصة عندما انعكس على الحياة الاجتماعية والسياسية[1] ، فقد قامت طبقة من المثقفين الأفارقة بيضا وسوداً أخذت في نشر اللغة العربية ، والتطلع الى المكاسب السياسية[2] .

وكان للعلماء دور بارز في الحياة السياسية ، والتأثير على مجريات الأمور ، وكان ذلك من أسباب بطش محمود بن زرقون خلال عهد المغاربة بأكابرهم وشيوخهم .

ومن جهة ثانية فقد ظلت مصادر الثروة كما كانت من قبل ، الذهب

---

(١) J. S. canale Afrique noire p 163

(٢) سنأخذ من كتب التراجم السودانية والمغربية بعض أسماء بارزة في ميدان العلم والقضاء والتدريس :

- احمد بن أندعا محمد بن محمود ، عالم كبير في الفقه والنحو وشاعر ضليع.السعدي تاريخ السودان ص ٣٠
- محمد عبد الله بن الفقيه احمد بوربو مفتي ونحوي ولغوي كان يدرس التوثيق / المكان السابق .
- محمود بن عمر بن محمد آقيت عالم التكرور وفقيهها ، تولى القضاء عام ١٤٩٨ ، مدرس ومؤلف ـ نفس المصدر .
- مخلوف بن علي بن صالح البلبالي ، درس في المغرب على ابن غازي بمراكش ١٥١٢ ودخل كانو وكتى للتدريس ودرس بتنبوكتو النوازل وبمراكش أيضا/ نفس المصدر ص ٣٩
- سيدي يحيى بن عبد الرحيم العلوي (ينسب له مسجد بتنبوكتو) كان يدرس فيه طلب العلم بفاس توفي ١٤٦٣ نفس المصدر ص ٥٠
- سيدي علي الجزولي ، مغربي تصدر مجالس العلم ، وتولى الامامة توفي عام ١٥٧٠ / نفس المصدر .
- اندعا محمد بن ملوك الدليمي من أهل الزاوية بالمغرب الملقب بالمصلى / عالم / مدرس توفي ١٥٨٧ / نفس المصدر ص ٣١
- عمر بن الحاج احمد بن عمر آقيت ـ نحوي وعالم لغوي توفي بعد نقله لمراكش ، نفس المصدر .
- ابو بكر بيرو بن الحاج احمد آقيت / عالم زاهد متصوف ذهب بعد الحملة المغربية الى الحرمين / نفس المصدر .

والنحاس ، ثم الملح في بعض الاحيان (عندما تمتد السلطة الى الصحراء) وامتزج الاسلام بالتجارة على نحو غريب حيث قاد ذلك الى توحيد القبائل ومسالمتها بعضها للبعض الآخر[1] وبدت القرى السودانية وكأنها مدن قائمة الذات ، مع تواضع مرافقها ، وتدني المقاييس العمرانية فيها ، ووجدت فيها أحياء للاقليات كحي المغاربة وحي التوارك وحي العبيد ، وسنرى ذلك مفصلا فيما بعد .

وبصفة عامة فقد كانت دولة السونغاي تمثل ومضة حضارية ومركزا للاشعاع الفكري في افريقيا الغربية .

٢ ـ الأحوال العامة في افريقيا الغربية عند نهاية القرن السادس عشر

سيقودنا هذا الفصل لا الى البحث فقط في شؤون مملكة السونغاي التي اتجهت اليها الحملات السعدية تباعا قبل أن تسقط في أيديهم ، ولكنه يستوقف أيضا عند ممالك صغيرة ، قامت على أطراف السونغاي ، في هذا الوقت وكان للمغاربة ، كما كان لملوك غاو احتكاك بها بشكل أو بآخر وفي طليعة هذه الممالك : مسينا كانم وبورنو وكانطة .

١) نهاية السونغاي :

كانت الدولة التي أسلم مقاليدها الأسكيا الحاج محمد لخلفائه تسير نحو قدرها ، وتنزلق نحو التفكك والفساد سنة بعد أخرى ، وعند بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر توالى على العرش ستة ملوك لم يستطيعوا أن يكسبوا دولتهم مناعة تذكر أو قوة يهاب جانبها .

ـ الأسكيا داود (مارس ١٥٤٩ ـ غشت ١٥٨٢) تولى الحكم في كوكيا بمساعدة صنهاجة والأعراب ، ودخل غاوعنوة فقتل قائد الجيش (هيكي

---

(١) بازيل دافيدسون ـ افريقيا تحت اضواء جديدة ـ ص ١٥٨

موسى)[1] وولى أخاه عليا دودو قائدا وحاجبا ، واقرارا بجميل من آزروه في بداية أمره عين كاشيتا وهو عربي زغراني حاكما على كورما[2] ، كما نصب ابنه محمد بنكن رئيسا للشرطة في غاو[3] .

وكعادة ملوك السونغاي وجه داود حملات متعددة الى مختلف الجهات ، كما قاد بعضها بنفسه حيث توجه الى تنديرما عند بحيرة فاكيبي لقتال الكفار ، والى جبال هانبوري جنوب النيجر ، وموشي الى الجنوب ومملكة كانطا في الشرق (١٥٥٠ و١٥٥٥) . وكان شجاعا ذا بطش شديد وقلب لا يرق ، فأحرق مدنا وذبح المناوئين بدون هوادة ، وقد حدث الطاعون في عهده كما صعد في السماء نجم مذنب كان يرسل ضوءا ساطعا ، وكان ذلك من اسباب التذمر من حكمه مما أدى الى عدم التوفيق في حملاته التي والى القيام بها بقية حياته .

ـ الحاج محمد الثاني (غشت ١٥٨٢ ـ دجنبر ١٥٨٦) [4] هو اكبر اولاد داود ، كان رئيسا وقائدا هماما وحاكما عادلا لم يسمع كلام الوشاة في اخوته أعمامه ـ وقد اتهم الجيش سلطان مسينا بالخروج عن الطوق واعتقلوه وسلموه للحاج محمد فعفا عنه وأبقاه في بلاطه كأحد وزرائه ، وعين أخوته حكاما على الأقاليم ، وقبض على أخيه محمد بنكن الذي ثار في تنبوكتو بتأييد من القاضي ، فقتل الأول[5] وعفا عن الثاني ، وكان القاضي اذ ذاك العاقب آقيت وتوفي لكبر سنه في العام التالي (١٥٨٣) ، فأتى الأسكيا للتعزية ، ونصب بنفسه القاضي الجديد أبا حفص عمر

---

(١) هيكيي تعني القائد البحري

(٢) لقب حاكم كورما ، هو كارمينا أو كورمن فاري ، وكورما منطقة واسعة تقع غاو وسطها وقد بقي كشيتا في منصبه اثنى عشر عاما ومات عام ١٥٦٢ .

(٣) يلقب صاحب المنصب منزو .

(٤) المصدر السابق ص ١١٤ « قال أهل العقل والمعرفة ساعتئذ بانه يستحق أن يكون أميرا ولو في بغداد ، وقيل اثنان من سلاطين سونغاي اكبر من سلطنتهم : الأمير الأسكيا الحاج محمد وحفيده وسميه الأسكيا الحاج محمد بن الأسكيا داود ، واثنان استويا بها الاسكيا محمد بنكن بن فرن عمر كمزاغ والأسكيا اسحق بن داود والباقون سلطنة سونغاي أكبر منهم » .

(٥) قيل انه اعتقله وتولى قتله الاسكيا اللاحق ـ المصدر السابق ص ١٢١

بن محمد آقيت الذي رفض في البداية هذا المنصب[1] ، وكان لهذا القاضي علاقة حميمة بأحمد المنصور الذهبي ورجاله .

وفيما كانت الأحوال تسير سيرها العادي ، كان أخوته يدبرون المكايد له ، فاجتمعوا وتقدموا بعساكرهم الاقليمية نحو غاو فخلعوا أخاهم ونصبوا أحدهم على العرش ، ومات الحاج محمد بعد أيام في ظروف غامضة .

ـ الأسكيا محمد بانو بن داود (دجنبر ١٥٨٦ ـ ابريل ١٥٨٨)

لأولى توليته غير حكام الأقاليم وأبدل كبار الموظفين في الادارة والجيش ، فعين أخاه صالحا حاكما لكورما (كارمينا فاري) وأخاه محمد الصادق أمينا عاما للملكة[2] ، وعين أحد جلساء السؤ لديه ، وكان حرطانيا ، حاكما لأقليم تنديرما الذي يمتد من نهر النيجر الى تغازى[3] .

كان الأسكيا محمد بانو سيء الأخلاق محتقرا للعلماء ، مجالسا لقرناء السؤ ، وكأن ذلك انعكس على أيامه ، فكانت ايام بؤس ومجاعة ، وثورات ، ودسائس ، وخيانات ، حتى من أقرب الأقرباء ، وأول عمل قام به أمين المملكة العام أخوه محمد الصادق هو توجهه الى ميناء كبارا ، حيث قتل الوالي ، وأردف جيش الوالي وراءه وسار الى غاو يطلب الملك لنفسه ، فبرز له أخوه الأسكيا ، وقبل خروجه من المدينة سقط من على فرسه ومات لحينه[4] .

ـ الأسكيا اسحاق بن داود (ابريل ١٥٨٨ ـ ١٥٩١)

كان على الأسكيا الجديد أن يواجه أخاه محمد الصادق ، وقد نجح في ابعاده عن المدينة ثم لاحق فلوله الى تنبوكتو ، وفيما كان الأمين العام السابق يهرب الى تنديرما ليلتحق بالصحراء دخل الأسكيا مدينة تنبوكتو ، وقتل الخوارج والثائرين

---

(١) المصدر السابق ص ١١٥ .
(٢) يطلق على صاحب هذا المنصب الذي أحدث الآن فقط لقب (بلمعو)
(٣) يعرف حاكم هذه الجهة بلقب كلشع ، ونجده معمما على حكام بعض الجهات الأخرى فيما بعد .
(٤) كان الأسكيا يلبس يومها درعا من الحديد بالاضافة الى أنه كان عظيم الجسم .

الذين كانوا محترمين في الجوامع ومتشفعين في العلماء ، وسجن عددا آخر من الحكام سرحهم جؤذر فيما بعد واستخدمهم ، وعاد الى غاو حيث شرع في تنظيم شؤون دولته وتعيين القواد والحكام .

وكانت تلك التعيينات على النحو التالي[1]

- محمود بن اسكيا اسماعيل : كارمينا فاري[2]
- محمد هيكو حفيد الأسكيا الحاج محمد الأكبر بانكافارما[3]
- محمد كاغ : بلمعو[4]
- ينبو ولد سابي وهو عربي الأصل فاري منزو[5]
- حسن بن داود : تنبوكتوكي وقد قدم طاعته للمغاربة[6]
- اكمظل : مغشرن كي[7]

ولم يقم الأسكيا الا بغزوات قليلة قادته الى المناطق القريبة من العاصمة ، لأن الأخبار كانت تتوارد عن عزم المغاربة مهاجمة بلاده ، وقد داهمته قوات جؤذر باشا فانهزم أمامها ، وفر الى الجبال الوسطى ، وهناك عزله أخوه محمود الذي لم يطل به الملك أكثر من أربعين يوما حيث قبض عليه الباشا محمود بن زرقون .

والذي يلاحظ على هذه العقود الأربعة الأخيرة من تاريخ سونغاي الحرة ، هو ما طبع البلاد من فوضى نتجت بصفة رئيسية عن الصراع المرير من أجل

---

(١) نذكرها هنا لأن المعينين فيها هم أنفسهم الذين وجدهم المغاربة في مناصبهم عندما داهموا مملكة السونغاي .
(٢) حاكم على المنطقة الشرقية المحيطة بالعاصمة .
(٣) بانكافارما أو سعو فارما : وزير الغابات
(٤) بلمعو أمين المملكة العام
(٥) مفتش الشرطة
(٦) كي معناها الحاكم
(٧) رئيس قبائل التوارك ، ومغشرن أكبر قبائلهم

العرش ، وانعكس الأمر على حالة الأمن العام ، وعلى النشاط الزراعي ، والتجاري وعلى الصيد اذ خاف المزارعون والتجار والصيادون من تجاوز حدود قراهم ومدنهم ، وكان الحكام طغاة متجبرين ، يحاولون في المدة القصيرة التي يقضونها على رأس ادارتهم أن يجمعوا ما يمكن جمعه ، حتى اذا داهمهم العزل أو النقل وجدوا بين أيديهم مالا ومتاعا[1] .

وكان الوباء الذي عرفته مدينة تنبوكتو والمناطق القريبة منها عام ١٥٨٣ أسوأ ما عرفته البلاد من كوارث وأهوال[2] .

وإذا كان الطابع العام لمعاملة الجالية البيضاء في المدن هو الاحترام والتقدير ، وخاصة العلماء منها ، فان هذه الجالية تعرضت في بعض الاحيان لمضايقات لم تحتملها ، وادت بها الى الثورة في عهد الأسكيا داود[3] وقد تذمر العرب الذين كانوا يصلون بقطعان مواشيهم الى البحيرات الغربية وثاروا مع التوارك جميعا وذلك في أعقاب ثورة محمد الصادق ضد اخيه الاسكيا اسحاق التي ألحقت بهم أبلغ الأضرار ، وقد انضم سكان هذه النواحي الى المغاربة بمجرد وصولهم السودان .

لقد كانت أطراف المملكة واسعة ، وشعوبها كثيرة متنوعة الأصول ، فلم يكن من المنتظر أن يفعل الأساكي أكثر مما فعلوه لضبطها ، وأحكام ادارتها ، وهذه احدى الأعمال الهامة في عهدهم رغم ما عرفته البلاد من ثورات ومآسي ، فالضرائب كانت تجبى بانتظام ، وقد قسم الأسكيا الحاج محمد مملكته الى أربع مناطق لتسهيل المهام الادارية وتقريب الادارة من الناس ، وكانت تلك المناطق تحكم بواسطة حكام يطلق عليهم اسم الرئيس (كي) ، ودرج الأساكي على اتخاذ وزراء (فارما) ورئيس للشرطة (مونزو) ومكلف بالذهب (كايماعا) وقائد

(١) حسب ما أخذه محمود يزا أحد خدام الاسكيا اسحق من تجار تنبوكتو فكان ٧٠،٠٠٠ قطعة ذهبية .
(٢) السعدي تاريخ السودان ص ١٠٣
(٣) السعدي تاريخ السودان ص ١١٣ : باشر محمد بنكى (والي الشرطة) العسف والظلم على بيضان تنبوكتو حتى ثاروا على عاملهم يحيى .

للمراكب (هيكوى) ورئيس للاسطبلات (باري كوى) ورئيس للبلاط الملكي (هوكوكرى) ، وعلى تنظيم الجيش على أساس الاحتراف حيث كان يضم فرقة من العبيد ، وفرقة من المتطوعة ، وبوليس النهر .

وكان للعدالة قد سيتها واحترامها ، ومكانة القاضي كانت فوق كل مكانة ، وقضاة المدن الكبرى كانوا يعينون من بين كبار علماء البربر أو العرب، أما القرى فكان يرسم فيها لمركز القضاء فقيه زنجي يدعى (الفع أي الفقيه) .

وكانت الأشغال العمومية تسير بكيفية مرضية ، وينذب العبيد للقيام بها ، حيث كان لهم حي خاص في غاو ، بناه لهم الأسكيا محمد ووسعه سميه الحاج محمد ابن موسى .

أما الزراعة فقد شهدت تطوراً ملحوظاً بعد استقدام المزارعين اليهود من توات ، فقد شق ملوك السونغاي الأقنية ، وأوصلوا المياه إلى الجهات المنخفضة ، وأقاموا السدود على البحيرات للاحتفاظ بمياه الفيضان ، وقيل بأن قناة عظيمة حفرها السكان بين بحيرة فاكيبي ومنطقة ولاته الصحراوية كانت تسمح بزراعة مناطق جرداء وبلغ طول القناة ٢٠٠ كلم[1] .

وقد عملت مناجم الذهب بنشاط لم يفتر إلاّ وقت الاضطرابات الأخيرة ، وحالة الفتور هذه هي التي وجدها المغاربة عند مجيئهم ، أما الملح فكان يستخرج من جميع ممالح الصحراء أو من بعضها حسب الظروف السياسة والتقلبات في نهاية القرن السادس عشر ، وكان يشرف على تلك الممالح عمال من صنهاجة ، كما كان الحال دائماً ، وأهم تجار الملح كانوا من المغرب وطرابلس[2] .

ويبدو أن تنبوكتو لم تتأثر كثيراً كغيرها من المدن بالفوضى التي عمت البلاد ، « فقد كانت تنبوكتو قبل نزول هذه المحنة بها (الجيش المغربي) وقبل

---

(١) Geographie imirerselle Txl Armand colin 1937 P 462

(٢) J.S canale Afrique noire P. 162

اجلاء أولاد القاضي محمود بن عمر وحفدته وأسباطه في غاية الحسن والجمال واقامة الدين واحياء السنة ما شئت من دين ودنيا . . . »[1] .

وازدهرت الفنون في بعض الفترات ، وكان للاسكيا مجالسه وندماؤه ، وقد أزال الأسكيا محمد بانكن ظروف التقشف ووسع على الحاشية والناس وشجع الفن الموسيقي وكان مجلسه لا يخلو من الراقصات وضاربي الطبول ولم يفعل عمه الأسكيا الحاج محمد ذلك لخوفه من عيون الحساد .

ويصف مؤرخان سودانيان حالة سونغاي قبيل مجيء الحملة السعدية الكبرى ، وما حققه المغاربة بعد استقرارهم في أرجاء الممالك السودانية من منجزات ، فالسعدي وجد كل شيء تغير في العهد الأخير للسونغاي فمملكتها التي تحد من دندى شرقاً إلى المحمدية[2] غرباً ، ومن أرض بندوكو[3] جنوباً إلى تغازى وتوات شمالاً تغير كل شيء فيها « فصار الأمن خوفاً والنعمة عذاباً وحسرة ، والعافية بلاء وشدة وأخذ الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الأمكنة طولاً وعرضاً بالاغارة والحرابة على الأموال والنفوس والرقاب ، فعم ذلك الفساد وانتشر وبالغ واشتهر ، فأول من بدأ فيها[4] سامبا لمدو ، صاحب دانكا[5] فأهلك كثيراً من[6] رأس الماء وأكل اموالهم على الاطلاق وقتل من قتل . . . وكذلك الزغرانيون اتلفوا بلاد براوديرما[7] أما أرض ديني[8] فقد أتلفها كفار بنبارا شرقاً وغرباً يميناً وشمالاً

---

(١) كعتو - تاريخ الفتاش ص ١٧٨ « وهي يومئذ لا نظير لها في البلدان . . مروءة وحرية وتعففا وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء وتلطفاً بطلب العلم واعانتهم . . وتنبوكتو ليس فيها حكم إلاّ حكم متولي الشرع ولا سلطان فيها ، والقاضي هو السلطان وبيده الحل والربط وحده . . . وذلك مع العافية والأمن الذي خص الله به اهل تنبوكتو فترى منهم مائة رجل ليس لأحد منهم حريش ولا سيف ولا مذية إلاّ المسناة » ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) مدينة مال باماكو .

(٣) قرية على الضفة اليمنى لنهر النيجر ، ويطلق الاسم أيضاً على منطقة شمال جبال همبور .

(٤) أي الفتنة

(٥) اقليم غرب بحيرة فاكيبي قاعدته قرية رأس الماء .

(٦) هناك كلمة سقطت من المخطوط لعلها أهالي أو سكان .

(٧) اقليم واسع عاصمة تاندورما أو تنديرما إلى الجنوب من بحيرة فاكيبي

(٨) جيني أو ديني هي عاصمة سلطنة مسيناً التي كان لها استقلال ذاتي

اتلافاً فسيحاً شنيعاً وخربوا جميع البلاد [1] ونهبوا الأموال واتخذوا الحرائر جواري وتناسلوا معهم فكان الذراري مجوسيين .

« وقصصهم [2] إلى قرب انقراض دولتهم وزوال مملكتهم [3] فبدلوا نعم الله كفراً ، وما تركوا أشياء من معاصي الله تعالى إلاّ وارتكبوها جهراً من شرب الخمور ، ونكحة الذكور ، أما الزنا فهو اكبر عملهم حتى رجع بينهم [4] كافة غير محظور ، ولا لهم فخر ولا زينة إلاّ بها ، وحتى يفعلها بعض اولاد سلاطينهم باخوتهم . . . ولهذا انتقم الله سبحانه منهم بهذه المحلة [5] المنصورة ، فرماهم بها في مسافة بعيدة ومكابدة شديدة ، فاجتث عروقهم من أصلها ولحقوا بأصحاب العبرة وأهلها [6] .

أما صاحب الفتاش فانه يصف الحالة بعد ورود الحملة بقوله : « جبر الله كسر تنبوكتو وكثر قراءها من كوكيا إلى جيني ، وجمع شملها وأقامها أتم قيام وعمرها وافاض الله البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جيش مولانا احمد [7] وأكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغاي » [8] .

٢) امبراطورية بونو ـ كانم [9]

ظهرت بورنو ـ كانم كأمبراطورية متحدة في القرن الثاني عشر ، ثم تمزقت

---

(١) تعبير مغربي عامي يفيد معنى المدن او الحواضر
(٢) أي ملوك السودان
(٣) هناك بتر في الجملة لعله سقط من المخطوط ويمكن وضع أي خبر للمبتدأ المتصدر للجملة مثل كثيرة أو شنيعة . . . الخ
(٤) تعبير مغربي عامي معناه أصبح بينهم وتقرأ رجع بتسكين الراء والعين
(٥) المحلة تعبير معروف في المغرب إلى اليوم معناه الحملة
(٦) السعيدي ـ تاريخ السودان ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٤
(٧) احمد المنصور الذهبي
(٨) كعتو ـ تاريخ الفتاش ص ١٨١
(٩) قامت امبراطورية بونو في البداية على نحو متواضع في القرن التاسع على يد شعوب من أصل تيدا Teda ، التي غزت آنذاك مجموع المناطق المحيطة ببحيرة تشاد والناطقة بلغة التيبا أو لغة التبستي ،

نتيجة لفتن وحروب داخلية ، وفي القرن السادس عشر اتحدت من جديد في ظل ملوك اقوياء حيث قامت قوتها وحضارتها على تحويل المعادن ، ومراقبة الطرق التجارية الكبرى المتجهة من السودان إلى طرابلس ومصر .

وكان النظام الملكي قوياً فيها وينبني على المركزية الدقيقة وحكم الشورى ، وقد اتخذ السلطان ادريس الثاني مجلساً للعرش يضم اثني عشر من كبار الضباط ، وحكام المناطق ، وواظب المجلس على تقديم المشورة للعاهل ، وتقييم أعماله ، وعلى الرغم من أنه كان مجلساً عائلياً ، لأن قادة الجيش والحكام ينتسبون للأسرة الحاكمة ، فان سلطات الامبراطور كانت مراقبة .

وعندما اعتلى السلطان ادريس الثالث الحكم (١٥٧١ - ١٦٠٣) وطد علاقاته مع مصر وطرابلس ، وارسل التجار لشراء الأسلحة النارية من بلدان حوض البحر المتوسط ، وكون فرقة من العبيد والمرتزقة ضمن جيشه المحترف ، وضبط بواسطة ذلك الجيش شؤ ون بلاده ، وأقر الأمن بها ، وأوصل حدودها إلى الكمرون وإلى جبال العير في الشمال ، وقد حافظ على النظام الاداري المركزي السابق ، واتخذ شعارات الملك وتقاليده[1] ، فكان يتحدث إلى الناس من وراء حجاب ولا يخرج إلاّ محمولاً أو راكباً على فرس تحجب المظلة نور الشمس عنه ،

وتقسم البلاد عادة إلى شطرين تبعاً للتطورات التاريخية وللأصول البشرية ، فكانم شمال البحيرة وبورنو في غربها ، وكانت العاصمة باستمرار هي نجيمينا ، اعتنق الملك هومي (١٠٨٥ - ١٠٩٧) الاسلام وقت تمركز المرابطين في غانا (ويمكن التساؤ ل عن مدى امكانية الربط بين الحدثين) وفي القرن الثاني عشر عوضت الأسرة الحاكمة الأولى بأسرة مسلمة من أصل كانمي ، وفي القرن التالي اخضعت هذه الأسرة بيلما وتبستي في الشمال وبورنو في الغرب ، واوصلت الامبراطورية حدودها إلى فزان شمالاً وكانوا جنوباً ، ولا شك أن اتصال الامبراطورية بالبحر المتوسط يشرح الظروف التي تمّ فيها تطورها الاقتصادي والسياسي .

وقامت في عهد السلطان ابراهيم (١٢٨٨ - ١٣٠٤) ثورة في كانم ففصلها عن امبراطوريته ، وفي القرن السادس عشر عاد السلطان ادريس الثالث إلى عزوكانم وضمها من جديد فيما يسمى بالوحدة الثانية .

(١) J. Surlt-canale, Afrique noire, P 167, grand LAROUSSE incyclopidique ..L. 1962

P: T.2. P 248 Y. rvox: Histoire de l'empere de Bornou Paris larose 1949 PP 63-102

وكان يقيم المهرجانات العامة[1] .

وفي أواسط أيام حكمه انخرط بشكل ملفت للأنظار والفضول في مشاكل الغرب ، ومشاغل الشمال الغربي .

فبالنسبة لعلاقاته مع دولة السونغاي كان هناك اصطدام لا مندوحة عنه بسبب طمع كل من الدولتين في ضم الامارات الصغيرة القائمة ببلاد الحاووصا مثل كانو ، وكاشينا ودوراً ، وجوبير ورانوا لما تحفل به من ثروات زراعية وحيوانية[2] وقد كان مصدر الخطر الحقيقي على دولة السونغاي قبل حملة المغرب عليها هو المنطقة الشرقية ، وزاد من توقع حدوثه خطر غزو بورنو كانم وتنازع خلفاء الأسكيا الحاج محمد[3] .

وبالنسبة للمغرب ، فان مصالح الدولتين المغربية والكانمية قد التقت حينما كان الامبراطور ادريس الثالث يرغب في الحصول على السلاح الناري من السعديين بعد أن تردد العثمانيون في تسليمه اليه ، وكان أحمد المنصور الذهبي يتطلع إلى تحييد ادريس في موضوع الحرب المقبلة مع السونغاي ، والوقوف في وجه خلفاء بني عثمان أن طمعوا في الاجلاب على المناطق التي صمم المنصور على الحاقها بالمغرب .

وتمت وحدة قانونية بين البلدين عن طريق مبايعة سلطان بورنو ـ كانم للعاهل المغربي عام ١٥٨٢ كما سنرى ذلك في موضعه من هذا البحث .

٣) ممالك بلاد الحاووصا :

لم تأخذ المراكز السياسية التي قامت منذ القرن الحادي عشر شكل الممالك

---

(١) لعلها عادة اخذها عن أحمد المنصور الذهبي

(٢) عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، شركة الطبع والنشر ـ الدار ابيضاء ١٩٧٧ ص ١٤٧

(٣) J. Suret - canale, Afrique noire P 163

في الواقع ، واغلبها كان يقام ضمن قبيلة واحدة أو خلائط قبلية تسكن منطقة تمتاز بخصائص معينة أو حول مدينة واحدة ، وكان الزعماء يتخذون لأنفسهم لقب الملوك .

وقد بلغ عدد هذه المراكز أو المالك سبعة ، أسس أغلبها زعماء الحاووصا ، وهي : الداورة وكانو وكراك وجوبير وكاشيناورانوا وأنغارا ، وكانت تحد شمالاً بصحراء اكدس وشرقاً ببورنو وجنوباً بنهر بوناوي وغرباً بنهر النيجر .

واجتهد كل ملك في أن يتخذ له عاصمة ، ويحصنها ، ويتيح لها القيام بالمهام التجارية إلى جانب الصناعات التقليدية وكان الحديد أساس هذا النشاط الصناعي ، أما الاهتمام بالنحاس فكان اهتماماً ثانوياً ، ولكثرة المواشي ـ والمنطقة رعوية بالدرجة الأولى ـ فان غزل الصوف ونسجه كانا من الأمور المتقدمة ، ووصلت تلك الغزول والمنسوجات إلى الشمال الأفريقي .

والظاهرة الغريبة أن هذه المراكز كلها كانت تفوق ما يحيط بها من ممالك قوية ، حضارة ورفاهية ، فالحياة شبه حضرية ، والروح العنصرية أو التفرقة الدينية منعدمتان ، والتعليم منظم ، والمدن تعج بالمثقفين والعلماء ، والعدل مستتب ، والنساء يلعبن دورهن في الحياة العامة ، حتى أن امرأة في كانو اصبح لها شأن في السياسة والعلم وهي الأميرة أمينة[1] .

وقد دخل الاسلام إلى كل هذه المراكز في القرن الرابع عشر على يد تجار المادينغ الغانيين ، ولكن البوادي بقيت على وثنيتها ، وكانت هدفاً لحملات الجهاد التي سيرها الملوك المحليون أو ملوك مالي والسونغاي ، ولم تكن أي من هذه المراكز تميل إلى الحرب ، بل كانت ترغب السلام وتخضع ـ حسب الظروف ـ لجيرانها السونغاي أو لأباطرة بورنو ـ كانم[2] .

---

(١) عاشت في القرن الخامس عشر .

(٢) يراجع كتاب ي . و . بوفيل

E.W. Bovill, the Goldentrede of the Moors

ترجمة زاهر رياض ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨ صفحة ١٤٢

وقد كانت المملكتان الكبيرتان تجربان بين الحين والآخر الوثوب على أي من هذه المراكز ، مما كان يتسبب في احتدام التوتر والتنافس ، فعندما وجه الأسكيا داود سنة ٩٦٠ (١٥٥٢ ـ ١٥٥٣) قوة صغيرة للاغارة على كاشينا واجههم فرسان الحاووصا بمساندة من بورنو ـ كانم ، وأبادوا القوة الغازية التي كان يقودها شقيق الاسيكا على دورو ثم وجهوا رؤ وس القتلى إلى الأسكيا اظهاراً منهم للرغبة في السلام .

ومن بين المراكز التي ظهرت في وقت متأخر مركزان مهمان : الكيبي وليكا ، واتخذ زعيما المركزين لقب السلطان ، وكان شعباهما خليطاً من السونغاي والحاووصا .

ومنذ نهاية القرن السادس عشر حقق سلطان الكيبي استقراراً مهماً بمملكته ، في غفلة عن السونغاي ، وقد ظلت هذه السلطة قائمة تحت الحماية المغربية إلى القرن التاسع عشر(١) وفي ظل الإسلام الذي كان عاماً بين سكانها .

أما ليكا ، فإنها استغلت أيضاً الثورات الداخلية في السونغاي واستقلت عنها ، ولكن ملوك السونغاي المتأخرين لم يقبلوا بذلك فهاجم الأسكيا داود سلطنة ليكا عام ١٥٥٢ فتصدى له السلطان كانطا ثم انعقد الصلح بعد سنة من الكر والفر وفي سنة ١٥٦١ توفي السلطان كانطا فخلفه ابنه أحمد .

إن أهمية هذه المراكز أو الممالك التسع في هذا البحث ترجع إلى عوامل متعددة :

ـ فقد كان لها إتصال بالمغرب عن طريق التجار وقدوم عدد كبير من علماء المغرب للتدريس فيها وخاصة في مملكة كانوا .

ـ الرسائل التي وجهها أحمد المنصور الذهبي إلى ملوك هذه المراكز قبل

---

(١) J. Suret - canale Afrique noire P164

مداهمته للسودان ، ويظهر أنه وصل إلى تحقيق غايته حيث رحب أولئك الملوك بمقدم المغاربة ، وأرسوا الطاعة إليهم .

ـ المكانة الاستراتيجية لهذه المراكز كعنصر توازن بين الدولتين الكبيرتين .

ـ وقوعها في منتصف الطريق التجاري الشرقي الغربي بين بورنو والسونغاي ، وعلى المحور التجاري الشمالي الجنوبي الذي يقود إلى ممالك تقع إلى الجنوب وأهمها إمارات الموسى ومملكة بنين[1] .

٤) إمارات الموسى[2]

هي مجموعة ، من المؤسسات السياسية ، كانت تعيش على شكل كونفيدرالي ، ولم تخضع لملوك الشمال بل حافظت على تجانسها واستقرارها ، وكان الملك الأكبر سيداً على نهر النيجر الأعلى وغنياً بموارده الزراعية .

وكانت التجارة منها وإليها ضعيفة نظراً للبعد الجغرافي عن مراكز التجارة في الشمال ، ولم يكن التجار المحليون الوثنيون يقدمون على المخاطرة بتجارتهم في الشمال المسلم .

وكان تشبث الموسى بدياناتهم القديمة عنصر إغراء لملوك الشمال الذين أرادوا أن يسجلوا على أنفسهم أنهم قاموا بالجهاد لنشر الإسلام ، ولعل أعنف المعارك هي

---

(١) أو الداهومي ، تأسست في القرن ١٣ ، حضارة متمدنة ونظام اقتصادي جيد ، وافرة السكان ، لم يلعب فيها الإسلام أي دور ، وتاريخها في حكم المجهول .

(٢) قبائل الموسى من أكثر القبائل عدداً ، وأشدها تعلقاً بوحدتها أمام المحيط البشري الزاخر حولها ، فمن الشرق كانت تحد بقبائل كورما المتحدة مع السونغاي وفي الجنوب قبائل كسينا المتوحشة وفي الغرب والغرب الشمالي قبائل السامو والطومبو ، وفي الشمال السونغاي والتوارك ، وحينما رأت الموسى منذ قدم المرابطون إليها وحاولوا حملها على اعتناق الإسلام ان ذلك سيؤدي إلى تفكيك وحدتها العضوية قاومت هذا الدين بكل ضراوة وبقيت على وثنيتها حتى العهود المتأخرة .

ظهرت أولى التنظيمات السياسة عند الموسى بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وعرفت استقراراً مطلقاً ، وقامت فيها أول مملكة قوية في القرن الثالث عشر على يد الملك ياتاد وكان سيداً مطلقاً ولكنه أنشأ مع الإمارات الصغيرة كونفيدرالية وبقيت على هذا الحال حتى القرن الماضي

التي وقعت في القرن السادس عشر ، وقادها ملوك السونغاي دون أن يحصلوا على أي نجاح في ذلك المحيط الوثني .

وحدث تطور آخر في ذلك القرن نفسه ، فبعد هزيمة ألحقها السونغاي بقبائل البهل[1] (الذين كانوا قد اندسوا في هذا الوقت بين الموسى) ، جمع الزعيم كولي بن طانغيلا فلول قبائله المهزومة وفر إلى جبال فوتاجلون حيث أسس مملكة[2] سادها الرخاء والتفاهم مع الموسى ، وعمرت حتى سنة ١٧٧٦[3]

٥) سلطنة مسينا :[4]

كانت بداية هذه السلطنة في أوائل القرن الخامس عشر ولكنها كانت ـ ولمدة قرن ـ عبارة عن مسيخة قبلية لا صلة لها بالتنظيم السياسي ، وظلت صلتها بمالي ثم بسونغاي صلة طاعة تقدم ، وأتاوات تؤدي ، ورغبة ، في الحماية لا تنقطع ، وإن الرجوع إلى الوضع الجغرافي والبشري لهذه السلطنة يعطي التفسير الواقعي لكل ذلك ، فمسينا تقع في منطقة مستنقعية تكثر فيها الأنهار التي ترفد النيجر وتمتد في أطرافها البحيرات ، ولذلك فقد قصدها منذ القديم العديد من القبائل الصغيرة الهاربة من القوى الكبرى في غرب افريقيا ، فهي لذلك لا تشكل وحدة عنصرية عصبية ، وان تتغلب فيها عنصر الفولبيه (الفولانيين) ، ومن جهة خيراتها فهي كثيرة وهامة ، فالمزارع المعطاء في كل جهة ، وشباك الصيادين تلقى في أنهر

---

(١) وقعت هذه المعركة داخل بلاد الموسى سنة ١٥١٢

(٢) كان الأسكيا منسى محمود الثاني قد استغاث بالبرتغاليين للقضاء على هذه المملكة

(٣) J. suret - Canale Afrique noire, P184 - 185

(٤) لا نجد بداية مضبوطة لقيام هذه السلطنة وإن كانت الأساطير التي كتبت عن الملوك الأول لا تخلو من حقائق وإثارة ، فبدافع من حب أحد القادة القبليين لفتاة من كورما وامتناع أبيها عن تزويجها له ، اتجه القائد إلى مسينا وسكن عند الحاكم مع الفتاة الهاربة ، ولم يلبث أن جلب قبائل الفولبيه بسحر كلامه وبطولته فقدموه عليهم وتسمى بالسلطان جاجي بن سادي (نهاية القرن الخامس عشر) وقد حكم عقبة من بعده ، سوادي (١٥١٠ ـ ١٥٣٩) وحمادي يسر (١٥٤٠ ـ ١٥٤٣) وحمادي آمنة الأول (١٥٤٣ ـ ١٥٤٤) وبوبو (١٥٤٤ ـ ١٥٥١) وإبراهيم (١٥٥١ ـ ١٥٥٩) وبوبو الثاني (١٥٥٩ ـ ١٥٨٣) وحماد آمنة الثاني (١٥٨٣ ـ ١٦٠٣) الذي انضم للمغاربة .

وبحيرات غنية بالأسماك ، وذلك عدا منجم الذهب الذي استثمر منذ القديم بين مدينتي بانغو وبورغو (منجم بيطو) .

وكانت سونغاي تعرف هذه الخصائص ، ولا تبتعد جيوشها كثيراً عن تانديرما جنوباً حتى لا يؤدي ذلك إلى تخريب المزارع والمناجم ، وهو أمر كان يقع عندما يحاول أحد الأمراء إخضاع مسينا بالقوة ، ولكن هذا لم يمنع ان الادارة السونغانية كانت قائمة هناك .

واشتهرت مسينا بوجود إحدى ثلاث كبريات المدن السودانية بها وهي دييني ، وقد كانت مدينة مهمة لها سوق عامرة طيلة أيام الأسبوع ، يلتقي فيها تجار الملح والذهب والثمار ، واعتبرت مدينة للعلم كتنبوكتو ، وحج إليها الفقهاء والمدرسون من المغرب والسودان ، وأول من تولى القضاء فيها الفقيه محمود بن عمر آقيت الشهير قبل توليه نفس المنصب في تنبوكتو[1] ، وآخر قاض وجده المغاربة هو محمد بنبا السوداني ، وكان ملوك السونغاي يقضون أوقاتاً طويلة في ديني كلما ذهبوا أو عادوا من غزواتهم ضد الكفار أو الأعراب ، وحاكم المدينة سمي بمنذو إشارة إلى منصبه العسكري ، وأثناء الفتنة في عهد الأسكيا داود حاول الأمير محمد بنكي الإغارة على ديني وبعض قرى مسينا فاتجه إليه الأسكيا لكبح جماحه وكسر شوكته[2]

لقد كانت مسينا هي مزرعة السودان الأولى ، وخزانته الذهبية ، ولعلها حققت بالكيفية المطلوبة الآمال التي علقها المنصور الذهبي على أقطار السودان[3] .

---

(١) السعدي ـ تاريخ السودان ـ ص ٣٨

(٢) المصدر السابق ص ١١٠

(٣) ابتداء من أواسط القرن السادس عشر أخذت أوصال الأقاليم الغربية القريبة من المحيط الأطلسي تتفكك وتنفصل ، فقد أسس التكرور مملكة خاصة بهم على الضفة اليسرى لنهر السنغال ، وأقام الولوف دولة خاصة بهم في السنغال الأدنى وغامبيا ، وكانت توجد ممالك أخرى هي الوالو ، وكايور ، وباوول ، وسالوم ولكنها هوت تحت ضربات الأوروبيين .

٣ ـ أحوال المغرب الداخلية في نهاية القرن السادس عشر

شكلت معركة الملوك الثلاثة[١] نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب ، فانتقلت الدولة إلى مركز قوة لم تعرفه منذ أمد بعيد ، وظهرت ـ وقد وصل أحمد المنصور المعروف بالذهبي إلى الحكم الآن ـ بملامح الدولة الحديثة المستقرة ، وهو أمر جديد في مغرب القرن السادس عشر كل الجدة ، فعادت الوحدة الوطنية على يد حكم إداري يقظ تحمل ملامح اللامركزية ، وانطلقت الأعمال الإنشائية في طول البلاد وعرضها ، وتجددت الفعالية الاقتصادية الداخلية باتساع المنجزات الزراعية والصناعية ، وبتجويد وسائل الانتاج وإفساح المجال واسعاً أمام الخبرات الحديثة وفتح أبواب الاتجار على مصراعيها ، وأصبح الأجانب يقيمون مع البلاد علاقات الود ، ويزيدون من تعاونهم التجاري والعلمي والعسكري ، بدلاً عن نظرة الطمع والتحرش ، وواكب كل ذلك تفتق عبقرية المنصور الذهبي عن حيوية دبلوماسية متحركة خارقة .

ولم يسقط تاريخ المغرب من سجلاته بكيفية نهائية ، بعد أن تحول إلى الغنى والاستقرار ـ نزوات الخارجين عن النظام العام ، ولا تطلعات الطامعين في العرش ، فخلال الست والعشرين سنة التي قضاها أحمد المنصور حاكماً صلباً وسلطاناً شديد المراس ، ثار أميران من الأسرة المالكة ، وانتفضت بعض القبائل وخلع ولي العهد محمد المأمون أباه عن العرش ، وقاد قبائل ناحية فاس في حملة عصيان كبرى ، ولكن يد الدولة القوية كانت تضرب بلا رأفة[٢] .

---

(١) وقعت المعركة بالقرب من مدينة القصر الكبير في شمال غرب المغرب يوم ٤ أغسطس ١٥٧٨ ، وكان يقود جيوش أوروبا (البرتغال وفرنسا واسبانيا والمانيا وفرسان البابا) ملك البرتغال سيباستيان يساعده محمد المتوكل المسلوخ ، وكان يقود جيش المغرب السلطان عبد الملك السعدي ، وانتهت المعركة بانتصار السعديين ، ولكن الملوك الثلاثة المذكورين ماتوا في يوم المعركة جميعاً .

(٢) مؤلف مجهول ، تحقيق ونشر كولان ـ تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية / معهد العلوم العليا ـ الرباط ١٩٣٤ « كان المنصور يمثل بالمسلمين العصاة بالصلب في الخوازيق والمخاطيف ، وأمر السلطان عند دخوله لمراكش بقتل الأعيان من كراوة وتعليق رؤوسهم بباب القصبة ، فلما أصبح الصبح إذا بكراوة كلهم معلقون على باب القصبة ، ولم يصبح من الغوغاء متكلم »

النظام العام والسلط الثلاث :

كان أحمد المنصور السعدي ، خليفة لرسول الله ، بحكم نسبه القرشي وبيعة المسلمين له ، واعتبر نفسه خليفة على كل المسلمين في مشارق ومغارب الأرض ، ونزع عن أي حاكم مسلم آخر هذه الصفة .

وحكم المنصور كان حكماً مطلقاً استبدادياً ، فالكلمة الأولى والأخيرة له سواء تعلق الحال بأمور سياسة الرعية أو توجيه خطط الجيش أو السياسة الخارجية ، أو بشؤون التقاضي ، وقد تقبل فكرة الشورى فأنشأ مجلساً (لملأ المسلمين) لتقديم النصح إليه في أخطر الشؤون ، وكان المجلس يناقش حيناً ويستمع أحياناً دون أن يكون في رأيه تقرير أو بث ، ودرس هذا المجلس - فيما نعلم - قضيتين هامتين وفوض للعاهل في أمر إقرارهما ، القضية الأولى هي تولية ابنه محمد المأمون ولياً للعهد ، والثانية غزو جيوشه لبلاد السودان .

وكان هذا المجلس الاستشاري شبيهاً ببعض المجالس في أوروبا وفي دولة بورنو كانم ، حيث ضم شخصيات مسؤولة من حكام وعلماء بالإضافة إلى ممثلين شعبيين[1] .

وكانت الحكومة في قمة الجهاز التنفيذي المركزي والجهوي ، وضمت شخصيات عسكرية وسياسية وأدبية وقبلية ، وانتقى أحمد المنصور وزراءه من بين من تتوفر فيهم الكفاءة الواسعة والقدرة على الإنجاز ، وذهب إلى حد إسناد بعض

ص ٥٧ .
والمؤلف المجهول ، الذي خدم في بلاط الوطاسيين كان متحاملاً على السعديين معتنياً بإذاعة مثالبهم ، ولكنه في الواقع لم يبتعد فيما يخص قوة شكيمة المنصور عما كتبه أشد المؤرخين إعجاباً به رغم أن ذلك كان يقدم في تعابير ملتوية .
(أنظر أحمد الناصري - الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى / الدار البيضاء ١٩٥٥ - ج ٦ صفحة ٥١)

(١) محمد اليفرني - نزهة الحادي - فاس ١٣٠٧ ص ١٤٨ وأحمد الناصر - الاستقصاء دار الكتاب / الدار البيضاء ج ٥ ص ١١١ .

المناصب الوزارية الحساسة لغير المغاربة أو المسلمين توخياً لتوفير ذلك الشرط الأساسي[1] .

والملاحظ عامة أن الأجهزة الإدارية للدولة ، ابتداء من رجال البلاط والحكومة إلى أصغر موظفي البوادي كانت تسير على نسق محكم ، وقد سميت (بالمخزن)[2] أو (المخزن الشريف) أو (المخزن المنصوري) .

وقسم المنصور مملكته على أولاده الخمسة[3] ، في تجربة مكررة للحكم اللامركزي الذي كان قد جر الوبال على البلاد باستمرار ، على أن السلطة الإقليمية الحقيقية كان يتولاها عامل أو قائد ، ويتلقى كل منهما التوجيه من الأمير خليفة السلطان ، وبحكم مسؤوليات الموظفين السامين في النواحي المدنية والعسكرية والاقتصادية أيضاً فإنهم كانوا يرجعون في بعض الشؤون إلى السلطان نفسه ، وكان يجيبهم على الكبيرة والصغيرة ولا يتأخر في رده عليهم[4] كما إنه ألحق العقاب المناسب بالمتعسفين في غير حق والمجاوزين لصلاحياتهم لفائدتهم أو لمصلحة أقربائهم[5] . وإظهاراً للاهتمام بالأقاليم فإن المنصور كان يوجه رسائل مختومة بطابعه الخليفي لتقرأ في مساجد المملكة كلما كان هناك جديد يستوجب إطلاع الشعب عليه ، وكانت تلك إحدى وسائل الإعلام الكثيرة التي لجأ إليها .

وأوجد المنصور نظاماً خاصاً للشرطة ، التي تكفلت بإقرار الأمن في المدن والسهر على تطبيق الأحكام الإدارية والقضائية ، وقرب الملك رئيس الشرطة المركزي إليه ، وكان هدفه من ذلك هو خلق توازن في القوى بينه وبين قائد

---

(١) شغل محمود بن زرقون وهو اسباني منصب وزير المالية ـ محمد اليفرني ـ النزهة ص ١٩٨

(٢) محمد العربي الفاسي ـ مرآة المحاسين ـ مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٥٦٧ حرف الدال ص ١٧٠ . ولعل التسمية أتت من كون ملوك المغرب كانوا يحملون معهم خزائنهم المالية وخزائن كتبهم في رحلاتهم ، وقد أطلقت التسمية على الإدارة المغربية في السودان بعد ذلك .

(٣) الناصري ـ الاستقصاء ج ٥ ص ١٧٦ .

(٤) اليفرني ـ النزهة ص ٢٠٢ .

(٥) عبد العزيز الفشتالي ـ مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا ـ تحقيق عبد الله كنون المطبعة المهدية / تطوان ١٩٦٤ . ص ٤٣ .

الجيش ، منعاً لأي تطلع استبدادي أو رغبة في العصيان ، وأعطى لرؤساء الشرطة في المدن مكانة خاصة أيضاً ، وصاحب الشرطة بفاس هو الـذي قاد أول حملـة عسكرية نحو بلاد السنغال قبل توجه جؤذر باشا للسودان .

واعتبـر الجيش عماد قوة الدولـة وأسـاس سطوتهـا واستقرارهـا وتوسعهـا المكاني ، واعتمد المنصور جيشين أحدهما نظامي قوامه أربعون ألف مقاتل ثلثاهم من الأندلسيين والمرتزقة والجزائريين ، وهو تحت السلاح باستمرار ويوالي تدريبه على أساليب القتال المتطورة وعلى الآلات الحربية المستجدة ، ويسكن في حصونه الموزعة في أنحاء البلاد وفي المعسكرات داخل المدن ، والجيش الثانـي احتياطـي يضم المتطوعة والمحالين على العمل المدني بعد أدائهم الخدمة وقد وصل عددهم إلى مائتي ألف مقاتل[1].

ونظم المنصور قواته المحترفة تنظيماً محكماً على يد ضباط أجانب ، وأطرهـا ضمن قيادات ورتب تسلسلية تصل إلى السلطان في القمة باعتباره القائد الأعلى ، وكانت الرتب والمهمات منسجمة مع تباين مهمات الفرق المختلفة الست في ذلك الجيش ، وقد أعطى الوزير الفشتالي وصفاً دقيقاً للنظام العسكري والوحدات ، والأسلحة ، واللباس وطريق التعبئة والعرض . . .[2].

وكان للجيش فرق للمساندة ضمن مجموعات صغيرة متحركة تضم القائمين على الهندسة ، والبريد ، والاستطلاع والتموين ، والتمريض ، والطبخ والحدادة والإرشاد الديني ، والقيافة .

وأبرز قواد الجيش لم يكونوا مغاربة بل كانوا عثمانيين واسبانا وبرتغـاليين وانجليز[3] .

---

(١) Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Edit ATLANTIDE Casablanca 1949T 2 P193

(٢) الفشتالي ـ مناهل الصفا ـ ص ١٦٢

(٣) Jaques Caille, la Petite histoire du Maroc, Ed Casablanca 1953 T. 1, P 133

وكانت ترسانات الموحدين القديمة في العرائش والرباط لا تزال تصنع السفن الحربية ، وإن احتاجت لبعض التجديد والتحديث ، واشترت الدولة عدة قطع بحرية من أوروبا ، تولى قيادتها ربابنة اندلسيون أو مرتزقة ، وعمل فيها بحارة مغاربة وأجانب ، وكان عدد قوات البحر أربعة آلاف من ضمنهم ثلاثمائة من الفنيين الأندلسيين الذي كانوا يعملون في الترسانة الرئيسية بالرباط [1] .

وشهدت السلطة الثالثة سلطة القضاء تطوراً نحو الأفضل ، وكان(صاحب المظالم) بمثابة وزير للعدل ولم يعد الملك يباشر القضايا إلاّ ما كان يعرض منها على مجلس المظالم وهو أعلى سلطة قضائية استئنافية للنقض أو الابرام[2] .

وكان هناك قضاة للجماعة بفاس ومراكش وسلا ، وقاض وعدول في كل مدينة أو قرية كبرى ، ويظهر أن تنفيذ الأحكام كان سريعاً ، أما نظام الوقف فكان له جهاز قائم الذات انفصل عن القضاء في هذا العهد واصبح له نظار وبنائق للمتابعة والجباية يشرف عليها عدول[3] .

وأهم انجاز في هذا المضمار كان هو استقلال سلطة القضاء عن الجهاز التنفيذي بشكل غير تام ولكنه مرض ، ولم يكن القضاة المسلحون بالظهائر[4] السلطانية يتأثرون بضغوط سلطات الحكم المدني أو رغبات الحكام ولم يخفهم شيء إلاّ أن ينحرفوا عن جادة الحق وينساقوا وراء الهوى والنزوة الشخصية[5] .

الحالة الاقتصادية للدولة :

حمل الربع الأخير من القرن السادس عشر تغييراً عميقاً في مقومات البلاد

---

(١) « حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧

(٢) المصدر السابق ٣٩٠ ـ ٣٩١

(٣) D. Millot. Demembrement des Habous Idit Ernest Leroux Paris 1918 P: 45

(٤) الظهير هو الارادة الملكية يختمه الخليفة بطابعه الكبير أو الصغير حسب أهمية الموضوع ، ويقابله عند العثمانيين الفرمان .

(٥) محمد اليفرني ـ النزهة ص ٢٥٨

الاقتصادية وتطلعاتها الانمائية ، فقد توافد على المغرب عشرات الآلاف من لاجئي الأندلس نتيجة للمضايقات التي لقيتها الأقليات في اسبانيا ، وحمل اللاجئون معهم خبراتهم في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ، وحولوا سفنهم التي قدموا عليها إلى احدى الوسائل التي كانت ضرورية لنقل المنتوجات من وإلى المغرب .

ولم يكن ملوك الدولة المتأخرون ، وخاصة المنصور منهم ، يجدون حرجاً في استخدام الأجانب شريطة أن تكون لهم أهلية ودربة في أي فن من الفنون ، وكان يكفي اعلان اسرى الأوروبيين اسلامهم على الملأ[1] لتفتك رقابهم ويدخلوا في بوتقة الحياة المغربية وتعطى لهم كافة الفرص المتاحة لغيرهم .

وأهم مناطق الزراعة المغربية في هذا الوقت ناحية فاس التي لم يكن شبر واحد منها غير مغروس فاعتبرت أخصب بقاع العالم[2] ، وكانت نواحي مراكش وحوض سبو الأوسط وتافيلالت خصبة ومعطاء ، وكثرت فيها إلى جانب الزراعة الحثيثة قطعان المواشي ، أما في الغرب فواظب العرب على تربية الخيول والابل ولم يسمحوا للخبراء الأندلسيين بمقاسمتهم الأراضي ، ووصف مورمول مدينة تارودانت على أبواب الصحراء والسودان بأنها جنة الجنوب بفواكهها وكرومها وزيتونها وحيواناتها الوحشية[3] .

وازدهرت زراعة قصب السكر في ناحية مراكش خاصة ، ولعبت هذه المادة الدور الأول في التجارة الخارجية للمغرب في ذلك العهد وبعده ، وكانت المادة الرئيسية في التصدير أيضاً .

وقام في المغرب أربعة عشر مصنعاً للسكر لا زالت آثار بعضها ماثلة إلى اليوم

---

(١) وصلت أعدادهم إلى عشرات الآلاف بعد معركة وادي المخازن عام ١٥٧٨

(٢) Mormol. histoire des Cherifs des Royaumes du Maroc Traduction. Duc d'Angloutisme Paris, P 131

(٣) Mormol. l'Afrique. Paris P 22

في مدينة شيشاوة[1] وكان المغرب آنذاك أول دولة في العالم في تصدير تلك المادة[2] .

واجتهد معمل السلاح بمراكش في صنع المدافع ، وقدم إلى المغرب أحد كبار مصممي الأسلحة الثقيلة أحمد الحجري المعروف بأفوكاي بعد أن فر من اسبانيا ، وأفرغ اختراعاته وتصميماته في معمل السلاح بمراكش الذي بدأ بصنع أنواع خاصة من مدافع الميدان .

غير أن صناعة الأجهزة العسكرية المتطورة شأنها شأن صناعة السفن لم تكن لتلبي جزءاً بسيطاً من احتياجات البلاد وما يقتضيه توسعها وطموحها الكبير .

أما الصناعات التقليدية[3] فقد شهدت توسعاًدون أنيطرأعليها تحول يذكر في الأشكال وطرق المعالجة منذ عهد المرينيين .

وقد اختص بالتجارة المورسكيون الأندلسيون ، واليهود ، وبعض الشركات الأجنبية[4] ولم تستطع بعض العائلات المغربية في طنجة وتطوان وسلا أن تزاحم اولئك العمالقة إلا في بعض الظروف[5] .

وكانت الواردات بصفة رئيسية هي الأسلحة والسفن والتجهيزات الصناعية والقصدير والنسيج ، أما الصادرات المغربية فهي السكر والمواشي ، والتمر والنحاس وملح البارود واللوز والذهب والنيلة[6] . وكانت موانيء التصدير

---

(١) شيشاوة على بعد ٨٠ كلم جنوب مراكش كانت تسكنها قبيلة أولاد بوسباع العائدة من شمال نهر السنغال .

(٢) جاءت منافسة البرازيل وجزر الأنتي للمغرب في وقت متأخر .

(٣) الزجاج والورق ، والسجاد ، والنحاس ، والخشب ، والحديد ، والنسيج ، والجلود

(٤) أقام البريطانيون شركة تجارية كانت لها اهتمامات صناعية أيضاً هي الشركة البربرية الانجليزية Barbary Company

(٥) محمد بن علي الدكالي ـ اتحاف أشراف الملا ببعض اخبار الرباط وسلا ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د ١١ ورقة ٨ .

(٦) Caille. la petite Histoire du Maroc T. 1 P 76

والاستيراد على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، هي تطوان وسبتة وأكادير وأسفي ، وقد بلغ رقم الصادرات في سنة واحدة ٨٠ الف دوكة ذهبية[١] .

وكان يوجد بالمدن الكبرى مراكز للجمارك ، تلحق بها مخازن كمناطق حرة ، ومصارف لتبديل العملة ، وبنايات على الأبواب للتفتيش والتقييم ، ويدفع التجار للخزينة ١٠ ٪ من قيمة البضائع عند الدخول و ٣٠ ٪ عند التصدير ، وبالنسبة لمدينة مراكش فقد كان يوجد فيها مركزان للجمرك احدهما بالقصبة والثاني بساحة جامع الفناء ويضم ٢٦ حجرة خاصة بالموظفين[٢] .

الانشاءات :

شهد العمران تطوراً لا نظير له ، وتفنن المنصور في بناء قصر البديع بمراكش ، وكان هو وغيره من المآثر والأضرحة يحمل الطابع الأندلسي مع تأثيرات بيزنطية وأوروبية[٣] .

واحتفظ المنصور بالأبراج والقلاع البرتغالية القديمة ، وجهزها بما يلزم لحماية الثغور والسواحل ، وأضاف الكثير من مثيلاتها في جهات داخلية من البلاد .

أما المدن فقد توسعت وازدهرت وعمها الأمن والرخاء ، وعادت بعضها لتحتل مكانة كانت قد فقدتها وهي اكادير وتارودانت وامسكرود قرب أكادير (وكلها مدن تقع في جنوب المغرب) والصويرة على الساحل الأوسط الغربي .

واهتم المنصور ببناء القناطر الضخمة على الأنهار لربط الطرق الامبراطورية[٤] وجر القنوات الكبرى للري والشرب واستخراج المعادن على

---

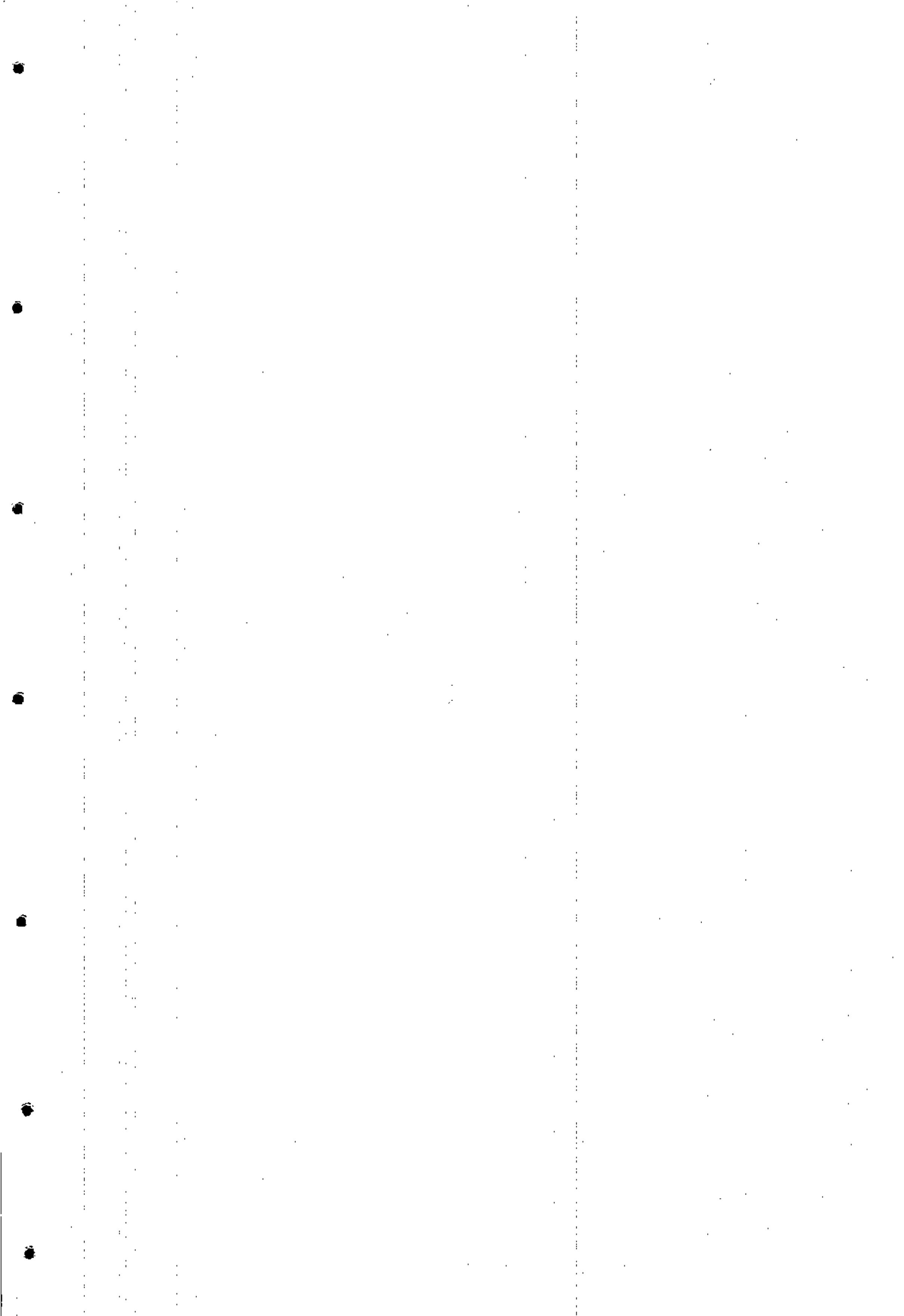
(١) Robert. Recard. sources Inidites de l'histoire du Maroc, Paris Espagne T. 2 P 54

(٢) ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ـ ج ٢ ـ ص ٤٣٣

(٣) أبو القاسم الزياني ، الترجان المغرب عن ملوك دول المشرق والمغرب ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٦٥٨ د . ص ٣٥٦ .

(٤) كان عدد تلك الجسور الفخمة تسعة .

اختلافها ، وبصفة عامة فانه كان ينمي مرافق البـلاد ويضـاعف قدراتهـا المادية لينطلق بعد ذلك إلى طور التوسع .

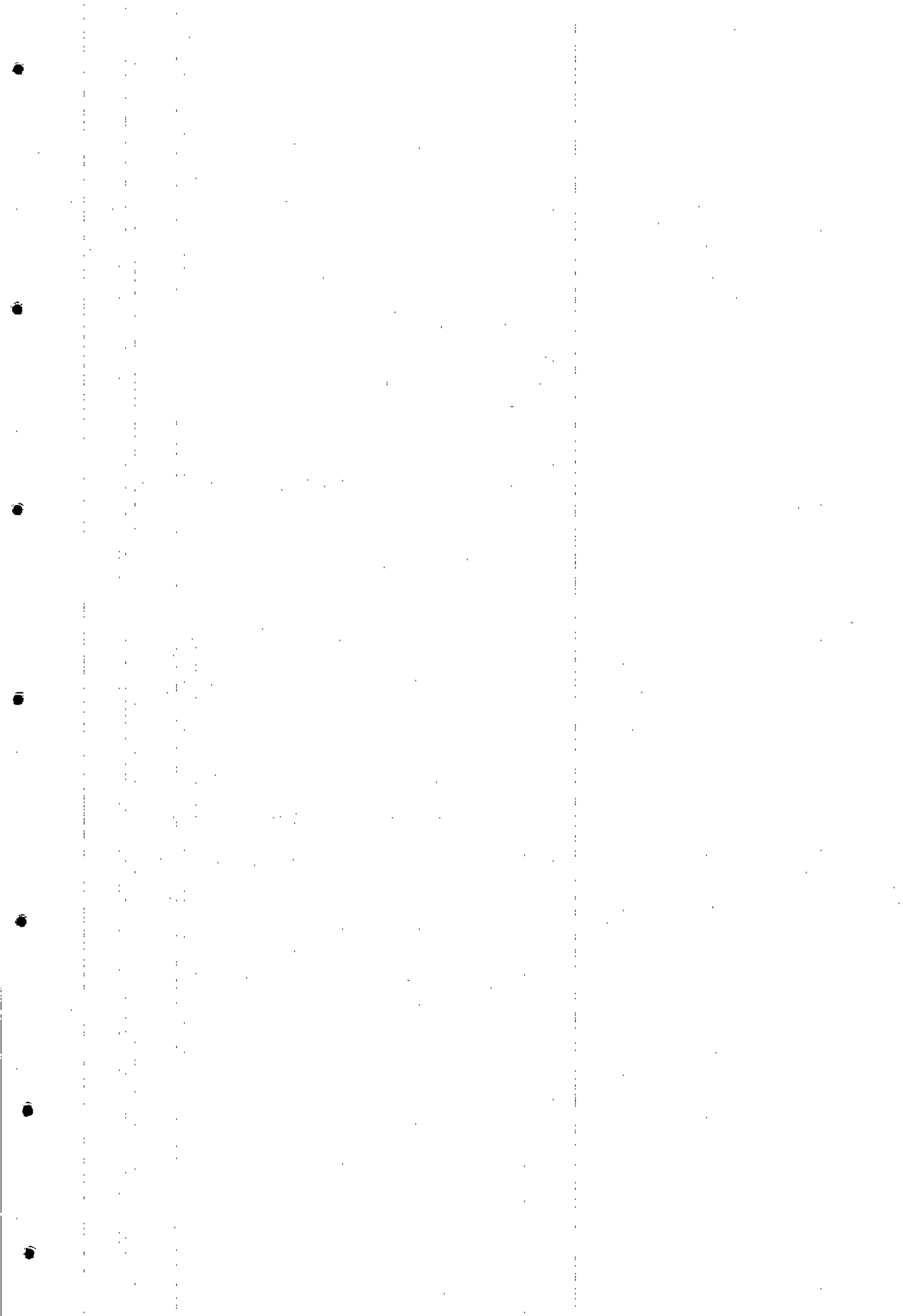


الفصل الثاني

٢ ـ دوافع الغزو المغربي للسودان

١) مواتاة الجو الدولي للغزو : العلاقات المغربية العثمانية
العلاقات مع اسبانيا
العلاقات المغربية البريطانية

٢) اعتبارات الخلافة والسيادة على بلاد المسلمين
٣) التطلع الى الاستفادة من خيرات السودان
٤) الجهاد لنشر الاسلام في افريقيا
٥) الدافع الامبراطوري
٦) الحيلولة دون تطويق المغرب من الجنوب
٧) التطلع الى ربط الاتصال المباشر بامبراطورية كانم بورنو بعد مبايعتها للمنصور
٨) التخلص من بعض فرق الجيش الاندلسي
٩) انعدام التكافؤ العسكري بين المغرب والسونغاي



٢ ـ دوافع الغزو المغربي للسودان .

١) الجو الدولي وعملية الغزو :

لا شك ان التطورات السياسية والتهافت الاستعماري والصراعات الدينية التي قادت عند نهاية القرن السادس عشر الى مجابهات بين دول غرب أوروبا وفي جنوبها ، قد فتحت الطريق أمام مخططات أحمد المنصور ، فكانت في مأمن عن التحرش والخطر ، وينبغي أن نحلل الأوضاع في هذه البقعة من العالم عند وصول ذلك العاهل الى الحكم لندرك مدى التغيير الذي طرأ على الاستراتيجية الدولية تجاه المغرب ، ولندرك فوق ذلك أن أبواب الشمال والشرق التي أقفلت في وجه البلاد بعد ضياع الأندلس ، واحتلال الجزائر من قبل العثمانيين لم يكن اقفالها تاما أو مطلقا .

لقد أخذت الامبراطورية المغربية تسير نحو الانكماش التدريجي منذ نهاية القرن الثالث عشر ، وكانت الانكسارات المتلاحقة في شبه الجزيرة الايبيرية ، وتراجع الأمراء العرب في الأندلس الى مدن الجنوب ، مع ما واكب ذلك من تصاعد القوة المسيحية وانتشارها عبر المحيطات ، مؤشرا على قرب نهاية محتومة للحكم العربي في أوروبا .

وجهد المرينيون (١٢٦٩ ـ ١٤٢٠) في أن يحافظوا على البقية الباقية من الوجود العربي في اثنين من الموانىء الجنوبية عن طريق امدادهما بأسباب المدافعة ، ولكنهم لم يحققوا أي نجاح .

وبالنسبة للشمال الافريقي ، بدد المرينيون قواهم في محاولات يائسة للابقاء على تماسك الامبراطورية التي كانت تمتد حتى حدود طرابلس ، وعند وصول الأسرة الحاكمة التالية[1] كان الاندفاع العثماني يسير قدما ، وكان المغرب قد أغلق حدوده عليه ، فأفلت شمس الامبراطورية شرقا وشمالا بمجرد بداية النضال اليائس غير المتكافيء بين قوتين قدر لاحداهما فقط أن تنمو وتتعزز وتنطلق .

وهكذا ، فمع نهاية العصر الوسيط أصبح المغرب ، المتأخر العاجز ، يمثل حلقة وسطى كغيره من القوات المغلوبة بين قوتين عظميين ، احداهما في جنوب أوروبا تمثلت في البرتغال واسبانيا ، ثم في انجلترا واسبانيا وفرنسا والبلاد المنخفضة ، والثانية في شرق البحر الأبيض المتوسط وأوروبا الشرقية وتمثلت في الدولة العثمانية الصاعدة .

وفيما كان المغرب ـ منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر ـ يمثل بالنسبة لأوروبا الجسر الأكثر ملاءمة للعبور الى افريقيا الغربية والهند والعالم الجديد عن طريق سواحله المترامية ، وبفضل موانئه العميقة ، كان في نظر العثمانيين المنطقة الغنية الآهلة التي استعصت على جيوشهم ، والبلد العربي الوحيد الخارج عن دائرة خلافتهم ، وحين وصل السعديون الى الحكم تحت ظلال سيوف الجهاد[2] كانت كل الموانيء الجيدة قد تحولت الى قواعد برتغالية واسبانية[3] ولكن بدا جليا أن المصالح الاقتصادية أخذت مكان النزعة الدينية ، اذ ان أهداف المتابعة والانتقام استحالات الى جهد مخطط لاحتواء البلاد المتخلفة .

---

(١) الدولة الوطاسية من ١٤٢٠ ـ ١٥١٠ .

(٢) سنة ١٥١٠

(٣) توالت عملية الوثوب على الموانيء ، والمعارك البحرية مع المغاربة استمرت من ١٤١٥ الى ١٥٠٨ ، وكان الغزو يجري بتنسيق بين الدولتين الأوروبيتين في الغالب بموجب أوفاق عقدت بينهما ، وفي عام ١٥٠٩ (١٨ شتنبر) عقد الاسبان والبرتغاليون معاهدة Sintra لاقتسام أراضي المغرب بينهما .
Henry decastries «les sources iineditesde: l'histoire du Maroc I t l portugal p 151

العلاقات المغربية العثمانية :

*يبدو ان المغاربة تعلقوا بأذيال الأسرة الحاكمة السعدية الشريفة المجاهدة ، فقبل أربع سنوات من عودة الوحدة الوطنية السياسية تحت حكم السعديين باحتلال فاس عام ١٥٤٩ كانت الموانىء المغربية الممتدة من سانتاكروز[١] الى أزمور[٢] قد عادت عن طريق الجهاد للسيادة الوطنية ، ولا شك أن وصول أسلحة تركية وفيرة ضمت آليات للحصار ومدافع الى المجاهدين كان عاملا حاسما في هذا الانجاز الوطني[٣] .

وبوصول بعض الموركسيين من اسبانيا واستقرارهم في المغرب خلال الفترات الصعبة المذكورة غدا في مقدور السعديين أن يوفروا لهم نواة جيش منظم ، وقد أورد دوكاستري في المصادر الدفينة لتاريخ المغرب مذكرة لموظف اسباني بالمغرب اسمه (Ignacio Kunes Gato) حوت معلومات عن استخدام هؤلاء الاندلسيين المدربين في المؤسسات المغربية وعما يمكن أن يشكله التوسع في استخدامهم من خطر تحول المغرب الى دولة قوية[٤] .

ولم نجد فيما رجعنا اليه من مصادر تفسيرا واضحا أو أكيدا لقضية اغراق المغرب بأسلحة عثمانية في نفس الوقت الذي كان الباب العالي يستجمع قواه للوثوب على البلاد .

ونعتقد أن العثمانيين أرادوا كسر شوكة المسيحيين ومنعهم من تنفيذ خطتهم لاحتواء المغرب الذي أرادوه لهم ، ولم يكن في مقدورهم هم أنفسهم لاعتبارات

---

(١) في اقليم العيون الصحراوي الحالي

(٢) جنوب الدار البيضاء .

(٣) Henry de Castries , sources inedites se l'histoire du Maroc I . Portugal 1 T4. p (S.I.H.M)
وتعد هذه الموسوعة المرجع الأول في العلاقات المغربية الخارجية وسنشير اليها مستقبلا بالحروف (S.I.J.M) أي المصادر الغميسة أو الدفينة لتاريخ المغرب .

(٤) S.I.H.M مجموعة ١ اسبانيا مجلد ١ ص ٢٩٤ ، وفي صفحة ٣٢١ يعطي نفس المصدر معلومات مهمة عن أفواج الموسكيين وطرق استخدامهم .

استراتيجية عامة ، وسياسية وعسكرية أيضا أن ينهضوا بالمهمة الدقيقة .

ومن شأن تزويد السعديين بالأسلحة كذلك أن يضاعف من التأييد الشعبي للخلافة العثمانية العتيدة ويؤلف قلوب رجال الدين ذوي النفوذ العظيم في البلاد ويظهر حسن النية تجاه الدولة الفتية التي ربما عمدت وقد سعى العثمانيون في ذلك كما سنرى ـ الى الانضواء تحت خلافتهم دون اراقة للدماء .

غير ان الأخبار التي كانت تصل الى السعديين عن نوايا سلاطين آل عثمان ، وبعضها نقله الاسبان والفرنسيون ، حملتهم على الحذر واليقظة ، وعدم التقليل من خطر أعدائهم في الغرب والشرق معا ، وبعد شهرين فقط من الرسالة التي وجهها القنصل الاسباني بجبل طارق (Duis de Rueda) الى حكومته في ٦ فبراير ١٥٤٩ مخبرا باستيلاء السعديين على فاس بمعاونة العثمانيين ، وتفكيرهم في بناء اسطول ضخم لاستعادة اسبانيا نفسها[١] تقدمت قوات سعدية نحو مدينة وجدة المتاخمة للجزائر في شهر ابريل وطاردت الجيوش العثمانية الى ما وراء حدود ايالة الجزائر ، ثم احتلت تلمسان بعد سنة من القتال المرير في ٩ يونيه ١٥٥٠[٢] وتكشف المصادر أن السلطان محمد الشيخ لم يقدم على اكتساح الغرب الجزائري الا بعد أن عقد حلفا مع اسبانيا ، لم يتضمن فيما نعلم تنازلات ترابية ، وقد استهدف التعاون بين الدولتين اضعاف مركز العثمانيين في الجزائر[٣] ، والثابت أن المعونات العسكرية الاسبانية التي وصلت الى جيش السلطان محمد الشيخ مكنته من التغلب على العثمانيين .

وقد راجعت الدولة العلية حساباتها من جديد بعدما أصبح المغرب ليس

---

(١) نفس المصدر صفحة ٤٥١

(٢) نفس المصدر ص ١٤١ والمجموعة الأولى المجلد الثالث ـ اسبانيا / ص ١٨١

(٣) لا يوجد نص هذه المعاهدة ، ولعلها تمت بين أحد عمال السلطان على أحد الأقاليم وأحد الحكام الاسبانيين لميناء من الموانيء المحتلة ، وهو أمر كان يحدث دائما ، وأميل الى الاعتقاد بأن هدنة قد عقدت بين الطرفين المتحاربين والا لما استطاع السعديون تحويل قواتهم شرقا وابعادها عن مكان عملياتها لأكثر من الف كيلومتر .

عدوا للاسبان وانما هو حليف حميم الأمر الذي قلب الموازين الاستراتيجية رأسا على عقب .

ونجد في المصادر المختلفة اشارات واضحة الى التدابير التي اتخذها العثمانيون لمواجهة الحالة الجديدة :

١ ـ عزل السلطان سليمان القانوني الحاكم العام للجزائر بدعوى الاساءة الى حسن الجوار مع المغرب .

٢ ـ دعا الى الوحدة الاسلامية والى حسن الجوار[١]

٣ ـ واصطنع الأتراك عميلا من بين الأمراء الوطاسيين لتنفيذ مآربهم .

٤ ـ ووجهوا اسطولا هاما للجزائر وعززوا القوات البرية العاملة فيها .

وبعد خمس سنوات من الاستعداد اكتسح الأتراك المغرب الشرقي ووصلوا الى العاصمة فاس بجحافلهم في ٨ يناير ١٥٥٤ ، واعلن الباب العالي ضم المغرب الى الخلافة العثمانية بعد أن خطب الامام للخليفة العثماني لأول ولآخر مرة في التاريخ ، ولكن مركز العثمانيين تزعزع منذ البداية لا على يد الجيش الذي ابتعد عن المنطقة مهزوما بل عن طريق الثورة الشعبية العارمة ضد الاحتلال[٢] .

وأثناء ذلك كان السلطان السعدي ينظم نفسه ويوطد علاقاته بالاسبان

---

(١) عثر الدكتور عبد الكريم كريم في اسطمبول على نسخة من رسالة للسلطان العثماني الى محمد الشيخ كتبت في يناير ١٥٥٢ مما جاء فيها « ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ، ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف سد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين لذلك بدلناه غيره فأنعمنا على مملوك حضرتنا العلية صالح باشا ولا بد أنكم تحسنون المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة اسطامبول قصر طبقبو مكتبة قوغوشلر ـ دفتر الأمور المهمة رقم ٨٨٨ ص ٩

(٢) مؤلف مجهول تاريخ الدولة السعدية ص ٢٠ . خرج أهل فاس البالي وطلعوا بالشوافير والفيسان والسلالم لفاس الجديدة فأشف الترك من السوار المدينة . . . فخافوا . . . فعند ذلك فتحوا الباب ودخل الناس الى السلطان الوطاسي الخائن) فأرسل الى كبراء الترك والرؤساء منهم وأمرهم بالخروج وتبعتهم محلتهم . . . » .

والبرتغاليين ، وقد وقع معهما اتفاقيات عسكرية ، واختصت البرتغال بتوقيع معاهدة للصلح والتعاون[1] تضمنت شروطا مهمة هي :

أ) ارسال جيش مغربي برتغالي مشترك لاحتلال الجزائر وتقاسمها .

ب) تموين القوات البرتغالية في المغرب بالمؤ ن .

جـ) تسليح العساكر المغربية .

وأمام هذا الوضع البالغ الخطورة تحرك العثمانيون بسرعة وارسلوا وفدا الى فاس للتفاوض ، وعندما وصل مبعوثو السلطان ، تأخر سلطان المغرب في استقبالهم ثم أذن لهم بالمثول بين يديه وابقاهم واقفين على أرجلهم ، وكان مما قاله لهم تحقيرا لسلطانهم وتحديا له : سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لا بد أن ينازلك على محمل مصر ، ويكون قتاله معك عليه وان شاء الله يأتيك الى مصر والسلام »[2]

ولا نعلم أن البرتغاليين دفعوا بقوات ما تنفيذا لالتزامهم ، كما لا نعلم عن وصول تعزيزات منهم ذات شأن ، وكان من أثر ذلك أن العثمانيين جربوا ولأول مرة اثارة الفرقة التركية العاملة في المغرب ضد الحكم المغربي ، وقد جر ذلك الى الكثير من المتاعب وتعرض السلطان للاغتيال ، فاضطر السلطان الجديد المتلهف الى السلاح الى التنازل لفرنسا في يونيه ١٥٥٩ عن مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبتة وطنجة مقابل الحصول على أسلحة فرنسية ، وعندما ربط العثمانيون جسورهم مع الأتراك المتمردين في المغرب ونزلوا بجزيرة باديس[3] وتوغلوا من جديد حتى اشرفوا على مدينة فاس ، سلم السلطان الجزيرة للاسبان أملا في دخول اسبانيا الحرب واشتباكها مع العثمانيين ولمنع الاسطول العثماني من انزال قوات

---

(١) وقعت في مدينة الصويرة عام Decaitries. S. I.H.M.I t5 p 1000

(٢) المؤلف المجهول ـ الدولة السعدية ص ٢٧ .

(٣) جزيرة تقع قبالة الساحل الشمالي للمغرب .

بربة في سواحل المغرب[1] .

والذي يظهر جليا أن هدف العثمانيين كان ضم المغرب وبأي ثمن ، وكان يقابل ذلك عند المغاربة الصمود والتضحية بكل شيء والتحالف حتى مع الشيطان للحفاظ على استقلال البلاد .

وقد رأينا أن الباب العالي استخدم عدة وسائل لتنفيذ هدفه :

- المطالبة على الدوام - وهذه وسيلة سلمية - بقبول الخلافة العثمانية[2] .

- احتضان بعض المطالبين بالملك كالسلطان الوطاسي المخلوع أبي حسون ، بعد قيام الحكم السعدي ، والأميرين عبد المالك واحمد المنصور الذهبي ، قبل وصولهما الى العرش تباعا .

- توزيع السلاح على بعض القبائل وبث دعوة الوحدة الاسلامية في الأوساط الدينية .

- الابقاء على حرارة الاتصال بالفيلق التركي المحترف العامل ضمن الجيش المغربي .

- العمليات العسكرية المباشرة .

أما وسائل المغرب للمدافعة فكانت حتى منتصف القرن السادس عشر :

- الاحلاف مع الدول المسيحية رغم طمعها أيضا في البلاد .

---

(١) المؤلف المجهول ، تاريخ الدولة السعدية ص ٣٧ « خاف السلطان أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد (بادس) فاتفق مع سلطان النصارى أن يخلي لهم الادالة من حجرة بادس ، ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية ، وعندما جاء النصارى الى بادس استنجد سكانها بالسلطان لعدم علمهم بصنعه سرا وقد نادوا بالجهاد ، ولكنه عندما جاءهم خبر احتلال النصارى تراجعوا ، وارتحل السلطان الى مراكش وتهنأ من الترك في تلك البلاد » .

(٢) Auguste Cour. l'Etablissement des dynasties des Chorfas au Maroc Ed Eernest Leroux Paris 1904 p 155

- التسلح وان اقتضى في بعض الأحيان التنازل عن اجزاء من المغرب للدول المسيحية .

- التغلب على الدعاية العثمانية ببث الروح الوطنية واستغلال الوازع القومي لدى سكان الجبال خاصة .

وقد حدث تطور هام في سنة ١٥٧١ عندما انكسر الأسطور العثماني بشكل تام أمام أساطيل اسبانيا والبندقية في معركة ليبانتو(depanto) ، ومنذئذ لم يعد العثمانيون يفكرون في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة امبراطوريتهم ، بل أصبح المغرب بالنسبة إليهم أحد مناطق المواجهة في حربهم مع الدول المسيحية المتفوقة .

ويبدو ذلك واضحاً في مجالين :

الأول : عند التجاء الأميرين عبدالمالك(المعتصم) وأحمد المنصورالذهبي إلى الباب العالي طالبين العون لاسترجاع ملكهما من عميهما المتعاون مع الدول المسيحية ، أمدهما الأتراك بجيش كامل قوامه ٥٠٠٠ جندي مسلحين أحسن تسليح ، ودخل الجيش فاس سنة ١٥٧٥ ، وبعد استتباب الأمر للسلطان المولى عبد المالك عاد الجيش أدراجه إلى الجزائر .

والثاني : أثناء استعداد الدول الأوروبية وخاصة البرتغال التي التجأ إليها الملك السابق (محمد المسلوخ) للوثوب على المغرب وإخضاعه كاملاً ، أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة ، وأشفعوا ذلك بفيلق عسكري للمساندة سنة ١٥٧٨[1] ولكن أحمد المنصور بعد اعتلائه الحكم في تلك السنة نفسها أعدم جل الضباط الأندلسيين ، فهنا تتضح لنا العلاقة بين ذلك التدبير وبين ما انتشر عن اتفاق بين المورسكيين والأتراك لقلب نظام الحكم وتأسيس دولة أندلسية تحت الحماية التركية برئاسة الأمير السعدي داود بن عبد المؤمن الذي سحقه المنصور في سوس بالجنوب .

(١) ع . كريم - المغرب في عهد الدولة السعدية ص ١٠٥ . « اشتركت قوات أرسلها الترك لنجدة المغرب وكانت تضم ٦٠٠٠ من الرماة و١٠٠٠ من الزواوة و٨٠٠ فارس ومعهم ١٢ مدفعاً » .

ويخبرنا الفشتالي القريب من الأحداث بأن محمد بن زرقون الأندلسي جمع كلمة الأجناد كافة على الافساد والفتنة « وتحقق أمير المؤمنين حينئذ بذلك وما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده في هدم بناء دولته وسعيه في فساد ملكه وتفريق أمر الجماعة[1].

والثابت أن العملية لم تثر اهتمام الباب العالي بالقدر الذي كان يحدث من قبل ، ويظهر أن طلب حاكم الجزائر الرئيس علوج باشا أسلحة وعمارة من سلطانه في هذا الوقت بالذات لم يلق تجاوباً يذكر وقد أسدل الستار عن المشكل بعد وصول سفراء من كل بلد إلى البلد الآخر[2].

بل وأكثر من هذا فقد رغب السلطان مراد الثالث في عقد حلف مع المغرب يستهدف في الدرجة الأولى غزو اسبانيا واستعادة الأندلس « . . ولما وصل لمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة بلاد برتقال أوكاد وانه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد ، وإنه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الإسلامية ، لإظهار الألفة الأزلية أن نتخذ عهداً ونؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ، ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحوضة المعظمة فإذا تم هذا الشأن نوجه إليكم ثلاثمائة غراباً سلطانية وجيش عز ونصرة وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس . . . »[4].

ولعل السلطان كان صادقاً في تحليله وفي عرضه ، فاسبانيا بعد هزيمتها

---

(١) عبد العزيز الفشتالي ـ مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفا ـ تحقيق الدكتور عبد الكريم كريم ـ الرباط ١٩٧٢ . ص ٤٥ .

(٢) السعيدي ـ تاريخ السودان ص ٢٠٨ : قتل مولاي أحمد القائد الدغالي والقائد رضوان والقائد جعفر والقائد علي الجنوي واستثنى جؤذر باشا والقائد رضوان الذي سجنه ١٢ عاماً ثم صرفه للسودان .

(٣) ١ . حركات ـ المغرب عبر التاريخ . ج ٢ ص ٣٤٢ .
السفارة العثمانية حملت رسالة بالتهنئة بعد الانتصار على دول أوروبا ، والسفارة المغربية كانت تحمل الهدايا والشكر لمساعدة الباب العالي ورئيسها كاتب أحمد المنصور الأديب أحمد بن يحيى الهوازلي .

(٤) رسالة السلطان مراد الثاني للمنصور السعدي بتاريخ رجب ٩٨٨ (شتنبر ١٥٨٠) المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ مخطوط رقم ٢٥٧ .

المنكرة في معركة الأرمادا[1] هبطت إلى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة ، فأصبح من غير الصعب القيام بعمل ضدها سيما إذا كان من الحجم الذي تصوره سلطان بني عثمان الذي كان يعرف أيضاً صداقة المنصور القوية بالملكة اليزابيت واتصالاتها في موضوع اسبانيا بالذات .

وربما كان الموضوع يزيد عن كونه سباقاً بين انجلترا والعثمانيين ، وكانت قناعة المنصور على ذلك النحو بكل تأكيد ، ولذلك كان جوابه « لعل في ذلك اجتماع كلمة الإسلام إن شاء الله بهذا الصلح[2] الذي آن أن ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عوناً على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين »[3] وجاء في رسالة ثانية « فمآربكم بهذا الجناب الرفيع مقبولة ، وأسباب التسيير إن شاء الله موصولة ، وإشارتكم إلى ما لجنابنا العلوي من الجلال ، بالمثابة العثمانية الطاهرة الخصال ، نعم إنها الرحم إسلامية ، ومؤاخاة دينية تزداد خلوصها »[4] .

وفي رسالة منه للحاكم التركي في الجزائر « إعلموا إن آنستم في جانب الكفرة دمرهم الله عمارة تنشأ أو أسطولاً يؤم ناحيتكم ، واحتجتم إلينا فنحن بحمد الله بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون بنصرتكم على أتم أهبة واستعداد[5] .

وتردد السفراء بين الأستانة وفاس ، فتوجهت سفارات أحمد بن ودة والشاظبي والشياظمي وأبي الحسن علي بن محمد التمكروتي[6] بين عامي ١٥٨٨ و١٥٩٠ ، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانياً في يناير ١٥٨٩[7] .

ولكن اقتراح السلطان لم يتحقق لأسباب مجهولة تماماً ، وقد يكون من بينها استعار الثورة بالممالك العثمانية كطرابلس ، وظهور ثورات مدمرة في تونس

(١) ٣٠ يونيه - ١٠ غشت ١٥٨٨ .

(٢) الصلح في تعابير ذلك العصر لم يكن يعني بالضرورة إنهاء حالة الحرب بل يعني أكثر الحلف وحتى التعاون .

(٣) رسالة إخبارية من المنصور لأهل سوس - رسائل سعدية ص ١٦٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٦ .

(٥) مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط رقم ٥٢٧٨ صفحة ٢١ .

(٦) دون هذا السفير رحلته إلى اسطامبول في كتاب أسماه « النفحة المسكية في السفارة التركية » ويوجد الأصل بخط المؤلف في دار الوثائق بالرباط ، وكان التمكروتي قد حل بالآستانة في غشت ١٥٨٨ إلى نوفمبر ١٥٩٠ .

(٧) الفشتالي - مناهل الصفا ص ٩٩ .

حجبت السلطة العثمانية في ذلك الوقت وهدرت قوتها[1] كما أن الأحوال في بلاد الشام واليمن آنذاك لم تكن هادئة[2]، وبالنسبة للقوات المتواجدة في الجزائر فإنها كانت منصرفة لإخماد ثورات جبال القبائل[3] ، ولم تكن متاعب مراد الثالث بأقل من ذلك في ترانسيلفانيا وفالاشي وموالدافيا بزعامة مشي الشجاع .

وهكذا فعندما كان المنصور السعدي يستعرض جيشه المتوجه نحو السودان كان على التمكروتي سفيره لدى الباب العالي أن يلقي خطبة نارية أمام السلطان العثماني يحض فيها على اتحاد كلمة الاسلام وتوحيد جيوشهم لمحاربة الكفار والوثنيين وإعادة المسلمين إلى سابق عزهم[4] ، وبدا جلياً أن العثمانيين لن يتحركوا ضد المغرب من جديد .

العلاقات مع اسبانيا والبرتغال :

رغم ان المصالح المشتركة بين البرتغال والاسبان من جهة والسعديين من جهة ثانية كانت تلتقي عندما يهم الأتراك باحتلال المغرب ، وتفترق عندما يطرأ ما يشغل العدو المشترك العثماني عن الانقضاض على فريسته ، رغم ذلك فقد كانت العلاقات السياسية بين المغرب ودولتي شبه جزيرة ايبريا تحكمها عدم الثقة باستمرار .

وفيما كان عزم المغرب على استرداد الأندلس لا يخرج ـ عملياً ـ عن نطاق الأمنية البعيدة التحقيق ، كانت الرغبة الايبيرية في احتلال الأمبراطورية الشريفة تولي الأهمية الأولى في المخططات المتوسطية للدولتين ، وحازت باستمرار على تأييد الكرسي البابوي ، وحين بدأ أن السعديين مصممون العزم ، وبتأييد شعبي وديني جارف ، على استرداد الثغور المغربية المستعمرة ، سنحت للايبيريين فرصة فريدة لاحتواء كل الشريط الساحلي ، وتمثل ذلك في توقيع محمد المتوكل المسلوخ إتفاقية مع ملك البرتغال نصت على تحقيق ذلك الهدف مقابل إمداد الملك المخلوع بالعون العسكري .

---

(١) التمكروتي ـ النفحة المسكية ص ٢٣ وما بعدها

(٢) محمد كرد علي ـ خطط الشام ج ٢ ص ٢٤٧ ـ فيليب حتي ـ تاريخ سوريا ولبنان ٢٢ ص ٣٥٠

(٣) عبد الرحمان الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام ـ الجزائر ـ ١٩٥٥ ص ٣٥٩

(٤) الفشتالي ـ مناهل الصفا . ص ٦٦

وانتقلت قوة عسكرية عظيمة محمولة إلى المغرب عبر بوغاز جبل طارق ، ضمت ١٢٥,٠٠٠ مقاتل من البرتغال وإسبانيا والمانيا مع كوكبة من فرسان البابا ، وحشداً من الرهبان حملوا معهم أجراساً لتعليقها في جامعة القرويين بفاس .

وحصلت المعركة في وادي المخازن بعيداً عن نقاط التموين البحرية ، ووسط سهل فسيح محاط بأنهار قطعت جسورها قبيل المعركة ، وانتهى الأمر بهزيمة الغزاة مساء ٤ غشت ١٥٧٨ ، وبموت ثلاثة ملوك ، واعتلاء المنصور العرش .

كان لنتيجة هذه المعركة ـ التي اعتبرت نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب وإفريقيا ـ أثرها الدولي والمغربي البعيدين ، فقد أفل نجم الأمبراطورية البرتغالية على الفور ، وأصبحت محمية إسبانية لمدى ستين سنة ، وأصبح للمغرب مركز دولي جديد ، وعمت الفرحة أرجاء العالم الإسلامي (العثماني) .

وفي اسبانيا أعلن البلاط على لسان وفد حمل معه التهاني والهدايا المنقطعة المثال ، تنصله من اشتراك متطوعة غير منضبطين في الجيش الغازي ، فاعتبر المنصور هذا الاعتذار كافياً ، ولم يتردد في تجديد الصلات التي كانت لسلفه مع البلاط الاسباني ، وكذلك فعل مع انجلترا ، وفرنسا اللتين وجه إليهما سفارات ، واستقبل بلاطاهما سفارات مماثلة .

وقد كان المنصور ، وبلاده تخرج لتوها من امتحان صعب ، وتواجه انتفاضة في صفوف الجيش الذي شمر عن ساعده وأراد اجتياز البحر لاحتلال البرتغال وإسبانيا ، تحت علم جمهورية أندلسية ـ تركية ، كان في حاجة إلى شيء واحد هو الوقت الكافي لإعداد خططه المستقبلية ، وإعداد بلاده لتنفيذ تلك الخطط .

وأعطى المنصور نفسه فرصة للتأمل دامت زهاء العام ، وانتهى إلى حصر أهداف ثابتة طبقها طيلة حياته :

أ) سلوك سياسة متزنة بين كل القوات .

ب) محاولة ضربها البعض بالبعض الآخر .

جـ) اهتبال كل الفرص للتقدم بالمغرب وإخراجه من تخلفه وعزلته .

د) محاولة التأثير في مجرى الصراعات الدولية بدل التأثر بها

ز) فتح حدود المغرب التي أغلقت عليه وحمل النفوذ أو السيادة إلى جهات بعيدة .

وتعطي العلاقات الإسبانية - المغربية في الربع الأخير من القرن السادس عشر أحد الأمثلة البارزة على حيوية وحركية الدبلوماسية والدهاء السياسي الخارق في استغلال الظروف .

فقد سنحت الفرصة لاسبانيا - أثناء ملاحقة الثورة الأندلسية - التركية - لتتقدم بأول عرض للمنصور وكان من أربع نقاط :

- عقد تحالف ضد العثمانيين بالسرعة الممكنة لمواجهة أي تدخل في أعقاب ثورة الأتراك والأندلسيين .

- التنازل عن ميناء العرائش - على المحيط الأطلسي - وتخصيصه للأسطول الإسباني

- افتداء جميع أسرى وادي المخازن وتقدير المبالغ المالية المترتبة على ذلك .

- ربط التجارة الإسبانية والتجارة المغربية على نحو يمنع التجار الآخرين (وخاصة تجار الانجليز) من الوصول إلى موانيء المغرب[1] .

وقد وقع المنصور المعاهدة المقترحة في ٢ غشت ١٥٨١ ، وكانت نصوصها عامة ، ولكنها كانت ورقة مهمة لوح بها للعثمانيين ، واجتهد في إيصالها للحاكم التركي في الجزائر ، والثابت أن تلك المعاهدة لم يترتب عليها أي تدبير لاحق ، وانحصرت أهميتها في توقيعها .

وفيما يخص النقاط الجوهرية فإن المنصور لجأ إلى التسويق والمماطلة ، وكان

---

(١) كريم - المغرب في عهد الدولة السعدية ص ١١٦

يرسل الكتب الاستفسارية وبعضها كان لطلب توضيح كلمة أو جملة غير دقيقة المعنى ، والغرض من ذلك هو ما كان يمكن أن تحمله الحدود الشرقية من مفاجئات من جهة ، والمفاوضات التي كانت تجرى آنذاك مع البريطانيين في موضوع الأسلحة والتجارة والقيام بعمل مشترك ضد اسبانيا نفسها .

وطرح أحمد المنصور اقتراحاً على الاسبان يتلخص في مبادلة العرائش بمدينة الجديدة[1] ليقينه أن موضوع الجديدة تكتنفه تعقيدات كثيرة ، وقد يحتاج من اسبانيا إلى تحضر بأسطولها لاستلامه عنوة من يد البرتغاليين الممتنعين بذلك الثغر .

أما موضوع الأسرى فإن المنصور حمل جميع من له خبرة في ميدان من الميادين على اعتناق الإسلام ، ولم يكن في حاجة إلى بقاء الآخرين فقبض أموالاً طائلة مقابل تحريرهم .

وظل موضوع توحيد تجارة البلدين معلقاً ، ولا نعلم ان أي شيء قد أنجز في خصوصه .

وهكذا ، فإن الاتصالات المغربية ـ الاسبانية كانت عنصراً سياسياً استخدم في ظرف معين ، ولم تلبث أن ظهرت عوامل جديدة اقتضت التراجع عن الموضوع كله وتحول المنصور إلى صف المناوئين للإسبان ، وكان من أسباب ذلك التراجع :

١) انتهاء عهد الأطماع العثمانية في المغرب ، وتسليم الباب العالي بالأمر الواقع .

٢) فشل حملة الأرامادا التي سيرتها إسبانيا ضد انجلترا ، وتدهور القوة والسمعة الاسبانيتين .

٣) التجاء المطالب بالعرش الاسباني Don Antonio إلى لندن ثم إلى فاس .

٤) قوة المسلمين باسبانيا .

---

(١) مستعمرة برتغالية جنوب الدار البيضاء وكانت تدعى البريجة آنذاك ، جاء في رسالة من المنصور لملك إسبانيا وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بمدريد مخطوط رقم ٧٥٧ « وكذلك تأمروا لأصحابكم يقبضون لأصحابنا البريجة مثل ما أمرنا للقائد إبراهيم يقابض لأصحابكم العرائش » .

٥) متاعب الاسبانيين في هلندا ، وظهور ما لاح بأنه حليف مقبل للمغرب في البلاد المنخفضة .

وقد استغل المنصور السعدي قضية المطالب بالعرش البرتغالي استغلالاً لا نظير له ، فقد وجه من اتصل به في لندن وأقنع ملكة بريطانيا بنقله إلى المغرب[1] حيث توجد المستعمرات البرتغالية المتوفرة على جيوش وأساطيل خارجة عن المراقبة الإسبانية ، ونعتقد أن المنصور كان يفكر في تحرير المستعمرات البرتغالية المنتظمة من الجديدة إلى أركان عند نهر السنغال ، وإن الموضوع برمته له علاقة وطيدة وإن كانت غير مباشرة مع مشروعه الطموح : مشروع السودان ، وكانت للمنصور مراسلات مع المطالب بالعرش ولكنها لا تكشف عن نوايا العاهل المغربي[2]، وقد أتى الأمير البرتغالي إلى المغرب وأقام مدة طويلة ، وحصلت المقاومة البرتغالية بواسطته على وعد بإعطاء قرض مالي مهم من المغرب يبلغ ١٠٠ ألف دوكة ذهبية .

وكان الاسبان متوجسين من هذه الأعمال ، فأجروا اتصالات بالبلاط السعدي تستهدف حملة على التروي ، وما حلت سنة ١٥٨٨ حتى كانت اسبانيا تدرك ان العاهل المغربي مصمم على القيام بخطوة ما ضدها ، ومؤيدات ذلك : وصول سلاح وفير وفعال من انجلترا وهلندا ، المخابرات المتوالية مع انجلترا ، ثبوت اتصال المغاربة بالثورة العارمة في أراغون الإسبانية عام ١٥٨٨ ، حشد العساكر المغربية في موانيء الشمال[3].

---

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١٠١ « ونجا إلى ملكة انكلترة اميزابيل فنزل منها خير نزل فآوته وشمرت لنصرته ثم نظر في أمره فرأى أن جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى إلا على يد أمير المؤمنين الذي في ملاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم » رسائل سعدية ـ تحقيق كنون ص ١٦٤ « إنه الآن بمراكش حاطها الله لائذا منها الدائر وإقامة جدهم العاثر علماً منهم أن عرشهم الذي ثلمته سيوفنا الأمامية . . لا يتأتى جبره إلا على يدنا » .

(٢) Decastries S,I.H.M. Anglatere I.tl P492 — من رسالة للمنصور إلى الدون أنطونيو « هذا وإن كتبكم الأثيرة قد اتصلت بحضرتنا الشريفة . . على يد رسولكم المقيم ـ من قبل هذا ـ في حريم دارنا والمستقر منذ اعوام في جوارنا ، فكل ما يبث لديكم . عنا وينهيه من الخبر إليكم من لدنا فثقوا به إن شاء الله وشدوا عليه يدكم وعمروا به فؤادكم .

(٣) الفشتالي ـ مناهل السفا ، ص ٨١ : « وهو الآن لهذا العهد ٩٩٧(١٥٨٨) واقف على الأهبة

وقدمت اسبانيا عرضاً مهماً قبله المنصور على الفور وكان يقضي بتسليم إحدى أهم المستعمرات الإسبانية على الساحل المغربي مدينة أصيلا الشديدة التحصين ، وسلمت المدينة بالفعل يوم ١٣ شتنبر ١٥٨٩ ، وكان الشرط لاتمام التسليم هو أن يلزم المغرب موقف الحياد في موضوع الخلاف الانجليزي ـ الاسباني حول العرش البرتغالي وحجب التأييد عن مسلمي الأندلس الثائرين[1] ، ولم تنقطع تهديدات المنصور ومناوراته[2] ولا تنسيقه مع المعسكر البروتيستانتي ومده بالنحاس الضروري لصنع المدافع والاستفادة من الخبرة لديه حتى انتهت سنة ١٥٩١ وكان قد انتهى من غزو السودان .

العلاقات المغربية ـ البريطانية :

أخذت هذه العلاقات شكلاً تجارياً خالصاً في أول صلات تقام بين المملكتين ، ومنذ بداية العهد السعدي بدا التنظيم والتوسع على تجارة البلدين ، وقدم القبطان توماس ويندهام بباخرته المحملة بالأسلحة الثقيلة إلى ميناءي اسفي وأكادير عام ١٥٥١ لتعود وهي محملة بالسكر واللوز ، واعتبرت البرتغال آنذاك أن نمو التبادل النوعي ، وزيادة قدرة المغرب العسكرية موجهتان ضد مصالحها مباشرة[3] ، واعتبرت أكثر من ذلك أن استخدام الميناءين معاً لهذه العملية اساءة بالغة لكل المسيحيين[4] .

والاستعداد » . وجعل قصده وهمه من جهاد المشركين وإغزاء أرضهم . . بعساكره الأمامية موالاة البعوث إلى أقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في إعلاء كلمة الحق » .

(١) مؤلف مجهول ـ تاريخ الدولة السعدية ص ٣٨ » فقد أمر مسلمي الأندلس غشا منه أن يقوموا على النصارى ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم ، فلما قاموا على النصارى تراخى عنهم وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات . . . » .

(٢) الفشتالي ـ مناهل الصفا ـ ص ١١٤ : فلم يزل أمير المؤمنين يسدي في أمرهم ويلحم ، ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من المكايد .

(٣) « حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٤) كان البرتغاليون قد طردوا من أكادير واسفي بحد السيف قبيل هذا الوقت

وقبيل أشهر من معركة وادي المخازن وصل سفير بريطاني هو السيد ادموند هوكن Hogan على ظهر باخرة حربية محملة بالمدافع ، ورجعت بشحنة من ملح البارد[1] ، وقامت شركة انجليزية في المغرب تحت اسم الشركة البربرية عام ١٥٨٥ كانت بمثابة نقابة حقيقية للتجار البريطانيين ، عدا عن توفرها على ورشات ومصانع ، وأتى سفير بريطاني جديد هو المستر هنري روبير[2] ليربط علاقات حميمة مع شخصيات مغربية ذات نفوذ في المخزن والقطاع التجاري ، وزاد الاهتمام الذي أولاه المسؤ ولون للشركة إلى الحد الذي اصبحت فيه دولة داخل الدولة ، وهاجم مشايعوها بالأسلحة النارية بيت السفير الاسباني بمراكش واضرموا النار فيه وأصابوا السفير بجروح[3] ، ورغم ذلك فقد وصلت رسالة للبلاط البريطاني تؤكد بأن المنصور سيعامل التجار البريطانيين « بجميل العدل وحسن الأنصاف في سائر احوالهم وعامة شؤ ونهم »[4] .

وهكذا مضى المنصور في تدشين عهد من الصلات المصلحية مع البريطانيين الذين كان يعقد على مشاركتهم أعظم الآمال ويتطلع إلى القيام ـ معهم ـ باستعمار مشترك لجهات مختلفة من العالم .

ويبدو أن البريطانيين كانوا معجبين بالطموح المغربي ومدركين اهمية توجهه لمحاربة الاسبان والنزول بسواحلهم ، ولكنهم لم ينظروا بجدية لهذا الموضوع على نفس قدر حكمهم على مخططاته الاستعمارية كما سنرى .

وأول دور لعبته الدبلوماسية البريطانية كان منصرفاً إلى منع المنصور من التنازل عن ميناء العرائش أومقايضة بميناء الجديدة ، ومنع الاسبان من أن يستغلوا عنصر الحذر من العثمانيين ليصلوا إلى مكسب ما ، ولكن أهم انجاز عملي كان

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥١
(٢) المصدر السابق
(٣) دوكاستري ـ S.I.H.M ج ٢ اسبانيا ص ٩٧
(٤) رسالة من المنصور لاليزابيت ـ المكتبة العامة بالرباط مخطوط ٢٧٨ ك ص ١٩٥ .

متصلاً بالجانب التجاري فأصبحت المعادن على اختلافها وخاصة النحاس ، وملح البارود ، وأخيراً السكر تأخذ طريقها إلى بحر الشمال ويقابلها على الاتجاه المعاكس السلاح والسفن[1] .

وجاءت قضية المطالب بالعرش البرتغالي والجهود المبذولة لاعادته إلى عرشه على النطاقين العسكري والمالي لتدخل العلاقات بين البلدين مرحلة أكثر نشاطاً ، وحيوية ، وكانت الملكة تلح على المنصور في مد الدون انطونيو بالمال[2] مع التريث في موضوع ارسال الجنود المغاربة إلى لشبونة .

ونعتقد أن الدون انطونيو كان أكثر اندفاعاً واكثر ارادة في الحسم من اصدقائه البريطانيين ، وقد اعتمد المنصور على ما رسمه معه من خطط ، فاصدر الأمر لعامله على تطوان أحمد النقسيس بالهجوم على مدينة سبته الذي تمّ في ١١ دجنبر ١٥٨٨ وذلك لتكون مركز اسناد للأسطول المغربي ، وكانت تلك أول مرة كشف فيها المنصور أوراقه أمام الاسبان ، ونظن أن ذلك الهجوم لم يكن سوى مناورة تكتيكية ، وقع الاتفاق عليها مع الدون انطونيو ومع البريطانيين ، ويدل على ذلك بكل وضوح ما جاء في رسالة من المنصور تضمنت خطة في منتهى الذكاء سبقت ذلك الهجوم بعدة أشهر وتقوم على الآتي :

- مجيء الأسطول البريطاني إلى سواحل المغرب الشمالية .

- مداهمة المركز الاسباني في سبتة وغيرها برا من طرف المغاربة .

والغرض من ذلك كله هو حمل الأسطول الاسباني أو ما تبقى منه على

---

(١) الفشتالي - مناهل الصفا - ص ١٩٣

(٢) دوكاستري S.I.H.M. - المجموعة ١ فرنسا ج ٢ ص ١٣١ « قدم وفد برتغالي إلى المغرب في شهر مايو ١٥٨٧ وتباحث مع المنصور في مختلف المواضيع التي تهم مشاريع الدون وخاصة موضوع المال . نفس المصدر ، مجموعة ١ ، بريطانيا ج ١ ص ٥٣٠ . « جاء في مذكرة وجهها مساعد الدون في المغرب JHON CARDONAR بتاريخ ١٨ اكتوبر ١٥٨٩ إن المنصور اشترط لدفع ١٠٠ دوكة ذهبية للدون أن يعلم مسبقاً بتاريخ الحملة المرتقبة ضد الاسبان ويعرف دوره فيها » .

التمركز بالموانيء الاسبانية الجنوبية الشرقية وافساح المجال للعملية الرئيسية : غزو البرتغال[1] .

وقد تعهد الانجليز من جانبهم باقناع حاكم سبتة بتسليم المدينة للمغرب ، اعتماداً على اتصالات كانت تجري معه في هذا الصدد .

ووصل السفير المغربي مرزوق سيد إلى لندن يوم ١٢ يناير ١٥٨٩ ، أثناء ذلك كله ، ومهمة السفير كانت تنحصر في ثلاث نقاط :

- اقتراح المنصور أن يقود بنفسه الجيوش الحليفة الموكول اليها امر احتلال اسبانيا من جهة الغرب .
- عرض احتياجات المغرب من القطع البحرية والمدافع .
- عقد معاهدة حربية متعددة الأهداف[2]

وأتت على الفور مجموعة من الجنرالات البريطانيين ليضطلعوا بدور قيادة الجيوش[3] ، وحينما كانت الحملة الانجليزية تتجه إلى سواحل البرتغال كان الحليف المغربي لا زال لم يقرر بعد أمر الاشتراك فيها ، مما عده الانجليز اخلالاً بالتزامات مقررة ، ويبدو من رسالة وجهها المنصور إلى الضباط الانجليز أن حلفاءه قلصوا من الدور الذي كان على المغرب أن يقوم به ، وطولب فقط بتقديم المال ، وتزويد الحملة بالمؤ ن والبارود ، كما أن المنصور لم يخطر بتوقيت تحرك الحملة من بريطانيا[4] ، على أن الشاغل الحقيقي الذي كان يشغل بال العاهل

---

(١) تفاصيل هذه الخطة في دوكاستري S.I.H.M. ـ المجموعة ١ فرنسا ج ١ ص ٥١٣ .

(٢) Fernardo Brodel: la mediterrane et le monde medeterraneen a l'epoque de Philipe 2 Paris 1949 P 590

(٣) دوكاستري S.I.H.M. ـ بريطانيا مجموعة ١ ، ص ٤٦٦ .

(٤) محمد بن تاويت ـ مجلة تطوان عدد ٩ ص ٧٦ « واعلموا أن رسولنا هذا الذي ذكرتم كان انفصاله عن حضرتنا العلية تجاهكم من قبل أن تتحرك عمارتكم أو نسمع لها خبراً أصلا ، وبعد بلوغه بلدكم تعينت حركتكم وسفر عمارتكم ، وكيف ، اذن ، تعتبرون بهذا القول ويصح لديكم أننا نعدكم بشيء ولم يتقدم لنا به علم ولا حصل لنا به خبر »

المغربي هو الاستعداد لعملية في الجنوب لا في الشمال ، وهذا ما دفعه إلى استبقاء سفير بريطانيا في بلاطه حتى انتهى من اعداد حملته المتجهة إلى السودان ، ثم ارسله مع سفير من قبله ليصلا وقد قطع جؤذر نصف المسافة إلى تنبوكتو[1] ، وتأكد الانجليز أن المنصور كان يلعب على جميع الحبال

والخلاصة أنه ، مع نهاية ١٥٩٠ ، حينما كان جؤذر يرفع يده بالتحية لعاهله احمد المنصور السعدي ، ويتجه صوب الفيافي ، وما وراء الفيافي كان كل شيء قد تهيأ لمنع التعقيدات الدولية التي اجتهد العاهل المغربي في ازالتها ومحوها :

- فالعثمانيون يقلبون النظر في أمر الوحدة الاسلامية .
- والاسبان لا يأبهون إلاّ بالخطر البريطاني .
- والبريطانيون يدرسون الكيفية التي سيتم بها صرف القروض الخفية الموعود بها من المغرب ومشاريع اقتسام مستعمرات اسبانيا .

٢) اعتبارات الخلافة والسيادة على بلاد المسلمين[2]

استعمل احمد المنصور السعدي مسألة الخلافة على المسلمين كحجة أساسية ، داخل المغرب ، ومع من اتصل بهم من قادة الدين والفكر الاسلامي في الشمال الافريقي والعالم العثماني ولدى ملوك السودان أيضاً ، لتبرير الحاق امبراطوية سونغاي بالمغرب ، وكان يربط ذلك بأمرين :

---

(١) المصدر السابق عدد ٣ - ٤ ص ٥٥ « ووافى رسولكم الواصل في حالة الأهبة والاحتفال بهذه الحركة السعيدة التي أخذنا في تجهيزها إن شاء الله إلى جهة السودان وهي على قدم السفر بحول الله في هذه الأيام . . . وحين تنصرف بسلامة إلى قصدها وسبيلها نلتفت إن شاء الله في اغراضكم واغراض السلطان دون انطونيو ، ولكن بودنا أن تكتبوا لنا وتعرفون بما عندكم فنحن واياكم في هذا الأمر واحد . . . » بتاريخ ٢٣ / ٦ / ١٥٩١ » .

(٢) انفصل المغرب عن الخلافة الاسلامية في سنة ٧٨٨ ، وأسس أول مملكة مستقلة عن الخلافة العباسية على يد الشرفاء الأدارسة الهاربين من الجزيرة العربية ، ولم تعمر المحاولات لاعادته إلى الخلافة المشرقية في عهد الفاطميين (وهي خلافة مغربية الأصل) وفي عهد العباسيين الأخير حيث تسمى ملوك المرابطين والموحدين بأمراء المسلمين وتظاهروا في أول أمرهم بالولاء للخليفة في بغداد ، لم يكن الموضوع في الواقع يتعدى الحصول على مؤيد قانوني لغزو أراضي غير مغربية .

- واجبه في الدفاع عن ديار الاسلام يقتضي أن يضع يده على مقدرات المسلمين وخيرات أرضهم لغرض النهوض بمهمة الجهاد باعتباره خليفة لرسول الله فواجبه أن يجاهد وأن يتبعه المسلمون في ذلك قادة ورعايا .
- مركزه كقائد أوحد يفرض عليه أن يحمل المسلمين على الوحدة باللين أو بحد السيف .

واعتبار المنصور السعدي نفسه الخليفة الوحيد للمسلمين بالنظر لانفراده بين ملوك المسلمين وأمرائهم بالنسب الهاشمي القرشي[1] ، كان نابعاً من قناعة عمل على ترسيخها واذاعتها ، وخاصة عندما برزت قوة المغرب السياسية والعسكرية والاقتصادية « فالمنصور كان يرى نفسه خليفة مستمداً سلطة الخلافة من نسبة »[2] .

ولقد أثير الكثير من الجدل خلال كل احقاب التاريخ المغربي حول أحقية تلقيب الأمير أو الملك أو السلطان بلقب أمير المؤمنين ، وخليفة النبي ، وخليفة الله في الأرض ، رعياً لتوفر أو انتفاء احد الشروط اللازمة للخلافة وهي النسب القرشي ، وكما كان الشأن ، بعد سقوط الدولة الادريسية[3] حيث ظهر من كان ينفي الخلافة عمن لا ينتسب للنبي[4] ، فقد اندفع في عهد المنصور من كان ينفيها عن غير ملوك المغرب ، ويثبتها لهم وحدهم ومن بينهم كبار علماء المغرب والمشرق ، وخلال اجتماع احمد المنصور بمجلس ملأ المسلمين لمناقشتهم في امر ارسال حملة السودان ، قرر امامهم بأن السلطان الزنجي مخلوع شرعاً حيث لا يتوفر فيه شرط أساسي من شروط الخلافة وهو النسب القرشي[5] .

---

(١) في الحديث « الأئمة من قريش ابرارها امراء أبرارها ، وفجارها أمراء فجارها » .
(٢) ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٢٩٨
(٣) عام ٩٧٤
(٤) م . الغربي ، موريطانيا ومشاغل المغرب الأفريقية ص ١٤٥
(٥) المصدر السابق ص ١٢٩ وطه حسين ـ الفتنة الكبرى ـ ص ٣٢ « قامت الخلافة على عنصرين ، العنصر الديني وعنصر الارستوقراطية القرشية » .

واعتبر احمد المنصور أنه ما دامت الخلافة واجبة شرعاً ، فان من حقه بل ومن واجبه تجاه المسلمين أن يبسط خلافته النبوية على ما جاوره من بلاد ، مع ما يترتب على ذلك من ربط قانوني ، واشراف على الخيرات وتصرف بالرعايا ، والمقابل فان جمهرة المسلمين بتلك الأصقاع مأمورون بألا يعيشوا إلاّ في ظل امارة عامة خليفية شريفة ، وإلا فقد خالفوا أمر دينهم وتعرضوا للاكتساح والعقاب ، وهذا بالفعل ما بررت به جميع الأعمال التي قام بها الجيش السعدي ضد مسلمين ، لم يستجيبوا إلى الدعوة وإلى الطاعة والبيعة ، فاخضعوا بحد سيف خليفة الرسول .

وقد صدّر المنصور كل الرسائل التي وجهها إلى علماء السودان واعيانه وقادته ـ فيما كان يندبهم لتسهيل مهمة الجيش السعدي الغازي ـ بعبارات متشابهة تجتمع حول معنى واحد تقريباً فكان « يحمد الله الذي من على سعداء عباد بالانتماء للجناب النبوي منّا جسياً ، مصداق : إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوفيه اجراً عظيماً) »[1] .

وحيث كانت الخلافة بالنسبة إلى المنصور « الذي أقام الله منار اهتدائه » مقاماً ومنصباً وعظمة « دل الله المسلمين عليه ليرفعوه اليه »[2] فانها على ذلك الاعتبار تنطلق من منطلقين :

- من كون الخليفة ضوء الهداية الربانية على الأرض المستمرة بعد موت النبي وسلطته مستمدة من الله وهو يحكم الناس بهذه السلطة الربانية[3] .

- من ضرورة حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية . . أي إنها في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا بذلك الشرع نفسه[4] .

---

(١) رسائل سعدية ص ٨٢

(٢) المصدر السابق ص ٨٣

(٣) عبد الكريم الخطيب ـ الخلافة والامامة ـ دار المعرفة / بيروت ١٩٧٥ طبعة ثانية ص ٢٣٧ .

(٤) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٧٩

والخلافة التي ورد تحديد مقاماتها ، وأشير إلى مصدرها ، واشعاعها ولزوميتها ، في الرسائل التي وجهها احمد المنصور قبل وبعد حملة السودان إلى مختلف جهات العالم الاسلامي ، تنطبق على تفسير أورده ابن تيمية فيما بعد حيث قرر : « بأن الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم[1] .

ولعل المثال الجامع الذي يحوي تلك الاطلاقات هو نص بيعة امبراطور بورنو كانم ادريس الثالث للمنصور السعدي سنة ١٥٨٢ ، وقد كتبت تلك البيعة بفاس ونقلت إلى نجامينا حيث اشهد الامبراطور على نفسه على رعيته بمنطوقها وتبعاتها[2] .

جاء في ديباجة هذه الوثيقة[3] « تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود ، واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية والامامة الهاشمية العلوية ، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها وارتفع إلى حيث السما والفرقدين منارها . . . »

« والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء أما ما القى الله له في القلوب حباً جميلاً ، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلاً ، وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعي لخلقه وعباده كفيلاً وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساماً صقيلاً . . مولانا امير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين وسليل خاتم النبيين ووارث الأنبياء والمرسلين ، المفترضة طاعته على الخلق اجمعين والممنون بامامته المقدسة على العالمين . . امير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين . . »

---

(١) ابن تيمية ـ السياسة الشرعية / المطبعة الخيرية / طبع ١٣٢٣ هـ ص ٦
(٢) قرئت هذه البيعة في مساجد كانم ـ بورنو في شهر محرم الحرام عام ٩٩٠ هـ (يناير ١٥٨١)
(٣) يراجع النص الكامل لهذه البيعة في كتاب مناهل الصفا للفشتالي ص ٦٩

« واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بامامته والانقياد لدعوته ، وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم كما قال عليه السلام « لا تزال الخلافة في قريش ما بقي منهم اثنان . . . » . . « فانه امام الجماعة حقاً المستوفي شروطها والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الاسلام أن يحوطها . . وإن امارة لا تلاقي من الشروع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة ، وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضة . . . » .

ويجب التساؤل : ما هو المركز الشرعي - في ضوء الاعتبارات المتقدمة - للدولتين الاسلاميتين القائمتين آنذاك في شرق وجنوب البحر المتوسط (الدولة العثمانية (وفي غرب افريقيا (دولة سونغاي الاسلامية) ، وما هي نظرة المنصور السعدي وتقييمه للأساس القانوني الديني لطبيعة الحكم القائم في الدولتين ثم رأيه في احقيتهما بقيادة المسلمين ؟ .

مما لا شك فيه أن تأدية الأسكيا الحاج محمد ملك مالي ، فريضة الحج (١٤٩٦ - ١٤٩٧) قد نتج عنها شرعياً وضع لا ينبغي التقليل من أهميته ، فقد التقى الأسكيا بشريف مكة ، وحصل منه على منصب امام في السودان وألبسه الشريف العمامة الزرقاء ، وقدمه وولاه على شعبه[1] ونعت، الأسكيا بعد ذلك « بالامام العادل أبي اليتامى والأرامل والمساكين والضعفاء وملجأ العلماء[2] .

ويسوق السعدي في تاريخ السودان الحادث على نسق آخر : « لقي الأسكيا في ذلك الأرض المبارك الشريف العباسي ، فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سغى فرضي له بذلك . . . وجعله خليفته وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحاً في الاسلام . . »[3] .

ونجد في تاريخ الفتاش رسالة كتبها الأسكيا الحاج محمد للخليفة العباسي

---

(١) كعتو - تاريخ الفتاش ص ٦٨
(٢) نفس الصدر ص ٦٧
(٣) السعدي - تاريخ السودان ص ٧٣

باشارة من الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي حملها الأسكيا معه من مصر إلى مكة « هذا كتاب أمير المؤمنين ، قامع الفجار والكافرين أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر وارثه المسدد والقائم بأمره إلى المؤيد أمير المؤمنين احمد .. فموجبه اليك أيها الأخ البر الصالح اعلامك وتبشيرك بأنك آخر الخلفاء ، وقاهر الأعداء وهادي السعداء باتفاق العلماء ونحن نطلب منك الدعاء . . ونرجو الله سبحانه أن يجعلنا واياك في زمرة خير الورى آمين »[1] .

ولا تعني هذه النصوص استخلاف الأسكيا على قومه من قبل الخليفة العباسي ، بل هي أكثر من ذلك ترمز إلى المركز الذي اعطاه الأسكيا لنفسه حتى قبل أن يعتمر بقلنسوة الخليفة ، وهذا الاعتماد في حد ذاته لم يكن يعني الاستخلاف فهناك اصول متعارف عليها ، وهي وحدها التي تعطي لخليفة الخليفة القوة الشرعية لمزاولة سلطانه .

ورغم ذلك فان الأسكيا بث بعض الدعاة في أرجاء مملكته وخطب لفترة قصيرة ـ فيما يظهر ـ للخليفة العباسي[2] ولعله فضل أكثر من ذلك الجري على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر اموره ، ومال إلى السيرة العربية[3] .

ويبدو كذلك أن الأسكيا الحاج محمد أحب التشبه بأمراء المغرب الذين كانوا يصاحبون معهم شرفاء من المشرق للقيام بشؤون الدين فطلب من الخليفة احمد العباسي أن يبعث اليه بأحد اولاده ، وقد تحققت هذه الرغبة بعد خمسة عشر عاماً حيث ورد ابن أخ الشريف مولاي احمد الصقلي إلى تنبوكتو وغاو[4] ، وتبرك به الأسكيا ، ولم يتول الشريف أية سلطة دنيوية بل ندب إلى التدريس[5] .

ومما يؤكد أيضاً عدم استمرار الأسكيا في التعلق بالخلافة العباسية إلاّ لفترة

---

(١) كعتو ـ تاريخ الفتاش ص ١٥
(٢) م . الغربي ـ موريطانيا ومشاغل المغرب الافريقية ـ ص ٨٣
(٣) المصدر السابق
(٤) مر مولاي احمد على المغرب وأقام طويلاً بفاس ومكناس وتافيلالت وتندوف .
(٥) كعتو ـ تاريخ الفتاش ص ١٨ ، ولكنه لعب هو وأولاده فيما بعد أدواراً سياسية ص ١٩

قصيرة جداً ، ما أورده ابن بطوطة من جهر الخطيب بمحضره بالدعاء للسلطان المريني أبي الحسن ، ولم يرد أي ذكر للخليفة العباسي[1] .

وقد أخبر الأسكيا الحاج محمد عند قفوله من الحج السلطان المريني بأن ملك المغرب هو أمير على المؤمنين في الشمال والأسكيا هو أميرهم في السودان[2] .

والثابت أن الجهات الصحراوية شمال النيجر ، وهي جهات عربية مغربية ، واصلت دعاءها لسلاطين المغرب باستمرار[3] ، أما الممالك الصغيرة على أطراف السودان والمرتبطة به بصكوك للحماية ودفع الخراج فانها درجت على اتخاذ القاب الملك والخلافة بدون حدود ، وقد سمي بعض القواد العاديين في السونغاي أنفسهم بأمراء المؤمنين وبالخلفاء على المسلمين[4] .

وحدث تطور في موضوع الخلافة عام ١٥١٧ عندما انتهت الدعوة العباسية باحتلال العثمانيين لمصر ، وهذا الأمر شغل بال المغرب فيما بعد أكثر مما شغل من قبل بأن ولاءهم للعباسيين كان راسخاً ، وأمراء السعديين الذين نهضوا بالجهاد في السواحل المغربية قبل أن يؤسسوا دولة لهم فكروا في الفراغ الذي تركه اختفاء الخلافة في مصر ، وأحد اولئك الأمراء هو محمد الشيخ الذي كانت له مبادرات واضحة في هذا الخصوص ، والذي أحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة[5] .

ولكن المنصور انبرى لهذا الأمر بكل حماس ، وأراد أن يبسط حكمه على الاقاليم الجنوبية بدعوى التبعية اللازمة الملزمة ، وكان يعلم أن العثمانيين ولو أرادوا الاستخلاف ، بحكم الأمر الواقع النابع من حكمهم لكل البلاد العربية وبعض البلاد الاسلامية ، فانهم بعيدون ماديا عن المغرب والسودان ، ومن ثم

---

(١) ابن بطوطة ـ الرحلة ـ دار التراث / بيروت ١٩٦٨ / ص ٦٦٥
(٢) م . الغربي ـ موريطانيا ومشاغل المغرب الافريقية ص ٢٢
(٣) المصدر السابق ص ٨٢
(٤) السعدي / ت . السودان ص ٧٣
(٥) محمد اليفرني ـ نزهة الحادي ص ٣٦

فقد خلال للمنصور الجو للقيام بالحملة التي تؤ دي الى الاعتراف به كأمير للمؤ منين في تلك الاصقاع جميعها[1] ، وقد كان يخاطب ملوك بني عثمان بالسلاطين ويخص نفسه بلقب الخليفة[2] .

ونحن في هذا الوقت لا نجد عند السونغاي ـ الذين خلفوا مالي ـ أي ذكر لالقاب الخلافة ، فكان الحاكم يتلقب تارة بالسلطان وأخرى بالأسكيا ، ولكن طقوس التولية من بيعة[3] في العاصمة والاقاليم ، ودق الطبول واشعال النيران والرقص حولها كان دارجا ، لكن الخطباء في تنبوكتو وغاو لم يكونوا يدعون لامام بعينه وكانت خطبة الجمعة تتضمن التمني بالظفر والظهور لرايات المسلمين اما الدعاء للسلطان الزنجي فكان يرفع بعد الصلاة[4] .

وبعد انضمام كانم ـ بورنو للمغرب عن طريق البيعة عام ١٥٨٢ تاقت نفس المنصور مباشرة لجر مناطق سودانية أخرى الى بيعته ، اما الالحاق، وارسال الحملات فقد جاء متأخرا كفكرة وكتنفيذ ، ويتضح ذلك دون لبس من جميع رسائل احمد المنصور لعلماء الدول الاسلامية ، وفقهاء واعيان السودان ، فقد أراد الرجل اتخاذ ذريعة الحق الالهي ليصل الى اهدافه السياسية .

فلم يتعلق الأمر فقط بما كان يصدر منه من رسائل الى خارج البلاد[5] بل ان

---

(١) نقولا زياده صفحات ٦٩ ـ ٧١

(٢) رسائل سعدية ـ رسالة للسلطان العثماني ص ٣٥

(٣) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١١٥ « فلما فرغوا من دفن والدهم بايعه القياد والأجناد وسائر الخلق والعباد ، وفي ص ٩٥ واتفقوا على أخيه اسكيا اسحق فولوه السلطنة .

(٤) م . الغربي ـ م ومشاغل المغرب الافريقية ص ٨٢.

(٥) رسائل سعدية ـ رسالة لأمير اكدس (شمال تنبوكتو) محمد بن محمد بن العاقب ـ ص ٨٣ والصلاة والسلام على لبنة التمام من شوامخ ابنية الرسالة الذين ورث الله خلافة نبوته وآله سيدنا . . . » ومن رسالة لأحد أمراء السودان محمد بأبي بن سوري ـ المصدر السابق ص ٨٤ هذا وقد أنهى الى مقامنا العلى كتابكم الأثير قرر انكم على السعي الجميل فيما يرضى هذا الجناب النبوي في كل حال ، وعلى الخدمة التي تتظافر عليها الأفعال والأقوال . . . » .

التركيز على مزاياه الربانية كخليفة للنبي تصدرت رسائله للقواد والموظفين في الحواضر والبوادي ، وقد استعمل أوصافا لا يتصف بها غير الأنبياء[1] امعانا في ابراز مكانته بين ملوك المسلمين وأمرائهم .

وكان ايمان الرجل راسخا ، كما خطت بلاده خطوات ناجحة في مجال ما ، بأن الله بعثه ليخلفه على العالمين ، وقد استهدف من اتصالاته العديدة بعلماء ووجهاء المشرق أن يحملهم على نبذ الحكم العثماني والقيام عليه فكان يتودد اليهم بالهدايا ، ويظهر الاهتمام بكتبهم ، ويطلب الاجازات منهم ، ويذكر المقري وقوله لايخلو من المبالغة انه « لما تقرر عند أعيان البلاد الشرقية حب مولانا نصره الله في العلماء وبره بهم واجزاله عطاياهم نسلوا اليه من كل حدب ، ومن لم يمكنه الاتيان خدمه نصره الله بالتأليف ، فألف تاريخ دولته نصره الله جماعة من أكابر علماء القسطنطينية العظمى وكذا جماعة من أعلام مصر وغيرها مما لا يحصى عدده » .

وكان المنصور يرسل الدعاة المغاربة الى المشرق وكان من بينهم سفراء وحجاج وطلاب ورحالة ، ووصف الفشتالي مهمة أحد هؤلاء وهو أحمد بن القاضي بقوله « كانت له قيمة بالغة في نشر مآثر مولانا الامام . . . فجمع من مفاخر الدولة وأمداحها وفتوحاتها ومآثرها ما أمل بثه في الأقطار ونشره في المشارق[2] » وقد

---

(١) رسائل سعدية ص ٢٣ « لم نزل ننظر اليكم في الحديث والقديم نظر حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » وهذه صفات وصف بها القرآن الرسول في الآية : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . . الآية وقد سمى في احدى رسائله النبي باسمه هو ولقبه» اما بعد حمد الله . . . والصلاة والسلام على نبيه احمد المنصور بالصبا والرعب المأمون بالعصمة من الناس الأمين بالتبليغ عن الرب . . . والدعاء لهذا المقام العلي الامامي العلوي الأحمدي المنصوري المولوي ، الذي زكى في ارض النبوة مغرسا وشمخ أنفه الأشم على العلويين . . » نفس المصدر ص ٥٢ .

(٢) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ٢٣٠

الحق المنصور بأكبر العلماء في الشرق موظفين في صفة طلاب واجرى عليهم الجرايات ثم ونجده يوصي العالم المصري زين العابدين البكري بأحد أولئك الوافدين ، ويطلب منه مد المساعدة اليه في مهمته[1] .

وقد كان أولئك الموظفون في أغراض الدعاية يرفعون تقاريرهم الى المنصور ، وقد ضمن أحمد بن القاضي بعضها في كتابه المنتقى المقصور فنجده يقول : « ان البعض من أهل المشرق الذين عليهم العقد والضبط واليهم الحل والربط حلف لي بالايمان اللازمة المغلظة الجازمة التي لا يمكن نقضها ولا ينكث بعضها انه لو رأى جارية من جواري مولانا أيده الله اقبلت بالدعاء لطاعته والانقياد اليه في امارته لكان اول مطيع لها هو وأهله في لحظة من غير مهلة . . . » .

« وصارت العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم » . « واهل الشرق قلوبهم بأجمعها مقبلة عليه وعقولهم حاضرة لديه وأحداقهم ناظرة اليه نفذ الله به كسادهم وأصلح به فسادهم . . . »[2] .

ويبدو ان احمد المنصور كان مطمئنا لسير هذا العمل ، ومتفائلا بامكان خلق مناخ طيب ليزاحم العثمانيين في معاقلهم ، ولكن من جهة أخرى كان يستهدف تحقيق مكاسب سياسية ، فمن شأن اضعاف مركز العثمانيين في بلاد المشرق ان يكون هؤلاء منصرفين عن المغرب ، كافين أذاهم عنه .

ومما لا شك فيه أن دعاية المنصور كان لها وقع في الأوساط المشرقية ، دون أن يظهر ما يشير الى حدوث تململ حقيقي على طريق تنفيذ عمل ما ، ولم تكن بعض القناعات التي ظهرت حول احقية الشرفاء بالخلافة من العثمانيين وان هؤلاء قاموا بالجهاد نيابة عن الخليفة في المغرب[3] تتعدى حد القول المجرد .

(١) رسائل سعدية ص ٣٣
(٢) احمد بلقاضي ـ المنتقى المقصور ـ ص ١٠١ و١٠٢
(٣) المصدر السابق .

غير ان الأمر في المغرب تجاوز حد التكتيك ، فغدا خدام احمد المنصور يذيعون في حواضر المغرب وبواديه بأن السلطان هو الخليفة العظيم والوحيد للمسلمين ، المسموح له بفتح الأقطار وسياسة الخلق[1] .

ولقد كان المنصور يستغل الظروف القائمة في كل بلد ، ويحاول أن يستفيد من كل خلل بين الحاكم والمحكومين ، وكان يوظف ما لديه من رجال للاستعلام والاستخبار ينتقي من الأشخاص من لهم نفوذ وتأثير على الجماهير فيتوجه اليهم ويربط معهم أوثق العلاقات ، والواضح أنه استغل نقطة في منتهى الأهمية أيضا الا وهي تسلط الأتراك على العرب وهم يختلفون اجتماعيا وحضاريا عنهم ، على نفس القدر الذي استغل به تنوع الأجناس التي تتشكل منها امبراطورية السونغاي ، وقد كان يعرف أن ملوك غاو لم يزيدوا عن كونهم مستغلين ومتحكمين ، وان القبائل المتعددة وفي ضمنها مجموعات عربية وبربرية كانت تنظر اليهم على أنهم أجانب[2] .

وهكذا فان احمد المنصور اعتبر قضية الخلافة غطاء مناسبا لتحركه السوداني ونبه الأسكيا ، ونبه كل المتصلين به ، والمتنفذين في البلاد ، ان الله وحده الذي يفرض على الأسكيا أن يبدي السمع والطاعة وينخرط بواسطة البيعة في سلك الجماعة[3] .

---

(١) الفشتالي ـ المناهل ص ٢٩٠ ، وفي صفحة ١٤٢ الى ١٦١ : نقرأ قصائد ترفع المنصور الى مقامات كبيرة وتدعوه الى ارسال جيوشه الامامية لافتتاح مصر والشام والعراق والحرمين فمن قصيدة للحسن المسفيوي :

فما دون درب الشام غير التفاتة ... وما دون بغداد العراق سوى فتر
فلسوف يطوي مغربا ومشارقا ... ويزور دجلة والفرات بعسكر
وتحل بالحرمين ربعا زاكيا ... مأوى لجدك ذي السجايا الطهر

(٢) J. Suret . canale . Afrique noir , P 163

(٣) رسائل سعدية ص ١٣٩ ، وقد ذكر ابن تيمية في الخلافة والامامة ص ٢٤٣ « ان مصدر سلطة الامام هو الله تبارك وتعالى » .

ولم يجتهد المنصور في شيء قدر اجتهاده في ربط خلافته عن صاحب الشرع في حراسة الدين ، بسياسة بلاد المسلمين انطلاقا من واجباته كحارس عليها .

وحسب ذلك فمن واجب الخليفة ، وهذا ما احتج به المنصور بالفعل :

أ) ان يبين للزائغ والمبتدع والخارج عن الجماعة ، طريق الصواب ويدعوه بالتي هي أحسن ثم يأخذه بما يلزم من الحدود .

ب) أن يقيم الحدود لتصان محارم الله تعالى وتحفظ حقوق عباده وتحمي البيضة لينتشر الناس في الأسفار آمنين .

جـ) ان يحصن ثغور بلاد المسلمين .

د) أن يجاهد

هـ) ان يقدر ما يستحق لبيت المال ، وما يعود الى الخليفة النظر فيه كالمعادن وخيرات الأرض والبحر .

و) ان يباشر بنفسه السلطة الدينية والدنيوية ويشارف كل الأمور[١] .

٣) التطلع للاستفادة من خيرات السودان :

لفتت خيرات المناطق الواقعة جنوب الصحراء نظر سلاطين المغرب منذ عهد بعيد ، وكانت تلك الخيرات على أشكال متعددة :

ـ الذهب : كان يوجد في أكثر من موضع وانتجته غانا بصفة رئيسية ، ثم استولت عليه مالي واستغلته بشكل أقل أهمية ، ثم احتوته مملكة السونغاي عن طريق تجاري يصعب تحديد نطاقه ، ولكنه كان يصل الى مدنها التجارية وتنقله القوافل باتجاه مصر وشمال غرب افريقيا .

---

(١) حضارة الاسلام / جوستاف جرونيباوم ، ص ٢٠٤ ورسائل سعدية ص ١٣٢ .

ـ الملح : تقع المالح الكبرى في جهات غير سودانية ، تناوب المغرب وممالك السودان السيادة والاشراف عليها ، وقد لا نجد عنصرا تمثلت فيه الخلافات المغربية السودانية يتقدم ذلك العنصر .

ـ العبيد : لم يلعب هذا الجانب الدور الكبير الذي تحدثت عنه بعض المصادر ، وقد ظلت أرقام المهجرين في حدود المألوف في التجارة العادية التي كانت تقوم في حوض البحر المتوسط منذ فجر التاريخ .

ـ العاج والبيشر والنحاس : برزت أهمية كل نوع من هذه الأنواع في أوقات معينة وضمن ظروف خاصة ولكنها لم تأخذ قط مفردة أو مجتمعة أهمية واحد من العناصر السالفة .

ولقد كان الملح عمدة أساسية في التجارة العامة للاقاليم السودانية ، وامتدت اماكن تسويقه الى جهات تبعد آلاف الكيلومترات عن مناجمه ، ولفتت أهميته التجارية نظر كل الرحالة والمؤ رخين الذين قصدوا هذه الجهات أو تلقوا معلومات عنها . وفي مقدمتم ابن بطوطة[1] والحسن الوزان[2] .

كان الملح يستبدل مقايضة بالذهب أو مقابل الودع وأنياب العاج ، وأخذت المدن السودانية عن كل حمل منه مكوسا عند الدخول اليها أو الخروج منها .

إن هذه الثروة التي كانت تقع ضمن بلاد البيض ، في تاودني وتغازى وتغازى الغزلان[3] تسببت حتى قبل قيام الدولة السعدية في مناجزات متنوعة الأبعاد بين المغرب وممالك السودان .

وقد وجه العاهل الثاني في الدولة السعدية أحمد الأعرج حملة عسكرية الى

---

(١) ابن بطوطة . ج٤ . ص ٣٧٦ ـ ٣٩٥

(٢) les Afraicains Vol. 111 ٧٨٣

(٣) حفرت هذه المملحة بعد احتلال المغاربة لتغازى في حملة المنصور الفاشلة الأولى عام ١٥٨٤

توات[1] التي لا تبعد كثيرا عن المالح ، ولكن ظروفا حالت دون متابعتها الطريق فاكتفى السلطان بارسال خطاب الى الاسكيا اسحق الأول يطلب منه رفع اليد عن ملح تغازى لكونه يخص مملكتـه[2] ، وحـين تولى السلطـان محمـد الشيخ الملك خاطب الأسكيا اسحق في ذات الموضوع عام ١٥٤٤ ، ولكن اسحـق لم يكتف بكتاب الرد المغلف بالتهديد فوجه ألفين من التوارك الى وادي درعة أغاروا هناك على سوق عامرة ونهبوا ما وجدوه في طريقهـم[3] ، وأتى رد السلطان بعد ثلاثة عشر عاما حين وجه حملة من ألفي رجل راكبين على الخيول والابل احتلت مدينة وادان والمالح حولها وتقدمت نحو تغازي وأقامت عليها السلطة المغـربية[4] وكان عدد العساكر المتوجه الى تغازى مائتين ، وداخل الرعب حراس المركز فهربوا وتبعهم التجار والعمال ، فمنهم من اتجه صوب توات ودخل طاعة المخـزن ومنهـم من أوغل في الأدغال واستقر بمدينة المحمدية ، وقسم ثالث واصل السير نحو غاو ، ولم يكن من مخرج أمام الأسكيا سوى مقاطعة ممالح تغازي ويبـدو أن المغاربـة انتقموا من موظفي السونغاي في تغازي ، فقتلوا حاكم المدينة (منزو تغازى) ، واعدموا بعض رجال التوارك ، وقال السعدي بأن عملية القتـل قام بهـا الفيلالي الزبيري ردا على عزل الأسكيا له من منصب المشرف على المملحة[5] .

ولقد أحس محمد الشيخ بالمرارة لمقاطعة التجار مدينة تغازى ، الأمر الذي يتعارض مع هدفه الاستغلالي ، فعرض على الأسكيا اتفـاقية تخلى بموجبهـا لملك السودان « عن بعض الخراج مقابل تسريح بيع الملح الذي تستامه العير الى بلاده ، فكان الأسكيا يبعث من يحمل له نصيبه من الخراج دون أن يكون له قبض ولا بسط

---

(١) عام ١٥٢٦

(٢) السعدي ـ تاريخ السودان ص ٩٩

(٣) نفس المصدر ص ١٠٠

(٤) الفشتالي / مناهل الصفا ـ ص ١١٤

(٥) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٠٦

في احكام البلد والمعدن »[1] ولكن لم تمر سوى سنوات قليلة ، وكان المغرب منشغلا في مشاكله الداخلية ، حتى عاود الأسكيا احتلال مدينة تغازى .

ولا شك ان المنصور ، وقد عادت الوحدة والقوة لمملكته ، كان يطيل التفكير لا في موضوع الملح وحده ولكن في كل خيرات السودان ، وكان يدبر لا لأمر وضع اليد على تغازى ولكن لوضعها على البلاد برمتها ، فقد بدأ منذ وقت مبكر في رسم سياسة توسعية خاصة أساسها التمركز في مواقع استراتيجية هامة في الصحراء ، لتكون نقاط ارتكاز للتوسع[2] ووضع الخطط لاحتلال الصحراء الوسطى والسنغال ليستعين بفتحها على توفير المقاتلين والدواب لعمليته الكبرى[3] .

وحاول المنصور فيما يظهر انهاء قضية المهالح بطرق المفاوضة والسلم ، فوجه سنة ١٥٨٣ وفدا كبيرا الى غاو حمله أحسن الهدايا وأثمنها الى الملك الحاج محمد ، وفاتح رئيس الوفد الشيخ مؤ من بن موسى العمري المعقلي الأسكيا في قضية السيادة على المهالح ، وعرض ما اقتضاه « النظر الكريم من فرض مثقال للحمل على من ينتابه من القوافل »[4] ، ولكن الأسكيا لم يقبل هذا العرض ، واكتفى بارسال هدية سنية للمنصور تضمنت ثمانين خصيا وبعض تحف السودان[5] .

ويعتقد صاحب تاريخ السودان أن الغرض من ارسال هذه السفارة كان هو الاطلاع على أحوال البلاد[6] .

وعند حلول عام ١٥٨٤ وجه المنصور حملة عسكرية الى سونغاي قوامها

---

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا ـ ص ١١٤
(٢) ٥ كريم ـ المغرب في عهد الدولة السعدية ص ١٤٨
(٣) الفشتالي ! المناهل ص ٧٨
(٤) نفس المصدر ـ ص ١٢٣
(٥) نفس المصدر ص ١٢٠
(٦) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٢٠

عشرون ألف مقاتل ، وصلت الى وادان في الحوض الموريطاني ، وكانت التعليمات الصادرة اليها تقضي باحتلال جميع المدن والوصول الى نهر النيجر عند مدينة تنبوكتو ، ولكن حظ هذه الحملة كان سيئا اذ ضلت الطريق وداهمها العطش ومات بعضها بينما عاد البعض الآخر أدراجه الى مراكش ، ولم يتحقق أي هدف للمنصور[1] من ارسالها .

وساق المؤرخ المجهول[2] هذه الحادثة على نحو آخر ، وهو يروي ان المنصور تعمد الحاق الضرر بالحملة ، لأن جنودها قاموا بالنهب والسلب بمراكش وعندما انفصلت الى السودان فرعنها الادلاء فتاهت وهلكت عن آخرها .

ونحن نميل الى الاعتقاد بأن جزءا من تلك الحملة على الأقل ، قد احتل مدينة تغازى ، وبسط عليها الحكم السعدي من جديد ، ذلك انه في شهر شوال عام ٩٤٤ (شتنبر اكتوبر ١٥٨٥) جاء خبر احتلال المغاربة لتغازى ، وفتكهم بالحامية والموظفين والتجار فوجه الأسكيا مراسيله الى تنبوكتو ونادوا في الأسواق « بالا يذهب أحد الى تغازى فمن مشى فما له هدر »[3] ، وأعقب ذلك بأمر آخر وهو أن يحفر العمال في منطقة (تناوراد) وبعد استخراجهم للملح أطلق الأسكيا على هذا الموقع الجديد تغازى الغزلان .

ويذكر السعدي أن القائد المغربي وجنوده رجعوا الى مراكش بعد ذلك بقليل[4] .

وواتت احمد المنصور الفرصة من جديد لمخاطبة السونغاي ، فبعد موت الأسكيا داود أظهر عاهل المغرب حزنا لا مزيد عليه لفقده « وجلس للتعزية فعزاه

(١) نفس المصدر

(٢) المؤلف المجهول ـ تاريخ الدولة السعدية . . ص ٦٨ ـ ٧١

(٣) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٢٠ .

(٤) المكان السابق

كبار أجناده في الفقيد »[1] ، وكان يوجد بمراكش بعض التجار السودانيين فعادوا الى بلدهم يقصون على عاهلهم الجديد ما شاهدوه ، فوثق الأسكيا بالمنصور واحبه لذلك[2] .

وصادف هذه الأحداث وصول أحد امراء السونغاي من ابناء داود الى البلاط المغربي يطلب عونا عسكريا يوصله الى الملك ، ولم يكن المنصور في عجلة من أمره هذه المرة ، فطلب رأي الفقهاء في قضية استغلال المعادن ، وأراد من ذلك أن يطلع الأسكيا على تلك الأقوال ، وهو أمر لم يحدث من قبل مع الأسكيا ، وقد تسلح المنصور بالفتاوى التي ذهبت الى « ان المعدن لبيت المال وأن اباحة ملحه بغير قيمة فيه تضييع لمال المسلمين وحقوقهم فيه »[3] « وان النظر في المعادن مطلقا هو للامام لا لغيره وليس لأحد أن يتصرف في ذلك الا باذن من السلطان»[4] .

وأثر ذلك وجه أحمد المنصور رسالة [5] في موضوع الملح والأمير الهارب معا ، وكان هدفه واضحا : التنازل عن الملح مقابل ترحيل الأمير عن المغرب ، أو الاحتفاظ بالملح وعندها سيتسعمل المنصور الأمير على النحو الذي تفرضه المصلحة .

---

(١) المصدر السابق ص ١١١

(٢) المكان السابق

(٣) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١٢٢

(٤) الافراني ـ نزهة الحادي ص ٧٣

(٥) رسائل سعدية ص ١٣٣ ـ ١٣٥ « يبتدىء المنصور رسالته بالتأكيد على أن معدن الملح بتغازى التي من ايالتنا وفي حكم امامتنا هو كما لا يكاد يخفاكم من جملة المعادن التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد وللامام فيها النظر والاجتهاد . . . وانا افترضنا مثقالا على كل جمل من سائر الابل التي ترده . . وللذب عن كلمة الاسلام وحياطة البلاد والعباد . . . وجنود الله لولا ما حجزت بينكم وبين طواغيث الشرك لفاض عليكم طوفانه السائل . . . فلا تسعوا فيما يبطل هذه الفريضة العائدة بالنفع على الاسلام والمؤيدة لحزب الله على مواصلة قتال عبدة الأصنام . . . ثم اعلم أن أخاكم الذي قد نزل بنا وكتب لمقامنا . . . ها كتابه يصلكم طي هذا المكتوب الكريم لتتأمله . . . ونحن أمهلناه في الجواب . . . حتى نرى ان شاء الله ما يبدو منكم . . . »

ومهما تكن المبررات التي برر بها المنصور سعيه لاحتواء معادن السودان ، وخاصة أقربها اليه ، فان الدافع الحقيقي كان هو تلبية المتطلبات الانمائية والعسكرية معا فقد كانت موارد البلاد أدنى من أن تتسع لسد احتياجات الدولة من نفقات عسكرية ومنشآت عمرانية واجتماعية . . . ثم انه كان معروفا عن السودان انها تتوفر على معادن الذهب التي طمع المنصور في استغلالها[1] .

واذا كانت المعادن تعتبر حافزا كبيرا لأحمد المنصور على القيام بحملته ، فان الحصول على العبيد لا يمكن أن يعد كذلك لأسباب كثيرة ومن أبرزها :

أ) اعتناق جل رعايا الأسكيا الدين الاسلامي .

ب) الجدل الذي أثارته الحملات السابقة عندما كانت تعود بأسرى من السود ، وقد تحول الموضوع الى ما يشبه المناهضة من طرف العلماء ، وحتى من المقربين من البلاط .

جـ) عدم الثقة في أهلية العناصر السوداء للقيام بتأدية مهماتهم في الجيش والصناعة .

د) رواج تجارة العبيد ـ ممن لا يعتنقون الاسلام ـ بشكل عادي في كل المدن المغربية والعربية .

وليس من شك في أن المنصور لم يكن حريصا على اقتياد عدد كبير من العبيد الى المغرب ، وبالاضافة الى انه فضل دائما اختيار العناصر التي تعمل عنده في فرق الجيش والمصانع والأشغال العامة من بين من تتوفر فيهم الخبرة والذكاء والحيوية ، فانه ـ وهو المطلع على التاريخ ـ يعلم ما قام به العبيد أيام بني حمود في الأندلس من متاعب أدت مع غيرها الى اضعاف العرب بشكل ملحوظ هناك .

---

(١) أ. حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج٢ ص ٢٩٨ و .
G. Pianel. les Preliminaires de la conquete du Soudan par Moulay Ahmed ALMANSOUR. Hesperis XL 1953 P. 185 - 198.

وليس معنى عدم اهتمام احمد المنصور بقضية العبيد ، أنه لم يكن يرغب في استجلاب بعضهم ، ولكن ذلك لم يكن يصل الى حد الهدف العزيز ، وأول ما نعرفه عن مجيء أفواج من المماليك السود في عهد احمد المنصور هو ما تضمنته هدية الاسكيا الحاج محمد اليه من خصيان بلغ عددهم الثمانين[1] . وعند القضاء على أسكيا نوح عسكريا كان المنصور يتطلع الى نوعية خاصة من اناث السودان بقصد التسري ولكن بعد ذلك نقل عدة آلاف الى مراكش وكانوا ذكورا .

ويتضح من رسالة وجهها في هذا الشأن الى الباشا منصور في تنبوكتو انه كان حريصا على عدم اثارة المشاعر الدينية في موضوع استرقاق المسلمات ، كما انه فكر في نقل افراد الأسرة المالكة الزنجية لاستعبادهم ولكن لاتخاذهم رهائن عنده يستعملهم عند الحاجة[2] .

ويظهر ان المنصور حصل على بعض من يليق منهم بمقامه ، ولا يخفى في التاريخ ما كان للمنصور من رغبة في التسري ، ولا شك ان التجار المسيحيين الذين تاجروا في طول بلاد البحر المتوسط وعرضه بعبيد سلافيين وجرمان وثنيين أوصلوا كذلك بعض عروضهم الى اسواق مراكش وفاس[3] .

وإذا احصينا عدد السود الذين اقتيدوا الى المغرب بعد الحملة السعدية كأسرى نجده لا يرقى الى الأهمية التي تشكل هدفا مستقلا لغزو بلاد وتجشم صعاب على جميع الأصعدة ، ونحن لا نجد رقما ثابتا لذلك بل أرقام نثرية موزعة على المصادر ، ونستطيع أن نحصر ذلك العدد دون خوف من الزلل في ٢١,٤٨٠

---

(١) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٢٠

(٢) رسائل سعدية ص ١٧٢ وأولاد سكية فالذكور منهم ابعث بهم كافة لمقامنا العلي ، وأما الاناث فابحثوا في امر سكية ، فان صح ما قرع اسماعنا الشريفة من كون اصلهم مماليك تحت الرق ، وان ذلك صحيح ورقهم عند الناس صريح ، وكان فيهن ما يليق بمقامنا العلي ابعثها والا فلا . . . »

(٣) J. suret, camale. Afrique noir . P: 176

نسمة ، وقد استخدم عدد قليل من هؤلاء كبحارة في الأسطول السعدي ، ودربت مجموعة كبيرة على خدمة الاصطبلات والجنائن ، وكان السلطان يحتفل في بعض المناسبات بتزويج هؤلاء بجواري القصر[1] ولا ريب في ان المنصور كان يخص المقربين اليه ببعض الفتيات والغلمان ، وكان هؤلاء يدخلون الاسلام فيتحررون ، أو يحصلون على حريتهم اذا بدر من المالك ما يستوجب فك رقبة واحد منهم .

وكما قدمنا ، فان هدف المنصور البارز كان هو الحصول على الذهب ، لتلبية متطلبات التوسع الاقتصادي ولخدمة جملة من المخططات الخارجية ، ولا شك انه عمل جاهدا على كسب دول اوروبية الى صفة لاحتلال اسبانيا ، ثم الوثوب على مستعمراتها القريبة والبعيدة ، ولا شك كذلك في انه رأى في الوجود الاسباني والبرتغالي على التراب المغربي نفسه عارا يجب ازالته ، ومن أجل كل ذلك كان عليه أن يملأ قبضته بالذهب ، وينبري لمخاطبة أعدائه واصدقائه معا وهو قوي ماليا ، محاط بجيش مستعد لتنفيذ كل مهمة .

وقد اختلفت اللهجة التي استعملها مع الاجانب في موضوع احتلال اسبانيا بالذات عن اللهجة التي كان يخاطب بها كافة المسلمين من حكام ورعايا في مشارق ومغارب الأرض .

ويحدث المنصور السلطان العثماني مراد الثالث عن « مواصلة البكر والآصال . . . لاقامة فريضة الجهاد . . . فنحن بحمد الله دائما في الأهبة له والاستعداد ، وارتباط الصافنات الجياد لارهاب أعداء الله أهل الكفر والعناد . . . »[2] ويزف لأهالي سوس قاطبة بشرى قرب احتلال الأندلس والأقطار

---

(١) الفشتالي ـ المناهل ص ١٦٧ .

(٢) رسائل سعدية ـ خطاب لملك الترك ص ٢١ ـ ٢٢

التابعة لاسبانيا « هذا عنوان الاقبال والظفر ، وعلامة على انجاز وعده المنتظر في الاستيلاء بحول الله على بلادهوأقطاره، ومنازلته بجنود الله المظفرة في عقر داره واستنقاد النقدة المتغلب عليهم في الأعصر السالفة والدول الماضية من بين أنيابه وأظفاره ، وبخاصة بلاد الأندلس التي هي بحول الله على سيوفنا أهون مطلوب وأيسر موهوب ، فهي الوديعة المستردة بحول الله على أيدينا . . . »[1] .

وفي رسالة أخرى للسلطان العثماني « . . . وهدفنا الأخذ بمخانق من جاورنا من فئة التثليث وعبدة الصليب »[2] .

وفي رابعة لبعض ولاته : « ان في اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذي آن ان ينعقد بين الدولتين (المغرب والدولة العثمانية) . . . . عونا على صرف العناية . . . لمجاهدة عدو الدين ، وغزو أحزاب الشرك الملحدين حتى ينجز الله لهذا الأمر العزيز وعده في استيلاء على الأقطار ان شاء الله دانيها وقاصيها . . »[3] .

وكان أحمد المنصور صريحا مع الأسكيا داود حين طلب منه ترتيب خراج على الملح فقال « ان قصدنا مما يحصل من ذلك صرفه ان شاء الله في سبيل الغزو والجهاد . . . »[4] .

فقد كانت للمنصور مخططاته الواسعة الطموحة ، وكان في حاجة إلى المال لاستكمال استعداداته في البر والبحر ، وفي كل سنة من سنوات حكمه كان كاتبه ومؤ رخ حياته الفشتالي يذكر بأنه كان في تلك السنة « بصدد الإكثار من الأساطيل

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٥
(٢) نفس المصدر ص ٣٦
(٣) نفس المصدر ص ١٥٦
(٤) نفس المصدر ص ١٣٤

رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . . وفتح الأندلس والأقطار البعاد . . »[1] .

٤) الجهاد في افريقيا لنشر الإسلام :

بالنسبة لهذا الدافع يجب قبل كل شيء إبداء أربع ملاحظات :

أ) الطابع المميز للدولة السعدية منذ نشأتها إلى سقوطها كدولة قامت على سيوف المجاهدين وواصلت مهمة الجهاد بجد ومثابرة ، وأعطتها الأولوية المطلقة .

ب) رد فعل سقوط الأندلس لم يخب أو يخف ، والرغبة في العودة عن طريق الكفاح تساوى فيها أبناء الأندلس المهاجرون والمغاربة على السواء .

جـ) الوجود الأجنبي على السواحل المغربية ، وتطلع أوروبا المسيحية إلى جولة انتقامية فوق البر الإفريقي .

د) المستعمرات البرتغالية قبالة ساحل السنغال ، والتمركز الإسباني في جزر الكناري يحملان أخطار الاحتواء الأوروبي لأراضي واقعة في بلاد الإسلام وتستوجب حمايتها والجهاد من أجلها .

وإذاً ، فالجهاد ما دام هناك من يجب في حقه هذا الفرض ، كان إحدى الظواهر التي اختلطت فيها السياسة بالدين وبالوطنية ، خلال العهد السعدي كله ، وقد قامت الدولة على ما قدمه هذا العنصر المهم من احترام شعبي والتفاف متعاظم حول الشرفاء المجاهدين أمام أسوار الثغور المحتلة .

وقبيل معركة وادي المخازن شغل هذا الفرض بال العلماء والأئمة ، ودفع

---

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١٩٧ .

بهم إلى أوساط الشعب يستنهضونها ويدفعونها لقضائه ، وانبرى المفكرون والشعراء والمغنون يلهبون الحماس وظهرت كتب وفيرة ، ورسائل مطولة مستقلة ، وكتبت القصص والأساطير التي روت أنباء البطولات الإسلامية فأخذت بلباب الشعب وأذكت عاطفته[1] ، وكان هناك نشيد يتغنى به الكبار والصغار يقول :

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدي ... أنا أجبنا صرخة المستنجد
لما دعا الداعي وردد صوته ... قمنا لنصرته ولم نتردد[2]

وقد استفاد ملوك السعديين من هذا المد العاطفي النفسي في توجيه بعض الحملات العسكرية ، وخاصة منها ما أخذ وجهة السودان ، حيث قيل دائماً بأن تلك البلاد تعج بالوثنيين وتحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الحق ، واستغل المنصور ما كانت تلقاه كلمة الجهاد من قبول وإقبال في كسب التأييد لأكثر تحركاته الخارجية السياسية منها والعسكرية .

---

(١) فمن خطبة دينية . « . . . أما علمتم أن أعداءكم باحثون عنكم مشتغلون بكل حيلة للوصول إليكم ، قد جمعوا من العدد ما لا يحصى له عدد ، وأرسلوا جيوشهم وعيونهم في كل بلد ليخبروهم بما عندكم من عدة وما أنتم عليه من قوة وشدة . . . وصار الكفرة يتنافسون في بيع اخوانكم بالأثمان وجعلوا يفرقونهم في سائر البلدان ، ويريدون أن يفتنونهم عن دينهم ، ويفسدوا عليهم قوة يقينهم ، فما هذه الغفلة عن اخوانكم » من مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٤٣١ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧ .

وجاء في قصيدة طويلة يحتويها المصدر السابق ص ٤٤٨ .

يا أولياء النصر يا أهل غربنا ... بكم تطرب الأمثال في كل بلدة
وأنتم هم الشجعان في حومة الوغى ... وأنتم هم الأبطال عند الحقيقة
فلا تبخلوا بالمال وهو لربكم ... وأنتم له فالبخل شر سجية
وأسلافكم لم تأل عن مستغيثهم ... على نهجهم فامضوا بصدق عزيمة

ومن جملة ما ألف في الجهاد كتاب « فلك السعادة الدائرة بفضل الجهاد والشهادة » لعبد الهادي بن الطاهر الحسيني ، مخطوط بالخزانة بالرباط عدد ٢٩٩٢ وكتاب « لباب مراقي الجنة مما ورد في الجهاد في السنة » لعبد الله بن علي بن الطاهر . مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٤٩٩٣ .

(٢) أدبيات ابن القاضي ـ مخطوط ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ـ عدد ٧٢٤٨ ورقة ٩

ويظهر ان المنصور حين استعمل مبررات الجهاد عندما هم بمداهمة السودان كان يعرف أن تلك البلاد إسلامية ولذلك فهو قصر الموضوع على جلب الأموال من السودان لتجهيز نفسه للجهاد في إسبانيا ، وللمرابطة على المسيحيين المتواجدين قبالة السواحل السوداء ، ولإدخال عقيدة الإسلام إلى بعض الوثنيين ضمن دولة السونغاي .

ولهذا فإننا لا نجد في الرسائل الرسمية وفي النصوص الأخرى على اختلافها وكثرتها إلا إشارات غامضة لا ترقى إلى صفة الهدف القائم الذات فيما يخص الجهاد بالسودان ذاته[1] .

وحسب كل المعطيات التي تستخلص من مجمل العمل الذي حققه الجيش الغازي ، والتي طمعنا من وراء استقرائها إلى التعرف عما كان يجول في ذهن أحمد المنصور في موضوع الجهاد بافريقيا قبل وأثناء الحملة وبعدها ، فإننا وجدنا ان الرغبة في نشر الاسلام كانت ثانوية ، ويمكن أن يكون هذا هو السبب في عدم تأكيد أحمد المنصور على موضوع نشر الاسلام بافريقيا السوداء ، والتجائه الى العبارات الغامضة عند حديثه عن ذلك ، ومما يثبت ما نذهب اليه أمران :

أولاً : إن المنصور كان يعرف أنه سيواجه جيوشاً إسلامية[2] وأن المناطق المراد إخضاعها ، وكلها تقريباً ضمن امبراطورية السونغاي هي أراضي تعود للمسلمين في مجملها من حيث السكان ، وكانت تحكم وفق الشريعة الإسلامية بواسطة حكومة الأسكيا وعماله ، وقد توفرت المقومات الدينية الضرورية في كل

---

(١) أ . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٣٠٧ « ولا زلنا نجهل لحد الساعة مدى الدور الذي يمكن أن يكون الجيش المغربي قد قام به في ميدان نشر الإسلام بالسودان » .

(٢) الافراني ـ نزهة الحادي ـ ص ٩٤ « وولى السودانيون الأدبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جؤ ذر وجيوشه حتى كان أهل السودان ينادون نحن مسلمين ، نحن اخوانكم في الدين ، والسيوف عاملة فيهم . . » .

ذلك ، فالجوامع في كل المدن والقرى ، ورجال الدين لهم المقام الأرفع في الدولة وينالون من الاحترام والتبجيل من الأساكي والحكام والعامة بالقدر الذي لم يحظ به رجال الدين في المغرب نفسه ، وكان الأساكي يستفتون أولئك العلماء ويرجعون إليهم في أمور الدين ويستانسون بنصائحهم في المواضيع الدنيوية أيضاً ، ويصف أحمد بابا السوداني مكانة قاضي تنبوكتو العاقب بن محمد بن عمر بن محمد آقيت بأنه « كان مسدداً في أحكامه صلباً في الحق ثبتا فيه لا تأخذه في الله لومة لائم . . . جسوراً على السلاطين فمن دونهم ، وقع له معهم وقائع ، وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد ، إذا ما رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه ، ثم يلاطفونه حتى يرجع . . . »[1] ، كما يتحدث عن أسئلة وجهها الأسكيا الحاج محمد للفقيه العاقب بن عبد الله الأضمي فأجابه بتأليف جعل عنوانه (أجوبة الفقير على أسئلة الأمير)[2] وتتضح من هذين المثالين مكانة الإسلام وعلمائه في دولة سنغاي ، أما الموظفون الدينيون من المفتي إلى الإمام والمؤذن والعدل وسادني المساجد والأضرحة ، فقد كانوا مرسمين في وظائفهم ويأخذون رواتب عينية من بيت المال أو من رسوم تسجيل الدعاوى والذعائر ومن خمس الفيء .

وأعظم من كل المراتب السالفة كان مركز قاضي القضاة ، وكان يقع اختيار صاحبه من بين كبار علماء تنبوكتو أو غاو ، وحتى عتاة ملوك السودان كانوا يذهبون إلى بيته للسلام عليه وتقبيل يديه[3] .

---

(١) أحمد بابا التنبوكتي ـ تذييل الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ، بكتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٢٩ / الطبعة الأولى ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٨

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٣ « محمود بن عمر بن محمد آقيت قاضي قضاة تنبوكتو . . عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع . . كان من عباد الله الصالحين ذا ثبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وجلالة . . ذاع صيته في الأقطار شرقاً وغرباً ، وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء . . يهابه السلاطين فمن دونهم ويزورونه في بيته ولا يقوم لهم ولا يتلفت إليهم » .

ثانياً : إن أحمد المنصور ـ وهذا ما يؤكد أيضاً عدم اهتمامه بنشر الإسلام ـ لم يوجه ضمن حملة جؤذر أشخاصاً مؤهلين للقيام بالدعوة الإسلامية ، وأكثر من ذلك فإن الحملة لم تتوفر على أئمة ووعاظ للجيش نفسه من بين آلاف الخبراء الذين رافقوها .

فممن كانت تتشكل الحملة ؟

من القادة ، وكلهم أجانب . . . فجؤذر باشا إسباني من لاس كويفاس القريبة من غرناطة[1] ، وأخوه محمود باشا بن زرقون قائد جيش النار الأندلسي ولد في إسبانيا أيضاً ، والفتى عمار باشا قائد جيس سوس ولد وترعرع في البرتغال وبختيار باشا من المغول ، وكل هؤلاء القادة الذين حكموا السودان خلال الفترة التي نعالجها لم تكن لغتهم هي اللغة العربية ، وأغلبهم كان مشكوكاً في إسلامه[2] .

ومن الجنود ، وأغلبهم من الأندلس ، قدموا للاستقرار بالمغرب ، وتعرضوا لقسوة الحياة وأعمال النهب من قبل الأعراب[3] ولم تكن لا لغتهم ولا معرفتهم بالدين أو حماسهم للإسلام بالقدر الذي يؤهلهم للقيام بدعوة إلى تعاليم الدين .

ومن الصناع والعمال والأطباء والخدم الذين بالإضافة إلى صفتهم المهنية فإنهم ـ فيما نعلم ـ لم يبرحوا مدينة تنبوكتو وغاو وديبيني ، وأكثرهم عاد إلى المغرب بعد تمهيد البلاد .

ولكن يمكن القول مع الكثير من التجاوز بأن احتكاك الجيش السعدي ـ أثناء عملية احتلال أطراف السونغاي ـ ببعض القبائل الوثنية طرح بالفعل موضوع

---

(١) م . الغربي ـ موريطانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ص ١٥٢

(٢) ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ـ ج ٢ ، ص ٤١٤ « أسلم أولئك القادة بضغط من السعديين » .

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٢

معاملة غير المسلم ، وهنا لم يكن الهدف هو حمل القبائل على الإسلام بقدر ما كان حملها على الطاعة .

ونقف في منطقة مسينا غرب السونغاي وتاندريما إلى الغرب منها على حالات كان المغاربة يجدون بعض سكانها على الوثنية ، وقد عاملوها نفس معاملة الأساكي لها في السابق : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، وفي جميع الظروف كان الجيش يتولى الإشراف على المنطقة[1]، وقد تعمد بعض القواد أن يجعلوا مقدار الجزية كبيراً[2] وذلك لحمل الناس على الدخول في الإسلام ، أو ربما لتبرير استعمال القوة ضدهم .

والذي لفت نظرنا هو أن المناطق الوثنية الشاسعة في الجنوب التي كانت تنتظمها ممالك الموشى ، والتي لم يتأخر أي اسكيا سابق عن الجهاد فيها ، ظلت بمنأى عن عمل حقيقي ومقصود من الجيش المغربي ، وكان المفروض أن يتجه إليها ذلك الجيش إذا كان في نيته بث الدعوة الإسلامية وحمل الناس على اعتناق الإسلام . ولم يقع هذا الأمر في الفترة المعنية بالبحث لأن باشوات السودان كانوا منهمكين في تمهيد البلاد التي بسطوا عليها حكمهم غير أنه عندما كنا نقف على احتكاك بين المغاربة وبعض تلك القبائل ، فإننا كنا نجد أن السبب دائماً هو إما تداخل في أماكن الرعي أو هروب بعض المطلوبين ، أو تقدم بعض القوارب بعيداً في نهر النيجر ، وكان كل أمر من هذا القبيل يحسم بوسائل عسكرية محدودة لم تأخذ في أي وقت شكل الإخضاع أو الاحتواء ، غير ان تحرك الجيش إلى مثل هذه

---

(١) مؤلف مجهول ـ تذكرة النسيان أخبار ملوك السودان ـ ترجمة هوداس ـ باريس ١٩٠١ ص ٢٢ « . . . قال الباشا لا يجوز للمسلمين أن يقاتلون المشركين إلا أن يعرض عليهم الإسلام أو أخذ الجزية فإن أبوا واحداً من هذين فحين ذلك قتالهم . . »

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ : مشى القائد علي عند أهل دبرا وأعطوا ٤٠ خيلاً و٤٠ عبداً و١٠٠ بقرة . . . »

الجهات كان يأخذ شكلاً دينياً خاصاً رغم ذلك ، فيصعد المؤ ذن أو المنادي على ظهر الجامع أو أي بناء مرتفع وينادي في الناس بالجهاد ويحدد مكان اجتماع الفرقة التي يكون الأمر قد أوكل إليها[1] ، ونعتقد أن هدفاً دينياً ونفسياً كان يكمن وراء مثل هذه المظاهر .

وما دمنا قد ذهبنا إلى حد إثبات أن هدف نشر الإسلام في السودان لم يكن من العوامل الرئيسيةالتي حركت همة المنصور لقتال النظام فيه وإخضاعه ، فإننا سنجد الفرصة في فصول مقبلة للبرهنة على ذلك حالما تبدأ حملة جؤ ذر اجتياحها للسودان ، ويبدأ الجهاز الإداري والعسكري والاقتصادي في العمل .

غير انه من الضروري أن نعمد هنا إلى إيراد وتساؤ ل دار في أذهان كثير من المؤ رخين ومؤ داه : هل يمكن اعتبار الحكم السعدي في السودان عندما استقرت له الأحوال ، عاملاً في نكوص الدعوة الإسلامية وتقهقرها ؟ ويدلي أولئك المؤ رخون أنفسهم بمؤ يدات لأفكارهم تلك .

أولاً : ما لحق بعض الأئمة والقضاة والنخبة المفكرة وطلبة العلم وغيرهم من أذى أثناء ثورة تنبوكتو التي قامت في وجه المغاربة بعد وقت قصير من وصولهم إلى السودان وقد أدى الحال إلى تهجير بعض أفراد هذه الطبقة إلى المغرب على أسوأ الأحوال ، مع ما وقعت عليه يد الجيش والعامة من كتب وتحف ومتاع وكان من بين المهجرين أحمد بابا التنبكتي الذي وصف تلك الحادثة خير وصف[2] وعبد الله بن محمود آقيت من أكابر العلماء مع عائلته[3] والمفتي الأكبر محمد بن محمود الونكري[4] وكان على رأسهم جميعاً قاضي تنبوكتو عمر آقيت .

---

(١) المصدر السابق ص ٣١ .

(٢) أحمد بابا ـ نيل الابتهاج . . ص ١١٤ « . . . وقع علينا محنة ، وشتت شملنا ، وذهبت نفائس كتبنا . . . » .

(٣) نفس المصدر ص ١٦١

(٤) نفس المصدر ص ٣٤٢

وتصور مؤ رخون آخر ون أنه لو قدر للعلماء والمصلحين والدعاة أن يبقوا في السودان ، وفي تعاون وصفاء مع الجيش لأمكن أن ينصحوا بخطة لنشر الإسلام ، ولاصطحب بعضهم الجيش في بعض الجهات للنهوض بواجب الدعوة ، وعلى كل حال فإن نقل العلماء والمفكرين إلى المغرب أفرغ بلاد السودان من بعض من يقع على عاتقهم واجب نشر الإسلام في السابق .

ثانياً : انتشار المحرمات بعد وصول المغاربة أكثر مما كان عليه الحال من قبل ، ونقرأ إشارات واضحة لتفشي شرب الخمر[١] ولعب الميسر[٢]، وتعاطي الحشيش (الكولا والخشخاش)[٣] وكان عبيد الباشا يزاولون ذلك علناً في تنبوكتو ، وكذلك الجنود الأندلسيون ، ومن الأمور التي سجلت مداهمة البيوت ودكاكين التجار ومصادرة ممتلكاتهم المنقولة[٤] .

ثالثاً : اقتصار حملة السودان على الذكور العزب أو الذين تركوا زوجاتهم في الوطن ، ومع ما كانت تسمح به ظروف الحرب والإغارة على القبائل والجهات ، فبالإمكان التصور بأن القواعد الشرعية في موضوع التفريق بين ما هو حلال وما هو حرام لم تكن محترمة بالشكل المطلوب .

وكما أثير في المغرب نقاش كبير ومواجهات بين العلماء في موضوع الرق وشرب الدخان الذي جلب من السودان[٥]، فقد اهتم أصحاب الإفتاء والعلماء في مواضيع متصلة بالاختلاط غير المشروع بين الرجل والمرأة الناتج عن انفصال

---

(١) مؤلف مجهول ـ تذكرة النسيان ص ٢٨

(٢) Ca ille, la petite histoire du Maroc. 1. P122

(٣) مؤلف مجهول تذكرة النسيان ص ١٣

(٤) المصدر السابق ص ٢٨ « وظهروا العجائب والغرائب من أنواع الظلم وسوء الأفعال في البلد كشرب الخمر شاهراً ظاهراً ليلاً ونهاراً ، ودخول على المسببين (التجار) في ديارهم كرهاً ويسألون عندهم ما أحبوا ويعطونها لهم أحبوا أم كرهوا » .

(٥) الافراني ـ نزهة الحادي ص ١٤٦ .

الجيش إلى جهات عدوة ، ولقد كان لذلك النقاش الذي انعكس على السودان في شكل تعليمات مخزنية ما يبرره ، إذ وصلت إلى المغرب أخبار هروب بعض الجنود بالنساء ، وتعدد حوادث (التخليق)[1] .

وقد ظهر في المغرب من وجد المبررات لجنود السلطان في السودان وغيره[2] حيث علل الفتوى التي قدمها في موضوع تهريب المرأة غير المتزوجة ، بأن الهاربين يمكنهما أن يتزوجا شرعياً بعد سنوح الفرصة وذلك منعاً لاستمرار حالة الزنى .

ونحن وإن كنا نعتقد بأن هذه الأفكار تمكن مناقشتها وفضح دوافعها فإننا سنكتفي بالتنوية بجانب يتعلق لا بنشر الإسلام ، ولكن بمقاومة المنصور لحركة التبشير في بعض الجهات الإفريقية ، وقد تسرب بعض المبشرين إلى داخل الأراضي السنغالية انطلاقاً من المستعمرات المسيحية الساحلية ، وأقنعوا بعض القبائل بدعواتهم . ويبدو أن أخبار ذلك وصلت إلى المنصور ، بدليل وجود رسالة كتبها لأحد عماله يخبره فيها بأن الفتح لما انتهى في الجنوب إلى من يليهم أي قبائل السونغاي وجد قبائل نزعت إلى دين النصرانية ففاوضها الفاتحون في أمر التخلي عن ذلك[3] .

وهكذا يبدو أن نشر الإسلام قد لا يكون من بين خطط المنصور السودانية الكبرى أو على الأقل وقت تفكيره في إرسال حملته ، أما ما وقع بعد ذلك فقد خدم هذا الغرض ما في ذلك من شك .

وإذا كان هناك من جديد حقاً بالنسبة لهذا الموضوع في الفترة التي نعالجها

(١) التخليق هو أن يأخذ رجل زوجة في عصمة زوجها ، وهو حرام شرعاً باتفاق الأئمة .
(٢) إبراهيم الجيلالي - تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط عدد ٥٧١ ك .
(٣) رسالة من أحمد المنصور في موضوع التبشير بافريقيا - مخطوط مبتور متلاش - الخزانة العامة / الرباط ٢٧٨ ك ، ص ١٨٧ .

فهو ما جرى من نقل لبعض العادات والطقوس الإسلامية التي تعلق بها المجتمع المغربي في عهد المنصور كالاحتفال بعيد المولد النبوي ، وختم القرآن وصحيح البخاري ومسلم في ليالي رمضان ، وذبح أضحية العيد ، وترتيل الأمداح النبوية ليلة القدر ، ولقد اهتم باشوات السودان بهذه المظاهر والعادات بشكل ملفت للنظر .

غير ان ما استفادته مدينة دييني عاصمة مسينا في بعض المناحي التي لها صلة بالدين ، بفضل استثناء علمائها من البطش والتهجير اللذين عرفهما علماء تنبوكتو كان شيئاً خاصاً . « فان السيطرة المغربية ركزت مجموعات مثقفة اشتغلت بالعلم والتجارة والجندية في المدينة وضواحيها ، وقد حققت تلك المجموعات شيوع الطقوس الدينية على وجهها الحقيقي ، وتلقين شؤ ون الدين والفقه والأدب العربي . . . »[1] .

٥) الدافع الأمبراطوري

عاش المنصور عصر التسابق الاستعماري بين الدول الكبرى في القارة الأوروبية ، ورأى بنفسه كيف أدى انهيار المملكة البرتغالية إلى تمهيد الطريق أمام الصراع بين دول الغرب الأوروبي ، وإلى عقد تحالفات معقدة كانت تستهدف في نهاية القرن السادس عشر اقتطاع بعض المستعمرات البرتغالية التي أبت أن تخضع لحماية اسبانيا ، بل وبعض المستعمرات الإسبانية أيضاً وإلحاقها بدول أصبح لها التفوق في الجيوش البرية والبحرية .

ولقد تجول أحمد المنصور في بلدان البحر المتوسط شمالاً وجنوباً ، وتطوع في حروب بحرية إلى جانب العثمانيين وشاهدا صقاع الأمبراطورية الإسلامية

(١) Charle Monteil.. une citee soudanaise Djenne Paris 1932. P.150

الكبرى وعاصمتها العظيمة ، وعندما عاد وقدر له أن يصبح ملكاً ويدخل الحلبة السياسية الدولية مرفوع الجبين بعد معركة الملوك الثلاثة ، وثق صلاته بملوك أوروبا وبالعثمانيين معاً ، وبحث عن المسالك التي تؤدي إلى أن يصبح حاكماً تدين له شعوب وأقوام ، وتدفع لخزانته من الأموال ما هو في حاجة إليه لرفع بلاده إلى المكانة التي وصلتها أغلب دول أوروبا .

كانت أمام المنصور أهداف ثلاثة ، جرب بلوغها فلم يفلح إلا في واحدة :

الهدف الأول : استعادة اسبانيا بمساعدة العثمانيين أولاً ثم البريطانيين والهولانديين أخيراً .

الهدف الثاني : الاستيلاء على المستعمرات الإسبانية[1] في الهند وجزر الهند الغربية والشرقية مشاركة مع بريطانيا لأن في ذلك الاستيلاء إضعافاً لاسبانيا التي صمم العزم على إعادة الحكم المغربي والإسلام إليها .

وقد حاول وحده احتلال جزر الكناري ولكنه أخفق في ذلك بعد ثلاثين سنة من المحاولة[2] .

والهدف الثالث : مداهمة امبراطورية السونغاي وضمها إلى المغرب بعد أن ألحق امبراطورية كانم ـ بورنو قبل ذلك وعن طريق البيعة العامة بالدولة المغربية الشريفة .

لقد أرسل المنصور في وقت سابق لتبلور تلك الأهداف في ذهنه ، رجالاً مدربين على جمع المعلومات الجغرافية والعسكرية والاجتماعية إلى بلاد كثيرة من

---

(١) كانت تلك الأهداف تشكل أماني بعيدة لدى المنصور ، وبعد احتلاله السودان أصبح يعمل جاداً على بلوغها .

(٢) ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ . ص ٤١٩ .

ضمنها السودان كما رأينا وسنرى ، ووجه بعض أعوانه إلى الهند في هيأة تجار ، فاستطاعوا التعرف على المسؤ ولين الإداريين الإسبانيين ، واستفادوا من احتكاكهم بمختلف البلاطات التقليدية والشعوب المتباينة الحضارة واللغة والهوى ونالـوا مع ذلك ثراء وحسن ذكر[1] .

ونذكر أنه تقدمت بعض النصوص من رسائل أحمد المنصور إلى ملوك وحكام وعمال وشخصيات في موضوع استرجاع اسبانيا باعتبار ان ذلك ما هو إلا تمهيد للوثوب على المستعمرات الإسبانية الواسعة في آسيا وأمريكا وحمل دعوة الإسـلام إليها

وكان الرجل حريصاً على السرية المطلقة ، فقد وجدنا في أكثر رسائله إلى ملكة بريطانيا وإلى الولايات العامة الهولاندية وفرنسا إبهاماً غريبـاً ، فلعلـه كان يفترض أن تفقد الرسالة لسبب من الأسباب أو أن يعمد أحد ممن ترسل إليهم إلى تقديمها إلى جهة أخرى معادية له ، وقد استعمل رموزاً في مكاتباته ، وحمل سفراءه على حفظ رسائله وكتابتها على ورق مخزني بعد وصولهم إلى مقصدهم ، وهذا ما يفسر العدد الكبير من السفراء الذين وجههـم إلى كل أرجـاء العالـم القـديم ، وبالنسبة للهولنديين فإنه اعتمد على سفراء من الطائفة اليهودية وخاصة من عائلة (بالاش) لاعتبارات كثيرة منها أنهم يكرهون الاسبان والعثمانيين معاً ، وإن أبناء عمهم هربوا مثلهم من اسبانيا والتجأوا إلى البلاد المنخفضة .

إننا لا نوافق بعض المؤ رخين الأوروبيين الذين يعتبرون أن المنصور كان رجلاً استعمارياً رغم أنهم كانوا ينطلقون في حكمهم من كون الرجل كان يفاوض الانجليز والفرنسيين في موضوع احتلال الهند واسبانيا[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤١٨

(٢) عثر الكاتب والمؤ رخ المغربي الأستاذ محمد بن تاويت على مجموعة كاملة من رسائل المنصور السعدي

إن أحمد المنصور كان يضع نصب عينيه قبل كل شيء اضعاف اسبانيا وتحجيمها قبل الانقضاض عليها وأول وسيلة كان يرى أنها ناجعة هي احكام الحصار حولها بالاضافة إلى تمكين الأسطول المغربي الصغير من اعتراض سبيل بعض السفن الاسبانية جنوب المغرب ، وقيامه بضربات سريعة لسواحل جزر الكناري منذ عام ١٥٧٩ . لقد قدم تهانيه لبريطانيا بعد احتلالها بمساعدة الأسطول المغربي لمدينة قادس الاستراتيجية ، وأعرب لها عن موافقته على احتلال الانجليز لجزر الآزور باعتبارها نقطة تموين للسفن الاسبانية العابرة للمحيط ، ورجا أن يكون الاستيلاء على الموضعين معاً مقدمة لاحتلال مشترك لاسبانيا ذاتها[١] .

وكانت فكرة الحصار هذه من جملة المقترحات التي قدمها المنصور إلى صديقته الملكة ، ففي رسالة ترجع إلى عام ٩٨٨ (١٥٨٠) طالبها بفرض الحصار على اسبانيا من جهتها ، وكان ذلك جواباً على رغبة الملكة في أن يمتنع المغرب عن تسليم شحنات ملح البارود إلى اسبانيا[٢] .

وورد في رسالة أخرى بدون تاريخ « ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الأمامي الفاطمي النبوي الأحمدي المنصوري بنصر يتكفل بظهور الأولياء وثبور الأعداء والاستيلاء على الجهات والأقطار مع الولاء بيمين الله »[٣] .

التي وجهها إلى البلاط البريطاني في موضوع المسألة الاستعمارية ، ضمن ملف مستقل في دائرة الوثائق العامة بلندن Public Record Office وكان الملف ضمن حقائب قسم المغرب ، وعند البحث الذي قمت به في الخزانة الملكية والخزانة العامة بالرباط لم أعثر الا على اشارت مبهمة لذلك في كنانيش الصادرات وفي حواشي رسائل سعدية أخرى لا علاقة لها بالموضوع المبحوث ، وتتضمن بعض الرسائل التي وجهها المنصور إلى بعض عماله اشارات إلى قضية احتلال المستعمرات الاسبانية والاستعدادات التي كان يقوم بها من أجل تلك الغاية .

(١) دوكا ستري S.I.H.M بريطانيا ، ج ٢ ، ص ١٧٣ من رسالة وجهها PEDRO FERREIRA مرافق المطالب بالعرش البرتغالي الذي كان يقيم بالمغرب إلى الامبراطورة اليزابيت ٣٠ يناير ١٥٩٧

(٢) محمد بن تاويت مجلة تطوان ، عدد ٣ و ٤ ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ص ٤٥ ـ ٥٥ « إن اغراضكم مقضية ونطلب الاهتمام بأغراضنا » وقد الح المنصور في تلك الرسالة نفسها على تسليمه مدافع نحاسية ضخمة وقطعة بحرية .

(٣) نفس المصدر ص ٥٥ .

وبعد فتح السودان ، أكد المنصور للملكة اليزابيت أن تلك الأقاليم التي ازدادت في الامبراطورية المغربية هي قوة جديدة للحلف المغربي البريطاني ، واعانة مهمة للتوجه المشترك نحو الممتلكات الاسبانية : « فهذه المالك السودانية والتارجية[1] ازدادتا بحمد الله في ملكنا ، ونظمها الفتح الالهي والسيف الهنداوي في سلكنا ، ولا يخفاكم أن زيادتها زيادة أيضاً في قوتكم ، وعائدة إن شاء الله بمصلحتكم ، ومدد من الله معين على المسألة التي اهمتنا وأهمتكم »[2] .

وكبرهان على أهلية الأسطول والجيش المغربيين شاركت بعض قطع بحرية مغربية في احتلال مدينة قادس في ٢٥ يونية ١٥٩٦ وكانت تلك القطع تحت امرة القبطان(HARLY HAWARD) [3] .

ولم نستطع أن نتبين السبب في عدم حماس البريطانيين لموضوع احتلال اسبانيا ذاتها بمشاركة المغرب ، أو بمساعدته ليقوم بذلك بمفرده ، فنحن وجدنا أن الحليف الأوروبي كان يتراجع كلما ظهر له أن المسألة اخذت طابعاً جدياً ، ونميل إلى الظن بأن البريطانيين كانوا يتخوفون في أن يعمد المنصور[4] ـ وهو الذي يقيم الآن أفضل العلاقات مع العثمانيين ويمتد نفوذه إلى قلب افريقيا ـ إلى تحويل كل نجاح عسكري في اسبانيا إلى مظاهرة دينية لا يعلم أحد المدى الذي يمكن أن تسير اليه ، وربما أدى ذلك إلى احداث رجة في البلاد الآسيوية المسلمة وبعث الوحدة

---

(١) اطلاق مغربي على الطوارق أو التوارك

(٢) المصدر السابق ص ٥٦

(٣) S.I.H.M فرنسا م . أ . ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) خطاب من مولاي أحمد المنصور إلى الملكة اليزابيت (مؤرخ ٢٨ ابريل ١٥٨٨)
Public Record Office-State papers.. Foreign Royal Letters Vol 11 No 16
خطاب من مولاي احمد المنصور إلى الملكة اليزابيت (مؤرخ ١٢ فبراير ١٥٨٩)
Public Record Office - State papers. Foreign Pertugal Vol. 11
خطاب من مولاي احمد المنصور إلى الملكة اليزابيت (مؤرخ ٢٣ يونيو ١٥٩٠)
Public Record Office - State papers Foreign Royal Letters Vol 11 No: 21
خطاب من الملكة اليزابيت إلى مولاي احمد المنصور (مؤرخ ٢٠ اغسطس ١٥٩٠)
Public Record Office - State papers. Foreign Royal Letters Vol 11 No: 18

الاسلامية بشكل غير مرغوب فيه عند المسيحيين أما المنصور فنعتقد أن هذا الأمر كان يشغله ويهمه .

وقد مرّ معنا أن البريطانيين لم يبلغوا المنصور بموعد هجومهم المباغت على قادس ، ولولا اصرار الهولنديين على اشراك المغرب في ذلك الهجوم لكان غائباً عنه ، وتسبب هذا الاهمال المقصود في احراج العلاقات بين الدولتين ، ولكن البريطانيين الطامعين في القروض المغربية كانوا يفاوضون السلطان المغربي في موضوع المستعمرات الاسبانية بلهجة أكثر صدقاً وواقعية ولكنها لم تخل من المراوغات .

وتوجد رسالة فريدة[1] بين أيدينا وجهها المنصور إلى الملكة بتاريخ ١٥ يونيه ١٦٠٠ توضح المدى الذي وصلته المفاوضات في موضوع الغزو المشترك للمستعمرات الاسبانية والحاقها بالدولتين وشمولها بالادارة المشتركة وسيادة الدولتين ، وسنورد أكبر قسم من هذه الرسالة لأهميتها القصوى في توضيح ما توخينا الكشف عنه هنا .

« . . . بما أن جلالتكم تذكر فيما يخص مداهمة الاسبان وفتح بلادهم ، وغزوهم في أية مملكة أو مدينة متاخمة لمملكتنا وقطرنا انكم لا ترون أية فائدة تعود علينا وعليكم ، وأن الذي يظهر لكم أحسن وأذيع سمعة ، هو أن نغزوهم بحول الله في بلادهم من الهند ، حيث أنهم حينما يلتمسون الوسائل التي بها يدافعون عن أنفسهم وتمكنهم من جلب العدد اليهم سيكونون في ذلك قد أوهنوا انفسهم ، كما أنه بتلك الخطة تتحقق اكبر فائدة تعود علينا معاً ، فان دولتك العلية ، ومعارفك العظيمة ينبغي أن تتأكد أن هذا الأمر الذي عرضته ، والفكرة التي قد ارتأيتها هي نفس ما نطمع فيه ونسير اليه ونوجه اليه اهتمامنا ، ويؤ يد من سلطاننا على هذه البلاد بعون الله ، إذ ستتحقق به الفائدة الكبرى لنا ولكم وتحصل السمعة العظمى

---

(١) رسالة احمد المنصور السعدي للملكة اليزابيت ـ محمد بن تاويت ـ من زوايا التاريخ المغربي ـ مجلة تطوان العدد ٨ . ١٩٦٣

وحسن الصيت ، ويكون من أعظم الارادات والشرف الذي سنعزم على تحقيقه بعون الله . . . » .

« وحيث أنك قلت بأن الأسطول الذي سيستعمل في تلك الحركة سيحتاج إلى ستين شحنة مما قيمته ١٠٠ الف جنيه ، وإنه يجب علينا أن نساعدك بذلك سراً حتى لا يتمكن الاسبان من العلم بذلك فيستعدون للدفاع » .

« إن هذه الستين التي طلبتم ستكون أول ما يسلم اليكم ويؤخذ من فائدة الاتجار الذي سيعمل في هذه البلاد ، ثم حينئذٍ يقسم الباقي حسب ما تستدعيه المقتضيات . . . وإننا سنبني على ذلك ، ولن نجعل أي شك يحوم حول ما ذكر ، لأنك ملكة ، وإن شريعة الملك تقضي بأن تكون كلمات الأمراء لا بدّ منجزة مصدقة . . وإنه واجب عليهم أن ينفذوا أوامرهم ويصدقوا فيها . . . » .

« وإن قواتنا تباشر الأشياء مع قواكم العلية بناء على تلك المقاصد التي من أجلها نشرع في العمل . . . » .

« ولهذا فاننا لا بدّ أن نستعمل قواتك وقواتنا التي ستذهب إلى تلك الأقطار لاستعمار البلاد ، وبعد ذلك بحول الله سنتغلب عليها . . . ومما نعزم عليه أننا لن ندخل البلاد لمجرد أن نداهمها ثم نتركها ولكن لنتملكها ، وإنها ستظل تحت سيادتنا إلى الأبد » .

« وإننا بعون الله سنلحقها بدولتنا ودولتكم ، وعليه فانه سيحتاج الينا لنباشر استعمار تلك البلاد إن كان ذلك سيطيب لكم » .

« هذا وإنه حيث أن تلك البلاد سوف تستعمر بقواتنا وقواتكم ، فمراعاة للحرارة المرتفعة هناك في جو لبلاد بتلك الدرجة العظيمة التي لن يتحمل الذين هم من بلادك المعتادون على شدة البرد ، فان رجالنا حينئذٍ يكونون على قدرة تامة لتحمل ذلك الجو بسبب أن حرارته لن تضر بأحد منهم » .

« وزيادة على ذلك فانه سيكون ضرورياً جداً إننا نباشر تقسيم البلاد بيننا

وبينكم ، وإن كل شيء يجب أن يوضع بيننا وبينكم حسب تلك الأقسام » .

« ودولتكم العلية ستدرك أن استعمار تلك الأقطار بواسطتنا وواسطتكم سيكون لكم به أعظم الفوائد ، خصوصاً وإن هذه الأقطار من الشرق تصاقب عدة ملوك من المور[1] والشعوب التي لا تحصى من ديانتنا ، ومن ثم فان كانت قوتك وسلطانك . . إلى جانب قوتنا فان جميع المور سينضمون الينا ويتحدون معنا . . » .

ويستنتج من هذه الرسالة ما يلي :

أ) إن الملكة عرضت من تلقاء نفسها فكرة الغزو المشترك للهند ووافق المنصور على رأيها .

ب) ارتفاع سمعة وقوة بريطانيا والمغرب بهذا العمل .

جـ) موافقة المنصور على بقاء امر الاشتراك في الغزو سراً ، وعلى تقديم ١٠٠ الف جنيه لتجهيز اسطول من ٦٠ قطعة على أن يستعاد المبلغ من عائدات المستعمرة الاسبانية (الهند) .

د) طلب المنصور أن تباشر قوات البلدين العمل في الهند معاً .

هـ) اشتراط المنصور أن تبقى الهند تحت السيادة المشتركة والحكم الثنائي إلى الأبد وتلحق بالبلدين قانونياً .

و) حضور الجيش المغربي أساسي لأسباب فيزيولوجية ومناخية ، وعرض المنصور قيام المغرب بالعمل وحده .

ز) استعمال المنصور كلمة استعمار بشكل واضح لا غبار عليه .

ن) تلميح المنصور إلى المستعمرات الأخرى وأراد تقسيمها أيضاً بنفس الطريقة

---

(١) وردت التسمية بالمور هكذا Moores والمراد بها المسلمون هنا .

عند استعماله كلمتي (البلاد والأقطار) .

ج) اعتقاد المنصور بأن استعمار الهند المتاخمة لبلدان اسلامية كثيرة من طرف جيش مسلم سيحدو بتلك الأقطار إلى الاتحاد مع اخوانهم المسلمين أي مع المغاربة الذين يوجد على رأسهم الخليفة الشريف .

ويبدو أن العاهل المغربي لم يوفق في حمل الملكة على الاقتناع بخطته ، ولا أدل على ذلك من استمرار المخابرة حول تقديم المبلغ المطلوب من المغرب . وتوجد وثيقة في الخزانة العامة بالرباط هي عبارة عن رسالة من أحمد المنصور الذهبي للملكة اليزابيت بتاريخ ٢ مايو ١٦٠١ يتساءل فيها المنصور عن الصفة التي تطلب بها الملكة المبلغ المذكور ويضع المرسل في رسالته شرطاً بيناً يتمثل في أن القرض المطلوب يجب أن يكون هو نصيب المغرب المالي في « اقتسام مجموع الأراضي المستعمرة من طرف اسبانيا بين المغرب وبريطانيا ، بالاضافة إلى مشاركته العسكرية في غزو المستعمرات »[١] .

وجاءت هذه الرسالة في أعقاب محادثات مطولة بين سفير مغربي والملكة يوم ٢٢ غشت ١٦٠٠ حول المراحل العملية « لغزو المستعمرات الاسبانية في الهند وغرب افريقيا ورأس أركان شمال مصب نهر السنغال وفي جزر الهند الشرقية والغربية ، ثم لاسبانيا في مرحلة لاحقة لذلك » .[٢]

وقد جرى تبادل الآراء حول ارسال قوات مغربية في بداية العملية لامكانية تحملها للجو المداري القاسي وكان اقتراح بريطانيا أن يرسل المنصور الفرقة النارية الأندلسية إلى لندن لاختبارها واستخدامها حسب اشارة القادة الانجليز في احتلال بعض المستعمرات .

واختصت هذه النقطة بجواب من أحمد المنصور للملكة ورد فيه : « . . .

---

(١) مخطوط ـ الخزانة العامة بالرباط ٢٧٨ ك صفحة ١٩٥ .

(٢) دوكاستري S.I.H.M بريطانيا ج ٢ . ص ٢٢٢

هؤلاء المذكورين ، أن امرنا بعبورهم وجوازهم تخشى ما يؤدي اليه الحال من التغرير بهم ، وربما يجد العدو فيهم فرصة ينتهزها فنعرضهم إلى الخطر ونحن لا نريد ارتكاب أوجه الأخطار والغرر بهم لأنهم لا يكفون في هذا الشأن وحدهم . . والعدد العظيم يخضع شوكة العدو ويقصم ظهره وهو يحتاج إلى الأموال الوافرة ولا يقوم بتجهيزه إلاّ مال عريض ووفر قوي وجهد عظيم » [1] .

ويظهر أن بريطانيا كانت تداور وتناور في موضوع اقتسام المستعمرات المتباعدة مع دولة كالمغرب ، ونجد دليلاً قوياً على ذلك فيما كتبه المنصور نفسه للملكة :

« . . وإذا تيسر ذلك وعلم المسلمون أن البلاد إذا فتحت تبقى لهم ، فان هذا الأمر بحول الله وقوته أهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما إذا كانت البلاد تستفتح ولا تبقى لهم فان فقهاءنا وعلماءنا لا يساعدون على ركوب الأخطار بالمسلمين ، واقتحام الأموال العظيمة لهم إلاّ إذا كانت البلاد يسلم اليهم امرها ، ويلقى اليهم حكم ولايتها ، والنهوض بغير هذا الشرط لا يجوز عندهم في الدين ، ولا يساعدون المسلمين عليه » .

« وإذا حصل الوفاق بهذا الشرط فان جيوش المسلمين حينئذٍ تسرع إلى النهوض لهذا الغرض الجهادي[2] من كل أوب خيلاً ورجالاً ، خفافاً وثقالاً ، لأنه لا يخفاكم إننا نحتاج إلى الاتفاق العظيم في هذا الغرض » .

« وإذا كنّا ننفق الأموال الطائلة مع أنه ما دعتنا الضرورة إلى ذلك ثم لا تكون البلاد مع ذلك لنا فما الفائدة التي تظهر حينئذٍ للمسلمين في حركتهم [3] لهذا

---

(١) مخطوط ـ الخزانة العامة بالرباط رقم ٢٧٨ ك ص ١٩٥

(٢) استعمل المنصور كلمة الجهاد في هذا المقام ، كما أن السياق يدل على أنه كان يرجع إلى اصحاب الفتيا في أمر غزو الهند . ولعل هذا الأمر كان يتم على نطاق ضيق جداً لأننا لم نجد في مصادرنا أي أثر لذلك .

(٣) الحركة هي الحملة العسكرية .

الأمر العظيم »[1] .

إن الذي يغلب على الظن هو أن تقديم بريطانيا لرجل وتأخيرها لأخرى ، عائد أساساً إلى خوفها من تراجع المنصور عن التزاماته في وقت يختاره هو ، ولا شك أنها فكرت طويلاً فيما يكون عليه المصير لو تمكن حليفها من الاحتكاك بالمناطق المسلمة في آسيا ، وما يمنعه أن يقيم العالم العربي ويقعده في واحدة من مظاهراته الدينية ، ويربك في الظرف المناسب المخططات البريطانية البعيدة .

ومن جهة ثانية ، فان بريطانيا وهي لم تكن بعيدة عن فرنسا في ذلك الوقت ، كانت تعلم ولا شك بالاتصالات التي اجراها المنصور مع البلاط الفرنسي ، وكان موضوعها الأساسي دراسة أوجه التعاون الثنائي في سبيل استعمار تلك الممتلكات الاسبانية نفسها ، وقد استمرت تلك المفاوضات بين المنصور وكل من فرنسا وبريطانيا ، وفي نفس الوقت خمسة أعوام[2] .

ولم يكن المنصور يطمح في فتح اقطار في جهات بعيدة فقط ، بل كان تفكيره منصرفاً إلى ممتلكات الدولة العثمانية في العالم العربي انكاراً منه لاحتلالها بلاداً اسلامية احتلالاً لا يقوم على الشرعية الدينية ، ولكننا لم نجد فيما بين أيدينا من الوثائق ـ ما يخبر بطرح هذا الموضوع مع الباب العالي ، أو باستعدادات عسكرية لخدمة غرض من ذلك القبيل ، ولقد قدمنا بعض اصناف الجهود غير المباشرة في هذا السبيل وقصد منها اضعاف السلطة العثمانية واقناع العالم العربي والاسلامي بالثورة ضدها ، ويظهر أن السبب الحقيقي هو اقتناعه بعدم جدوى فتح شمال افريقيا لأنه تعب كثير في ربح قليل كما قال هو نفسه في اجتماع مجلس ملأ المسلمين كما سنرى .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٦ .

(٢) دوكاستري S.I.H.M بريطانيا ج ٢ . ص ١٦٠ ؛ وصلت إلى المغرب يوم ١٣ دجبر ١٥٩٦ سفارة فرنسية كان الغرض من مجيئها تهيء اتفاق بين البلدين يرمي التعاون العسكري والمالي المشترك ضد اسبانيا ومستعمراتها .

وفيما كان موضوع المستعمرات الاسبانية وأملاك العثمانيين يتعلق بجهات كان عليه أن ينتصر دبلوماسياً وسياسياً وأخيراً في معارك عسكرية ، فان فتح السودان كان يسقط من حسابه المهمتين الأوليين ، ويبقى فقط على العمل المباشر وحده وبدون مخاطر كبيرة .

وبقطع النظر عن المزايا الاستراتيجية والسياسية التي فكر المنصور في أن فتحه للسودان سيحققهما فقد كان هناك العنصر الامبراطوري أيضاً ، وهو ما لفت بكيفية واضحة نظر المؤرخين الذي كانوا بقربه أثناء مراحل الاعداد والتنفيذ[1] .

٦) الحيلولة دون تطويق المغرب من الجنوب :

يمكن القول بشكل عام أن الجهد السياسي والعسكري للدولة السعدية ، ولأعظم ملوكها احمد المنصور ، انصرف بقوة نحو هدف استراتيجي ووطني وهو فك الطوق عن المغرب في الشمال ، وذلك بتحرير سواحله المحتلة بالوسائل العسكرية أي بالجهاد وبالمفاوضات أيضاً ، أما في الجنوب فكان العمل وقائياً يرمي إلى منع العثمانيين من الوصول إلى الغرب الافريقي الأوسط ، وشل حركة المستعمرتين البرتغاليتين القائمتين في أركان وغامبيا ، ومنع القوات المتواجدة فيهما من التوغل شرقاً والوصول إلى مصادر الذهب والملح ، وبالتالي منع أي امتداد نحو المغرب في المستقبل مع حرمانه من ثروات كان يريدها لنفسه .

ورغم أن برامج المنصور كانت تتسم بالاندفاع لا بالمدافعة ، وإنه سعى من

---

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١١٧ . « حسبها ببلاد اثرها الله وأثراها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة ، وارض كرم الله تربتها . . . وقد طم بها بحر الحبوب والأقوات والأدم وسال بها سيل النعم المنبثة للتناسل في المرج النضر الممتد على ضفتي النيل . . واصناف الرقيق المنيف على الذر . . » وفي صفحة ١٦٨ « والابريز الذي فغرت اليه أقطار الأرض أفواهها . . » . وفي صفحة ١١٧ أيضاً : « فما شئت من مدن قاهرة وقرى متراصة ومروج نضرة واسواق بالخلق والنعم زاخرة . . لكثرة من ينتابها من جميع زوايا المعمور من ركاب التجر وارباب البضائع الثقيلة الذين يضربون اليها اكباد الأبل من كل فج عميق . . » .

خلال عمله في اقامة توازن في علاقاته الخارجية إلى اكتساب المرونة الكافية للتحرك جنوباً ، بالرغم من ذلك فانه لم ينجح في الواقع إلاّ في ازالة بعض القيود التي وضعت في يد الدولة المغربية نفسها ، وبقيت مدن ساحلية كثيرة في ايدي الأجانب .

وإذا كان العاهل قد فكر في فتح السودان وضمها إلى المغرب ، فان من جملة دوافعه إلى ذلك ولا شك تقليم مخلبي القط في شرق السودان حيث لا يبتعد الأتراك كثيراً وغربه حيث البرتغاليون ، لا بقصد التمهيد للزحف على السودان ولكن لدفن الأطماع التركية والبرتغالية إلى الأبد ، والتحكم في تلك الأطماع إذا ما قدر لها أن تبعث وتنطلق من جديد ، وكانت خطته متواضعة في البداية وتقضي بمنع القوتين المتواجدتين بشكل مباشر أو غير مباشر بالمناطق السوداء من التحرك وقت زحفه على تلك البلاد .

ولقد أعطت الجيوب البرتغالية التي ظلت قوية رغم انهيار الدولة البرتغالية نفسها ، فرصة نادرة للمنصور لاستخدام حق ديني يسمح له بالتدخل واحتلال السودان دون أن يكون في حاجة إلى ابراز هويته كخليفة وكأمير للمؤمنين .

وخلاصة الموضوع أن الشرع الاسلامي يبيح احتلال أمير مسلم لبلد اسلامي آخر ، أظهر متولي امور المسلمين فيه عجزاً عن مدافعة الكفار القابعين عند حدوده ، أو كان لا يستطيع مدافعتهم عن بلده المسلم حين يكون تهديد الكفار لهم وشيكاً أو متوقعاً .

وقد استصدر المنصور ـ وهو اكبر صياد للفرص ـ فتوى واضحة من العالم محمد العربي الفاسي صاحب كتاب مرآة المحاسن حول جهاد العدو من قرب اماكن تواجده هذا نصها : « الجهاد فرض عين على من نزل العدو به أو قريباً منه من أهل مدينة أو غيرها . إذا علم أنه يجب علينا أن ندافعهم عن الاستيلاء على وطن من أوطان المسلمين قبل استيلائهم عليه .

وعلة وجوبه قبل الاستيلاء موجودة بالأحروية بعد الاستيلاء ، ولم يختلف الناس في بقاء الحكم مع بقاء العلة وإنما اختلفوا في بقائه مع زوال العلة ، ولا يتوهم متوهم أن ترك المسلمين مدائن المسلمين في أيدي الكفرة يدل على عدم الوجوب ، لأن ذلك من تقصير الملوك وهم بذلك في محل العصيان لا في محل الاقتداء بهم والاستنان »[1] .

وهذه الفتوى واضحة كل الوضوح وهي تعطي للمنصور الحق ، بل وتجعل من واجبه أن يحتل بلاد السودان الاسلامية ، وأن يبقى فيها ما دام الخطر يتهددها ، واذا لم يفعل فهو في محل عصيان أوامر الله سبحانه .

وهكذا نرى أنه من هذه الزاوية يكون لتدخل المنصور في السودان واحتلاله لأراضيه مظهران احدهما سياسي والآخر ديني .

واننا نجد ان المنصور كان منشغل البال منذ أمد بعيد في أمرين اثنين :

الأول : الأطماع التركية في امبراطورية كانم - بورنو المتاخمة للسونغاي شرقا .

والثاني : تزايد الخطر البرتغالي - بالرغم من زوال دولة البرتغال الأم - عن مناطق من السنغال والنيجر الأوسط ، فكانت هناك تجارة نامية ، وكان هناك تبشير مسيحي ، وكانت هناك حملات عسكرية محدودة وتجارة لبيع السلاح انطلاقا من أربع مستعمرات صغيرة على الساحل الغربي لافريقيا .

ولقد كان المصريون - قبل الاحتلال التركي - يجمعون المعلومات عن تلك الجهات من التجار والحجاج والطلبة ، وانتهز الملك الظاهر وصول وفد لديه مما وراء النوبة[2] ليهيء حملة جهادية وصلت الى مشارف بورنو في عهد الملك المنصور

---

(١) عبد العزيز الزياني - كتاب الجواهر المختارة - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٥٢٧٤ ص ٢٣٣ .
(٢) النيجر والتشاد وبلاد الحاووصا .

قلاوون[1] ونعتقد أن هذه الحملة لم تحقق أي هدف سوى جمع المعلومات التي استفاد منها العثمانيون فيما بعد ، وكاد هؤلاء ان يضعوا أيديهم على امبراطورية كانم - بورنو ، لولا ترددهم أو انشغالهم الذي استفاد منه المنصور ، فحسم موضوع السيادة على هذه الجهات الواسعة عن طريق مبايعة ادريس الثالث له ، وهكذا اختفى العثمانيون لوقت طويل عن وسط افريقيا .

أما فيما ينوب الجيوب الصغيرة على ساحل افريقيا الأطلسي ، فان البرتغاليين نزلوا بها لأول مرة في عهد منسا محمود الأول عام ١٤٨٤ ، وبنوا اكواخا من الخشب في رأس أركان شمال مصب السنغال ، وفي عام ١٥٣٤ وكان الحكم لمنسا محمود الثاني ، اختاروا ، بعد استكشافات طويلة ، موقعا منيعا في غامبيا السفلى وسط ساحل بلاد السنغال ، ولكنهم واجهوا في هذه المرة مقاومة عنيدة من الماليين ثم أسسوا قلعة أخرى أطلقوا عليها اسم (مينا) في ساحل الذهب[2] لم تسبب لدى القبائل المجاورة أي قلق .

ان هذه المراكز كانت تنهض بمهمة التجارة وتصدير العبيد ومبادلة الذهب بمصنوعات مختلفة ، « وقبل أن يؤمها الأجانب قامت بمهمات تجارية معروفة بين المغرب وافريقيا السوداء ، وقد بيعت البضائع القادمة من مراكش في جزيرة الرأس الأخضر قبالة افريقيا الاستوائية كما نقل الذهب منها الى المغرب ، وهكذا أخذ البرتغاليون مكانا تقليديا للمبادلات بين بلاد العرب وافريقيا السوداء[3] .

وانتهز البرتغاليون فترات ضعف دول السودان فتوغلوا في الداخل عند نهاية القرن السادس عشر ، وباعوا أعدادا قليلة من البنادق[4] للسكان المحليين .

---

(١) يراجع ابن خلدون - المجلد الخامس .

(٢) غانا الآن

(٣) J. Suret. canale . Afrique noire p 181

(٤) المصدر السابق ص ١٨٢

ومنذ عهد ملوك بني وطاس المغاربة أثار تمركز البرتغاليين في مواطن على ساحل افريقيا المخاوف الكبرى ، وقد وجهوا سفيرا الى البلاط المالي بقصد عقد حلف بين المغرب والسودان ضد الغزاة البرتغاليين[1] .

ونحن وان كنا نجهل كنه الأثر الذي تركته مثل تلك الاتصالات ، ولا نعرف ما نتج عنها ، فاننا نعلم أن الجهاد ضد البرتغاليين على امتداد سواحل المغرب الجنوبية قد تكاثف وتلاحق اعتبارا من ذلك الوقت ، فكانت القبائل الصحراوية منفردة أو بتأييد من المخزن توالي هجماتها وحصارها لتلك الجيوب من أكادير الى وادان بموريطانيا على الأقل[2] .

وعندما آل الأمر الى السعديين أكثروا من تلك الغارات ، وحرروا كثيرا من الموانيء ، ووجهوا السراياه والحملات الى السواحل السوداء ، وبالنسبة لمستعمرة أركان فيبدو ان المنصور الذهبي كان في سباق محموم مع الاسبان للوثوب عليها وانتزاعها من البرتغاليين ، ويورد دوكاستري رسالة وجهها من المغرب الاسباني Miguel de Moura الى أحد رجالات البلاط في مدريد Melchoire de Petoney يصف موقع رأس أركان الهام كنقطة للمواصلات ضمن بلدان غنية بالقمح والشعير والماشية والفواكه والذهب ، ويقول بأن أهالي المنطقة يصرفون ذهبهم في تنبوكتو والمغرب ، ويعتقد المرسل بأنه لو وجه فيليب الثاني سفنا محملة بالمصنوعات الزجاجية والأجراس والخناجر لعاد بها محملة بالذهب ، وحذره من أطماع احمد المنصور في تلك المستعمرة[3] وفي الوقت الذي استطاع الملك فيليب الثاني أن يحقق آمال ذلك الموظف، الاسباني ويقيم تجارة مهمة انطلاقا من أركان

---

(١) ليون الافريقي ـ وصف افريقيا ج١ ص ٦
(٢) دوكاستري S.I.H.M م ، ١ج ١ البرتغال ص ٢٣٣
(٣) دوكاستري S.I.H.M فرنسا ج٢ ، ص ٦٧

وبمساعدة من الحكم البرتغالي[1] كان احمد المنصور يعد حملة لارسالها (لجهاد المشركين) في الجنوب[2] حيث أن حملة سابقة وجهها الى السنغال قبل ذلك بأربع سنوات لم تستطع أن تحقق هدفها وتستولي على أركان[3] .

وفوجيء أحمد المنصور بحلول جيش اسباني مكان الحامية البرتغالية[4] في أركان عام ١٥٨٨ ، فلجأ الى مفاوضات طويلة مع الانجليز لمساعدته باسطولهم على احتلال الرأس ، واستمرت تلك المفاوضات دون جدوى حتى أواسط عام ١٦٠٠[5] وقد اكتفى المنصور خلال ذلك باعتراض السفن المتجهة الى الجنوب ، حيث استطاع أن يصادر الكثير من مدافع تلك البواخر قبالة ساحل أكادير[6] كما انه واصل لمدة ثلاثين سنة مهاجمة جزر الكناري باعتبارها عقدة مواصلات رئيسية نحو الجيوب الاستعمارية على الساحل الافريقي[7] ، وقد ظلت أكادير باسطولها المتواضع تشكل عقبة رئيسية في وجه التوسع الاستعماري في جنوب الصحراء[8] .

والخلاصة أن وجود المراكز والجيوب الأجنبية عند الساحل السوداني ، كان يقض مضاجع احمد المنصور ، ويشكل في نظره منطلق تهديد لا للمغرب فحسب ولكن لمشاريعه الافريقية الطموحة ، وقد أعطاه ذلك التهديد الفرصة المواتية ليظهر بمظهر الأمير المسلم المزاول لاحدى واجباته الدينية المقدسة .

---

(١) دوكاسترى S.I.H.M بريطانيا . ج٢ . ص ٤٤

(٢) الفشتالي ، مناهل الصفا ، ص ٨١ « . . . وهو الآن من عام ٩٩٧ (١٥٨٨) واقف على أهبة الاستعداد لجهاد المشركين واغزاء ارضهم في الجنوب » .

(٣) المصدر السابق ص ٧٩

(٤) دوكاسترى S.I.H.M فرنسا ج٢ ص ٦٧

(٥) دوكاسترى S.I.H.M بريطانيا ج١ ص ٢٢٢

(٦) محمد المختار السوسي ، خلال جزولة ـ المطبعة المهدية بتطوان ـ بدون تاريخ ج٣ . ص ٢١ .

(٧) الفشتالي ـ مناهل الصفا ، ص ١٩٧ و١ . حركات المغرب عبر التاريخ ج٢ ص ٤١٩

(٨) محمد المختار السوسي ـ اليغ قديما وحديثا ـ المطبعة الملكية ـ الرباط ١٩٦٦ ص ٩٢ .

٧) التطلع الى ربط الاتصال المباشر بامبراطورية كانم - بورنو بعد مبايعتها للمنصور :

إن الوثائق التاريخية التي بين أيدينا حول ربط امبراطورية كانم - بورنو بالمغرب عن طريق البيعة ، تتيح لنا أن ننفذ الى تفكير احمد المنصور ، ونجزم بأنه لم يكن يفكر فقط بامبراطورية السونغاي بل بما وراءها ، وبأن خياله قاده الى تصور وصوله الى تخوم الشمال الافريقي كله من الجزائر الى مصر ، وتمركزه على امتداد الشريط الصحراوي الذي يحد تلك البلاد جنوبا ، ومن هنا نصل الى النتيجة الواضحة والمبررة الذاهبة الى حد الاعتقاد بأن من دوافع حملته السودانية الأساسية الربط الجغرافي العضوي بين المغرب وكان بورنو ، ولا يوجد سوى حاجز يعترض ذلك الربط هو امبراطورية السونغاي .

ويجب قبل ذلك الجواب عن سؤال بديهي : لماذا ترك المنصور دولة السونغاي القريبة منه ، وخاصة بعد احتلاله للأقاليم الصحراوية المتاخمة لها ، ولبلاد السنغال ، وأراد حسم الموقف مع كانم - بورنو ثم انتظر تسع سنوات ليضرب ضربته العسكرية في تنبوكتو وغاو ؟

الجواب يكمن في قوة ادراك الرجل ، وفي تخطيطه الذكي وتطلعه المستمر للتحكم في الأحداث وتكييفها بعد ذلك على النحو الذي يريد ، فهدفه كان هو تذليل العقبة الكبرى المكتنفة بالمخاطر والاحتمالات ثم الانقضاض على الفريسة السهلة وجعلها همزة للوصل وجسرا للعبور .

فما هي العقبة الكأداء التي كان عليه أن يذللها أولا ؟

لقد مر معنا أن المعلومات التي جمعها حكام مصر قبل الفتح العثماني عن مناطق السودان المختلفة وقعت في يد سلاطين الترك ، وكانت محل عناية منهم ، كما أن العلاقات التي نمت خلال أحقاب طويلة بين تونس وطرابلس من جهة وبين

كانم بورنو كانت محل تمحيص واهتمام ، ولقد تلقى ادريس الثاني وخلفه ادريس الثالث أسلحة نارية من طرابلس بواسطة التجار ، ولا يستبعد ان الحاكم العثماني كان على علم بتلك التجارة ، ان لم يكن يشجعها بدافع مادي أو سياسي .

وقد بادر الأتراك الى ابلاغ الامبراطور بانهم غدوا حماة الاسلام ، وان عليه طاعتهم ، ويظهر أن ادريس ساعفهم وأقرهم على الزعامة الاسلامية[1] ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، اذ قلب الامبراطور لهم ظهر المجن عندما أثير اللغط بين العلماء حول كيفية اسلام أهل بورنو ، هل وقع ذلك طواعية أو حربا ، وكان الوالي العثماني في طرابلس يجمع الدلائل التي تؤ يد الاحتجاج القائل بأنهم اسلموا حربا وكرها ، من هنا فرض على الأمبراطور خراج كان يقدره التجار المصريون[2] وقد هيأ ادريس الثالث نفسه لحرب مع والي الأتراك على طرابلس ، ولكن تلك الحرب لم تقع أبدا ، ولعها الحرب التي أعلنت ولم تباشر بينهما .

ويظهر انه وقع بعد ذلك اتفاق ما بين الجهتين لا نعلم عنه شيئا ، لأن الملك ادريس الثالث انخرط في حروب متواصلة مع الوثنيين في الجنوب ، بعد مهادنتهم طويلا ، وأصبح يتردد على الشرق بحملاته ، وعادت تجابة الأسلحة الى نشاطها السابق ، وترددت بعثات من قبله على طرابلس والقسطنطينية تطلب السلاح الوفير للقيام بالفرض الجهادي ، ولم ترجع تلك البعوث بأي طائل[3] .

وفي عام ١٥٨٢ أرسل ادريس الثالث سفارة جديدة الى الباب العالي وأمرها بأن تقصد الى مراكش في حالة اعتذار السلطان العثماني عن تقديم السلاح ، وتطلب نفس الأمر من العاهل المغربي ، ومن الصدف ان السفير قدم نفس الرسالة

---

(١) م . الغربي - موريطانيا ومشاغل المغرب الافريقية ص ١٣٤

(٢) نفس المصدر ص ١٣٥

(٣) احمد الناصري - الاستقصاء ج٥ ص ١٠٥

الموجهة لمراد الثالث الى احمد المنصور لجهله وعدم ادراكه لأبسط الأمور السياسية[1] ، وانتهز المنصور هذه الحادثة ليطلب من السفير أن يعود الى بلده ، ويبلغ ملكه أن حرب الكفار التي جعلها الملك ادريس ذريعة لطلب السلاح تتطلب أخذ الاذن من الامام ومبايعة الخليفة الذي لا يصح الجهاد الا باشارته واذنه .

وعند عودة السفير الى مراكش أحس المنصور بأن طلبه لا يجاب بالحرارة وحسن القبول ، فحمل السفير رسالة أخرى تلزم ادريس بالانقياد الى دعوة المنصور ومجاهدة الكفار بكلمته وعلق له الامداد بالسلاح على الوفاء بهذا الشرط ، واضطر السفير الى التصريح بحقيقة ما عنده ، فأقر بأن سلطانه يوافق على ذلك[2] وعندها قدم له نص البيعة[3] ، وسار بها الى الملك ادريس ، فقبل بها وقرئت في جميع مساجده ، وتلا الملك القسم المغلظ المثبت في نهايتها وعاد بها سفيره موقعة من قبله ومن العلماء والوجهاء وقادة الجند في السنة التالية (١٥٨٣) مما شجع المنصور على أن يطلب نفس الشيء من ملك سنغاي[4] .

والذي يلفت النظر في بيعة الملك ادريس للخليفة المنصور هو اسهابها في مدح العاهل المغربي ، وبيان أهليته للخلافة لشرفه ونسبه القرشي ، وجهاده في سبيل الله ونصرة دينه وكذلك القسم الذي ختمت به وهو كالآتي :

« بالله الذي لا اله الا هو الملك القدوس العليم بالخفيات ، والخبير بالآجال والوفيات ، وبجميع الرسل الكرام والأنبياء ، وملائكة الرحمان في الأرض والسماء ، على أنهم ان حادوا عن هذا السبيل وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتبديل

---

(١) م . الغربي المصدر السابق ص ١٣٧

(٢) الفشتالي ـ المناهل ص ٦١ ـ ٦٢

(٣) نص البيعة يوجد بالمناهل للفشتالي ص ٦٩

(٤) الافراني ـ نزهة الحادي ص ٩١

أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته ، فهم براء من حول الله وقوته ومن ديته وعصمته ، ومستوجبون لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته ، وبعداء من رحمته ، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمته ، وانهم خالعون لربقة الاسلام ، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام . .

أشهد على نفسه بما فيه ، وعلى رعيته الرئيس أو العلاة ادريس . . . »[1] .

ولقد فتح هذا العنصر الجديد مجالات جديدة أمام أحمد المنصور ، ومتنفسا لمشاريعه في افريقيا السوداء :

أولا : قطع أمل العثمانيين في ربط علاقاتهم بهذه المنطقة من افريقيا وتحريكها لخدمة أية مصالح لهم .

ثانيا : ترجيح كفة الصراع الذي رأيناه قائما بين كانم بورنو والسونغاي حول ممالك الحاووصا الصغيرة ، والاشراف على الطريق التجاري الشرقي الغربي لصالح كانم - بورنو ، وكان ذلك أولا على شكل غير مباشر اذ اندفعت جيوش احمد المنصور الى الاقاليم الصحراوية شمال النيجر وألحقتها بالمغرب ، أي انها رابطت على حدود السونغاي مباشرة منذ عام ١٥٨٢ .

ثالثا : فتح الباب أمام أية خطة لتطويق الأتراك من الجنوب حيث ان كانم بورنو كانت تتاخم مصر وبرقة وطرابلس وتونس .

رابعا : امكانية الوصول الى خيرات كانم - بورنو النباتية والحيوانية الواسعة ، والتحكم في الطريق التجاري العرضاني الذي كان يربط شرق القارة وشمالها الشرقي بالغرب الافريقي .

خامسا : عدم استبعاد عمل مشترك بين كانم - بورنو والمغرب للاستيلاء -

---

(١) الفشتالي - المناهل ص ٦٩ .

باسم الجهاد ـ على اقليم دارفور الذي كانت تقوم فيه ممالك مسيحية نوبية بلغت أوجا عظيما في الحضارة والغنى ، واستعصت على الملك ادريس الثالث لافتقار جيشه الى الاسلحة النارية[1] .

ومهما تكن النتائج التي حققها المنصور أو التي أمل أن يصل اليها من وراء هذه الرابطة القانونية السياسية التي لا نعلم أنها عمرت طويلا ، فانه توصل من وراء زواجه غير الكاثوليكي الى تحقيق هدفين مكناه من النجاح في خططه الافريقية وهما :

- وضع حاجز مانع على حدود سونغاي الشرقية[2]

- وصول اسم المنصور مع ما كان يحمله من الهيبة والقوة والروحانية الى كل اذن افريقية في هذه الجهات ، فعمل ذلك على خلق مناخ نفسي ملائم كل الملاءمة[3] .

٨) التخلص من بعض فرق الجيش الأندلسي :

المورسكيون كانوا مصدر قلق لأحمد المنصور الذهبي ، طيلة حكمه ، وكانوا بعد ذلك من العوامل الرئيسية في انهيار دولة السعديين ، ولقد رأيناهم يتحدون مع الأتراك ويقيمون جمهورية في سوس لم يكتب لها البقاء الا سنة واحدة وذلك

---

(١) استطاع الملك ادريس في آخر سنة من حكمه ١٦٠٣ مداهمة دارفور وخرب كنائسها وحملها كرها على الاسلام .

(٢) لم يكن من قبيل المستحيل مثلا أن يقوم حلف بين الملك ادريس والأسكيا ضد المغرب بتشجيع من الأتراك .

(٣) هناك سؤلان محيران : لماذا لم يقدم المنصور أي سلاح للملك ادريس بعد البيعة ولماذا لم تتحرك كانم ـ بورنو لمساعدة الجيوش المغربية وكان وضعها حرجا في بعض الأحيان في الجهات القريبة من بورنو خاصة ؟ ان الذي نعلمه فقط هو ان احمد المنصور وجه الى نجامينا بعض كبار موظفيه للقيام بجولة في تلك المدينة والتعرف على احوالها . احركات ـ المغرب عبر التاريخ ج٢ ص ٢٩٩ .

عقب معركة وادي المخازن مباشرة ، ولم ينقطع أملهم على امتداد نصف قرن في احياء دولتهم الدارسة بالأرض الافريقية ، وهناك ظلال من الشكوك حول نواياهم تلك في بعض الجهات كتنبوكتو وتطوان والشاون ، على أنهم أسسوا بالفعل جمهورية في الرباط وسلا (اسموها جمهورية ابي رقراق) كانت لها ـ في وقت لاحق لفترة حكم المنصور ـ قوة بحرية وتجارة نامية وعقدت معاهدات مع دول أجنبية كهولندا وفرنسا وانجلترا[1] .

وقد هاجر المورسكيون الى بلدان اسلامية متعددة على اثر الاضطهاد الذي لقوه في اسبانيا اثناء حكم شارلكان وفيليب الثاني حيث قامت محاكم التحقيق[2] الرهيبة لملاحقتهم ، وقد أتى معهم عدد كبير من اليهود ضمن هجرات منتظمة استمرت حتى عام ١٦٠٩[3] .

كان هؤلاء المهارجون على قسط من الحضارة ، وساعدوا على النهوض بالصناعة والزراعة والتجارة في المغرب ، كما كانوا على مستوى من التكوين أهلهم لدخول الجيش ككوادر وخاصة في البحرية ، ولكن المورسكيين كانوا ميالين الى الانعزال والتكتل وكرهوا الخضوع لغيرهم ، ولهذا فقد كانوا غير مخلصين للمغرب وللملوكه[4] .

---

(١) يراجع الجزء الثاني من Terrasse H. Histoire du Maroc

(٢) دعيت بمحاكم التفتيش خطأ .

(٣) أصدر الامبراطور شارلكان عام ١٥٢٦ قانونا يحرم على المورسكيين تعلم اللغة العربية أو التخاطب بها وارتداء الثياب العربية ، واقامة الحفلات الاسلامية ، ثم اصدر الملك فيليب الثاني عام ١٥٦٦ قانونا همجيا ضد العرب منحهم ثلاث سنوات لتعلم اللغة القشتالية ، وابطل كل عقد يجري تحريره بالعربية ، والزم النساء بارتداء القلنسوة ، وأنزل العقاب بمن لا يذهب للكنسية منهن ومنع الخضاب بالحناء ، والذهاب للحمامات ولبس الملابس النظيفة يوم الجمعة ، وكانت المشانق تعلق للمخالفين ، وحمل ذلك المورسكيين على الهجرة وقام بعضهم بالثورة في غرناطة وبلنسية .
يراجع De chenier. Recherche historique P 370- 74

(٤) . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج٢ ص ٣٢٣

لقد دعا المغاربة هؤلاء المورسكيين بالأندلسيين وهي تسمية تشمل المسلمين واليهود على السواء ، وكثير من هؤلاء اليهود اعتنقوا الدين الاسلامي فأطلق عليهم اسم (المهاجرين) أو (الاسلاميين) تمييزا لهم عن المسلمين الأندلسيين الأصلاء ، واستقر كثير من المهاجرين في فاس وبعضهم وصل الى أقصى المغرب كتوات وتيكورارين وتنبوكتو حيث عمل أغلبهم في الزراعة كما مر بنا أو خداما في قصر الأسكيا .

وفي مدن المغرب تسببت النفرة من هؤلاء المهاجرين، الذين أطلق عليهم أهل فاس المنافقين ، في حدوث اضطرابات دامية متصلة الحلقات[1] وقام اللغط بين العلماء واصحاب الافتاء ، فكان منهم المدافع عن أهل فاس والمدافع عن المهاجرين ، والف احد العلماء وكان واحدا من المهاجرين واسمه محمد ميارة كتابا دافع فيه عن اخوانه[2] ، ومن الكتاب نعلم أن أهل المدن كانوا يحطمون دور المهاجرين وينهبون دكاكينهم ، ويقتلونهم بالأسلحة المختلفة ، وكان من بين أولئك المهاجرين احمد المنجور أعظم علماء المغرب في زمانه ، وكان احمد المنصور قد قدمه يوما ليؤمه في الصلاة فحال القاضي الحميدي بينه وبين المحراب الا ان الخليفة دفعه اليه قائلا : دعه فقد قدمه علمه فأجاب الحميدي : ان قدمه علمه فقد أخره نسبه[3] .

لقد استخدم احمد المنصور المورسكيين ، مسلمين واسلاميين ، في الادارة والمعامل والمزارع والجيش ، وجعلهم عماد حملته على السودان ، ربما بدافع التخلص منهم وقطع دابر الفتنة التي قامت وتقوم بسبب بعض عناصرهم ، وكان

---

(١) ابن القاضي ـ جذوة الاقتباس ـ مخطوط بالرباط ١٢٤٢٥ ص ٢٨

(٢) محمد ميارة ـ نصيحة المغتربين وكفاية المضطرين في التفريق بين المسلمين ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٧٢٤٨ من صفحة ٧١ الى ١٢٣ .

(٣) الافراني ـ النزهة ص ١٥٥

ينتهز كل فرصة لابعادهم عن البلاد ، ففي مراسلاته مع الملكة اليزابيت كان يريد اسناد مهمة العمل المشترك في المستعمرات الاسبانية لهم ، وكان المورسكيون قوام جميع الحملات البحرية في أعالي البحار ، ويبدو أن عزوف المنصور عن ارسالهم الى انجلترا ليكونوا رهن إشارة جيش المستعمرات كما تقدم ، راجع في الأساس الى خوفه من أن يستخدمهم البريطانيون ضد المغرب نفسه ، وهذا شيء لم يكن بعيدا عن التصور اطلاقا .

ولا بد من ابراز جانب يتعلق بالأندلسيين أيضا ، وهو ظهور تكتل ديني ذي خلفيات سياسية تخريبية ، ويتعلق الأمر بقضية (الطائفة الأندلسية)[1] التي انتشرت تعاليمها في فاس ومراكش والرباط وتطوان ، وكانت اقامة زعمائها الكبار في مدينة مراكش[2] وقد انبرى علماء الدين للبدع التي بشر بها محمد الأندلسي والتي سار بها على نهج ابن حزم الظاهري ، منتقدا ائمة الاسلام وفي طليعتهم الامام مالك الذي كان مذهبه يغطي المغرب وشمال وغرب افريقيا ، وكان محمد مقنعا في حجته بليغا في عباراته الى الحد الذي جعل بعض كبار العلماء يعجبون به ويدفعون عنه بعض ما نسب اليه[3] .

ولا شك أن محمد الأندلسي ذهب فيما كتب الى « النيل من قدر النبي عليه السلام متسترا وراء تقديس الخالق القديم تعالى ، وتنزيهه عن أن يشاركه في تقديسه مخلوق مهما كان نبيا أو غيره . . واشتهر أمره بالمغرب وكثر أنصاره وخصومه من بين العلماء والعامة ووقفت الجالية الأندلسية من ورائه تناصره وتلتف حوله

---

(١) اسس هذه الطائفة احد الفلاسفة الأندلسيين محمد الأندلسي في القرن السادس عشر بالأندلس ثم نقلها الى المغرب .

(٢) الافراني ـ النزهة ص ٤٧ والناصري ـ الاستقصاء ج ٥ ص ٥٠

(٣) ابن عسكر ـ « لقيته مرارا ، وتكلمت معه » محمد بن علي ابن عسكر ، دوحة الناشر ، مخطوط بالرباط ٧٦٤ ص ٨١ .

فأصبحت حركته دينية سياسية خطيرة تناهضها السلطة[1] .

وقامت الفتن في بعض المدن وخاصة بمراكش عام ١٥٧٦ فأتى السلطان محمد المتوكل الى المدينة وانتزع محمد الأندلسي من بين جمهرة اتباعه وسلمه للناس حيث صلبوه[2] .

إن تعاليم محمد الأندلسي ، والطريقة التي قمعت بها فتنته ظلتا عالقتين بالأذهان طيلة عهد المنصور وبعد وفاته ، وتحول اتباعه الى العمل السري ، الى أن ظهروا كقوة سياسية في عهد المجاهد أبي عبد الله محمد العياشي بالرباط وسلا[3] . وأصدر علماء المغرب فتاوى قضت بالجهاد فيهم واستئصالهم ، وكانوا حينئذ يتعاونون مع الأجانب المحتلين للمعمورة بشمال الرباط[4] ، ويأتون اعمالا تبطل في نظر بعض المؤرخين خطط الجهاد[5] .

٩) انعدام التكافؤ العسكري :

كان الفرق بيناً بين جيشين أحدهما منظم مجهز أحدث تجهيز[6] ، والثاني يضم أصنافاً من المتطوعة والمرتزقة والعبيد لا يجمعهم تنظيم أو تأطير محكم ، ولا يضع بين يديه سوى الحرشان والرماح ويأخذ توجيهاته من أشياخ السحرة وأصحاب النفث والعزائم في بعض الأحيان .

---

(١) محمد حجي - الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين - دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ١٩٧٩ ج١ ص ٢٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢

(٣) بداية القرن السابع عشر

(٤) مستعمرة كانت تقوم على بعد ٣٥ كيلومتراً شمال الرباط

(٥)ا . حركات . المغرب عبر التاريخ ، ج٢ ، ص ٣٢٧

(٦) الفشتالي - المناهل ص ١٢٧ - ١٢٨ « عساكر قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهال بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة » « والحصة منها تدوخ أقصى تلك الأقطار لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها . . . » .

وسيكون لهذا الموضوع محله فيما يلي ، ولكن ما دمنا في صدد تعداد دوافع غزو السودان ، فالمفروض أن نؤكد على أهمية هذا العنصر ، وعلى صدق حدس المنصور وتوقعاته اذ تمكن جيشه الصغير من سحق جيوش سودانية جرارة .

الفصل الثالث

الأعداد للغز و العسكري

١) تمهيد الجسر الطبيعي نحو السودان

- فتح الصحراء الوسطى
- فتح السنغال
- تعيين خليفة للسلطان لما وراء درعة
- تجهيز الطريق الغربي (طريق جؤذر) بالمحطات واللوازم .

٢) جمع المعلومات عن السودان

٣) توثيق الروابط مع أمراء وملوك وعلماء السودان والصحراء

- المناشير
- القاضي عمر بن محمود
- العائلات المغربية في السودان
- توطين بعض القبائل في آبار الطريق الغربي
- ملوك السودان وأمراؤهم

٤) وصول المطالب بعرش السونغاي إلى مراكش

٥) موافقة مجلس ملأ المسلمين على التدخل العسكري

٦) اعداد الحملة : القيادة

التشكيلات المسلحة

التدريب النوعي

الأدوات والآليات

نفقات الحملة ومؤ نها

توديع الحملة

الفصل الثالث

(١) الاعداد للغز و العسكري

في الوقت الذي كان أحمد المنصور الذهبي يهيىء الجـو الـدولي ، ويخلـق الظروف الأكثر ملاءمة للأقدام على تنفيذ حلمه السوداني ، كان يوالي استعداداته العسكرية لحملته بهمة ونشاط ، فقد مهد **أولاً** الطريق المؤدية إلى عتبة الصحراء ومداخل السودان ، فبواسطة حملتين عسكريتين خفيفتين تمكن من اعـادة طاعـة المخزن الشريف إلى أقاليم توات وتيكورارين بين ١٥٨١ و١٥٨٣ ، فقطع بذلك كل أمل للعثمانيين في التقدم جنوباً كما فصلهم عن أخطر عنصر بشري في هذه الجهات المتمثل في قبائل التوارك .

ووجه حملة أخرى إلى الصحراء الأطلسية والسنغال وصلت إلى نهر غامبيا ورفعت عليه علـم الدولـة الأبيض عام ١٥٨٤ ثم أمضى بعـد ذلك زهـاء خمس سنوات في تجهيز الطرق المنفذة إلى السودان والمارة بأطراف تلك الجهات بصهاريج المياه والآبار والقلاع الصغيرة والأقوات .

ثانياً : ونتيجة لما اكتسبه من تجارب ثمينـة من الحمـلات السابقـة ، ومـا استخلصه بصفة أخص من دروس بعد الحملة القاشلة التي تاهت وهي في الطريق إلى تنبوكتو ، فقد اجتهد في تهيىء جيش في مقدوره أن ينجز مهماته في أصعـب الظروف المناخية والبيئية ، وأن يحافظ على تماسكه وكفاءته القتـالية أثنـاء اجتيازه

المفاوز لما يقرب من ثلاثة شهور مع حمولات غاية في الضخامة من الأدوات والمراكب والعجلات والخيام والأسلحة الثقيلة .

ثالثاً : واظب احمد الذهبي على مدى السنوات العشر السابقة للحملة السودانية على ارسال العيون والجواسيس وجمع المعلومات عن كل ما يفيد العمل العسكري ، ويقر سلطة المخزن وهيبته بأقاليم شاسعة لم ينتظر منها أن تقدم أية شروط مناسبة للحياة التي اعتادها ضباطه وجنوده وموظفوه .

رابعاً : وعلى نفس القدر من الاهتمام مد الرجل جسوره مع علماء السودان وأصحاب الرأي فيه وكذلك التجار ورجال القبائل وأمراء الممالك الصغيرة ، وخلق أفضل الظروف للاستفادة منهم عندما يحين وقت العمل .

خامساً : واهتبل فرصة التجاء أحد أبناء الأسكيا داود إليه ليجعله حصان طروادة بعد أن حاول أن يتخذ منه عنصراً في مناورات سياسية بالغة الذكاء .

سادساً : ولم يقدم المنصور على العمل إلاّ بعد أن حاز على موافقة مجلسه الاستشاري ، مجلس ملأ المسلمين ، وفتاوى اكبر علماء المسلمين في مصر، فتسلح حينئذٍ بالقوة المعنوية والشرعية ، وفتح امامه طريق العمل على مصراعيه .

١) تمهيد الجسر نحو السودان وتعويد الفرق الخاصة على مشاق الصحراء :

كانت أولى الخطوات في عملية تمهيد ذلك الجسر الهام ، وايصال طاعة المخزن اليه بعد انكفاء استمر منذ عهد المرابطين ، هي السيطرة بواسطة فرق صغيرة منتقاة من الجيش المحترف على منطقتين شاسعتين من الصحراء الوسطى والشرقية[١] .

(١) الغربي ـ موريطانيا . . . ص ١٢٢

وإننا نعتقد أن توجيه احمد المنصور حملتين إلى توات وتيكورارين كان صائباً ومدروساً ، وذلك لما كان له من آثار كبيرة على كل جهد قام به بعد ذلك .

ويمكن أن نصل إلى الاستنتاج بأن ما ذهب اليه اكثر المؤ رخين من أن احتلال شرق ووسط الصحراء كان القصد منه فتح الطريق إلى السودان ، هو رأي بعيد عن الصواب تماماً ، ونحن نبني هذا الرأي على عدة مؤ يدات ، أولاها وأهمها أن الجيش المغربي الذي غزا السودان بعد هذا الوقت ، وإن كل أنواع الاتصال التي وقعت مع افريقيا الغربية لم تسلك تلك الجهات على الاطلاق .

فما هي إذاً الدوافع الحقيقية لتجشم العناء في سبيل اخضاع تلك الفيافي الشاسعة ؟

إن نظرة عجلى على خريطة لمنطقة غرب وشمال افريقيا وللشريط الصحراوي الحاجز بينهما تبين أن هناك أربعة محاور للمواصلات لا مندوحة عن سلوك واحد منها للوصول من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة تشاد أو إلى نهر النيجر .

المحور الأول يتجه من مصر أو من فزان ، وبعد أن يعبر غدامس ينتهي عند نجامينا على بحيرة تشاد أو عند كوكيا غرب غاو .

والمحور الثاني يبتدي أما من تونس أو من قسنطينه أو الجزائر ، ، وتتحد مسالكه كلها قبل وصوله إلى بلاد تيكورارين لضرورة التمون بمياه الآبار والرعي في أطراف الواحات المستقرة فوق صخور صلبة متراصة من الشمال إلى الجنوب[1] .

والمحور الثالث ينطلق من وهران وتلمسان وشرق المغرب ويمر لزوماً مع الاتجاه الطبوغرافي لوادي الداورة أي أنه يخترق بلاد توات إلى تمنطيط المدخل الوحيد للسودان من هذه الجهة ، ولا تستطيع القوافل هنا إلاّ أن تتجنب ثلاثة

---

(١) P. Soleillet «Voyage dans le sahara central B. SG. dyon P 55

عوائق طبيعية هي العرق الغربي الممتد عرضانياً نحو الشرق مسافة مئات الكيلومترات ، وحمادة غير وعرق الراوي في الغرب لانعدام شروط الحياة فيها جميعاً ، فامكانية المرور تفرضها الطبيعة ، وتجعل توات مؤهلة وحدها لاستقبال قوافل الجنوب والشمال[1] .

والمحور الرابع : يتجه من خوانق جبال الأطلس المغربية ، وينحدر نحو تندوف ثم إلى تاودوني وتغازي وأروان ويصل إلى النيجر عند تنبوكتو[2] .

والذي يهمنا هنا هو المحور الثاني ذو الأهمية التجارية والعسكرية .

إن واحات تيكورارين تتحكم بصفة مطلقة في حركة القوافل بهذه الجهة المترامية ، فتلك السلسلة من نقاط الماء تنحصر بشكل غريب بين العرق الرملي الشرقي ، ذي العواصف الشديدة والمحل المطلق ، وبين العرق الغربي ذي الخصائص المشابهة ، وإذا فلا بد لأي تحرك تجاري أو عسكري أن يمر في ذلك الشريط الطولاني الضيق ، فالقادم من طرابلس يسلك قبل الوصول إلى تيمومن طريقاً فرعية تقوده من الشمال الشرقي وتصل به إلى واحة ورغلة ، والمسافر من قسنطينة أو الجزائر يسلك الطريق الشمالية الجنوبية الفرعية وينتهي عند واحة غرداية[3] ويقترب هذان الطريقان الفرعيان من بعضهما البعض ثم يلتقيان عند آبار مدينة القليعة ، ومن هنا لا مهرب من استخدام المسلك الوحيد المحصور بين العرقين الرمليين .

وحالما تنتهي رمال العرق الشرقي والعرق الغربي يمكن للقوافل أن تسير في

---

(١) E. Boulangier les voies sahariennes B.SG. Tours P 29

(٢) C. Sbatur «Touat, Sahara et soudan» Etude geog polit ecomom. et militaire. B.S.G. Paris, t. x111, P 99

(٣) ورغلة وغرداية مدينتان في صحراء الجزائر اليوم .

الاتجاه الذي تريده ، ولكن بعد مائة كيلومتر تقريباً تفرض الشروط الحياتية أيضاً المرور على واحة العين الصفراء وآبار مرتفعات تاديمـاييت ، ولقـد اتجهـت حملـة المنصور إلى ممر تيدكلت ، وواحتي القليعة والعين الصفراء وأقامت فيها الحراسة السلطانية منـذ عام ١٥٨١ ، وكان الهـدف الاستراتيجـي واضحـاً بينـا في ذلك العمل ، وهو منع تنقلات العساكر والعدد الحربية المعادية أن قدر لها أن تأتي على هذه المناطق ، ولكن بالنسبة لتوات فالأمر يختلف بعض الاختـلاف ، فيبـدو أن قصد المنصور انصرف إلى مراقبة القوافل ، واستيفاء أعشار الدولة والحيلولة دون الاتجـار في قطـع السـلاح بالاضافـة إلى الهـدف الوطنـي المتمثـل في توسيع الامبراطورية .

وقد لاحظنا أمراً غريباً في خصوص سير الحملـة إلى توات وتيكورارين ، فالقائدان بركة والغمرى انطلقا من سجلماسة وسلكا طريق توات أول الأمـر ، وعند وصولهما إلى منتصف وادي الداورة انعطفا شرقاً وجـدا السـير نحـو مدينـة تيمومن عاصمة تيكورارين ونحو واحـة العـين الصفـراء قاعـدة تيدكلت ، إن التفسير الذي نستطيع أن نعطيه لذلك هو أن القائدين فكرا ولا شك في الحصول على انتصار معنوي ونفسي من وراء هذا العمل ، فسقوط اكبر امارة وأقواها[1] لن يدع أي قرار للآخرين سوى قرار الاستسلام ، وهذا ما حصل بالفعل .

وقد يكون هناك دافع اكثر طموحاً وأعظم شأناً ، فقد أكد لنا الفشتالي أن الخليفة السعدي هو الذي بت في أمر تغيير الطريق والبدء بافتتاح تيكورارين على سهولة الوصول إلى توات القريبة وذلك ليجعل من تلك البلاد « ركاباً لما وراهـا وسلما لما يليها »[2] .

---

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ٧٣ « إن ذلك عالماً من عوالم الأرض بما جمع من الأمم وتراكم فيه من القصور واتصل من العمران وتخلله من العيون . . » .

(٢) المصدر السابق .

فما وراء تيكورارين ؟ إنها بلاد التوارك الشاسعة

وما يلي تيكورارين ؟ ممالك الحاووصا وامبراطورية كانم ـ بورنو

لنحاول أن ننفذ إلى ذهن المنصور ـ من خلال ما بين أيدينا من المؤ يدات ـ لنرى تحليله ونتبين مقاصده .

إن قبائل التوارك التي كان المنصور عارفاً بطويتها قبائل مسلمة استخدمها حكام تلك الجهات الأفريقية في مهمات الأغارة والسطو والقتل ، وغانى المغرب من اعتداآتها على حدوده كما رأينا ، فهل يعدم السلطان العثماني وسيلة ما للتقرب منها واحتوائها بصفته خليفة للمسلمين[1] واستخدامها لما يشاء كما فعل ملوك السونغاي ومن سبقوهم ؟ .

وإذا تمكن ولاة العثمانيين في طرابلس وتونس والجزائر من تقديم أي عون أو هبات لأمراء التوارك فهل يقوم شك في امكانية تقويض آمال المنصور السودانية كلها ، سيما وإن مضاربهم تصل إلى تنبوكتو وإلى اجزاء من الصحراء الغربية التي، ستسلكها حملة السعديين بعد مدة ؟

ومن ناحية اخرى هل كان احمد المنصور يفكر في ايصال جيشه إلى مملكة كانم ـ بورنو في نفس الوقت الذي كان أئمة مساجدها يقرأون بيعة الخليفة الهاشمي ؟

وإذا كان يفكر على هذا النحو لماذا لم يقدم على قطف هذه الثمرة اليانعة ، أو يكتفي على الأقل بمداهمة بعض الممالك الصغيرة في بلاد الحاووصا ، وهو أمر كان سينال الدعم والترحيب من حليفه السلطان ادريس سيما إذا كان سيحصل على مكاسب من وراء ذلك ؟

---

(١) ع . كريم ـ المغرب في عهد الدولة السعدية ـ ص ١٥٠

لا شك أن المنصور الذي عودنا على عدم الاستعجال ، وعلى دراسة الأوضاع بالروية ، ربما كان يخشى مواجهة ملوك وامراء يستعملون الأسلحة النارية مثله ، ولا تبتعد حدودهم عن العثمانيين كثيراً ، وربما كان اكثر من ذلك يعد نفسه لغنيمة لن تسبب له أية متاعب : بلاد السنغال .

المهم أن المنصور لم يطو هذا الموضوع أو يسقطه من حسابه ، فهو باحتلاله تيكورارين أو صد أهم الأبواب المنفذة إلى بلاد الحاووصا وبورنو ، ومن جهة ثانية كان يمتنع عن تزويد ادريس الثالث بالعدد الحربية[1] ليبقى أي مخطط للتدخل بامبراطورية كانم ـ بورنو قابلاً للانجاز دون مخاطر كبيرة .

والسؤال الذي لم يعد الجواب عليه محيراً ولا مستعصياً : هل أراد المنصور سد المنافذ على العثمانيين أو على حليفة سلطان كانم ـ بورنو ؟ .

مهما يكن من أمر فان العاهل السعدي جعل من حامياته في الواحات ومن مراكز الحراسة المتنقلة حاجزاً فعلياً بين الشرق والغرب ، فلم تعد مشاريعه مهددة باحتمالات منغصة أو مثبطة ، بل أصبح هو نفسه مصدر قلق للعثمانيين جنوب الجزائر والفزان ، عندما فتح عينيه اليقظتين على منافذ الشمال الأفريقي الجنوبية .

وما عدا هذا الهدف البارز فان الحملة الناجحة على الصحراء الوسطى حققت أيضاً :

أ) ضبط المنطقة وكبح جماح التوارك وقطاع الطرق .

ب) الاتصال المباشر ببلاد التوارك .

جـ) تعويد جزء من الجيش على اشد الظروف المناخية قساوة ، واختبار وسائل نقل المعدات الثقيلة ، من مدافع ومؤ ن وتجهيزات هندسية مختلفة ، مع توفير

---

(١) المصدر السابق

عناصر الخفة في الحركة والتجميع السريع للعساكر ، والمباغتة وطرق الحرب في العراء .

ولا بدّ لاكمال الصورة حول ذلك ، من اعطاء نبذة صغيرة عن سير حملتي تيكورارين وتوات .

لقد اختار السلطان قائدي الحملة وضباطها ورجالها - في الأغلب - من عناصر صحراوية أو عربية شمالية ، فالقائد أبو العباس أحمد بن الحداد الغمري المعقلي اسند اليه جيش مراكش الذي تكون أساساً من عرب سفيان ، والقائد أبو عبد عبد الله محمد حم بن بركة اسند اليه جيش فاس وكان مكوناً من الشراقة[1] والخلط وبعض الأندلسيين ، وقد توجهت الحملتان - ونحن لا نعرف أعداد أفرادهما - من فاس ومراكش في وقت واحد تقريباً ، فأخذت الأولى طريق الأطلس المتوسط واجتازت بأحمالها الفجوج والوديان والخوانق لتصل إلى سجلماسة ، وصعدت الثانية مع ثنية الكلاوي الصعبة لتنحدر إلى سهول سوس وتارودانت ووادي دادس العظيم الانحدار والخوانق ، لتلتحق بالأولى في سجلماسة ذاتها .

من ثم ذهب الجيشان معاً ضمن حركة واحدة في طريق الريش ، وانحدرا مع وادي غير والساورة نحو ايفلي والقصابي مبتعدين من العرق الغربي في الشرق وعرق الراوي في الغرب .

وحال انفصالها عن القصابي ، ثار الضباط الصغار في جيش الخلط على قائدهم فثقفهم وأعاد هذا الفريق كله إلى مراكش[2] .

ولقد اكتسب هذا الجيش دربة كبيرة بعد اجتيازه مسافة زادت على ٧٠٠

(١) شراقة نسبة إلى الشرق أي الجزائر ، وهم قبائل نزحت من تلمسان إلى ناحية فاس - حركات - المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ٤٠٠ .

(٢) الفشتالي - مناهل الصفا ص ٣٠٩ أمر السلطان القائد موسى العمري بالتنكيل بجيش الخلط بعد قفوله وتشطيب العاصين منه من ديوان الجيش واعتقالهم ، جزاء على فعلتهم في الصحراء .

كلم ، ووصوله سالماً إلى مقصده وكان عليه أن يستريح قريباً من تيمومن ليستجمع أنفاسه ، ولينتظر رد أمير البلد على رسالة المنصور التي حملها أحد رسل الجيش[1] ، وعندما جاء الرد كان مخيباً لآمال الجيش ، وأفاد الكشافة أن المدينة بعد أن تمنعت تستعد للحصار ، ويبدو أن الأمر لم يكن محتاجاً لأية مداولة في الجيش ، لأن أوامر السلطان كانت واضحة ومحددة بالنسبة لكل وضع وموقف ، وبينما كان اهل تيمومن وعلى رأسهم أميرهم يجمعون الأقوات من خارج الأسوار ويضعون أكداس الشوك وجدوع النخل في مداخل المدينة استعداداً لأسابيع أو أشهر من الحصار ، انبرى الجيش بمدافعه الموضوعة على العجلات ، وبرجاله المزودين بالمهاريس والبنادق وما هي إلاّ ساعات حتى استسلم من بقي من أهل المدينة .

« وبانقياد تيمومن انقاد سائر قطر تيكورارين وأتوا طاعتهم راهبين »[2] .

أما بالنسبة لأهل توات فقد وجدنا أن السلطان وجه اليهم قبل تحرك الحملة رسالة رقيقة من مراكش ، ولا يرد في هذه الرسالة حديث عن تمهيد البلاد بواسطة القوة ، بل هي تتضمن فقط الدعوة إلى « الطاعة والانخراط في سلك الجماعة ، واستفياء وارف ظلال الخلافة ، والاعتماد على مركز علاء الدولة والوقوف مع خط استوائها ، والثقة بأن أبواب القبول والكرامة لهم مفتوحة ، وقواعد الاعتناء بهم

---

(١) رسائل سعدية ص ١٦٩ ـ ١٧٢ : يوجد النص الكامل للرسالة ، وهو ينعت امير تيكورارين « بالمرابط الخير الدين الأتقى الأزكي المكرم » . ويضفي المنصور على نفسه القاب الخلافة وكل أنواع التمجيد والتشريف ويقرر أن تلك البلاد من أجل ممالكه التي لها عنده الخطر والبال ، ويحمي حماها من طوارق البغي والفساد ، ويستأصل شوكة أهل البغي وينشر العدل ولهذا وجه المحلات السعيدة والعساكر المظفرة لتسلكها وتطوق أرجاءها . . . فمن آوى من أهل افساد اليكم ورجع عن غيه فباب التوبة مفتوح قبل أن يحل به من سيوفنا العذاب الأليم ، فاشيدوا بهذا الأمر الكريم وعرفوا به من قبلكم من قبائلكم وعشائركم وسائر من اليكم .

(٢) الفشتالي ـ المناهل ص ٧٤

مفسرة مشروحة[1] .

ولم نعثر على اشارة ما تفيد بأن أمير توات عمر بن محمد الذي وجهت الرسالة باسمه قد أجاب المنصور على تلك الرسالة ، ولكننا نعتقد بأن عزم السلطان على غزوه في أرضه جاء نتيجة لتمنعه أو استخفافه بالكتاب أو عدم جوابه عليه بالمرة .

وحينما تمّ للحملة تمهيد تيكورارين و تيدكلت ، طير قائداها رسالة المنصور الانذارية للأمير عمر ، وهي ذات رسالته التي سبق أن وجهت إلى امير تيكورارين ، فالذي تغير هو اسم المرسل اليه فقط[2] ، وقد جمع رئيس توات الأمير عمر بن محمد بن عبد الرحمان أشياخ البلد وأهل الرأي فيه ، وتداول معهم ، فاتفق الجميع على الدخول في طاعة المخزن إذ علم الرئيس ألا طاقة له بمقاومة الحصار ودفاع العساكر ، فكان استنزال عمر رئيس البلد وزعيمها مفتاحاً لانقياد سائرها[3] ، وكان للضربة الصاعقة ضد تيمومن صدى غريب في توات وغيرها ، وقد انتهت عملية تمهيد الصحراء الوسطى والشرقية دون اراقة دماء أو تجشم مصاعب بعدما وقع لأكبر امارة في المنطقة .

فتح السنغال :

جاءت حملة السنغال عام ١٥٨٤ لتتوج تحرك الجيش المغربي نحو الجنوب ، ويمكننا أن نحدد الأهداف التي وضعت لها أو التي نتجت عنها في النقاط الثلاث الآتية :

---

(١) يوجد النص الكامل لهذه الرسالة في الرسائل السعدية من ص ١٠٥ إلى ١٠٨

(٢) الوثيقة المخطوطة التي عثر عليها الأستاذ عبد الله كنون ونشرها في (رسائل سعدية) موجهة إلى أهل توات وتيكورارين واشياخهما .. الخ ، وقد ترك مكان ابيض لوضع اسم أحد رئيسي البلدين فالرسالتان نص واحد متطابق .

(٣) الفشتالي ـ المناهل ص ٧٤

أ) مداهمة المراكز البرتغالية على الساحل الأطلسي ، أو على الأقل حصرها في صياصيها وقلاعها عند الساحل ومنع اتصالها بالأرض الإفريقية وسكانها .

ب) جمع الزكاة من النعم والذهب ، ووضعها في مراكز السلطة القريبة لاستخدامها في حرب السونغاي[1] ، أو إيداعها خزانة الدولة بمراكش .

جـ) تجريب الطريق المحاذية للساحل المارة عبر بلاد الساقية الحمراء ، وإمارتي أدرار والتاكانت[2] .

وقد لاحظنا تشابهاً كبيراً بين الحملة الصحراوية وهذه الحملة السنغالية من وجهة الإعداد لها وتأطيرهما ، والفروق التي لاحظناها متعلقة أولاً بمكان الانطلاق ، فبينما ذهب جيشان من مراكش وفاس بالنسبة للأولى نجد الجيشين المتجهين نحو السنغال ينطلقان معاً من سوس ، وإن كان أحدهما جيش فاسي بقيادة محمد بن سالم رئيس الشرطة الخليفية بفاس والثاني مراكشي بقيادة عبد المولى بن عيسى أحد قواد جيش مراكش .

أما الفرق الثاني فهو أن الحملة الثانية لم تقم باستخدام أسلحتها حيث لم يرد أي ذكر في مصادرنا لمعركة ما أو حصار أو ما شاكل .

والفرق الثالث هو نوعية سكان هذه الجهات فأغلبيتهم الساحقة كانت من الأقوام السود .

وهكذا فقد خرجت الحملتان إحداهما تلو الأخرى ، وكان القائد عبد المولى يتقدم بجيشه الصغير المشتمل على العرب من تكنة والعروسيين وشرفاء أولاد أبي السباع وفرقة صغيرة من العبيد ، ويتبعه الجيش النظامي بقيادة محمد بن سالم

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨

(٢) كانت هذه الإمارة لا تزال تدين بالولاء للمرابطين فيها اغتيل الأمير المرابطي أبو بكر بن عمر على يد قاتل من قبيلته الموشى الوطنية وقبره هناك معروف .

المكون من الأندلسيين والشراقة في الغالب ، وخاض الجيشان القفر مع الساحل في أواخر ٩٩٢ (١٥٨٤) ووصلا إلى بلاد السنغال بعد أن اجتازا الصحراء الغربية في تسعين مرحلة[1]، ويعدد المصدر الأمراء السنغاليين الذين دخلوا في الطاعة ، وأدوا ما عليهم من الزكاة ، وأصبحوا درعاً للمغرب في تلك الجهات كما يلي :

- ألوف علي : كبير مشايخ المنطقة وكان طاعناً في السن .
- الملك إبراهيم بن رضوان
- الملك يامر الفولاني
- الملك موسى جوب (أو دجوب)
- الملك غولي أخويا
- الملك بن فال[2] .

وقد وجدنا في أكثر من مصدر أوصافاً للحفلات التي كانت تقام تحت فساطيط قائد الحملة محمد بن سالم ، فتقرأ كتب أمان الخليفة ، وتعدد مناقبه ، فيرفع الحاضرون أياديهم بالدعاء ويجهرون بالبيعة والطاعة ، كما ان بعض المصادر أوردت إحصاء لمن دخلوا في طاعة السلطان من العرب فقط وكان العدد أربعين ألف خيمة[3] .

وبعد الانتهاء من تمهيد الصحراء الساحلية وحمل الطاعة لما وراءها حتى نهر غامبيا فيما نظن ، انصرفت همة المخزن لتنصيب الجهاز الإداري في هذه الجهات كلها ، ويبدو أنه أقر ملوك السواحل وأمراء العرب على سلطاتهم التقليدية ، ولكن كان على أولئك الملوك والأمراء أن يرجعوا إلى الخليفة السلطاني في درعة في القضايا الكبرى ذات التأثير على الوضعية السياسية للدولة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣

(٢) المصدر السابق ص ٧٩ يذكر أن أولئك المذكورين هم جملة ملوك سواحل السودان

(٣) المصدر السابق .

خليفة السلطان بدرعة والجنوب :

شكل المنصور من المناطق الشاسعة الممتدة من تخوم فزان إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن سلسلة الأطلس الصحراوي حتى وادي السنغال أو غامبيا وحدة تكاد تكون متماسكة في السلطة والإدارة[1] ، وجعل على رأسها ابنه أبا الحسن بموجب ظهير منصوري حدد مهماته ، ومجال سلطته ، والجيش الموضوع تحت امرته لإقرار النظام والقيام بواجب الجهاد ، وبسط أردية العدل والطمأنينة[2] .

فالأمير أبو الحسن تولى بحسب ذلك الظهير الخلافة السلطانية على بلاد السوس الأقصى وجميع أفقها ، والسوس الأقصى هو الجهات الواقعة جنوب وادي درعة ، وأصبح النظر يعود إليه في أمور الرعية أمراء ومأمورين[3] ، وغدا من أولى مهماته أن ينهض بواجب الجهاد ، والجهاد لا يصح إلا ضد الكفار الذين كانت لهم مستعمرات في السواحل الإفريقية قريباً من مصب نهر السنغال شمالاً وجنوباً .

تجهيز الطريق الغربي بالمحطات واللوازم :

ولقد فكر أحمد المنصوري بأمر إعداد هذا الطريق الرابط بين سوس وتندوف ، والذي اجتاز جؤذر أجزاء منه بحملته السودانية وذلك في وقت مبكر

---

(١) كان هناك عاملان على سجلماسة وتافيلالت ولكننا لا نعلم المدى الذي وصل إليه نفوذهما ولا مدى التبعية التي كانت تربطهما بالحكومة المركزية في مراكش أو بالخليفة في درعة .

(٢) رسائل سعدية ـ كنون ٢١٧ ـ ٢١٩ ، « . . . أمر به أبو العباس أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين . . . لولده الأحظى المكين العزيز الأنجد اليقظ . . الأمير أبي الحسن . . فرأينا . . . أن نرقيه إلى حيث تشرق أنواره . . . فقلدناه حضرة السوس الأقصى وجميع أفقها . . وفرضنا له فيها التفويض المطلق في القول والعمل ، وأسندنا إلى نظره أمور خاصتهم وجمهورهم وأميرهم ومأمورهم وألزمناه لحياطة تلك البلاد والاستعداد لتلبية داعي الجهاد ألفي حصان . . . فمن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعدى ما أحده وأمضاه . . . . » .

(٣) لا نجد تعبيراً مشابهاً في ظهائر التعيين الأخرى ، مما يعتبر إشارة إلى إمارات وممالك الصحراء والسنغال .

يعود إلى عام ١٥٨٠ ، ويخبرنا محمد المختار السوسي[1] أن وثيقة مخطوطة مؤ رخة في يوم الاثنين فاتح ربيع الأول عام ٩٨٨ (١٧ ابريل ١٥٨٠) وصلت إلى يده ، تفيد بأن المنصور فتح تلك البلاد ونظمها تنظيماً تاماً ، وحصر الوظائف المخزنية والتكاليف المختلفة في أولاد شيخ قبيلة هشتوكة سيدي يبورك بن الحسين الذي كانت الوفاة قد أدركته قبل ذلك الحين .

ويذكر المصدران أحمد المنصور جاء بنفسه إلى مدينة اليغ[2] في ذلك الحين « فأسس نطفيات (صهاريج) تنقع غلات أبناء السبيل وجعل جل همه في أمثال ذلك حتى انه أسس اثنتي عشرة نطفية في محلات معلومة بين الفيافي والقفار وكان يسميها (بناته) ، فكان مما أوصى به بنيه (أي أبناء الشيخ سيدي يبورك) أن يحافظوا على بناته هذه بالترميم والتعهد حيناً بعد حين ، وكان أولاده عند هذه الوصية[3] .

وبالإضافة إلى أليغ اهتم المنصور بنقاط أخرى على ذلك الطريق الذي كان يعده بمثابرة كبيرة لمشاريعه السودانية :

ـ ففي تانامار أوكل إلى الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم التانامارتي بعض الإنشاءات « فكان الشيخ معنياً بإصلاح الطرق وتسويتها في الهضاب الصعبة وإقامة الجسور على الأودية وتأسيس النطفيات في المعاطش »[4] .

ـ وفي إقليم أقا عهد إلى القائد أوتشمير بتسيير الحرس على طريق تغازي ،

---

(١) محمد المختار السوسي ـ المعسول ـ المجلد ١ ص ٩٣

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ « قرأت في كتاب يسمى ديوان مولاي أحمد الذهبي جمع في مختتم القرن العاشر ان الذهبي نزل في بلدة أليغ بسوس فاجتمعت عليه القبائل ، وقد بنى المنصور داراً له تسمى إلى اليوم منزل الذهبي في قرية اغرم أكليد » .

(٣) المصدر السابق ص ٩٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٥ .

وكان مقر إقامة هذا القائد هو قرية تيزكي إيدا وبالول ، وتمتد سلطاته إلى النواحي الصحراوية حتى تغازى ، وبقي في قيادته إلى نهاية عهد المنصور وظهور المجاهد بودميعة في ناحية أكادير[1] .

- وفي مدينة (أقا) نفسها استنهض المنصور عندما حل بها هم الناس لأعمال الإنشاء ، وكان يصحبه الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي في رحلاته بالناحية[2] .

- وفي قرية (أكادير أوزورو) بنى الشيخ عبد الله الأعيرج حصناً منيعاً ، واتسع في البناء حوله ، وبنيت في نواحي هذه القرية حصون صغيرة في : اقبابن وآيت بنج ، وايت بولفضيل وآيت عنتر ، وكان أصحاب تلك القلاع من قبيلة آيت جلال « يعتنون باستنباط آبار يجعلون عليها حقيلات يحرثون عليها البقول واستنبطوا عينين في أعالي أقبابن تصل مياههما إلى أسفل القرية »[3] .

والخلاصة ان عناية أحمد المنصور بهذا الطريق الحيوي الذي كان عليه أن يستخدمه في تسيير حملاته إلى السودان قد أدت إلى عمرانه وازدهاره وإحاطته ببعض القوة على المستوى الإداري والعسكري .

٢.) جمع المعلومات عن السودان :

مما لا ريب فيه أن استخبارات البلاط والجيش السعديين كانت منظمة تنظيماً يقرب من الأحكام ، سواء فيما يخص جمع المعلومات أو تركيزها وتصنيفها أو ما ينوب الاستفادة منها على نحو ما ، وحسبما توافرت بين أيدينا من الوثائق عن الأعمال المثيرة لذلك الجهاز وما حققه من خدمات لمخططي سياسة المخزن ،

---

(١) محمد المختار السوسي - خلال جزولة / المطبعة المهدية - تطوان ١٣٦٢ ص ٨٣

(٢) عند وفاة الشيخ محمد بن مبارك بنى على قبره ضريح وقبة ويزوره الناس بالفتوحات وله سادن / محمد المختار السوسي - المعسول / الجزء ١٨ ص ١٧٣ .

(٣) محمد المختار السوسي - خلال جزولة ج ٣ ص ٨٣

وللسلطان بالذات ، وهو الذي كان يوجه أعماله بدقة ودهاء ، فان نشاطه كان على ثلاثة أشكال :

الأول : البحث عن المعلومات التي كتبت في السابق بأقلام الجغرافيين والرحالة ، والملاحظات التي حكاها أو يحفظها التجار والعلماء والسفراء والموظفون والطلبة ، ويعني هذا الجانب من البحث بالأحوال المناخية والطبوغرافية ، والطرق ، والمياه والتجمعات البشرية ، والأنسجة القبلية والإمكانيات الاقتصادية والمالية .

والثاني : الحياة في القصور والبلاطات ، ومراكز الشخصيات ذات النفوذ الاجتماعي والسياسي ، ورجال الجيش ، والقضاة والأعيان ، وحياة عامة الناس وطبقاتهم ، وأحوال الجيوش والحاميات والسلاح ، والتدريب وطرق الحرب ، والأجور والعلاقات بين مختلف التنظيمات السياسية والاجتماعية .

والثالث : تصنيف المعلومات ، ووضعها رهن إشارة الأجهزة المتخصصة للاستفادة منها وتسخيرها في رسم الخطط الواجب اتباعها .

وكان الجهاز العامل يتوفر على الوسائل الضرورية لنشاطه من كتب وخرائط وأجهزة وكان يستفيد من خدمات مجموعة من الفنيين « من كل أرض حتى من بلاد الفرنجة »[1]، واستعملت المقاييس في تحديد أبعاد الخرائط ، والابرة الموجهة[2] والأوراق المنفصلة لتثبيت المعلومات وتسهيل العودة إليها .

كما كان هناك جهاز للترجمة يشرف عليه أندلسيون عارفون ببعض الألسن[3] ويضم علماء أجانب ومؤرخين وجغرافيين من أمثال اتيان هوبير(Etienne

(١) الفشتالي ـ المناهل ص ٢٥٤
(٢) دوكاستري S.I.H.M بريطانيا ج ٢ ص ٥٣٢
(٣) أحمد المقري روضة الأس ص ١٢٧ الرباط / المطبعة الملكية ١٩٦٤

Hubert) الفرنسي الذي ترجم عدة كتب للمنصور واستعان به البلاط قبل أن يعود عام ١٥٩٨ إلى باريس لأخذ كرسيه التعليمي في كلية الطب والراهب الايرلندي أنطوان دوسانت ماري[١] الذي نقل كتباً ورسائل من اللاتينية إلى الاسبانية التي كانت لغة البلاط المغربي أيضاً[٢].

وهكذا فبالإضافة إلى ما كتبه المؤ رخون والرحالة عن السودان ـ وهو الذي يهم ـ من أمثال عبد الرحمان بن عبد الحكم[٣] وأحمد اليعقوبي[٤] وأبي الحسن المسعودي[٥] وابن حوقل[٦] وعبد الله البكري[٧] والإدريسي[٨] وابن فضل الله العمري[٩] وابن بطوطة[١٠]، فإن جهاز المخزن الاستخباري استفاد من كل الكتب والوثائق الأجنبية التي حصل عليها وفي مقدمتها كتاب (وصف افريقيا) لحسن الوزان الفاسي[١١].

ولم تكن رحلة الوزان إلى افريقيا السوداء التي تمت عام ١٥١١ ، قد مر

---

(١) Deverdum Marrakech Tel. p43366

(٢) المصدر السابق .

(٣) فتوح مصر والمغرب ، القرن التاسع

(٤) التاريخ ، كتاب البلدان ـ القرن التاسع أيضاً

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر

(٦) المسالك والممالك ـ صورة الأرض ق ١٠

(٧) المسالك والممالك ـ ق ١١

(٨) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ق ١٢

(٩) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ق ١٤

(١٠) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ق ١٥ وكان مؤ رخاً لدولة المماليك وأميناً لسر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ونقل أخبار مالي عن مغربي اسمه أبي سعيد عثمان الدكالي الذي أمضى خمساً وثلاثين سنة في السودان .

(١١) يبدو ان حسن الوزان لم يترك في المغرب أي أثر من كتاباته عن افريقيا ، وإن كنا لا نستبعد أن مراسلات والده الذي كان سفيراً للوطاسيين في تنبوكتو وصحب معه ابنه في رحلته قد بقيت في محفوظات القصر الملكي بفاس ، وقد حاولنا العثور عليها بمحفوظات القصر ولم يقدنا البحث إلى أية نتيجة .

عليها وقت طويل عندما اعتلى أحمد المنصور الذهبي عرش المغرب ، فاحتفظت بقيمتها الكاملة والهامة ، مما جعلها ولا شك أول ركيزة في استقصاء أخبار ممالك السودان وكل ما يتعلق بالأرض ، والطرق والمناخ ، والحياة البشرية إلى غير ذلك .

وقد لاحظ بارت Barth عندما زار كانم وتنبوكتو في القرن التاسع عشر ، بعد أفق الحسن الوزان ، ودقة تسجيلاته وصحة معلوماته[1] .

وبقدر ما استفاد الجهاز من معلومات حسن الوزان ، فانه ولا شك استعان بالخرائط الثماني الملحقة بكتاب وصف افريقيا .

ولقد كانت التغييرات التي حدثت بعد سقوط مالي ، وبعد حكم الملك سنى علي ، وخاصة بعد موت الأسكيا الحاج محمد تفترض متابعة الأحوال والتقلبات الداخلية ، ومنذ عام ١٥٨٢ بدأ أشخاص مدربون على استقصاء الأمور في الوصول الى مدن السودان ، وكانوا اما أعضاء في سفارات أو تجارا وطلابا ، وقد اتسع نطاق هذه المهمات بحيث « بث المنصور اصحاب الأخبار في البلاد دانيها وقاصيها من داره في أقصى المغرب الى قاصية السودان ، فله من رجاله المصطنعين على كل مرقبة رصدة ، وعلى كل ثنية نقباء ، وفي كل خلوة أو جلوة عين . . موكلين بنقل ما يحدث من خبر أو قصة أو يدور على الألسنة . . . ولا يكاد يخلو له

---

(١) نشر كتاب وصف افريقيا للحسن الوزان في ايطاليا عام ١٥٥٠ ، وقام بتحقيقه ونشره المؤرخ الايطالي راموسيو RAMUSIO الذي لم يستبعد أن صاحبه قد كتبه باللغة العربية ، وأعيد طبع الكتاب عام ١٥٥٤ ثم ترجم بعد سنتين الى الفرنسية على يد JEAN TENRPORAL والى اللاتينية في نفس السنة اي ١٥٥٦ على JEANS FLORIANUS ونميل الى الاعتقاد بأن الترجمة اللاتينية هي التي قام الراهب انطوان دوسانت ماي بنقلها الى الاسبانية في مراكش .
واهمية كتاب وصف افريقيا تكمن في المعلومات المناخية القيمة عن افريقيا السوداء والدراسات الاقتصادية والبشرية التي تضمنها الجزء الأل (ص ١٧٥ وما بعدها) ، واخبار ممالك غرب افريقيا الخمس عشرة في الجزء السابع (دييني : خيراتها وطرق النقل والعملة والذهب ص ٨٢٢ - وتنبوكتو : الاقتصاد والبناء والقضاء ورجال الدين والذهب ص ٨٢٤ - وغاو : مصادر الثروة - التجارة - سوق العبيد - والقصر ص ٨٢٦ - ومملكة جوبير وامكانياتها ص ٨٢٨ - ومملكة كانو خصبها وغناها بالذهب ص ٨٣٤ .

يوم من ورود وارد بخبر على بر أو بحر . . . » « وكان حريصا على معرفة أبناء الملوك من أضداده وأوليائه »[1] ولذلك فجواسيسه لا يتركون أي جانب « لا يحيطون به فهما ويقتلوه علما ثم يعودون فيقصوا ما شاهدوه على أمير المؤمنين »[2] ، ولا نستبعد انهم كانوا يخضعون لجملة من الأسئلة والاستيضاحات من الموظفين في الجهاز الاستخباري وقيادة الجيش .

-ولم يدخر احمد المنصور أي جهد في استمالة أعظم الشخصيات واستخدامها في جمع المعلومات ، لقاء هدايا وأموال وكان فيهم قاضي تنبوكتو العاقب آقيت وعمر الذي تولى القضاء بعده ، وقاضي حلب مصطفى الجنابي ومحمد بن العقاد من علماء مكة وامام الدين الخليل من القدس والشريف سيدي محمد من المدينة واحمد المقري من تلمسان[3] .

وأدى الحال الى التمكن من استخدام بعض الموظفين في القصر الملكي بغاو وفي جيش الأسكيا ، وفي ادارات المحلية السودانية وكان المسؤول الرئيسي عن ادارة هذه الشبكة موظفا عند الأسكيا اسمه منصور بن الفيلالي وهو الذي قدم النصيحة بسجن الأمير الزنجي الثائر ثم دبر أمر نقله الى المغرب كما سنرى .

ولم تكن ادارة الأسكيا بالغافلة كليا عن هذا النشاط السري ، وقد أبلغ عامل تغازى عن شبكة تجسس مغربية في بلدته ، فاحتال الأسكيا حتى وضع يده عليها وزج أفرادها الأربعة في السجن[4] .

على إن أهم ما استفاد منه جهاز استخبار المخزن هو ما قدمه الأمير على الملتجىء الى المغرب في طلب العون العسكري لاستعادة ملكه ، وحسب رسالة

---

(١) الفشتالي ـ المناهل ص ٢٠٧

(٢) نفس المصدر ص ١٢٣

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٦

(٤) السعدي / تاريخ السودان ص ١٣٩ « كان احمد التويرق عامل سنغاي على تغازى اتهم حمو بن عبد الحق الدرعي بالتجسس فاعتقله واعتقل معه رافع ، واحمد نين بيرو والحروشي ، وكان حمو بن عبد الحق يتردد بالتجارة بين تغازى وغاو » .

متعلقة به ، فاننا نكاد نجزم بأن المدة التي أمضاها في المغرب قبل أن يركب الى بلاده مع جؤذر باشا كانت مشحونة بجلسات الاستنطاق[1] .

٣) توثيق الروابط مع أمراء وملوك وعلماء ووجهاء السودان :

كانت مدينة تنبوكتو ، وبشكل أقل غاو ودييني تضم جالية مغربية كبيرة وبرابرة من صنهاجة ومسوفة ولمطة ، وقد اتضحت لنا مكانتهم العالية في الدولة وقوة نفوذهم ، وتأثيرهم الاجتماعي .

وعلى الطريق الصحراوي الطويل بين سوس ووادي النيجر كانت بعض العائلات المغربية التي نقلت الى هذه الجهات وتمكنت من شراء مجموعات من العبيد ، تستقر أو تنتقل بين نقاط المياه والمحطات التجارية .

وكانت الممالك السودانية الصغيرة المتطلعة الى الخلاص من سطوة السونغاي ومن جامعي ضرائبه تنتصب في شرق البلاد السونغائية وغربها .

نحو هذه المجموعات الثلاث اتجهت مساعي المنصور ونشاط جهازه وتمثلت الوسائل التي استعملتها في رسائل الاستمالة والهدايا وكل ذلك قبل سنوات من حملته الرئيسية ، وكانت تلك الرسائل مكتوبة أو شفوية وتبعث بطرق متعددة ويوصلها الى غاياتها رجال ثقاة في اطار من الكتمان والسرية .

وقد حصرنا الجهات التي توجهت اليها تلك الصلات والروابط ونشطت فيها في سنة :

- رسائل عامة متشابهة كانت توزع على نطاق واسع
- قاضي تنبوكتو
- العائلات المغربية الأصل المقيمة في المدن

(١) رسائل سعدية ص ١٣٥ .

- علماء الجهات البعيدة
- العائلات والخيام الكبرى على الطريق الرئيسي
- بعض ملوك الحاووصا .

المناشير المعممة على الوجهاء والجند والعامة :

لم أعثر الا على منشور واحد يحث فيه المنصور من انتهى إليهم ووصل الى جهتهم على الدخول في ربقة الجماعة والتزام الطاعة ، ولعل كتبا من هذا الطراز وصلت الى السودان ، والملاحظة التي يمكن ابداؤها في شأن هذه المناشير هي قصرها وعموميتها ، ولهذا النوع من الانشاء الترغيبي وقعه في النفس ، وتأثيره البالغ على المعنويات ، فهو لا يتضمن هدفا سياسيا محددا ، ولا يدعو الى شيء بعينه ، ثم ان هذه المناشير كانت توزع على نطاق كبير .

وهذا نص ما عثرت عليه منها :

« بعد حمد الله الذي أناط بعرى المحبة الدينية السعادة الفاخرة ، ووعد بمذخور ثوابها ليوم الآخرة والصلاة والسلام على من أطلع برسالته الغراء صباح النجاح ، وجب سنام الكفر ، وقد نشر من خلاله اكثف جناح ، سيدنا ومولانا محمد سر الوجود والصلاح ، الله تعالى يرشدكم لما فيه رضاه ويوفقكم بمنه لتقواه والسلام »[1] .

قاضي تنبوكتو :

كان قاضي تنبوكتو المرجع الروحي الأول في دولة السونغاي ، وكان تأثيره في البلاط ، وفي أوساط العلماء والعامة ، وفي الجالية البيضاء كبيرا وخطيرا ، ولهذا

---

(١) رسائل سعدية ص ١١٣
(٢) الفشتالي / المناهل - ص ١٣٢ ونص الرسالة في الصفحات ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤

حرص المنصور على التوجه اليه ، والأخذ بنصائحه تهيئة له ولاتباعه والمتأثرين به لليوم الموعود .

وقد وجه احمد المنصور أول رسالة الى قاضي تنبوكتو أبي حفص عمر بن محمود بن عمر عام ١٥٩٨ أي قبل غزو السودان بقليل ، وتضمنت الرسالة التي ذكرها الفشتالي ثلاث نقاط أساسية هي : الدخول في طاعة السعديين ، وتولى اشاعة دعوتهم في أقطار السودان كلها لأنه أولى بمعرفة قدر الخلافة وشرف آثارها وأحقيتها بقيادة المسلمين في كل جهة واخبار القاضي بقرب تحرك حملة عسكرية الى السودان .

ويتبين من آخر فقرة في تلك الرسالة أن المنصور كان يجيب على كتاب تلقاه من القاضي قبل ذلك ، وإن هذا قدم له جملة من النصائح على ما يجب أن يتحلى به جيش السعديين عندما يحل بالسودان ، وطلب منه أيضا أن يشتمل ذلك الجيش على عناصر وفئات حددها القاضي في رسالته التي لم تصل الينا ، اذا استعمل المنصور (من) بدلا عن (ما) في جوابه وذلك واضح المعنى بين المقصد[1] .

ونظرا لأهمية الرسالة الطويلة ، فيجدر بنا أن نورد نصها دون الديباجة لأن من شأن ذلك أن يبين الأهمية التي كان ينظر بها المنصور الى القاضي والى الدور الحيوي الذي كان عليه أن يقوم به لانجاح مهمة الحملة السودانية :

« أما بعد حمد الله الذي جعل حركة احمد كلما انتصب حركة فتح وامره اذا جزم امر اقبال وعلمه بالغلبة على سائر الاعلام معرفا عند العرب والعجم فلذلك تتلى عند رفعه سورة الفتح قبل القتال والصلاة والسلام على نبيه الذي أرسله بالحق بشيرا ونذيرا الى الأبيض والأسود والأحمر والأيمة الذين ان مكنوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وعن اصحابه الفائزين

---

(١) المكان السابق « ان كل من امنتموه من عساكرنا. . . فقد أمناه ، اظهارا لمزيتكم واشعارا بقدركم لدينا .

بسعادة المورد والصدر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يقول الانسان يومئذ اين المفر كلا لا وزر ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الامامي الأحمدي المنصوري الحسني الفاطمي بنصر لا تزال عزائمه مرهوبة وغنائمه مجلوبة ومجنوبة ، فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية دار الاسلام ومقر كرسي الامام مراكش حاطها الله وبركة هذه الدعوة النبوية الشريفة التي عمت الربى والوهاد وطبقت أنوارها الساطعة الأغوار والانجاد تنسكب كالمطر وتنسحب على البشر وتقضي بعادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدر بحول الله وقوته والذي نوصيكم به تقوى الله العظيم والعمل بطاعته وان توقنوا ان هذا الأمر العزيز منصور اللواء مديد بجنود الأرض والسماء موعود ان شاء الله بالظهور والاستيلاء وانه المصيب المنصور المفتوح له لا يناوئه مناوىء أو يعانده معاند الا قصمه الله وخذله فهذا امر الله الذي وعد بالظهور ظهيره ولم يخف الخذلان نصيره فلا يغلب حزبه ولا يستطاع حربه ومن يتوكل على الله فهو حسبه والدعوة التي قضى لمن اعتصم بحبلها ولجأ الى ظل ظليلها بالأثرة الدائمة والسعادة الأبدية ولمن تنكب عن حزبه وانتصب لحربها الا سنة السمهرية والقواضب المشرقية بحول الله وقوته وعزته وقدرته هذا وانه وفقكم الله وسدد واعانكم على اتباع كلمة الحق وأنجدكم فمما لا يخفى على كل مؤمن ومسلم موقن ان هذا الأمر الذي نيطت بجيدنا الكريم قلادته وكان لأولنا ابداؤه ولاخرنا اعادته وهو أمر بغير عروتنا الوثقى لا يناط وعقد بغير سلكنا المنتظم لا يتم له اتساق وارتباط اذ نحن باعبائه دون غيرنا مضطلعون والناس لنا فيه تبع المتبعون وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال الائمة من قريش وقال عليه السلام ولا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان وقال عليه السلام ان هذا الأمر في قريش لا يعاديهم احد الا كبه الله على وجهه وقال عليه السلام الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم وبهذه الآثار الشريفة وضروبها ظهر على الحق حتى درج سلفنا وعليه حتى تقوم الساعة بحول الله يمضي خلفنا ونحن مذ ولانا الله هذه الامانة العظمى التي قلدنا بها امامة الجماعة واوجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة وصرف لايالتنا الشريفة بها وراثة الأرض ومن عليها حتى تقوم

الساعة لم نغمد سيف الحق ولا أرحنا يوما في مرابطها جيادنا المبارية للبرق وعساكرنا الهاشمية التي اذا أرعدت نيرانها ذكرت برجة السعق (الترهيب) ، نفتح البلاد المقفلة أرضا أرضا ونقيم من أعمال الجهاد ومصالح البلاد نفلا وفرضا وحتى انفتح في الجنوب الى من يليكم وأقيمت دعوتنا الكريمة في الأقطار التي تصافيكم وتدانيكم (اشارة الى فتح السنغال وتيكورارين وتوات) ، وعلمنا أن التكول لا يسع مع القدرة وان الله لا يقبل منا في اهمال ما استرعانا من امور العباد والبلاد سوى معذرة فتعين حينئذ استصحاب العمل وتخطي المرعى من البلاد الى العمل حتى ينجز الله وعده الكريم في استيلاء على الأقرب والأبعد وملاك الأحمر والأسود ونأتي بفتح الارضين ان شاء الله على الوجه الأكمل ولما كنتم بتلك المملكة معيد بابها ومدبر احكامها الشرعية (اهمية القاضي ونفوذه) ومدير اسبابها وانكم بالآثار الشريفة التي سردنا والاحاديث النبوية التي أوردنا وبحقوق هذه الأمامة النبوية التي تجب طاعتها قطعا وتحرم مخالفتها شرعا أعرف من سواكم وأعلم بالتي هي أحسن لكم في دينكم ودنياكم خاطبناكم بهذه الرسالة الشريفة (حدد ما يجب على القاضي عمله) لتكونوا أول من لبى داعيها وأجاب مناديها ولترفعوا بها عقيرتكم في تلكم الأقطار وتوضحوا للناس هذه الحجج الساطعة الأنوار حتى يعلموا منها ما واجب الله عليهم من طاعة هذه الامامة النبوية الشريفة التي لا يقبل الله الا بطاعتها الأعمال ولا يتم لمسلم نفل ولا فرض الا بداء ما افترض الله على الخلق من الانقياد الذي تكمل به الفرائض وتتم الانفال وتشعروهم ان من كان بهذه المراشد مقتديا ولنداء هذه الدعوة الشريفة ملبيا ولأوامرها العلية المطاعة مقتفيا وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله على الخلق الاستمساك بشريف طاعته والائتمام بواجب امامته فازاحت قداحه وتضاعفت من أقسام السعادة متاجره وارباحه فان ذلك عند ذوي الايمان أوثق العري والذخر النافع الذي يجده كل موفق سعيد يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ محضرا ولتقف ان شاء الله لندب الناس الى اداء ما افترض الله عليهم من طاعتنا على قدم وتعقد مالكم في ذلك عند الله وعند خليفته الامام عن عظيم الأجر وجزيل المغنم وتستشعروا ما قال عليه السلام لأن يهدي الله

بك رجلا خير من أن يكون لك بها حمر النعم واعتقدوا مع ذلك أن كل من امنتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلك الأقطار السودانية ان شاء الله طلوع الفجر وكتائبنا المتلاطمة تلاطم أمواج البحر فقد أمناه ومن أجرتموه فقد أجرناه (تلبيته لمطاليب القاضي السابقة) اظهارا لمزيتكم واشعارا بمكانتكم لدينا ورفعة وايذانا بجليل منصبكم عندنا وسمو رتبتكم والله تعالى يصل توفيقكم ويجعل الخير رفيقكم وحزب الهدى قرينكم والسلام ، وكتب في شوال عام ثمانية وتسعين وتسعمائة (غشت ١٥٩٠) .

العائلات المغربية بالسودان

ترد اشارات عديدة يطول تتبعها عن الصلات التي ربطها المخزن عن طريق موظفيه ، أو عن طريق القاضي مع شخصيات عديدة في السودان ، وقد يكون وجود عائلات علمية ووجيهة لها ارتباط بالمغرب بشكل أو بآخر كافيا للتأكد من وجود مثل تلك الصلات ، وسنعمل على اعطاء أمثلة مختصرة تغنينا عن تتبع مثل هذا الموضوع الواسع :

- عائلة تعلى وعلى رأسها امام المسجد الكبير محمد بن الصديق[١]
- عائلة الخضر وكان جدها الأول الذي قدم من فاس كاتبا خاصا لسنى علي[٢]
- العائلة التواتية[٣]
- عائلة القصرى[٤]
- عائلة الياندييوغى[٥]
- عائلة الفيلالي في تنبوكتو ودييني وغاو[٦]

---

(١) السعدي ـ تاريخ السودان ص ٢١٨
(٢) المصدر السابق ص ٦٨
(٣) نفس المصدر ص ٥٩ ـ ٦٠
(٤) احمد بابا/ نيل الابتهاج ص ١٧٦
(٥) السعدي ـ تاريخ السودان ص ٢٨
(٦) المصدر السابق ص ٣٠٨

ـ عائلة الهواري في ديينى[1]
ـ عائلة الدليمي أصلها من وادي الذهب انتقلت اليه من ناحية مراكش[2]
ـ عائلة الكابرى ، جدها محمد اتى من المغرب للدراسة بتنبوكتو وتولى القضاء[3]
ـ العائلة العلوية الشريفة [4] اتى عميدها من تافيلالت فجعله التوارك اماما عليهم وبنوا له مسجدا وكانت عائلته عائلة علم [5] .
ـ عائلة الزغراني لم تعرف هذه القبيلة بالصلاح ولا بحسن الاسلام [6]
ـ عائلة البلبالي من الصحراء الوسطى ، وكانت مستقرة في تنبوكتو وكانوا ومملكة كاشينا درس جدها في مراكش وفاس [7]
ـ العائلة الفيلالية في تغازي [8]

توطين بعض القبائل على الطريق الغربي :

من المعروف في بعض الحقب من تاريخ المغرب أن الملوك يعمدون لاسباب سياسية أو عسكرية او انسانية أو اقتصادية الى نقل قبائل بكاملها من جهة الى أخرى ، وكان ذلك يحدث عن طريق الترغيب أو القسر ، ونبادر هنا الى التفريق بين مثل هذا التنقل المقصود وبين الهجرات التي قامت بها القبائل نحو الجنوب لدوافع اشرنا اليها في مطلع هذه الدراسة .

وبينما وجدنا بوضوح أن بعض الشرفاء السعديين[9] انتقلوا في الصحراء

---

(١) المصدر السابق
(٢) المصدر السابق ص ٣١
(٣) المصدر السابق ص ٣٩
(٤) كانت تستقر في تافيلالت وتمكنت بعد حين من تأسيس دولة بالمغرب هي الأسرة الحاكمة
(٥) المصدر السابق ص ٥٠
(٦) المصدر السابق ص ٥١
(٧) المصدر السابق ص ٣٩
(٨) المصدر السابق ص ١٠٦
(٩) لا زالت أسر كبيرة تنسب الى هؤلاء الاشراف تتوطن المغرب من أقصاه الى أقصاه الى يومنا هذا

الكبرى بين سوس والسودان[1] ، فان بعض العائلات الزنجية التي كانت تقطن الصحراء والبوادي غرب نهر النيجر على طريق تاندیرما طلبت من شريف كان يقطن بمراكش اسمه علي بن مولاي احمد بن عبد الرحمان ، ان يتدخل لدى الأسكيا الحاج ليأمر باسقاط الغرامات التي فرضها عامله في كورما عليها ، وقد كتب الشريف علي وهو أمير سعدي رسالة الى القاضي العاقب[2] يطلب منه أن يتحدث مع الأسكيا الذي كان في طريقه الى تنبوكتو في تلك الشكوى ، ويذكر الشريف في رسالته أسماء تلك العائلات المملوكة له شخصيا وهي - تشم واولاده واحفاده - وميمي كو وأولاده وأحفاده ، ويتساءل هل في مقدور الاسكيا أن يظلمه ويفرض الغرامات على عبيده .

وينهي صاحب الفتاش روايته بأن الأسكيا حلف للقاضي العاقب بأنه لا يعرف بتلك النازلة ووجه رسولا من قبله الى كارمينا فاري وقواد جيشه « بأن يسلموا أمرهم للشريف بسب النبيﷺ »[3] وكان شريف سعدي آخر يجعله صاحب الفتاش شقيقا لأحمد المنصور يقطن بالقرب من غاو له نحو ١٥٠٠ من العبيد وقد نقله جؤذر الى تنبوكتو بعد هزيمة الأسكيا[4] .

والمصادر وان كانت لا تسعفنا بمعلومات عن الدور الذي قامت به مثل هذه الشخصيات ، ولا عن الكيفية التي أتت بها الى تلك المناطق الحساسة ، فان أي تصور يمكن أن يكون هو الحقيقة ، سيما مع معرفتنا بتدبير المنصور ودهائه في مثل هذه الأمور .

الملوك والرؤساء :

لا تقدم لنا المصادر الا معلومات شحيحة عن صلات احمد المنصور بالممالك

---

(١) السوسي - المعسول ج ٣ ص ٢٩٥

(٢) العاقب بن محمود بن عمر آقيت كان قاضيا على تنبوكتو حتى وفاته سنة ١٥٨٣ ، وقد كان السلاطين يهابونه ويخضعون له / السعدي - تاريخ السودان ص ٤٠

(٣) كعتو - تاريخ الفتاش ص ١٢٣

(٤) المصدر السابق ص ١٤٩

السودانية أو البربرية الصغيرة ، التي كانت تنشد التحرر من حكم السونغاي ، وان كنا نقطع بأن ذلك كان جاريا ، ونظرا لمعرفة المنصور بتلك الجهات وعاداته في تصيد مثل الفرص التي يتيحها وضعها الخاص المناسب .

ومجمل ما وصلنا اليه :

- رسالتان مخزنيتان موجهتان الى أميرزنجي هو محمد بأي بن سورى ، ورسالة أخرى لأمير بلاد اكدس القريبة من السودان .

- واشارة الى مخابرة كانت جارية مع مملكتين من ممالك الحاووصا هما مملكة كاشينا ومملكة اكنوا ، وردت ضمن رسالة مخزنية أرسلت الى السلطان داود كانطة سلطان كابيا[1]

وعلى ضوء ذلك يمكننا تصور الأهمية التي كان يعطيها المخزن لموقف تلك الدويلات من ورود الحملة العسكرية ، وما كان يأمله من عونها لحرب العدو المشترك ، ومن انضوائها تحت الحكم المغربي فيما بعد .

فالرسالتان الأوليان كتبتا في مراكش ، وجاءتا جوابا على رسالتين وجهها الرئيس[2] محمد باى[3] بن سورى الى احمد المنصور ، ففي كلتيهما يقول الكاتب « انهى الى مقامنا العلى كتابكم ويتعهد بتنفيذ كل المطاليب التي تقدم بها الرئيس الزنجي ، وتفيد الرسالتان معا ان محمد بايبى وجه رسائل كثيرة أخرى .

والمهم في الرسالة الثانية أو الجواب الثاني أنه يشكر للرئيس الزنجي محبته للجناب الشريف وخدمته المتواصلة لعماله ، ويذكر بالفضل ما يقوم به الأمير من

---

(١) رسالة المنصور لسلطان كابية داود ـ رسائل سعدية ص ١٢٧ ـ ١٣٢

(٢) كان المنصور يتحاشى اضفاء السلطنة والملك أو التصريح باحداها في رسائله ، وبدلا عن ذلك كان يستعمل مطلقات أخرى كالرئيس ، وصاحب ، وكبير ، ومتولي .

(٣) لعل (باى) اسمان مدغمان احدهما في الآخر ، ويظهر ان اسمه كان هكذا با ، يبى ، فبا اسم شهير في السودان ، وبيى لقب قبلي سوداني .

السعي في التعريف بالمنهاج المنيف للدولة السعدية في أرضه ، واجتهاده بكل ما يرضي المقام العلي .

ولا يترك المنصور الفرصة تمر دون أن يعين أحد السفراء المغاربة ببلاطه ، ولذلك فهو يوصي الأمير « بالمكرم الأثير الكاتب المسعود الوهراني القافل من هذه الأبواب العلية الامامية الى محل امارتكم الأثيرة بالالتفات الى جهته بجميل الرعاية وسدل أردية العز عليه وجلابيب الرحمة والعناية ومعاملته في جميع أحواله بما يتكفل له ان شاء الله بجميل الصنع بدأ ونهاية » .

وحسب هذا النص فان المسعود الوهراني كان ببلاط محمد بايبى قبل تعيينه سفيرا معتمدا ، وان الرئيس هو في الحقيقة أمير على قومه ، وقد ذكر الفشتالي عند تقديمه للرسالتين بأنهما كتبتا لبعض ملوك السودان[1] .

أما الرسالة الموجهة الى رئيس أو أمير أكدس[2] فهي أيضا جواب عن رسالة سبق لذلك الأمير الحاج محمد العدال بن محمد بن العاقب[3] ان بعثها الى احمد المنصور .

ويمتدح السلطان المغربي امارة اكدس لأنها « تمد أسباب الخدمة الواضحة لهذه المثابة العظمى » ويخاطب الأمير داعيا الله « ان يبقى قاعدة قعدة ولائكم راسخة ، وآية جنوحكم واعتصامكم بحبال علائنا لآي التشكيك ناسخة » ويحمد الله « الذي من على سعداء عباده بالانتماء للجناب النبوي » .

---

(١) رسائل سعدية ـ الرسالة الأولى الموجهة الى محمد بايبى بن سورى ص ١١٦ ـ ١١٧ والثانية ص ١٣٩ ـ ١٤٢ .

(٢) اسم الامارة في رسالة المنصور هو أكدر ، والحقيقة أنه أكدس وهي مدائن عمرها صنهاجة قريبا من بلاد السودان . . احمد بابا السوداني ـ نيل الابتهاج ص ٢١٨

(٣) الحاج محمد هو حفيد الامام العاقب الذي مات في أكدس بعد ٩٥٠ (١٥٤٣) ، وكان العاقب حسب ترجمة حياته التي أوردها المصدر السابق حاد الذهن مشتغلا بالعلم في لسانه حدة ، ألف كثيرا من الكتب ، وكان الأسكيا يستشيره في بعض أموره ، أما ابنه محمد فقد تولى الامارة على بلده وخلفه ابنه محمد الثاني (رسائل سعدية ص ٨٢)

وبعد ان يضفي المنصور على نفسه كعادته كل القاب الخلافة ويذكر بما أوجب الله على المؤمنين من حسن طاعته . . يخبر الأمير بوصول رسالته اليه ، وانه مطمئن ومرتاح لما اقامه من براهين على كونه عند ارادة المنصور في السعي المشكور ، ويؤكد له أنه معتمد على انتصاره لهذا الأمر العزيز[1] .

وفي نهاية الرسالة بحث المنصور الأمير على أمرين :

- التشبث بطاعته طاهرا وباطنا

- العمل على جذب رعيته الى كلمة الجماعة وزمام الايمان[2]

ويتبين من ذلك أن احمد المنصور الذهبي كان على صلة وثيقة ومداخلات حثيثة ومثمرة مع أربعة م الأمراء الأفارقة سودانيين وبرابرة ، وانه وانه كان يقدم الى بعضهم هدايا أموالا ، اصطناعا لهم وتأليفا لقلوبهم ، وحشدا لتأييدهم لحملته السودانية ، ويتبين أيضا أن اثنين منهما دخلا فعلا في طاعة المغرب قبل أعوام من حملة جؤذر باشا .

٤) وصول المطالب بعرش السونغاي إلى مراكش

كان من بين من ثاروا على الأسكيا إسحق من اخوته ، علي بن داود الذي يدعوه أكثر المؤرخين ولد كزنفيل مشككين في انتمائه للأسرة المالكة في السونغاي[3]

(١) اشارة جلية الى حملته المقبلة على السودان .

(٢) رسائل سعدية ص ٨٢ - ٨٥ .

(٣) وجدنا خلافاً كبيراً في إثبات أصل هذا الثائر فالسعدي (تاريخ السودان ص ١٣٨) يعتبره من خدام البلاط غضب عليه الأسكيا وسجنه في تغازي ، والفشتالي (المناهل ص ١٢٢) يذكر في مواضع كثيرة بأنه أخد للأسكيا إسحق واسمه علي بن داود ، ورسالة المنصور للاسكيا إسحق (رسائل سعدية ص ١٣٥) تعتبره أخاً للأسكيا أيضاً « ثم إعلم أنّ أخاكم الذي نزل بنا واستجار بحرمنا الكريم النبوي قد وصل إلى حضرتنا المراكشية ، وقد أورد جورج بينال GEORGES PINAL (هيسبيريس عدد ١ و٢ سنة ١٩٥٣) وثيقة من مصدر إسباني مجهول تقول بأن الزنجي الذي التجأ إلى المغرب أخبر السلطان بأنه أخ للأسكيا إسحق واسمه ولد كزنفيل وتضيف الوثيقة بأنه لم يكن ينتسب إلى العائلة المالكة عن طريق الدم ، بل كان خادماً عندها حيث ولد لأمة في القصر ، وكان فاسقاً فسجنه مولاه إسحاق .

ونحن نميل إلى الأخذ بالمصادر المستقلة فنعتبره ولـداً لإحـدى محـظيات الأسـكيا داود[1] والذي نعلم يقيناً أن المنصور الذهبي اجتهد في نقل هذا الثائر الخطير إلى مراكش وكلف أحد مستشاري الأسكيا إسحاق منصور بن الفيلالي المتقدم الذكر ، وكان في ذات الوقت كبير جواسيس المخزن بدولة السونغاي[2] ان يدبر أمر ترحيله إلى مراكش ، ولما كان الأسكيا يكثر من مغادرة غاو إلى جهات مملكته ، فقد خوفه منصور أو هكذا يبدو من إبقاء الأمير رهن سجن العاصمة ، ونصحه بنقلـه إلى سجد بعيد ، واقترح عليه سجن تغازي بالذات[3] وفيما كان الأسير يقتاد إلى سجنه أو منفاه اعترضت قافلته كوكبة من الفرسان ، واستلمه تاجران مغربيان وهرباه إلى المغرب[4] في جمادي الأول ٩٩٧ (مارس ابريل ١٥٨٩) .

ولا نشـك في أن ولـد كزنفيل كان يتميز بخصـائص نوعية نادرة ومميزات معينة ، ولولا ذلك لما علق المنصور آماله عليه وبذل أقصى الجهود لاستقدامه بقصد استخدامه في مآربه .

ولقد كان في إمكان أحمد المنصور أن يختار واحداً أو أكثر من أبناء داود ، لا غبار على نسبهم ، ولكنه فضل ولد كزنفيل عليهم جميعاً ونحن نعلم أن أولئـك الأبناء كانوا كلهم خارجين على أخيهم وثائرين ضده في جميع أنحاء المملكة ، بل وأكثر من ذلك فان اثنين من الأمراء أحدهما ابن للاسكيا داود واسمه ابراهيم قد جاء إلى المغرب وإلى مراكش بالذات وكانت تصحبه أخته وينبعلي[5] والثانـي هو الأمير سعيد بن محمد بنكن ويقول المؤرخون أنه كان على جانب من النجابة والعلم

---

(١) لا يذكر السعدي (تاريخ السودان ص ١٩٦) إلا أبناء الأسكيا داود من نسائه الحرائر وهم ستة لا يوجد بينهم من سمي بعلي

(٢) ع . كريم ـ المغرب في عهد الدولة السعدية ص ١٥٤

(٣) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٢٢

(٤) المصدر السابق ص ١٣٩ والفشتالي مناهل الصفا ص ١٢٢ .

(٥) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٣٦

والدهاء وأن أصحاب المخزن كانوا يلقبون بالأسكيا ويهذب السعدي إلى التأكيد بأنه اعتلى كرسي الأسكيا بالمغرب[1].

وعلى أي حال فإن مواصفات ولد كزنفيل أو الأمير علي بن داود هي التي حازت على قبول المنصور ورضاه .

وهنا يجب أن نطرح على أنفسنا سؤالين ونجيب بالدقة عليهما هما :

أولاً ـ ماذا عرض ولد كزنفيل على المخزن أو ماذا أوعز المخزن لولد كزنفيل أن يتقدم به من مطاليب ؟

ثانياً ـ كيف استخدم المنصور الذهبي هذا الثائر الخطير ؟

لقد زعم ولد كزنفيل أن الاسكيا إسحق اغتصب منه ملكاً انتهى إليه من والده داود ، وأبدى الاستعداد لتسليم أموال طائلة إلى المنصور إذا ساعده في استرجاع ملكه المغتصب ، وبين له أن من أسهل الأمور الإقدام على تجريد جيشه على السودان ، وتعهد بدفع غرامة سنوية إذا فتحت البلاد على يد جيش المغرب[2].

وقد اطلع كزنفيل المنصور على أخبار ملوك السودان وما كانوا عليه من الإنحطاط والأحوال السيئة ، « وأكد له ضعف قوتهم ، وحضه على أخذ الأرض من أيديهم »[3] وذلك عن طريق « إمداده بالعساكر ليجلب بها على أخيه السلطان بكاغو »[4].

وحسب هذه المراجع الثلاثة ، وخاصة بالنسبة لكعتو الذي كان في بلاط الأسكيا إسحق عند ورود رسالة المنصور المتعلقة بالملح والأمير ، وشاهد الرسالة

---

(١) المصدر السابق
(٢) هسبريس العدد ١ و٢ عام ١٩٥٣ (جورج يينال)
(٣) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٣
(٤) الفشتالي ـ المناهل ص ١٢٢

بنفسه أي أنه تتبع الأحداث عن كثب ، وبالنسبة أيضاً للفشتالي الذي حرر تلك الرسالة وكان حاضراً في كل التطورات ، بموجب ذلك فان ولد كزنفيل أو الأمير علي حض المنصور على احتلال السودان ، وإعادته إلى عرشه تحت الحماية المغربية ومقابل مبلغ مالي يدفعه سنوياً ، ولكن أحمد المنصور اعتبر الأمر كله عبارة عن طلب معونة عسكرية لإعادة الشرعية إلى سونغاي وهذه ورقة سياسية لا شك أنه لعبها .

وبموجب تقييمنا لشخصية ولد كزنفيل ، وحسب معرفتنا للأوضاع التي سادت السودان في ذلك الحين ، فإننا على شبه اليقين من أن ولد كزنفيل لم يكن له من الوزن ولا من النفوذ ما يجعله ذا خطر محقق على نظام الحكم في بلاده ، فهل كان المنصور ـ الذي كان يعرف بذلك حتماً ـ يريد فقط إيجاد مخرج سياسي لما قد يعتبره البعض عدواناً على دولة مسالمة ؟ أو كان يهدف إلى ضم الأعداد الهائلة من العبيد المقهورين والمتواجدين في عواصم السودان إلى صفه ؟ وهنا يجب التأكد من شيء واحد ، وهو مدى الصلة بين أولئك العبيد وبين ولد كزنفيل .

فمن الواضح أن ولد كزنفيل وحتى ولو كان ابناً أصيلاً للأسكيا داود ، فقد وجد من طعن في مركز والدته الاجتماعي وعدها إحدى مملوكات الأسكيا داود ، فهو بهذه الصفة ابن للأسكيا ، وعبد من عبيده ، فما هي تطلعات العبيد في وضع كهذا ؟ وما مدى الشعبية التي حققها الثائر في بلاده بعد التجائه إلى المغرب وطلبه العون العسكري للوصول إلى العرش ؟ .

هذا التحليل كان يجول ولا شك في ذهن المخزن بمراكش ، بالإضافة إلى النقطة القانونية والأخلاقية المتمثلة في مد يد المساعدة لمن حرم من حق شرعي وعمل على استعادته .

ونتيجة لهذين العنصرين البارزين ، فإننا وجدنا الخليفة المنصور ، وكان بفاس ، قد فرح لخبر وصول الأمير إلى المغرب « فاهتز له من أعواده سروراً باتمام

حيلته واستبشاراً بفتح البلاد »[1] .

ويجب التوقف عند عبارة « إتمام حيلته » والتأمل فيها .

فكيف استغل المخزن هذه الحادثة ؟

أول ما يجب تسجيله هو أن أحمد المنصور أعطى لنفسه فرصة من الوقت قبل أن يستغل ذلك اللجوء ، فبين وصول ولد كزنفيل وتحرير رسالة في خصوصه إلى الأسكيا نجد فارقاً زمنياً يبلغ عشرة أشهر[2] . ويبدو أن أحمد المنصور أمضى هذه المدة في استفتاء العلماء[3] وجس النبض الدولي والاعداد العسكري .

أما كيف استغل قضية الثائر في صلب رسالته للأسكيا فهو أمر يمكن أن نصفه بالصفقة أو بالمقايضة ، فقد طلب المنصور من الأسكيا أن يبايعه وأن يسلم له في أمر معادن الملح .

وذلك مقابل أن يدفع عنه الجيوش الأجنبية المتربصة ببلاده ، وأن يتقبل أي اقتراح يمكن أن يعرضه الأسكيا بالنسبة لولد كزنفيل[4] .

ويبدو أن الأسكيا إسحق استخف بأمر ولد كزنفيل ، وربما شعر بنوع من التحقير له لما أعطاه المنصور لذلك الثائر من أهمية وحظوة ، فأجاب بقبيح العبارة « وبعث له صحبة جوابه حرشانا ونعلين من حديد »[5] ولعله كان يقصد بذلك أنه

(١) الفشتالي ـ المناهل ـ ص ١٢٢

(٢) كان وصول ولد كزنفيل إلى مراكش في مارس ١٥٨٩ وكتابة رسالة المنصور في دجنبر ١٥٨٩ كما سنرى

(٣) الفشتالي ـ المناهل ص ١٢٣ « وها نحن قد أنفذنا بما لأئمة المذهب في هذه المسألة على الخصوص وما لعلماء السنة من الحج لتعلموا أن للإمام النظر والاجتهاد » « وإننا ندعوكم إلى ما فيه إن شاء الله . . دخولكم فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا والائتمام بشريف إمامتنا » .

(٤) المصدر السابق « ها كتابه (أي كتاب ولد كزنفيل) يصلكم طي هذا المكتوب الكريم لتتأمله وتقف على ما قصده من جنابنا العلي وأمله . . وها نحن أمهلناه في الجواب . . . حتى نرى إن شاء الله ما يبدو منكم ، ويصل في أمره عنكم » النص الكامل لرسالة المنصور ضمن الرسائل السعدية ص ١٣٥ و١٣٦ .

(٥) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٣٨

سيضعهما في رجلي المنصور الذهبي إذا ما غامر بمهاجمة السودان .

٥) موافقة مجلس « ملأ المسلمين » على التدخل في السودان :

نكاد نجزم بأن خطة ملك المغرب لغزو السودان كانت تلقى معارضة من بعض ذوي الرأي من مستشاريه ، وبصفة خاصة من قادة الجند والعلماء ، فالأولون لم يكونوا قد نسوا بعدما حل بالحملة السابقة التي ابتلعتها رمال الصحراء عام ١٥٨٤ ، والآخرون عارضوا باستمرار التغرير بابناء المسلمين في المفاوز ، والإقدام على محاربة إخوة في الدين .

والأمر الذي عزز اعتقادنا بوجود معارضة لمشاريع المنصور هو أنه لم يستشر من قبل مجلس الملأ أو مجلس الديوان[1] المنبثق عنه عند إرساله الحملات الثلاث نحو الجنوب الأقصى : حملة السودان ، وحملة تيكورارين وتوات وحملة السنغال .

---

(١) كان مجلس المنصور استشارياً ، وقد أطلق عليه مجلس ملأ المسلمين ، وكان على هيأة ممثلين سامين يجتمعون كلما حدث حادث عظيم يقتضي الدراسة والتوصية بالتنفيد والحق بمجلس الملأ مكتباً ضم عدداً أقل من الممثلين يقع اختيارهم كمندوبين عن جميع العناصر التي يتكون منها المجلس الكبير ، ويجتمعون مرتين في الأسبوع الأربعاء والإثنين ، ويكرس المجلس نفسه للشؤون السياسية الداخلية والخارجية (E.L) X Eernest Mercier Histoire de l'Afrique septentrion ale Paris 1891 P:134 T.3 ويفيد الافراني في النزهة ص ١٤٨ بأن المجلس ضم شخصيات عالية المستوى ومن القواد وكبار القضاة والعلماء والموظفين وممثلي القبائل والجهات .

ويرى الغربي في موريطانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ص ١٢٥ « المجلس لم يكن موقتاً ولا مجلساً للحاشية ، بل كان مرجعاً حقيقياً للسلطان في ما يتصل بتسيير شؤون الدولة العليا أو بتقرير سلوك معين تجاه موقف أو حالة » ، « وكان يمثل بدون شك نظرة تقدمية في عالم كان يسوده الظلام والرضى بالاستبداد » « وفي صفحة ١٢٦ » فالمنصور الذي وصف بالبطاش الذي لا يشبع من الدماء والجشع والذي لا يدخر أية وسيلة لجمع المال . كان لا يعقد أمراً أو يحل آخر إلا بعد مشورة ذوي الرأي من المسلمين » .

ويفيد ا . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٣٧٣ بأن أعضاء المجلس كانوا يعينون من طرف السلطان بخلاف مجلس الشورى الأندلسي الذي نصبه الأندلسيون في جمهورية سلا ـ الرباط بعد ذلك والذي كان يتم انتخاب أعضائه من قبل الجمهور .

ولكن بالرغم من أن المنصور كان يعين أعضاء مجلس الملأ ويختار منهم مجلس الديوان ، كان يلجأ معهما إلى مقارعة الحجة بالحجة لا إلى الأوامر ويجتهد في أن يكون المجلس هو الذي يوضي بهذه السياسة أو تلك .

ونرى أن أحمد المنصور ، توخياً منه لعدم الوقوع في نفس الأخطاء السابقة ، لجأ إلى طريقتين ساعياً من ورائهما إلى التأمين على حملته الوشيكة وحشد التأييد لها .

الطريقة الأولى : استجازة اثنين من أكبر علماء العصر ، وكانا في مصر ، هما الإمام أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري ، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين الفرقاني وقد أجاز له القيام بتلك الحملة[1] .

والطريقة الثانية : دعوة المجلس الأكبر لملأ المسلمين ليعطي رأيه صراحة في الحملة السودانية .

ولقد أضاف المنصور لذلك المجلس أحد كبار علماء سجلماسة عبد الواحد ابن أحمد الشريف[2] ، وضم أيضاً « طبقات الأجناد وذوي الحل والربط وأولي البصيرة والحنكة والنباهة بالأمور الشداد ولم يستثن منهم مستشاراً ولا مشاراً إليه »[3] .

وانبرى الملك في بداية اجتماع المجلس لشرح وجهة نظره وعرض أفكاره وخططه وكان ذلك على النحو الآتي :

- عزمه على منازلة أمير السودان لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية .

- بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال ، ومن شأن ذلك أن يقوي جيش الإسلام .

- متولي السلطة في السودان معزول شرعاً ، إذ ليس بقرشي ولا اجتمعت فيه شروط السلطنة ، وكبار رجال الإفتاء في بلاد الإسلام يؤيدون نظرته إليه وحكمه على رئاسته .

---

(١) نقولا زيادة - المغرب والسودان في عهد المنصور الذهبي ص ٧٤

(٢) الناصري ، استقصاج ٥ ص ١١١

(٣) الفشتالي - المناهل ص ١٢٦ .

ـ إمكانية القضاء على الأسكيا عسكرياً دون احتمال للإخفاق أو شك في النجاح .

وقال المنصور أخيراً : أطلب من هذا الملأ ألا يدخر أحد منهم رأياً ولا نصحاً ، وإني غير مستنكف من حق بحجة توضحونه ، ولا متوقف عن الرجوع إلى صواب ببرهان تثبتونه ، تبرياً مني من الاستبداد بالرأي[1] .

وعند فتح المناقشة سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء فعاد أحمد المنصور إلى الكلام قائلاً : « أسكتم استصواباً لرأيي أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي ؟ » فأجابوا برأي متفق « ان هذا غير داخل في حيز الإمكان ولا يتصور خياله في الأذهان » وأخذ كل واحد من الحاضرين يفصح عن رأيه الخاص وكانت خلاصة اعتراضات أعضاء المجلس كالآتي :

ـ الدول التي سبق لها حكم المغرب لم تقم بعمل من هذا القبيل رغم ما كان لها من الجيوش والشوكة .

الخوف من المفاوز المهلكة التي تتوسط المغرب وبلاد السودان .

ـ يمكن للمنصور أن ينازل العثمانيين ، باعتباره خليفة النبي ، ويأخذ منهم المناطق الشرقية أو يمكنه أن يجاهد المسيحيين في الأندلس . والملاحظ أنهم لم يتعرضوا لقضية إسلام أهل السودان أو لفشل الحملة السابقة تملقاً لسيدهم وأجاب المنصور على كل اعتراض من هذه الاعتراضات كما يلي :

ـ « قولكم إن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس . . . والموحدين اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية ، والمرينيين كانت غالب وقائعهم مع بني عبد

---

(١) تفاصيل تلك الجلسة في المصدر السابق ونقولا زيادة ، المغرب والسودان في أيام المنصور ٧٥ ـ ٧٦ وع . كريم ـ المغرب في عهد الدولة السعدية ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ، والناصري الاستقصا ج ٥ ص ١١١ ـ ١١٤ ، والغربي ـ موريطانيا ومشاغل المغرب الافريقية ص ١٢٧ ـ ١٣٠

الواد بتلمسان » « وأجنادهم لا تقاوم ولا تدوخ أقطار السودان . . . لأن سلاح الفريقين واحد ، فالقليل منهم بكل تقدير لا يقاوم الكثير من أمم السودان ، ولا يتأتى لهم الغلب عليهم إلا بالاستظهار عليهم بالعساكر المتناهية فخامة ووفور عدد وعدد » .

« ومثل هذه الجيوش التي تكون بهذه المثابة في الكثرة لا يمكنها إقتحام هذه المفاوز البتة ، لما تستدعيه مؤ نها ورحالها وأثقالها وأزودتها من الضهر الذي يفوق الحسبان ، ويكاد وجوده يخرج من حيز الإمكان »

« ثم إن تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم ، لأن جيوشهم كانت فرساناً رامحة ورماة ناشبة ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم إلا الرماح والسيوف . . . فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء » .

« فالحصة القليلة من قاذفة شواظ النار والرعود القاصفة تدوخ أقصى تلك الأقطار لعدم القدرة على مقاومتها . . »

ـ وقولكم بيننا وبينها صحارى مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها ، فنحن نرى أن التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون الطرق في كل وقت ويخوضون في أحشائها مشاة وركباناً . . . وأنا أقوى أهبة منهم ، وللجيش همة ليست للقوافل . . »

ـ وقولكم لنفتح الأندلس أو نناز ل الترك أجيب : « لقد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليها جملة وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها » . . « وأيضاً فإن بلاد السودان أنفع من افريقيا ، فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك ، لأنه تعب كثير في نفع قليل . . » فأصقاع الجنوب وممالك السودان أحق وأولى بالتفات العزائم ، فهي وإن كانت أصعب مراماً ، فإنها أغزر نفعاً وأجدى مغبة ، وأرحب مجالاً ، وأوسع عمراناً ، وأوفر نشباً ، وأقوى

بمعادنها ، وكثرة المستاق من رقيقها المساعد على الاستكثار من إقامة الأسطول لغزو عدو الدين ، والإجلاب عليه بحول الله وعزته ، في عقر داره حسبما هو مبنى النية الصالحة . . »

وأعطى المنصور لكل عضو من أعضاء مجلس الملأ الفرصة ليعبر عن رأيه من جديد بعدما قدم من بيانات فاختلفت الردود عن السابق ، اذ اتفقت على استصواب رأيه والاقتناع بعروضه .

« وانفصل مجلس ملأ المسلمين على البعث إلى السودان ومتابعة المنصور رأيه عليه » .

وانتضى أمير المؤمنين أيده الله صارم العزم للاحتفال في الاستعداد والأهبة . . . »[1].

٦) اعداد الحملة :

إن ما يدهش في فترة حكم المنصور الذهبي ، إن هذا الرجل الذي أمضى جل أيامه في تقوية جيشه ، وإمداده بالعدة والعدد ، واختيار أحسن القيادات بصرف النظر عن انتمائها وأديانها ، والسهر على تدريبه على أحدث أساليب عصره ، قد اهتم اهتماماً ملفتاً للنظر ببضعة آلاف من الجنود شاء لهم قدرهم أن ينفذوا إحدى أنجح خططه بعيداً عن بلادهم .

ويبدو لنا أن هناك أسباباً تكمن وراء هذا الأمر ، فالمنصور كان يرمي لأول مرة بأجود التشكيلات لديه في أحضان المجهول طبيعة وبشراً ، وكان يريد أن يقيم للعالم كله ، للأصدقاء والأعداء ، ولمعارضي حملته الإفريقية في الداخل الدليل على ما يمكن أن تقوم به فئة قليلة من المعجزات ، وكان يهفو أيضاً إلى رؤية ما يمكن أن ينجزه أي تشكيل مدرب ومجهز بما يلزم في الجهات البعيدة التي فكر أيضاً في

---

(١) المصادر السابقة .

خطط إخضاعها بالاشتراك مع البريطانيين والفرنسيين .

إن هذا يفسر كيف كان ذلك العاهل يشرف بنفسه على التدريب والاستعداد ، ويمضي وقتاً كبيراً في مراقبة تلك التجربة الفريدة[1] ويجتهد في تهيء الوسائل المناسبة من آليات بالغة الدقة كبيرة الوزن ، لضمان نقلها سالمة فعالة عبر أكثر من ألفي كيلومتر ، هي من أشد جهات العالم قسوة وهولاً .

وعلينا أن نحلل في هذا الصدد المناحي الآتية :

- قيادة الحملة : الجهاز القيادي والاستشاري
- تشكيلات الجنود
- التدريب النوعي
- الآليات
- المؤن والأسناد
- توديع الحملة .

القيادة :

لقد رفع أحمد المنصور أحد قواده العظام جؤذر من رتبة قائد إلى رتبة باشا[2] . بعد إسناد قيادة الحملة إلى نظره ، وكان جؤذر من أكثر الضباط السامين كفاءة وصرامة وإخلاصاً ، وقد دلل على ذلك كله عندما حاول قادة الجيش الإطاحة بأحمد المنصور في بداية حكمه[3] فلم يعدمه الملك كبقية القادة الأندلسيين

---

(١) الفشتالي - المناهل - ص ١٢٨ .

(٢) رسائل سعدية ص ١١٨ عدت مراتب الضباط كما يلي : الباشا ، القائد ، المقدم ، الباشوظ ، بلكباش ، الضباش ، ولضاش ، العسكري ، وقد أخذت رتبة الباشا باستمرار وظيفة تمزج ، بين الاهتمام العسكري والمدني .

(٣) أعدم المنصور بعد الفراغ من معركة وادي المخازن أربعة قواد (جنرالات) هم سعيد ابن فرج الدغالي أصله من نطيش قرب غرناطة والقائد محمد الدغالي ابن أخ الأول ومحمد بن زرقون وزير الحرب والخزانة وهو الذي قاد ثورة الأندلسيين في جبال غرناطة وأصله من وادي آش أبا الفضل الغري من مواليد غرناطة .

وادخره لأكثر مشاريعه العسكرية دقة وشدة ، وقد أخذه المنصور بالتهذيب ودربه على تقاليد البلاط والإمامة[1] ثم عينه قائداً لفرقة صحراوية هي فرقة بني معقل ، فتعمقت معرفته بالصحراء وأبنائها ، وأسند إليه بعد ذلك قيادة جيش الأندلس الناري[2] .

ومنذ بداية اعداد الجيش السوداني ، أو الجيش الجوفي[3] كما كان المنصور يسميه ، شكل السلطان المنصور الذهبي هيئتين لقيادته إحداهما عسكرية والأخرى مدنية ، ووضع جؤذر على رأسهما معاً .

فالهيأة الاستشارية ضمت مجموعة من « ثقاة الكفاة أولي الدهاء والرأي وذوي النجدة في مضائق الحروب ليرجع إلى رأيهم في الملمات ويستشيرهم في مجال المفاوضات »[4] ومن بعض هؤلاء شكل جؤذر بعد وصوله إلى السودان إدارته المدنية وهيأة مخزنه ومشوره[5] .

والهيأة العسكرية دعيت بهيأة الجيش[6] ، وكانت عبارة عن عشرة من كبار الضباط وزعوا على النحو التالي :

سبعة من القواد لتشكيلات قلب الجيش وهم : القائد مصطفى التركي - القائد مصطفى بن عسكر الأندلسي - القائد أحمد الحروسي الأندلسي - القائد أحمد بن عطية - القائد عمار الفتى البرتغالي - القائد أحمد بن يوسف البرتغالي - القائد علي بن مصطفى البرتغالي .

قائد واحد لقيادة جيش العرب (١٥٠٠ عسكري من بني معقل) هو أحمد

---

(١) الفشتالي - المناهل ص ١٣٠
(٢) الغربي وموريطانيا .. ص ١٥٢
(٣) رسائل سعدية ص ١١٧
(٤) المصدر السابق
(٥) قصر السلطان أو الأمير أو الحاكم الكبير .
(٦) هي ما يدعى بأركان الحرب اليوم .

بن الحداد الغمري الصحراوي[1] .

كاهية واحد لقيادة الجناح الأيمن با حسن فرير البرتغالي[2]

كاهية واحد لقيادة الجناح الأيسر قاسم الوردي الأندلسي[3]

أما جؤذر فكان يتولى القيادة العامة للجيش كله ، ويقود قوات الرديف المشكلة من الطبجية (المدفعيين) ورجال البحرية ، وكوكبة من الفرسان ، ومجموعات صغيرة من حاملي الغدارات .

التشكيل العسكري :

استوقفنا طويلاً وكثيراً التضارب الكبير في مصادرنا حول العدد الرقمي لجنود الحملة السعدية إلى مملكة السونغاي واستنتجنا من صمت عبد العزيز الفشتالي وهو المطلع أكثر من غيره على الصغيرة والكبيرة أن المخزن لم يكن يريد التصريح بذلك الرقم لسبب نجهله تماماً .

والمؤكد أن الرقم الاجمالي لكل من وجههم المنصور السعدي إلى السودان عبر حياته ضمن الحملة أو كامداد لها بعد استقرارها ببلاد السودان يصل إلى ٢٣,٠٠٠ جندي ، أي أنه الرقم الذي قال احمد بابا السوداني إنه رآه في كناش ديوان العسكر بمراكش وأن السلطان زيدان بن أحمد المنصور اكده له أيضاً[4] .

وسنعمد إلى ايراد الأرقام المثبتة في مختلف المصادر ، آملين أن نتمكن بعد

---

(١) كان قائداً لأحد الجيشين في فتح تيكورارين وتوات .

(٢) حسب هوداس في (تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤرخ مجهول - الترجمة الفرنسية) فإن رتبة كاهية ليوتنان جنرال ، وحسب ا . حركات - المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٤٠٣ فهي تعادل كولونيلا

(٣) السعدي - تاريخ السودان ص ١٣٨

(٤) السعيدي - تاريخ السودان ص ٢١ و ٩٧

تقديم بعض الأدلة والاشارات في نهايتها إلى وضع رقم يمكن الاطمئنان اليه أكثر من غيره .

فالمؤ رخ الزياني يعطي الرقمين أدناه :

٢٠,٠٠٠ عسكري وضابط من مختلف الأسلحة .

٢,٠٠٠ مدفعي وبحري ومن أرباب الصناعة[1] .

وحسب السعدي :

٣,٠٠٠ من جنود النار

٦,٠٠٠ أسلحة أخرى[2] .

وحسب زيادة :

٢,٠٠٠ من حملة البنادق

٥٠٠ فارس حاملي البنادق

١٥٠٠ عرب من حملة الرماح[3]

وحسب حركات :

٥,٠٠٠ فارس من حملة البنادق

٢٠٠٠ راجل

١٥٠٠ من عرب معقل حملة الرماح

---

(١) أبو القاسم الزياني ـ الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ٦٥٨ ص ٣٥٤

(٢) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٣٨ يناقض السعدي نفسه (ص ١٤٨) عندما يخبر بأن الباشا محمود ذهب في جزء من جيشه إلى مدينة كوكيا جنوب غاو ومعه ١٧٤ قباء « في كل قباء عشرون رامياً ونهاية حملتهم أربعة آلاف رماة » فمن أين أتى بالألف الزائدة وما هو عدد الجيش الـذي كان ينتشر في السودان زيادة على عدد افراد الحملة التي أخذها محمود معه .

(٣) نقولا زيادة ـ مصدر سابق ص ٨٠

٢٠٠٠ مدفعي[١]

وحسب الغربي

٥,٠٠٠ خيال من حملة البنادق

١٥٠٠ صحراوي من عرب المعقل .

١٥٠٠ من جنود الريف بشمال المغرب من حملة البنادق المزدوجة الفوهة

٥,٠٠٠ من الرديف والأسناد والصناع .

٢,٠٠٠ من المرتزقة حاملي الغدارات ، والنافطات اليدوية[٢] .

وهكذا فالأرقام المحصل عليها من تلك المصادر حسب ترتيبها التنازلي الرقمي هي :

٢٢,٠٠٠ ، ١٥,٠٠٠ ، ١٠,٥٠٠ ، ٩٠٠٠ ، ٤,٠٠٠ عسكري .

ونحن لا نميل إلى الأخذ بالرقم الأول لمبالغته الواضحة ، ويظهر أنه لا يخص العناصر المسلحة فقط ضمن الحملة ، بل يشمل جانباً من الفنيين فيها ، وأحمد المنصور الذي أبان عن رأيه في مجلس ملأ المسلمين حول مصاعب ترحيل الجيوش الضخمة عبر الصحارى والقفار ، مع لوازمها واثقالها لم يكن يميل بطبيعة الحال إلى ارسال مثل ذلك العدد الضخم بقدر ما كان يجتهد في توفير النوعية والكفاية .

أما الرقم الأخير فهو هزيل جداً بل هو يقل بأكثر من الضعفين عن عدد الخبراء والصناع الذين جعلوا رهن اشارة جنود الحملة .

ويحتاج الرقم الثاني الذي أوردناه بناء على تحقيق دؤ وب ، إلى وقفة خاصة .

---

(١) أ . حركات ج ٢ ص ٣٠٣ .
(٢) الغربي ـ مصدر سابق ص ١٥٢ ـ ١٥٣

فاذا رجعنا إلى الرقم الذي عاينه أحمد بابا السوداني لمجموع من اتجه من العساكر إلى السودان ، وهو ٢٣,٠٠٠ عسكري وحاولنا أن نعثر على أرقام المحلات التي وجهت فيما بعد وإلى نهاية ملك المنصور ، فربما نقترب بذلك من الحقيقة[1] .

(١) فالمحلات أو النجدات التي وصلت السودان بعد جؤ ذر هي :

محلة الباشا محمود أزرقون / ٨٠ رامياً

محلة الفتى عمار / ١٠٠٠ رام (وكان نصف هذه الحملة من الأندلسيين ضلوا طريقهم وفنوا عن آخرهم .

محلة الباشا سليمان / ٥٠٠ رام

محلة القائد باختيار / ١٢٠٠ رام

محلة القائد علي الراشدي / ١٥٠٠ رام راجلين و ١٠٠٠ من الخيالة

محلة القائد بن دحمان / ٤٠٠ رام

محلة القائد عبد العزيز بن عمر / ٤٠٠ رام

محلة القائد علي بن عبد الله التلمساني / ٤٠٠ رام .

مجموع هذه المحلات هو ٦٤٨٠ جندياً ، وصاحب تاريخ السودا ، الذي استقينا منه هذه الأرقام[1] يذكر أن الباشا بعد تفاقم الأحوال في السودان طلب نجدة كبيرة من المنصور فوجه اليه ست محلات أخرى دفعة واحدة ، غير أن السعدي لا يذكر إلاّ خمساً منها ، فيمكن ارجاع ذلك إلى سهو منه علماً بأنه أكد أن تلك الحملات الست قد وصلت سالمة[2] .

ويمكن أن نتصور أن تلك المحلة كانت تشتمل كغيرها على عساكر

---

(١) السعدي ص ١٦٤ و ١٨٢

(٢) المصدر السابق .

يتراوحون بين اكبر وأصغر رقم تضمنته كل الحملات التي ذكرت أعلاه ، ولو أخذنا الرقم المتوسط لكان عدد افراد تلك المحلة يبلغ ١٤٥٠ نفراً .

فمجموع ما توجه إلى السودان في عهد المنصور هو ٢٣,٠٠٠
ومجموع النجدات التي وصلت بعد جؤذر هو ٧,٨٥٠
فالمفروض أن يكون عدد أفراد محلة جؤذر هو ١٥,٠٧٠ ضابطاً وجندياً .

(٢) وحين نعود إلى نظم الجيش السعدي في عهد أحمد المنصور نقف على اشارة دالة أيضاً ، وهي أن القائد وهو برتبة جنرال أو ليوتنان جنرال لا يقل عدد جنوده في حالة قيادته لهم أثناء المعارك عن ألف نفر ، فيما بين راكب وراجل[١] ويذكر الزياني في الترجمان أن فرق حملة جؤذر باشا قسمت بحيث كان لكل قائد ألف من الرجالة والفرسان[٢] . فعدد جنود الحملة يزيد على عشرة الآلاف جندي بكل تأكيد حين نعتمد ذلك الترتيب .

(٣) وعند تتبعنا لسير المعركة الفاصلة بين الحملة المغربية وجيش الأسكيا ، نجد أن الباشا جؤذر كان يقود رديفاً مهماً ويوجه بنفسه أصحاب المدافع الضخمة وجنود البحرية (الذين ربما كانوا قد استولوا على بعض المراكب من تنبوكتو) وحسب ما رأيناه في الفقرة السالفة فان كل مجموعة قادها جؤذر بنفسه كانت تضاف حتماً إلى ١٠,٥٠٠ التي كانت تحت القادة العشرة .

(٤) كان مما اصطحبته الحملة معها من الأثقال ١٨٠٠ خيمة[٣] والمعروف إن خيام الجيش المغربي في عهد المنصور كانت تسمى السياج[٤] ، وكان من أنواع هذا

---

(١) أ . حركات ـ المغرب عبر التاريخ ج ٢ ص ٤٠١
(٢) أبو القاسم الزياني ـ الترجمان ـ ص ٣٥٤
(٣) نقولا زيادة ـ المغرب والسودان في أيام المنصور السعدي ص ٨٠
(٤) الافراني ـ النزهة ص ٢٠٤

السياج ما يتوفر على الحجرات والحواجز الداخلية وهو الخاص بالمنصور ولابنائه الخلفاء ، وكان منه ما هو مخصص لكبار قادة الجيش وللضباط وللجنود . والوصف المشترك الذي يمكن اعطاؤه لهذه الأنواع من الخيام هو الاتساع حتى أن السياج المتوسط قد يأوي من ١٥ إلى ٢٠ نفراً .

ولو قدرنا أن ٨٠٠ خيمة قد خصصت للفنيين الذين رافقوا حملة جؤذر أو لحجب الأعتدة الحربية والذخيرة عن أشعة الشمس وعن الغبار ، لكان عدد ما بقي من السياجات كافياً لايواء ١٥,٠٠٠ نفر[1] .

التدريب النوعي :

كان اعداد أفراد الحملة للقتال في ظروف متميزة ، ونوعية ، وخصوصية أمراً جديداً كل الجدة على الجيش المغربي المحترف ، ونظن أن اجتهاد المنصور الذهبي قد انصرف في البداية إلى تحقيق أمرين :

الأول منهما : ندب مجموعة من الضباط الأجانب (برتغاليين ، وإسبان ، وانجليز) لهذه المهمة : فقد اجتهد في البحث عنهم ضمن جيشه ، وجلب بعضهم إلى المغرب لقاء رواتب كبيرة ، ولا نستبعد أنه كان بينهم من عمل في الحروب الاستعمارية أو خضع لتدريب ما متعلق بها .

والمعروف عن الخيام البربرية اتساعها وخفتها واتخاذها من القماش المتوسط السمك ولا زال قواد البوادي يستعملون هذا النوع من الخيام حتى اليوم .

(١) الفشتالي ـ المناهل ص ١٣٠ ، وصف حملة المنصور إلى السودان بأنها لم يدون في التاريخ حديث عن حملة شبيهة بتلك الحملة من حيث الضخامة وتوفير العدد ، والمعروف أن الفشتالي كان يحضر مثل تلك المناسبات وقد شاهد جيوشاً تذهب إلى جهات متعددة وتضم عشرات الآلاف فلماذا خص حملة السودان بتلك الأوصاف وكان يمكنه أن يتحدث فقط عن غرابتها بالنسبة لما شاهده من قبل . وبالاضافة إلى ذلك يقول السعدي أن خيام محمود كانت تأوي ٢٠ عسكرياً في كل واحدة (ص ١٤٨) .

والثاني : اختيار المكان المناسب لاجراء التدريب المطلوب والمناورات التطبيقية ، بحيث يكون شبيهاً إلى حد كبير بساحة المعركة المقبلة في غاو ، وربما تنبوكتو أيضاً .

ولا يخامرنا شك في أن المعلومات التي قدمها الجهاز الاستخباري إلى قيادة الجيش قد حددت كيفياً أشكال التدريب بالنسبة لتلك الفرقة ، ومن ذلك الأحوال الطبيعية ، والمناخ ، وطبوغرافية نهر النيجر ، وترتيبات القتال عند جيش الأسكيا ، والطرق التعبوية ، والقيادة ، والأسناد ، والامداد ، والفرق العسكرية عند الأسكيا المقاتلة على الأرجل أو على الجياد أو من القوارب ، أو من فوق الفيلة ، أو الأبقار .

ومن جهة أخرى فان وجود القائد الصحراوي احمد بن الحداد المعقلي الذي رأيناه يقود حملة الصحراء ويشرف على حصار تيمومن ومداهمتها ، بين المدربين يقدم أقوى دليل على نوعية الخبرة التي كان على حملة المنصور الذهبي أن تتزود بها ما دامت ستخوض الفقر وتركب الرمال .

ولقد وجدنا في اغلب المصادر أن المكان الذي اختير ليكون مركز تدريب ، ومسرح عمليات حية للمناورة والتطبيق هو مكان فسيح على امتداد وادي تنسيفت الواقع على بعد عشرة كيلومترات شمال غرب مدينة مراكش[١] .

وعند دراسة خارطة طوبوغرافية للمنطقة[٢] نرى أن اختيار هذه الناحية بالذات كان موفقاً للغاية ، فلو قلبنا تلك الخارطة لما استطعنا أن نميز بين ذلك المكان ، وبين الوضعية التضريسية لحوض نهر السنغال عند مدينة غاو ، فالنهران

---

(١) ولقد وقع توديع الحملة في ذلك المكان نفسه ، وحضر أحمد المنصور استعراضاً هناك رغم أننا نعرف من أخباره أنه لا يقيم احتفالاته العسكرية إلاّ بمراكش أو فاس .

(٢) Carte du (MAROC) Institut Geographique, Paris 1935 1-200.000

معاً ـ تنسيفت والنيجر ـ قليلا الاتساع ، متوسطا التسارع ، ضعيفا التعاريح ، يحدان من اليمين بمنحدر خفيف ، ومن الجهة اليسرى بمنحدرات أشد ، والأشجار قليلة متباعدة ، مع وجود وديان جافة محفورة ضمن صخور ملساء لا تشتمل على تسنن أو تجاويف عميقة أو مغاور .

والمناخ أيضاً في الناحيتين متشابه كثيراً ، فحرارة الصيف لافحة ، وبرودة الشتاء محتملة[1] والشهر المطير في غاو وهو شهر غشت[2] يسمع بتحمل حرارة الصيف ، ارتفاع نهر النيجر عن سطح البحر عند غاو هو ٢٧٠ متراً وعند تنبوكتو ٣٢٨ متراً ، ولكن الارتفاع في المنطقتين المجاورتين يزيد عن ذلك ويقترب من الارتفاعات في شمال وادي تنسيفت[3] .

ويمكننا القول بأن تلك القوات الخاصة كانت تجري تدريبها ضمن المنطقة كلها ، فالخيالة والراجلون يصعدون مع الآكام أو ينحدرون مع الوديان ، في هجومات وهمية ، وفي اشتباكات بين الأشجار وفوق المستنقعات . . وجنود البحر الذين قدمت اليهم الزوارق ذات المواصفات الخاصة ، يقطعون هذا النهر نزولاً وصعوداً ، وينزلون في احدى الضفتين أو يركبون منها مع استعمال السلاح على نحو يقربهم من الواقع الذي كان ينتظرهم في نهر النيجر ، وأما رجال المدفعية فينقلون اعتدتهم من مكان لآخر ، ويتخذون معاقل لهم في الجبل أو السهل .

لقد كان السلطان كما المحنا يحضر بنفسه جملة من ذلك التدريب ، وما يعقبه من اختبار جماعي ، وكان يقدم للمتوفقين جوائز نقدية ، فيشيد المنادي بهم في

---

(١) المتوسط الحراري في مدينة غاو في شهر يونيه ٣٤ وفي مراكش ٣١ وفي شهر يناير غاو ومراكش ١٤

(٢) لا ينزل في غاو في غشت إلاّ ٩٠ ملم في المتوسط وفي مراكش ٣٥٠ ملم في شهر يناير .

(٣) تحد منطقة وادي تنسيفت بثلاث كتل جبلية مقطوعة بوديان شبه جافة وهذه الكتل هي من الشرق إلى الغرب جبل بيرميم (٩٠٠ م) وجبل ساغلف (٩٤٤) م وجبل بوفادر أما ارتفاع النهر نفسه في هذا المكان فهو ٥٧٠ متراً .

المعسكر ، حيث يصدح بالأسماء ويعلن عن مبلغ الجائزة ، وكان ينتج عن ذلك منافسة واجتهاد ، ومزيد من التدريب على الرماية واساليب القتال الفردية والجماعية[1] .

ويعطي الفشتالي وصفاً هاماً لاحدى المناورات يضفي كثيراً من الضوء على ذلك النوع الخاص من التدريب :

« فهي تصلى نار الحرب ، وترمي بالمآزق الجلاد ، للدربة بها ، وارتياضاً على صدق المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء ، وبعيداً عن الاخلاد إلى الراحة والركون والسكون وإلى الدعة ، لما يؤدي اليه ذلك من وهن عزائمها ولين عرائكها . . عند الحاجة اليها » وكان الجيش يدرب على « تعبئة الحروب ومكائدها وآلاتها وخدعها وانواعها والحصار وآلاته والرمي وأدواته ومعرفة أنواع مدافع القذف والرجم . . وكيفية عملها طولاً وقصراً . . . إلى البعد أو القرب أو إلى السماء أو إلى الأرض . . مما تقتضيه السياسة العلمية[2] .

الآليات :

نعتقد أنه كانت تقوم احدى اكبر الورش في تاريخ البلاد بالقرب من المكان الذي قامت فيه ميادين التدريب والاختبار في وادي تنسيفت .

فقد جلبت الأخشاب من جبال الأطلس القريبة لتصنع منها القوارب ، واخذ النجارون في بنائها على هيأة تلائم المجرى المائي الذي كان عليها أن تعوم فيه ، مع اعتبار الاتساع والانحدار وقلة العمق ، وكان تصميم تلك القوارب فريداً فهي تفك ويعاد تركيبها عند الحاجة .

---

(١) الفشتالي ـ المناهل ص ١٧٤

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ و ٢٣٨

وعمل الحدادون والبناؤ ون بنفس الهمة على صنع ما كان مهندسو الجيش يطلبونه منهم ، وقد قدرت اعداد اولئك المعلمين والصناع بالآلاف[1] .

ويكفي للبرهنة على مدى ضخامة تلك المنقولات ، إن حملة جؤذر باشا صحبت معها ٨,٠٠٠ جمل و ١٠٠٠ من الخيل والبغال[2] ، استخدم جلها لحمل المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكور والأخشاب واللوح والحديد للغلائظ والسفن والفلك ، والمجاذيف والقلوع ، والبراميل ، والروايا لحمل الماء . . . وقد الف النجارون ذلك في البر إلى أن تألف ، ثم خلعوه وشدوه احمالاً[3] .

ويضيف مصدر آخر[4] أن القافلة حملت ١٨٠٠ خيمة و ٣٠٠ قنطار من البارود وعشر قناطير من قنابل المدافع و ٣٠٠ قنطار من الرصاص .

ووضعت الذخائر في صناديق من الرصاص[5] المزدوجة الجدران لحفظها من وهج الشمس وتقلبات الضغط الجوي بين الليل والنهار .

وعندما كانت القوافل جاهزة للانطلاق وصفها شاهد عيان بأنه « لم يدون في التاريخ حديث عسكر بلغ في الاحتفال ، والانتقاء ، والانضباط على قواعد الحزم وتوفير العدد ما بلغت هذه العساكر المنصورة »[6] .

نفقات الحملة ومؤنها :

لم نستطع أن ندرك السبب في أن احمد المنصور الذي كان ينفق بسخاء على

(١) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٣٨ « لقد صحبت منهم الحملة السودانية عدة آلاف .
(٢) حركات ـ المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٣
(٣) الناصري ـ الاستقصاج ٥ ص ١٢١
(٤) نقولا زيادة ـ المغرب والسودان . . ص ٨٠
(٥) الفشتالي ص ١٢٩
(٦) المصدر السابق ١٣٠

جيشه من بيت المال المتوفر آنذاك على أموال وموجودات ذهبية توفرت من فدية، النصارى ، قد فرض على شعبه الأنفاق على حملته السودانية[1] ، ففي الوقت الذي أسقط فيه المنصور اكثر الضرائب عن كاهل المغاربة ، وخاصة ضريبة النائبة ، لمخالفتها للشرع وخروجها عن حد السنة[2] « وكل أنواع الأمكاس كأعشار السلع في المراسي والأبواب وغير ذلك من الوظاف السلطانية »[3] نراه يأمر العمال في جهات المغرب بأن يفرضوا على القبائل حصصاً من الابل والخيل والبغال ، ومن أتى بجمل ضعيف يعاقب[4] .

وكانت الأوصاف التي طلبها مستوفو تلك الضرائب بالنسبة للابل أن تكون « فدنية أرحبية من البزول الشديدة الأسر مضطلعة بشق المفاوز البيد[5] .

وعلى نفس الوتيرة جمعت الأقوات من سمن وعسل ولوز وقمح ولحوم مقددة . . وأعلاف ، ويظهر من الأرقام التي أوردها مصدر وحيد هو صاحب تاريخ الدولة السعدية المجهول ، إن المؤ ن جمعت على أساس أن تكفي لمدة قصيرة لا تتجاوز الشهرين أو الثلاثة[6] ، ولعله كان على الجيش أن يقاتل ليأخذ البلاد ويستولي على قوته منها .

أما رواتب الضباط والجنود ، فانهم توصلوا بها لأربعة الأشهر الموالية ، مع تعويضات الحرب الخاصة التي يتركها الجندي عادة لعائلته ، كما أن عساكر الحملة

---

(١) حركات ـ المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٣ : « ساهمت قبائل المغرب اجبارياً في تزويد هذا الجيش بما يحتاجه » .
(٢) رسائل سعدية ص ١٤٥
(٣) ابن القاضي ـ المنتقي المقصور ص ٢٨
(٤) الناصري ـ الاستقصاص ١٢١
(٥) الفشتالي ـ ص ١٢٩
(٦) مؤلف مجهول ـ تاريخ الدولة السعدية ـ تحقيق كولان « وصار المنصور يدخر الزرع في الأهرية ورحل ٦٠٠ رحيل منها وأرسلها إلى مراكش بقصد أن يبعثها إلى كاغو » .

أخذت بدلات جديدة[1] ولكننا لم نتمكن من معرفة أنواعها ومواصفاتها .

توديع الحملة :

استمرت الاحتفالات أثناء ما كان يجري جمع الأثقال في وادي تنسيفت اسبوعين كاملين من يوم الاثنين ١٦ ذي الحجة ٩٩٨ (٢٥ اكتوبر ١٥٨٩) إلى فاتح محرم ٩٩٩ (١٠ نوفمبر ١٥٨٩) ، وقد تعمد أحمد المنصور ألا يقتصر الاحتفال على وداع عادي يدوم يوماً أو بعض اليوم بل أطال المدة ليحقق أحد أهدافه المتصلة بالعمل النفسي ، ونجد شرحاً لذلك في مصدرين :

« فقد انجفلت العامة لمشاهدتهم واسترسلوا في مظاهر الاعجاب لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة أمور هذه الحركة (الحملة) »[2] .

ثم أن المنصور كان في غنى عن هذا الوداع الحامل على الهيبة . . ولكنه لم يكن يريد أن يحرم السفراء والمراقبين الأجانب من مثل تلك الصور ، فذلك في الواقع من صلب الأوراق التي لعبها طيلة نصف قرن »[3] .

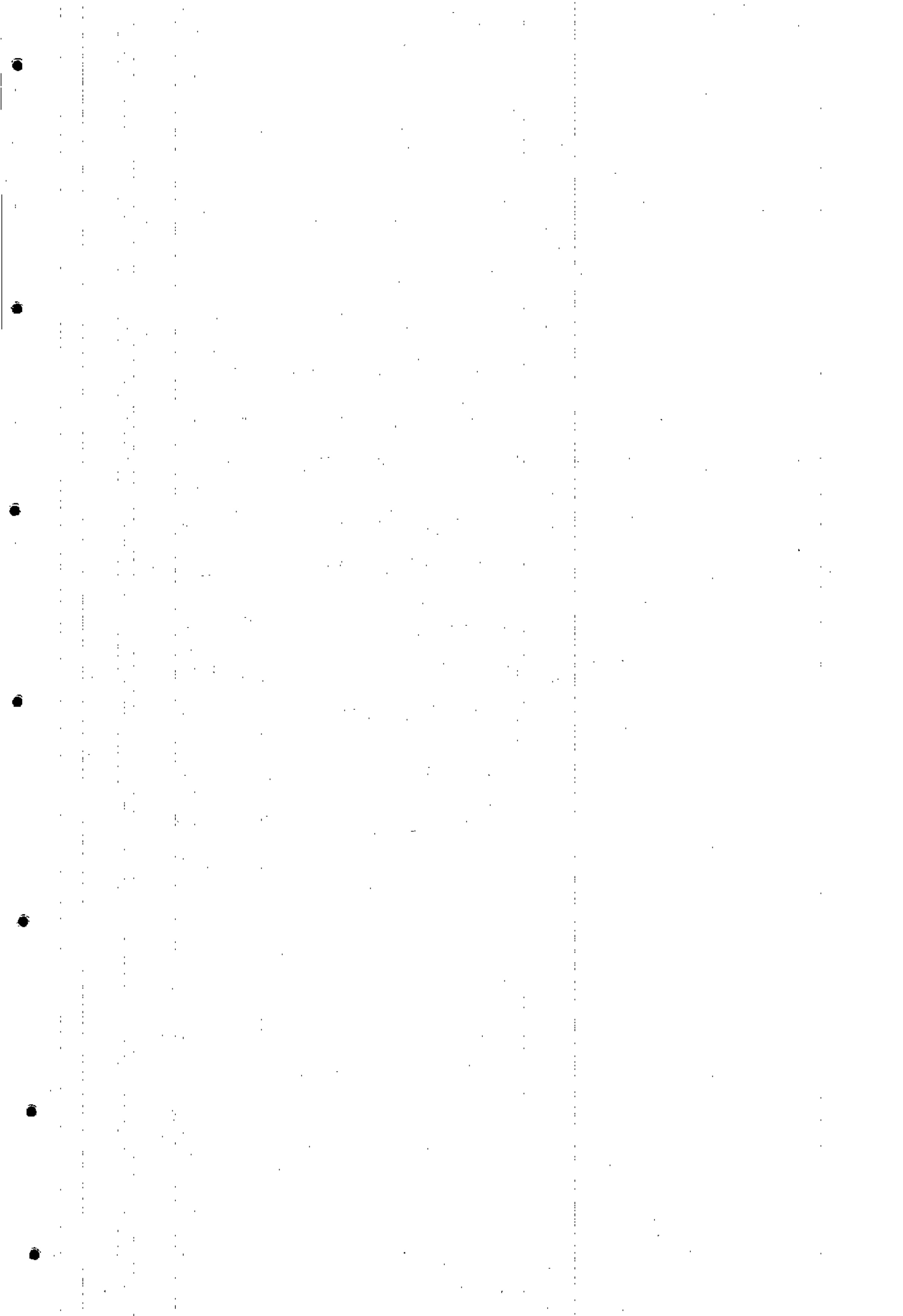
وكما رأينا فان احمد المنصور الذهبي لم يرد أن يعفى جؤذر باشا وحملته السودانية من انجاز بعض المهام حتى قبل أن يأخذ طريقه من مراكش نحو السودان في ١٠ نوفمبر ١٥٨٩ .

---

(١) Hesperis - 3.3. 1957 P. 179

(٢) الفشتالي ص ١٣٠

(٣) الغربي ص ١٥١



الباب الثاني

الفصل الرابع

فتح السودان

١) طريق جؤذر

٢) الفتح الأول : معركة تنديبى

١ ـ قبل معركة تنديبى

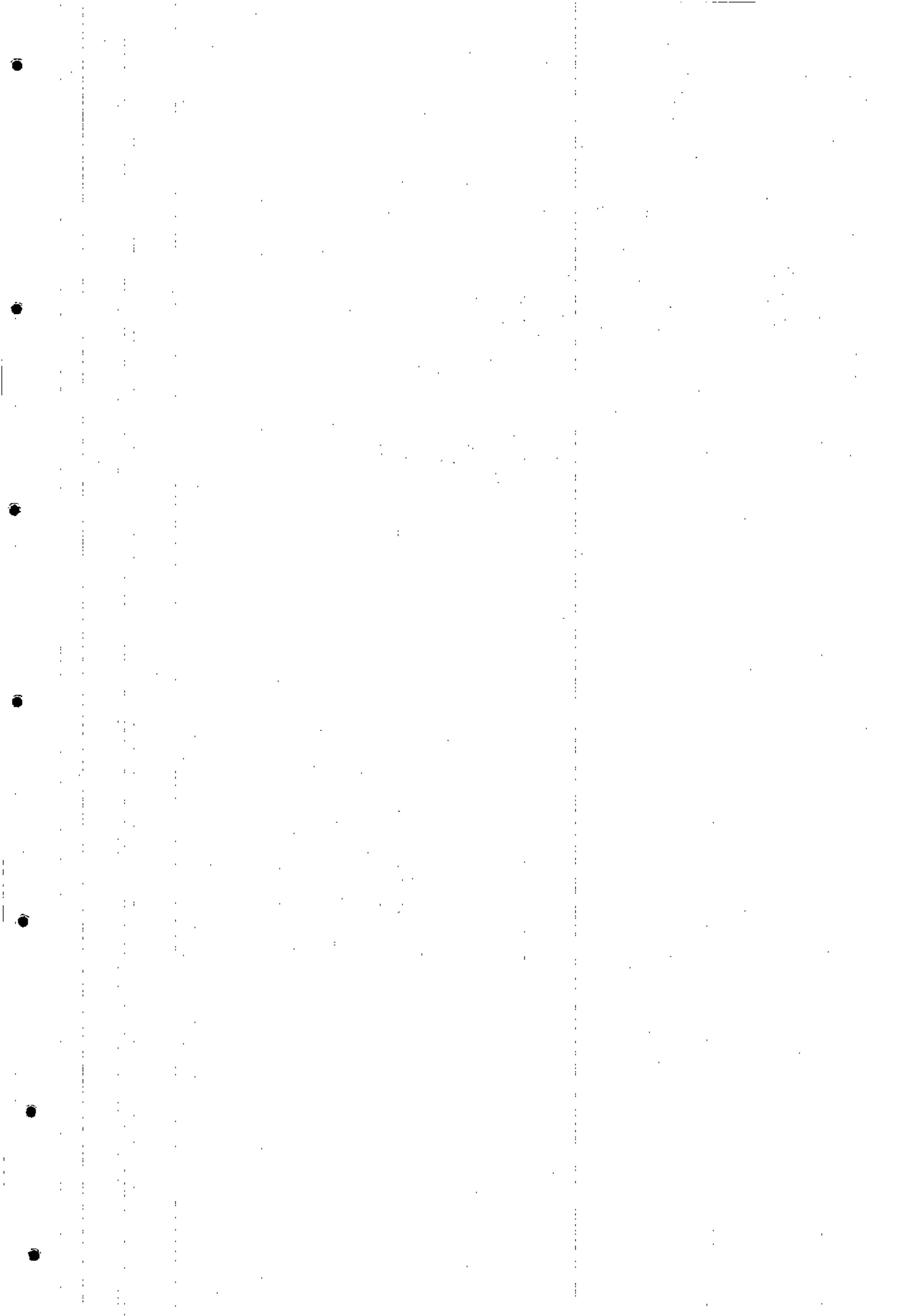
٢ ـ المعركة

٣ ـ نتائج المعركة

٤ ـ قضية الصلح

٥ ـ رد السلطان

٦ ـ اتخاذ تنبوكتو عاصمة للسودان وبناء قصبتها .



١) طريق جؤذر

سنتناول انتقال جؤ ذر باشا مع حملته السودانية من مراكش الى ان وصل ميناء كبارا على نهر النيجر بالكثير من التفصيل . والذي دعانا الى ذلك هو عدم اهتمام المؤ رخين على اختلاف أعصرهم على الوجه المطلوب بسير هذه الحملة بأثقالها الغربية عبر اكثر من الفين وخمسمائة كيلومتر من أراضي الصحراء القاحلة ، واتباع القائد جؤ ذر بعض المسالك الخطيرة في طريقه ، وتجنبه للجهات المأهولة بالقبائل أو للمدن العامرة على أطراف الصحراء الكبرى في الشمال والجنوب ، ضمانا لسرية الرحلة وحفاظا على تماسك جيشه وانضباطه وحسن طاعته .

وإذا وجدنا بعض المؤ رخين يجأرون بالشكوى من قلة المعلومات عن قصة سير جؤ ذر رغم معرفتهم بالطريق التي سلكها[١] ، فان اجتهادنا انصرف الى تحقيق الأمر واستقصائه معتمدين على شهادات بعض من رافقوا الحملة ، وعلى المعلومات التي وصلت الى البلاط السعدي بمراكش ، وأخيرا على رحلة قام بها منذ نصف قرن احد كبار علماء جنوب المغرب ، محمد المختار السوسي عبر جزء من طريق جؤ ذر نفسها بقصد الكشف عن النقاط التي مر بها ذلك القائد . وان كل ذلك سنجده مفصلا وموثقا في مكانه .

---

(١) بوفيل - ترجمة زاهر رياض . الممالك الاسلامية في غرب افريقيا واثرها في تجارة الذهب . القاهرة ١٩٦٨ ص ١٩٦ .

ان رحلة جؤذر تثير تساؤلات محيرة ينبغي تقديم الأجوبة الشافية عنها قبل كل شيء :

أول تلك التساؤلات : هي لماذا سلكت الحملة طريقا لم يكن معروفا في السابق من لدن رجال القوافل[1] بالقدر الذي كانوا يعرفون ويسلكون الطريقين الآخرين الى الشرق والغرب المتوفرين على الآبار ، والمأهولين بالقبائل والمشتهرين بقلة الكثبان الرملية والزوابع ؟

وثانيهما : كيف استطاع جؤذر أن يؤمن الماء لذلك الجيش الكبير ولآلاف المرافقين ولدواب الحمل والقتال ، مع يقيننا أنه كان يسير أياما وربما أسابيع ضمن صحراء لا توجد فيها نقطة واحدة من الماء ؟

وثالثهما : كيف كان جؤذر يهتدي الى طريقه ولا يحيد عنه قليلا أو كثيرا ، وكيف استطاع أن يتحول مرتين عن المسالك المألوفة أو المأمونة دون أن يضل السبيل ؟

ورابعهما : ما هي الخسائر الحقيقية التي تكبدها في الرجال والدواب والآلات قبل أن يصل مقصده عند نهر النيجر ؟ .

إننا نعلم أن احمد المنصور وجه حملة الى تيكورارين وتوات كان القصد منها تمهيد البلاد ، وتأمينها من الخطر العثماني وجعلها ركابا لبلاد السودان ، كما اننا نعلم أن الحملة التي اتجهت بعد تلك نحو بلاد السنغال كانت تستهدف منع البرتغاليين من الامتداد شرقا ، وجمع الدواب للقيام بالحملة الكبرى الى مملكة السونغاي .

فلماذا ضرب أحمد المنصور صفحا عن الانجازين معا ، وفضل ركوب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٣

المخاطر واقتحام المجهول .

الواقع انه كان هناك الجديد بالنسبة لتيكورارين وتوات ، ففي نفس السنة التي تهيأ جؤذر للرحيل ، وردت أنباء ثورة عارمة عرفتها تيكورارين بالذات ، فقد أجلت عرب اليمن على العسكر السعدي وقتلوا قائد الناحية سعيد بن الحسن ، واقتضى الحال تجهيز جيش من سوس وفاس اسند الى القائد أبي عبد الله محمد بن بركة . ولم تكن أخبار ذلك الجيش قد وصلت الى مراكش عندما كان جؤذر قد غادرها بالفعل[1] .

أما بالنسبة لجيش الساحل الذي مهد بلاد العرب والسنغال فان المنصور لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان للقبائل العربية ولا واثقا في استمرار ولائها ، بل وأكثر من ذلك فلم يكن هناك اطراء ولا ثناء على قائد الحملة محمد بن سالم . ولو لم ترد اشارة في احد كتب التاريخ المعاصرة لرجوع الحملة الغربية لكان هناك شك في رجوعها أصلا الى المغرب[2] .

وما دام جؤذر قد « اقتحم سياج القفر الأفيح والمجهل البيداء التي تضل بها القطا الجون وتكل في قطع مداها عواتم الشهب وتنقطع في حفافيها أنفاس النسيم »[3] فكيف أمن لجيشه ولدوابه العنصر الأساسي للحياة : الماء ؟

لقد استفاد جؤذر باشا من وجود القائد الصحراوي أحمد بن الحداد الذي قاد قسما من جيش تيكورارين وتوات وخاض بأثقال المدافع وآلاف الجنود والدواب الصحراء الشرقية[4] فجعله قيما على شؤون الماء . وطيلة المائة والخمسة

---

(١) الفشتالي - المناهل ص ١٠٠ و١١٠ و١١٥
(٢) المصدر السابق ص ١٢١
(٣) المصدر السابق ص ١١٨
(٤) المصدر السابق ص ٧٦

والثلاثين يوما التي أمضاها جؤذر في السير[1] فرض على الجيش نظاما دقيقا لم يكن هناك مفر من اتباعه للابقاء على حياته .

وكان في مقدمة ما لجأ اليه جؤذر والقائد ابن الحداد الامتناع عن السفر أو القيام بأي جهد منذ الضحى حتى الغروب ، وكان يسمح للجنود ومرافقيهم بالنوم في أية ساعة من ساعات النهار ، غير أنه كان اجباريا أن ينام الجميع وقت القيلولة أي الوقت الذي يكون الجسم في حاجة أكبر لتناول الماء[2] .

وقد قسم جؤذر أفراد الحملة الى قسمين متساويين يسبق أحدهما الآخر بليلة أو ليلتين ، وكان على القسم السابق أن يحدد أمكنة المياه ويستقي منها ، وعندما كان يصل القسم الآخر يجد أن الآبار قد استعادت بعض ما فقدته من المياه في الليلة السابقة فيستقي منها ويستنزفها ، وقد عمل بهذه الطريقة جميع القادة الذين ترددوا بين المغرب والسودان فيما بعد[3] .

وكان جؤذر مضطرا في بعض الأحيان الى قتل بعض الجمال وأخذ ما في بطونها من الماء عن طريق اعتصار الكروش ، وقد حدث ذلك في الجهات التي لا تتوفر على آبار أو مصادر للمياه[4] .

على أن قضية الماء قد شغلت جؤذر قبل أن ينفصل عن مراكش فقد « جمعت الأسقية والشنان الحصيفة الأديم وتخطت أعداد المئين الى الآلاف حتى أن العساكر الامامية لما توغلت في المفاوز التي نضبت بها المياه وأعوزت قطف الشهاد وبلالة الأوشال كانت تسيل على أكواز المطي أنهارا تطرد من العذب الزلال »[5] .

---

(١) نقولا زيادة ـ مصدر سابق . ص ٨١

(٢) الفشتالي ـ مناهل الصفا ـ ص ١٣٥

(٣) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٧٢

(٤) بوفيل ـ مصدر سابق ص ١٩٨ .

(٥) الفشتالي ـ المناهل ص ١٢٩

وقد أدت كل تلك الاحتياطات الى تأمين أهم عنصر للابقاء على الحياة بحيث لم « تغرب عن العساكر الامامية عصارة العيش الغضة الأفنان »[1] .

ومن الأمور المحيرة الأخرى بالاضافة الى تنكب جؤذر للمسالك المعروفة والى مشكل الماء أمر التعرف على الطريق الصحيح والاتجاه الدقيق .

لقد اعتمد جؤذر جملة من الوسائل في هذا السبيل وفي مقدمتها استخدام الابرة المغناطيسية وبعض الآلات المحددة لحركة النجوم والساعة الآلية التي تحدد الأوقات وتنظم عملية السير[2] . ويبدو أن بعض الأوروبيين كانوا يشرفون على استخدام تلك الآلات ويحسبون درجات العرض الجغرافي مقدمين لرجال الحملة أثمن المعلومات وأدقها[3]

واستعمل جؤذر الخرائط والبيانات الجغرافية المختلفة وليس من المستبعد أن يكون بعض اليهود ممن برعوا في وضع تلك الخرائط قد صحبوا الحملة في سيرها[4] .

ومما عرف عن جؤذر انه كان حذرا قليل الثقة باصحابه ومساعديه ، ولذلك فانه أضاف الى مرافقيه من الأجانب واليهود مجموعة من الكشافين العارفين بتغير مواقع النجوم ، وبأماكن تواجد المياه[5] ، ولعله استخدم الكشافين العميان الذين اشتهروا بالقدرة العجيبة على معرفة مواطن المياه الواقعة تحت الطبقة الرملية السطحية مباشرة[6] . ويفيدنا الفشتالي انه تصادف مع خروج الحملة سفر قافلة

---

(١) المكان السابق ، وفيما يخص « الأزودة الأقوات فأمر أخرس قلم الحساب » .
(٢) H. DE CASTRIES . SI. H. M. ANGLETRE. T.2. P532
(٣) بوفيل ـ مصدر سابق ص ٢٣٥ و٢٣٧
(٤) المصدر السابق ص ١٤٨
(٥) De Castries .S.I.H.M. France .T. 2. P 267
(٦) بوفيل ـ مصدر سابق ص ١٢٤ ، ١٢٥

من التجار كانت تعتزم التوجه الى السودان ، وقد استغل جؤذر هذه الفرصة فاتخذ من أفرادها أدلاء بحكم ترددهم في هذا الطريق الصحراوي ذهابا وجيئة[1] .

ونأتي الى موضوع خسائر جؤذر في رحلته الطويلة تلك لنبرز أولا ما ذهب اليه اكثر المؤرخين من انه فقد الكثير من رجاله ودوابه قبل أن يصل الى نهر النيجر . وبينما يجد بوفيل انه « من الصعب ان يصدق المرء أن جؤذر لم يتكبد خسارة جسيمة في الصحراء قياسا بما كانت تدفعه القوافل من الضرائب البشرية[2] يمضي الدكتور زيادة الى القول بثقة أكبر بأن « الجيش فقد نصفه بسبب العطش والجوع والتعب ، وأن آثار الجهد كانت بادية على اولئك الذين وصلوا كبارا ، بحيث انهم لم يكونوا يستطيعون خوض المعركة رأسا[3] » . ولكن المؤرخ المعاصر عبد العزيز الفشتالي يؤكد أنهم عندما وصلوا الى كبارا كانوا في أحسن المعنويات التي لم يفت فيها ما لقوه من مشقة وعناء « ولم ينتقص لهم عدد ولا مدد »[4] .

لا شك أن ما ذهب اليه المؤرخ المعاصر المطلع ينطوي على الكثير من عدم الدقة . ويمكننا أن نسوق قرينتين تدلان على ذلك كل الدلالة :

فالفشتالي يذكر في موضع من كتابه أن من جملة ما أخذه جؤذر قبل رحيله « العجل وآلة الهندام وآلة السفن والأساطيل والألواح »[5] ولكن تلك الأعتدة البالغة الثقل لم تصل بالفعل الى النيجر مع الحملة ، بل ان جؤذر شرع في بناء السفن بعد هزيمة الأسكيا واستعمل في ذلك أبواب الدور والأشجار وقلاع السفن المحلية[6] . ولم يتحقق بناء أول سفينة على وجه التأكيد الا بعد وصول محمود باشا

---

(١) مناهل الصفا ص ١٣٠

(٢) بوفيل ـ مصدر سابق ص ١٩٩

(٣) زيادة ـ مصدر سابق ص ٨٢

(٤) مناهل الصفا ـ ص ١٣٦

(٥) المصدر سابق ص ١٢٩

(٦) المصدر السابق ص ١٤٧

الى تنبوكتو كما سنرى ، فأين الألواح وآلات السفن ؟

هل نفقت الجمال التي كانت تحملها ، أو تخلى عنها جؤذر في احدى مراحل سيره عندما بدا له أن حياة أفراد الحملة أغلى من الأثقال . المهم أن تلك الأحمال خرجت من مراكش ولم تصل الى السودان .

والأمر الآخر الذي يؤكد فقدان جزء هام من دواب الحمل وفي مقدمتها الجمال ، هو اضطرار جؤذر الى الاغارة على قطعان المواشي التي كانت في ملكية فخذة أولاد عبد الرحمان من قبيلة البرابيش، ، شرق أروان، فقد اشتكى عيسى بن سليمان البربوشي وهو شيخ تلك الفخذة الى المنصور من استيلاء جؤذر على جماله واستعمالها في نقل جيشه[1] ، فأين ثمانية الآلاف دابة حمل التي خرجت من مراكش ؟ ان القليل منها ذبح لاعتصار كروشها واستخراج الماء ولا شك ، ولكن الكثير نفق لسبب من الأسباب ، حتى ان المنصور نفسه يعترف بأنه لم يشترك في معركة تديبى سوى عشرين حصانا[2] .

المهم أن جؤذر باشا وصل بأغلب جيشه وصناعه ، وبعدد من دوابه الى مقصده أي الى ميناء كبارا بعد أربعة أشهر من المعاناة والنصب ، وعلينا أن نرافقه في تلك المسيرة دربا دربا وموقعا موقعا ملقين بأسطع الأضواء على ذلك الطريق الذي سماه المؤرخون « بطريق جؤذر »[3] .

خرجت الحملة من مراكش في فاتح محرم ٩٩٨ هـ (١٠ نوفمبر ١٥٩٠) وفي ٢٤ صفر (٣ يناير ١٥٩١) كانت قد اجتازت بلاد كتاوة ونهر درعة وتأهبت لاجتياز الصحراء . وينبغي أن نتوقف قليلا للنظر في أمر تباطؤ الحملة في هذه المرحلة التي

---

(١) السعدي ـ تاريخ السودان ص ١٧٢

(٢) رسائل سعدية مصدر سابق ص ١٩٣ .

(٣) كريم . المغرب في عهد الدولة السعدية . ص ١٥٩

لا تزيد الا قليلا على ربع المسافة الكلية[1] والتي قطعتها الحملة فيما يقارب الشهرين .

قبل كل شيء يجب ملاحظة أمر هام وهو الفارق الزمني بين استعراض الحملة في تنسيفت يوم ١٦ ذي الحجة وبين انفصالها عن مدينة مراكش بعد ذلك باسبوعين . فهل كان السبب في ذلك هو رغبة السلطان في انتظار اخبار الحملة التي أرسلها قبل أشهر الى تيكورارين كما رأينا . فعلى ضوء تلك الأخبار كان عليه أن يفضل سلوك الطريق الشرقية القصيرة المسافات والوفيرة الخيرات ؟ أو أن أخبارا عن تساقط الثلوج على ممر درن وثنية الكلاوى ، وهي تسقط عادة في ذلك الوقت من السنة ، هي التي تسببت في ذلك التأخير ؟

مهما يكن من أمر فان المنصور أعطى الاشارة بالتحرك بعد تأخير كان لا بد منه ، فصعدت الحملة ممر درن « وتسورت بين شواهقها مضايق طرق وتسمنت حزوزا وعزازا لا تسهل فيه »[2] . وكانت تلك المنطقة الوعرة آنذاك شبه خالية من السكان بسبب كثرة الثلوج والعواصف والجفاف وصلابة الصخور، ان كانت بعض الفجاج والمنبسطات المرتفعة من بلاد متوكة وكلاوة ، وهي شيعة للسعديين وأصل عصبيتهم تتوفر على بعض المراعي والكثير من الينابيع[3] .

وقد سارت الحملة في بلاد الكلاوة متتبعة الوديان العميقة بين جبال الأطلس

---

(١) De Castries La Conquete du Soudan pour al -Mansour Hespirio Vol 111 (1923) P 458 - 478

« المسافات في مسيرة جؤ ذر :
من مراكش الى كتاوة ٢٥٠ كيلومترا
من كتاوة الى تندوف ٤٥٠
من تندوب الى تغازى (تاودوني) ٨٠٠
من تغازي (تاودوني) الى كبارا ٥٤٠ » .

(٢) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١٣٣ .

(٣) عبد العزيز بن عبد الله ـ تاريخ الحضارة المغربية . ح١ ص ١٦

الكبير ، وقبل أن تصل الى قرية (اولزو) المبنية وسط أشجار الزيتون والتي تحف بها الجداول السريعة عن اليمين والشمال اجتازت شعب العطش المعروف باسم أكني نفاد ، واستراحت بالقرب من قرية (تكمى نتالاغت) حيث العيون الجارية وثمار اللوز والزيتون والخضار ، ثم قطعت القنطرة التي كان المنصور قد أنشأها في هذه الجهة لتحط الرحال عند قرية (أسني) التي كانت محطة المحلات السلطانية منذ عهد الموحدين[1] .

ويحدثنا الفشتالي عن اجتياز المسافة بين درن وأسنى مؤكدا بأنه رغم صعوبة السير في تلك المناطق الجبلية الصعبة فان أحمال الجيش لم تصب بشيء[2] ، ويستفاد من هذا ان الأمتعة الثقيلة وصلت سالمة الى أسنى على الأقل ولم يحدثنا الفشتالي بعد ذلك عن تلك الأحمال ، ولعله أخفى بعض أمرها شأنه في ذلك شأن اخبار أخرى خاصة بحمله السودان .

ووصلت الحملة الى قبيلة (أولاد برحيل) العربية ، ويغلب على الظن أن جؤذر توقف بعض الوقت بالقرب من ضريح (سيدي عياد) الذي كانت تربطه بالمنصور صداقة ووداد والذي توفي في ذلك الموضع قبل سبعة أعوام فأقام رجال قبائله قبة عليه ، وحولوا المكان الى سوق دائمة كانت تزخر باللحوم والبقول ومختلف العروض ، ولم يلبث التجار هناك أن شيدوا لهم منازل وأطلقوا على مجموعها اسم قرية (تامازورت)[3] .

وبعد يومين من المسير بعد جنوب تامازورت كان على رجال الحملة أن يشهدوا حفلا مخزنيا في قرية جبلية جميلة كانت تدعى (تانفيكغت) ، ولقد كانت

---

(١) محمد المختار السوسي ـ خلال جزولة ـ المطبعة المهدية ـ تطوان ـ ج٣ ص ١٦٩

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ ـ ١٨٦

(٣) معناها في الشلحية البربرية مكان الزيارة وهي كما يبدو مأخوذة من اللغة العربية .

تجب الاشارة قبل الآن الى أن حاجب السلطان ومستشاره أبا محمد عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتي وهو في نفس الوقت خاله ومن العارفين بأحوال هذه الجهات كان قد اصطحب الحملة منذ خروجها من مراكش الى وصولها منتهى العمران عند وادي درعة ، وكانت مهمته تثقيف أحوال العسكر ومراقبة أموره وتجديد ظهائر التولية للعمال والحكام المحليين[1] وأخذ الزكوات والأعشار وواجبات المخزن[2] .

وهكذا فعند وصول الحملة الى تانفيكغت ضربت خيامها حول ضريح الولي الصالح (سيدي ابن ويساعدون) ، وقام الطباخون باعداد الصدقات التي سكبت في قصعة ذلك الولي والبالغ قطرها ثمانية أشبار ، وتقدم العمال المحليون وكلهم شيعة للسعديين لأخذ ظهائر التعيين أو التوقير من يد الحاجب السلطاني ، وكانت أصوات الغناء والزغاريد تصل الى أسماع الحضور من دار القائد التي لم تكن بعيدة عن المكان ، والتي كانت محاطة بالأبراج المبنية وسط غابات اللوز والمحمية طبيعيا بمسيل مائي غزير وعميق ، ولا شك أن الحملة انتظرت هناك حتى حلول أحد أيام الآحاد وهو يوم السوق لتشتري بعض حاجاتها .[3] .

ووصلت الحملة الى منطقة سكتانة الغنية بالبساتين والآهلة بالقبائل البربرية المشايعة للسعديين وفي قرية (تسناسامين) ، وجد جؤذر باشا والحاجب السلطاني قاضي الناحية ومفتيها الفقيه موسى بن محمد بن المبارك وهو من الشرفاء الخالديين الذين خدموا الدولة السعدية كقضاة لتلك النواحي ، وكانت القرية تحتوي على عيون جارية وحقول مروية تتخلل الدور ، وكان يوجد بها مسجد جامع تقام به صلاة الجمعة له محراب مزخرف ومنبر ، وقد انقطعت الصلاة في ذلك المسجد منذ نهاية عهد السعديين[4] .

---

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٥٢

(٣) السوسي خلال جزوله ج ٣ ص ١٥٤ ـ ١٦٢

(٤) المصدر السابق ص ١٣٣ و١٣٨

واستراح جؤذر باشا بعد ذلك في زاوية الشيخ (أبي صالح) وهي محطة للقوافل منذ القديم ، وكان القيم على الزاوية يأخذ مقدارا معلوما من زكاة التمر والشعير من الفلاحين وصدقة من المسافرين ، وذلك بقصد انفاقهما على ابناء السبيل والفقراء والطلبة الذين يتلقون العلم بمدرسة كانت توجد في عهد السعديين في عين المكان[1] .

ومرت الحملة من قرية (تمآليز) التي كان يوجد فيها آنذاك حصن حربي له أبواب وسور عال تقطنه الحامية السعدية المكلفة بحماية القوافل التي كانت تجتاز بلاد سكتانة ، ولا بد انها قد تفقدت رجال الحصن وسلمت لهم الرواتب ، وأخذت منهم واجبات المخزن من التمر والزيتون واللوز والتين والشعير والعلف[2] .

واجتازت الحملة بلدة (اليغ) ذات الشهرة الذائعة في عهد السعديين ، وكانت في ذلك الحين ذات بساتين وعيون يعتني سكانها البربر بتربية الخيول وزراعة الفواكه والخضراوات ، وكانت تتكون من ثلاث عشرة قرية ويوجد بها الجامع الكبير والفنادق لسكنى المسافرين ، وعلى جبل يتوسط القرى الثلاث عشرة كانت أبراج الحصن السعدى مرتفعة مشرفة ، وقد اعتنى الشرفاء السعديون بهذه المدينة التي تهدمت بعد سنوات من انتهاء دولتهم ، ونظموا الملكيات الزراعية فيها وجروا الجداول لسقي أراضيها ، ونصبوا عليها عاملا محنكا هو ابن الطالب الحسن الذي بنى دار قيادته في أعلى قمة بالمنطقة واحاطها بسور كان يشعل النار في جنباته ليلا فتتبعه مراكز المراقبة المنبثة في قمم الجبال المجاورة باشعال نيرانها التي يهتدي بها

---

(١) المكان السابق .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥

المسافرون والتي تسمح للحراس وأفراد الحامية بمراقبة ما يجري في الجهات المجاورة[1] .

ووصلت الحملة في طريقها الى قصبة (تامدولت) التي بناها السعديون بين مدينتي (أقا) و(طاطا) ، ويقول المختار السوسي بأن تلك القصبة بناها أحد أمراء الأدارسة عبد الله بن ادريس بن ادريس عندما كان واليا على جنوب المغرب (٨٢٨ - ٨٤٤م) ، وجددها ملوك المغرب تباعا ، وجعلها السعديون احدى حصونهم على أبواب الصحراء وقد وصفها السوسي بأنها كانت تقع فوق أكمة ناشزة تحيط بها الكثبان ، وهي عبارة عن حصن له بروج من الجهات الأربع على قدر متسع الأكمة ، وقد وجدت محلا لا يزال فيه الحائط سليم الأساس ، وشبرته فوجدته في عرضه أحد عشر شبرا . والبناء باللوح ويحاذيه البناء الحجري في جانب الحائط من أسفله الى أعلاه ، وقد بناه إما احمد الأعرج أو أحمد المنصور الذهبي فالبناء من ذلك العهد »[2] . وقد وجد السوسي بقايا كثيرة من خبث الحديد وقطعه التي تساقطت من صنع الحديد وتسخينه مما يدل على أن احدى المشاغل الحديدية السعدية كانت تقوم هناك لخدمة الحملات التي اتجهت تباعا نحو بلاد السودان .

وأسفل الحصن كانت تقوم مدينة عامرة ولعلها تهدمت في فترة قريبة ، وقد وجد السوسي بقايا قناة متخذة من الطين المشوي كانت تغذي المدينة والبساتين بالمياه ، وعثر أيضا على أنقاض طواحين مائية استخدمت في طحن الحبوب وعصر الزيتون[3] .

ولا نعلم المدة التي استراح فيها جؤذر في تامدولت بمنطقة كتاوة ، ونعتقد بأنها كانت كبيرة لأن الحملة كانت في حاجة إلى الراحة في مكان كهذا تتوفر فيه كل

(١) المصدر السابق ١٠٢ و١٠٨

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ و٨٨

(٣) بوفيل مصدر سابق ص ١٩٦ . والمكان السابق .

الشروط المناسبة للاقامة ، كما أنها كانت في حاجة أيضاً إلى التمون بالزيت والدقيق والأعلاف واصلاح شأن الدواب ، ومعالجة حوافر الخيول وتنظيف الأسلحة والتفتيش عليها ، ويعتقد بوفيل أن المنصور قد أنشأ هنا أي في منطقة كتاوة دارا للسكة أعدها لضرب الذهب السوداني[1] ، ولعل بقايا الحديد التي شاهدها السوسي وكذلك المطارق الحسنة الصنع والمترادفة الأحجام والثقل هي التي أوحت اليه بذلك الاستنتاج الذي لم نجد له أي سند في التاريخ السعدي .

والذي ينبغي اعتباره في معلومات بوفيل هو ما اعطاه لهذا المكان من أهمية ، فقد قرر أنه في مشارق أقا أو بلاد كتاوة استكملت الأهبة الكبيرة للسفر[2] .

وتقدمت الحملة بعد تامدولت في اتجاه مدينة (طاطا) . ولم يرد ذكر لدخول جؤذر هذه المدينة ولعله اكتفى بالنزول في ارباضها عند قصبة (انكارف) التي كان يقيم بها أيضاً عامل المنصور الذهبي ابن الطالب الحسن في جزء من أيام السنة ، وفي هذه المنطقة تبدأ مضارب قبيلة تجاكانت التي تصل في نجعتها إلى تندوف ، وهذه القبيلة التي تؤيدها قبيلة بربرية قوية متساكنة معها هي (ايدا أو بلال) كانت من أكبر قبائل الجنوب المغربي واكثرها قطعاناً ، وقد وجدت الحاميات السعدية والحملات التي مرت من هذا المكان العون والمؤازرة من القبيلتين معاً ، وكان حكم ابن الطالب الذي أخذ بيد الحملة وأمدها بما احتاجته يمتد على جبل (باني) كله[3] .

ومر جؤذر بعد ذلك بأرباض مدينة (أقا)[4] التاريخية ، وضرب خيامه على بعد عشرة كيلومترات في بسيط (تالوين) حيث كانت توجد بعض الدور ، وتسع عيون وفيرة المياه ، وآبار حلوة طمرت في أواخر العهد السعدي ، وكان يطلق على

---

(١) بوفيل مصدر سابق ص ١٩٦

(٢) المكان السابق

(٣) السوسي ـ خلال جزولة ج ٣ ص ٩٤ و ١٠٢

(٤) Rene Caillie «Journal d'un voyage a TAUMBOUCTOU dans l'Afrique central «Anthropos-Paris 1965-T. P 213

هذه الواحة اسم (أمسكدف)[1] . ويبدو أن جؤذر قد اخذ من عامل (أقا) الواجبات المخزنية المتمثلة أساساً في بلح النخيل والشعير والعلف .

ويجب أن نتوقف قليلاً مع الحملة في ضواحي (أقا) لنتساءل عن السبب في عدم دخول جؤذر تلك المدينة وابتعاده عن كل المدن الكبرى التي كانت في طريقه من مراكش إلى كابارا .

لقد كانت الأوامر التي صدرت عن المنصور واضحة وصارمة بأنه لا يجب الدخول إلى المدن الآهلة الكثيرة المتاجر والأسواق ابعاداً للجيش عن أن تراوده فكرة النهب أو التطاول على ممتلكات الناس . وقد حدث في تيمومن عاصمة تيكورارين أن الجيش السعدي عندما دخلها انطلقت أيدي العساكر بالنهب والعبث في المنازل[2] وكان من عادة قادة الجيش أن يعطوا عساكرهم الحق في تلك الأعمال بحيث اعتبرت احدى المرغبات في سير القبائل إلى الحرب أو إلى اعمال التهدئة ، وقد حدث عند تأهب القائد محمد بن سالم للذهاب بحملته إلى السنغال أن الجيش عندما مرّ بمدينة مراكش وهي عاصمة الدولة منح لنفسه حق نهب المدينة كما جرت بذلك العادة ، واستمر النهب ثلاثة أيام[3] .

ولقد « سار الجيش على وتيرة الانضباط فيمر برعايا مولانا الامام المنصور بالله . . متفيئة لظلال الدعة ممتدة الأمال في كنف الهدوء »[4] و « يكف الجنود عادياتهم عن الرعايا وإلاّ تبسط أيديهم في نقير أو قطمير لما مدنهم عليه من الانضباط وهذبهم من ثقاف السياسة . . ولم يتأت ذلك لملك اسلامي أو جاهلي إذ لم تزل الرعية تلحقها معرات الجيوش ويجتاحها عيثها فعندما خيموا باصقاع درعة لم تمتد أيديهم في فتيل ولا قدد قلامه حتى انفصلوا عنهم وقد اجهشوا بالدعاء لمولانا »[5] .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٠ و ٨٥
(٢) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ٧٦
(٣) مؤلف مجهول ـ تحقيق كولان مصدر سابق ص ٦٨
(٤) الفشتالي ـ المناهل ص ١٣٣
(٥) المصدر السابق ص ١٣٤

فالسبب اذن في عدم دخول الحملة المدن التي كانت تقع في طريقها مرده قبل كل شيء إلى الخوف من افتتان العسكر وقيامه بالنهب والسلب حتى ولو كان ـ كما قال الفشتالي ـ مهذباً تالسياسة وممدنا ومدرباً على الانضباط ، ونحن نعتقد أن جؤذر كان رغم ذلك يقترب من المدن والقرى الكبرى بين مراكش ودرعة اقتراباً شديداً ، بينما كان يبتعد عن المراكز الأهلة الواقعة إلى الجنوب من درعة . أن السبب في ذلك يرجع حسب اعتقادنا إلى وجود الحاجب السلطاني برفقة الحملة والذي كانت مهمته تختلف عن مهمة الحملة نفسها ، فقد كان على الحاجب أن يدبر شؤ ون الحاميات ويقتضي الخراج ويعين الولاة أو يقرهم ، ثم يقدم لجؤذر في نهاية العمران ما هو في حاجة اليه من مؤ ن . ونظراً لاختصاص الحاجب بتلك الشؤ ون فعليه أن يحتك بالسكان ويقترب من العمران ، وعندما افترق الحاجب مع الحملة عند وادي درعة غير جؤذر من الأسلوب السابق في الاقتراب من المراكز البشرية ، فلم يعرج بعد ذلك على أية مدينة أو قرية مرّ بها مثل تندوف وتغازي وتلودوني وأروان وتنبوكتو ، مخافة أن تفسد أخلاق جنده فيلتهوا بالغنائم وينسوا مهمتهم التي قدموا من اجلها إلى السودان .

ولقد استراح جؤذر ببسيط تالوين ولم يدخل مدينة أقا التي كانت في ذلك الوقت قد ورثت سجلماسة واصبحت أهم طريق نحو السودان[1] ثم حزم أحماله وانحدر مع وادي أقا الجاف حتى مصبه في درعا ، وعند ضريح سيدي عدنان كان على الحملة أن تسير بضعة كيلومترات غرباً قبل الوصول اليه ، أنزلت الأحمال مرة أخرى ريثما استوعب جؤذر الأهبة الأخيرة قبل اقتحام بلاد الحمادة واكمل الاستعداد وأتاح للحاجب السلطاني فرصة تثقيف أحوال العسكر ومراقبة اموره وتجديد ما وهي من أمره ، وابدال دواب الحمل وتسليم احمال القمح والبلح والعلف واللوز والسمن والعسل والزبيب والزيت وآلاف القرب المملوءة بالماء إلى المكلفين بذلك[2] . وجرت حفلة التوديع ورفعت الأكف بالدعاء للمنصور

(١) بوفيل ـ مصدر سابق ص ٣٠٤

(٢) حركات ـ مصدر سابق ص ٢٠٤ ـ بوفيل مصدر سابق ص ١٩٦

وجيوشه ، ثم قوضت الأبنية ورفعت الأثقال في ٢٢ دجنبر ١٥٩١ .

وكان على الحملة أن تقطع بعد ذلك مسافة ١٨٠ كليومتراً وهي المسافة الرابطة بين سيدي عدنان وتندوف ، وتقع كلها ضمن بلاد الحمادة القليلة المياه ، وقد اتجه جؤذر نحو الغرب ليقطع جبل (الورقزيز) عند فتحة (أم العشار) ، ثم سار باتجاه الجنوب إلى حاسي[1] المكيتيب ذي المياه العذبة ، ثم صعد مرتفع الحمادة قاصداً حاسي (طوارق بوعام) وصعد مع (وادي الماء) من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ، ومر بثلاث آبار هي (حاسي زكيلها) و (حاسي القروة) و (حاسي خنيفيسة) قبل أن يحط الرحال في سبخة تندوف[2] ، ويبدو أن جؤذر كان ميمون الطالع ، فقد نزلت الأمطار على الحمادة تلك السنة وامتلأت الآبار التي مرّ منها جؤذر قبل وبعد تندوف[3] .

وكان على جؤذر أن يتجه نحو الجنوب الغربي إلى تندوف دون أن يدخلها ، لأن البئر الوحيدة في تلك الناحية توجد على بعد عدة كيلومترات إلى الجنوب من المدينة ، ولا شك أن الجيش تزود بحاجته الكاملة من المياه العذبة حيث كان عليه أن يدخل بلاد الحمادة القاحلة[4] .

إن الحمادة الواقعة جنوب تندوف تتكون من حبات الكوارتز المتبلور التي لا تعطي إلاّ شروطاً متواضعة للحياة . ورغم وجود واديين يفيضان بعد الأمطار المتوسطة أو القوية ، وهما وادي تتراع ووادي مركالاً ، فان المكان الذي قد يتوفر

---

(١) ا الحاسي هو البئر

(٢) مستنقع جاف يقع على بعد ٣٥ كيلومتراً شرق تندوف

(٣) الفشتالي ـ مناهل الصفا ص ١٣٥

(٤) الطريق التي سلكها جؤذر اعتباراً من تندوف هي نفس الطريق التي سلكها الدكتور لانز في شهر مايو من عام ١٨٨٠ ، وسنعتمد على أوصاف هذا الرحالة الالماني للمناظر التي يفترض أن أي تغيير لم يطرأ عليها ، ويجب التنبيه على أن الرحالة قبل الحملة السعدية وبعدها لم يسلكوا هذه الطريق فابن بطوطة والحسن الوزان سلكا طريق سجلماسة ـ تغازي ـ ولاتة ووصلا إلى تنبوكتو عن طريق الغرب وفي العودة اتجها من غاو إلى توات ، أما الرحالة الأوروبيون مثل كاييى فقد اتخذوا طريق الساحل أو مسالك توات .

على الماء في هذه الجهات كلها هو منخفض وادي بركة الذي تنبع فيه عين تحمل نفس الاسم ، وإن مشاق الرحلة فوق حمادة البركة لا تأتي من قلة المياه فقط ، وندرة العشب أو انعدامه ، ولكنها تأتي أيضاً من تعرض المنطقة لرياح الغرب العاصفية التي تنشط حركة الرمال فيضطر المسافر إلى تغطية أعين الدواب ، والسير بالبطء الأدنى ، وأيضاً من اختلاف درجة حرارة الليل والنهار ذلك الاختلاف الذي قد يصل إلى ٣٠ درجة ، ويكون الليل شديد البرد عادة ، فيلجأ المسافر إلى التدفئة باحراق ما لديه من الأعشاب والأخشاب[1] .

وتصبح أراضي الحمادة بعد عين البركة حافلة بالحفر والتسننات بسبب تعرضها لعوامل التعرية منذ الزمن الكاربوني ، فيضطر جوذر إلى تخفيف السير ، واحاطة أرجل الخيل والابل بقطع القماش المبللة ، ويمر الجيش في مناطق الصفيات ووادي الحات والكرب الأبيض حيث لا يوجد نبات أو ماء أو حيوان ، ويصل بعد أربعة أيام من السير الخفيف إلى كرب الأنينا حيث تتزاحم بضع نخلات حول نبع صغير للماء ، ويكون على دواب الحمل أن تتحمل العطش والجوع حتى مع وجود هذا المظهر الحياتي المتواضع . وتشتد حرارة الليل والنهار في ذلك الجزء من الطريق (٤٠ في النهار و ٣٠ في الليل) . وهكذا كان على جوذر أن يسير ستة أيام أخرى في مناطق شديدة الامحال قبل أن تستقبله جوارح وطيور بلاد الايكدي التلية[2] .

وإنه مما لا شك فيه أن ترحيب بلاد الايكيدي بجوذر كان كريماً ، فبئر العباس الغزيرة المياه لم تكن هي المصدر الوحيد للحياة ، ويقتضي الأمر حفر نصف متر لينبجس الماء فتسقي الابل وتملأ الأساقي ، وغير بعيد من المكان تظهر أولى بوادر الخضرة المتمثلة في النخيل القزم وبعض الأعشاب الشوكية ، ولا تخلو

---

(١) حل لانز في هذه الجهة يوم ١٣ مايو أي بفارق ثلاثة أشهر من مرور جوذر بها وكانت درجة الحرارة ٨ - لانزج ٢ ص ٥١

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ - ٥٣ Dr Oskar Lenz. «Timbouctou, voyage au Sahara et aus Soudan» Traduit de l'Allemand. Paris. Hachette-1886

هذه المنطقة من قطعان الغزال والبقر الوحشي ، والماء عذب وإن كان نبات القصب والاسل يعطيه نكهة خاصة .

وقد تحدث لانز عن ظاهرة غريبة في شمال بلاد الايكيدي سماها بظاهرة الرمال المتكلمة ، فوسط الصمت المطبق تعلو من هنا وهناك الحان تشبه أصوات المزامير والأبواق ، وتتجاوب تلك الأصوات بعضها مع البعض الآخر مع كل هبة ريح[1] .

ويمضي المغاربة بضعة أيام في الراحة قبل أن يستقبلوا منطقة العرق المعروفة (باكيدي) التي هي عبارة عن سلاسل وآكام شاسعة تتكون من رمال الكوارتزا المتحجرة أو المفتتة ، وتعرف رمال الايكيدي بشدة حرارتها فلا تتحملها أقدام الانسان أو الحيوان العارية ، ورغم توفر الماء والمراعي المتناثرة والمتباعدة ، فان صعوبة المنطقة تأتي من شدة انحدار سطحها ، وكثرة الوديان الجافة العميقة ، وارتفاع حرارة الجو بها إلى أكثر من ٤٠ درجة .

ووسط ايكيدي يسكن الهواء ويثقل المناخ وتأخذ الأرض صبغة ليمونية ينعكس عليها النور فيزيد كل ذلك من وحشة المكان ، أما الرمال الكوارتزية البراقة فتغدو حباتها بحجم حبات القمح تغوص فيها الأرجل وقد تخفى النصف الأسفل من الدابة المثقلة بالأحمال وهذه هي منطقة (القلاب)[2] .

وبعد أن اجتازت الحملة هذه المنطقة الوعرة استقبلت سهلاً رملياً نصبت عليه خيامها استعداداً لاجتياز المنحدرات التي تكسوها حجارة جبال (الأيت) . ولا شك أن بعض رجال الحملة قد عثروا على بعض الغزال الذي يتوالد في هذه المنطقة ويجد ضالته من الماء والعشب في السفوح الشمالية لجبال الأيت .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ - ٦٢ ، وكلمة القلاب مفردها قلب وهي تعني القيعان الرملية التي تتوسط هضاباً منعزلة ، فالقلب باللهجة الحسانية هو الجبل المقلوب .

وفي وسط السهل الحجري يحدثنا لانز بأنه وجد مجرى مائياً منتظماً ولكنه ضعيف المياه يتجه من الغرب إلى الشرق يسمى وادي سوس ، والتسمية تدل في الواقع على التشبيهات التي جاءت بعد حملة جؤذر حيث أننا لم نعثر في أي مصدر سابق على ذكر لهذا الوادي بذلك الاسم[1] .

وقد وصلت الحملة بعد مسير يومين في أرض صعبة المسالك إلى منطقة النجود ، وبينما كانت المناظر رتيبة كئيبة أصبح التغيير هو الطابع المميز ، فالألوان متمايزة متناسقة والوديان الجافة تشتمل على شريطين متوازيين من الأعشاب وكأن المياه جفت عنها في اليوم السابق ، أما درجات الحرارة فكانت لا تزيد في وقت الظهيرة عن ٣٠ درجة . وإذا سلمنا بملاحظات لانز فان البلاد النجدية كانت آهلة بالسكان قبل وقت قصير من اجتيازه لها ، وقد وجد لانز في نهاية القرن التاسع عشر بعض البيوت المهجورة ، وبقايا مزارع الواحة التي تخلى عنها العرب الرحل بسبب انعدام الأمن ، وكانت هناك بئر لا تزال المياه غزيرة بها وهي بئر (متمة بوشعبية) . ويصح التصور ازاء ذلك بأن جؤذر الذي أم هذه الواحة قطعاً قبل ثلاثة قرون من وصول لانز اليها قد وجد احدى الأماكن المفضلة للاستراحة ومعاودة تنظيم رجال حملته وأثقالها . ومن الثابت أن تلك المنطقة كانت لا تزال تحفل بالآبار والمراعي الجيدة واشجار الأكاسيا التي تتناثر فوق السفوح الشيستية الداكنة اللون في بداية هذا القرن[2] .

واتجهت الحملة المغربية نحو الغرب بعد أن فارقت منطقة سوس لتستقر بعد يومين من السير الحثيث حول بئر (ايكليف) التي تتوسط (عرق الشيش) . وحول تلك البئر تظهر الخضرة وترتع اسراب الغزال والوعل ، وكان على الحملة أن

---

(١) لا يوجد هذا الوادي في أية خريطة حديثة مما يدل على أن طبيعة الصحراء قد تغيرت في غضون القرن الأخير ، ومن أوصاف لانز يتبين أن الماء في الوادي كان متوفراً ولم يكن يعد بالضرورة إلى الأمطار المؤقتة . المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧

تقطع العرق من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي لتمر من بئر (تارأمانت)[1] وبئر (أمول كراكين) وعدة آبار أخرى دائمة المياه[2] . وبعد مسير أيام ثلاثة بعد منطقة العرق مرت الحملة بسهل حجري لا يزال يعرف بمنطقة عين ابن محاميد وهو اسم لقبيلة عربية كانت تقطن تلك الجهات وانتقلت في بداية عهد الدولة العلوية إلى الشمال لتقطن واحة في تافيلالت تسمى إلى الآن بالمحاميد[3] .

ووصلت الحملة إلى أرباض تاودوني وضربت خيامها فوق سبخة ملحية التربة إلى الجنوب من تلك القرية التي كانت مملحة افريقيا الغربية آنذاك ، ورغم أن المعلومات الحديثة تؤكد أنه لا يوجد سوى بعض الآبار المالحة حول القرية ووسط تغازي الغزلان فان المعلومات التاريخية تفيد أن تاودوني كانت قبل قرنين أو ثلاثة تتوسط منطقة غنية بالآبار القليلة الملوحة وبالعشب الأخضر ، ويجري حولها واد تظهر مياهه بعد فصل الأمطار هو (وادي التيليغ) ، وكانت تاودوني شأنها اليوم ، ملتقى الطرق الشرقية الغربية والشمالية الجنوبية[4] . ونعتقد أن جؤذر قد أراح بضعة أيام بالقرب من آبار التيليغ التي تبعد نصف يوم عن تاودوني ، كما لا نستبعد أن يكون قد قلد سكان هذه الناحية الذين كانوا يخلطون الماء بالعسل لتخف ملوحته . ووجدت الدواب هنا ضالتها في الأعشاب التي كانت تزخر بها الكثبان المستقرة المحيطة بوادي التبليغ وبالمدينة نفسها ، وقد ترك لها جؤذر الوقت الكافي للرعي بينما انصرف الجنود في عملية استخراج الماء الحار الزعاق من مكامنه على عمق عشرين متراً . وهكذا فبعد أن افتقدت الحملة المراعي والمياه فيما بين تغازي وتاودوني وصلت إلى النقطة التي كان الجزء المخيف من الصحراء قد قطع ،

---

(١) تسمة بربرية ، وكلمة أمان تعني الماء باللهجة الشلحية .

(٢) لاحظ لانز بأن ماء هذه الآبار يحتوي على الهيدروجين الكبريتي - مصدر سابق ص ٦٨

(٣) المصدر السابق ص ٧٠ . ويذكر بوفيل أن من أسباب هجرة السكان عن تلك الجهات اضطراب حبل الأمن بعد القرن السابع عشر وازدياد وطأة تبدل المناخ - بوفيل مصدر سابق ص ٢٥ .

(٤) Gat. A Travers le Desert. Gedalge. Paris P 126 يسمي لانز وادي التيليغ بالوادي (التلي) وقد عد أكثر من مائة بئر على طول مجراه الجاف - لانز - مصدر سابق ص ٧٢

وكان على جؤذر أن يستقبل أراضي تتيح لحملته فرصاً أفضل مما سبق[1] .

ومنذ نهوض جؤذر باشا من تاودوني بدأ في شق أطول جزء من الرحلة وليس أخطرها وهو الفاصل بين هذه القرية وبين أروان والبالغ اربعمائة وخمسين كيلومتراً ، فسار أولاً باتجاه الجنوب حيث فارق منطقة الكثبان الرملية المتحركة جنوب تاودوني بعد ثمانين كيلومتراً من المسير ، وصعد بعد ذلك مرتفعات حمادة (الخنيشيش) التي تتوفر على بثرين عذبتي المياه هما عقلة الخنيشيش وبئر الونان[2] ، وعند نهاية الحمادة اتخذ جؤذر اخطر قرار كان على المسافر في الصحراء أن يتخذه ، ذلك أنه قرر أن يترك الطريق المأمونة الذاهبة نحو أروان[3] والمعروفة جيداً من رجال القبائل العربية والقوافل ، وأن يسلك طريقاً لم يعرف أن أحداً سلكها في السابق[4] لكثرة كثبانها المتنقلة وشح المياه فيها . ويعتقد بوفيل أن جؤذر كان أمام خيارين أما أن يسلك طريق القوافل فيحصل على بغيته من الماء أو أن يبتعد عنها فيحقق المفاجأة الكبرى للاسكيا ، وقد فضل المجازفة لدافع عسكري سنرى آثاره فيما بعد[5] .

ونحن نعتقد أن هناك سبباً آخر دفع بجؤذر إلى اجتناب طريق أروان ذلك أنه كان يعلم أن القبائل العربية كانت تخرج بقطعانها نحو المرتفعات الواقعة إلى الشرق من أروان في ذلك الوقت من العام[6] . وحيث كانت حاجته إلى الابل ماسة فقد يمم شطر أماكن تواجدها ، ومن جهة ثانية فانه أراد أن يوهم القبائل

---

(١) بوفيل ـ مصدر سابق ص ١٩٧
(٢) كانت المنطقة الواقعة بين تاودوني وأروان غزيرة الأمطار حتى نهاية القرن الماضي ، وقد وجد لانز بقايا عشرات البيوت قرب تاودوني وأروان التي كانت تتخذ من الطين المشوي والخشب واستنتج من ذلك أن تلك الجهة كانت آهلة ومتطورة وكان سكانها على جانب من الحضارة ـ لانز ـ مصدر سابق ص ٧٨ .
(٣) السعدي ـ مصر سابق ص ١٣٩
(٤) بوفيل ـ مصدر سابق . ص ١٩٦ و ١٩٧
(٥) المكان السابق
(٦) السعدي المكان السابق

الصحراوية والأسكيا بأن هدفه ليس الاستحواذ على المدن واحتلالها بل هو طامع فقط في أن يحمل الأسكيا والعرب على الاذعان للمخزن ومبايعة السلطان ، وهذا عنصر نفسي يتناسب مع الروح الاستقلالية عند قبائل تلك الجهات ومع الخطة المتكاملة التي كان على جؤذر أن ينفذ فصولها تباعاً .

ومهما يكن من أمر فإن الحملة بعد اجتيازها الخانق الطبيعي عند جنوب حمادة الخنيشيس والمعروف باسم (فم العلبة) اتجهت نحو الجنوب الشرقي ، وقطعت مسافة مائة وستين كيلومتراً قبل أن تسامت مدينة أروان الواقعة على بعد نحو ثمانين كيلومتراً غرباً .

وقد وجد جؤذر البئر الوحيدة في تلك المنطقة وهي بئر أبو الجبيهة (٩٠ كيلومتراً شرق أزوات) في حالة جيدة وغزيرة المياه ، ويبدو أن دليل الحملة قد اختلط عليه الأمر فنسب البئر إلى ازوات نفسها أو أصوادا كما سماها ، ونقل عنه الفشتالي ان المنهل يقع في منطقة صعبة ، وكان واحداً من جملة آبار طمرت في عهد سابق ، والبئر كانت عبارة عن نبعين صغيرين يسيلان كالقطر وعندما وصلتهما الحملة وجدتهما أربعة وعشرين نبعاً تسيل بالماء الغزير العذب فارتوى رجالها وملأوا القرب والأساقي[١]، كما ان الفرصة واتت جؤذر لأخذ حاجته من إبل العرب في تلك الجهات[٢].

وسارت الحملة بعد ذلك ضمن بلاد التوارك الملثمين[٣]، وقطعت كثباناً مستقرة مغطاة بالحلفا وبأشجار الصمغ الكثيفة ، وأشجار الميموزا ، ووجدت ضالتها في الطيور المختلفة التي تبني أعشاشها على طول ذلك الطريق ، وأيضاً في قطعان الغزال وحمير الوحش ، وكانت الغابات تتكاثف كلما اقتربت الحملة من تنبوكتو[٤].

---

(١) الفشتالي ـ مصدر سابق ص ١٣٦

(٢) بوفيل ـ مصدر سابق ص ١٩٦

(٣) الفشتالي ـ مصدر سابق ص ١٣٦

(٤) GAT. OP CIT P L 126

وعند وصول جؤذر إلى مكان قريب من (عين الطاحون) الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً شمال شرق تنبوكتو واجه أول مظاهر سلطة السونغاي في تلك الجهات .

فقد سمع الأسكيا عن اقتراب المغاربة حين وصلوا إلى مشارف بئر الطاحون . وكان لتغيير جؤذر لطريق سيره أثره البالغ في تضليل مستشاري الأسكيا الذين كانوا متأكدين منذ البداية بأن هدف المغاربة هو احتلال تنبوكتو أولاً ، ولذلك فإن الجيش الرئيسي كان قد اتجه غرباً منذ وقت طويل وأصبح يراقب ضفة النهر اليسرى منذ كبارا إلى ديبني[1] .

وأمام هذا الخطر الداهم الذي مثله تحول جؤذر نحو الشرق أي إلى العاصمة ، لجأ الأسكيا إلى تدبيرين : الأول هو استقدام الجيش من الغرب نحو العاصمة لمواجهة الزحف المغربي المحتمل عليها ، والثاني هو القيام بكل ما من شأنه أن يعرقل تقدم المغاربة على الطريق الشرقية التي يسلكها ريثما تصل القوات الزنجية إلى غاو .

وفي مقدمة الأعمال التي وجد الأسكيا من الضروري القيام بها ضمن التدبير الثاني طمر آبار الصحراء الواقعة بين بئر الطاحون ومدينة بامبا على نهر النيجر في منتصف الطريق إلى غاو ، وإرسال الرسل إلى القبائل العربية والتاركية لاعتراض الجيش الغازي وعرقلة تقدمه قدر المستطاع .

والظاهر ان قرار الأسكيا جاء متأخراً ، فقد وقع الرسل والمكلفون بطمر الآبار في يد قطاع الطرق ، وألقى المغاربة القبض على بعضهم ، ولم يتحرك أي من القبائل لعرقلة تحرك الجيش المغربي[2]، غير أن آمال الأسكيا تحققت رغم ذلك ، إذ اتجه جؤذر نحو الغرب وكان قد بلغه أن جيش الأسكيا عاد إلى غاو في الشرق .

---

(١) بوفيل مصدر سابق ص٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٢

كان جؤذر في حاجة إلى إراحة الحملة بعد المشقة والعناء ، ولم يكن يستطيع أن يخوض معركته مع الأسكيا رأساً ، بل كان عليه أن يدبر النقص في حاجاته ويختار الوقت المناسب لمنازلة خصمه سيا وأن ذلك الخصم كان قد توارى عن الأنظار[1] .

وهكذا فقد اتجهت الحملة نحو الجنوب الغربي ، ووصلت إلى نهر النيجر شرق تنبوكتو ثم سارت مع النهر إلى أن وصلت ميناء كبارا البعيد عن تنبوكتو بثمانية كيلومترات ونصبت خيامها هناك في مارس ١٥٩١[2] .

ولعل من أبرز التساؤلات التي طافت في أذهان المؤرخين السبب الذي من أجله لم يدخل جؤذر إلى تنبوكتو أو لم يرسل وفداً لربط أية صلة برجالات المدينة من علماء وتجار ، ولعله كان من أسهل الأمور عليه أن يخضع المدينة ويتقبل بيعتها للسلطان ، وربما كان في غنى عن تجريد قوة ذات بال لانجاز ذلك .

الغالب أن جؤذر باشا كان أمام خيارين : أما أن يحتل المدينة ويحقق كسباً نفسياً عميقاً ضد الأسكيا الذي سيفت ذلك الاحتلال في عزمه ولا شك ، واما أن يتجه مباشرة إلى قوة خصمه الرئيسية فيضربها ويشلها في ذات الوقت الذي سيكون السونغاي على قناعة بأن جيش المغرب لم يحضر لإخضاع المدن والأراضي ولكن لأخذ البيعة من الأسكيا ، قد يكون هذا الأخير عندئذ ملاماً إذا ما عرض شعبه لمحن ونكسات مع استطاعته الإقرار ببيعة السلطان التي سيظهر وكأنها الغرض الوحيد من الحملة على السودان .

والغريب أن جؤذر فضل الأمر الثاني وسار فيه إلى النهاية ، وسنعلم فيما بعد

---

(١) زيادة مصدر سابق ص ٨٢
(٢) يجعل صاحب السودان وصول الحملة إلى ميناء كبارا في ٤ جمادي الثانية سنة ٩٩٩ (٣٠ مارس ١٥٩١) ونحن نشك في صحة هذا التوقيت الذي أكده هوداس في ترجمته (الترجمة الفرنسية ص ٢١٨) نظراً لأن جؤذر كان في حاجة إلى الراحة أولاً ثم لأن معركته مع الأسكيا التي وقعت على مسافة بعيدة من كبارا وقعت بعد اثني عشر يوماً وهذا أمر غير ممكن من الناحية المادية .

أنه بعد أن سلم الأسكيا في قضية البيعة أخرج الجيش المغربي من غاو بعد احتلالها وسلمها للأسكيا من جديد .

وإلى جانب هذا العنصر النفسي كانت هنالك عوامل أخرى لا شك أن جؤذر وضعها في حسابه ، أولها أن مدينة تنبوكتو كانت أكبر مدن السودان وأوسعها ثراء فلو تمكن الجيش من الدخول إليها لعاث في أرجائها وسلب ونهب وألحق بسمعة الجيش المعرة والاحتقار ، وثانيها : إن مقام تنبوكتو العلمي وتعظيم أهالي السودان لها ، ووجود القاضي الأكبر أبي حفص عمر وكبار العلماء بها يجعل من أصعب الصعوبات على السودانيين أن يتحملوا احتلالها من طرف جيش يعلم القاصي والداني أن قيادته غير مسلمة ، وقد يحدث ذلك رد فعل غير مناسب لخطط إخضاع الجهات الأخرى ، وثالثها : إن الحاكم الزنجي للمدينة أو رئيس الشرطة (تنبوكتو منزو) كان في حالة ثورة غير معلنة ضد الأسكيا مع الأمير محمد الصادق أحد المطالبين بالعرش كما قدمنا ، وربما كان جؤذر على علم بالجهود التي بذلها الأسكيا لإعادة ذلك الحاكم واسمه يحيى ولد بوردام إلى طاعته ، فإذا أثمرت تلك الجهود فمن يضمن ألا يستخدم الحاكم رجاله في مقاومة المغاربة ، وهو أمر تحقق بعد أشهر من ذلك بالفعل[1] . ورابعها : ان جؤذر ربما شعر بعدم حماس العلماء والتجار لمجيء الجيش إلى تنبوكتو بعد أن كان الاعتقاد بأنه سيتجه لملاقاة الأسكيا في غاو لا إلى مدينتهم ، وطيلة المدة التي قضاها في كابارا القريبة جداً من تنبوكتو لم يكلف القاضي الأكبر أو أحد القضاة نفسه عناء الانتقال إليه للسلام أو لتقديم الهدايا كما جرت العادة بذلك ، ولم يحضر أحد من وجهاء تنبوكتو الوليمة الفاخرة التي أقامها الجيش على ضفة النهر فرحاً بسلامة الوصول[2] ، وخامسها : أن ولد كزنفيل الذي كان يرافق الحملة والذي انضم إليه بعض الرجال كان تواقاً إلى خوض المعركة مع الأسكيا ليتمكن من الجلوس على العرش ، وليس مما يبعث

---

(١) السعدي ـ مصدر سابق ص ٢٤١
(٢) المصدر السابق ص ١٣٩

الارتياح في نفسه أن ينهمك الجيش في أمور كان يعتبرها ثانوية مثل احتلال المدن أو الاستيلاء على الخيرات .

إن جؤذر باعتباره رجل حرب كان يعتبر أنه قد احتل تنبوكتو بالفعل ما دام أخذ بمخانقها ، فالحراسة قد أقيمت على كل المنافذ البرية ، وميناء كبارا الذي يربط بين بلاد السونغاي ويراقب الحركة على النهر ولا غنى عنه للوصول إلى تنبوكتو يوجد في قبضته ، ففيم العجلة في أمر تنبوكتو ما دام مصيرها مقرراً ، وما دام الاستيلاء عليها من أبسط الأشياء وأهونها .

بقي أن نحقق موضوعاً مهماً متعلقاً بالمدة التي قضاها جؤذر في كبارا ، فقد أشكل فهم النص الذي كتبه السعدي في تاريخ السودان على المؤرخين فجعلوا وصول الحملة إلى كبارا يوم ٣٠ مارس ، والواقع أن السعدي كان يخلط بين يوم الوصول ويوم إقامة الوليمة لدرجة أن القارىء يتصور أيضاً وقوع الأمرين معاً في يوم واحد ، وينفرد الدكتور نقولا زيادة بإعطاء تاريخ آخر وهو ٢٨ فبراير ولا شك أن ذلك يرجع أصلاً إلى سهو غير مقصود في مقارنة التاريخين الهجري والميلادي .

إن الغرض من هذه المناقضة هو محاولة معرفة المدة التي قضاها جؤذر في كبارا ، وبالتالي معرفة يوم وصوله إليها بعد انتهاء مسيرته الطويلة ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن الحملة احتفلت يوم ٣٠ مارس بفرحة الوصول بالسلامة ثم غادرت الميناء في اليوم نفسه أو في اليوم التالي على الأكثر ونقدم أمام رأينا المعطيات التالية :

أولاً : ان جؤذر الذي لم يكن يتوفر على قوارب كان عليه أن يتخذ الطريق البري الطويل لملاقاة خصمه الأسكيا .

ثانياً : إن المسافات بين كابار وتنديبي حيث وقعت المعركة يوم ١٢ ابريل هي كما يلي :

من كبارا إلى بومبا ١٩٢ كيلومتراً

من بومبا إلى بوريم ١٣٧ كيلومتراً

من بوريم إلى تنديبي ٤٠ كيلومتراً

فكان على جؤذر أن يقطع مسافة ٣٦٩ كيلومتراً في ثلاثة عشر يوماً ، وهذا شيء يقتضي منه ألا يريح جيشه ودوابه المحملة بالمدافع والأقوات وأن يسير ليل نهار بخلاف ما يقتضيه أمر الاعتناء براحة جيش مقبل على معركة سيتقرر على نتيجتها مصيره .

ثالثاً : ولو رجعنا إلى رحلة مماثلة قام بها محمود باشا على رأس حملته الكبرى الثانية ضد الأسكيا ، وتقدم فيها من كبارا إلى بومبا حيث جرت معركته مع الأسكيا لوجدنا أنه عندما خرج من كبارا يوم ٢ ذي الحجة ٩٩٩ (٢١ شتنبر ١٥٩١) قضى أيام عيد الأضحى السبعة مريحاً لجيشه في مدينة (سهينكا) ثم وصل بامبا حيث كان ينتظره الأسكيا إسحاق وحيث دارت المعركة يوم ٢٥ ذي الحجة (١٤ اكتوبر)[1]. فمسافة كبارا ـ بومبا التي لا تزيد على ١٩٢ كيلومتراً اقتضت من محمود باشا خمسة عشر يوماً من السير .

ونستطيع التأكيد مع ما قدمناه أن جؤذر وصل إلى كبارا قبل الثلاثين من مارس ، وأن خروجه منها إلى مكان المعركة كان في نهاية ذلك الشهر حتماً .

---

(١) السعدي مصدر سابق ص ١٤٦

٢) الفتح الأول : معركة تنديبي

١ ـ قبل المعركة

لقد كان على جؤذر أن يقضي وقتا كافيا في كبارا لانجاز بعض المهات المتعلقة بقضية السلام أو الحرب مع الأسكيا ولاعداد جيشه للمعركة التي لم يكن يشك في وقوعها .

وإذا ما صدقنا ما أورده بعض المؤرخين فان المنصور الذهبي لم يكن يرغب في اللجوء الى القوة وفكر طويلا في فضائل اخضاع السودان سلما ولو عن طريق معاهدة اقتصادية وسياسية[١] ، ولذلك فانه وحتى بعد مجيء جؤذر بحملته السودانية كان يرغب فقط في أن يعترف الأسكيا اسحاق بخلافته ويجهر بطاعته ويؤدي له واجبات الجهاد[٢] .

وهكذا فان أول مهمة أنجزها جؤذر باشا في هذا الصعيد هي توجيه رسالة السلطان الى الأسكيا في موضوع السلام والحرب ، ويمكن في كثير من الوجوه اعتبارها انذارا باشهار الحرب[٣] .

---

(١) حركات مصدر سابق ص ٢٩٩

(٢) نقولا زيادة ـ مصدر سابق ص ٧٣

(٣) يخبر بوفيل (مصدر سابق ص ٢٠٣) أن تلك الرسالة وجهت الى الاسكيا اسحاق بعد ان كان جؤذر قد سار أربعة أيام منذ خروجه من كبارا ، ونحن نشك في ذلك لأن الرسالة وصلت الى غاو وقبل ذلك الوقت ، وكانت السبب في جمع رجالات السونغاي للمشاورة .
ويقع الدكتور كريم (مصدر سابق ص ١٦١) في حيرة من هذا الأمر ولكنه يتخلص من الارتباك بأن يثبت أن الحملة وجهت نداء الأمان للسودانيين ثم أرسلت رسالة المنصور عندما اقتربت من غاو ، والأمران معا بعيدان عن التصديق لأنه لم توجه أية نداءات أمان من كبارا فيما نعلم ولأن الحملة لم تقترب من غاو قبل انتهاء المعركة .

فقد كتب المنصور في رسالته تلك بعد الديباجة أنه « من الشرائع التي سنها ﷺ وفرضها الاعذار بالكتب قبل الكتائب ، والترغيب قبل الترهيب باصطكاك الركائب . . . . ونحن بحمد الله في هذا وغيره للسنة متبعون وبكتاب الله عاملون ، ولا نوقع قبل وعيد ، ولا نزمع الا بعد أعذار نبدي فيه ونعيد ، فمن وفقه الله الى سبيل الرشاد وجنح الى التي هي أحسن في الحال والمعاد ، يتفيأ في امان الله ورعايته ظلا ظليلا ، ومددنا عليه وعلى بلاده جناحا مستطيلا ، لا يروعه رائع ، ولا تشير الى جهته الوقائع ولا تثير الغبار في وجهه الطلائع ، ومن أضله الله تعالى ودام على الاستعصاء لأمره ، والتهب بوقود الغواية جمره جهزنا نحوه من جنود الله تعالى كتائب كالليل البهيم ما تذر من شيء أتت عليه الا تركته كالرميم ، تزأر زئير الضراغم وتزخر كالبحر المتلاطم ، تنشق ماءه ، وتكشف سماءه ، وتغنم طارفه وتالده ، وتخرب أرضه وبلاده فيلوم نفسه حين لا يغنى الملام ويستسلم ولا ينفعه الاستسلام » .

« وبحسب هذا فاننا ندعوكم الى ما فيه ان شاء الله الخير العاجل والآجل والنجاح الذي هو بحول الله بعز الدارين شامل ، وهي طاعة الله ورسوله ، والجري على نهج الهدى وسبيله ، ثم مداينة الله بمفروض طاعتنا ، والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا والائتمام بشريف امامتنا » .

« . . . وأحرى أن تؤمنوا أنتم باتباع شرائعه ﷺ التي هي بعد البيعة أوضح من شمس الظهيرة وأضوأ من الكواكب المستنيرة ، وأمره ﷺ قد لاح للعيان كالفلق ، وطلع طلوع البدر في الغسق ، وتأتموا بهذه الامامة المقدسة التي عمت أنوارها مشارق الأرض ومغاربها ، وجابت جيوب البسيطة ومناكبها ، وتمتثلوا أوامره الشريفة فيما افترض الله لهذه الخلافة النبوية من السمع والطاعة ، والانخراط بمبايعتها في سلك الجماعة ، وتساجلوا جدكم (ابن ذي يزن) في مثل هذا المضمار وتقتفوا أثره في الارتقاء الى ذروة هذا المنار ، والاستضاءة بهذه الأنوار وتحرزوا ببركتها خير الدارين في الايراد والاصدار ، وتنتظموا في سمط حزب الله الملحوظ

بعين العناية والاعتبار[1] .

والمهمة الثانية التي أنجزها جؤذر في كبارا هي الاجتماع بأحد عيون المنصور علي بن عيسى ، وكان الى ذلك الوقت من الموظفين عند الاسكيا المدسوسين لديه ، وقد أفاد قادة الحملة أن الأسكيا استحق حشد زهاء مائة الف وأربعة آلاف مقاتل[2] ، كما أفاد هو أو غيره بأن السونغاي كانوا على يقين من نيات السلطان العدائية ، ولكن بالنظر لوثوقهم من مناعة الحاجز الصحراوي ووقوفه في وجه أي جيش قد يفكر في مداهمتهم فانهم كانوا بعيدين ـ بالرغم مما جمعوه من أعداد وحشدوه من رجال ـ عن الاستعداد لمواجهة جيش منظم ومسلح بالمدافع والبنادق[3] ، وكعادة المخبرين في التقليل من أهمية العدو فان معلومات أخرى تلقاها المغاربة أفادت بأن الشعب السوداني لم يستجب للدعوة الى حمل السلاح لأنه كان ممزقا بالفتن ومتكبدا لشرور التفرقة والضعف ، ومستهدفا للنهب والتقتيل طيلة أعوام ، ولأن ذلك الشعب لم يصدق أبدا ان حملة عسكرية كبيرة يمكن أن تقطع الصحراء وتنطلق من شمالها نحو بلادهم[4] .

ومع اقتراب يوم شد الرحال الى مكان المعركة كانت عيون جؤذر تأتيه تباعا بالخبر اليقين ، وكان لا يزال في كبارا عندما بلغه أن الأسكيا وجه رسله الى كل الجهات طالبا حشد الرجال والاستعداد لمحاربة المغاربة اذا ما وصلوا اليهم ، « ونادى صريخاً فيمن والى ايالته من أمم السودان والملثمين واستجاش أجيال اقاليم الجنوب »[5] .

وبعد أن سار جؤذر أربعة أيام في طريقه الى تنديبي لاحظ أن خصمه بدأ يقيم المتاريس في الطرق ويخلي جوانبها من السكان ، ويستعد استعدادا حقيقيا

---

(١) رسائل سعدية ـ مصدر سابق ص ١٣٦ ـ ١٣٨
(٢) الفشتالي ص ١٣٧
(٣) بوفيل ـ مصدر سابق ص ٢٠١
(٤) المصدر السابق ص ٢٠٢
(٥) الفشتالي ص ١٣٦

للحرب[1] .

وكانت مهمة جؤذر الثالثة في كبارا هي مراسلة شقيق المنصور الشريف محمد ابن القاسم الذي كان يقيم بالقرب من غاو داعيا إياه للالتحاق بالمحلة السلطانية ، وقصة وجود الشريف السعدى بالقرب من عاصمة السونغاي قدمنا فيها القول في فصل سابق ، وينبغي أن نتساءل هنا عن اهتمام جؤذر بالشريف وبمجيئه اليه قبل أن تنشب المعركة بينه وبين الأسكيا اسحاق ، ان ما نعلمه من أمر الشريف في سنة الحملة على السودان تلك هو انه كان يمتلك ست مجموعات من العبيد يزيد عدد أفرادها على ١٢٥٠ نفرا تنتظمها ٢٥٢ بيتا ، وكان اولئك العبيد ينتسبون لقبائل متعددة ، ولا شك أن الشريف حصل عليهم عن طريق الشراء والهدية والصدقة كما كانت العادة بالنسبة لمن في مقامه ، ويمكن االجـزم بأن مالكهم بذل جهده في تربيتهم وأهلهم تأهيلا مناسبا حتى أصبحوا اداة انتاج وربح له . وعلى سبيل المثال فقد كانت فخذة (باكين) المملوكة للشريف تعد أربعين بيتا وتعطي الشريف سنويا ١٢٠ الف مثقال من غلة الزرع والسمك ، وكانت فخذتا (طوتل) و(أنكند) وعدد بيوتهما ٩٥ بيتا تدفع للشريف ٨١٠ حزم من السمك اليابس وكل حزمة تعد حمولة متوسطة لراحلة واحدة ، أما فخذه كوم (عدد بيوتها ٧٢ بيتا) وفخدة أوبنو (٢٠ بيتا) فكانتا متخصصتين في بناء السفن وجمع أنياب العاج .[2]

فمماليك شقيق أحمد المنصور الذهبي كانوا يشكلون طاقة اقتصادية وعسكرية حقيقية ، لم يفت جؤذر أمر التفكير في الاستعانة بها واستخدامها لصالح حملته ، ويبدو أن امتلاك بعض اولئك العبيد للسفن ، ومعرفتهم بتسييرها كانا في مقدمة ما أطمع جؤذر في استخدامهم .

ويقول كعتو بأن مماليك الشريف تطارحوا عليه ، واستشفعوا بجده حتى لا يأخذهم الى جؤذر ، ويفيد بأن فخذة واحدة هي التي قبلت الذهاب غربا

(١) بوفيل مصدر سابق ص ٢٠٣
(٢) كعتو ـ مصدر سابق ص ١٤٩

للانضمام الى المغاربة وهي فخدة انكند التي كانت تضم ٣٠ بيتا يعمل أفرادها في تيبيس السمك فقط ، ولم يفدنا المصدر بشيء عن الشريف نفسه الذي لم نسمع عنه بعد ذلك شيئا ، ولا عن الجهة التي قصدها اكثر من ١٢٠٠ عبد لم يستطع شقيق السلطان السعدي أن يثنيهم عن تمنعهم أو عصيانهم[١] .

إن المفاجآت تلاحقنا في الحملة المغربية الى السودان وتجعلنا لا نستبعد أن جؤذر الذي كان عديم الثقة في الناس شديد الحذر من أتباعه كثير السوء لمن خالفه أو عصاه ، كان يريد أن يكف أذى الشريف عنه أكثر مما كان يرغب في مساعدته له ، ولعل القائد المغربي وهو الخبير في شؤون البلاط ودسائسه كان يشك أصلا في ولاء الشريف ويخشى من أن تحدثه نفسه باعلان نفسه خليفة مثلا بالاتفاق مع التجار والعلماء أو مع الأسكيا أو بعض حاشيته أو مع الجيش المغربي نفسه ، المهم أن التاريخ لم يتحدث بعد ذلك عن الشريف ولا عن زناجيته كما لم يقدم لنا الا القليل عن حقيقة نسبه ، واسباب حلوله بتلك الديار .

وماذا كان يجري في غاو وخلال الاسبوعين الأوليين من شهر ابريل ١٥٩١ ؟

لقد كان على الأسكيا اسحاق أن يجمع ذوي الرأي في دولته ، ويعرض عليهم أمر الحملة وطرق مواجهتها وما عرضه المنصور الذهبي في رسالته التي كانت قد وصلت اليه .

ونستطيع القول بأن مشاورات الأسكيا قد طالت لا بسبب تعقيدات المواضيع الثلاثة المطروحة ولكن لوجود عدد من المستشارين كانوا لسبب أو لآخر متعاطفين مع المغاربة وفي مقدمتهم احد علماء تنبوكتو الخطيب محمد زغيت[٢] والوزير لنبارو الذي خان الأسكيا فيما بعد .

---

(١) المكان السابق

(٢) من اقرباء محمود كعتو الشورخ ولذلك فهو يصر على تسميته بمحمد كعتو .

لقد جمع الاسكيا اسحاق مجلسا للحرب[1] في منزله بغاو وكان على حضور المجلس أن يلبسوا بزاتهم الحربية ويتقلدوا اسلحتهم[2] ، وسعيا في الاستئناس بآراء الفقهاء والعلماء فقد استدعاهم الاسكيا الى جانب أركان الجيش والأمراء .

وكانت أية فكرة لقبول عرض السلطان السعدي مرفوضة من الحضور ولذلك فقد رموها وراء ظهورهم ، واقتصرت المناقشات على امرين بارزين :

- العمل بكل الوسائل لعرقلة تقدم القوات المغربية من كبارا الى غاو كسبا لمزيد من الوقت .

- ترحيل سكان غاو الى الجهة الأخرى من النهر .

وفي البداية تحدث بلمعو (الامين العام للملكة) محمد كاغ فطلب أن يذهب مع مائة فارس ومائة عبد الى الطريق الرابطة بين تنبوكتو وغاو لردم الآبار ، فمن شأن ذلك أن يلحق الاضطراب بجيش جؤذر أو يجعل العطش يستولي عليه وعندها يهاجمه السونغاي ، وأجاب الأسكيا بأن لا ينبغي تجاهل وجود النهر ، فهو رغم ضحالته في ذلك الوقت وكثرة الأوحال في ضفته يمكن أن يستخدم في أرواء الجيش ودواب الحمل .

وعندما تحدث بلمعو عن تحصين المدينة واعدادها للمقاومة والحصار انبرى له العالم الخطيب محمد زغيت وسفه رأيه بامكانية مقاومة المدينة لمدافع جؤذر ، وابدى رأيه القائل بترحيل سكان المدينة الى ما وراء النهر ، واقتصار من سيتواجد فيها على الأسكيا وجيشه ، فان تمكن جؤذر من الانتصار على السونغاي قطع الأسكيا النهر مع رجاله ، وان هزم عاد السكان الى المدينة وارتحل الاسكيا في ملاحقة المغاربة .

وبادر سع فارما (وزير الغابات) على جاويند الى الرد على الخطيب متهما

---

(١) الفشتالي ص ١٣٧

(٢) كعتو - مصدر سابق ص ١٥١

اياه ضمنا بالتخاذل انك أيها الفقيه عالم لاتفهم الا الكتابة ولا شأن لك بشؤ ون الحرب ، فأين السفن لترحيل آلاف السكان ، وحتى لو وجد العدد الكافي منها لتطلبت العملية ثلاثة أشهر » .

وكان لا بد من تدخل كويما كوى (وزير الشغالين) داود بن اسحاق لأن أمر القوارب يعود اليه ، فأيد العالم زغيت فيما ذهب اليه من رأي ، وأكد أن في امكان السفن الموجودة بغاو أن تنقل سكان المدينة في ثلاثة أيام وثلاث ليال ، فقبائل كنتة (وهي قبائل عربية كانت تعمل في التجارة) تمتلك وحدها ٤٠٠ سفينة يضاف اليها ١٠٠٠ سفينة في ملك اعيان المدينة و٧٠٠ سفينة يمتلكها التجار وبنات الأسكيا هذا عدا عشرات القوارب الصغيرة الأخرى .

ولكن الرأي الأخير كان يجب أن يصدر عن الأسكيا الذي كان يثق بقائد الجيش ويخاف منه أيضا ، فقرر أن يبقى سكان غاو في مدينتهم ، وينتقل الجيش الى طريق تنبوكتو لملاقاة جؤذر[1] ، أما ارسال كتيبة من الجيش لعرقلة سير الحملة المغربية فقد استبعد كغيره من الآراء . لقد كان الاسكيا يومئذ واثقا من النصر .

ولعل أصوب رأي انتهى اليه الأسكيا اسحاق مع قواده هو اختيار مكان المعركة ووقتها ، فقد اتفقوا على أن يخرج جيش السونغاي من غاو في وقت مبكر وان يبتعد قدر الامكان عن العاصمة ، والمكان الذي فضلوه لتجري المعركة فوقه كان عبارة عن غابة كثيفة على بعد خمسين كيلومترا يتمكن فيها أصحاب النشاب والحرشان من الاختباء وتسديد الضربات الى الجيش المغربي الذي سيفقد أفضل ميزاته القتالية الا وهي الحرية في الحركة والمناورة[2] .

٢ ـ معركة تنديي :

ترك جؤذر باشا جزءا من جيشه في كبارا ، وتخطى تنبوكتو متجها مع الضفة

(١) المكان السابق
(٢) الفشتالي ـ مصدر سابق ص ١٣٧

اليسرى لنهر النيجر[1] جهة الشرق في نهاية شهر مارس ١٥٩١ ، ولم يسترح في مدينة بامبا الهامة أو لعله استراح بها قليلا من الوقت فقط[2] ولم يلق مقاومة أو ما يشير الى أنه كان يقترب من معقل عدوه[3] ، وسار من الغرب نحو الشرق مسافة تزيد عن ١٣٠ كيلومترا ، فوصل ثاني أهم مدينة في طريقة وهي مدينة بوريم ، وذلك بعد ان اجتاز ثلاث قرى آهلة بالسكان هي من الغرب الى الشرق باركاينا وكورايبرى وطوغايا ، وفي مدينة بوريم التي ينحرف النهر عندها ويأخذ اتجاهه الجنوبي صادف جؤذر ثمرة أول جهود الأسكيا لعرقلة تقدمه وكان الأمر متعلقا بأكوام من الشوك وببعض السحرة الذين كانوا ينفخون في وجوه الجنود ، ويتمتمون بتعاويذهم[4] .

وأخذ جيش جؤذر يسير فوق أرض صخرية ذات تسننات وتعاريج وكهوف ، وبدأ رجال الطلائع يشاهدون عيون أصحاب الأسكيا تتبعهم وهم يغذون السير في اتجاه تنديبي ، وكانت تتراءى لهم قرى السونغاي على الضفة الأخرى[5] ، وقد خرج من بقي من سكانها لمشاهدة هذا الرتل المتحرك ، والقاصد بكل ثقة جهته المرسومة ، وكان جؤذر باشا على بعد بضعة كيلومترات فقط من مكان المعركة عندما توقف ليصلح من شأن جيشه ، ويعده للقتال .

وأثناء الليل ، عادت طليعة الجيش من كشافة وأدلاء لتخبر بأن الأسكيا قد احتل مع جيشه غابة قريبة جداً من المغاربة ، ورتب فيها وحولها جنوده للقائه أي أنه اختار المكان الذي يناسبه ويناسب نوع السلاح المستخدم لدى جيشه ، وقد

---

(١) زيادة مصدر سابق ص ٨٢

(٢) وقع بوفيل في الخطأ عندما قال (مصدر سابق ص ٢٠١) بأن جؤذر استراح في كارابارا التي تتوسط الطريق بين تنبوكتو وغاو والصحيح أن المدينة المتوسطة هي بامبا .

(٣) كريم ـ مصدر سابق ص ١٦١

(٤) الفشتالي ص ١٣٧ وبوفيل ـ مصدر سابق ص ٢٠٣

(٥) ملفاكو وكوغو وبنياغى

نقل الفشتالي عن بعض اولئك الكشافة أنفسهم « إن تلك الغابة الملتفة الأشجار الصعبة المسالك من اشتباك دوحها اعترضت العساكر المنصورة فلم يتأت لهم قطعها على التعبئة والانتظام بل سلكوها زرافات ووحداناً وما مرقوا منها إلاّ وقد ألفو العدو أخذ مراكزه بحومة الوغى التي بين يديها ونظم تعبئته فعاجل العساكر الأمامية بالقتال من قبل انتظام التعبئة وترتيب المصاف ليفت بذلك في عضدهم »[1] .

إن مكان المعركة لا يوجد حول مدينة تنديبي كما يذهب إلى ذلك الكثيرون ، فهذه المدينة بنيت على الطرف الأيمن للنهر ، وساحة القتال كانت على الضفة اليسرى داخل غابة تسمى (تنكنديبوعو) الواقعة على بعد خمسة وثلاثين ميلاً شمال غاو[2] . والمنطقة سهلية تتخللها بعض الأحجار الضخمة التي انتهت اليها من الهضاب الشمالية ، ولما كانت منطقة فيض فان نهر النيجر يغطيها بمياهه في فصلي الصيف والخريف أما في وقت الشتاء فانها تتحول إلى أرض صلبة كثيرة الشقوق بحكم طبيعة تربتها الغضارية الرخوة ، ويبلغ تباعد ضفتي النهر هنا ١٥٠٠ متر[3] .

كانت أول معضلة واجهت جؤذر عند بداية يوم الثلاثاء ١٧ جمادي الأولى عام ٩٩٩ (١٢ ابريل ١٥٩١) هي موضوع تعبئة الجيش وفق المخطط الذي تصور أن تقع عليه ، وكما رأينا فقد كانت الصعوبات التي واجهته في ذلك أقوى من أن يتغلب عليها بسهولة ويسر ، ونحن نعتقد أنه لأسباب موضوعية أو لأفكار اخرى كانت تراوده فقد احتفظ بقسم كبير من جيشه خارج المعركة إذ يظهر وكأنه كان يعد

---

(١) الفشتالي ص ١٣٧

(٢) بوفيل ـ مصدر سابق ص ٢٠٣

(٣) Geographie universelle P 462

نفسه لهزيمة تأتيه على يد الخصم في أول لقاء ، ولكن لن تصرفه عن معاودة الكرة واحراز النصر .

كما أن من اسباب استبعاده قسطاً من جيشه عن الصدمة الأولى ترجع ولا ريب إلى هذه الغابة الملتفة التي تفرض عليه أن يجمع رجاله وسطها وأن يحارب بهم فيها ، والى طبيعة الأرض التي لا تسمح للخيل بالتحرك فوقها بملء حريتها ، وان كانت تسمح للمدافع بأن تعمل عليها كأدوات للقتل وادخال الرعب في نفوس الاعداء على أحسن وجه .

فكيف كان جيشا الطرفين ، وكيف سارت المعركة بينهما ؟

لقد بكر الجيش المغربي في أخذ الأهبة وارتداء البزات ونصب المدافع بعد صلاة الفجر التي قد يكون أداها على هيأة صلاة الخوف أو قد لا يكون أداها اطلاقا أو على الأقل لم يؤدها أكبر جزء منه .

وأوكل جؤذر أمر خوض المعركة الأولى الى ألف من جنوده فقط[1] ، فاختار خمسمائة من الاصبايحية ووضعهم على اليمين ، وخمسمائة من الأندلسيين على اليسار وجعل على رأس كل فرقة منهما كاهية وفق الترتيب الذي خرج به من مراكش قبل أربعة أشهر ، أما القيادة العامة فكانت له . ولم يشأ جؤذر رغم صعوبة الموقف أن يحرم جيشه من مظاهر الفخامة التي اعتاد عليها فألبس ضباط جيشه قلانسهم البيضاء والصفراء حسب مراتبهم ، وكانت لها حواش مدلاة على الاكتاف ، وجعب صفراء من النحاس في أعلى الجباه تعلوها أعراف من ريش النعام ، فكان منظر الجندي يبعث المهابة في الأعين والرعب في الصدور[2] ،

---

(١) بوفيل مصدر سابق ص ١٩٩

(٢) الفشتالي ص ٢٠٢ و٢٠٣ . ويذكر المنصور نفسه في رسالته التي وجهها الى أهل فاس في موضوع المعركة (رسائل سعدية ص ١٩٣) ان ٧٠٠ فقط اشتركوا في المعركة .

ووقف جؤذر باشا أمام كتيبتي الجيش ووراءه الراية البيضاء شعار الدولة ، وحاملو الطبول والمزامير[1] ، ولعل جؤذر قد وجد اكبر الصعوبة في الوصول الى ذلك الترتيب أثناء ما كان جيش الاسكيا يعاجله بالحرب « أرهب المغاربة منجز العدو ولا راعهم وثبتوا وأخذ كل من العساكر مركزه والوقوف تحت رايته لما كانوا ألفوا من نظم التعبئة ورتب المصارف[2] .

أما جيش الأسكيا اسحاق فكان تعداده في ذلك اليوم ثمانية عشر الف مقاتل راكبين صهوات جيادهم ومسلحين بالرماح وتسعة آلاف وسبعمائة راجل سلاحهم النبال والمطارق والسلاسل، وقسم الجيش الى ثلاث عشرة فرقة أخذت مراكزها وسط الغابة منذ الليل ، فرقة يقودها الأسكيا نفسه وتضم كبار القادة والأمراء واثنتي عشرة فرقة يقودها اثنا عشر سونا (قائدا محترفا) وكانوا يحملون العصي المزخرفة[3] وكان ذلك الجيش في مثل أبهة جيش المغاربة من لبس القلانس الحديدية والبدل الجميلة[4] .

ووضع الأسكيا أمام جيشه ألف بقرة ارسلها منذ الصيحة الأولى على الجيش المغربي[5] ومجموعة من السحرة كانت مهمتهم ابطال عمل المدافع المغربية[6] .

ولقد بدأ جناحا جيش الأسكيا بالهجوم حين كان الجيش المغربي لا يزال

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧

(٣) كعتو مصدر سابق ص ١٤٧ ، وذكر السعدي (ص ١٤٠) ، أن عدد جيش الأسكيا كان ١٢,٥٠٠ من الخيل و٣٠٠٠٠ من الرجل ، أما المنصور الذهبي (رسائل سعدية ص ١٩٣) فقد جعل العدد أربعين ألفا من السودانيين والأعراب والأحلاف .

(٤) السعدي ص ١٢٨

(٥) بوفيل مصدر سابق ص ٢٠٣

(٦) الفشتالي مصدر سابق ص ١٣٧

ينظم تعبئته[1] ولكن المدافع انطلقت مفجرة قنابلها وسط جموع الأسكيا فتراجع الجناحان لهول تلك الصدمة ، ووقفت كل طائفة في مقابل خصمها من جديد[2] ، وكانت الأبقار قد هاجت وأخذت تتحرك صوب الجيش المغربي والى الوراء وأعطى القائد جؤذر أمره بابتعاد الكتيبتين عن بعضهما فمرت الأبقار من تلك الفجوة[3] .
وجثا الرماة على ركبهم وصوبوا بنادقهم نحو أعدائهم واطلقوها فيما كانت المدافع قد عاودت القصف[4] ، وبدأ المغاربة الالتحام باعدائهم بعد ذلك مباشرة ، فأحاط جناحا الكتيبتين بالجيش الكبير المعادي وجالت الخيل دون أن تفوت على السونغاي فرصة الاصطدام ببعضهم أو لزوم أماكنهم دون أن يقوموا بمدافعة خصومهم ، لقد كانت النوعية في التسلح والنظام فاصلة في هذه المعركة غير المتكافئة[5] وعندما تبين أن الأمر قد حسم ، وان الصدمة كانت أكبر من أن تسمح للاسكيا وجنوده بمبادرة ما ، أصدر جؤذر أمره الثاني لجنده بأن يلتحموا مع عدوهم بالسيوف فيما كانت المدافع تقصف أطراف المكان تصيدا لمن رام الهرب والنكوص ولادخال الرعب في نفوس الذين كان يجب أن يستلحموا بالسيوف والخناجر . ولما كان أمر القتال قد تحول الى السلاح المتماثل لدى الطرفين فان الأسكيا اسحاق صاح من أعماق اليأس بجيشه سوسو سوسو (أي قاتلوا قاتلوا) ، ولكن كل شيء كان قد تقرر وتراجع الأسكيا الى المؤخرة ليلحق بأمراء السونغاي الذين تخاذلوا وتركوا جنودهم لمصيرهم وذلك ليحثهم على الرجوع ، غير انهم طلبوا منه ايقاف الحرب ليعود اليها في الغد ، وكان بكر لنبارو أحد القواد الكبار ومن البيت المالك أكثر الملحين على

---

(١) الفشتالي ص ١٣٧
(٢) السعدي ص ٢٠١
(٣) بوفيل المصدر والمكان السابقين .
(٤) كعتو مصدر سابق ص ١٤٧
(٥) بوفيل المصدر والمكان السابقين

الأسكيا بالتراجع لدرجة أنه أخذ بزمام فرسه ومنعه عنوة من العودة الى قلب المعركة[1] .

وقد أورد الفشتالي شهادة أثبتها أمامه أحد قادة الجيش في تلك المعركة ، وهي وان كادت تذوب في خضم التعابير الفشتالية الأدبية فانها تدل على الروح العالية التي كان يتحلى الجيش المغربي بها أمام عدوه الذي كان يفوقه بثلاثين ضعفا ، وعلى ثبات الأسكيا وجنوده وحسن بلائهم :

« حدث بعض أكابر رؤساء الأجناد المنصورية وكان ممن حضر هذه الملحمة وصلي بنارها ، أنه قضى العجب مما شاهد من شهامة العساكر المنصورية وصرامتهم ، وذلك لانهم لأول ما تراءى الجمعان شدوا على عدوهم سراعا خببا وايضاعا شد الليوث على النقد ، وألقوا كل سلاح عدا السيوف المرهفة شرى لقتال الأشقياء وأنفة أن يقفوا أمامهم نواقا بكية ، قال : فصار رؤساء الأجناد يكفكفونهم كما يكفكف السيف عن الانحدار حذرا من اختلال مصافهم وانحلال نظام مراكزهم ، فبعد لأي وجهد جهيد مارست قواعدهم ، فكان الغوى سكية (الأسكيا) والأشقياء أتباعه ثباتاً كالجبال لرجة ذلك الزلزال وضنك ذلك المجال ، وتهافت حماته وأبطاله على الحتف تهافت الفراش على الدبال ، واستمات زعماؤهم وعقلوا ركبهم كما تعقل البدن ، توطينا لأنفسهم على الاقدام حتى لا يتأتى لهم الفرار ، فصابر جنود مولانا المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وعالجوا الصبر على شواظ نارهم حتى خرستهم الحرب ، وعضتهم أنيابها العصل ، فلم يكن الا كلا ولا ، حتى هبت صبى النصر ، وخففت رايات الاقبال والظهور ، وصدقتهم العساكر الامامية الحرب ، وتدامر أبطالها ، .وهجموا على سكية (الأسكيا) وجموعه هجوم الليوث على النعم ، وشدوا عليه كالصخرة الملومة فاستحر القتل في

---

(١) كعتو المكان السابق .

الأشقياء ، واذاقتهم جنود الله نكال الحرب ، وحكم الله لرايات مولانا الامام المنصور بالله بالظهور[1] »

أما محمود كعتو المؤرخ السوداني فقد وصف حال قريبه محمد زغيت الذي استطاع الهرب من غاو والوصول الى تنبوكتو بأنه بكى وحوقل عندما بلغه خبر هزيمة الأسكيا[2] ، كما أن المؤرخ ذاته نقل تعقيب الناس على تلك الفاجعة بأنها « وقعت عندما فسد أمر سونغاي فشتت الله شملهم وحاق بهم ما كانوا يستهزؤون ، بتضييع حقوق الله ، وظلم العباد والتكبر . . . حيث بلغت غاو في أيام اسحاق غاية الفسق والكبائر والمنكرات ، فجعلوا للزانيا رئيسا وضعوا له طبلا واصبحوا يتحاكمون اليه[3] .

ولقد كان المشهد الأخير من المعركة مؤثرا وغريبا في ذات الوقت ، اذ أخذ جنود الأسكيا في الصياح والنداء « نحن مسلمون ، نحن اخوانكم في الدين »[4] . وأمر الأسكيا اتباعه الأقربين وكانت الدهشة قد أحاطت بهم أن يفروا معه ، وما أن لوى زمام فرسه وابتعد فعلا حتى لحق به بعض الجند من المغاربة وهم يصيحون « لا اله إلا الله ، الشكر لله الدائم الدوام »[5] ، وأحس افراد جيش الأسكيا بفراره فحاولوا أن يشقوا طريقهم خارج الغابة متسلقين اكداس القتلى والجرحى وبرز أميران زنجيان محمد كاغ بن الأسكيا داود ، وعمر بن الاسكيا اسحاق ، حاولا بشجاعة نادرة حماية الفارين وامساك بقية الجيش عن اتباعهم ، أما الضباط الكبار والصغار ومجموعهم تسعة وتسعون فقد اقتربوا بعضهم من البعض الآخر ،

---

(١) الفشتالي ص ١٣٨

(٢) كعتو ص ١٥١

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢

(٤) اليفرني ، نزهة الحادي ص ٩٤

(٥) بوفيل مصدر سابق ص ١٤٨

وافترشوا الأرض واضعين تروسهم فوق رؤ وسهم ، لأنهم لا يفرون من المعارك ، فاقترب منهم جؤ ذر مع شرذمة من جنده وأطلقوا عليهم النار فخروا صرعى في أماكنهم[1] ، واشتغل الجنود في الاستيلاء على أساورهم الذهبية[2] .

لقد قتل في تلك المعركة التي لم تدم سوى بضع ساعات من لدن الضحى الى قرب العصر[3] ما لا يحصى عدده من رجال القبائل السوداء ، وبعض السلاطين والأمراء والوزراء من بينهم بوبومريم سلطان مسينا ، وسع فارما (وزير الغابات) على جاويند[4] ، أما قتلى المغاربة فكان عددهم ثلاثة عشر قتيلا[5] .

وقد وقع اختلاف بين مؤ رخي السودان كعتو والسعدى حول المكان الذي اتجه اليه الأسكيا اسحاق بعد هزيمته فالأول يخبر بدخوله منكسر النفس الى عاصمته التي استولى على سكانها جو من اليأس والجزع ثم خرج منها مباشرة[6] ، والثاني يقطع بأنه لم يدخل الى غاو بل سار رأسا الى منطقة كورما على الضفة الأخرى من النهر ، فيما كان الناس يبكون بالمدينة ويتزاحمون على المراكب لتحملهم الى الضفة المقابلة[7] .

وكان آخر أمر أصدره الأسكيا اسحاق الى عماله على الاقاليم وخاصة على تنبوكتو وديني قبل أن يلوذ بالفرار يتضمن وجوب اخلاء المدن واتلاف ما بها من الأقوات والمتاع[8] .

---

(١) كعتو ص ١٤٨
(٢) السعدي ص ١٤٠
(٣) الفشتالي ص ١٣٩
(٤) السعدي ص ١٤٠
(٥) كعتو ص ١٤٨
(٦) المصدر السابق ص ١٤٩ و١٥٤
(٧) السعدي ص ١٤٠
(٨) المكان السابق

٣ ـ نتائج المعركة :

لم تكن معركة تنديبي هي الفاصلة في الصراع المغربي السوداني ، فهي لم تحسم الأمر بين الطرفين بل أظهرت أكثر من ذلك عيوبهما بشكل واضح . وان ما ينبغي ملاحظته في البداية هو أن الأسكيا اسحاق استطاع أن يفرض على خصمه مكان وزمان المعركة ، ولولا التفوق النوعي عند المغاربة لما كان في مقدر جزء بسيط من جيشهم الذي اشترك في القتال بعد بذل الجهد الجهيد للوصول الى ساحته ، أن يتغلب على عدو يفوقه بثلاثين ضعفا ، وأخذ أهبته كما ينبغي أن تؤخذ . وكان في امكان جؤذر ان يعسكر عند بوريم ، قبل خمسين كيلومترا من تنديبي ، وينتظر مجيء جيش الأسكيا الذي كان متلهفا للحرب وعازما على خوضها والـذي غادر عاصمته بالفعل في اتجاه جؤذر ، ولو قدر للقائد أن ينظم نفسـه في بوريم لكان حقق جملة من المزايا لم يحققها في تنكنديبوعو قطعا :

المزية الأولى استراتيجية : ذلك أن بوريم تقع في نهاية سهل الفيضان فلا أشجار بها يحتمي بينها المقاتلون ، ولا حجـارة ولا تشققـات أرضية تعيق حركة الخيل وعجلات المدافع [١] . ومن ناحية ثانية فهي بعيدة من مركز تموين العدو في غاو .

والمزية الثانية : هي أن جؤذر كان سيصبح متعادلا مع الأسكيا من وجهة امتلاك السفن ، فلو قدر للأسكيا اسحاق أن يقدم الى بوريم لما كان في مقدوره أن يفر مع الأغلبية الساحقة من جيشه ، وأن يقطع النهر بينما كان جيش جؤذر لا يزال منهمكا في احصاء الغنائم ونهب خزائن جيش الأسكيا [٢] .

---

(١) لقد كانت المدافع المغربية الضخمة شبيهة بالمدافع البرتغالية وقد بلغ طول بعضهاه أربعة أمتار ، ولم تكن هناك وسيلة لتحريكها الا بوضعها فوق محفة تسير بالدواليب الخشبية ، ويقع سحب كل مدفع بواسطة سلسلتين مثبتتين على جانبيه ، ويوجد واحد من المدافع التي استعملهـا السعـديون في متحف مدينة فاس .

(٢) حركات مصدر سابق ج٢ ص ٣٠٤

والمزية الثالثة : تتمثل في أن بوريم عقدة برية اكثر منها نهرية للمواصلات ، فالنهر عندها تتسارع مياهه وتكثر وسطه الجزر الصغيرة ، ومن ناحية الشمال تبدأ الطريق البرية التي تساير وادي تلمسي وتسير نحو تبانكور وكيدال والى جبال ايفوراس موطن التوارك ومعقلهم في هذه الجهات ، وعند التتبع لتاريخ أساكي السونغاي نجد أن تلك المنطقة كانت مصدر ازعاج واقلاق للامن باستمرار ، ولو قدر للاسكيا أن يسلك مثل تلك الطريق في فراره لكان مصيره سيتقرر على يد قطاع الطرق وأفراد القبائل التاركية المعادية ، ولن يكون من الصعب على جؤذر القيام بعملية التفاف نحو الجناح الأيسر لجيش الأسكيا على افتراض أن المعركة جرت هناك ، ولن يكون أمام هذا الأخير خيار في سلوك ذلك الطريق البري .

ثانيا : لا شك أن أبرز مظاهر العجز لدى الجيش المغربي كانت تتمثل في عدم توفره على قطع من الأسطول ، وقد أشرنا الى هذا الموضوع سابقا ، لكن يجب التركيز على هذه النقيصة لما كان لها من آثار في تغيير مجرى السياسة وفي التأثير على التوسع المغربي بالسودان في الأمد القريب .

والمنصور عندما أعطى الأولوية ـ عندما كان يعد حملته السودانية ـ لقضية الأسطول كان ينظر الى الوضع المستقبلي لجنوده نظرة واقعية سليمة .

فلو تمكن أي أسطول مغربي مهما قل عدد قطعه من أن يقوم بدور الاسناد لتغير مجرى الأحداث منذ معركة تنديبي مباشرة ما في ذلك من ريب ، وقبل ذلك فلم يكن من السهل تحميل المدافع الضخمة على الطريق البري الموحل الذي تحدق به شتى الأخطار . وليست هناك من طريقة لمنع جيش الأسكيا من عبور ضفة النهر من الشمال الى اليمين غير قطع نهرية يقوم على حراستهاأو العمل منها رماة مهرة يطلقون النار في الوقت المناسب . ففي معركة تنديبي أو في المعركة التي كان من

الممكن أن تتقرر في بوريم كان دور الأسطول حاسما ولا شك .

فما هي أسباب هذا النقص الخطير في جهاز الجيش المغربي ؟

ان هناك شكوكا تثور حول مصير قطع الأسطول المفككة التي كانت في مقدمة ما حملته دواب الحملة ، فهل تخلص منها جؤذر أثناء الطريق لثقلها ؟ أو أشعل ألواحها طلبا للدفء في دروب الصحراء الشديدة البرد ليلا ، أو أن الوقت لم يكن كافيا أثناء وجود الحملة في كابارا التركيب سفن جديدة كيفما اتفق واعدادها لأية مهمة ؟

مهما كان السبب الحقيقي في ذلك الأمر فالمؤكد أن جؤذر لم يستخدم أسطوله اطلاقا وسنراه يتعلل بخلو يده من المراكب عندما أنبه السلطان على عدم متابعة الأسكيا أو ابداء ما هو ممكن من الجهد للاجهاز عليه .

ثالثا : انهيار مملكة السونغاي أو بالأحرى تفككها وانحلالها ، فقد كشفت معركة تنديبى أن السونغاي كان لهم جيش لا يمكن اطلاق أي نعت عليه سوى نعت القصور والتخاذل ، وليس مرد ذلك الى تدني مستوى التسلح ، بل الى انعدام الانضباط والتربية العسكرية وطول النفس والقدرة القتالية .

وقد بينت الاحداث التي رأيناها وسنراها في مواضيعها أن شجاعة القائد في اتخاذ القرارات ، واختيار الخطط الناجعة المناسبة لكل موقف ، كان من شأنهما أن يلعبا دورا مغايرا لما لعبه الأسكيا اسحاق لو كان متوفرا عليهما ، وسنرى أن السونغاي ـ حتى امام الأسلحة النارية والتنظيم المغربي ـ استطاعوا أن يلحقوا أمر الهزائم بأعدائهم أو أن يقفوا أمامهم على الأقل عندما تولى زعامتهم الأسكيا نوح فيما بعد ، وسنرى أيضا هجمات مباغتة لمجموعات سريعة الحركة وعارفة بمقاصدها تحقق انجازات عسكرية ملفتة للنظر ضد المغاربة في طول أقاليم السودان وعرضها .

ونستنتج من ذلك أن قيادة الأسكيا اسحاق لشعبه في تلك الظروف لم تكن في المستوى المطلوب ، ولقد كشفت الأحداث عن ضعف شخصيته أكثر ما ابانته من تناقضات بلاطه وأهل الحكم عنده ، ولعل أشنع ما اتخذه من قرارات هي تلك التي أعقبت هزيمته بالقرب من تنديبي ، فبدلا من أن يعد قبائل السونغاي في قراهم ومعاقلهم للمقاومة نصحهم بترك القرى والمعاقل والفرار الى القفر حيث زاد ذلك من شقائهم ومعاناتهم ، وأفقدهم القدرة على مواجهة المغاربة عندما حان الوقت لتلك المواجهة .

وكان المفروض أن يستغل الاسكيا اسحاق وخلفه محمد كاغ الفرصة النادرة التي أتاحها الباشا جؤذر حينما قبل مبدأ المصالحة معهما ، واعاد الى خير منهما القسم الشرقي من المملكة بما فيه العاصمة غاو والمدن الهامة الأخرى مثل كوكيا وبوريم وبامبا ، كان المفروض أن يحول الأسكيا تلك الجهات الى بؤ ر للمقاومة الطويلة ، ويهدد في الجهات الأخرى طرق المواصلات المؤدية الى مصادر خيرات السودان التي كانت هي الهدف الأول لمجيء جؤذر بحملته السودانية .

إنه لم يفعل ذلك كما لم يفكر فيه سلفه ، واكتفى اسحاق بأن استسلم لليأس والقنوط ، فمر بعاصمته الباكية الخائفة أو تركها وراءه ، وقطع نهر النيجر الى بلاد كورما ، حين كان قومه ينصحونه بالتوجه الى دندى ، وقد ثبت أنه كان على خطأ في عدم سماعه النصيحة لأن دندى تحولت بعد هذا الوقت الى معقل للاساكي لم يكن في مقدور المغاربة أن يصلوا اليه .

ولم يكن مكان النفي هو المسألة الوحيدة التي تردد الأسكيا في اتخاذ قرار بشأنها بل كان مترددا في أمر أخطر من ذلك وهو هل يعاود الكرة ويقابل المغاربة أم لا ، ولم يكن متحمسا للحرب في البداية ثم انقلب الى مصمم على خوضها ، ولم يكن متحمسا للحرب في البداية ثم انقلب الى مصمم على خوضها ، وفي جو نفسي

غير مؤ ات عقد لأخيه محمد كاغ على ألف فارس يعود بهم الى غاو لملاقاة جؤذر ، ولكن ذلك الجيش انقلب على الأسكيا وبايع محمد كاغ ، فحمل اسحاق عائلته وخزانة أمواله ، وذهب مع ثلاثين فارسا واربعين خصيا الى بلانكو عاصمة كورما بعد ان راسل السلطان هناك يطلب حرمته وكان قد حاربه في السنوات الماضية ، ولم يمض اسحاق ليلته بكاملها في المنزل الذي أعد لنزوله ، لأن جنود سلطان كورما داهموا المنزل ليلا وقتلوا اسحاق ، وعندما سمع أولاده بما حدث أخرجوا السكاكين وقطعوا بها حلاقيمهم[1] .

رابعا : اعلان قيام مملكة السونغاي تحت الحماية المغربية ، فلقد كان من بين أبرز مخططات المنصور أن يحافظ لقبائل السونغاي على مظاهر السلطة والسيادة دون أن يكون للملك الذي يقام تحت الحماية المغربية أي شأن في تدبير شؤ ون الاقاليم السودانية أو التحكم في مصائرها وفي خيراتها ، وقد كان ولد كزنفيل منذ حلوله بمراكش يخاطب بألقاب الملوك ويحاط بالتقدير الذي والاعتبار لهم . وحين أتى مع جؤذر في حملته كان يعد نفسه ليعتلي عرش السونغاي بعد الاطاحة بالأسكيا اسحاق ، ولكنه كان يعلم أنه سوف لا يكون له شأن فعلي في حكم البلاد .

غير أن أمرين اثنين أقنعا جؤ ذر باشا بأن اختيار ولدكزنفيل لم يكن في محله ، الأمر الأول أن ولد كزنفيل لم يكن يحظى في السودان بأية مكانة بقطع النظر عن انتمائه أو عدمه للبيت المالك ، والأمر الثاني هو انضمام شقيق الأسكيا اسحاق مع ثلاثمائة من أمراء البيت المالك وعشرات القادة العسكريين ورؤساء القبائل والحكام الجهويين الى المغاربة وقبولهم ببيعة السلطان السعدى[2] .

فكان على جؤذر أن يصل مع اولئك القوم الى اتفاق حول طبيعة منصب الأسكيا

---

(١) كعتو مصدر سابق ص ١٥٤ ـ ١٥٥

(٢) السعدى ـ مصدر سابق ص ١٥٠

الجديد وحول شخصه ، وقد يكون ولد كزنفيل اعيد في ذلك الوقت الى كبارا لأننا لم نسمع عنه أي خبر حين ورد جؤذر على غاو وكوكيا بعد المعركة ، ولكنه على كل حال ظل يتلقى ما عرفه من المغاربة من تقدير واجلال الى أن قتل على يد المشاغبين السودانيين في ثورة تنبوكتو اللاحقة .

ولا نعلم السر في تأخر جؤذر باشا عن اعلان اسم الاسكيا الجديد حتى قام خلفه محمود باشا في وضعه فوق العرش ، ونميل الى الاعتقاد بأنه كان ينتظر وصوله الى غاو أو الاجهاز نهائيا على الأسكيا الشرعي لينفذ ما قر عزمه عليه أو ما اتفق فيه مع وجوه السونغاي وأصحاب الرأي فيهم ، وقد أتت قضية الصلح مع الأسكيا لتحبط أي تدبير في هذا السبيل .

وعلى كل حال فان السونغاي كانوا يدركون تماماً أن رغبة سلطان المغرب في الحصول على بيعتهم وواجبات الجهاد العينية منهم كانا ضرباً من الخيال ، فالخطة المغربية حول موضوع السيادة والحكم مباشرة أو بشكل غير مباشر اتضحت لهم منذ أن بدأ جؤذر يعد نفسه وجيشه للبقاء ، وإذا ما حامت شكوك في ذلك بالنسبة لاجتهادات جؤذر الخاصة ، فإن محمود باشا قد جاء ليرسخ ذلك الأمر ويحسمه أي ليلحق السودان بالمغرب بشكل تام مع إقامة ملك للسونغاي يتعدى في أهميته النطاق الصوري الرمزي .

٤ ـ قضية الصلح :

من الأمور التي يجب الكشف عنها وعن أسبابها في حملة السودان تأخر جؤذر باشا عن دخول غاو التي كانت قاب قوسين أو أدنى ، فالمسافة بين كابارا وتنديبي قطعها في نحو اسبوعين ، وحيث أصبحت المسافة لا تزيد عن سبع الأولى أي التي تفصل بين تنديبي وغاو أمضى أكثر من شهر لقطعها ، ولا نعلم أن هناك مكاناً في

شمال غاو يصح أن يكون مناسباً ليستريح به .

إننا نضع لذلك عدة احتمالات ، فاما أن القائد لم يكن يريد أن يظهر للسونغاي لهفته في أخذ مدينتهم ، فتأخره عن دخول غاو ربما سيحمل الطمأنينة إلى السكان ويحملهم على العودة إليها ، أو قد يكون العكس هو الصحيح إذ ربما كانت الغاية من تأخره هي السماح لقاطني غاو بالجلاء ، فأخوف ما كان يخافه جؤذر هو أن يقحم جيشه وسط الجماهير والدور والمحال التجارية ، أو قد تكون تصورات القائد قد ذهبت به إلى حد رؤية بعض الجنود من أنصار الأسكيا وقد اتخذوا لهم أمكنة وسط الأحياء الآهلة منتظرين أن تتاح لهم فرصة فريدة للقنص ، وهناك احتمال رابع مؤداه أن الأسكيا وقادته وأغلب أمراء البيت المالك قد قطعوا النهر ، وفتحوا ولا شك باب محاكمة التصرفات والأشخاص ، فليتركهم في خلافاتهم وتناحرهم بدل أن يواجههم بالتحدي المتمثل في دخول العاصمة الأمر الذي قد يعود بهم إلى الوفاق ومناجزته من جديد .

ولكن الاحتمال الأكثر قوة من كل ذلك هو أن جؤذر منذ انتهى من أمر المعركة ، لم يكن جاداً في ملاحقة الأسكيا إسحاق رغم أن ذلك كان سيحقق له بعض النجاح[1] . بل على العكس استخدم كل ما لديه من وسائل لإفهام إسحاق أو محمد كاغ بأنه يرغب ـ بالرغم من موقع قوته ـ في إجراء المفاوضة وإقرار مبادىء للصلح ، وقد سارت هذه العملية بالفعل بكيفية سرية للغاية كما يقول صاحب الفتاش[2] .

(١) نقل الدكتور نقولا زيادة عن نزهة الحادي (ص ٩٤) أن جؤذر لم يزل في مطالبة إسحاق إلى أن قطع بحر النيل (النيجر) فقطعه جؤذر بجيوشه خلفه وتبعه إلى أن حاصره في مدينة فاو (زيادة ص ٨٤) ويبدو هذا قريباً إلى الاستحالة ، فلم تكن لدى جؤذر أية قوارب لعبور النهر ، ثم إنه لم يلاحقه بعد المعركة ، أما مدينة غاو فهي توجد على الضفة اليسرى لنهر النيجر وهي نفس الضفة التي سلكها جؤذر ، ويجمع كل المؤرخين على أنه لم تطلق طلقة واحدة عندما وصل جؤذر إلى غاو .

(٢) كعتو ص ١٥٥

ومع المراحل التي كانت تقطعها تلك الاتصالات السرية ، ترك جؤذر الفرصة لسكان غاو للهرب من مدينتهم دون أن يعترضهم الجيش أو يلحق بهم الأذى أو ينهبهم ويسبي نساءهم وأولادهم ، فقد قدم لخصمه محمد كاغ الدليل على حسن نواياه ، فدفع المفاوضات قدماً ، وجعلها تثمر وترسخ .

وكان لا بد لجؤذر أن يفاوض خصمه على شيء يمتلكه بالفعل ، فتقدم إلى غاو ودخلها مع جيشه ، وكانت خالية إلا من عشرة أشخاص أو يزيدون قليلاً فيهم خطيب جامع المدينة محمد الدرامي وبعض طلبته وبضعة تجار ، وإمعاناً من جؤذر في إظهار نواياه للأسكيا الجديد ، فإنه كلف الخطيب مع ثلاثة من الطلبة والتجار بإحصاء ما هو موجود في القصر ومن المعروضات في الأسواق الخاوية وفي الدور المفتوحة ، وذيل الوثيقة بختمه وقسمه[1] .

كان دخول جؤذر مدينة غاو يوم ٢٠ رجب ٩٩٩ (١٣ ماي ١٥٩١) أي بعد شهر من المعركة التي وقعت بالقرب من المدينة ، وقد أنجز جؤذر وهو في غاو إلى جانب مهمة إحصاء الممتلكات مهمتين أخريين ، الأولى أنه حضر مأدبة فاخرة أعدها خطيب المدينة ضيافة للجيش وألقى فيها الخطيب خطبة أو قصيدة أو كليهما وكانت في مدح السلطان وقائده الهمام[2] والثانية دخوله في المفاوضات العلنية مع الأسكيا محمد كاغ وتكليفه القائد أحمد بن الحداد باجرائها بواسطة التجار الذين بقوا في المدينة لهذا الغرض[3] .

وغادر جؤذر غاو للمرة الأولى بعد أيام قضاها هناك واتجه إلى مدينة كوكيا التاريخية الواقعة إلى الجنوب[4] ، واستقر مع جيشه في كوكيا يتلقى تباعاً أخبار

---

(١) السعدي ص ١٤١
(٢) المكان السابق
(٣) المكان السابق
(٤) المصدر السابق ص ١٥٠

المفاوضات[1] .

ويبدو أن القائد المغربي قد أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما دخل غاو ، فقد كان يتوقع هو وقادة جيشه أن يجد عاصمة ملوك الذهب السوداني ذات مباني ومرافق بهيجة وقصور ، ولكنه وجد نفسه أمام الواقع المذهل . فالمدينة كانت عبارة عن أكواخ متخذة من الطين ، والقصر الملكي لا يتميز عنها إلا باتساعه النسبي ، أما الذهب والأثاث فكان قد اختفى مع المهاجرين ، وكان الوصف الذي أعطاه جؤ ذر نفسه للمدينة حين شبه أحسن أبنيتها وهو القصر الملكي بدار شيخ الحمارة في المغرب خير معبر عن نظرة القائد إلى غاو ، ولم يكن يفوق ذلك غرابة إلا المدفع البرتغالي الذي وجده بعض الجنود في إحدى ردهات القصر ، ولم يستطع أحد حل لغز وصوله إلى ذلك المكان[2] .

ظلت مفاوضات الصلح تسير بين الأسكيا محمد كاغ الذي انتقل إلى الضفة اليسرى من النهر واستقر بدندى ، وبين جؤ ذر الذي كان يحتل ببعض جنده أقرب مدينة إلى الأسكيا مدينة كوكيا . وكانت الشروط التي وافق عليها الطرفان كما يلي :

- إنسحاب الجيش المغربي من جميع المنطقة الشرقية إلى جهة تنبوكتو ريثما يوافق السلطان على الصلح بشكل نهائي فيعود بالجيش إلى مراكش[3] .
- عودة العاصمة غاو إلى الأسكيا مباشرة[4] .
- إعلان البيعة والطاعة للمنصور الذهبي[5] .

---

(١) حركات مصدر سابق ص ٣٠٤
(٢) بوفيل مصدر سابق ص ٢٠٤
(٣) الفشتالي ص ١٤٧ والسعدي ص ١٤١
(٤) السعدي المكان السابق
(٥) الفشتالي / المكان الأسبق

- يدفع الأسكيا حالاً مبلغ مائة ألف قطعة ذهبية وألف عبد (يجعلها الفشتالي ٢٠٠ من الرقيق)[١] .

- يدفع الأسكيا كل سنة خراجاً ثقيلاً يرصد لبيت مال المسلمين برسم الجهاد[٢] .

ويخبر الفشتالي بأن وثيقة متضمنه لتلك الشروط قد انبرمت بين الطرفين وقد قبل بها جؤذر لأنه كان يملك السلطة الضرورية للتقرير المبدئي كقائد في حالة حرب[٣] ، ولكنه لم يكن يملك حق تصديق أي شيء من هذا القبيل أو إمضائه بشكل نهائي ، وهكذا فقد « انبرم العقد على شرط القبول من مولانا الإمام المنصور وإمضائه لعقدته ، وإن المصير لرأيه الكريم »[٤] .

ومن الضروري أن نناقش موضوع هذا الصلح ، ونحاول التعرف على الأسباب التي حدت بجؤذر إلى القبول به رغم أنه يتناقض في العمق مع المهمة التي كان عليه وعلى جيشه أن يؤدياها في السودان .

لقد صعق المنصور الذهبي لخبر هذا الصلح ، وبادر إلى عزل القائد جؤذر وعوضه بقائد آخر هو محمود باشا ووجه رسالة عاجلة أمر فيها بقتل القائد أحمد بن الحداد الذي كان يفاوض الأسكيا ، وأعلن أنه يرفض بدون مناقشة أية مهادنة مع الملك الزنجي ، فلم تكن المبررات التي قدمها جؤذر والتي لا شك أن المنصور تفهمها جيداً ، بالتي تقنعه بتصويب ما ذهب إليه قائد جيشه ، وكان أن قام بتحركه السريع والحاسم الذي ألمحنا إليه والذي سنعود إلى تفصيله .

---

(١) السعدي والفشتالي المكانان السابقان
(٢) الفشتالي المكان السابق
(٣) بوفيل ص ٢٠٦
(٤) الفشتالي ص ١٤٧

فما هي الأسباب التي دفعت بالقائد جؤذر إلى التصرف على النحو الـذي تصرف بمقتضاه ؟

أولاً / لقد كان جؤذر أمام وضعية لا تسمح له بالتنكر للمطاليب التي كان يضعها أمام خصمه عندما وطئت أقدامه أرض السودان ، والتي سبق للسلطـان نفسه أن قدمها للأسكيا إسحاق قبل الحملة وأثنـاء سيرهـا . فمـن الواضـح أن مطاليب السلطان كانت محددة لا يشوبها أي غمـوض وتقضي بإعـلان البيعـة ، وتقديم مبالغ مالية آنية ، ودفع خراج سنوي لبيت مال المسلمين ، وحين رضخ الأسكيا لذلك كله فما الداعي إذن للاستمرار في حربه .

ثانياً / لقد وجد جؤذر نفسه أمام الحقائق التي كان مجلس ملأ المسلمين يقدم رجلاً ويؤخر أخرى بسببها ، وفي مقدمة تلك الحقائق أن الشعـوب التـي حمـل المغاربة سلاحهم في وجهها كانت شعوبـاً إسـلامية ، ففـي معـركة تنديبـي كان السونغاي يلهجون بالشهادة وينادون إخوانهم المسلمين ويطلبون منهم أن يكفوا عنهم الأذى ، ولا شك أن بعض علماء السودان ممن اتصل بهم جؤذر ، ولعـل خطيب جامع غاو كان في طليعتهم ، قد نبهوه إلى مسألة فقهية في منتهى الخطورة وهي أن « أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم ولـم يسمع أن هناك من فرض عليهم هذا الدين فكيف يصح الجهاد فيهم مهما كانت المبررات للقيام بذلك[1] .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أهل السودان كانوا يعرفون « بمسلمي الـدم » أي أنهم لـم يسلموا طوعاً فقطولكنهـم جادوا بدمائهم لنصرة الدين أيضاً[2] ، ونحن لا نعلم مبلغ الأثر الذي كان يتركه منظر السوداني وهو يدخل المسجد ويستقبل القبلة

---

(١) الاستقصا مصدر سابق ج ٥ ص ١٠٣

(٢) السعدي مصدر سابق ص ٣

ويحارب دفاعاً عن نفسه وهو ينطق بالشهادة في نفوس أفراد الجنوب المغاربة سيما وأن قادتهم مشركين كان الأحرى أن تتجه بنادق المسلمين صوبهم ، ألا يتصور أن الجندي المغربي المؤمن المتعصب مهما كانت انضباطيته كان يجد نفسه قريباً إلى ذلك الأسود منه إلى هذا الأبيض ؟ .

ثالثاً / لقد أدرك جؤذر أمام افتقاره للأسطول أن لا قبل له بالقضاء على الأسكيا الذي كان في مقدوره وقد أفلت من المعركة أن يعاود الكرة وأن ينقلب إلى ثائر ينتقل في أرجاء البلاد يقلق المدن والطرق ويلحق الضرر بالحاميات متى شاء وحيث شاء ، وقد أوضحت له معركة تنديبي أن غزو السودان ليس نزهة يقوم بها جيش في ملابسه الزاهية وسلاحه الحديث ، بل أن الأمر قد يتحول إلى كارثة فيما إذا نظم السونغاي أنفسهم واختاروا لهم القيادة المناسبة . وربما استطاع أي قائد عرف كيف يتصرف أن يزيل الطوق الذي أحكمه المغاربة على السودان فتتدفق الأسلحة النارية بواسطة التجار أو أية قوة دولية تريد معاكسة المغرب ، فماذا يكون المصير عندئذ سيتحول الجيش المغربي حتماً إلى شرطي للمنطقة أولاً ثم إلى مدافع عن نفسه وملتمساً أي طريق للخلاص ، وستضيع كل الأهداف التي وضعت لاستغلال السودان بعد ذلك .

رابعاً / إن جؤذر كان في حاجة حقاً إلى الراحة والعناية بجنده الذي لم تنهكه الطريق بقدر ما أنهكته الأرض السودانية « التي وجدها مستوبئة وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة إلا بشرك علاج »[1]، وقد أصيب الجيش فعلاً بالعياء ، واخترمته الأمراض بفعل المناخ السيء[2]، ومات عدد كبير من أفراده وربما كانت رغبة جؤذر الوحيدة أن يعود إلى الغرب بأسرع ما يستطيع[3].

---

(١) الفشتالي ص ١٤٦

(٢) كريم ـ مصدر سابق ص ١٦٣

(٣) بوفيل ص ٢٠٦

خامساً / وعلى قدر حاجة جؤذر باشا إلى الراحة كان في حاجة إلى كسب الوقت ، وربما بدا له أن العودة إلى تنبوكتو ستسمح له بارتياد المناطق الغربية الغنية بمعادن الذهب وبمداخيل التجارة وحقوق الأبواب والمرور ، كما ستسمح له بإعداد المراكب وتجهيزها وتدريب جيشه على الظروف القتالية الجديدة التي كانت تختلف حتماً عما تلقاه عسكره عند وادي تنسيفت شمال مراكش .

والذي يحمل على اليقين بأن جؤذر كان يخفي من أموره أكثر مما يظهر ، هو أنه حين عاد إلى تنبوكتو شرع لتوه في « بناء السفن والأساطيل لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصوى مخافة أن يفاجئه الرأي الكريم بنقض ما أبرمه مع العبد سكية (الأسكيا) » ، كما أنه بادر إلى إنشاء القصبة في داخل تنبوكتو وأحاطها بالأسوار والأبراج وشحنها بالمدافع[1] ، وقبل أن يفعل كل ذلك بنى برجين هامين أحدهما في مدينة بامبا والآخر في كارابارا أي في منتصف الطريق بين تنبوكتو وغاو .

وبعد كل ذلك أليس من الممكن الشك في نوايا جؤذر تجاه عقده المبرم مع الأسكيا ، وما يدري أن اتفاقاً ما كان بينه وبين سيده السلطان ليلجأ إلى مثل تلك العقود حين يرى أن المصلحة تقضي بذلك .

ولكن ما وقع بالفعل هو أن جؤذر عاد إلى غاو ، وأمر رجاله بالرحيل عنها فلم يمكث فيها في المرتين سوى سبعة عشر يوماً[2]. وحين غادرها عاد إليها الأسكيا .

٥ ـ رد السلطان :

لقد تلقى أحمد المنصور الذهبي أخبار جيشه أولاً بأول . وحسب مختلف

---

(١) الفشتالي ص ١٤٧

(٢) السعدي ص ١٤١

المصادر فإنه تلقى ثلاث رسائل منذ وصول الحملة إلى كبارا إلى توقيع الصلح مع الأسكيا المهزوم ، وردته من مصادر مختلفة .

كان أول من أخبر السلطان بوصول الحملة سالمة إلى نهر النيجر هو عبد الله بن شين المحمودي شيخ قبيلة البرابيش الذي تعرض لنهب أبله من قبل الباشا جؤذر ورجاله في شرق أروان ، ويظهر أن فرحة المنصور بورود تلك الشكوى التي حملت في طياتها البشرى العظيمة كانت الدافع إلى إصدار أمره بتعويض الشيخ عبد الله عما ضاع منه[1].

وجاءه الخبر الثاني بواسطة الباشوظ (من المكلفين بالبريد) على العجمي الذي نقل إلى السلطان خبر فتح السودان وقدم له وصفاً لمعركة تنديبي[2] .

والخبر الثالث كان عبارة عن رسالة كتبها القائد أحمد بن الحداد مع مجموعة من التجار في موضوع الصلح ، وكانت مرفقة بالعقد الذي أبرمه جؤذر مع الأسكيا[3] .

وإذا كانت البشرى الأولى لا تحمل أي مدلول سياسي أو عسكري ، فإن الخبرين الأخيرين كانت لهما ردة فعل قوية في نفس السلطان السعدي لأن الأول منهما كان ينبيء بقطف أولى ثمار الجهود التي صرفت في الخطة السودانية الطموحة ، ولأن الثاني منهما كان يتضمن انتكاساً واضحاً ، وتحولاً عن الخط الذي رسمه المنصور لجنوده .

وهكذا فعندما طير جؤذر من أرض المعركة خبر الفتح لسيده « عمت

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٩ وبوفيل مصدر سابق ص ١٩٦
(٢) السعدي مصدر سابق ص ١٤٤ والفشتالي ص ١٤٧
(٣) المصدر السابق ص ١٤١

البشرى والمسرة وسرت الطلاقة والابتهاج في الخاصة والعامة »[1] « وأمر المنصور بالمفرحات غدوة وعشية ثلاثة أيام »[2] وتقدم الشعراء إلى تهنئته وتبشيره بقرب دخول العالم الإسلامي في بيعته وتحت سلطانه ، ويدنو استعادة الأندلس وافتكاكها من النصارى[3] .

وكعادة السلطان في أخبار ولاته وقواده وأفراد شعبه فقد كتب إلى الجهات المغربية قاصيها ودانيها يزف البشرى العظيمة ، وكانت الرسائل تحمل تاريخاً واحداً هو الجمعة ٧ شعبان عام ٩٩٩ هـ (٣١ ماي ١٥٩١)[4]. وسنورد نص الرسالة الموجهة لوجهاء وسكان فاس والتي قرئت من على منابر المدينة .

« إلى المفتي والقاضي والفقهاء والأمناء والمرابطين والأشياخ والخاصة والجمهور بحضرتنا الفاسية وفق الله آراءكم وجمع على مرضاته أهواءكم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء المصرف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي سن تجهيز البعوث لتدويخ الأقطار ، بتوالي تكاثف القبائل والقطار ، والرضى عن آله وصحبه الذين اقتفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتنموا نشر نسيمة البليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم بما يزيده عزاً وظهوراً ، ويجعله في عين الوجود نوراً ، فإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية ومجمع المفاخر القريبة والقصبة حمراء مراكش حرسها الله .

---

(١) الفشتالي ص ١٣٩

(٢) المؤلف المجهول تاريخ الدولة السعدية ص ٦٧ ، ويخطىء المؤلف فيجعل خبر الفتح قد وصل من محمود باشا والصحيح أنه وصل من جؤذر باشا بموجب سياق الأحداث .

(٣) الفشتالي مصدر سابق ص ١٥٩

(٤) المكان السابق .

هذا وإنا ننهي إليكم عرفكم الله عوارف آلائه الجسام وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحة القسام ، بأنه لما انصب عزمنا الميمن في سالف التاريخ ، وتاقت هممنا العلوية لتدويخ بلاد السودان بأتم وجوه التدويخ وجهنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة ، جملة يتكفل معها الإسعاد بكمال المراد ، ونبذة نشرت عليها من ألويتنا الظافرة كل فتخاء قاهرة ، أطارها اليمن كل مطار وألج بها الإقبال لجج القفار ، تخوض آلا تتراكم أمواجه ، وتفتح باباً طالما طلسم رتاجه ، فاقتحم العسكر أحياء وحللاً ، وارتدى من المهابة وبعد الصيت بروداً وحللاً ، حتى أدخل ربقة طاعة هذه الإيالة من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوبرية من أعاريب الكراع التي لم ترتض بولاية ولا راع ، جموعاً كثيرة ينتهي التعداد بهم على حكم ما أدوه من الزكاة الشرعي لستة وأربعين ألف خيمة ، وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعض من كل وجزء من جل (إشارة إلى الحملة السنغالية) .

« وانتهى الغوص والأبعاد بما وجهناه من الأجناد بعد مقربة من ثمانين مرحلة في المغاور الصعبة المجاز إلى بلاد السودان والأنحاء التي جنى طاعتها لهذه الإيالة إن شاء الله دان ، فتناهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما ينيف على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب ، وأخلاط الاتباع وجيوش السودان ، فانتفخ هرهم ليصول ، وانتفض بومهم يشير للعقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين وتدافع الجانبين ، والفرض أن أنصار هذه المثابة وحماتها قد مسهم النصب بأوجه التأثير ، وأفنى جل خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفر أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام سوى سبعمائة رام ، وقرب عشرين فارساً ، لكن كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارساً ، فهب عليهم ريح النصر كل صبا ، واتخذوا الجلاد سبيلاً ومذهباً فخفقت الألوية العلوية بالنصر والظفر ، وأنبت بحمد الله سلك انتظامهم وانتشر ، وأتى الحين والأسر على جموعهم في الحين

وقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »[1].

وحين وصلت مراسيل القائد أحمد بن الحداد والتجار بالكتاب الذي يخبر بتوقيع الصلح الذي كان جؤذر مضطراً إليه مع الأسكيا لأسباب عددها الكتاب وفي ضمنها انعدام المراكب وضرورة السعي في بنائها[2]، وإفراج جؤذر عن غالور انزعج السلطان وعقد العزم على معاودة الفتح ، وصب على أمراء الجيش جام غضبه ، « ونقم عليهم التنفيس من مخنق العبد سكية والإفراج عنه ، وقرعهم على ما أتوه »[3] « ونقض عرى صلح العبد ، ونبذه وراء ظهره فرجع بملء العيبة في الحسمة وهيهات الصيف ضيعت اللبن »[4].

وبدل أن يوقع السلطان على عقد الصلح أمسك القلم وكتب تحته مخاطباً الأسكيا « أتمدونني بمال مما أتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون[5].

وينبغي أن نصل إلى معرفة ما كان يجري في رأس المنصور ، فهو قد يكون متفقاً ، كما أسلفنا ، مع جؤذر على تحرير عقد من طراز ما عقده إذا وجد نفسه في حاجة إلى المراوغة للوصول إلى أهداف معينة دون أن يتكبد مزيداً من الخسائر

---

(١) رسائل سعدية ـ مصدر سابق ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ ١٩٤ ، ويوجد ضمن كتاب مناهل الصفا التي تحققها الدكتور عبد الكريم كريم (١٩٧٢ ص ١٤٥) نص رسالة أخرى تحمل نفس التاريخ ، وهي أطول من التي ذكرنا ، وأكثر منها تفصيلاً في المراحل التي قطعتها الحملة وفي وصف معركة تديبي ، وفي تعداد خيرات السودان وهي مرسلة إلى (الشرفاء والفقهاء من أهل كذا) مما يدل على أنها لم ترسل إلى الموجهة إليهم .

(٢) السعدي ، مصدر سابق ص ١٤٥

(٣) الفشتالي ص ١٤٩

(٤) المصدر السابق ص ١٤٨

(٥) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي مصدر سابق . ج ٢ ص ١٣٨ .

والدليل على هذا سنراه واضحاً فيا سنستقبله من الأحداث ، ذلك أن القائد محمود باشا الذي خلف جؤذر وعرف بطاعته العمياء للمنصور لجأ إلى أسلوب المفاوضة والعقد مع عدوه محمد كاغ ، ووصل إلى الهدف الذي كان يروم الوصول إليه وهو إلقاء القبض عليه وقتله مع أنصاره وكبار رجالات جيشه ، فكيف يغضب على جؤذر غضبته تلك ويقصيه عن مسؤولياته ويأمر بقتل القائد أحمد بن الحداد ؟ ، وحين نميل إلى الاعتقاد بأنه كان على وفاق مع القائدين جؤذر ومحمود في أمر المناورات السياسية ، فقد كان يجمل به أن يرفض العقد ، ويحل جؤذراً من تبعاته ، ويتيح له فرصة أخرى لمعاودة الكرة .

هل كان المنصور يشك في وجود بنود سرية لم يطلعه جيشه في السودان عليها ؟ أو هل كانت تساوره الظنون حول نوايا جؤذر ومن معه من القادة الأندلسيين والأجانب ؟ ، لقد عرفنا في السابق أن الأندلسيين كانت لهم أطماع سياسية منذ خروجهم من بلادهم واحتلالهم بالمغرب ، كانوا غير مخلصين للدولة المغربية وقاموا بثورات متعددة جعلت النفرة منهم تظهر بين الحين والآخر[1] ، بل وأكثر من ذلك فإنهم سعوا في إقامة دولة أندلسية ، وقد أسسوها بالفعل بعيد موت المنصور في مدينة الرباط وأطلقوا عليها « جمهورية أبي رقراق »[2] .

وقد شك بعض ممن كتبوا عن موضوع صلح جؤذر مع الأسكيا في أنه قد يكون هناك إتفاق ضمني بين الرجلين لتقسيم المملكة الزنجية إلى دولتين يحكم إحداهما الأسكيا من غاو ويحكم الثانية جؤذر من تنبوكتو ، وفي أن العلماء المغاربة ربما كانوا موافقين على مثل ذلك المشروع ، فالأسكيا الذي لم تكن له القدرة على

---

(١) ابن القاضي ، الجذوة مصدر سابق ص ٢٨

(٢) حركات « بعد طرد المسلمين من الأندلس » ـ وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ـ الجزائر ـ الملتقى التاسع للفكر الإسلامي ـ النقطة الثانية ص ٥

مواجهة أعدائه كان يهمه أن تقوم دولة تتوسط المغرب ومملكته يمكنها أن تمنع عنه باستمرار أخطار الشمال[1]

وقضية غضب المنصور على القائد أحمد بن الحداد الذي كان رجل المفاوضات يمكن تبريرها أكثر من تبرير غضبه على قائده جؤذر باشا ، فالرجل كان مورطاً في رشاوى ضخمة قبضها من التجار وربما من رجال الأسكيا ، وكان يجمع قادة الجيش ويقدم لهم الطعام والحلويات ، وفي مرة واحدة وبعد وليمة أولمها للكواهي وصغار الضباط أعطى كل واحد من الحاضرين مائة مثقال من الذهب[2]، وقد أرسل المنصور رسالة عاجلة إلى جؤذر يأمره بشنق ابن الحداد أمام أفراد فرقته ، ولكن نساء البلاط تدخلن لدى السلطان مستشفعات فيه فوجه رسالة أخرى يعفو عنه ويأمر بعزله من الجيش وترحيله إلى المغرب ، وقد وصلت الرسالة الثانية قبل الأولى[3].

والخلاصة أن المنصور شجب عقدة الصلح ، واتخذ إجراءات ضد المسؤ ولين عنها أو تظاهر بذلك[4] وأرسل قائداً جديداً هو محمود باشا مع ثمانين رامياً ، يعاونه صديق أحمد بن الحداد في فتح تيكورارين وتوات القائد حمو بركة ، وقائد شاب جريء اسمه عبد العالي ، وكان الأمر الوحيد الذي أصدره السلطان لحملته الصغيرة الثانية : عليكم باستئناف الأمر من أوله وطرد الأسكيا وفتح البلاد ثانية[5].

---

(١) الغربي - مصدر سابق ص ١٥٧ - ١٦٠
(٢) السعدي مصدر سابق ص ١٤٥ - ١٤٦
(٣) المكان السابق
(٤) بعد عزل جؤذر بقليل عينه المنصور حاكماً مدنياً عاماً للسودان
(٥) الفشتالي ص ١٤٩

٦ ـ إتخاذ تنبوكتو عاصمة وبناء قصبتها :

عاد جؤذر للغرب مع جيشه ، ولم يدخل تنبوكتو حين وصوله إليها بل ضرب خيامه إلى الشرق منها ، ولم يكن ينتظره قتال في تلك المدينة ، بل على العكس فقد أتاه وفد من قبل القاضي أبي حفص عمر آقيت على رأسه مؤذن الجامع الكبير (يحيا) ، سلم على الباشا وحمد له سلامة الوصول ، ورغم أن جؤذر شعر بالانقباض لعدم قيام القاضي بذلك الواجب بنفسه ، فقد كتم غيظه ، وبسط المائدة للوفد وكانت تحوي أنواعاً من اللحوم والفواكه والتمر واللوز ، وعند رجوع ذلك الموظف زوده ببدلة من المخمل الفاخر[1] .

ودخل الجيش يوم ٣٠ مايو ١٥٩١ بلباسه الفاخر النظيف وأسلحته النارية إلى المدينة التي استقبلته استقبالاً فاتراً ، وإظهاراً من جؤذر لقوته وهيبة الدولة فقد تعمد أن يطوف بجيشه في أحيائها ، وعندما وصل إلى باب منزل القاضي ترجل واستأذن في الدخول ، وأتى مجلس القاضي الذي كان جالساً فقبل رأسه ورجليه وجلس تجاهه متأدباً يجاذبه أطراف الحديث[2] .

إن القائد المغربي كان يعرف مخاطبه ويدرك مكانته في المدينة وفي البلاد كلها « فتنبوكتو لم يكن فيها (بعد الثورات التي عرفتها مملكة السونغاي) حكم إلا حكم متولي شؤون الشرع ، فالقاضي فيها هو السلطان الفعلي وبيده الحل والربط وحده »[3] .

ويبدو أن العمل الأول الذي أنجزه جؤذر بعد طوافه بالمدينة وسلامه على القاضي هو أنه توجه إلى سجن المدينة وأخرج من كان به من السجناء ، ووجد من

---

(١) السعدي ص ١٤١
(٢) كعتو ص ١٥٧ ـ ١٥٨
(٣) المصدر السابق ص ١٨٠

بين المعتقلين حمو بن الحق الدرعي [1] الذي سبق أن ذكرنا اتهام الأسكيا إسحاق له بالتجسس للمغاربة وحكمه عليه بالسجن وقد عينه جؤذر أميناً في الحال ، وما من شك في أن القائد المغربي كان بتصرفه، ذاك يلفت نظر القاضي وسكان المدينة أن وضعاً جديداً قام في مدينتهم منذ ذلك اليوم .

وعاد جؤذر من معسكره في اليوم التالي ليقبل رأس القاضي ورجليه من جديّد ، ولا ريب أن أبا حفص كان يستعيذ بالله من ذلك ، ووضع بين يدي القاضي أولى مطالبيه : جئتك اليوم أطلب منك أن تستعير لنا داراً نسكن فيها ، فقد قرب فصل الأمطار ، ويجب أن نحمي مدافع السلطان نصره الله وباروده ، ويمكنك أن تأذن لنا بأخذ قطعة أرض واسعة نبني عليها القصبة إلى أن يأتي أمر السلطان بالرجوع فنرجع ونترك البلاد لأصحابها [2] .

وإظهاراً من القاضي لكرم الضيافة فقد عرض عليه أن يأخذ منزله ويتخذه مقراً لسكناه ، أو أن يبحث إن شاء عن منزل آخر يناسبه ، ولم ينتظر جؤذر غير هذا العرض الأخير فاستأذن في الإنصراف ليبحث بنفسه عن المكان المناسب ، واصطحب معه ثلة من الجنود وقصد إلى أغنى وأعمر جهات تنبوكتو التي كانت تضم بيوت كبار تجار المدينة وأعيانها ، وبينها دار كبيرة ومخزن واسع يمتلكها التاجران الحاج أكرجوم وسن سيمووع وأمر أصحاب تلك الدور بمغادرتها بأمر من القاضي ، وكانت تلك الحومة تدعى حومة الغدامسيين [3] ، ولما كانت تلك الدور والمتاجر مليئة بالحبوب والملح والأثاث ، فإن أصحابها الغدامسيين سارعوا إلى

---

(١) السعدي ص ١٤١

(٢) كعتو ص ١٥٧ ـ ١٥٨

(٣) السعدي ص ١٤٢ ، ويقول بوفيل : « إن الوحيدين الذين أرغموا على أن يقاسوا استقبال تنبوكتو البارد للجيش هم تجار غدامس الأثرياء إذ خرب كثيراً من الدور والمخازن لإقامة حصن أمر جؤذر بإقامته » بوفيل ص ٢٠٧

منزل القاضي وطلبوا منه مهلة تسمح لهم باكتراء غيرها ونقل متاعهم إليها ، فأرسل القاضي خديمه (أشرع منذ عمر) يطلب من الباشا أن يمهل التجار شهراً واحداً ، فقبل أن تكون المهلة أسبوعين ، ولكن بعد انقضاء ستة أيام فقط دفع جؤذر برجاله لاحتلال الحومة ، وشرعوا على الفور بهدم بيوتها ، وأرسل للقاضي أمراً بأن يوظف هو وبقية العلماء ومجموع تجار المدينة عبيدهم لبناء القصبة[1] .

ومع تقدم أعمال البناء أصبح على كل عالم أو تاجر أن يقدم من ٢٠ إلى ١٧ عبداً يقع اختيارهم من أفتى العبيد وأكثرهم إلماماً بالأعمار ، وكان على التاجر أن يطعم عبيده وينفق عليهم ، ويأتي العبيد جماعات بعد صلاة الصبح وعلى رأس كل جماعة شاوشاً من الجيش ، وبعد العصر يعود العبد إلى دار سيده ، ومن مهمة الشواش (ضباط صف) أن يحرصوا على مراقبة صحة العبيد الموكولين إلى نظرهم ، فعليهم أن يتعشوا جيداً في بيوت مالكيهم وينامو مبكرين ولا يقوموا بأي عمل في البيوت .

وقد ألزم جؤذر تجار البلد أن يقدموا كمؤونة للجيش ١٢٠٠ صينية (كيساً) من الأرز ، وما قد يحتاجه لطعامه وشرابه من المواد الأخرى ، ولم يكن أهل تنبوكتو قد ألفوا مثل تلك المعاملة القاسية ، ولا خبروا ما ألحقه المغاربة بهم من المصائب والأهوال[2] .

وقد اهتم جؤذر ، في أن يبني ضمن القصبة داراً له سماها دار الباشوية ، وأن يلحق بها مسجداً كان يقوم في عين المكان يطلق عليه مسجد خالد[3] .

والعمل الثالث الذي باشره جؤذر منذ وصوله تنبوكتو ، بعد إطلاق السجناء

---

(١) كعتو المكان الأسبق
(٢) كعتو المكان الأسبق
(٣) المكان السابق

وبناء القصبة ، هو أخذه في بناء الأسطول وكانت لا تزال بحوزته المطارق والمسامير والمخاطيف ، وكان ضمن جيشه الصناع المهرة من أصحاب النجارة والحدادة والرئاسة في البحر[1]، ولم تكن تنقصه إلا الأخشاب ، فعين فرقة من جيشه ومن عبيد التجار لقطع أشجار المدينة وخلع أبواب البيوت ، وحملت الأحمال من ذلك إلى كابارا وأخذ النجارون في نشرها وتسويتها ألواحاً[2] .

وبخلاف المصادر التاريخية المختلفة التي تذهب إلى أن جؤذر لم يتم بناء أية سفينة ، وأن خلفه محمود باشا هو الذي أنجز بناء سفينتين فور مجيئه إلى تنبوكتو في شهر غشت ١٥٩١ ، فإن الفشتالي أكد « ان جؤذر قد اعتمل في إنشاء الأساطيل والسفن لاقتحام النيل (النيجر) والعبور لعدوته القصوى خلال مدة انتظاره لرجعة جواب مولانا (في موضوع عقد الصلح)[3]، ويأخذ الفشتالي في وصف سفن جؤذر « فما مضى غير برهة ، حتى اخترعت في نهاية الأحكام ونباهة الشكل ، فكانت سفن العبد أخذت بطرف نقيضها قماءة وصغر قدر ، وتفاوت شكل ، فتسنم كبد اللج بها واستقل على غوارب اليم ، هياكل ماثلة قد ألبست مدارع القار وأدلعت إلى الماء ألسن المجاذيف وأرسلت في النيل إرسال الأجادل المنقضة تقطع أنفاس الرياح شداً وتستقل الفيلق الجم والأوقار الثقيلة من البضائع فأغرقت تلك الأمم الهمل في مذاهب الإعجاب . . وانحشرت عوالم من دهمائها لمشاهدتها »[4]، أما السعدي فأثبت أن السفن صنعت في تنبوكتو من طرف جؤذر وجرت إلى النهر قبل مجيء محمود باشا[5] .

---

(١) الفشتالي مصدر سابق ص ١٤٨

(٢) بوفيل مصدر سابق ص ٢١٠

(٣) الفشتالي ص ١٤٧

(٤) المكان السابق

(٥) السعدي ص ١٥٨

والذي نتعلمه من قولة الفشتالي أن جؤذر قد صنع سفناً بالفعل خلال فترة انتظاره جواب السلطان وأنه استخدمها في حمل البضائع من كبارا إلى الموانىء الأخرى على النيجر .

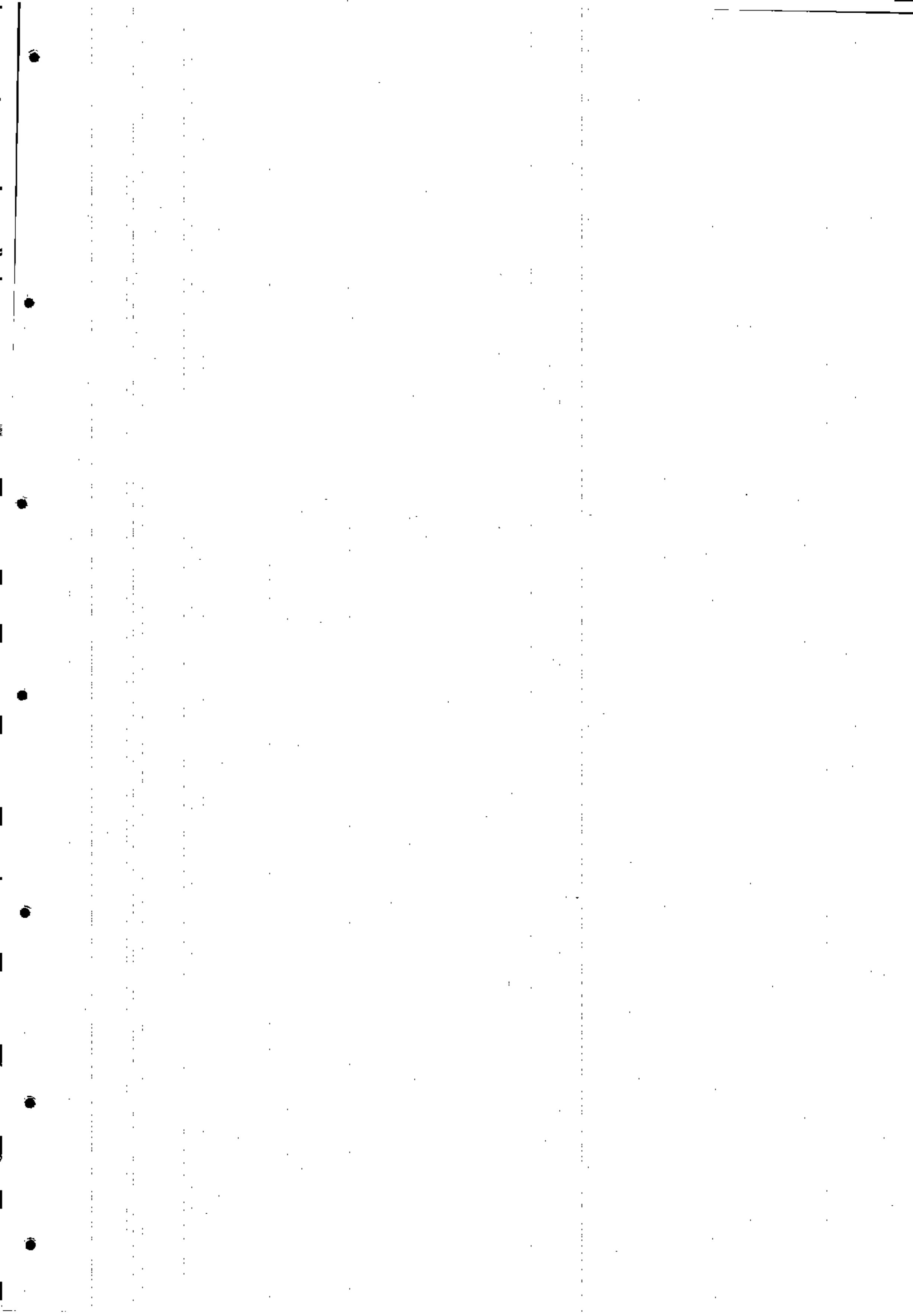
وإلى جانب المنجزات التي حققها جؤذر بعد رجوعه من الشرق نجد رأيه يستقر على تحويل تنبوكتو إلى عاصمة للممالك السودانية ، ولقد كانت هنالك دوافع مختلفة حدت بالقائد إلى أن يحزم أمره ويتخذ قراره ، ففي ظروف السلم التي كانت سائدة آنذاك بين الجيش المغربي والأسكيا أراد جؤذر أن يؤكد لخصمه أنه لا يريد إزالة ملكه وتحويل عاصمته إلى عاصمة للمغاربة فالحرص على عدم إلحاق العار بالأسكيا كان هاماً وضرورياً في تلك المرحلة ، وكان جؤذر يعلم أنه في حالة رفض السلطان لشروط صلحه فإنه سيرسل قائداً جديداً للجيش ويتركه هو حاكماً للبلاد التي افتتحها ، وتلك من العادات المعروفة في ذلك العصر ، وبما أن مناطق الحرب تقع إلى الشرق وإلى الغرب فستكون تنبوكتو حتماً هي مقر جؤذر وقاعدته ، ثم هناك العوامل الطبيعية والنفسية ، فتنبوكتو تتوفر فيها الشروط الصحية الأكثر ملاءمة من غيرها » وكان جؤذر وجنوده قد وجدوا غاو وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة إلا بشرك علاج ولا يستشعر برد الصحة إلا من ألف جوها وربي في أفقها »[1] ، ثم ان تنبوكتو عقدة لمواصلات السودان ، فهي تتوسط كل الجهات بشكل متعادل ، وهي بعيدة عن مناطق القتال والثورات في الشرق والغرب وعن بلاد الوثنيين في الجنوب والشرق بخلاف غاو ، ثم ان جؤذر أراد أن يعطي للمدينة قيمة وأهمية نظراً لوجود العلماء بها ، فهؤلاء سيشعرون بالفخر لتحويل مدينة علمية وتجارية إلى عاصمة ، وأخيراً فتنبوكتو محاطة في كل جهاتها بالقبائل العربية والتاركية والصنهاجية وليس من بين تلك القبائل من كان يشعر بأن

---

(١) نقولا زيادة ـ مصدر سابق ص ٨٤

الجيش المغربي يريد انتزاع شيء منها أو مناصبتها العداء كما هو الشأن بالنسبة لقبائل السونغاي التي كانت معنية بحملة السودان وإليها توجهت تلك الحملة في الأصل .

فهذه إذاً هي الدوافع التي حملت جؤذر على اتخاذ تنبوكتو عاصمة لأقاليم السودان المشمولة بالحكم المغربي ، وهذه هي الأسباب التي حدت بالمنصور إلى الموافقة على قرار جؤذر ، وقد استمرت تلك المدينة عاصمة للمغاربة في السودان إلى نهاية القرن التاسع عشر .



الفصل الخامس

الفتح الثاني

١) الباشا محمود

المعارك الفاصلة

الصلح مع الأسكيا ومقتله

ثورة تنبوكتو

تمهيد الأقاليم الغربية

تمهيد الأقاليم الشرقية

نكبة العلماء وتغريبهم

استبدال فرق الجيش ومقتل الباشا .

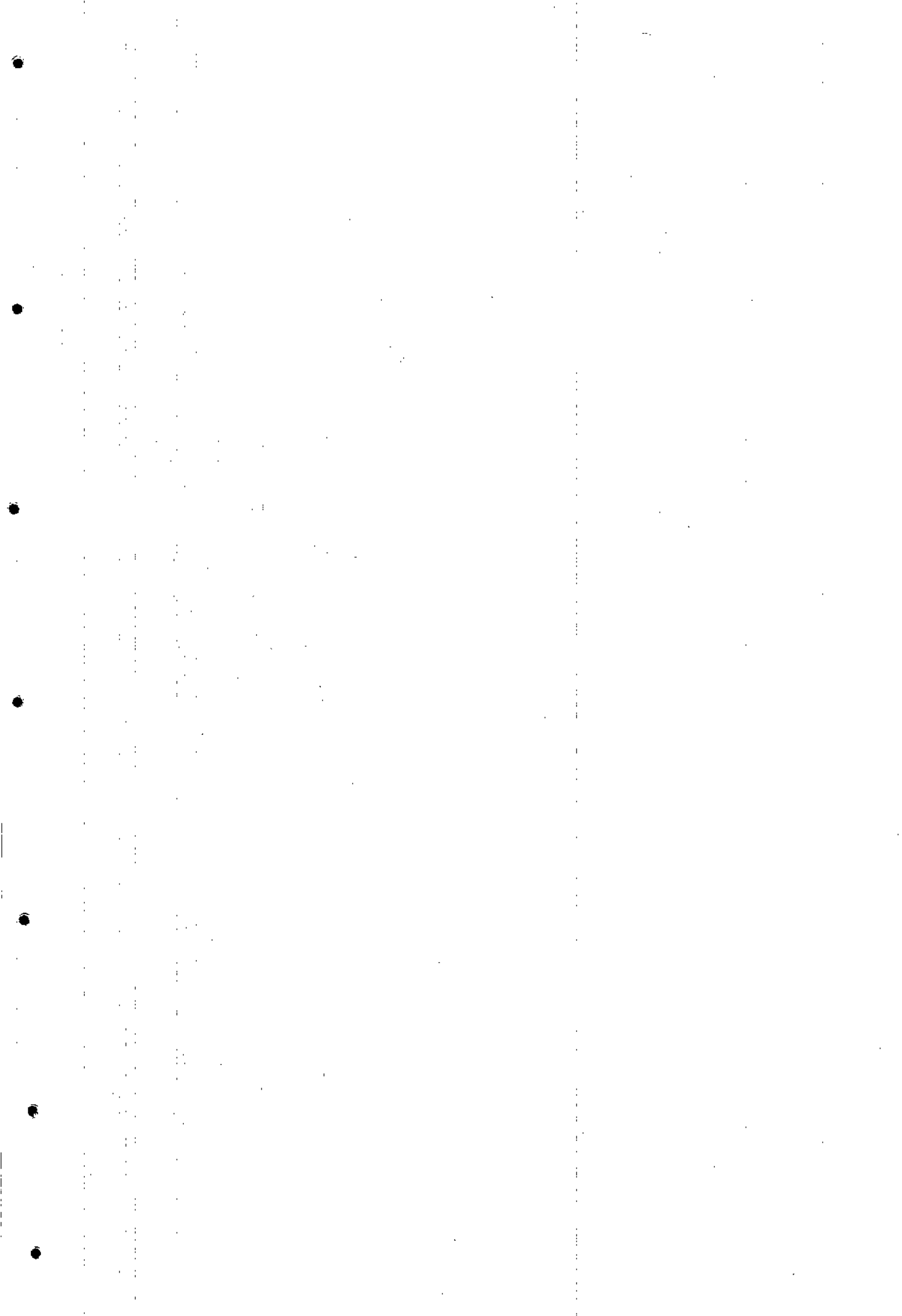
٢) بقية باشوات فترة التأسيس

الباشا منصور بن عبد الرحمان

الباشا محمد طابع

الباشا الفتى عمار

الباشا سليمان



١) محمود باشا

١ ـ المعارك الفاصلة :

غادر محمود باشا مراكش في بداية شهر يونيه ١٥٩١ مصطحباً معه ثمانين رامياً وقائدين محنكين شغل أحدهما منصب صدر أعظم في حكومة المنصور ، ومارس الحروب الصحراوية في تيكورارين أبا عبد الله محمد بن بركة ، ويبدو أن هذا القائد كان يحمل معه ظهير تعيينه والياً على مدينة غاو لأنه تولى هذا المنصب فور استعادة الجيش المغربي لعاصمة السونغاي دون إجراء مشاورات بين القادة كما جرت بذلك العادة[١] .

وقد تحدث المؤرخون بالكثير من الاستغراب عن السرعة التي قطع بها محمود باشا الطريق الصحراوي من مراكش إلى تنبوكتو حيث وصل هذه المدينة بعد خمسين مرحلة[٢] والواقع أنه إن كان ولا بد من إبداء الإعجاب بذلك القائد المقدام ، فيجب أن نقدر له تجشمه مصاعب السفر في ذلك الوقت من السنة ، « فقد ذهب من مراكش في فصل الصيف عند اشتعال نار القيظ واشتداد وهج السموم وهذا أغرب مأثور وأعجب حديث »[٣]، ففي ذلك الوقت من السنة « لا يقدر على الحركة إلا القطا الكدري وهو أمر لم يسمع بمثله »[٤] .

---

(١) الفشتالي ص ١٥٢

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩ الناصري الاستقصاج ٥ ص ١٢٣

(٣) الفشتالي المكان السابق

(٤) الاستقصا المكان السابق

على إننا ، ونحن نعرف عن نشأة محمود في دار الخلافة بمراكش ، وانشغاله فيها بأمور عسكرية هي أقرب إلى المراسيم والبروتوكول منها إلى أعمال عسكرية أو ميدانية ، ندرك فعلاً الميزات النادرة والقدرة البدنية التي تحلى بها ذلك الرجل الذي ولد في اسبانيا ، وعاش في أكناف الملك ، ثم حقق إحدى معجزات عصره ، ليصل إلى بلاد كان عليه أن يمتطي فيها جواده فاتحاً ومنتصراً ثلاث سنوات إلى أن ظفر به أعداؤه في غفلة من جيشه ومزقوه وتوزعوا شلوه في أنحاء متباعدة من السودان .

وصل محمود باشا إلى تنبوكتو في السابع عشر من أغسطس ، وكانت مهمته محددة في استلام الجيش من خلفه جؤذر باشا الذي تسلم لتوه ظهير تعيينه حاكماً مدنياً لأقاليم السودان كلها ، وفي معاودة الفتح للقضاء على الأسكيا وإقامة الإدارة المغربية المدنية ـ العسكرية على أنقاض مملكته ، والأخذ بمخانق الخارجين عن الطوق من أعراب وتوارك ، وبسط الحماية على الإمارات والسلطنات في الحاووصا ومسينا ، ومعالجة أمور التجارة واستغلال المعادن .

وكان محمود باشا يعرف أن الأسكيا محمد كاغ موجود في بلاد بورنو عند وصوله إلى تنبوكتو[1] ، ولا شك أنه أطال التفكير في هذا الأمر ، لأن بورنو كانت إحدى شقي الأمبراطورية السودانية التي بايعت السلطان السعدي قبل أعوام ، وكان عليها أن تقف في وجه عدوه لا أن تفتح له حدودها أو تتسامح في وجوده بأحد أقاليمها ، وأغلب الظن أن محموداً أراد التريث قبل أن يعطي الإشارة لجيشه بالتحرك ، ولكنه لم يضع وقته ولا ترك فرصة راحة لأصحابه ، وقد أعطى الأمر أولاً بمواصلة قطع أشجار المدينة وانتزاع أبواب بيوتها بقصد المضي فيما بدأه جؤذر من صناعة السفن ، وبعد أسبوع فقد أنزلت أول سفينة إلى النهر (٢٤ أغسطس)[2] ، ولم يحضر محمود قراءة الفاتحة التي تلاها أفراد البحرية وهم يحتفلون

---

(١) السعدي ص ١٤٦

(٢) المكان السابق

بالمناسبتين لأنه كان ينظم مع جؤذر باشا شؤون العاصمة الجديدة تنبوكتو ، وينصب الجهاز الإداري والعسكري بها ، وفي مقدمة ذلك تخصيص حصة من الجيش لأمرة القائد حاكم العاصمة مصطفى التركي ، وجعل الإدارة المدنية تحت أمرة الأمين حمو الدرعي الذي كان أول موظف يعود في السودان إلى نظر الحاكم العام جؤذر باشا .

وقبل أن يغادر محمود وجؤذر وكافة الجيش - باستثناء حامية تنبوكتو - عاصمتهم الجديدة قاصدين ميناء كبارا في ٩ شتنبر ١٥٩١ أتت أولى مفاجئات الأسكيا ، فقد استطاع أن يؤثر على صاحب مرسى كبارا (منزو ألفع ولد الزرقة) ، ويرشيه بالمال ففر بقواربه ، وكان عددها وفيراً ومما عقد عليه الجيش الآمال في مساندة قوته النهرية الصغيرة .

وقد تردد محمود باشا في النهوض إلى الشرق أو التريث ريثما يقترب منه عدوه الذي كان قد شد إليه الرحال بالفعل ، ولم يرد أن يقع في الخطأ العسكري الذي وقع فيه سلفه حين ترك للأسكيا أمر تقرير مكان المعركة ، وبعد مشاورات قرر أن تكون المعركة في مدينة بامبا البعيدة عن تنبوكتو بمائة وتسعين كيلومتراً .

وفي صبيحة يوم ٢١ شتنبر أخذ الجيش في المسير ، وأغلب العناصر كانت تركب الجمال والجياد والبحارة كانوا يسيرون في النهر على سفنهم المجهزة بالمدافع والأقوات ، وحلت مناسبة عيد النحر حين كان الجيش بالقرب من مرسى بانكا ، فاحتل فيه محمود وجؤذر والجيش أسبوعاً كاملاً ، ثم جمعت الرحال ، وسار الجميع إلى بامبا التي قرر محمود أن يجري فيها أول لقاء له مع خصمه[1]

إن اختيار منطقة بامبا يدل على الدهاء العسكري والمعرفة باستراتيجية

---

(١) المكان السابق .

المعارك ، ففي هذه الجهة تنتهي منطقة الفيضان أي أن عدد السكان الذين يعيشون على الزراعة وصيد السمك وتجفيفه يقل بشكل كبير عن المناطق الواقعة شرقاً أو غرباً ، وقبل الوصول إلى بامبا من جهة الشرق أي من الجهة التي سيأتي منها الأسكيا يصبح النهر سريعاً ولا تتمكن السفن الصغيرة السودانية من الاقتراب من بامبا إلا بعد معاناة وبتوفر كثير من الحنكة [1].

وهناك ميزة أخرى يحققها النهر عند بامبا وهي تقارب ضفتيه حيث لا يزيد البعد بينهما عن مائة متر ، بخلاف ما هو موجود نحو الشرق حيث يصل التباعد إلى ألف وخمسمائة متر [2]، فلو قدر للأسكيا أن يأتي بأسطوله كما فعل في معركة تنديبي واستطاع تجاوز العراقيل التي يضعها النهر في هذا الوقت من فيضانه القوي ، لما تمكن من استخدام سفنه في الهرب إلى الضفة المقابلة ، أما إذا فكر في العودة القهقرى ففي مقدور السفن المغربية الكبيرة ذات المجاديف المتعددة أن تلحق به بسرعة .

ومع قلة المزارع والترع والتشققات الأرضية حول بامبا ، فإن الأشجار الطبيعية تنتشر بكثرة وتكون هنا وهناك غابات صغيرة من النخيل الذكر المرتفع الجذوع [3]، ولا شك أن أرضية مثل هذه تساعد حركة جيش صغير وتعيق حركة أعداد كبيرة غير منتظمة ، فعند فرار جيش الأسكيا في حالة انهزامه يكون مضطراً للتفرق شرقاً وشمالاً أي يكون ملزماً حتماً بالدخول إلى بلاد التوارك ، أما الجيش المغربي فلو قدر له الفشل فهناك من الخلف ثلاث حلقات تمتد على جزر النهر وعلى

---

(١) Grograpttie universelle T. X1 Colim 1937 P462

(٢) المكان السابق

(٣) Gorges Maris, Luis Dubreuil - La premiere traversee du Sahara par au tomobil Paris 1923 P221

الشريط المحاذي للنهر وفي مقدور الرماة عندها أن يمنعوا ملاحقة عسكرهم عند نكوصه وهربه .

وهكذا فقد نظم محمود جيشه عند أطراف غابة (زرزن)[1] ، وكان عدده أربعة آلاف[2] ،وعلى رأس كل فرقةمنالاصبايحيةوالأندلسيين والعرب قائد وكاهية ، وكما فعل جؤذر في المرة السالفة فإنه أخذ القيادة العامة للفرق كلها ، وفي يوم ١٤ اكتوبر وصل جيش الأسكيا محمد كاغ ، وكانت صيحات جنوده تسبقه وهم يحملون على أعدائهم من بين أشجار غابة النخيل ، ولم يمض إلا وقت قصير بعد أن دوت المدافع ولعلع الرصاص وارتفعت قنابل المهاريس في الجو ، ورددت الغابة صداها المخيف مختلطاً بأصوات الطبول آلات النفخ النحاسية ، حتى انتهت المعركة لصالح المغاربة ، وفر جنود الأسكيا مع قائدهم الذي أصيب بطلق ناري أمرضه لما بقي من حياته فتبعهم جنود المغاربة يقتلون ويأسرون إلى أن غشيهم الليل فرجعوا بالغنائم والسبي[3] ، ولسبب غير واضح فقد قرر محمود باشا أن يقيم في بامبا ثلاثة أيام[4] ، ولكن الأسطول انحدر مع من بقي على قطعه من رماة باتجاه غاو ووقف قبالة مينائها حائلاً بين الأسكيا الذي كان يسلك الطريق البري في هروبه وبين الانتقال إلى الضفة المقابلة ، وكانت غاو خاوية من سكانها الذين كانوا قد انتقلوا إلى كورما على الطرف الآخر من النهر منذ سماعهم بقرب معركة بامبا ، وكان الأسكيا قد أمر جنوده بإخلائها من الأرزاق وإحراق مخازن الحبوب والعلف مما لم يمكن حمله حتى لا يجد الجيش المغربي ضالته من القوت والعلف ، ومر

---

(١) السعدي ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ . كان مع محمود باشا ١٧٤ قباء في كل قباء ٢٠ جندياً

(٣) الناصري الاستقصا ج ٥ / ص ١٢٣ و١٢٤ ويقول السعدي ان الجيش كان يفتح مناطق القتلى ويستخرجون منها الدنانير ص ١٤٠

(٤) المكان السابق .

الأسكيا على غاو وأخذ في السير على الطريق الجنوبي باتجاه كوكيا والأسطول يراقب تحركاته ويحاصره[1].

وشعوراً من محمود بأهمية بامبا ، فإن الأيام القليلة التي قضاها مع جنده في ارباضها كانت كافية لإقامة تحصينات ونصب بعض المدافع ، ووضع الأحجار الأولى لحصن عسكري سنراه يكتمل بعد حين ، ويلعب دوراً مهماً في الأحداث المقبلة ، وحين انفصل عن بامبا كانت حاميتها في حالة تمكنها من مراقبة الطريق الحيوي الشرقي الغربي ، وكان قيادتها للقائد مصطفى بن عسكر[2].

دخل محمود مدينة غاو في نهاية شهر اكتوبر ، وكانت تلح عليه مهمتان الأولى منهما تأمين المؤ ن لرجاله ، والثانية ملاحقة الأسكيا والقضاء عليه ، وحسب معلومات استقاها ممن بقي في المدينة فإن الأسكيا كان يتخذ من بعض الجزر بالقرب من غاو مخازن لأقواته ومؤ ن جيشه ولم تمتد يد الأتلاف إلى تلك المخازن ، ولما كان من الضروري استخدام الأسطول في إحدى المهمتين : ملاحقة الأسكيا أو العمل على نقل المؤ ن من الجزر ، فإنه لجأ إلى حل شامل وهو استخدام القوارب الوطنية وهي متخذة من الجلد والقصب في الأجلاب على الجزر[3] ، وصرف أسطوله الحربي لإتمام مهمته في الجنوب ، ولم يقم محمود في غاو إلا قليلاً فبعد أن نصب عليها عامل السلطان الصدر الأعظم السابق محمد بن بركة مع حصة وافرة من الجيش ذهب مع جؤذر وبقية الجيش نحو الجنوب ، وحين كان قريباً من ميناء كوكيا العاصمة التاريخية للسونغاي ، وجد الأسكيا قد تخير مكاناً لمعركة جديدة يماثل موقع تنديبي ويتفوق عليه بوجود جزر رملية ومساقط للمياه تتخللها بعض السراديب التي لا يتمكن من اجتيازها إلا العارف بالموضع ووقعت

---

(١) الفشتالي ص ١٥٢

(٢) السعدي ـ ص ١٦٨

(٣) بوفيل ـ مصدر سابق ص ٢٠٣

معركة كوكيا وانهزم الأسكيا وركب السفن على مرأى من الأسطول المعادي وأخذ ينتقل إلى الضفة اليمنى من النيجر تحت سحب دخان الطلقات المدفعية والرمي بالرصاص ، وقد نقل الفشتالي عن شهود عيان أن أسطول السلطان كان يجد أكبر صعوبة في ملاحقة العدو وذلك « لجرية النيل من الأعلى إلى الأسفل (الشلالات) التي ترد جميع الأساطيل إلى التكسير »[1] واستعان محمود باشا بأحد الملاحين المهرة من السونغاي الذي دله على المعبر المأمون فاجتازته السفن المغربية ووصلت إلى الضفة الأخرى حيث قطعت الطريق على جل الهاربين ثم جرت المعركة الثالثة التي أتت أيضاً على جزء هام من قدرات الأسكيا ، وكان من بين قادة الأسكيا شقيقه الأمير سليمان الذي انضم في هذا المكان مع بعض الأمراء وقادة الجند ورؤساء الدولة للمحلة[2] .

وينبغي إعطاء بعض الأهمية لهذا الحادث الأخير ، فالأمير سليمان كان قائداً لقبيلة الفولانيين (الفولبيه) في جيش أخيه ، وكانت تمحضه الطاعة وتقاتل تحت رايته ، وحين أحس الأسكيا محمد كاغ بركون شقيقه واتباعه إلى الخيانة أمر بالإغارة على الفلانيين الذين تدخل المغاربة لاحتوائهم[3] ، ولم يلبث الأمير سليمان أن أصبح أسكيا تحت الحماية المغربية ولعب دوره النشيط لصالح الحكام الجدد كما سنرى .

٢ ـ الصلح مع الأسكيا ومقتله :

إستقر محمود في مدينة كوكيا بعض الوقت ثم اختار مكاناً يقع إلى الشمال منها وأقام عليه حصناً ومرسى نهرياً أسماه حصن تنش ، وهو اسم الموضع ، وصرف جؤذر إلى غاو ومع الجزء الأكبر من الجيش[4] ، وكان الأسكيا محمد كاغ يعاني من

(١) المكان السابق

(٢) المكان السابق

(٣) السعدي ص ١٤٦

(٤) كعتو ص ١٥٩

جروحه ومن آلام الانكسار ، ويتجه مع ما بقي من المخلصين لعرشه إلى دنـدى مركز عصبية السونغاي ، ومنبعث دولتهم .

وحين لم يكن هناك من خلاص لشعوب السونغاي مما نزل بها غير مهادنة المغاربة على شروط يقبلون بها ، فقد قر عزم محمد كاغ على إرسال وفد للتفاوض واختار قائد جيشه (هيكوبي) وأسكيا سابقاً هو ألفع (الفقيه) بكر لنبارو ليقودوا المفاوضات ، وكعادة القواد المغاربة في إكرام الضيوف فقد استقبلهما الجيش بما يليق برتبتيهما من الإجلال والتعظيم ، فاصطف الجنود للتحية وأطلقوا الرصاص دفعة واحدة تحية وتكريماً ، وضرب محمود باشا فسطاطه الباشوي ، وبسط الفراش الوثير ، ومد الموائد التي حوت كل أنواع الأطعمة والحلويات وقبل أن ينصرف وفد الأسكيا بعد ثلاثة أيام (وهي المدة المقررة للضيافة المغربية) كساهما وأهداهما من تحف المغرب وحملهما رسالة للأسكيا تتضمن الإلحاح بمجيئه على وجه الاستعجال لإبرام الصلح ، لأنه ينوي الرجوع بسرعة إلى مراكش وحلف محمود بالمصحف أن الأسكيا سيكون آمناً على حياته وحياة أتباعه[1] ، ويبدو أن الأسكيا السابق بكر لنبارو كان على صلة سابقة بالمغاربة ، ولا شك أن محمود باشا انفرد به ومناه وأطعمه في التولية على قومه[2] .

وعند عودة الرسولين إلى (برهة) في بلاد دندي ، وهو المكان الذي يقيم فيه الأسكيا ، جمع محمد كاغ أهل الرأي من قومه ، وأخذوا في تبادل الآراء في موضوع الصلح ، وعلى الرغم من أن القوم لم يفهموا سبب إصرار محمود باشا على الصلح وهو المنتصر والمسيطر دون منازع على البلاد وأصحابها ، وشكوا في أمر أمانه وهزئوا بحلفه على المصحف وفي مقدمتهم قائد الجيش الذي اجتمع بمحمود شخصياً ، فإن الأسكيا عزم على أن يلجأ إلى الحل الذي لم يلُح أمامه غيرُه ، فلبس

(١) المكان السابق

(٢) المكان السابق

أحسن بزة لديه ، وجمع ما بقي من جيشه ليؤدي له التحية على دقات الطبول ، وتحرك مع وجوه السونغاي وجنودها إلى تنش لملاقاة الباشا .

وكان موكب الأسكيا في منتصف الطريق عندما وجد كوكبة في استقبالهم تتكون من جنود الأصبايحية عددهم ثلاثون فارساً على رأسهم القائد الحروشي وقد ترجل القائد المغربي وجنوده ، وطأطأوا رؤوسهم للملك ، وصاحوا بالهتاف الذي يلقى عند حضور سلاطين المغرب وهو (الله يبارك في عمر سيدي) ، ونصب الأسكيا خيامه للراحة فيما كان الجنود المغاربة يعدون البساط ويقدمون الأطعمة ودارت بين الأسكيا ووجوه قومه أحاديث كانت تنبيء عن خوفهم مما سيحمله المستقبل ، وقد اقترح الهيكوبي أن يذهب الأسكيا مع أربعين من جنده لمقابلة الباشا ، أو يعود إلى برهة ويذهبوا هم وحدهم ، وطلب أحد أبناء الأسكيا أن يتولى الجيش قتل أفراد الكوكبة المغربية ، فأصر والده على الرفض لأن قراره لا رجعة فيه ، وأن ليس من شيمه الخيانة ونقض العهد بعد إبرامه[1] .

وسار القائد الحروشي متقدماً على الأسكيا وتاركاً أفراد كوكبته تخفره من اليمين والشمال حتى وصل إلى المحلة ، فلاحت له أقبيتها وخيامها الكبيرة ، فإذا بالنفير يعلن خبر وصول الضيف ، وإذا بالجنود يأخذون أماكنهم صفين متقابلين منذ ابتداء فسطاط الباشا ، وقد اتكأوا على بنادقهم وأرجلهم متباعدة بعضها عن البعض الآخر ، وحال وصول الأسكيا إلى مبتدأ الصفين تعالى نداء كبير الحرس بالنداء الترحيبي ، فضم الجنود أرجلهم ورفعوا بنادقهم وأفرغوا ما فيها من الرصاص في الجو[2] ، وكان محمود باشا ومساعده القائد مامي قد خرجا على أرجلهما من الفسطاط قبل ذلك ، فاقتربا من الأسكيا وعانقاه عناقاً حاراً ، وقبلاً وجنات

---

(١) كعتو ص ١٦٠

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢

الأمراء ودخلا وراءهم إلى الفسطاط حيث كانت هناك دكة مفروشة بالحرير أجلسا الأسكيا فوقها وجلسا دونه ، وعندما بدأ المطربون من أصحاب الرباب والغيطة[1] والطبل الصغير يؤدون ألحانهم المغناة كان أفراد الجيش يدخلون مثنى مثنى للركوع أمام ملك السودان ، وصفق الباشا فدخل أهل الدائرة[2] ومدوا السفرة التي اشتملت على اللحوم المشوية والمرق والشراب والتمر والزبيب ونواة الكور[3] .

وكان محمود ـ عندما تيقن من قرب مجيء الأسكيا إليه ـ قد عرض أمره ومسألة الصلح معه على مساعدة مامي ولم يرد هذا القائد أن ينفرد بإبداء النصيحة ، وأصر على عقد مجلس للقادة للبحث في الموضوع ، واجتمع الكواهي والباشوظات ، واستمعوا إلى رأي الباشا القائل بالإبقاء على الأسكيا مع اصطناعه ودعوته إذا دعت إلى ذلك ضرورة ، لأن ذلك سيغلق الباب أمام أي تفكير عند السونغاي بمعاودة الحرب أو بالثورة ، وأجمع الضباط على القول بأن المنصور بعث جيشه لحكم السودان عن طريق الفتح لا إلى المفاوضة والمناورة ، ولما أشكل الحل على ذلك الجمع اقترح القائد مامي أن يرسل الباشا مبعوثاً للمنصور ليفصل في مستقبل الأسكيا الذي يجب إلقاء القبض عليه حال وصوله[4] .

وبعد مجيء الأسكيا ، وحلول وقت النوم ، إستدعى الباشا مساعده مامي لخيمته ثم أرسل شاوشاً من أهل الدائرة إلى الأسكيا يسدعيه إليه ، ولما دخل عليه قام الباشا لتحيته وأمر بإحضار كسوة له ، فجعلها الشاوش على رأسه وأطرافه ومنعه عن الحركة ، ثم سار المنادي بين الخيام يأمر الجنود باللغة الإسبانية[5] أن

---

(١) من آلات النفخ

(٢) جنود مكلفون بحراسة أبواب الباشا وتقديم الطعام إليه والوقوف عند رأسه لدرء الذباب عنه .

(٣) نبات يستعمله أهل السودان في تنشيط أجسامهم

(٤) المصدر السابق ص ١٦٣

(٥) كان الجنود يصيحون (Corte le Cabiza) وهي لهجة إسبانية عامية الترجمة الفرنسية لكتاب الفتاش ـ هوداس ص ٢٩١

ينزلوا أوتاد الخيام ويحصروا السونغاي داخلها ويقطعوا رؤوسهم ، وقد حاول بعض السونغاي الفرار فركب هدرباش (زضابط الشرطة العسكرية)[1] في أثرهم وقتل أكثريتهم[2] .

وكان عدد المعتقلين المتبقين من وجوه السونغاي ثلاثة وستين شخصاً ، وضعوا جميعهم في سلسلة حديدية متصلة الحلقات ، وأركبوا في إحدى سفن الجيش التي زودت باللحوم المقددة والماء ، أما الأسكيا فقد ركب حصاناً ولم تكن يداه مقيدتين ، وشيعه محمود باشا على صهوة جواده ، وكان يحدثه ويمازحه طيلة الطريق وعند الميناء أركب الأسكيا سفينة أخرى مفروشة بالسجاد ووسائد الحرير بعد أن عانقه الباشا وجعل عليه شاوشه الخاص ليقوم بخدمته ، وسارت السفينتان صعداً مع النهر باتجاه غاو ، وفي ميناء المدينة كان جؤذر باشا في طليعة المستقبلين ، وبعد أن حيا الأسكيا أمر بوضع القيد في يده ، ودفعه أمامه إلى السجن بوسط المدينة ، ثم حرر رسالة إلى المنصور يطلب رأيه في موضوع الإبقاء عليه أو قتله .

وبعد شهر من وصول الأسرى إلى غاو جاءت الأخبار بأن بعض السونغاي بقيادة (ابن بنشي) كمنوا لنجدة مغربية قادمة من مراكش وقوامها ٤٠٠ فارس تحت قيادة القائد قندبور وفتكوا بأفرادها ، عندها أحضر جؤذر الأسكيا والسجناء الآخرين وضرب رؤوسهم بالسيف وألقى بهم في حفرة واحدة داخل السجن[3] .

ونحن لا نعلم بما أجاب المنصور على رسالة الباشا جؤذر ، ولكن كعتو يخبرنا أن الرسول عندما عاد إلى غاو كان الموت قد حل بالسجناء[4] ، ويستدل من

---

(١) المكان السابق

(٢) كعتو ص ١٦٤

(٣) المصدر السابق ص ١٦٦

(٤) المصدر السابق ص ١٦٧

أقوال الفشتالي أن محمد كاغ كان يبيت الغدر بالجيش المغربي وأن السلطان المنصور كان يتابع تحركاته ويعلم بالدسائس التي كان يحيكها[1]

٣ ـ ثورة تنبوكتو :

كانت هذه الثورة المدمرة التي وقعت في عاصمة المغاربة ، احدى الهموم الكبار التي حملها الباشا محمود وهو يقود جيشه في الشرق ضد عدوه الرئيسي ، فقد وصلته أخبارها الأولى يوم أن هيأ نفسه لمنازلة الأسكيا في بامبا ، وثابر بشتى الوسائل على معالجتها سياسيا وعسكريا دون أن تصرفه خطورتها المتزايدة عن مهمته الأساسية في الشرق .

ومن الضروري ، ما دامت ثورة تنبوكتو قد هددت الاستقرار في المناطق الغربية من السودان ، وعرضت سلامة وهيبة الدولة المغربية وادارتها الفتية أن نتناولها ببعض التحليل ، ونحاول أن نربطها في فصل لاحق بمسبباتها التي كان لها الواقع السيء والمآل الوخيم .

إن أبرز سبب لثورة مدينة تنبوكتو التي بدأت يوم ١٠ اكتوبر هو نظرة علماء المدينة وتجارها الى الوجود المغربي في مدينتهم وفي انحاء السودان الاسلامي ، فلقد رأينا المنصور الذهبي يربط صلاته بالعلماء والتجار قبل الحملة ويكلف القاضي ذا المكانة المعروفة في البلاد كلها بالجهر بالدعوة السعدية ، والتبشير بآراء المنصور حول الخلافة وقيادة المسلمين ، ورأينا أيضا كيف استقبل القاضي وأتباعه ذلك النوع من التكليف ، وكيف تحفظوا في ابداء ترحيبهم بجؤذر ومحمود من بعده ، وبالرغم من أن القاضي عمر لم يفصح عما في دخيلته فان الحوار الذي دار بين المنصور السعدي وأحمد بابا التنبكتي بعد اعتقاله وتغريبه الى المغرب يكشف عن

---

(١) الفشتالي ص ١٥٤ ـ ١٥٥

تلك الدخيلة ويوضحها ، فقد امتنع ذلك العالم الشهير أن يحدث المنصور من وراء حجاب واتهمه بأنه يتشبه برب الأرباب ، وحين استنكر العالم نكبة علماء تنبوكتو على يد الجيش المغربي ، وأبدى الاستغراب من الاقدام على فتح بلد اسلامي قال له المنصور : أردنا أن تجتمع الكلمة بكم ويتقوى جانب الاسلام فأجاب احمد بابا هلا جمعت البلاد الأقرب اليك وتركت السودان[1] .

فالعلماء السودانيون وعلى رأسهم القاضي نفسه كانوا يعتبرون الحملة على السودان عملا خاطئا ولا مبرر له .

والسبب الثاني هو أن الجيش المغربي قسا على طبقة التجار ففرض عليهم الضرائب الباهظة وألزمهم بتقديم لوازم الجيش ومؤونته ، وقد حدا ذلك بهذه الطبقة التي كانت عرفت بحظوتها ونفوذها وأموالها الى نسيان مصالحها التجارية ومد يد العون الى مناهضي الحكم المغربي[2] .

والسبب الثالث أن الطبقة الاجتماعية التي كان من المفروض أن تقف الى جانب المغاربة وهي طبقة العبيد الكثيرة العدد سيمت بعض العذاب وحشرت في معسكرات السخرة ، فكان على العبد أن يأكل جيدا وينام باكرا ويريح نفسه في بيت مالكه ليواجه مشاق العمل تحت رعاية جنود حاملين للسياط ومفوضين بمعاقبة من يتخلى عن العمل أو يتوانى فيه[3] .

والسبب الرابع تمثل في الضرر الذي لحق سكان تنبوكتو قاطبة من فرض الحكم العسكري القاسي عليهم ، فكان هناك حراس يجوبون المدينة منذ المغرب ،

---

(١) عباس المراكشي - الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام - الرباط ١٩٣٦ ج٢ ص ١٠٣
(٢) السعدي ص ١٥٧
(٣) المكان السابق

ويمنعون الناس من مغادرة منازلهم ، ولا يبيت أحد في خارج المدينة مهما كان مقامه الا عوقب بالسياط .

وذلك فضلا عن بث الحاكم العسكري مصطفى التركي لجواسيسه في كل أرجاء المدينة ، ومحاسبة السكان على كل صغيرة أو كبيرة تصل اليه عنهم بواسطة ذلك الجهاز[1] ، ولم يوجد بيت أو مخزن في تنبوكتو الا وتضرر من الاستيلاء على الأخشاب التي كانت تدخل في بنائه من أبواب وشبابيك وسقوف ، وكان القصد من ذلك بناء السفن في عهد جؤذر ومحمود على السواء[2] ، وقد كان أهل المدينة من علماء وتجار وسوقة وعبيد يسمون تلك الأعمال بالفتنة العظمى ، وحين يذكرونها يستعيذون بالله منها[3] ، وكانت فكرة مناهضتها تنمو في نفوسهم يوما بعد يوم ولم يكن يحتاج الأمر الا الى من يبدأ في تلك المناهضة فتقوم قيامة المدينة .

والسبب الخامس أن القائد مصطفى التركي أحكم صلته بقبيلة مغشرن التاركية التي كانت تقيم بين بامبا وتنبوكتو وقد اصطنعها لضمان أمن وسلامة القوات التي كانت تتحرك نحو الشرق ، ولكنه وهو العارف بنزوعها المستمر الى العنف وقطع الطرق كان يريد استخدامها في أغراض تخدم الجيش حين يعرض أمر أو موقف من قبيل ما حدث في العاشر من اكتوبر ، وقد كان رئيس قبيلة مغشرن (أوسنبا) يتردد على تنبوكتو ويجول مع رجاله في الأسواق بدفع الثمن الذي يشاء فيما عن له شراؤه أولا يدفع ، ويترك دواب ركوبه تعبث في الأشجار والأزقة دون أن يجرأ أحد على منع ذلك .

وفي الواقع فان جل تلك الأسباب تعد ثانوية بالنسبة للأول منها ، فمركز

---

(١) السعدي ص ١٩٠
(٢) المصدر السابق ص ١٥٧
(٣) المصدر السابق ص ١٥٦

العلماء الهام بالمدينة جعل تقبل السكان على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية لكل أمر يصدره القاضي أو أحد كبار العلماء هو من باب تأدية الواجب المقدس ، وكان من بين العلماء من اعتقد فيه السودانيون الولاية والعصمة والكرامة [1] ، فأحمد الصقلي الذي كان يجلس مع الأسكيا ويستحضر له الجان والأرواح ويصدر اليه الأوامر باسم شمهروس[2] وصل في الدولة وفي أعين الشعب الى مكانة لا يمكن وصفها ، فقد كان يتردد على غاو وينزل في القصر ويخدمه ألف وسبعمائة زنجي قدمهم له الأسكيا هدية في يوم ما ، وأعطى ذلك الشريف ناحية القرى والجزر شرق تنبوكتو فأصبح ملكا غير متوج بها ، وقبل وفاته قدم له الأسكيا كتابا أمر فيه الولاة والقضاة الا يتعرضوا له ولأولاده أو لرهطه في أي شيء من أمور السلطنة ، ولأولاده الشفاعة في كل شيء[3] ، وأخذ بعض أولاده عنه علمه وفنونه في السحر ، وزادوا على ذلك بأن سعوا في الحصول على كسب سياسي عن طريق الولاية والشعوذة[4] ، ويظهر أن أفراد الجيش المغربي الذين لم يراعوا حرمة لأحد باستثناء القاضي ، قد بدأوا يقتنعون منذ الأسابيع الأولى لحلولهم ببلاد السودان أنهم لن يأنسوا من أهل تنبوكتو ـ اذا ما حرضهم العلماء ـ الا خلاف ما كانوا ينتظرون ، وقد وردت أنباء الى مراكش أعقبتها رسائل من المنصور حملت التحذير تلو التحذير من انقلاب المدينة ضد المغاربة بتحريض من العلماء [5] ، وعند خروج محمود باشا من تنبوكتو

---

(١) وذكر المصدر السابق ص ٢١٩ أن بعض العلماء كانت تنشق لهم حيطان المساجد في الليل فيدخلون للصلاة فيها ، وبعضهم كان تراب قبورهم يشفي من الأسقام .

(٢) كعتو ص ٢٤

(٣) المصدر السابق ص ١٨

(٤) احمد الصقلي هذا قدم من بغداد في عهد الأسكيا الحاج محمد ومر في طريقه الى السودان بالمغرب حيث حضر بعض مجالس العلم في فاس وكان يدعي الكرامات ويتوق الى تولي الملك ، ويظهر أنه استقل ببعض الجزر لفترة قصيرة ، وقد تزوج بامرأة مغربية من تافيلالت أنجبت له أولادا ساروا على منواله (كعتو ص ١٨ و١٩) .

(٥) الناصري الاستقصاء ج ٥ ص ١٣٠

الى كبارا في طريقه لقتال الأسكيا ، وقع بعض طلائعه على رسالة وجهها قاضي المدينة الى الأسكيا يذكر فيها عيوب الجيش المتقدم ويكشف عوراته ويجدد فيها الولاء للسونغاي ، وأخبر محمود فيما بعد برسالة ذات عمق سياسي أكبر وجهها القاضي نفسه الى الأسكيا[1]، ويظهر أن القاضي عمر كان يراسل بقية القضاة الذين كانوا الى نظره ليحذوا حذوه ويتنكروا للمغاربة وينقلبوا عليهم ، وذهب قاضي غاو وخطيبها محمود رامي الى حد اقناع الأمراء الزنوج بالفرار الى اسكيا السونغاي وحمل السلاح في وجه الجيش[2] .

ولقد بدأت الثورة يوم ١٠ اكتوبر على يد الحاكم السابق لتنبوكتو يحيى ولد بردم ، وكان هذا الحاكم قد غادر المدينة حين بلغه وصول جؤذر الى تلك الجهة ، وبدل أن ينسحب مع جيش الأسكيا الذي كان قد اتجه شرقا للدفاع عن غاو فضل أن يلتحق بالقبائل التي كانت تعيش على الصيد وقطع الطرق بين تنبوكتو ودييني ، ولم تلبث قبيلة كبرى هي قبيلة الزغرانيين الأعراب من ذوي الضفائر الطويلة أن بايعته على الموت وسارت معه من موطنها في (يروا) الى تنبوكتو[3] ، وقبل أن يصل الى المدينة أطلقت طبوله دقات الحرب التقليدية فوقف بعض الناس يحيون المهاجمين ويشجعونهم ، وعند أسوار القصبة كان الزغرانيون يتوفرون على سلالم قدمت لهم في المدينة حاولوا استعمالها في تخطي السور ، فأمر القائد مصطفى جنوده باطلاق النار فوقع البعض على الأرض وفر الباقون وقبض على يحيى وطيف به في المدينة قبل أن يعلق على المشنقة .

وظل جو مشحون بالتوتر يحتوي المدينة طيلة الأيام العشرة التالية ، ورغم نداءات الأمان التي كانت توجه صبح مساء فان المدينة كانت تتهيأ لثورة حقيقية ،

---

(١) كعتو ص ١٧٧
(٢) السعدي ص ١٥١
(٣) المصدر السابق ص ١٤٧

وقد خاف مصطفى من مغبة تغير سكان تنبوكتو عليه ، سيما وقد وصل رسول من الأسكيا في ١٩ من اكتوبر يدعو الناس الى الثورة ضد المغاربة ، فوجه لصديقه او سنبا زعيم توارك مغشرن يطلب منه القدوم ويبيح له نهب المدينة ، ولم يكن اوسنبا بالذي يتأخر عن انتهاز الفرصة فقاد رجاله الملثمين الى عملية سلب واحراق استمرت يومين كاملين (٣ و٤ نوفمبر) ، وكادت النار أن تلتهم بيت القاضي الذي كان يجمع حوله بعض أتباعه المسلحين[1] ، وعندما عاد اوسنبا الى مضاربه خارج تنبوكتو بدأ الأهالي يتحفزون للانتقام ، وتوالت الاجتماعات في بيت القاضي عمر وزاوية الشيخ بابا عمر محمد بن عثمان الصقلي ، ويذكر السعدي أن التجار والأعيان طلبوا من القاضي اعلان الجهاد ، بل وذهبوا الى حد تحريض الناس في الأزقة ، ولكن القاضي هدأ من روع المتحمسين وأرسل رسوله (عمار) الى زاوية الشريف الصقلي ليصرف ما بها من الأتباع المسلحين وبدل أن يمتثل الشريف لذلك بعث المنادي في المدينة يطلب القيام بالثورة ضد المغاربة .

وبدأت ثورة تنبوكتو الكبرى في التاسع من شهر نوفمبر ، وتردد صوت الرصاص في الأزقة ، وكان ولد كزنفيل يقود فرقة من السونغاي المخلصين للمغاربة فقتل في ذلك اليوم هو وبعض أتباعه بعد أن هدموا الدور وأشعلوا النيران في الأحياء ، وحدثت وقعة الجامع الكبير يوم ٢١ نوفمبر التي اشتبك فيها السكان مع الرماة المغاربة وجها لوجه ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كان ستة وأربعون جنديا مجندلين في دمائهم ، واضعاف ذلك من السكان المسلحين بالمدى والنبال ، وأصبح الجنود المغاربة محاصرين في القصبة .

ولكن حدث تطور مهم في اليوم التالي ، ذلك أن الجيش روج أخبارا بأن الأمير سليمان بن داود الذي كان قد التحق بالمغاربة يتوجه الى تنبوكتو على رأس

---

(١) المكان السابق

كوكبة قوامها سبعة وأربعون فارسا من ضمنهم اثنان من قادة الأسكياالهيكوبي عبد الرحمان والهيكويي ابراهيم ، وكان المعروف حينئذ أن ذلك الأمير قد انضم الى محمود باشا[1] ولقد كان لتلك الاشاعة أثرها في التخفيف من حدة الموقف بالمدينة فهدأت الثورة وعاد الناس الى بيوتهم وأغلقوها عليهم أو غادروا مدينتهم طلبا للسلامة والأمان ، بينما لازم الجيش القصبة محاصرا بها ، والفقهاء يذهبون اليها ساعين في الصلح . . .

وكان الباشا محمود في مدينة كوكيا عندما وصل أحد رجال مغشرن حاملا رسالة من الحاكم مصطفى التركي ، فاستدعى للتو مجلس حربه وتداول معه في موضوع تنبوكتو وهل ينبغي أن يحول جيشه عن محاربة الأسكيا الجديد نوح ويتجه به غربا أو يقتطع منه قسطا للقيام بتلك المهمة العاجلة الخطيرة ويواصل هو مشروعه لغزو منطقة دندى معقل الأسكيا ، وقد اتفق رأي (الديوان) على الحل الأخير فعين محمود القائد مامى بن برون للقيام بالمهمة على رأس سبعمائة من الرماة وأمره بأن « يعمل السبيل في تنبوكتو سبعة أيام كاملة » ، ولكن القائد مامى أجابه : لا أعتقد أن هذا صواب فأهل تنبوكتو أصحاب حضارة اذا قتل منهم ثلاثة أشخاص مات الجميع بالخوف ثم « ان السلطان نصره الله ليس مراده خسارة تنبوكتو ولا خرابها[2] وقرأ الحضور الفاتحة على ما عقدوا العزم عليه وشد مامى رحاله باتجاه تنبوكتو .

وقد بالغ القائد في اضفاء السرية على رحلته التي أنجزها في وقت قصير ، ولم يعرج على غاو أو بامبا مما يدل على انه استخدم احدى قطع الأسطول ، وحين وصل برجاله السبعمائة[3] الى كبارا بلغه أن الصلح قد انعقد بين القاضي وبين

(١) المكان السابق

(٢) المكان السابق : هذا تعبير مغربي يقصد به ترك المدينة بمن وما فيها للجيش يفعل ما يشاء.

(٣) يقول السعدي ص ١٥٧ بأن عدد الرجال الذين اصطحبهم مامي كان ٣٢٤ راميا اثنان في كل قباء .

القائد مصطفى التركي ، ورغم ذلك فقد قرر أن يضع حدا لتمرد سكان المدينة ويكبح جماح المهيجين ، فانتظر حتى أقبلت ليلة العيد النبوي لعام ١٠٠١ (٢٧ دجنبر ١٥٩١) ، وأتى بجيشه تسبقه الموسيقى ودقات الطبول وطاف بالأزقة التي كان سكانها يأخذون ما خف حمله ويهيمون على وجوههم في طريق الوادي وطريق الصحراء ، وأمضى القائد ليلته في القصبة ، ولم يأذن لاعيان المدينة بالسلام عليه أو تهنئته بالعيد ، وفي جو من الخوف والقلق قصد الناس بيت القاضي وزاوية الشريف الصقلي لاستجلاء الأخبار ، فما كان من مامى الا أن أردف حصانه بكوكبة من الجند وذهب الى منزل القاضي عمر حيث تقدم من مجلسه وأقسم الا يقوم القاضي له وانكب على ركبتيه وقدميه يقبلهما ، ورفع يديه بالتحية لمن كان يحضر المجلس من الفقهاء والتجار والعامة ، وبعد أن نقل للقاضي تحيات الباشا والقواد والكواهي اعتذر عما صدر من الجنود ، وسمى المعتدين منهم بالسفهاء ، وطلب الصفح والغفران واقسم أن تصرفات حامية المدينة لم تكن في علم الباشا ولا صدرت بأمره[1] .

وقد توجس المقاتلون من أنصار القاضي والصقلي خيفة من ذهاب القائد في زيارته تلك ، فتنادوا الى السلاح وأخذوا مراكزهم في أسطح المساجد والبنايات وصوبوا سهامهم نحو باب منزل القاضي ، ولكن هذا الأخير وجه المفتي محمد بغيوعو ليهديء من روعهم ويأمرهم بالعودة الى دورهم ، فامتثلوا لأمر سيدهم وتجمهروا حول باب بيته ومعهم المفتي المذكور الذي ما أن خرج مامى حتى صاح « الله ينصر مولانا احمد » ورددت تنبوكتو كلها ذلك الشعار طيلة أيام تلت ، ولم يشأ القائد المغربي أن يترك أية بادرة من شك في نواياه فعند توجهه الى القصبة صادف جنديا يسلب ثياب رجل في حي (بعاكندى) فاستل سيفه وضرب به رأس الجندي ، وأمر بالضحية أن يطاف بها في المدينة ردعا للمتسلطين والجناة[2] .

---

(١) كعتو ص ١٧١ (٢) المصدر السابق ص ١٧٢

٤ ـ تمهيد الأقاليم الغربية :

كان على القائد مامى بن برون أن ينتهز فرصة عودة الهدوء الى تنبوكتو ليباشر المهمات الثقيلة التي ارتأى مع ضباطه أن ينجزها ، وكانت تلك المهمات هي التالية :

١) استعادة قطع الأسطول التي سبق لرئيس مرسى كبارا أن فر بها نحو الغرب .

٢) انزال العقوبة بالأعراب الزغرانيين وقطع مادة فسادهم .

٣) أخذ البيعة من أهل دييني ومن سلطان مسينا .

٤) تمهيد بلاد التوارك وضبط شؤونها .

إننا لا نعلم شكل ولا مستوى المخابرة التي جرت بين القائد مامى وبين رئيس مرسى كبارا منذو ألفع ولد الزرقة ، والذي نعلمه يقينا هو أن موضوع السفن كان محل حديث بين الأسكيا المغتال محمد كاغ وبين الباشا والقائد مامي قبل قتله[1] ، فهل كان لذلك الحديث الذي تضمن وعودا معينة من الأسكيا أثره في حمل ولد الزرقة على الرجوع بسفنه ووضعها رهن اشارة القائد مامي بن برون ، أو هل لعب الأمير سليمان الذي نصبه المغاربة فيما بعد اسكيا على قومه دورا ما في قضية الاسترجاع . تلك تساؤلات لا يمكن الجواب عنها قطعا ما دامت المؤيدات تعوزنا ، ولكن الأهم من ذلك أن السفن عادت الى كبارا وفتحت الطريق أمام الجيش ليسير في تمهيد الأقاليم الغربية وعادت التجارة الى طريق دييني[2] .

ولم يكن أمر استعادة السفن الذي كان يؤمن وحده التجارة المعتادة نحو مناطق الغرب وخاصة نحو ديرى وموبتي ودييني ، فالزغرانيون الذين سبقت منهم

(١) الفشتالي ص ١٥٥

(٢) السعدي ص ١٥٧

الاغارة على تنبوكتو ونالوا عقابهم عند سور القصبة أخذوا في الاتصال بالقبائل لمعاودة الكرة ، وكان خطرهم على حرية الملاحة ماثلا في نظر القائد مصطفى ، وكان لا بد أن يخرج الجيش لاستئصالهم في معقلهم المستنقعي (يروا) . وقام القائد مامي بالمهمة خير قيام فأغار عليهم ليلا بعد مسير احيط بكامل السرية وقتل رجالهم وأتى بنسائهم واطفالهم فباعهم للتجار هناك بمائتين الى سبعمائة ودع للنفر الواحد[1] .

وبالنظر الى توزيع الاختصاصات بين محمود باشا المكلف بالجيش وجؤذر باشا حاكم البلاد المدني ، كان على القائد مامى أن يستشير جؤذر في قضية أخذ البيعة من أهل دييني وما جاورها من المدن ، فوجه الحاكم العام أوامره للقائد مصطفى التركي ليتولى الأمر بنفسه ، وكانت المعلومات عن مدينة دييني تصل تباعا الى تنبوكتو ، فقد حدثت فتنة قبيل مجيء الجيش المغربي بسبب تأرجح ولاء المدينة بين امراء السودان المتناحرين ، قتل فيها الحاكم (ويبوعلى) واستولى (بكارنا) على رئاسة المدينة وتلقب (بمنزو) وأعلن طاعته للاسكيا ونصب القاضي الجديد بعد ان اختاره من بين الفقهاء السود اظهارا لانفصاله عن سلطة تنبوكتو الدينية ، وكان الحال على ذلك النحو حين قرر جؤذر أخذ بيعة سكان دييني للسلطان أحمد منصور الذهبي[2] .

وقد وجه القائد مصطفى شاويشا واحدا الى دييني في احدى سفن ولد الزرقة ، ومعه ظهير البيعة ، فوصل الى المدينة التي كانت تسمع بانتصارات المغاربة فاستقبله الحاكم بكارنا مع قائدي جيشه والقاضي والأعيان والتجار ، وطافوا به في المدينة ، وأدخلوه المسجد الجامع حيث قرئت البيعة وهتف الجميع

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨

(٢) المكان السابق

بنصر السلطان ، وحرر القاضي جواب القبول للحاكم العام جؤذر ، وبعد أسبوع واحد وصلت الى دييني فرقة صغيرة تضم ١٧ من الرماة على رأسها الرايس (قائد بحري) عبد المالك استلمت بناية كانت في ملك الأسكيا وحولتها الى قصبة للجيش ، وبأمر من القائد مامي فقد تولت الادارة العسكرية اقالة الحاكم بكارنا وعينت على رأس المدينة اسماعيل بن محمد (١٥٩٢) كحاكم جديد ولكنه أصبح يحمل لقبي جنكي أو دييني كي[1] ولكن اسماعيل لم يتأخر في الرئاسة أكثر من سبعة أشهر فمرض ومات ، وأتى القائد مامى بأمر من جؤذر باشا لينظر في أمر المدينة وينظم أحوالها فوضع على رئاستها حاكما جديدا[2] .

لقد وقع اختيار القائد مامي منذ البداية على عبد الله بن عثمان (١٥٩٢ - ١٥٩٧) ، ويبدو أنه كان على اتصال به قبل حضوره من تنبوكتو ، واتفق معه على أن تحتفظ المدينة بنوع من الاستقلال الذاتي هي ومنطقة مسينا الكبيرة المحيطة بها ، وعليه فقد تغير اسم الحاكم السوداني (وهو من أصل مغربي) بحيث أصبح يدعى (ويرى)[3] ، وجعل القائد مامى للوالي الجديد مجلسا للأعيان ينظر في مختلف الشؤون وكان يضم سودانيين ومغاربة ، ووضع الجيش بعد أن أصبح يضم عناصر محلية من جيش المدينة ـ تحت القيادة الاسمية للويرى عبد الله ، وكان للويرى اثنا عشر قائدا يلقبون بالألقاب العسكرية المغربية مع اضافة (سونا) قبل كل لقب ، وقد أشرف مامي على تلك الترتيبات بنفسه ، وحضر حفل افتتاح مجلس الأعيان الذي رفع الدعاء لسلطان المغرب .

وهكذا فان اخضاع منطقة دييني وتلقي بيعتها مرت في ظروف طبيعية ، وعندما حاول أحد الأمراء ابو بكر بن الأسكيا محمد بنكن الاجلاب على المدينة من

---

(١) يرادف منصب المتصرف أو الحاكم المفوض .

(٢) المكان السابق

(٣) معناه الوالي

منطقة كوندام لاعادة سلطة الأسكيا اليها واجهه الجيش الجديد بكفاءة عسكرية واقدام .

ولقد أصلح مامي شؤ ون المدينة ، ونظم أحوالها ، وعاد الى تنبوكتو وكان بها وفد من علماء وتجار دييني يطلب عزل القاضي الزنجي ، فعين مامي - وليس القاضي عمر - احمد الفيلالي المغربي الذي كان يقيم منذ اعوام في السودان ، قاضيا على المدينة[1] .

وعاد مامي من جديد الى دييني على رأس ٣٠٠ من رماة جيشه لمطاردة الأمير أبي بكر بن أسكيا محمد بنكن الذي عاد الى المدينة ورابط تحت أسوارها ووجه للويري عبد الله رسالة يدعي فيها أنه قدم للدخول في طاعة المنصور الذهبي ، ويبدو أن الويري كان حسن النية سليم الطوية ، فوجه أحد أعضاء مجلسه الاستشاري حبيب تورقو بالمصحف وصحيح البخاري ليحلف عليهما القادمون بالطاعة للخليفة السعدي ، وقد فعل الأمير ومرافقوه وجيشه ما طلب منهم ودخلوا المدينة . ولم تمض الا أيام حتى تبين أنهم كانوا يسعون الى اقامة مملكة للسونغاي على أنقاض مملكة غاو المنهارة ، وأرسل الويري الذي كان وضعه في دار الحكومة يزداد سوءا رسولا الى تنبوكتو يطلب مددا من الجيش لاخراج الأمير حيث لا طاقة للحامية الصغيرة أن تفعل ذلك وحدها . وقد ارتكب أبو بكر من المناكر والفساد والطغيان ما الب القلوب عليه[2] ، ففي يوم الجمعة حضر الى باب المسجد على رأس رجاله المسلحين بالخناجر والسهام ، ثم اقتحمه على المصلين ومنعهم من تأدية الصلاة حتى يخطب الامام باسمه كأسكيا للسونغاي فامتنع المصلون عن نزع البيعة من اعناقهم[3] وعندما تعالت في الجو أصوات طبول القائد مامي بادر الأمير وجيشه

---

١) المصدر السابق ص ١٥٩
(٢) المصدر السابق ص ١٦١
(٣) المكان السابق

الى الهرب فركبوا سفنهم وأمعنوا في التوغل داخل المستنقعات المحيطة بالمدينة ، ودخل القائد مامي دييني دون قتال فتلقاه الرئيس عبد المالك الذي كان محاصرا في القصبة ، وذهب الاثنان الى المسجد حيث أديا مع المسلمين صلاة الجمعة بعد منتصف الليل ثم توجها الى دار الحكومة حيث أعلن المامي أن جيش السلطان قد قرر تعزيز حامية المدينة بأربعين راميا وتعيين أحد كبار القواد على العجمي كحاكم مدني وعسكري لها ، ثم خرج لملاحقة الأمير وهو يقود جيشا من الرماة لا يزيد عن ٢٥٠ جنديا تعززه جيوش وطنية مخلصة هي جيش الويرى عبد الله المختلط وجيش سلطان مسينا وسلطان سنقربوبو، وجرت معركة يصفها السعدي بأنها كانت حامية الوطيس واستعملت فيها القوارب الصغيرة نظرا لطبيعة المنطقة المستنقعية ، وأحاط مامي بالأعداء وسحقهم وأبادهم عن بكرة أبيهم ، وبعث برؤ وسهم الى المدن السودانية فيما خص مدينة تنبوكتو برأس الأمير المطالب بالعرش ، ثم رجع لعاصمة المغاربة ، « وقد استقام الحال بحيث لم يبق في تلك الناحية ما يشوش البال . . وبقي على العجمي حاكما على مدينة جنى (دييني) المحروسة وهو أول حاكم لأهل المخزن فيها »[1] .

لقد كان تمهيد جل اقليم ماسينا الشاسع عن طريق الفتح والأحلاف ، وضمنه عاصمته دييني ، يمثل حدثا هاما انعكس فيما بعد على قوة الادارة المغربية بالسودان من الناحية السياسية والاقتصادية ، ومما لا شك فيه أن تلك البلاد التي تمتد من غرب تنبوكتو الى قريب من مدينة باماكو الحالية كانت بحق مزرعة السودان ومكمن المعادن فيه ، وبانتظام التجارة بينها وبين الاقاليم الوسطى أصبح السودان يشكل قوة اقتصادية بالاضافة الى ما كان لالتحاق الجهات الغربية بالادارة المغربية من ايذان بتقلص سلطة المملكة الزنجية المتداعية وسيرها نحو الاضمحلال .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٢

وقد احتفظ الحكم المغربي في السودان للجهات الغربية بما يشبه الادارة الذاتية ، رغم أن مزاولاتها الفعلية كانت من قبيل الشكل ، وكان ذلك ضروريا بالنظر لما كان لمسينا من استقلال في عهد الأساكي ، ولوجود مجموعة من السلطنات لم يكن من المفيد اخضاعها ما دامت تؤدي دورها الاقتصادي وحتى العسكري تحت الحكم المغربي .

وكانت دييني ، وبعض المدن الثانوية الأخرى تمتاز بحضارة راقية نسبيا ، فالأبنية المتناسقة والطبقات الاجتماعية المتميزة ، والحكم القريب من الشكل الديمقراطي ، والزراعة النامية القائمة على الري المنتظم ، والمبادلات التجارية المزدهرة ، كانت كلها مبشرة بامكان استثمار المنطقة شريطة مراعاة خصوصياتها وتمكين سكانها من الشعور بالروح الاستقلالية التي الفوها طيلة عهد حكم السونغاي[1] .

واذا كانت دييني قد اندرجت ضمن العواصم المغربية بالسودان ، فان بيعة سلطان مسينا وغيره من السلاطين في تلك الجهات قد تأخرت الى الحين الذي أصبح فيه القائد الفتى عمار (١٥٩٩ ـ ١٦٠٠) باشا على السودان ، ولم يكن هناك ما يستدعي استعجال السلاطين في الجهر بالبيعة للمنصور الذهبي ، ما داموا قد حالفوا الحكام المغاربة وآزروهم في حروبهم .

ولكن كان الوقت قد حان لتمهيد بلاد التوارك الشمالية الغربية المتاخمة لمسينا في الشمال وهي البلاد المشتملة على منطقة البحيرات وأكبرها بحيرة فاكيبي والكامانجي والتيلي ، فقد أدرك القائد مامي الا أمل له مطلقاً في المحافظة على

---

(١) كانت دييني تتميز بمركز تجاري وثقافي في الدرجة الأولى من الأهمية وبينما كانت تنبوكتو محرومة من وسائل الدفاع الطبيعية كانت دييني محوطة بشبكة من الموانع المائية أعطتها أمانا جذب اليها خلال ثمانمائة سنة التجار ورجال الأدب من المغرب ـ بوفيل مصدر سابق ص ١٣٥ .

أملاك المغاربة وعلى السلام فيها ما دام خطر التوارك لم ينقطع في الجهات التي يقطنونها ويقطعون فيها السبل على القوافل والجيش[1]، ويهددون المدن القريبة من مضاربهم وفي مقدمتها مدينة كوندام وقرية رأس الماء .

وقد شعر توارك تلك الجهات الغربية دائماً بأنهم ورثة لملوك المرابطين منذ سقوط امبراطورية غانا[2]، ولما كان بناء تنبوكتو قد تم على يدهم فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سادة لحوض النيجر الغربي وأن المغاربة متسلطون ومحتلون .

وكان التوارك في نهاية القرن السادس عشر موزعين على ثلاث مجموعات كبرى ، تضم كل مجموعة قبائل مختلفة وبيوتات متعددة تتجمع فيما بينها على شكل فدرالي ، فهناك توارك ايفوراس القاطنين بجبال الأدرار ، وقبائل الكلوى وكلغريس ومغشرن شمال تنبوكتو وشرقها ، وقبائل يولمدين الذين ينتجون مناطق غرب تنبوكتو وحتى البحيرات وقاعدتهم في رأس الماء ، وهذه القبائل الأخيرة التي كانت السبب في إضعاف غانا ومالي والسونغاي أيضاً كانت على جانب من القوة ، تأخذ الضرائب من التجار ومن القبائل الأخرى ومن بعض القرى والمدن ، وكانوا يسكنون الجبال أو الجزر وسط المستنقعات ، وإذا ما تحركوا نحو السهول فليس من أجل الاستقرار ولكن من أجل الترويع والسلب[3] .

وقبل أن يخرج القائد مامي لغزو «يولمدين» سعى في إحداث الشقاق بين قبائل الشمال وقبائل الغرب ، فلما كان توارك مغشرن في حلف مع مغاربة تنبوكتو ، فقد استدعى مامي بن برون زعيم تلك القبائل أوسانبا ، وأخبره أن السلطان السعدي عينه حاكماً ورئيساً لقبائل مغشرن ، وعين ابنه (اكنزر) على

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧

(٢) حركات مصدر سابق ج ٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٦

(٣) مصدر سابق ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ Geographie universelle

كل بلاد التوارك في الغرب وجعل عاصمته مدينة رأس الماء نفسها ، ووظف عليهما معاً ألف مثقال سنوي يدفعانها للجيش المغربي[1] .

ولكن مامي تأخر في التحرك نحو توارك الغرب يوليمدين عدة أسابيع ذلك لأن رئيس التوارك الجديد كان قد طلب بعض الوقت لتنظيم قبائله وإعدادها لحرب إخوانه ، ولأن حامية تنبوكتو كانت تعوزها الخيول ، ولا يوجد بحوزتها سوى فرس واحدة لركوب الحاكم مصطفى التركي ، وكانت تنتظر وصول نجدة هامة من المغرب تضم فيما تضمه ألفين من الخيول[2] .

وبلغت الأخبار لتوارك يوليمدين في رأس الماء ، فتنادوا للحرب ، وطووا المراحل نحو تنبوكتو إلى أن وصلوا بئر الزبير على مسافة أربعين كيلومتراً من المدينة ، فبدأ القائد مصطفى يعد قصبته للمقاومة والحصار ، ولكن ما هي إلا أيام ضيع خلالها التوارك المهاجمون فرصة استلحام المدينة حتى قدمت من الشمال النجدة المترقبة وقوامها ألف وخمسمائة فارس بسلاحهم الناري وخمسمائة من الخيول المطلوقة بقيادة القائد علي الراشدي ، وبعد أيام قليلة خرج القواد الثلاثة مامي والراشدي والتركي في أرتال متباعدة للاطباق من ثلاث جهات على أعدائهم ، وكان قائد التوارك أبو بكر ولد الفنداس قد جمع حوله بضعة آلاف من الرجال كانوا خليطاً من التوارك والزغرانيين أصحاب الضفائر والبربر الصنهاجيين ، ولسوء في التوقيت فإن جيش مصطفى التركي وصل وحده إلى البئر فأدار الحرب وحده ، وهزم أعداءه في مواقع طويلة ، وفر من بقي من التوارك يطلبون جبال تخمار[3] ، أما رئيسهم أبو بكر فقد تابع سيره إلى قرية رأس الماء ، وأجهز على حامية قصبتها وعدد أفرادها واحد وسبعون رامياً ، ولكن لم تمر سوى أيام قليلة حتى وصل القائد

---

(١) السعدي ص ١٧٦

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤

(٣) مرتفعات تقع إلى الشرق من بحيرة لاكامانغو ترتفع لى ٥٠٠ م

مصطفى إلى القرية ورمم القلعة ، ورتب لها حصة جديدة من الجند[1] ، وسلم للزعيم أكنزر التاركي فرمان تعيينه زعيماً لتوارك الغرب ، وقد بقي في منصبه ذاك حتى أدركته الوفاة بعد تسع سنين فخلفه ابنه بنجك[2] .

٥ ـ تمهيد الأقاليم الشرقية والجنوبية وممالك الأطراف :

بعد مقتل الأسكيا محمد كاغ ، بايع السونغاي في دندى الأمير نوح ، وأقسموا في يوم بيعته على الموت في سبيل استعادة المجد الضائع ، وكان نوح رهن الاعتقال في غاو منذ عهد أخيه إسحاق[3] ، ويظهر أن خطيب المدينة محمد درامي هيأ له وسيلة الهرب إلى موطن السونغاي في دندى ، فجمع حولهن فلول جيش أخويه بعد مبايعته وبعث مناديه في القبائل يستنهض الهمم .

كان الأسكيا نوح طويل القامة وسيماً يطفح وجهه بالنجابة والشجاعة ، ولكنه كان قائداً من قواد حرب العصابات أكثر من كونه ملكاً[4] ، وقبل أن يشتد ساعده ويقوى عوده أخذ محمود باشا حصة من الجيش وذهب يتعقبه ومعه جؤذر الذي كان ينظم شؤون الأقاليم الشرقية ويقتضي خراجها ، وكان على محمود باشا أن يجتاز حدود مملكة كانطا التي احتمى فيها نوح مع جيشه الفتي ، وكانت الحرب بينهما أشبه شيء بالملاحقة لأن نوحاً لم يشأن أن يواجه الباشا في معركة يعرف مسبقاً أنه سيخسرها ، واستطاع الأسكيا أن يستدرج الجيش المغربي إلى غابة ملتفة الأشجار بث فيها جنوده بحرشانهم ونبالهم في جنباتها ورغم نصيحة قادة الجيش

---

(١) السعدي مصدر سابق ص ١٦٥

(٢) كان أكنزر محبباً إلى جيش المغاربة وإلى الباشا جؤذر لنجدته وأمانته وإخلاصه ، وقد عين أثناء تزعمه لقبائل تواركة الغرب لأخذ خراج تلك الجهات وهو منصب لم يسند قط إلا إلى المغاربة .

(٣) كعتو ص ١٦٨

(٤) بوفيل ص ٢٠٢

فقد اقتحم الباشا الغابة برماته بعد أن مهد لذلك بدك مدفعي شايد كان يسمع في عاصمة كانطا وتهتز له الدور والجبال وبالرغم من أن النتيجة كانت معروفة سلفاً فإن ثبات نوح أدى إلى إيقاع إصابات بالمغاربة بلغت الثمانين وسميت تلك المعركة باسم الموضع الذي جرت فوقه (برنايبي) .

ويبدو أن سلطان كانطة لم يكن يريد التورط أكثر من ذلك حتى لا يجر البلاء على بلاده ، وقد أدى هذا فيما يظهر إلى ابتعاد نوح عن تلك البلاد واتجاهه إلى دندى من جديد[1].

وكان الأسكيا نوح يضرب خيامه في مكان عند ملتقى نهري النيجر وميكون يدعى (وامي) ومعه رؤساء جنده الصغير ونساؤه وأطفاله ، عندما داهمه محمود بجيشه فولى السونغاي الأدبار ، وتبعهم الأسكيا يحثهم على القتال والرجوع لملاقاة الباشا قائلاً « لقد هربنا إلى أن عجزنا وسنصبر اليوم حتى نموت على دين الإسلام[2]» ، وأطاع الجيش الصغير أمر مليكه وقائده وما أن نشبت المعركة حتى هرب نوح وحده وترك من معه لمصيرهم المحتوم[3]، وأخذ محمود بضعة أنفار وتبع نوحاً الذي صعد مع نهر ميكون ، وأمعن التوغل داخل منطقة غزيرة المطر كثيرة المستنقعات والحشرات فلم يسفر بحث محمود عن عدوه عن أية نتيجة[4]، ولكن نوحاً ظهر بعد أشهر قليلة من ذلك في جهات مختلفة متباعدة وكان قد تحول إلى قائد للمقاومة وحرب العصابات وأصبح الأسكيا هو سليمان الذي اجتمع عليه السونغاي وبايعوه وكان متفقاً مع محمود باشا قبل ذلك على أن يكون تحت حماية الجيش المغربي مع احتفاظه بألقابه ونسائه وثروته وجهازه الإداري التقليدي .

(١) مملكة كانطا هي نفس مملكة كابي وقد كان الملك أحمد كانطا قد أطلق اسمه على مملكته ، أما اسم عاصمته فهو ليكا .

(٢) كعتو ص ١٦٨

(٣) المكان السابق

(٤) بوفيل المكان السابق

وعاد محمود باشا وجؤذر إلى تنبوكتو لإعداد حملة الجنوب ، والمنطقة المعنية تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر وتضم إقليمين مهمين : كورما وهنبوري ، وفيما عدا الشريط الضيق من الضفة ، فإن المنطقة كلها كانت مأهولة بقبيلة الموسى الوثنية .

فالعملية بالنسبة لمحمود كانت مهمة وضرورية ، فبالإضافة إلى غنى المنطقة بالأغنام والأبقار والعبيد ، وهي أمور كان يمكن الحصول عليها بسهولة من هؤلاء الأقوام الذين لن يجدوا مهرباً عن دفع الجزية وهم صاغرون إذا لم يقبلوا النطق بالشهادة ، فإن المنطقة أيضاً كانت صلة الوصل الوحيدة التي تربط الشرق بالغرب فيما إذا فكر نوح أن يسير إلى القبائل الغربية التي كانت طاعتها لا تزال مزعزعة أو التي كانت في حالة حرب مع المغاربة كالتوارك ، فيقنعها بتجديد الحرب ، وإعلان طاعتها وبيعتها له ويصبح ملكاً يعتمد على نصرة الغرب بعد أن عز النصير في الشرق .

ولقد ركب محمود باشا السفن من تنش واجتاز إلى الضفة المقابلة ثم سلك الطريق الوحيد المأمون بين الجبال وهو نفس الطريق الذي سلكه السعدي صاحب تاريخ السودان حين صحب أحد الباشوات بعد ستين سنة في حملة بتلك الجهات وترك لنا وصفاً دقيقاً له[1] .

ويبدو أن محمود أصاب ضالته فيما غنمته عساكرة من الماشية والحبوب ، وكان الموسى يتركون خيامهم وقطعانهم ويفرون من وجه الجيش المتقدم ، وحين يعثر الجيش على بعض أفراد تلك القبائل يكون الخوف قد عقل لسانهم فلا يسمع منهم إلا البكاء والصراخ[2] .

---

(١) السعدي مصدر سابق ص ٢٨١ ـ ٢٨٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٥

وبلغ الجيش أرض الحجر (جبال هنبوري) وفتح عاصمتها التي تحمل الاسم ذاته ، واحتوى ما كان بها من متاع وأقوات ثم تقدم إلى (دعنكا) ثاني أهم مدينة في تلك الناحية وسبى النساء والأطفال ، وكان الموسى في المدينتين يعتنقون الإسلام فترتفع عنهم اليد ، ويبالغ في الترحيب بهم أو يصرون على تأدية البيعة للسلطان مع الاحتفاظ بدينهم فيسوقهم الجيش بعد أن يأخذ منهم الجزية .

على أن أمراً بقي يشغل بال القادة المغاربة وهو إخضاع الإمارات والسلطنات التي كانت على علاقة سابقة بالأساكي ، والتي اجتهد المنصور قبل الفتح في أن يرسل إليها بعوثه ورسائله كما رأينا آنفاً ، وذلك سعياً منه في جعلها حليفة له ضد السونغاي ، وتابعة لإدارته السودانية بعد استتباب الأمر لها على مجموع بلاد الأسكيا .

ولعل المنصور وقادته في هذه الحقبة التأسيسية كانوا يحصرون اهتمامهم في ثلاث ممالك تقع كلها إلى الشرق وهي كانطا وكاشينا وأكنو[1] ، فالأولى كانت تتاخم إقليم دندي الذي تحول إلى معقل للأساكي المطاردين ، وكانت بمثابة منجم لا ينفد من المؤونة والأسلحة ، فأغلب حصاد كانطا كان يذهب لدندى ، وصناع المملكة يقدمون حاجيات الأسكيا من السلاح على احتياجاتهم هم . وكانت هناك أهمية أخرى لكانطا وهي أنها كانت تتوسط جغرافياً بين كاشينا وأكنو من جهة وبين بلاد السونغاي من جهة أخرى ، والممالك الثلاث كانت مأهولة فقط بقبائل الحاووصا الذي إعتبروا أنفسهم طيلة حكم الأساكي أكثر ثراء وحضارة من جيرانهم الأقوياء ، وقد ظلت مملكتا كاشينا وأكنو مستقلتين ومركزين للتنافس بين الأمبراطوريتين كانم - بورنو والسونغاي اللتين حرصتا على ألا يمس استقلالهما ، بينما كانت كانطا معرضة لغزوات الأساكي ولم تظفر باستقلالها إلا في عهد الأسكيا

(١) يسميها الفشتالي أكنو والواقع أنها كانو الواقعة جنوب كشينا وشرق كانطا ، ثم انه توجد إمارة بهذا الإسم في بلاد الحاووصا (انظر كنال - مصدر سابق ص ١٥٠)

الحاج محمد[1].

وعندما بدأ المنصور من جديد في مراسلة ملوك الأطراف ، كان يدرك أهمية كانطا على وجه الخصوص ، وقد وجه لملكها داود رسائل عديدة طفحت بالود والمداهنة ، ولكن عندما اتضح للجيش أن تلك المملكة الصغيرة باتت تشكل خطراً عليه لما كانت تقدمه من مساعدات حاسمة لخصمه الأسكيا ، استشار الباشا سلطانه أحمد المنصور في موضوع اكتساحها ، غير ان المنصور وجه رسالة تحذير قوية لملك كانطا قبل أن يلجأ إلى السلاح ، وكانت تلك الرسالة طويلة[2] تضمنت بعض الجوانب التي يجب أخذها بعين الاعتبار في أي تحليل للسياسة المغربية بأقاليم السودان ، ومما جاء فيها :

« إنك تعرف أن سكية جارك المقطوع الدابر بسيوفنا البواتر ، قد كان وما لنا في بلاده أرب وسيوفنا نائمة عنه في قرب ، إلى أن كاتبناه في مصلحة تعينت من مصالح المسلمين المهمة ثم ندبناه إلى طاعتنا التي أوجب الله على الأمة فلما لم يستجب إلى المصلحة سأل عليه من عساكرنا المظفرة بالله أعظم سيل وأنت خبير بما آل إليه أمره من بوادرنا التي طحنته طحناً . . .

« وقد رأيناك قد تساهلت في الأمر وأخذت في أمور تقود إلى التي هي أدهى وأمر ، وذلك بغفلتك عما أوجب الله عليك من الطاعة بايواء الشرذمة السونغائية التي لا تقوم لها بحول الله قائمة إلى يوم الساعة ، فقد بلغ أنك تؤ ويهم وتصل يدك بأيديهم وتمدهم بالخيل وتريد أن تعاند قدر الله فيمن سلبه وقضى عليه بالثبور والويل .

« ثم مع ذلك تصد من جاء من أهل الممالك التي وراءك كأهل أكنو وأهل

(١) السعدي ص ٧٨

(٢) رسائل سعدية مصدر سابق ص ١٢٧ ـ ١٣٢ ، النص الكامل للرسالة .

كاشنة ومن إليهم ممن يبتغي الدخول في الطاعة لينتظم في حزب الله .

« ونحن ندعوك أولاً إلى الطاعة والدخول في سلك الجماعة . . . ثم نأمرك بمقاطعة الشرذمة الباغية السونغائية بالقبض على كل من هو منهم بأرضك ، وتمكين ولاة مملكتنا منهم على يدك ، ثم بإعطاء كل ما كنت تعطيه لسكية عن كل سنة . . .

« وإلى هذا فإن أجبت إلى الطاعة وشروطها ، وتمكين من هو لديك من سونغاي لولاة مملكتنا السودانية والتزمت أداء ما كنت تعطيه لسكية ، وتخليت عن كل من جاءك من أهل المالك التي وراءك إلى الدخول في طاعتنا التي عليك وعليهم فرض واجب فأنت آمن مطمئن في نفسك ورعيتك وبلادك ، ومكنوف برعايتنا التي تكنفك من جميع جهاتك . . ولك منا مع ذلك الاعتضاد بأجنادنا المظفرة بالله على أعدائك وأضدادك ، ثم ان أبيت الإجابة فابشر بعساكرنا المؤ يدة بالله الظافرة . . تسيل على أرضك من هنا إن شاء الله ومن تكورارين وتوات ومن الأجناد التي هناك بإزاءك حتى ترد بحول الله بلادك قاعاً صفصفاً وتلحقه بسكية الذي أذاقته حتفاً وخسفت به وبمملكته إذ عصى أمرنا العلي خسفاً ، وقد أعذرنا إليك وأنذرناك فاختر لنفسك وتوخ سبيل رشدك »[1] .

ولم يرد في أي مصدر شيء يقين عن تنفيذ الجيش المغربي لوعيد السلطان ، ولكن هناك قراءن عديدة تؤ كد أن الجيش ربما يكون قد وضع يده على المملكة الصغيرة أو وصل إلى حل سياسي معها دون أن يحتلها بالفعل ، فقد رأينا محمود

(١) لعل هذه الرسالة من أشد وأعنف ما كتبه المنصور الذهبي ، وقد يرجع ذلك إلى حالته النفسية بعد امتداد المدة التي صرفها قواده في تمهيد السودان وعدم تمكنهم من القضاء على أسكيا السونغاي ، أو إلى شكوى أولئك القواد من المساعدات التي كان يقدمها ملك كانطا في السونغاي والتي تمكنوا بواسطتها من الاستمرار في القتال .

باشا يداهم حدود كانطا حين لجأ الأسكيا نوح إلى ملكها ودخل في حرمته وكانت أصوات المدافع تهز بيوت العاصمة طيلة يوم كامل[1]، ونجد قرينة أخرى أيضاً وتتمثل في أن القائد محمود باشا بنى قصبة في بلدة (كلن) ، وهي بلدة تقع مباشرة على الحدود الطبيعية الفاصلة بين بلاد السونغاي وبلاد الحاووصا ، وأسكن فيها ٢٠٠ من الرماة ، وأوكل قيادتها إلى القائد الفتى عمار الذي أصبح باشا للسودان فيما بعد[2]، ومن الناحية العسكرية فلم يكن هناك ما يقلق بالنسبة لمملكة كانطا فلم يكن لديها جيش يمكن أن يقوم في وجه أية قوة مهما قل شأنها ، وكانت قوتها تكمن في توسطها بين دول كبيرة من جهة وفي حبها للسلام وتعلقها بالحياد ما دامت مسلوبة من أي وسيلة من وسائل الدفاع الطبيعية[3] .

ولعل أبرز قرينة على أن المغاربة قد داهموا تلك المملكة بالفعل هي ما نعرفه عن انتظام مملكة كانو الواقعة إلى الشرق منها في سلك الممالك المغربية السودانية مع ما يتوسط الجهتين من مدن وبلاد ، وهذا نص ما جاء في مناهل الصفا حول هذا الموضوع : « وانتظمت ممالك السودان في سلك الطاعة ما بين البحر المحيط في أقصى المغرب إلى بلاد أكنو المتاخمة لمملكة بورنو ، فتفادى صاحبها من بوادرها وتدفق كتائبها على أرضه ، وأنفذ إرساله إلى سدة مولانا الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله تعالى ، بالخضوع وتقرير الطاعة ، وإلقاء اليد ، واقتضاء أوامره الشريفة إلى العساكر له ولقومه بانحسار تيارها عنهم وكبح عنانهم عن وطء أرضه بسنابكهم ، فصارت مملكته بذلك في عداد الممالك التي تناولها الفتح وانتظمت في سلك الانقياد ، وتنتهي مملكة بورنو المنتظمة بما قبلها من الممالك إلى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر ، فطينة مولانا الإمام المنصور بالله نافذة بحول الله وطوله فيما

---

(١) السعدي ص ١٥٤

(٢) المكان السابق

(٣) بوفيل ص ١٣٨

بين بلاد النوبة والبحر المحيط من قاصية المغرب[1].

ويستدل مما أورده الفشتالي أن الجيش المغربي وصل إلى حدود كانو شرق كانطا ، ولم يدخل تلك المملكة لأنها بادرت إلى قبول الطاعة ، وأن امبراطورية كانم - بورنو كانت على صلة بالممالك المغربية في السودان الغربي ، وكان المخزن يعدها داخلة في نطاق تلك الممالك على العموم .

ومهما يكن من أمر فإن محمود باشا تمكن فعلياً من إقرار سلطة المخزن في جميع الأقاليم الشرقية ، وكسر شوكة السونغاي الذي كان الأسكيا فيهم في نهاية أيام ملك أجداده ، وقضى على المخاوف التي كانت تنذر بها مساعدة الممالك الصغيرة للأساكي ، وعندما وصل إلى تنبوكتو بعد تمهيد المنطقة الجنوبية وفتحها أيضاً كان قد أمضى في مهماته تلك سنتين كاملتين[2] .

٦ - نكبة العلماء وتغريبهم :

كان العلماء وعلى رأسهم القاضي عمر آقيت يدركون أنه مع عودة الباشا من غزواته الشرقية سينزل بهم من أنواع العقاب ما كان أنزله بأجدادهم الأسكيا سنى على في ظروف مماثلة ، وقد سرت أخبار في تنبوكتو قبل أشهر من قدوم الباشا أن الأوامر صدرت بالفعل للقائد مصطفى التركي للقيام بذلك العمل ولكنه لم يكن في عجلة من أمره وفضل أن ينهض الباشا نفسه بتلك المهمة[3] ، غير أن أوامر السلطان كانت تقضي باستئصال شأفة عائلة الصقلي أولاً مهما كانت النتائج ، ومن أجل هذا فقد وجه الباشا محمود تعليمات السلطان كما وردت إليه إلى حاكم

---

(١) الفشتالي ص ١٦٣ - ١٦٤

(٢) السعدي ص ٢٦٥

(٣) المصدر السابق ص ١٦٨

تنبوكتو ، فاتخذ الحاكم الاحتياطات التي يقتضيها الظرف قبل أن يلقي القبض على أفراد تلك العائلة وفي مقدمتهم الشريفان محمد الشيخ وبابا عمر سبطي الشريف أحمد الصقلي ، فاقتادهما بنفسه إلى سوق تنبوكتو وأصدر الأمر بقطع أيديهما وأرجلهما بالفأس وتركهما على تلك الحالة حتى الموت ، وقد أنجز ذلك القتل المكلف بالسجون ومراكز التعذيب على الدراوي (وكان برتبة قائد مع مساعده الشاوش الكامل[1] .

ومما يؤكد خوف القاضي وغيره من العلماء من أن يصيبهم ما أصاب آل الصقلي فإنهم وجهوا على التو وفداً من قبلهم إلى السلطان يضم ثلاثة من خيرة العلماء يطلب العفو عما صدر منهم وأنهم في طاعة الله ورسوله وخليفته في الأرض ، وعند وصول أعضاء الوفد إلى السلطان قبل شفاعتهم ، وبر بهم وأكرمهم وأمسكهم عاماً كاملاً في ضيافته[2] .

وكان الباشا يعلم بأمر الوفد ، وبموجة الخوف التي أعقبت استئصال الشريفين الصقليين ، وكانت المدينة عندما دخلها بعد غيابه الطويل[3] هادئة تباشر فيها التجارة والصناعة على شكل أقوى من السابق ، وكعادة القواد المغاربة فقد اتجه الباشا فور وصوله إلى دار القاضي وسلم عليه حسب العوائد المتبعة وأخبره أن على المدينة أن تجدد بيعتها للسلطان وفق ترتيب عرضه عليه فقبله وباركه ، وكلف الباشا أحد أعوانه ويدعى حبيب ولد محمود انبابو بتنظيم مهرجانات البيعة .

ثم سار المنادي في تنبوكتو منذ صلاة فجر اليوم التالي ينادي في الناس أن تفتيشاً ستخضع له المنازل والمخازن باستثناء دار القاضي وديار آل آقيت ومن وجد

---

(١) المصدر السابق ١٦٦ ويقول السعدي هنا بأن الضحيتين أقبرا في قبر واحد عند ضريح سيدي أبي القاسم التواتي ، وأن السماء أغبرت يومئذ وظهرت العجائب ومنها إصابة القاتل بالشلل بعد القتل مباشرة .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٧

(٣) كعتو ص ١٧٣

في حوزته سلاح تعرض للعقوبة الصارمة ، فبادر التجار إلى نقل أموالهم إلى ديار آل آقيت وأودع الذين كان في حوزتهم سلاح حرشانهم ونبالهم وربما بعض البنادق التي حصلوا عليها أثناء الفتنة في منزل القاضي ، وعاد المنادي يطلب من سكان البلد أن يهرعوا إلى مسجد سنكورى لتأدية البيعة العامة للسلطان وأن يصحبوا معهم المصاحف وصحيح البخاري ومسلم .

وكان الترتيب في تأدية واجب البيعة أن تتقدم الجاليات على النحو التالي :

اليوم الأول : التواتيون : الفزانيون ، الورغليون ومن جانسهم (يوم الاثنين ١٨ أكتوبر ١٥٩٣)

اليوم الثاني : الولاتيون والودانيون ومن جانسهم (الثلاثاء ١٩ أكتوبر)

اليوم الثالث : القاضي والعلماء وأصحاب التكايا (الأربعاء ٢٠ أكتوبر)[١] .

وقد مر اليومان الأولان حسب ما وضع لهما من ترتيب وعند حضور العلماء في اليوم الثالث ، أغلقت أبواب المسجد عليهم وظهر الرماة على الأسطح المجاورة وفي أركان الأزقة المؤدية إلى المسجد شاهرين أسلحتهم النارية[٢] وقبض أعوان الباشا على الحضور وقسموهم فريقين أخذوا فريقاً منهما إلى القصبة والثاني إلى خارج المدينة من جهة الجنوب ، ويبدو أن الحراس استعملوا الخشونة في سوق العلماء إلى مكاني إعتقالهم وعند إحتجاج البعض من هؤلاء صدرت الأوامر بإطلاق الرصاص فسقط أربعة عشر قتيلاً وعدد من الجرحى كان من بينهم بعض أصحاب الحرف والعبيد والحرطانيين الذين تدخلوا ولا شك لصالح علمائهم وأسيادهم ، وبلغت أخبار هذه الحادثة إلى الباشا حين كان لا يزال بالمسجد ، فأرعد وأزبد وأمر بانزال العقوبة بالمسؤ ولين من الحراس وأهل المخزن ولكن لم ينفذ شيء من ذلك .

---

(١) المكان السابق

(٢) كعتو ص ١٧٣

ويذكر السعدي[1] « إن الباشا محمود دخل ديار العلماء وأخذ ما فيها من الأموال والمتاع مما لا يدخل تحت حصر ، ومن ضمنها ما لم يكن إلا وديعة وأمانة ، وقام الجيش بكشف عورات الحرائر وفعل الجنود فيهن الفحشاء واقتادوهن إلى القصبة ليعاشرهن العساكر هناك ، وقد أمضى العلماء ستة أشهر في السجون قبل تغريبهم إلى مراكش وذلك عندما وصلت رسالة من السلطان مع القائد بختيار يأمر فيها الباشا باسدال أردية الأمان على القاضي وصحبه ، وعدم التعرض لهم بسوء ، وصرفهم إليه في القيود . »

وقد توجه العلماء في سلاسلهم صحبة القائد أحمد بن يوسف العلجي والكاهية باحسن فريدو ومعهم نساؤهم وأولادهم وعدد من عبيدهم ، وخرجت الدفعة الأولى منهم من تنبوكتو يوم السبت ١٨ مارس ١٥٩٤ . ومرت على تغازي ، وتلوين وسط أقا[2] وكتاوة ، وثنية الكلاوي ووصلت إلى مراكش في فاتح يونيه .

ولم يتحمل أولئك العلماء صعوبة الطريق ومشاقه ولا قساوة طقس الصحراء في ذلك الوقت من العام ، ولا سيما أنهم كانوا معتقلين لعدة أشهر في ظروف غير حسنة ومثقلين بالسلاسل ، وأغلبهم تجاوز سن الشباب ، وقد حملت بعض الدواب عدة آلاف من المخطوطات والتحف التي كانت تحتويها خزائنهم ، وذكر أحمد بابا التنبكتي الذي حملته القافلة الأولى مع القاضي بأن ١٦٠٠ كتاب قد ضاعت منه في تلك النكبة[3] ، وتوالت القوافل التي تحمل العلماء في بروزها إلى مراكش وآخر قافلة غادرت تنبوكتو يوم ٢٧ ابريل ١٥٩٤[4] .

---

(١) السعدي ص ١٧١ ـ ١٧٢

(٢) السوسي ـ خلال جزولة مصدر سابق ج ٣ ص ٨٠

(٣) دائرة المعارف الإسلامية العدد الأول ص ٤٥٨

(٤) أمضى العلماء مدداً في سجن مراكش قبل إطلاق سراحهم ، ورغم أنهم كانوا متشوقين للعودة إلى بلدانهم فإن عودة البعض منهم لم تتأت إلا بعد وفاة أحمد المنصور ، وكان آخر من رجع منهم أحمد بابا الذي سمح له السلطان زيدان بالسفر عام ١٦٠٦ (المراكشي ، الاعلام مصدر سابق

ويصف محمود كعتو حالة المدينة ، وغيرها من مدن السودان ، بعد تغريب العلماء . ولا شك أن ما أصاب عائلته في تلك الواقعة كان له أثره فيما ذهب إليه من أن المدينة « أصبحت جسماً بلا روح وانعكست أمورها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أرذلها على عظمائها فباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وعطلت الأحكام الشرعية وأميتت السنة وأحييت البدع »[1] .

وقد حاول محمود باشا أن يظهر لمن بقي من طبقة العلماء في المدينة وخارجها أن حادثة القاضي واشياعه لا تعدو أن تكون قصاصاً عما ارتكبوه ، فلم يلبث أن سعى في الحصول على صداقة أجل علماء تنبوكتو الشيخ محمد بوغيوعو وأصبح يعامله أمام مواطنيه نفس معاملته السابقة للقاضي المهجر ، ويبدو أن الشيخ كان منصرفاً عن ذلك كما كان راغباً عن منصب القضاء الذي عرض عليه[2].

ومما لا ريب فيه أن معاملة الجيش المغربي السوداني القاسية لطبقة من الأخيار والعلماء ، قد أثارت احتجاجاً عارماً في المغرب ، أدى فيما بعد إلى نوع من التعاطف مع علماء السودان ، ولعل إيعازاً قد وصل إلى الباشا ليقدم البراهين على أن ما قام به كان لمصلحة المغرب ورداً لمكائد كانت تحاك ضده ، وتدل على ذلك رسالة بعثها علماء تنبوكتو بعد الحادثة وأجبر بعضهم على الشهادة بصحتها مع شهادة أخرى من أحد ملوك السونغاي السابقين الفع (الفقيه) بكر لنبارو أثبتها صاحب تاريخ السودان ، وقد جاء في الرسالة الأولى « وليعلم أمير المؤمنين السلطان ابن السلطان مولانا أبا العباس أحمد ، الله ينصره ويخلد ملكه أننا ما قبضنا هؤلاء الفقهاء : القاضي عمر وإخوانه وأتباعه إلا أن ظهر لنا ما في نفوسهم من

ص ١٠٣) وقد أقبل طلبة العلم على العلماء السودانيين وخاصة أحمد بابا ، الذي درس هو أيضاً على العلماء من أمثال المقري فانتفع به العلم وانتفع العلم به (السوسي ـ اليع قديماً وحديثاً ، مصدر سابق ص ٢٨) ، ويتعرض أحمد بابا لحادثة التغريب في أكثر موضع في كفاية المحتاج بما ليس في الذيباج (نسخة بخط المؤلف ، دار الوثائق بالرباط ك ٣٩٠)

(١) كعتو ص ١٧٥

(٢) المكان السابق

عداوة السلطان وبغضه وتحققنا أن قلوبهم مع الأسكيا ، وهم على كيدهم يجمعون لهم الرجال لمحاربتنا ومتفقون على الفساد بعد أن قتلوا من جيش السلطان ثلاثة وسبعين رجلاً » ، وذيلت الرسالة بشهادة أعيان تنبوكتو وكبرائها[1]، أما شهادة الأسكيا الفع بكر فقد جاء فيها أنه رأى بأم عينيه أصل الرسالة التي وجهها القاضي عمر للأسكيا نوح يتعهد فيها بالقيام ضد المغاربة[2].

على أن أحمد المنصور كان مهتماً بموضوع أكثر من ذلك خطورة في الواقع ، فبعض عيونه أبلغوه تلاعب الباشا بالأموال وأراد السلطان التأكد من الأمر فاستدعى القائد أحمد بن الحداد الذي بادر جؤذر وهو في غاو إلى توجيهه إلى مراكش عن طريق ولاته[3] دون ان يعلم بذلك الباشا محمود ، وقد تأكد السلطان من صحة ما نقل إليه فاستدعى الأمين حمو بن عبد الحق الدرعي ودقق معه دفاتر حساباته وأدخله السجن وعين بدلاً منه أميناً آخر هو نفاس الدرعي ، كما عين أيضاً أميناً على دييني هو الحسن بن الزبير[4].

ويفيد الفشتالي الذي عاصر تلك الأحداث واحتك بها بأن السلطان كتب للباشا محمود يأذن له في النهوض والقفول إلى أبوابه العلية ويأمره باحتمال خراج البلاد ، وفي نفس الرسالة عقد السلطان على الممالك السودانية لمولاه جؤذر باشا[5]، لكن المصدر لا يذكر السبب الذي أدى بالسلطان إلى هذا التدبير المفاجىء[6].

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٦
(٢) المكان السابق
(٣) مدينة تقع في شرق موريطانيا
(٤) السعدي ص ١٧٤
(٥) الفشتالي ص ١٦٤
(٦) يقول السعدي (ص ١٧٥) بأن المنصور بعث القائد منصور بن عبد الرحمان إلى السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته فبعث له ولي العهد يخبره بمهمة القائد ونصحه بانتحال حيلة قبل وصوله إلى السودان وكان هذا السبب في عزم محمود على القيام بحملته الثانية إلى جبال هنبوري التي أدت إلى مقتله .

٧ ـ استبدال فرق الجيش ومقتل الباشا :

من المشكوك فيه أن يكون أحمد المنصور غير عارف بالوضع النفسي لأفراد جنده الذين كانوا يقاتلون شعوباً إسلامية تحت قيادة مشكوك في إسلامها[1]، ولعل أوضاع المغرب الداخلية ، وظهور ثوار هنا وهناك كانوا يتخذون من عصبياتهم القبلية حافزاً للانتقاض ومناهضة حكومة المخزن ، جعلت السلطان يفكر في استخدام فرق لم يسبق لها التورط في الصراعات الداخلية وهي الموجودة في السودان ، ولعله ـ بالنظر لما كسبته من دربة وتمرس بالصعاب ـ أراد استخدامها كذلك في إحدى مشاريعه الخارجية الطموحة ، أي فتح البلاد البعيدة الشاسعة[2].

المهم أن المخزن قرر استبدال الجيش العامل بالسودان بفرق جديدة في نفس الوقت الذي أراد استقدام القائدين البارزين محمود وجؤذر واستبدالهما لجملة من الشكوك كانت تراوده عنهما كما قدمنا ، وقد وصلت إلى تنبوكتو بالفعل محلة مخزنية كانت تضم ألفاً ومائتي جندي منهم ستمائة من أهل ماسة (بربر من جنوب المغرب يقيمون حول وادي ماسة شمال مدينة تزنيت) وستمائة من حاحا (بربر يقطنون غرب مراكش بالقرب من المحيط الأطلسي) وكانت فرقة ماسة لنظر القائد بختيار وفرقة حاحة بقيادة القائد حسن بن الزبير الذي كان يحمل معه في ذات الوقت ظهير تعيينه أميناً لمال دييني .

وكانت هنالك شروط اعتمدها السلطان في إنتقاء فرقه الجديدة التي أصبح يوجهها تباعاً إلى السودان ، فاختارها من أهل الشوكة والنجدة ومن أهل عصبيته وعصائب الدولة ، « وشد عضدها بعساكر جرارة من جيوش النار الرماة الحماة فأفاض عطاءه فيهم وفرق عليهم العدد والسلاح المستكثر منه بخزانته وأمدهم بأسراب من خيل المغرب استاقوها مجنوبة تلوك الأجم بسروجها ، لقلة الخيول

---

(١) لقد كان من بين قادة الجند ضباط كبار ينتسبون للكنيسة ، وقد أكد السعدي أن الكاهية باحسن فريدو الذي رافق العلماء إلى مراكش كان قسيساً ص ١٥٤

(٢) الفشتالي ص ١٦٤

وأعوازها في البلاد (بالسودان) . وسرح أمامهم لكتاوة منتهى العمـران في بلاد درعـة مولاه وكبير المماليك ببابـه الصـدر الكبير (بيلادربـاي) صاحـب جيش الأصبـاحية وعسكر النار . . وكلما شيع محلة وأقحمها في الصحراء تلقى أخـرى فأردفها بالأولى[1] .

ولعل إرسال النجدات واستبدال الجند المنهك بجند قوي متماسك كا يطرح مشكل إيجاد هيأة عسكرية للارتباط والتنسيق وتوزيع الحاميات وإنشاء التحصينات تجعل حداً للفوضى التي كانت تنتـج عن توزيع الاختصـاص بـين قائـد الجيش وحاكم الأرض ، ويظهر أن مهمة القائد منصور بن عبد الرحمان كانت تشمل كل ذلك دون أن تتعداه إلى النيل من سلطة القائد جؤذر على حكم الأقاليم .

وقد توالت النجدات وعمليات استبدال الجنود طيلة الفترة التأسيسية التي نتناولها[2] بالدراسة ، فجاء القائد بن دحمان على رأس ٤٠٠ رام ، والقائـد عبـد العزيز بن عمر ثم علي بن عبـد الله التلمسانـي[3] ومـع كل منهما ٤٠٠ رام مع خيولهم ، ثم كان وصول القائد عمار على رأس ألف من المقاتلين لم يصل منهم إلا نصفهم والقائد منصور بن عبد الرحمان مع ثلاثة آلاف مقاتل ، والقائد سليمان مع ٥٠٠ رام[4] ، والقائد محمد الطباع الذي كان آخر من وصل على رأس قوة قوامها ١٠٠٠ رام في ٢٨ دجنبـر ١٥٩٧ ، وكان جنـود هذه النجـدات (عـدا الألف وخمسمائة الذين أتوا مع باختيار وحسن بن الزبير) في أغلبهم من قبائل المصامدة

---

(١) المكان السابق

(٢) أشرنا سابقاً إلى وصول نجدات كانت الهدف الرئيسي من إرسالها إلى السودان تعزيز حملات الفتح والتمهيد

(٣) كان القائد علي بن عبد الله شاباً طافحاً بالشجاعة والإقدام لعب دوراً مهماً في إقرار النظام بالبلاد المفتوحة ، وعرف بيمن الطالع حيث تمكن خلال السنوات التي أمضاهـا في السـودان من القيام بانجـازات عسـكرية لفتـت أنظـار المؤرخين. وهـو ابـن أخـت السلطـان المنصـور (السعـدي ص ١٦٦) .

(٤) حل محد القائد عمار في حراسة أرباض تنبوكتو ، ولم يسكن القصبة وكان عالي الثقافة والتهذيب (السعدي ص ١٩٠

البربر ومن عرب معقل[1] وشراقة[2] وقبائل جشم .

ولم يكن قد وصل إلى تنبوكتو سوى القائد باختيار ، وكان نصرانياً أسود اللون جميل الهيأة ، عندما قرر محمود أن يقوم بمجازفته في الشرق ، فقد أخذ الستمائة جندي الحاحيين ، وودع جؤذر الوداع الأخير ويمم شطر دندى يطوي المراحل طياً على رأس جيشه المنهك بطول السفر ، ويوم وصوله إلى كوكيا أبلغ بأن سلطان كانطة طرد الأسكيا نوح من بلاده ، فتوجه إلى جبال هنبوري يجمع المحاربين الوثنيين من قبائل الموسى الذين لم يكن مر إلا وقت قصير على مداهمة الباشا لهم ، والملفت للنظر في هذه الغزوة أن محموداً اصطحب معه لأول مرة قوة من السونغاي كان يقودها الأسكيا سليمان المعترف به من المغاربة ، وغدت تلك القوة غير المتجانسة في سيرها باتجاه جبال (الميناوالو) حيث عسكر الجيش في أحد سفوحها ، وجاءت الطليعة قبل حلول الظلام تخبر بأن الأسكيا نوح هرب من تلك الجهة ولم يعد هناك سوى محاربين من الموسى يحرسون قطعانهم في أعالي الجبل ، وجمع الباشا أركان جيشه بحضور الأسكيا سليمان وأبدى لهم تصميمه على الإغارة على الوثنيين ، فحاولوا أن يثنوه عن عزمه ، ودلفوا إلى مضاجعهم وهم على يقين من أن الباشا سيواصل السير بالجيش إلى حيث اتجه الأسكيا نوح ، وعند منتصف الليل اهتزت أودية الجبال وسفوحها بأصوات رصاص البنادق ، وفيما كان الجنود يعدون أنفسهم لتسلق الجبل ونجدة الباشا الذي أخذ أربعين رامياً وقادهم إلى تلك المعركة الانتحارية ، شاهدوا البعض من أصحابه وفيهم قائد غاو الجديد علي بن مصطفى ينزلون من الجبل وقد سلبوا أسلحتهم وبعض ملابسهم ، وصورة الموقف أن الباشا ورفاقه الأربعين وقعوا في كمين للموسى ولم ينفع رصاصهم في المدافعة

---

(١) الفشتالي ص ١٦٤

(٢) ينسبون إلى سيدي أحمد بن يوسف الراشدي من أهل مليانة من حيث الطريقة الصوفية التي عرفوا باتباعها ، وقد استوطنوا بتلمسان ثم انتقلوا إلى المغرب لنشر دعوة شيخهم ، فنالهم النكال على يد ملوك المغرب وأصبحوا مجندين في جيش السلاطين ، وكانوا يبيحون ترك الصلاة والصوم ويمنعون الناس من التوجه إلى الحج حركات ، ٢ ص ٣٥٩

فسقط الباشا الذي كان يتقدم الكوكبة صريع سهم مسموم وحمله بعض جنوده ولكن الوثنيين ضايقوهم بالرماية فتركوه لتقطع رأسه وترسل إلى الأسكيا نوح الذي وجهه لملك كانطا ، وقد تولى الأسكيا سليمان قيادة الجيش وانسحب به إلى النهر ، ومن ثم رجع إلى تنبوكتو حيث كان جؤذر قد تولى القيادة العامة للجيش وأرسل للسلطان في شأن تعيين باشا جديد[1] .

٨ ـ بقية باشوات فترة التأسيس

الباشا منصور بن عبد الرحمان : (مارس ١٥٩٥ ـ نوفمبر ١٥٩٦)

ظل منصب قائد الجيش ، أو الحاكم العسكري العام شاغراً منذ مقتل الباشا محمود ، وكان السلطان قد أعد أحد قواده المحنكين وهو قريبه أيضاً للتنسيق بين قطاعات الجيش والخلافة محمود حين رجوعه إلى المغرب ، وكان القائد منصور لا يزال في المغرب لما وقعت حادثة هنبوري التي قتل فيها محمود ، فاستحثه السلطان على التوجه بسرعة إلى السودان وزوده بظهيرة كقائد للجيش ، وعندما اقترب من تنبوكتو خرج جؤذر لاستقباله في أبراز ، ودخل الباشا دخولاً حافلاً إلى العاصمة فطاف بأرجائها ودخل القصبة يتبعه كبار الضباط ثم نودي على وجهاء المدينة وقاضيها فسلموا عليه وأظهروا فروض الطاعة له ، وقد لاحظ منصور باشا أنه لا يوجد مشور (قصر مخزني) في العاصمة فاختار بنفسه حديقة كثيرة الأشجار تدعى حديقة جعفر ، وأمر ببناء دار المخزن بها . وقد جرت حفلة المبايعة في ١٢ مارس ١٥٩٥ .

وكانت أخبار مقتل محمود قد أنعشت قبائل السونغاي ، وقوت من عزائم بعضها للالتفاف حول الأسكيا نوح ، فالتحقت به في هبوري ولقيت كل ترحيب من الموسى الوثنيين ، ووجد الباشا أن من أولى المهمات أن يقطع رأس الأفعى قبل أن تنفث سمها ، فقرر القيام بغزوة إلى المنطقة الجنوبية ، وخرج بعد انتهاء شهر

---

(١) السعدي ص ١٧٥ ـ ١٧٦

الصيام (شوال ١٠٠٣ جوان ١٥٩٥) على رأس قوة من ثلاثة آلاف جندي نصفهم من الخيالة ، والتقى مع الأسكيا نوح الذي كانت معه أكثر نجعة السونغاي ، فقاتله وهزمه وألجأه إلى الفرار ، وسبا الباشا منصور ما كانت تحتوي عليه مضارب الأسكيا من أثاث وأطفال وعبيد وأقيان ، وعاد بذلك كله إلى تنبوكتو وسلمه إلى الأسكيا سليمان[1].

وفي العام الموالي قرر ملاحقة الأسكيا نوح في منطقة دندى التي كان قد التجأ إليها من جديد ، ولكنه لم يواصل طريقه إلى تلك الغزوة لأن المرض ألح عليه فمكث في ميناء (كابارا) رهن العلاج ، ثم عاد إلى تنبوكتو ، ونزل في حديقة جعفر التي كان البناء جارياً فيها ، ولم تطل حياته بعد ذلك أكثر من أسابيع قليلة فتوفي يوم ٩ نوفمبر ١٥٩٦ ، وقيل ان جؤذر دس له السم ودفن الباشا في مسجد محمد ناضي لبضعة أشهر حيث أن ابنه قدم من المغرب وحمل شلوه إلى مسقط رأسه مراكش[2].

وكان الباشا منصور « رجلاً مباركاً عدلاً ذا حكم شديد في الجيش أمسك أيدي الظلمة والفسقة عن المسلمين فأحبه الضعفاء والمساكين »[3] ويذكر الفتاش ان[4] الباشا منصور نفى الظلم وسعى في رخاء تنبوكتو فبلغ صرف المثقال ثلاثة آلاف ودعا وبيع الجلد المدبوغ بخمسة مثاقيل وكملية الملح (مجموعة أحجار) بستة مثاقيل ، وبيع التمر المغربي بوسكرى بخمس ودعات لعشر تمرات .

ونجد في الوثائق السعدية رسالة وجهها أحمد المنصور إلى هذا الباشا يثني فيها على همته وشجاعته وعدله وأمانته ، ويأمره فيها بالتوجيه إلى كوكيا ودندى وما يليهما بعد أن فتح الله له في استئصال شأفة الأسكيا نوح وإعادة الأحوال في الجهات

---

(١) المكان السابق
(٢) المصدر السابق ص ١٧٧
(٣) المكان السابق
(٤) كعتو ص ١٨٣

الجنوبية إلى الاستقرار والطمأنينة ، وفي تلك الرسالة ذاتها يستحثه على استيفاء الخراج من دندى وما وراءها (كانطا وأكنو) لتوفير الأموال بتنبوكتو وتثميرها ، ويأمره بتوجيه السبايا الإناث وما يليق من الذخائر إلى القصر السلطاني بمراكش[1] .

الباشا محمد طابع : (دجنبر ١٥٩٧ - مايو ١٥٩٨)

وصل الباشا الجديد بعد مضي أكثر من عام على وفاة سلفه ، واختار لإقامته في تنبوكتو بناية صغيرة عند السور الجنوبي للقصبة حيث لم يكن بناء المشور قد تم بعد ، والباشا الجديد كان شيخاً كبير السن ، واشترك في معركة وادي المخازن كأحد قواد السلطان المولى عبد المالك ، واعتقله أحمد المنصور لمدة اثني عشر عاماً ثم سرحه وعينه قائداً لجيش السودان وباشا على تلك الأقاليم .

وكانت المهمة الأولى للباشا محمد هي ملاحقة الأسكيا نوح الذي كان يوالي هجوماته الخاطفة على حاميات الجيش فيما بين دندى وجبال هنبوري ، فجهز جيشه للغزو ، وأخذ معه جيش تنبوكتو بقيادة مصطفى التركي الأمر الذي أغضب جؤذر وأثار حفيظته ، وسارت الحملة تثقف الجهات الجنوبية وتأخذ الخراج والجزية ، وعند وصول الباشا إلى بلدة (أكندا) أصابه المرض أيضاً ولم يمهله إلا بضعة أيام فمات في ١١ مايو ١٥٩٨ ، واستطاع القائد مصطفى أن يكتشف بأن محظيته التركية (نانا) دست له السم وشك في أن جؤذر كان وراء ذلك .

ويبدو أن مصطفى التركي كان موطدا العزم ، وهو يعود بالجيش إلى تنبوكتو أن يخبر السلطان بنتيجة تحرياته ، ولكن عند وصوله ميناء كبارا إنفرد به أحد أعوان جؤذر يدعى إبراهيم السنحاوي وخنقه ، وحملت جثته مع جثة الباشا ودفنتا في مسجد محمد الناصي في شهر تموز من العام ذاته .

---

(١) رسائل سعدية مصدر سابق ص ١٧٨ و١٧٩

كان الباشا محمد طابع كسلفه ذا حكمة وعدل وأمانة ، فقد سعى في جمع الأموال العائدة لخزانة الدولة والتي كان بعضها متخلفا منذ ثلاث سنوات وسلمها لأمين ديينى الحسن بن الزبير وانفذه بها لمراكش ، وعين على الأمانة بتلك المدينة قائدين نزيهين ليقوما مقامه إلى حين عودته وهما عبد الله الحيوني وسعيد بن داود [1].

الباشا الفتى عمار : فبراير ١٥٩٩ ـ مايو ١٦٠٠)

عزم السلطان على إستدعاء جؤذر من السودان ، حيث أن الشكوك التي كانت تحوم حوله وصلته تباعا من بعض قادة الجيش ، ووجه قائدين من قواد المخزن الكبار مصطفى الفيل وعبد المالك البرتغالي ليتوليا أمر الجيش والأرض بدلا عن الباشا المتوفى وجؤذر ، وقد وصل القائدان إلى تنبوكتو في شهر دجنبر ١٥٩٨ ، ويبدو أن جؤذر أقنع السلطان بضرورة بقائه في السودان حيث أن السلطنات الغربية وفي طليعتها سلطنة مسينا بزعامة السلطان حمد آمنة بدأت تفكر في نقض حلفها مع المغاربة وفي مآزرة الأسكيا نوح [2] .

واقترح جؤذر على السلطان أن يعيد القائد الشهير في السودان الفتى عمار [3] حيث أظهر شجاعة وحكمة طيلة خدمته السابقة ، وكان قد أعيد إلى المغرب في نطاق التغييرات التي أدخلها المنصور على القيادة والجيش ، ويظهر ان الثقة في القائد جؤذر كانت تتفوق على كل ما بلغ السلطان عنه ، فقد إستجاب لطلبيه معا ، إذ مدد وجوده في تنبوكتو ثلاثة أشهر وأرسل الفتى عمار على راحلة واحدة مع بعض الأدلاء والخدم ليتولى منصب الباشوية .

وقد وصل الباشا الفتى عمار إلى تنبوكتو في يوم ماطر مكفهر ، وطاف في

---

(١) السعدي ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق ص ١٨١

(٣) الباشا عمار من آصل برتغالي عمل في جيش المنصور كقائد لجيش سوس وذهب إلى السودان مرتين .

Caille la petite histoire du Maroc, I, P, 133.

أحياء المدينة حسب العوائد المتبعة ودخل على القاضي (محمد بن القاضي) فقبل يديه وركبتيه ثم إنصرف مع جؤذر إلى دار الباشوية التي كانت قد إكتملت ، وقد تسلم جؤذر يومها رسالة أخرى من السلطان يأمره بالقدوم إلى المغرب حتى ولو كانت أرض السودان تشتعل ، وقبل الباشا عمار أن يبدأ رئيسه السابق في اعداد العدة للسفر ، وأن يكون رحيله عند إنقضاء شهر الصيام من ذلك العام أي بعد شهر واحد فقط [1] .

وكان الباشا الجديد خبيرا في حروب الشرق حيث شارك أثناء تواجده الأول في جميع حروب دندى وكان قائد منطقة دندى وكانطا ، وقد بنى قلعة حصينة في مدينة كلن أقام فيها مع جيش كبير لحراسة الثغور وتعرض فيها لأشد الأهوال [2] ، أما الآن فانه أمام مشاعل جديدة وأعداء جدد ومهمات أصعب وأدق ، فالأمر يتعلق بالسلطنات التي أنهت تحالفها مع الحكم المغربي ، وأصبحت تتجمع وتتأهب لفصل الجهات الغربية والاستقلال بها كما كان الشأن في عهد الأساكي .

وقد وصلت الأخبار بأن سلطان مالي [3] محمود عقد حلفا مع سلاطين كلا وبندوكو وفدكوكويا وسلطان مسينا حمد آمنة [4] ووجه حاكم دييني سيدى منصور رسالة إستغاثة للباشا الجديد ، فجمع مجلس حربه وقرر محاربة السلطنات

---

(١) رجع جؤذر إلى مراكش في ٢٧ شعبان ١٠٠٧ (٢٥ ابريل ١٥٩٩) بعد ان أمضى بالسودان تسع سنوات ، وقد تولى في مراكش منصبه السابق كقائد لجيش النار ، وظل خادما عند أبناء المنصور الواحد تلو الآخر مناصرا للشريعة محافظا على ولائه لسيده السابق وقد وجهه السلطان محمد الشيخ ابن المنصور سنة ١٦٣٧ سفيرا إلى لندن لدى الملك شارل ، ووقع باسم المغرب معاهدة صلح وصداقة مع انجلترا في ١٠ شتنبر ١٦٣٧ ، وعاد إلى المغرب بعد سنة واحدة ليقود انقلابا مسلحا بتعاون مع أحد قواد المخزن أحمد بن منصور فالقيا القبض على السلطان مولاي الشيخ ومكنا السلطان ابافارس (الذي كان عاملا في أقاليم الجنوب) من إعتلاء العرش (السوسي اليغ قديما وحديثا / مصدر سابق ص ٣٦ . وعمل في خدمة المولى أحمد بن محمد الشيخ ومات في ظروف غامضة بعد ذلك بقليل .

(٢) السعدى ص ١٧١

(٣) ليست هي امبراطورية مالي المعروفة وان كانت اخذت اسمها .

(٤) كان أقوى حليف للمغاربة ، وقد أتى الى تنبوكتو للشفاعة في العلماء بعد إلقاء القبض عليهم فرفض محمود باشا شفاعته وأهانه فقرر منذئذ الثورة ضد المغاربة (المصدر السابق ص ١٧٨)

واخضاعها بدل السعي في إرضائها ، وجرد حملة جعل عليها القائدين مصطفى الفيل وعليا بن عبد الله التلمساني ، وأثناء سير الحملة وصل سلطان مالي على رأس جنوده إلى مشارف ديينى وعسكر فوق جزيرة رملية وسط المستنقعات تعرف باسم (رمل سانون) وكانت تلك فرصة نادرة ومواتية للجيش ، إذ أحاط بهم الرماة وأصحاب المدفعية ، وفتكوابهم ، وهرب السلطان مع بعض خاصته على جيادهم وتقدم الجيش بعدئذ لملاقاة السلطان حمد آمنة الذي كان يعسكر في إحدى القرى المجاورة ومعه نساؤه وعبيده وخزائن ماله ، وحانت الفرصة مرة أخرى للقائد التلمساني فهجم على مؤخرة المعسكر واحتوى ما فيه ، وعندها سعى حمد آمنة في الصلح ، فأعلن بيعته للسلطان بعد ان ردت له نساؤه وعبيده وأمواله ، وأصبح يؤدي خراج سلطنته لحكومة المخزن في تنبوكتو [1] وكان يأتي إلى تنبوكتو لدفع تلك الواجبات المخزنية .

وقد كان لفتح سلطنة مالي آثاره البعيدة في الوصول إلى احد أهداف المنصور الكبرى ، ففي جنوب هذه المنطقة يوجد معدن الذهب الذي كان المغاربة والتجار يحصلون عليه بواسطة الشراء والمقايضة ، أما الآن فقد أصبح في متناول أيديهم بعد أن فتحت لهم مناصبة سلطان مالي العداء لحكمهم مناجم الذهب التي كان المنصور يتلهف للوصول إلى مكامنه السرية ، ويشير الفشتالي [2] إلى هذا الانجاز الكبير فيقول «ان مملكة مالي هي لهذا العهد بعض من ممالك مولانا المنصور بالله التي تناولها الفتح العظيم ، وجزء من تلك الأقاليم المنتظمة في سلك إيالته العلية ، ومن الأمم التي دانت لدولته القاهرة على رغبة أو رهبة ، فما من تلك الأمم اليوم ، سودانية أو مدرية أو وبرية إلا من ألقى يد الاستسلام ودان لطاعة مولانا الامام . . . ولمالي من الخصوصية بمعدن الذهب الابريز وحد النضار الذي فغرت له أقطار الأرض أفواهها واستباحت نواها استباحة المقتر المعسر ورمتها جلائل

---

(١) المصدر السابق ١٨٤ يقول المصدر بأن حمد آمنة دخل في طاعة المخزن بالاسم فقط .
(٢) الفشتالي مصدر سابق ص ١٦٨

الأمصار بأفلاذ أكبادها من غير مزاحمة قطر من أقطار الأرض لها في ذلك بمنكب ولا مساجلة لها في ذلك المضمار . . ومعدن الذهب الذي نعرفه إنما هو ببلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب ، ويبدو أن فكرة غزو بلاد مالي كانت قد نقلت الى المنصور فأرسل قبل وقت قصير من الاستيلاء عليها رسالة إلى جؤذر يأمره بملاك أمر معادن الذهب الثلاثة التي إكتنفتها سلطنة مالي ، والبناء عليها واختطاط الحصون الجاثمة فوقها وترتيب الجيش فيها لحياطتها ، ولكن المهمة أنجزها الباشا عمار بعد أشهر قليلة من وصول ذلك الأمر السلطاني [1] .

ولقد كان الباشا ميمون الطالع ميسر الخطوات ، ولكن سيرته في الجيش وتساهله في معاملة كبار ضباطه كانت السيئة الكبرى التي رافقت ولايته على بلاد السودان ، ولا شك أن إختفاء جؤذر من مسرح الصراع حول إختصاصات حاكم الأرض وحاكم الجيش هو الذي أدى إلى إختلاف الباشا مع القائد مصطفى الفيل الذي كان يعتبر نفسه حاكما مدنيا منذ سفر جؤذر ، وأدعى بأن السلطان وجهه إلى السودان لتلك الغاية بالذات ، وبالنظر لدماثة أخلاق الباشا وليونته فقد تمكن القائد مصطفى من فرض سيطرته عليه ، والمضي في جلب قطاعات الجيش إلى صفه ، وبلغت تلك النازلة مسامع السلطان فوجه القائد سليمان الذي كان معروفا بقوة شخصيته ونفاذ كلمته الى السودان مع ظهير تعيينه باشا لتلك الأقاليم ومع الأمر البات أيضا بسجن الباشا عمار والقائد الفيل وارسالهما إلى مراكش مع أمر ثالث بالمبالغة في إهانة الفيل ووضعه في القيود [2] ، وقد وصل الباشا الجديد في ١٩ مايو ١٦٠٠ إلى تنبوكتو فتلقاه الباشا عمار وقبله على رأسه إمتثالا لكلمة السلطان وسار وراءه إلى المشور حيث قعد سليمان على كرسي الباشوية فنادى المنادي على قواد الجيش وضباطه للسلام على الحاكم الجديد ، فكان أول من دخل منهم القائد مصطفى الفيل ، وحين كان يهم بارتقاء عتبات قاعة الحاكم إنقض عليه الأعوان

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٥
(٢) السعدى ص ١٨٩

ومزقوا ثيابه الفاخرة ووضعوا القيود في رجليه ويديه وأخذته كوكبة من الجيش كانت متأهبة للسفر ، وبقي الباشا المخلوع في السجن ثم سرح لمراكش [1] .

الباشا سليمان : (مايو ١٦٠٠ يوليو ز ١٦٠٤)

وصل الباشا سليمان إلى تنبوكتو مع جيش قوامه خمسمائة رام بخيولهم وبنادقهم ، وكان إلى جانب قوة شخصيته ونفاذ أمره متواضعا لبيبا عالي الثقافة ، وقد فضل بيتا يقل أبهة وكبرا عن المشور فسكنه ليعطي لجنوده وضباطه المثال على سلوك الجندي ، وجمع كل ما كانت تحويه دار المخزن من أثاث ثمين وأرسله لمراكش .

والى الباشا سليمان يعود الفضل الأول في تنظيم الأقاليم السودانية وتزويدها بادارات مدنية فعالة ، فقد نظم جهاز الأمن في المدن ، وأوكل أمره الى الحكام ، وبالنسبة لتنبوكتو فانه كان «لايبيت الليل كله إلا منتبها يحرس المحلة والبلد كليهما ، فلا تحدث فيها صيحة ولا صراخ إلا في سمعه وعلمه ، وما تطرأ من سرقة في أي جهة إلا ويتتبعها حتى تنكشف له فيحكم بها بم يليق » [2] .

وكمثال على مثاليته في تسيير دفة إدارته ، فانه لاحظ أن أمين دييني الحسن بن الزبير ظهرت عليه معالم الثراء واتخذ لنفسه مئات الجواري ، وأصبح أرباب الموسيقى والرقص والطرب لا يفارقون داره فبعث إليه وصادر كل ما يملك ووجهه للسلطان ، ولكن بعض الحاشية في مراكش دافعوا عن الأمين ، فوصلت رسالة، إلى الباشا تستنكر ما فعله بحق أمين المال .

كانت سنوات حكم الباشا سليمان سنوات دعة وأمن ، ورفاهية ، وكان الأسكيا نوح قد تاه مع بضع مئات من السونغاي في الجبال والغابات والمستنقعات

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٠
(٢) المكان السابق

ينتهز الفرص في حاميات منعزلة [1] وقوافل عزلاء ومزارع ومصائد أسماك بعيدة عن مراقبة الجيش اليقظ ، فيوالي عليها هجماته المباغتة في الليل [2] ويأوي في النهار إلى كهف أو غابة ، ولكن أمره كان قد قضي وانتهى ، ولم تعد لمملكته أية فرصة للظهور أو المقارعة عندما ألجأ المغاربة القبائل الموالية له إلى الأرض القفر ، والجبال العارية والمستنقعات الموبؤة فأصبحت تبحث عن المأوى ولقمة العيش أكثر من بحثها عن الملك والسلطان .

ونظم الباشا ـ وكان الحاكم الوحيد للأرض وللجيش ـ قواته وحامياته فكانت منتشرة بين دندى شرقا وبلاد العرب غربا وبين تغازى شمالا وهنبوري، جنوبا تأتيها أرزاقها بانتظام ، وتستبدل للاراحة بين الحين والحين ، وسار الباشا مع الجيش سيرة الشدة المتناهية التي بدونها لا يتحقق انتظام ولا تمحض طاعة [3] فكان الجنود لا يبيتون الا في معسكراتهم أو قلاعهم ومن غربت عليه الشمس في داخل مدينة أو خارجها يعاقب بالسوط [4] .

وقد وصل خبر موت أحمد المنصور الذهبي بعد أشهر [5] فأخفى الباشا موته عن الناس حتى جاءت البشرى باعتلاء إبنه مولاي أبي فارس العرش ، فأرسل المنادي بالخبرين معا كما جرت بذلك العادة ، وذهب إلى المشور هو وضباط الجيش الآخرون لاعلان البيعة ولتهنئة، الباشا الجديد الذي عينه أبو فارس وهو الباشا محمود لنكو الذي أحضر معه ثلاثمائة رام وظهائر تعيين لبعض القواد وموظفي المخزن المدنيين .

---

(١) بوفيل ص ٢١٥

(٢) المصدر السابق ٢١٣

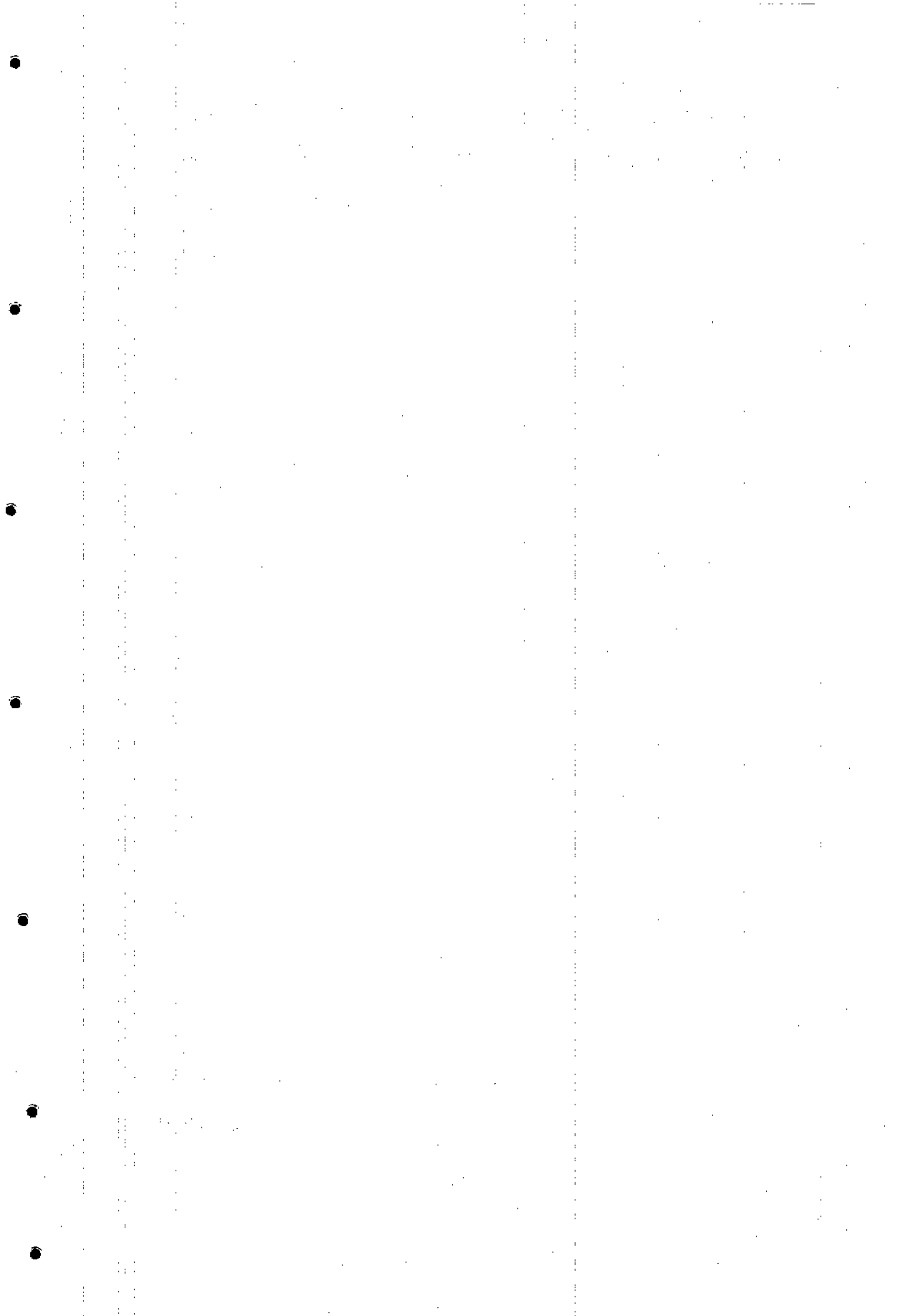
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٥ « كان سليمان إداريا مثقفا وكسب ثقة السودانيين إذ نقل حاميته إلى خارج المدينة ولم يعد السكان عرضة للنهب والسلب اللذين كانا ضحية لها لمدة طويلة ولنفس الهدف أخضع الجيش كله لنظام في منتهى القسوة لم يعرفه منذ أيام محمود » .

(٤) السعدي ص ٢٩٠

(٥) توفي أحمد المنصور الذهبي يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول ١٠١٢ (٢٤ غشت ١٦٠٣)

وبعد أداء المراسم انصرف الباشا الجديد إلى القيام بأول مهمة كانت تنتظره وهي تشييع جنازة الأسكيا سليمان الذي وافاه الأجل المحتوم في ذلك اليوم بالذات من أيام صفر ١٠١٣ (يوليوز ١٦٠٤ [1] .

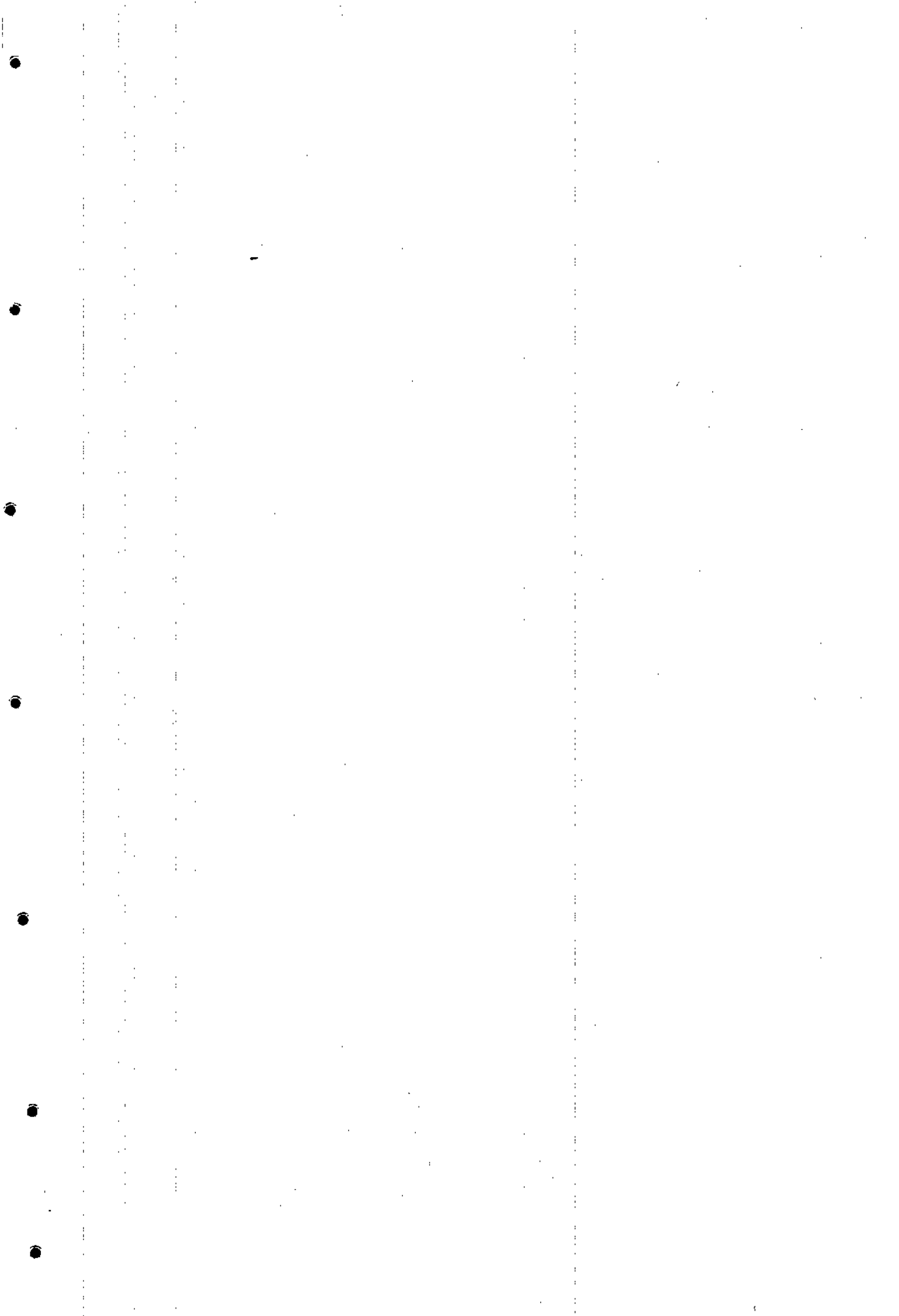
(١) السعدى ص ١٩١ .



الفصل السادس

الادارة المغربية في السودان

١ ـ الحدود
٢ ـ الرابطة القانونية والنظام العام
٣ ـ المخزن والمشور
٤ ـ أساكي تنبوكتو
٥ ـ الجيش
٦ ـ الأمانة والادارة المالية
٧ ـ القضاء والموظفون الدينيون
٨ ـ القضاء العسكري
٩ ـ البريد ولغة الادارة
١٠ ـ الادارة الاقليمية والجهوية



الإدارة المغربية في السودان الغربي

١) الحدود :

لا شك أن تتبع فتوحات الجيش المغربي في السودان ، وتدقيق أمكنة تواجد قلاعه وحصونه ، واستقصاء القبائل التي كانت تدفع خراجها السنوي إلى بيت المال في تنبوكتو ، وتحديد الجهات التي كانت تمتد إليها سلطات حكام الأقاليم ، لا شك أن ذلك يتيح بكيفية قريبة إلى الواقع ، وضع الخط الذي كان يحد الممالك المغربية في السودان خلال فترة السنوات الثلاث عشرة التي هي المجال الزمني لهذا البحث .

وإذا رجعنا إلى مختلف الدراسات التي تناولت الامتداد الجغرافي لأمبراطورية السونغاي المغلوبة في عهد توسعها وازدهارها في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر نجد أن حدود السودان المشمولة بالحكم المغربي تكاد تنطبق على الحدود الكبرى للسونغاي في الوقت الذي أشرنا إليه سابقاً[1] .

غير أن عاملين أحدهما سياسي والثاني اقتصادي أثرا على خطة المغاربة في الاكتفاء بممتلكات الأساكي كما كانت معروفة قبلهم ، ودفعا بالقيادة المغربية إلى

---

(١) كانت امبراطورية السونغاي تضم فيما بين ١٥٩٧ و١٥١٦ بلاد مالي إلى المحيط الأطلسي في الغرب أما في الشرق والشمال فإنها وصلت إلى جبال أير وأكاديس وكبى (كانطا) ، وإلى منتصف بلاد الموسى الوثنيين في الجنوب (نقولا زيادة مصدر سابق ص ٣٤) ، وينطبق ذلك تماماً على التحديد الذي وضعه السعدي لمملكة السونغاي (تاريخ السودان ص ١٤٢) .

التلويح بالتهديد أو امتشاق السلاح لضم ممالك جديدة في الشرق والغرب كما رأينا من قبل ، فمساعدة ملك كانطا للأسكيا نوح أدت إلى القيام بضغوط سياسية كان من نتائجها إذعان مملكة كانطا إلى الطاعة والتحاق مملكة كانو وربما مملكة كاشينا بالحكم المغربي[1] ، ثم ان تحالف مملكة مالي مع مسينا وسلاطين الغرب الآخرين أدى إلى التطويح باستقلالها وإلى الوصول إلى مناجم الذهب فيها[2] .

وهناك إقليمان آخران أحدهما في الشرق ، وهو امبراطورية كانم بورنو ، ولم يثبت لدينا أنها كانت على صلة بالحكم المغربي في السودان رغم تقديمها البيعة للخليفة السعدي كما بينا سابقاً ، ولذلك فلن نعدها ضمن مشمولات الإدارة المغربية المباشرة ، والثاني في الغرب وهو بلاد السنغال الذي ضم إلى المغرب في وقت سابق عن طريق الفتح ، ولكن من الوجهة الإدارية والحكم فإنه يخضع لنفس الحيثية السابقة الخاصة بامبراطورية كانم بورنو ، وعلى هذا الأساس فإننا لن نعطي للجهات التي نعتبر أن الحكم المغربي قد ساد عليها ذلك الامتداد المكاني الذي حدده الفشتالي ، والذي جعل فيه حدود المالك المغربية في السودان تمتد من بلاد النوبة في مصر إلى المحيط الأطلسي في الغرب[3] .

واعتماداً على الاعتبارات السالفة فإننا سنحاول رسم خط تقريبي لتلك الحدود ، مع ذكر ما تضمنه في داخله من شعوب وقبائل .

ففي الشرق ، يبتدىء الخط من شمال أكاديس ليدخل بلاد الحاووصا وليرسم نصف دائرة فتحتها إلى الشرق وذلك على اعتبار أن مملكة جوبير لم تدخل

---

(١) رأينا أحمد المنصور يذكر في بعض رسائله أن مملكة كاشينا كانت ترغب في الالتحاق بالمغرب ، وما كان يمنع من ضمها وهي المملكة الصغيرة العزلاء الواقعة بين كانو وكانطا (انظر مناهل الصفا ص ١٦٣) .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤

في نطاق الإدارة المغربية ، ثم ينزل الخط مستقيماً ليشمل بعضاً من مملـ ة كاشينا ومجمل مملكة كانو [1] ، ويتجه الخط إلى الجنوب من كانو نحو الغرب [2] وبعد أن يقطع نهر النيجر يسير بشكل أفقي تقريباً ، حيث يترك مجرى النهر إلى يمينه ويسير نحو الشمال بمحاذاة السهل الفيضاني للنهر [3] إلى أن يصل إلى بلاد الياطانغا (جنوب جبال هنبوري) فيأخذ شكل قوس انحناؤه للأعلى موازٍ لنهر النيجر حتى يصل خط العرض ١٠ شمالاً ، فعنده يأخذ إتجاهاً شرقياً غربياً [4] ، وعند وصوله إلى خط الطول ١٠ شرق غرينويتش يسير نحو الشمال الغربي مبقياً السفوح الشرقية لجبال فوتاجالون إلى يمينه ، ويسير بعد ذلك بالاتجاه المعاكس للمجرى الأعلى لنهر السنغال من الجنوب إلى الشمال ثم يسير باتجاه شبه مستقيم إلى أن يصل إلى تاودوني فيتجه إلى الجنوب الشرقي نحو أكاديس [5] وهي النقطة التي بدأ منها سابقاً .

فتخطيط الحدود على النحو الذي رسمناه يضيف مساحة صغيرة إلى شرق السودان المغربي لم تكن ضمن حدود امبراطورية السونغاي ، ويخرج منها مساحة أكبر تقع في الغرب كانت تمتد إليها سلطة السونغاي [6] .

أما القبائل التي كانت تدين بالطاعة لعمال المخزن بالسودان الغربي ، فهي بحسب التحديد السابق :

- في الشرق : الكانوري - الحاووصا
- في الجنوب : جزء من الموسى - التوارك - البهل - الطوبورو

---

(١) الجزء الغربي من جمهورية النيجر الحالية والشمال الأوسط والغربي لجمهورية نيجيريا
(٢) يمر الخط التقريبي هنا من جنوب الحدود الشمالية الحالية لجمهورية بنين
(٣) أي أنه يساير الحدود السياسية الحالية لجمهورية فولتا العليا
(٤) يسير خط الحدود هنا مع الحدود الحالية لجمهورية ساحل العاج في شمالها
(٥) Grand Larousse encycopedique 1960 T. 1 PP139 - 144
(٦) كنال - مصدر سابق ص ١٦٢

ـ وعلى امتداد النيجر الأوسط : السونغاي

ـ في الغرب : البامبارا ـ المالينكي ـ الصونونكي ـ وجزء من التوكولور (التكرورة)

ـ في الشمال : التوارك ـ البربر ـ العرب[1] .

٢) الرابطة القانونية والنظام العام :

يقوم الوضع القانوني للحكم المغربي الذي بوشر على السودان الغربي على أساسين ، الأول منهما ممارسة إحدى واجبات الخلافة الإسلامية ، والثاني البيعة العامة ، أما النظام الذي كان قائماً في تلك الجهات فهو نظام التبعية المباشرة لكرسي الخلافة على اعتبار أن المناطق السودانية على اختلاف وتنوع الأحكام التي كانت مطبقة فيها تشكل إحدى عمالات المغرب الأخرى ذلك النظام يطبق ويفسر بموجب الظهير الخليفي الشريف وتعليمات السلطان المكتوبة .

ففي مجال الرابطة القانونية نجد أن أحمد المنصور اعتبر نفسه الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين ما دامت تتوفر فيه شروط لم تكن متوفرة في غيره من الحكام المسلمين ، ومن هذا المنطلق فقد كان يرى أن من واجبه أن يحمل المسلمين في أي جهة كانوا على طاعته واتباعه ووضع مقدراتهم بين يديه للقيام بفريضة الجهاد والدفاع عن بيضة الإسلام ، فعلاقة أية أرض مفتوحة بدار الخلافة هي بلورة لواقع ديني ودنيوي .

أما في مجال التطبيق فهناك الفتح الذي قد يقع السعي إليه باللين أو بحد

---

(١) لقد أحس المخزن المغربي بأنه قد أغرق جنده في بحر يموج بالأجناس البشرية « فهي محشر العالم ومدرج الذر من بني آدام والممالك المنتظمة مع خط النيل (النيجر) انتظام السلك الجارية مع تياره في طلق » الفشتالي ص ١١٧

السيف ، ثم تأتي البيعة التي هي واجبٍ في عنق كل مسلم عليه أن يؤديه في أية ظروف تتهيأ له : وهي التزام على العمل المشترك الذي يعتمد على الولاء بين الحاكم والمحكومين .

فالأسلوب الذي أتبع في السودان وأدى إلى ضمها إلى المغرب قد انبعث من مباديء التشريع الإسلامي ، ومن القواعد التنظيمية والأخلاقية والقيم التي عرفت على عهد الرسول والصحابة ، وما كان في الإمكان تصور الانطلاقة السياسية في السودان دون الارتكاز على البيعة العامة أو على عقد المشاركة القائم على الولاء ، ومن ثم نستطيع أن نفهم لماذا بادر المغاربة في تنبوكتو إلى طلب ثم أخذ البيعة من سكان المدينة ثم أصروا على تجديدها بعد الفتنة التي حدثت بها ، ولماذا أرسل حاكم تنبوكتو مصطفى التركي وفوداً إلى مختلف المدن ، قبل أن يصلها الجيش نفسه بقصد المبايعة للسلطان ، ولماذا كانت البيعة المطلب الأول الذي لم تخل منه أية رسالة للمنصور قبل الفتح .

وعندما كانت جهة من الجهات تبايع السلطان ، فإنها تكون قد أزالت كل سبب قد يدعو إلى العمل العسكري ضدها ، فمملكة كانوا مثلاً ضمت بواسطة البيعة ومملكة مالي استلحمت بحد السيف ، وقد رأينا الفارق الشاسع في معاملة الجيش المغربي لكل منها ، أما بلاد الموسى الوثنية فإنها كانت بلاد الجهاد والحرب فاختصت لذلك بمعاملة تختلف عن الأولين ، ومن هنا فان الأساليب التي طبقت على مختلف بلاد السودان لم تكن واحدة ، رغم أن حكماً واحداً قائماً على الولاء كان يجمعها كلها .

ومن جهة أخرى فلم يكن هنالك اشكال فيما يخص المصدر الأساسي للقانون الذي كان هو الدين الإسلامي على المذهب المالكي والطريقة الأشعرية ، وإذا كان الإسلام قد دخل إلى افريقيا الغربية منذ عهد الفتوحات الإسلامية ، فإن الأخذ

بالمذهب الذي كان يتحد فيه المغرب والسودان يرجع إلى عهد المرابطين الذين نشروه في غانا فانطلق منها على يد دعاة لم يجدوا صعوبة في نشر تعاليمه ومقاومة المذاهب الأخرى المعاكسة له ، ولقد كان المذهب المالكي ينسجم مع بساطة السودانيين والصحراويين ، فهو لا يعتمد على الأخذ بالرأي ، بل يلتزم منطوق الكتاب والسنة ثم عمل أهل المدينة ثم القياس[1] ، ومما لا شك فيه أن هذا العامل الهام قد أثمر التجاوب بين الإدارة الجديدة وبين مختلف الطبقات وخاصة في ميادين القضاء والفتوى والنوازل ، ولقد كان السودان إحدى المدارس الكبرى في شمال وغرب افريقيا ، وضم خلال العصر الذي نعالجه مجموعة من علماء الفقه والكلام ومن المتصوفة أيضاً ممن كتبوا العديد من الكتب ، والشروح والأراجيز ، والعظات والتوجيهات إلى المريدين ، وقد استعان باشوات السودان كما فعل الأساكي قبلهم بمن بقي في تنبوكتو من أهل العلم في حل المعضلات واستصدار الفتاوى كما لجأوا إلى فقهاء المالكية في بعض تلك الأمور سواء بسواء .

ويجيء بعد ذلك القانون الوضعي الذي ينظم الجهات ويعطي للحكام قوتهم القانونية والسياسية وهو على شكلين :

أولاً / الظهير ، إن اسم الظهير يطلق في المغرب على رسم السلطان ، وعليه طابعه أو يحمل توقيعه ، وقد جاءت التسمية من أن صاحبه يدلي به ويباشر بواسطته أية سلطة تناط به حسب منطوقه ، فيكون ذلك نصيراً له وظهيراً[2] ، وقد رأينا أن قواد السودان ، وحكام أقاليمه ، كانوا قد أحضروا ظهائر تعيينهم في مناصبهم تلك ، أو حملت لهم ان كانوا في بلاد السودان ، ومن الواجب حين تدعو الحاجة إلى تبديل قائد من مهمة إلى أخرى ، أو عند إعفائه من الخدمة أيضاً أن

---

(١) عبد الرحمان بن محمد الدباغ « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ـ تونس ١٣٢٠ هـ ج ٢ ص ٨
(٢) عبد السلام بن سودة « دليل مؤرخ المغرب ـ دار الكتاب / الدار البيضاء الجزء الثاني ١٩٦٥ ص ٤٦٠

يصدر ذلك بظهير يحمل ختم السلطان الكبير أو الصغير حسب أهمية المنصب أو نوعية التدبير .

ثانياً / الأمر السلطاني المكتوب دون أن يحمل طابعاً أو توقيعاً ، ويمكن القول بأنه كان يوجد في عهد المنصور السعدي دستور مكتوب بقلم السلطان نفسه وقد سماه « المعارف فيما تحتاج إليه الخلائق » ولكنه كان معروفاً أكثر من ذلك « بكتاب السياسة »[1] ، وقد جاء في حجم تأليف متكامل يمكن تقسيمه إلى قسمين : القسم الأول يتعلق بتحقيق مصالح العباد وحياطة البلاد بعد أن « انثال على بابه أمور العجم والعرب والسودان والروم والترك »[2] فالمفهوم أن هذا القسم كان عبارة عن توجيهات تتعلق بسياسة الأقاليم غير المغربية ، والأخذ بها إلى أن تصبح أداة قوة للدولة وللإسلام ، وبالإضافة إلى ذلك فإن فصلاً منه خصصه المنصور لما يمكن أن يطلق عليه اليوم الاستراتيجية والأهبة العسكرية ، فقد حوى معارف تامة ودقيقة عن « تحصين الحصون واختطاطها وتشييد المعاقل وتعبئة الحروب ومكائدها وآلاتها وخدعها وآلات الحصار وأنواعه وأدواته ومعرفة أنواع مدافع القذف والرجم وكيفية عملها بما يقتضيه غرض الرمي إلى البعد أو القرب أو إلى السماء أو إلى الأرض وإلى الاستقامة أو إلى الانحراف »[3] ، والقسم الثاني من « كتاب السياسة » يذكر فيه المنصور أنه عندما رأى كل من تعرض إلى فن الكتابة في ميدان السياسة العلمية ، وقيادة الشعوب وتوجيه الحكام في سلطاتهم وأحكامهم وأساليب اجتذاب الرعية وتوحيدها ، يعمد إلى « توضيح المصطلحات التي تحدد معاني ومهمات الوزير والنديم والمشير وتنمية الخراج والعدل في الرعية وسيرة المملكة في الموكب والمركب ، ونحو ذلك مما يكتفي بالقول ويضرب صفحاً عن

---

(١) ابن القاضي ـ الجذوة ص ٥٦ ـ الافراني ـ النزهة ص ١٦ ـ ١٧ ابن سودة دليل ج ٢ ص ٤٦١
(٢) الفشتالي ص ٣٠١
(٣) المكان السابق

العمل ولله در من قال : نحن إلى امام فعال أحوج منا إلى إمام قوال ، رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الفائدتين ويفوز بالخصلتين فكتب في خطبة كتابه ، (العارف فيما تحتاج إليه الخلائق) ، « وبعد فبنا حاجة إلى تكميل نفوسنا في قواها البشرية باستعمالها في حقائق المعلومات العلمية والنظرية وعلوم الحكمة العملية أولى بنا فيما نحن فيه وأعون على ما نجلبه لهذا الأمر العلوي الفاطمي أو ننفيه ، فلنصرف أولاً عنان القول إليها ولنوجف بالخيل والرجل ميادين هذه الطروس عليها ومن الله سبحانه نستمد »[1].

فالمناطق السودانية على تنوعها كانت في مجموعها مرتبطة بالكرسي الخليفي بحكم البيعة وتحكم بموجب أحكام الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك ، وبحسب النطق السلطاني المتمثل في الظهير وكتاب السياسة ، غير أنه كان يطرأ عند الممارسه الفعلية للسلطة ما يستوجب البث الآني والتدبير العاجل ، ومن ثم فان أحمد المنصور فتح لحكام السودان باب التشاور مع بعضهم ومع ذوي الرأي ممن كان يرفقهم بكل باشا عينه في تلك البلاد ، فقد رأينا أحمد المنصور يعزز قائد الحملة الأولى بأصحاب المشورة في الحرب والسلم والمفاوضة ، ووجدناه يوجه مع محمود باشا رئيساً سابقاً للوزارة محمد بن بركة ، وتتبعنا مداولات (الدواوين) التي عقدها مختلف القادة للتباحث والبث في الشؤ ون الخطيرة مثل الصلح مع الأسكيا محمد كاغ ، وطريقة معاملته بعد إعتقاله ، وإعلان الحرب على ملوك الحاووصا في الشرق ومالي ومسينا في الغرب .

ومع معرفة المنصور بأن مثل تلك الأمور تحتاج إلى التقرير السريع ، ولا يمكن الرجوع فيها إليه حيث سيقتضي الجواب عنها وقتاً قد يصل إلى شهور عديدة ، فإنه سمح لقواده أن يلجأوا إلى الشورى والاستقلال باعبار الأمور والبث

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٢ ، لقد حرص أحمد المنصور على أن يستنسخ من كتابه السياسة نسخاً وجهها إلى ولاته وكان يشدد عليهم في تطبيق ما جاء فيه في سياسة الرعايا الذين إلى نظرهم .

فيها بحسب ما يجمعون الرأي عليه ، واعتماداً على الرأي الذي يبديه المستشار السلطاني بالسودان[1] والمستشارون الإقليميون[2].

أما من وجهة المركز الإداري الذي احتلته مناطق السودان ضمن البلاد المغربية فقد خضع ذلك المركز لبعض التطور ، ولقد رأينا السلطان السعدي يعين ابنه أبا فارس عاملاً على أقاليم الجنوب قبيل فتح تيكورارين وتوات وقبل الحملة على السودان وبعد إخضاع الإقليمين الأولين أعفى ابنه من الإشراف على الإقليمين الصحراويين وجعل الشأن فيهما للجيش مع تعيين حاكم محلي برتبة قائد هو سعيد بن الحسن .

وفي الوقت الذي عين السلطان جؤذر قائداً لحملة السودان قلصت مسؤوليات الأمير أبي فارس مرة أخرى ، وأصبح مكلفاً فقط بتحصيل خراج تغازي على اعتبار أنها من أحكام قائد أقا وكتاوة[3] .

وبعد أن تم الفتح الأول على يد القائد جؤذر جعل المنصور تلك الأقاليم النائية خاضعة لسلطة ذلك القائد العسكري نفسه وكانت له مطلق الحرية في التصرف على المستوى المدني والعسكري ، وبذلك تميزت (ولاية) السودان بالطابع العسكري عن غيرها من (إيالات المغرب)[4]] ، وهكذا عرف السودان بأنه ولاية مغربية ، تمتع بنوع من اللامركزية ، وكان تابعاً بصفة مباشرة لنظر السلطان بينما كانت (الإيالات) ترجع إلى مسؤوليات الخلفاء وحكومة المخزن بمراكش .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٩

(٢) السعدي ص ٣١٧ « كان المستشار في ديني صاحب رأي وتدبير للجيش بحيث لا يخطىء رأيه الصواب »

(٣) الفشتالي ص ١٢٢

(٤) كريم ـ مصدر سابق ص ٢٣١

وبعد سنتين من فتح السودان (حول عام ١٥٩٣) وقع توزيع جديد لإيالات المغرب عامة بما فيها الأقاليم الصحراوية والسودانية المفتتحة شرقاً وغرباً وجنوباً ، فأصبحت تلك الإيالات اثنتي عشرة ، وهي مراكش وسوس ومكناسة وفاس وتامسنا ودرعة (التي كانت تمتد حتى مصب نهر السنغال) وتافيلالت ، والصحراء الشرقية (توات) ، وتيكورارين (تيمومن) ، والطوارق (الوسط الشرقي) والسودان[١] وذلك بدلاً عن الإيالات الأربع التي كان يتولاها أبناء المنصور وهي فاس وسوس ومكناسة وتادلا ، وهكذا فإن الضم الكامل للسودان حدث في عام ١٥٩٣ .

وقد كان السلطان أسند لجؤذر باشا حكم الأراضي المفتتحة فيما بين ١٥٩١ و١٥٩٣ أي خلال الفترة السابقة للتوزيع الإداري الجديد ، غير أنه أعطى في أواسط السنة الأولى أي في ١٧ غشت ١٥٩١ للقائد محمود الصلاحيات المتعلقة بالجيش بينما ظل جؤذر حاكماً عاماً يدير كل الأقاليم التي تضاف تباعاً إلى الأملاك السودانية ، فيعين من قبله حكام المدن والجهات وينصب الأمناء والموظفين ، ولم يكن هناك وضوح في توزيع السلطتين بين جؤذر ومحمود لكن بالرغم من ذلك لم يحدث أن ثار صراع بين الرجلين كما وقع بعد مقتل محمود مباشرة ، ولعل ذلك راجع إلى تعادل القوة الشخصية للرجلين وحرصهما على التعاون والتنازل المتبادل ، أو إلى القرابة الدموية بينهما[٢] .

غير أنه بعد مقتل محمود باشا في هامبوري تولى جؤذر باشا القيادة العامة إضافة إلى حكم الأرض ، وأتى بالجيش وأسكنه في جزيرة زنتا وسط النهر وجعل على رأسه الأسكيا سليمان حتى لا يتنازع القواد المغاربة على رئاسته وكان عددهم لا

---

(١) H. De Castries: S.I.H.M. FRANCE T. 2 P233

(٢) ينتسبان معاً لمدينة لاس كويفاس الاسبانية ويذهب البعض من المؤرخين إلى أنهما أخوان .

يقل عن عشرة قواد وكلهم من نفس رتبة جؤ ذر العسكرية[1]، ولعل مما يثير الاستغراب بالإضافة إلى تعيين أحد ملوك السونغاي قائداً للجيش وإبعاده عن الثكنات المخصصة له في العاصمة ، إن جؤ ذر عين كاتباً خاصاً له من بين أفراد الأسرة المالكة أيضاً ، وكان ذلك الكاتب الذي باشر بالفعل صلاحية رئيس الديوان هو الحسن بن سيدي سالم وأمه صفية بنت الأسكيا داود[2] .

وكان أكبر القواد بعد جؤ ذر آنذاك ، وأكثرهم شهرة القائد مصطفى التركي حاكم إقليم العاصمة وناظر الناحية الغربية ، ويأتي بعده في المرتبة والشهرة القائدان مامي وبختيار ، والذي نعلمه أن مامي كان حبيباً لجؤ ذر أثيراً عنده محالفاً إياه ، أما بختيار فكان ينظر نظرة الريبة والقلق إلى تصرفاته التي توحي برغبته في الإستقلال باتفاق مع السونغاي ، ولكن حظه كان سيئاً فبمجرد أن شرع في اتصاله بالقائد مصطفى التركي وببعض القادة الآخرين انكشف أمره لجؤ ذر فاستدعاه وسقاه السم[3] .

وقد بدا أن القائد مصطفى كان يعد العدة لحماية البلاد والجيش ، ورغم أوامر جؤ ذر الصارمة إليه ، فإنه كان يشحن القلاع حول تنبوكتو بالمدافع التي جلبها من الجهات ، ويوزع السرايا على الحصون والمدن القريبة من المدينة « ويظهر أنه بدا لجؤ ذر أن يقيل مصطفى وينادي بنفسه حاكماً مستقلاً في السودان »[4] ، ولكنه كان متردداً خائفاً فحاول أن يظهر للجميع أن مثل تلك الأطماع كانت بعيدة عنه « بل كانت رغبته الوحيدة أن يترك وحده ليحكم البلاد بالطريقة التي يعتقد أنها تفيد اهتمام السلطان »[5]، وعلى كل حال فإن مجيء الباشا منصور قريب السلطان

(١) السعدي ص ١٧٦
(٢) كعتو ص ١١٨
(٣) السعدي ص ١٧٧
(٤) بوفيل ص ٢٢٣
(٥) المكان السابق

ومحل ثقته التي لا تتزعزع ، وضع حداً للشكوك التي راجت آنذاك ، ويبدو أن تعليمات محددة كان يحملها الباشا منصور من المغرب ، فلم يمر إلا وقت قصير على حضوره حتى جمع الجيش وأمره بالانصياع له وحده لأن جؤذر معزول منذ قدوم محمود إلى البلاد ، ووجه جؤذر الذي لم يجد آذاناً صاغية من الجيش رسالة إلى السلطان يعرض عليه النازلة ، فأرسل السلطان جوابه وكان عبارة عن ظهير شريف يعطي الحكم في الأرض لجؤذر والحكم في الجيش لمنصور ولا يدخل أي واحد منهما في خطة الآخر ، وهكذا لأول مرة كان هناك وضوح في قضية الحكم المدني والحكم العسكري في السودان[1] .

غير أنه بقي أمر أطال من مدة الصراع بين الحاكمين ، ذلك انه بالنسبة للبلاد المفتتحة فان للحاكم المدني الحق في مباشرة سلطته على الحكام المحليين والموظفين وعلى الحاميات المقيمة ، ولكن بالنسبة للمناطق التي لا تعتبر مناطق حرب والتي يجتازها الجيش للقتال أو يرابط فيها للحرب فأي من الحاكمين له السلطة على الجيش ، ووقع نفس الاشكال فيما يخص بعض قطاعات الجيش التي كانت تقوم بالحراسة ولا تستقر في مكان معين .

لقد كاد الموضوع الأول أن يتسبب في مواجهة عسكرية بين قوات جؤذر وقوات مصطفى التركي على مقربة من غاو غداة موت الباشا محمد طابع ، ؛ فقد استلم القائد مصطفى الجيش بعد هذه الحادثة ، وأراد التوجه به الى تنبوكتو ، وما أن سار قليلا حتى لاحت قوات جؤذر الذي أمر القائد بتسليمه الجيش ، وأدى الأمر الى عقد مجلس للشورى ، فحكم القادة بأن حكم الجيش في الطريق هو لحاكم الأرض[2] ، وعندها أذعن القائد مصطفى وجثا على ركبته اليسرى تحية واذعانا ، وقد وقع حادث شبيه بذلك في حملات اخضاع المناطق الغربية فقد كان

---

(١) السعدي ص ١٧٧ وبوفيل ص ٢٢٢ .

(٢) السعدى ص ١٧٨

القائد مصطفى التركي نفسه مخيما مع جيشه في مدينة تنديرما عندما وصله أمر جؤذر بالتحرك للاغارة على بعض الجهات هووالقائد عبد الله التلمساني الذي كان يقوم بالحراسة في بلدة (ونزع) أي داخل ارض الحرب ، فاستجاب مصطفى لأمر جؤذر وتحرك بجيشه كما أمره ، ولكنه عمد الى اصدار أمر من قبله الى القائد التلمساني بالتحرك معه ، اذ لم تكن لجؤذر الصلاحية لذلك لأنه من اختصاص رئيس الجيش .

وكان جؤذر شديد الحساسية في هذا الشأن ، ولم يكن يسمح للباشا بمزاولة أي عمل خارجا عن مسؤ ولياته العسكرية ، وقد أدى ذلك الى خلافات بين القادة المحليين في الجهات الواقعة بين البلاد الممهدة وبلاد الحرب ، ولعل أدق المواقف هي تلك التي كان يشعر بها حاكم ميناء كبارا الذي كانت مؤ ن الجيش (المقدمة من موظفي الأمين) ترسل عن طريقه ، فالذي يحدد الاحتياجات يتبع لسلطة تختلف عن سلطة من يقدمها ، ويذكر المجهول أن حاكم الميناء كبارا فارما عبد الله كان يوجه ثلاث رسائل ويتلقى ثلاثة أوامر كلما اقتضى الحال توجيه شحنة من الأقوات او استلامها[1] ، ووقع خلاف كاد يضر بهيبة الدولة في الجهات الغربية بسبب التداخل بين سلطات الباشا وسلطات الحاكم المدني ، فعندما لم يقبل أي من الأمين أو القائد العسكري في جهات ديينى أخذ المسؤ ولية في شأن افراغ سفن كانت آتية من بلاد الحرب محملة بمسحوق الذهب عاد بها البحارة فتعرضت للنهب[2]

لقد كان موضوع الخلاف هذا من الجوانب التي أضعفت الحكم المغربي في فترة نشوئه ، ولم نجد أي تفسير لتردد السلطان في استدعاء جؤذر ذي الشخصية القوية بينما كان يرسل من لدنه قوادا آخرين لتولي مسؤ وليات أكبر الى جانبه ، ومهما يكن من أمر فان المنصور السعدي قد وضع حدا لتلك المعضلة عندما أمر جؤذر بالرجوع الى المغرب وأوكل الى الباشا الفتى عمار باستلام السلطتين معا في بلاد السودان في فبراير ١٥٩٩ .

---

(١) المجهول ـ تذكرة النسيان مصدر سابق ص ١٢٤
(٢) السعدي ص ١٩٧

٣) المخزن والمشور [1] :

رغم أن المدة التي يتناولها هذا البحث قصيرة ، وصرف أكثرها في معارك الفتح وحملات التهدئة والتمهيد فانها سمحت بتبلور أغلب المظاهر المخزنية التي كانت معروفة في أكبر ايالات المغرب الأخرى ، وببروز مظاهر أخرى لم تكن تعرف الا في البلاط السلطاني نفسه ، حيث كان الهدف من الأخذ بها اعطاء الهيبة للحكم المغربي وادخال الرهبة في نفوس العناصر المحكومة .

إن أول ما يجب ذكره في هذا المقام هو مقر اقامة الباشا في عاصمته تنبوكتو ، وفي المدن الكبرى التي كان يتردد عليها ولا يستقر بها الا لوقت قصير ، ولم تكن المدة التي صرفها كل من جؤذر ومحمود بالسودان تسمح باتخاذ كل مظاهر الباشوية لأن أهمية عملها في الحروب والتمهيد كانت تفوق أهمية أي عمل آخر ، ولكن بمجرد مجيء القائد منصور الذي عاش في أكناف قصر خاله احمد الذهبي بدأ العمل في بناء (المشور السعيد) وسط مدينة تنبوكتو ، فقد اختار حديقة كانت تدعى جنان جعفر وأمر بناء المشور بها واضفاء ما أمكن اضفاؤه من مظاهر القصور المغربية عليه . وكان يطلق على ذلك القصر الذي اجتهد الصناع الذين رافقوا الحملة الأولى في بنائه على النمط المغربي السوداني اسمان آخران ايضا هما (دار المخزن) و(الدار العالية) ، غير أن أغلب الباشوات المغاربة لم يسكنوا ذلك القصر بل اختاروا دورا لسكناهم داخل أو خارج القصبة لأسباب مختلفة ، ولذلك فان المشور السعيد ظل دارا لحكومة الباشا يزاول فيه سلطاته ويستقبل القادة فرادى ومجتمعين ، ويعقد فيه مجلس الديوان [2] الذي هو عبارة عن مجلس عسكري مهمته

---

(١) أعطينا تفسيرا للفظة المخزن فيما سبق ، أما المشور فهو في الواقع القاعة أو الساحة التي كان السلطان يستقبل فيها وجوه الدولة وقادة الجيش ويتعالى في جنباتها صوت (قائد المشور) قائلا : « يقول لكم سيدنا انه راض عنكم فيحيون بصوت واحد « بارك الله في عمر سيدنا » ثم ينحنون ثلاث مرات ، والتسمية جاءت من اسم ذلك القائد الذي يستأذن أي يشاور على أي شخص يريد مقابلة السلطان ، وليس من الشورى ، ومنذ عهد الدولة السعدية أصبح المشور يرادف تعبير القصر الملكي .

(٢) السعدي ص ٢٢١ و٢٢٥

مراقبة تصرفات الباشا وموافاة السلطان بما يهمه من أخبار[1] .

وحاول أكثر باشوات السودان أن يعطوا للمشور أغلب المظاهر التشريفية ، ويزودوه بالموظفين الذين يهتمون بكل ما يتعلق بالمشور ومهمات الباشا ، وكانت مراتب أولئك الموظفين كما يلي :

الكاتب : كان يتقلد في الواقع رتبة وزير فهو يشير على الباشا في مختلف الشؤون ويحضر مجالس الديوان ويكون لرأيه شأن كبير ، وهو الذي يفتح رسائل المخزن ويتفق مع الباشا فيما يقتضي الرد به عليها ، ومن بين اولئك الكتاب من شغل مناصب وزارية كمحمد بن بركة ، أو كان برتبة قائد كأحمد بن الحداد ومصطفى الفيل ، وكان السلطان هو الذي يعين الكاتب ويحدد مهمته في الاشارة على الباشا فيما يجب عمله ، غير أن جؤذر اتخذ كاتبا لم يكن من أهل المخزن هو الحسن بن سيدي سالم ، ولكن لم يلبث أن أقاله بعدما أثير من شكوك حول صنيعه ذاك .

الحاجب : لم يظهر منصب ولا مهمة الحاجب بالوضوح الذي ظهرا عليه في مراكش والعواصم الاقليمية الأخرى التي كان يحكمها أبناء السلطان ، ولكن كان هناك موظف يحمل ذلك الاسم ويلازم الباشا حتى عندما يتوجه الى المشور ، وهو محمد بن موسى الذي يبدو أنه شغل ذلك المنصب مدة طويلة[2] .

رئيس أهل الدائرة[3] : هذه التسمية لا نجدها في مناصب القصور الخليفية ، ولكنها تقابل فيها منصب رئيس القبحية الذي كان يقوم على رأس جماعة من الجنود بحفظ أبواب المشور ، وخدمة مجلس الباشا ، واعداد الكراسي ، والطواف مع الرجال بالليل على سور المشور للحراسة ، وقد ترأس أهل الدائرة في

---

(١) حركات مصدر سابق ج٢ ص ٣٧٣
(٢) المصدر السابق ص ٣٩٥
(٣) أهل الدائرة أو أهل السلسلة كعتو ص ١١٢

تنبوكتو ضابط متوسط الرتبة يسمى بالشاوش ، وكان يدخل في اختصاصه الى جانب تكفله ببريد الباشا العادي ، ترتيب الجيش عند خروجه للحرب أو في حالة استعراضه أمام سيده[1] ، وقد كان الباشوات يتخذون عسكرهم المسمى بأهل الدائرة من بين العناصر المخلصة لهم ، ولهذا فقد كانوا تارة من جند الأندلس وأخرى من جيش فاس أو درعة أو مراكش ، ولم يكن عددهم يصل الى ثمانين رجلا[2] .

قائد الرواء : يسهر على خيول الباشا وأهل دائرته ، وكانت خيول الباشوات في الغالب ذات ألوان شهباء لأنها أكثر من غيرها تحملا للمسافات البعيدة وهي جميلة الخلقة حسنة المظهر جيدة التربية[3] .

قائد المخازنية : يتولى رئاسة بضعة جنود يرافقون الباشا في حله وترحاله ، يعلنون أوامره على الجيش ويخبرونه بتحرك قطاعاته[4] .

ترمانية الدار العالية : أو القهرمانة وظيفتها الاشراف على الاماء الجواري ، وكان إلى نظرها أيضا صاحب الثياب المسؤول عن خزانة ثياب الباشا ، وعن الأدوية عندما يكون الباشا مقيما في المدينة [5] .

صاحب المخزن : وظيفته المحافظة على أموال الباشا في الدار العالية ، أما في حالة السفر فانه يحرسها عندما توضع في خزائنها على الدواب أو على قارب الباشا الذي قد يضم أيضا زوجته ان كان متزوجا وبعض المحظيات أو الوصيفات[6] .

---

(١) الفشتالي ص ٢٠٢

(٢) السعدي ص ٢٢١ ويقول المجهول بأن عدد أهل الدائرة كان لا يزيد على أربعة وأربعين وعلى رأسهم كاهية ـ تذكرة النسيان ص ٩٣

(٣) كعتو ص ١٨٣

(٤) المصدر السابق ص ١٩٦

(٥) الأفراني ـ النزهة ص ١٦٢

(٦) السعدى ص ٢٣٣ ويذكر المصدر أن أغلب الباشوات لم تكن لهم ثروات كبيرة وقد أحصيت تركة

أما مظاهر الباشوية فهي كثيرة وقد عددها صاحب تذكرة النسيان [1] كما يلي : آلات الطرب ، كالغيطة والطبل والدف والمزامير والطبل الزيداني [2] ، وكرسي العرش ، والرايات وعددها أربع وأربعون راية ، وسبحة المرجان ، والسيف المحلي بالذهب والسرج السلطاني ولجام الذهب [3] وشارة النصر التي كانت توضع على العمامة في أعلى الجبهة ، والفراش والوسائد الحريرية ، وأدوات الطبخ ومعداته التي كانت تنقل على الجمال وفي السفن .

ومن المظاهر الأخرى الحفلات والمهرجانات التي كانت تقام للباشوات في تنبوكتو وفي حالة السفر ، ففي حفلة تنصيب الباشا يذهب مع وجوه الجيش وجنود الشرف إلى المشور حيث يجلس على أريكة الباشوية ، ويتقبل تجديد البيعة للسلطان [4] من قيادات الجيش ومن السكان حسب طبقاتهم الاجتماعية ، وترفع الأكف بقراءة فاتحة القرآن ، بعد أن يقسم الجميع قسم الولاء وانتفاء الغدر [5] ، وفي اليوم التالي يجلس الباشا في الديوان فينادي قائد المشور على التجار الذين يأتون بالأموال والهدايا المفروضة عليهم ، وقد تصل إلى آلاف المثاقيل الذهبية فتتكدس أمامه ، ثم ينادي على قادة الجيش فيقدم لهم هدايا التولية فيأخذ القواد (وهم الدرجة الأولى) مبلغا من الذهب وكسوة ، ويتبعهم الكواهي كقائد أهل الدائرة أو السلسلة فشيخ الاسطبل (قائد الرواء) فأصحاب الزمام (الكتبة) ، فصاحب

أحد الباشوات فكانت موجوداتها ٤٠٠ مثقال ص ٢٦٤ ، ولكن بعض الباشوات كانوا يأخذون الأموال بدون حق ص ٢٢٢ .

(١) المجهول ـ تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ص ٩٣

(٢) طبل كبير إتخذ كشعار للباشوية ، والزيداني نسبة إلى بني زيدان أي السعديين .

(٣) كان السلطان قد أعطى للباشا جؤذر سيفا ذا غمد ذهبي عند تعيينه في منصب الباشوية فأخذه معه للسودان وكان ذلك السيف يسمى (كب بع) ولعلها تسمية سودانية ، وأهداه سرجا مذهبا أيضا كان يطلق عليه (بونضام)

(٤) السعدي ص ٢٤٧

(٥) المجهول ـ التذكرة ص ٤٧ .

المخزن ، وبعد ذلك يأتي دور الكاتب الوزير الذي يأخذ كسوة من الملف (المخمل) وشقة من السوسي (ثوب أبيض شفاف يتخذ كعمامة وبرنس) ، ثم يتقدم القاضي والحاجب اللذان يأخذان قفطانين وشقة رومية (ثوب أبيض أو ملون) من مصنوعات أوروبا ، وينادي قائد المشور في الأخير على أصحاب الموسيقى بعد أن ينهوا عزفهم وغناءهم فيصيب كل واحد منهم بعض المال [١] .

وتبدأ وفود الأقاليم بالتوارد على تنبوكتو مع هداياها من الذهب والثياب ، وتدخل تلك الوفود للسلام والمبايعة وتقديم ما جمع من تجار الجهات ويكون في مقدمة الوفود عند السلام وفد دييني [٢] .

وفي اليوم السابع للتولية يخرج الباشا للطواف بالمدينة مع ثلة من الجيش وأصحاب الموسيقى ، ويسير معه في الطواف الذي ينتهي بدخول الباشا الى القصبة القواد والكواهي راكبين صهوات خيولهم وبارزين في أحسن حللهم وأبهاها [٣] .

ويكون خروج الباشا لصلاة الجمعة الأولى في موكب رسمي كذلك ، وتعزف الموسيقى أمام باب داره أو في المشور بعد صلاة عصر ذلك اليوم .

ومن أكبر الاحتفالات التي كان يقيمها الباشا في عاصمته هي التي تسبق خروجه بالمحلة للغزو ، وعودته منها ، ومنذ ساعات الصباح الأولى يخرج البراج (المنادي) ينذب السكان إلى التجمع والاحتفال [٤] ، ويكون الطواف المصحوب بالموسيقى في الصباح إذ يخرج الباشا من المشور ، ويمر بين الجموع المودعة على جانبي موكبه ، ويسير نحو باب القصبة الجنوبي (باب البحر) حتى يصل إلى

(١) المصدر السابق ٦٠ ـ ٦١
(٢) المكان السابق
(٣) المصدر اسابق ص ٧٩
(٤) كعتوص ٤٩

مضارب جيشه ، وبعد تناول طعام الغداء تنزل الأقبية وتشد الرحال إلى الجهة المعينة ، وعندما يرتفع غبار الجيش بالقرب من تنبوكتو ترعد المدافع تحية للموكب الباشوي [1] فترفع مقدمة الجيش العلم الأبيض الكبير الذي هو شعار الدولة ، وتتعالى دقات الطبل الزيداني وبقية الطبول متجاوبة مع أنغام الغيطات والطرنبات [2] ، ويسير الموكب في طريقه ، وكلما وصل إلى مدينة أو تجمع سكاني صدحت الموسيقى وأخرجت بعض طلقات البنادق إشعارا بهيبة المخزن وسطوة الباشا .

وتكون خيمة الباشا متميزة عن غيرها بالكبر والنقوش أو الأصباغ ، وتنصب في وسط المعسكر تحيط بها أقبية قطاعات مع ضباطها ، وتلحق بها بعض الخيام للحاشية وأرباب الدائرة والخدم والنساء ، ويسهر الباشا مع بعض ضباطه في الاستماع إلى سرد صحيح البخارى أو في المذاكرة ، والسمر وهي عادة إتبعها المنصور وولاته في الجهات في حالة أسفارهم [3] .

ويوم عودة الباشا مع محلته من الحركة (الحملة) يدخل المدينة وفق الترتيب الذي سار عليه في الخروج ، بعد أن يكون (صاحب المخزن) ، قد وصل إلى المدينة مع أموال الباشا وخزائنه وأطلق البشرى بقرب حلول سيده [4] ، ولا يكون هناك طواف بالمدينة عندما لا يعود الباشا مع جيشه (وقد وقع ذلك بعد موت محمود ومنصور وطابع) أو عندما يصاب الجيش بنكسة أو لا يحصل في حركته على طائل [5] .

ورغم مهام الباشوية ومسؤ ولياتها المعقدة فان الباشوات السبعة الذين

---

(١) الفشتالي ص ١١٣

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤ ، الطرنبات هي جعاب صفرية على مقدار النفير

(٣) المصدر السابق ١١٣

(٤) المجهول ، التذكرة ص ٩٦

(٥) السعدى ص ٢٩٠

تقلدوا حكم السودان في الفترة التي تهمنا لم يفرطوا كما سنرى في الواجبات التي يفرضها المنصب السامي الذي إحتلوه حتى لو كان ذلك على حساب بعض المهام الأخرى الأكثر إلحاحا ، فتأدية صلوات الجمع والأعياد ، وقراءة الصحيحين (البخاري ومسلم) في الأشهر الحرم وفي شهر رمضان خاصة ، وختم القرآن ، وحضور حفلات الذكر ، وذبح أضحية عيد النحر واقامة صلوات الاستسقاء والخوف والشكر كانت من الأمور المرعية والأكيدة .

ولما كانت مهمة الباشا الأولى هي تمهيد البلاد واقرار دعائم الحكم المغربي بها ونشر الأمن بين سكانها سعيا وراء بلوغ الأهداف المتوخاة في الميدانين الاقتصادي والحضاري [١] فقد أخذ أغلب الباشوات أنفسهم وجيشهم وموظفيهم بما تقتضيه الظروف من الحزم وسديد الرأي وجميل التدبير ، وساروا في إدارتهم وفي سياسة رعية السلطان سيرا حمده لهم من عاصرهم من مؤ رخي السودان وكتابه [٢] .

٤) أساكي تنبوكتو [٣] .

من الواضح أن خطة المنصور في السودان كانت تقضي بالابقاء على الهياكل

---

(١) كريم ص ١٦٩

(٢) السعدي ص ١٧٧ و ١٩٠ و ٢٣١ وكعتو ص ١٨١ و ١٨٣ ، والمجهول في التذكرة ص ٨٠ .

(٣) في السنوات الأولى من الحكم المغربي كان بالسودان كرسيان للملك ، أحدهما في غابات دندى يحمل راية المقاومة ، والثاني في تنبوكتو يقر بسلطة المغاربة ، ويقبل بالبيعة للسلطان السعدي ويحتفظ بكل مظاهر الملك التي كانت للأساكي قبل الفتح المغربي ، ويميز المؤ رخون بين الملكين بتسمية الأول باسكيا دندى والثاني باسكيا تنبوكتو ، ويذكر السعدي ان الأسكيا نوح عزله السونغاي بعد أن مكث سبع سنوات في الملك فهام على وجهه في مجاهل افريقيا ، وتولى بعده الأسكيا مصطفى الذي ثار عليه أخوه محمد وعزله ، ثم لم يلبث أن هرب حين قامت ضده ثورة وظل الحال على هذا المنوال عدة سنوات تقلب فيها في الملك أربعة عشر أسكيا آخرون ، وقد كان الأساكي يتخذون من بعض القرى داخل الغابات عواصم لهم ، وتفشت فيهم الأمراض وعم الغلاء ، وقد إنمحى ملك أساكي دندى في بداية القرن ١٧ حين قدم أحد الأساكي لطلب العون ضد أخيه الثائر عليه فاستطاع الجيش أن يضع حدا لتلك المملكة بكيفية نهائية .

التقليدية للأمبراطورية السونغائية وللمهالك والسلطنـات التـي كانـت قائمـة في الشرق والغرب ، مع ضمان ولائها للمغرب ، وتقبلها للادارة والقانون المغربي ، وربما كان تفكير السلطان السعدى ينصرف إلى تنصيب ولد كزنفيل أو على بن داود الذي إلتجأ إلى مراكش قبل الحملة في منصب الأسكيا الموالي للمغرب ، وقد قدمنا الأسباب والملابسات التي أدت إلى إلغاء ذلك الاختيار والتفكير في شخصية أخرى تتوفر فيها من الشروط ما يجعلها تحوز فعلا على تقدير واعتبار قبائل السونغاي ، وبالرغم من أن محمود باشا كان منصرفا بكليته إلى حرب عدوه الأول الأسكيا محمد كاغ فانه إستطاع أن يربط أوثق الصلات باثنين من أمراء السونغاى أحدهما بكر لنبارو الذي سبق له أن شغل منصب اسكيا في قومه وبكر كلشاعو أحد قواد محمد كاغ ، وكان محمود متحيرا في إختيار أحدهما ، ويبدو انه أدرك في وقت مبكر بأن الاسكيا السابق لنبارو تشير إليه أصابع الاتهام بموالاة المغاربة والتعامل معهم ضد بني قومه ، ومن أجل ذلك فقد إقتنـع بأن إختيار هذا الشـخص ليس موفقـا ، وبالرغم من ذلك فقد ظل يمنيه بالملك حتى تمكن بواسطته من إعتقال الأسكيا محمد كاغ وقواده وعندها لفظه لفظ النواة ، أما الأمير بكر كلشاعو فقد إعتذر عن قبول المنصب مدعيا انه غير مؤهل له ، لكن الواقع انه كان يعرف بالمخابرات الجارية بين الباشا محمود والأمير سليمان ، ويعرف أيضا أنه في حالة القبول فسوف لا يكون مناص من عزله لاعطاء منصب الأسكيا لمن يستحقه .

والأمر الذي لا شك فيه هو أن الأمير سليمان كان من أشجع وأذكى أبنـاء داود ، ومنذ هزيمة الأسكيا إسحاق أمام جؤذر كان على يقين من أن خير وسيلة لمنع إنهيار دولة السونغاى ، والابقاء على الكلمة المسموعة للاساكي في تلك القبائل هي مهادنة المغاربة ، والوصول معهم إلى حل وسط ، وقد قام بمبادرة شخصية عندما كان على رأس فرقة الفولانيين في بلاد الحاووصا أراد أن يظهر بهـا حسـن نواياه للمغاربة ، ذلك أنه أبلغ بتفشي المجاعة والأمراض في جيش محمود واقتراب ما في

حوزته من المؤ ن من النفاد ، فسارع إلى حصد الذرة البيضاء وبعثها للجيش المغربي [1] ، وتسبب هذا الحادث بالاضافة إلى تزايد الاشاعات حول خطط الأمير سليمان في أن يجرد محمد كاغ حملة ضده وضد فرقته من الفولانيين فادى ذلك إلى إلتجاء سليمان لمعسكر المغاربة .

وكان الأمير في مضارب الجيش حين كانت المفاوضات جارية مع الأسكيا محمد كاغ ، ولعله كان وراء حادث القاء القبض عليه ، ويذكر السعدى أن الباشا كان يخفيه أو يعتقله [2] ولا يعلم به أحد حتى من المقربين إليه ، وبعد مرور عشرة أيام على صرف محمد كاغ إلى جؤ ذر في غاو أعلن محمود عن وجوده ، وأقام له حفلة تنصيب على طريقة السونغاى ، فقد نادى المنادي في القرى المجاورة ليحضر سكانها ذلك الحفل ، وجلس الأسكيا الجديد على أريكة من المخمل الأحمر ، وضرب له الطبل ، وأفرغ الرماة رصاص بنادقهم في الهواء بينما كانت فرقة من العبيد ترقص وتغني ، ثم سار الأسكيا المغربي مع الحملة حين عادت إلى تنبوكتو [3] ، ودخل إلى المدينة على صهوة جواده ومشى خلفه كبار ضباط الجيش المغربي ، فطاف في الأحياء ثم إتجه إلى المشور حيث أجلس على العرش الرسمي هناك [4] ، ولم يتخلف أحد من سونغاي الموجودين بتنبوكتو عن بيعته ، ولكن الأسكيا سليمان لم يلبس العمامة الخضراء ولا البردة ولا السيف كما فعل من سبقوه لأن تلك الأشياء التي سبق للخليفة العباسي أن قدمها للأسكيا الحاج [5] محمد ظلت مخبؤة في إحدى قرى بلاد دندى ، وكما جرت العوائد ، فقد خطب القاضي يوم الجمعة ودعا

---

(١) السعدى ص ١٥٠
(٢) السعدى مصدر سابق ص ١٥٢ و ١٦٥
(٣) المجهول ـ التذكرة ص ١٨٤
(٤) المصدر السابق ص ١٤٧
(٥) د. عبد القادر زبادية « مملكة سونغاى في عهد الأسقيين» الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٧١ ص ٦٣

للسلطان ثم للأسكيا سليمان [1] متولي أمر قبائل السودان وسيدها وناصر الاسلام والمجاهد في سبيل الله وقاهر الأعداء ، وفي مساء ذلك اليوم طافت فرقة الموسيقى بالأحياء ، وتقاطر الفقراء على المشور السعيد لأخذ الصدقات من الأسكيا الجديد كالعادة [2] .

بدأ سليمان يزاول سلطاته ومسؤ ولياته في النطاق المتفق عليه مع الباشا ، فعين بحضوره ومع مباركته بكركلشاعو في منصب بنكافارما (حاكم بنكا) وهي في الجهة الغربية ، وبكر كنبوبن بن يعقوب كارمن قارى (والى كورما) في غرب غاو ، وقد إتجه الحاكمان لتحصيل واجبات الأسكيا من الاقليمين ولحشد التأييد له [3] ثم قسمت العطايا والأموال بعد رجوعهما على جيشه الصغير [4] .

وكان جيش الأسكيا سليمان لا يزيد عدده عن العشرات ثم توالى عليه شباب السونغاى وانضموا إليه تباعا ، وقد خرج إلى الحرب مع الباشا محمود لأول مرة ، وخاض معه معارك هنبورى ضد الوثنيين وعندما قتل الباشا تولى قيادة الجيش بأكمله وعاد به إلى تنبوكتو ، فأبقاه جؤ ذر على رأس تلك القيادة حتى مجيء الباشا منصور ، وسار الأسكيا إلى معركة هنبورى الثانية مع الباشا الجديد وكان بلاؤ ه وبلاء رجاله مرموقا ، وقد جازاه منصور بأن ترك له جميع الغنائم والسبي وكانت قيمتها وأعدادها كبيرة فتقوى بها الأسكيا على تسيير شؤ ون بلاطه ودفع رواتب جنوده وموظفيه [5] ، وظل سليمان محافظا على تقاليد أبيه داود وأجداده فلم يستعمل السلاح الناري قط بل كان يحمل الترس ويملأ يده بالحريش ، ويتقدم الصفوف في

---

(١) كعتو ص ١٣١
(٢) زبادية ـ مصدر سابق ص ٦٣
(٣) السعدى ص ٣١٠
(٤) كعتو ص ١٣٥
(٥) السعدى ص ١٧٦

المعارك على الرغم من تقدم السن به ، أما قواده فقد بلغوا الغاية في النجدة والشجاعة ، ويذكر السعدى أن بكر كلشاعو الذي أصبح وزيرا للأسكيا (كالا) أجهز على الاعداء في بعض المواقع فأصيب حصانه تحته بسهم وخر صريعا ، فواصل الوزير المعركة على القدمين ، فتقدم منه مخزني مغربي (أحد خدام الباشا) ، وقدم له حصانه فامتنع عن ركوب الحصان خوف المعرة والفضيحة [1] لأن القائد لا يمكن أن يركب حصان خادم .

وقد فرض الأسكيا التجنيد الاجباري على السونغاى كما فعل جده الحاج محمد ، وكان يقود جيشه بنفسه ، ويعطي أهمية قصوى للعبيد الذين إرتقوا في المناصب ـ بتشجيع من المغاربة ـ وأصبح منه ضباط وقادة كبار ، وسار كذلك على منوال والده في تنظيم الجيش ، فكانت فرق السونغاى هي الخيالة الذين لا يشاركون مشاركة مباشرة في الحرب لانتسابهم إلى الطبقة النبيلة وكانوا يحملون الرماح الطويلة المزخرفة والفرسان : الذين كانوا يلبسون القلانس الحديدية وفوقها العمائم البيضاء ، وسلاحهم القوس الحديدي أو الحربة ، والمشاة وأغلبهم من العبيد وكان سلاحهم الحرشان الصغيرة المسمومة .

وكان الأسكيا يمتلك اسطولا من السفن النهرية التي يستخدمها في تجارته كما يستخدمها في نقل المؤ ن لجيشه ، وهي سفن سودانية طويلة ضامرة تستعمل المجاذيف [2] ، وأثناء المعارك كان جيش الأسكيا يتميز عن الجيش المغربي بحركته السريعة وصوت الطبول الرتيب وصيحات الجنود [3] .

ولا شك أن الأسكيا سليمان بن داود كان مخلصا في تعاونه مع باشوات

---

(١) السعدى ص ١٨٠

(٢) زبادية ص ٧٠

(٣) المكان السابق

السودان ، وقد أدى ذلك إلى توسيع سلطاته ومجالات نفوذه التقليدي بمرور الزمن ، واستطاع في ايالة الباشا محمود طابع أن يعين إلى جانبه الأمير هارون بن الأسكيا الحاج محمد في منصب بلمعو (أمين عام للملكة) ، وقد بقي ذلك الأمين في منصبه إلى عام ١٦٠٤ [١] .

ولا نعتقد أن الأسكيا سليمان كان بالفعل مطلق التصرف كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين [٢] ، فهو لم يكن يحكم الأقاليم إلا بصفة رمزية ، فلا يقتضي زكواة ولا خراجا ولا يحل أو يربط إلا بمشورة الباشا وتقريره ، ولم يكن يعين سلاطين الغرب أو يتلقى طاعتهم وشكاواهم [٣] ، ولم تكن له أملاك ولا مزارع ولا خزائن مال كما كان الشأن في السابق [٤] ، غير أن رفع التراب على الرأس إظهارا للاحترام أمامه ، والاستئذان قبل الدخول عليه ووقوف الجنود منتبهين ورافعين لبنادقهم عند مروره ، ظلت من مظاهر التقدير والتعظيم للأسكيا باستمرار [٥] وكان الباشا إذا هم بمكاتبة حكام الجهات يوجه الخطاب باسمه واسم الأسكيا معا [٦] .

أما مظاهر البلاط الزنجي فقد إستمرت كما كانت في السابق ، فمنزل الأسكيا في تنبوكتو يطلق عليه القصر ، ولا يدخله الزوار أو أصحاب القضايا إلا بعد المرور على المشاورى (صاحب الباب) ، ويحتوي القصر على قاعة لاجتماع المعاونين والضيوف ولاقامة الحفلات في الليل للطرب أو للمذاكرة والسمر [٧] وفي

---

(١) السعدى ص ٣١٠
(٢) كريم ص ١٦٦
(٣) السعدى ص ١٨٧
(٤) كعتو ص ٩٤
(٥) المصدر السابق ص ١٦٦
(٦) المصدر السابق ص ٢٧٢
(٧) المصدر السابق ص ٨٥

تلك الحفلات يستمع الأسكيا أثناء تناول العشاء وبعده إلى المغنين أو المداحين .

وكان جيش الأسكيا إذا ذهب لحرب أو سفر تسبقه الطبول التي تنطلق دقاتها طيلة الطريق وعندما يقترب الموكب من مدينة فانها تتوقف ولا يسمع الا صوت طبل الأسكيا وحده [1] ، واذا سار الأسكيا في النهر دوت الدفوف ورفرفت الاعلام ، ويكون يوم عودة الأسكيا لقاعدة ملكه في تنبوكتو يوم عيد فيأتي الناس للسلام عليه ويأكلون ويشربون ويدعون له ، وفي الغد يقصد إلى دار الباشا والقاضي للسلام عليهما ثم يدخل على الفقهاء في المسجد ويفرق الصدقات والحلوى على الفقراء والأطفال ، ويعود لتقبل سلام التجار والضباط المغاربة وهداياهم ، ولا يقف لتحيتهم كما لا يترك أحدا يقاسمه سريره [2] .

وقد تغيرت ملابس الأسكيا وأولاده وأصبحت من حيث النوع والهيأة قريبة الى اللباس المغربي ، وأضحى القفطان والمنصورية[3] عدة لباس الأسكيا ويصنعها له خياطو تنبوكتو[4] ، أما أبناء الأسكيا فكانوا يلبسون القلانس الشبيهة بما كان يلبسه ضباط الجيش المغربي[5] ، ولم تكن ملابس الأمين العام للمملكة (بلمعو) تختلف كثيرا عن ملابس سيده باستثناء قميص من السوسي الأخضر هو ثوب شفاف يضعه فوق قفطانه ، وسيف يتقلده وحزام من الجلد حول خصره ، وفي حالة الحرب كان يلبس درعا من الحديد وعليه شعار من الذهب أو النحاس [6] ، وكانت البرانس هي لباس حرس الاسكيا الخاص المسمى (سوما) الذي يفسح للاسكيا

---

(١) المصدر السابق ٧٩

(٢) كعتو ص ١١٤

(٣) نسبة إلى المنصور السعدى ولا زالت معروفة إلى اليوم بهذا الاسم .

(٤) المصدر السابق ١١٣

(٥) المصدر السابق ص ١٣٥

(٦) المصدر السابق ص ١٢٨ .

عند دخوله وخروجه ، والبرانس عبارة عن رداء بربري قديم[١] .

ولقد توفي الأسكيا سليمان في شهر يوليو ١٦٠٤ حينما كان يتفقد رعيته في احدى القرى القريبة من تنبوكتو ، وأرسل الباشا قاضي المدينة محمد بن أحمد بن عبد الرحمان ، فعاد بجثته ، وقام بتجهيزها ودفنها في مسجد سكوري ، وقد خلفه في متصب الأسكيا هارون بن الأسكيا الحاج[٢] .

وبقي أساكي تنبوكتو يزاولون مهامهم كمملوك للسونغاي ، وذكر منهم صاحب تذكرة النسيان ستة عشر أسكيا الى نهاية حياته حول عام ١٧٤٨ وقدم تراجمهم وأعمالهم[٣] .

٥) الجيش :

كان الجيش المغربي في السودان خلال السنتين الأوليين مكونا من أغلبية أندلسية وعلجية (نصارى من مختلف الأجناس) ومن فرقة من عرب الصحراء كانت تعد ألفا وخمسمائة جندي على رأسها القائد العربي الوحيد في السودان آنذاك احمد بن الحداد ، ولاسباب عرضنا لها في مواضعها بدأ استبدال تلك الفرق منذ عام ١٥٩٢ بتشكيلات مغربية خالصة اختيرت عناصرها من ماسة وحاحة وشراكة

---

(١) السعدى ص ١١٦

(٢) المصدر السابق ص ٣١٠ Jouranal

(٣) Rene caille - d'un voyage a Tombouctou et a Dienne ،Dans l'Afrique centrale Paris 1965 T. 2

ذكر أن الحاكم الزنجي (الأسكيا) عند رحلته الى تنبوكتو سنة ١٨٢٨ كان اسمه عثمان وكانت ملابسه مثل ملابس المغاربة ، لا يأخذ الضرائب من الشعب ولكن يتقبل الهدايا ، وكان عادلا لا يخاف في الحق لومة لائم ، ويذهب الى الحرب مع شعبه وله مجلس شيوخ يحضره رئيس المغاربة عبد الله الذي لا يقل مركزه عن مركز الملك وكان عبد الله يلبس ملابس مغربية مع طربوش وعمامة وخفين مغربيين (ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨)

وعرب الجنوب ، والمصامدة وبربر الأطلس سعيا في اراحة العساكر المنهكة ، وفي زيادة العنصر الوطني في الجنود لتأمين وترسيخ العلاقة بين الجندي وبلاده وعشيرته ، وأبعاده عن أي تفكير في الانفصال والاستقلال .

ومع استمرار عملية الاستبدال أصبح تفوق العنصر الوطني يفرض نفسه وأدى الحال الى اعادة بناء تشكيلات الجيش وفق معطيات جديدة .

ورغبة من الباشا سليمان في ألا يتهم بالتحيز أو الحيف ، فقد أوكل للأمين الحسن بن الزبير أمر اعادة تنظيم الجيش الذي أصبح على النحو الآتي :

- سرية أهل فاس : وتضم شراكة وجشم والمصامدة وبربر الأطلس المتوسط وتعطى إليها الأسبقية على غيرها من الفرق حيث يكون وقوفها أو تحركها او انتظامها للقتال على جهة اليمين .

- سرية أهل مراكش : وتضم حاحا ، وماسة وعرب المعقل وتأتي بعد الأولى في الرتبة ويكون مكانها على اليسار .

- سرية العلوج : وتضم خيالة الاصبايحية وتقف على يمين قلب الجيش .

- سرية الأندلسيين من الفرسان والرماة والراجلين وموقعها في يسار القلب .

ويكون لكل سرية لباسها المتميز بلونه مع سراويل فضفاضة متشابهة .

ويقود كل سرية من الأربع قائد برتبة كاهية اذ تكون للباشا وهو برتبة قائد مسؤ ولية القيادة العامة لتلك الفرق كلها ، وقد عين الأمين الحسن سليمان العرفاوي كاهية لأهل فاس وحدو بن يوسف الاجناسي كاهية لأهل مراكش ، وتأخر تعيين الكاهيتين الآخرين لبعض الوقت[1] ، وكان يساعد الكاهية في قيادة

(١) السعدي ص ١٩٣ ويورد المجهول اسم كاهيتين تقلدا قيادة سريتي العلوج والأندلسيين بعد ذلك هما محمد مراد بن عمر وأحمد بن الفا منصور ص ١٠٨

ضباط من ثلاث رتب هي ضباش (أو دباشي أو قبطان) وباشوظ (ملازم) وشراق غنبر (عريف)[1] .

وقد أحدثت فرقة أخرى كانت تضم العبيد فقط دعيت (لوغا) أو (الغاط) ، ويختار الباشا عادة رئيس تلك الفرقة من بين شيوخ السونغاي ونعرف اسما واحداً من بين أسماء أولئك الرؤساء وهو الشيخ (بوركند) ، كما نعرف أن تلك الفرقة نصب لها حاكم يدعى ابا الخير كان ضليعا في الأعراف القبلية ويقضي بين أفراد الفرقة فيما شجر بينهم ، كما كان الجيش الى جانب ذلك يضم فرقا صغيرة تتكفل بالاسناد والمؤ ن والهندسة والتمريض والتكشيف والارشاد الديني وكان على رأسها ضابط برتبة كاهية[2] .

ويكون خروج الجيش لحرب أو تهدئة في هيأة (محلة)[3] ، ويشرع قائد المحلة في الاستعداد والتجهيز ، فيجمع الزاد وينظف السلاح ، ويتفقد الخيول ، ويصلح الأقبية والخيام ، وقبل خروج المحلة بتسعة أيام تنقل الخيام الى خارج المدينة وتنصب هناك[4] ، وبعد فجر اليوم الذي يحدد للخروج الى معسكر المحلة في ظاهر المدينة يوكل لصاحب الطرنبيطة بالنفخ في آليته من على سطح المشور ، فيتسارع الجنود للحضور ويسجلون اسماءهم لدى الأمين ثم يأخذون رواتبهم وكسوتهم ويغادرون تنبوكتو في اتجاه المعسكر[5] ويعود جنود المحلة مع ضباطهم الى المدينة في اليوم الذي يزمعون على السفر فيطوفون في احيائها ، ويتجمع السكان

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ٢٣ و٢٤

(٢) المصدر السابق ص ١٤ و١٠٥ و١٤٠

(٣) يطلق اسم المحلة على الجيش في حالة تحركه لحرب أو غيرها مع خيامه وخيوله وسلاحه ومؤ نه ، واذا قل عدد الجيش على خمسمائة فرد لا يسمى محلة بل تطلق عليه تسمية تجريدة أو كوكبة أو سرب أو جند .

(٤) المجهول ـ تذكرة ص ١٠٩

(٥) المصدر السابق ص ١٢٦ ـ ١٢٧

لمشاهدتهم وتحيتهم على اختلاف طبقاتهم ، حيث يقفون ساطين على جانبي الطريق الذي يسلكه الجند أو يعتلون أسطحة المنازل حيث تقف النسوة أيضا لتحية المحلة[1] ويخرج الباشا وقت وصول الاستعراض الى باب المشور فيرفع يده بالتحية اذا كان الجيش سيسافر بدونه أو ينضم الى الاستعراض في مقدمته اذا كان الباشا سيتولى قيادة المحلة في سفرتها تلك ، وفي هذه الحالة الأخيرة يبرز العلم الأبيض ليتوسط بقية أعلام المحلة[2] ، ولا تشارك فرقة العبيد (لوغا) في الطواف بالمدينة ، بل تنتظر وصول المحلة في مكان بعيد عنها وتنضم اليها هناك ثم ان تلك الفرقة لا تسير كلها الى الحرب مع الجيش بل يقتصر الأمر فقط على أهل (بـرا) و(كيسو) والفولانيين (الفولبيه) أي على العناصر السودانية الغربية[3] ، أما السونغاي فهم عماد جيش الأسكيا وحده .

ويكون رجوع المحلة على نفس الترتيب السابق في الاراحة خارج المدينة ، ثم في الدخول اليها والطواف باحيائها ، وتظهر أولى طلائع الجيش من باب البحر (النهر) يتقدمها قائد المحلة الباشا أو غيره ، ثم تسير باتجاه الأحياء الوسطى الى أن تصل الى المشور فتتلقى تحية الباشا ان كان متخلفا عن السفر وتكون التحية برفع اليد اليمنى وبالقول « الحمد لله على سلامتكم »[4] أو تودع الباشا ان كان قد عاد معها ، وتسير بعد ذلك الى القصبة ، ويستمر الطواف ساعة أو أكثر ، ويزيد من حماسة الجماهير وزغاريد النساء ان كان الجيش قد عاد من الحملة سالما غانما[5] .

وقد قدمنا أن الجيش عندما يخرج في المحلة كان يأخذ معه الزاد والأقوات من

---

(١) الفشتالي ص ١٣٠

(٢) الافراني ـ النزهة ص ١٩٨ ـ ١٩٩

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ١٠٥

(٤) المصدر السابق ص ٤٩

(٥) المصدر السابق ص ٢٤

أهل تنبوكتو على يد الأمين ، ولكن عندما تصل المحلة الى مدينة أو قرية ، يضرب خيامه خارجها ، فيخرج له سكانها بالطعام والشراب ويسمى ذلك بالضيافة التي هي ضريبة واجبة على سكان المراكز السكنية[1] ، أما في أرض الحرب والجهاد (أي في بلاد الوثنيين) ، فإن الجيش يتدبر أمر الحصول على قوته بالقوة ، وقد حدث مرة أن سكان بعض أراضي الحرب في منطقة هنبوري هربوا بالأقوات والأعلاف فاضطر أفراد الجيش أمام عجزه عن تحصيلها الى بيع نياشينهم ودوابهم وخواتيمهم وتهاليلهم وصدرياتهم الى بعض الوسطاء مقابل الحصول على الطعام[2] .

وكان يطلق على معارك الجيش أسماء سودانية ترمز الى احد اسماء الأمراض أو الكوارث أو جهنم أو تأخذ مكان الموضع الذي وقعت فيه ، فمعركة تنديبى بين جؤ ذر والأسكيا اسحاق سميت بيوم (سونيكا) ، وأول معركة بين محمود والأسكيا نوح سميت بيوم (وامى) أما يوم أسر الأسكيا محمد كاغ فكان يطلق عليه عند السودانيين يوم تنش[3] .

ولم يكن الجيش باستثناء القائد وكبار ضباطه يعلم بالمكان الذي يقصده أو المهمة التي سيخرج لأدائها ، وكانت تلك السرية ضرورية من الناحية النفسية والعسكرية اذ أن أخذ العدو على غرة كان يحمل في طياته الكثير من المكاسب[4] وقبل أن يصل الجيش الى المكان المحدد للمعركة كانت توضع الأحمال وتنصب الخيام ويخرج الجنود للحرب سائرين فوق دوابهم أو على أرجلهم مسافة طويلة[5] ، وكان الهدف من ذلك هو تجنب اعطاء الفرصة للعدو ليحرق الخيام أو

---

(١) السعدي ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٣ ، كلمة التهليل الواردة في هذه الفقرة هي عبارة عن علبة مزخرفة متخذة من الفضة أو الذهب توضع داخلها آيات قرآنية أو أوراد وتحمل على الكتف بواسطة حبل حريري .

(٣) كعتو ص ١٦٩

(٤) السعدي ص ٢٦١

(٥) المجهول ـ تذكرة ص ١٢٧

يعبث بخزائن البارود .

ولقد كان لبس الحزام الجلدي الذي تتعلق به علبة البـارود ، وآنية الماء ، والخنجر الصغير ، يرمز الى اقتراب وقت المعركة[1] ، وحـال انتهاء الجنـود من (التحزم) يصطفون مثنى أو ثلاث أو رباع ، فأهل فاس وراء كاهيتهم ورايتهم على اليمين ، وعلى يسارهم العلوج ثم الاندلسيون ثم المراكشيون ، وعند انتهاء الصفوف من الخلف يقف الأسكيا مع جيشه على اليمين واللوغا الى اليسار منه[2] ، وخلف تلك الجموع كلها ينصب المدفعيون مدافعهم ويصوبونها الى الجهـة التـي يفترض أن العدو سيبادر الى الهجوم منها .

كان سلاح الجيش المغربي يتكون من البنادق الطويلة ، والمهاريس والمدافع الثقيلة التي كانت تحمل الى السفن وتجر بالسلاسل[3] وأغلبهـا كان يصنـع بدار العدة (السلاح) في مراكش[4] ، وكانت صناديق البارود والكبـريت تجلـب من مختلف جهـات المغــرب وتحملهــا القوافــل من الشمال ، بينما كان الحــدادون السودانيـون يصنعون الكرات الحديدية في الأفران التـي يستخـدم فيهـا الفحـم الخشبي في تنبوكتو خاصة ، ويسير بعضهم مع المحلة لاصلاح جعاب البنادق التي تصـاب بالالتـواء والتشقـق بعـد طول استعمالهـا ، واستخـدم المغاربـة السيوف والخناجر القصيرة المستقيمة ، والمقالع الحجرية أو التي ترمـي بكرات الحـديد ، والظاهر أن استخدام المدافع كانت له آثار نفسية عميقة أكثر ممـا كان حاسما في المعارك ، وعلى العكس من ذلك فان توفر المغاربة على تلك الأدوات القتالية سهل عليهم تحطيم قلاع السونغاي واستلحامها[5] .

---

(١) يقال تحزم الجيش أي استعد للحرب (المصدر السابق ص ١٠٨)
(٢) المكان السابق
(٣) المصدر السابق ص ١٢
(٤) حركات مصدر سابق ج٢ ص ٢١٠
(٥) المجهول ـ تذكرة ص ١٢

وكان الأسطول النهري الذي تكاثرت قطعه منذ تعويم أوائل سفنه في النهر في شهر غشت ١٥٩١ ، يلعب أهم دور في نقل الجنود والمؤن والمدافع ، وفي حصار المدن ، ومنع الجيوش المعادية من التنقل بين ضفتي النهر ، وقد كان الاهتمام بالأسطول في عهد محمود باشا يرجع الى الضرورة كما يرجع الى هواية ذلك الرجل وتعلقه الشخصي باستخدام السفن لأنه كان في وقت من الأوقات القائد العام لأسطول المنصور السعدى[١] ، وقد تأكد أن « فاعلية هذا الأسطول قد برزت بصفة خاصة عند الفتح المغربي للسودان وذلك لصعوبة التنقل وحمل آلات الحرب والقتال في البر ، فاستغلت القوات الفاتحة نهر النيجر لنقل القوات والعتاد وللتوغل بعيدا في أقصى مناطق بلاد السودان وفرض سلطان المنصور عليها »[٢] .

وعلى الرغم من كبر قطع الأسطول النهري وضخامة شكلها فانها كانت تجري بشكل مستحكم في غمار المياه بخلاف سفن الاسكيا[٣] ، وقد ساعدها اتساع مياه النيجر وعمقها واستقامتها لمسافة ألف ميل من تأدية مهماتها على أحسن الوجوه[٤] ، والصعوبات الوحيدة التي كانت تصادفها هي تكاثر نبات اليورجو حول بعض الجزر ووجود مساقط قوية جنوب غاو ، وظهور بعض الأدرع النهرية[٥] التي كانت تلوذ بها القوارب الصغيرة المعادية ، وفي مثل هذه الأحوال كان المغاربة يستعينون بالقوارب الجلدية التي يخيطها الصناع المحليون[٦] ، وبالملاحين المهرة من أبناء السونغاي[٧] .

---

(١) احمد بن القاضي درة الحجال في غرر اسماء الرجال ـ تحقيق علوش/ الرباط ١٩٣٤ رقم ٨٥٨
(٢) كريم ـ مصدر سابق ص ٢٤٤
(٣) الفشتالي ـ مصدر سابق ص ١٥٢
(٤) بوفيل ص ١٣١
(٥) المكان السابق
(٦) السعدي ص ١٦٢
(٧) المصدر السابق ص ١٥٢

وكانت السفن تحمل المئات من المقاتلين ، وقد نقلت في احدى المرات محلة بأكملها على ظهر السفن وكانت تضم الرماة والعرب والتوارك والعبيد ، وأنزلت في مرفأ قريب من مكان المعركة[1] ، وفي مرة أخرى حملت السفن وحدها محلة كانت تضم سرية الفاسيين بلغ عدد أفرادها ٧٧٥ راميا يركبون ٦٢ قاربا ، وكانت مهمة المحلة هي مرافقة قافلة من أربعين سفينة محملة بالملح[2] كان يفترض أنها ستحمل بسحوق الذهب من بلاد مالي حين العودة .

ومن بين المهمات الأخرى التي نهض بها الأسطول غير ما ذكرناه نقل البريد وإيصال المدد للحصون والحاميات الموزعة على طول نهر النيجر وتأمين الطريق النهري في وجه التجارة[3] وكان عدد البحارة المغاربة الذين يقطعون النهر ذهابا وجيئة في سفر قد يستغرق أسابيع كثيرة يبلغ في بعض الأحيان ٢,٠٠٠ جندي[4] ، وقد دأب القواد الذين قادوا تلك السفن على اصطحاب النافخين بالغيطة التي كانت ألحانها الشجية تتردد فيا وراء النهر وقت الحرب والسلم معاً[5] .

والى جانب ما قام به الجيشان البري والنهري ، تبرز مهمة أخرى كانا يضطلعان بها أيضا وهي حراسة ثغور البلاد السودانية بشكل دائم وحياطتها بالأمن والطمأنينة ، وقد نهضت بذلك القصبات في المدن والحاميات في القرى والمرافىء والثغور ، ودوريات الحراسة التي كانت مهمتها قطع المسافات الطويلة لنشر الطاعة في مختلف الجهات والبحث عن قطاع الطرق .

لقد بنيت قصبة في كل مدينة آهلة ، واقتصرت على سكنى الجنود ونسائهم

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ١٣٤
(٢) المصدر السابق ص ١٢٩
(٣) المصدر السابق ص ١٤٥
(٤) الزياني ـ الترجمان ص ٣٥٤
(٥) السعدي ص ١٩٨

وابنائهم[1] ، وكانت القصبة تحاط في الغالب بالأسوار ذات الطيئان التي تستخدم في استعمالات الدفاع والمراقبة ، وتتكدس في داخلها دور الجنود ، وحيث كانت القصبة معسكرا خالصا فإنها لم تضم دكاكين أو أسواقاً بل جملة من المخازن التي تحوي المؤ ن لاستخدامها وقت الحصار ، واسطبلا ، وصهريجا لتجميع مياه الأمطار ، وكان الجيش يجتهد في أن يدخل ضمن دائرة السور مسجدا وحماما . أما بالنسبة لتنبوكتو فان محمود باشا بعد فتنة المدينة نقل السوق الكبير الى قرب القصبة ليقلل من امكانية احتكاك الجنود المغاربة بالسكان[2] .

ولما كانت مهمة القصبات هي الدفاع عن المدن الكبرى بما فيها من نساء وأطفال وتجارة وأموال ومزارع ، فان القانون المغربي كان يلزم سكان تلك المدن باطعام حامية القصبات ، بينما كانت رواتب أفراد الحامية تؤخذ من مال الدولة[3] ، وكان جنود حامية مدينة كبيرة كتنبوكتو وديني وغاو يعدون بالمئات . ولهذا فقد كان اطعامهم من الأعباء الثقيلة الملقاة على كاهل التجار ، وقد طرحت مدينة دييني المبنية فوق أرض مستنقعية منبسطة اكبر مشكل للجيش ، وكان أن عالج مشكلة الدفاع عنها بأن أغلق ثلاثة أبواب من أبواب سورها الأحد عشر وأبقى ثمانية فقط سبعة منها متجهة للشرق والشمال وواحد أبقى عليه في الجنوب لتستخدمه السفن في دخولها الى ميناء المدينة[4] ، وقد حول المغاربة بعض البنايات التي كان يملكها الأسكيا في المدينة الى قصبة ولم تكن هناك صعوبة أمامهم لتعلية أسوارها ، أما في غاو فقد تحول القصر الملكي الى معسكر للجنود وأطلق عليه اسم القصبة بعد ذلك .

---

(١) تسمية القصبة الآن تنصرف الى الحي الأهلي وهو تعبير أوروبي جاء في أعقاب احتلال البلدان الافريقية ويقابله الحي الحديث الذي كانت تقطنه الجالية الاجنبية .

(٢) السعدي ص ١٧٣ .

(٣) حركات ـ مصدر سابق ج٢ ص ٣٠٢

(٤) السعدي ص ١٢

وكانت الحصون عديدة متباعدة ، وقد أقيم أغلبها على الضفة اليسرى لنهر النيجر أو في أطراف بلاد السودان الشمالية أو الجنوبية ، ففي أقصى الشرق بنى محمود باشا حصن (كلن) [1] عند الحدود ما بين دندى وكانطا ورتب له ٢٠٠ رام كان على رأسهم القائد الفتى عمار الذي أصبح باشا فيما بعد ، وقد تلقى ذلك الحصن ضربات قوية من السونغاي ، والى الشمال الغربي من كلن كان هناك حصن على طريق دندى غاو بناه القائد أحمد بن يوسف [2] وبعده حصن (تنش) وهو قريب من كوكيا [3] ثم حصن (بامبا) عند منتصف الطريق بين غاو وتنبوكتو وكان على رأس حاميته ضابط برتبة قائد هو مصطفى بن عسكر [4] وهو من بناء جؤ ذر ومحمود ، ثم حصن جزيرة (زنتا) الذي كان يستخدمه جنود الأسكيا سليمان ، وبه مخازن المؤ ن ، ثم حصن جزيرة (تورى) وكان قد نزل فيه القائد محمد العراب مع جنوده من سرية الشراكة [5] ، وبين الحصنين الأخيرين كانت ترتفع أسوار حصن ميناء كبارا الذي يحمي مداخل تنبوكتو من جهة النهر ولذلك فانه كان محاطا بالأشواك من خارجه وبالخندق العميق ، أما السور نفسه فكان على هيأة ابراج عالية ينتظمها حائط سميك متخذ من الطين المشوي [6] ، وفي الشمال الغربي أقيم حصن (رأس الماء) داخل بلاد التوارك ، وكان الحصن يرتفع عند النهاية الغربية لبحيرة فاكيبين ، وهكذا كانت مياه البحيرة تحده في الشرق بينما تحميه المستنقعات في الغرب ، وبلغ عدد أفراد حامية هذا الحصن سبعين راميا تحت قيادة ابن داود ، ولكن بعد هجوم التوارك على الحصن وقتلهم لحاميته جدد محمود باشا

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١

(٢) المصدر السابق ص ١٩٧ كان يطلق عليه (حصن الطريق)

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢

(٤) المصدر السابق ص ١٦٨ وقد تعرض هذا الحصن للحصار وتدخلت المدافع من النهر فحطمت اسواره وأخرجت الحامية منه ثم أعيد بناؤه بعد ذلك .

(٥) المصدر السابق ص ٣١٨

(٦) المجهول تذكرة ص ١٣٩

بناءه وأنزل به مائة رام[1] .

والى الجنوب فيما بين رأس الماء ودييني بنى الجيش المغربي حصنين هما حصن (بنكا) وحصن (كيسو) ثم رمموا تحصينات مدينة تنديرما وحولوها الى حصن منيع كان يراقب الطريق من دييني الى تنبوكتو[2] ، وأقام الجيش المغربي في بداية ولاية الباشا منصور ثلاثة حصون على مناجم الذهب في بلاد مالي كما قدمنا .

أما (محلات) الحراسة فإنها لم تتوقف طيلة الفترة المعنية بالبحث عن قطع المسافات التي تربط المدن بالقرى والقصبات بعضها بالبعض الآخر ، وكانت مهمات وحدات الجيش في أعمال الحراسة تلك هي تأمين الطرق ، والضرب على أيدي اللصوص والمغامرين والخارجين عن الطوق والقانون ، وكانت دوريات الحراسة تتجه غالبا الى الطرق الشمالية المتجهة من غاو الى بلاد التوارك الشرقية ، ومن تنبوكتو الى ازوات واروان الى بلاد العرب ومن دينى الى رأس الماء ، وقد عمدت قوات الحراسة الى احراق أراضي قطاع الطرق والمتمردين ، وردم آبارهم وأسر نسائهم وابنائهم ، ووقع ذلك بصفة خاصة في أراضي التوارك والفولانيين[3] ، وكانت الدوريات تستريح بعض الوقت في مختلف القرى والمدن قبل أن تقتحم الصحاري والمستنقعات والجبال بحثا عن الخوارج والشاذين عن الطوق ، وكان يصدف أن أحد أولئك يصل الى حد تملك القوة الكبيرة ، أو الاستقلال بمناطق شاسعة ، وتهفو نفسه الى مداخلة السلطة في تنبوكتو في اتفاق أو صلح ، والذي كان يحدث باستمرار هو أن يتوجه الباشوات بكل طاقاتهم لحسم مادة كل متمرد وقصم شوكته دون الالتفات الى عرض يعرضه المتمرد أو اتفاق يود الوصول اليه ، وقد حدث ـ في مثل هذه الحالة ـ أن أحد المغامرين توصل الى

---

(١) السعدي ص ١٦٥

(٢) المجهول ، تذكرة ص ١٢٦ ـ ١٢٧

(٣) المصدر السابق ص ٧

احتواء منطقة كبيرة في الغرب وجعل من قرية (بينا) على النيجر عاصمة له وتقدم من باشا تنبوكتو يطلب إمضاء اتفاق للصلح والتعاون ، وكادت الفتنة أن تطوح بقواد ديني اذ اختلفوا في أمر الرجل فما كان من الباشا الا ان رفض أية لغة للحديث مع الثائر غير لغة الحرب ، فرفض الصلح وأوكل لجيش الحراسة أن يستأصل شأفته ، وأدى هذا الحدث الى عزل كل المسؤ ولين عن الجيش في ديني ونقل فرقة شراكة التي كانت موجودة بها الى تنبوكتو[1] ، ويجب أن نذكر هنا أن القائد المامي الذي رأينا أعماله السابقة في فتح كل مناطق الغرب ، واقرار الأمن في تنبوكتو هو الذي برز كأشهر قائد في جيوش الحراسة التي كانت ترجع فيما بعد الى قيادته في كل انحاء السودان ، وقد ظل على جواده يذرع السودان طولا وعرضا الى ان وافته المنية حين كان في احدى مهماته بالقرب من غاو[2] .

٦) الأمانة والادارة المالية[3] :

اختار المنصور امناء أموال السودان من بين الشخصيات المعروفة في البلاط السعدي بثرائها وأمانتها وكتمانها لأسرار السلطان وتطبيقها لأوامره التي يفترض كتمانها ، فالأمناء حسب هذا المقياس لم تكن تشملهم سلطة الباشوات أو الحكام ، ولم يخضعوا لمحاسبتهم[4] ، بل كانوا مسؤ ولين كافة أمام السلطان وحده[5] وقد

(١) السعدي ص ٣٩٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣

(٣) الأمين هو الموظف الذي يتولى جباية الأموال وصرفها ، وفي كل مدينة كبيرة أو ميناء يوجد أمين مع جباته وموظفيه ويكون تابعا لوزير المالية الذي كان يسمى في بعض الأوقات بأمين الأمناء . وبالنسبة للسودان فان الأمين الأكبر بها كان يقطن بتنبوكتو ويعتبر الأمينين الآخرين في ديني وغاو تابعين له . أما هو فكان غير مسؤ ول أمام أمين الأمناء بمراكش بل أمام السلطان نفسه الذي كان يعينه ويقيله ويتقبل منه حساباته ويدققها معه .

(٤) على التمكروتي ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د ٧٩٥ ص ١٩٦

(٥) كريم مصدر سابق ص ١٧٠

حمل احمد المنصور القائد جؤذر ظهير تعيين أول أمين بالسودان حمو بن عبد الحق الدرعي الذي كان مسجونا في تنبوكتو عند دخول القائد المغربي الى تلك المدينة ، واعتبر ذلك التعيين ايذانا بانفصال الاقاليم السودانية عن الولاية الجنوبية التي كانت الى نظر ابن السلطان أبي فارس ، ولكن يبدو أن تصرف ذلك الأمير في خراج (تغازى) قد استمر بعد ذلك[1] .

وكان السلطان يقبل بالاقتراحات المقدمة من باشوات السودان لتغيير الأمين اذا بدر منه ما يستوجب عزله[2] ، أو كان يرفض مثل هذا الاقتراح حين لا يكون مقتنعا بسلامة دوافعه ، أو حين يتدخل أحد من كبار رجال القصر لفائدة الأمين[3] ، وقد وجه السلطان المنصور رسالة للباشا سليمان يدحض فيها ما نسبه الباشا الى الأمين حسن بن الزبير من أنه سرق بيت المال وبدد أموال الخزينة واتخذ له ثلاثمائة من الجواري ، وجاء في جواب السلطان أنه لا يحق للباشا أن يتدخل فيما لا يعنيه « فالمال هو مالنا والأمين هو أميننا ولا حق لك في اتخاذ أي اجراء ضده لأنه اجراء غير شرعي ولست مأموراً به »[4] .

وتتضح من ذلك المكانة التي كانت للأمناء عند السلطان ، كما يتضح أن مهمة الجيش في السودان وغيره كانت تنحصر في اخضاع البلاد وتدبير شؤونها دون الانشغال في أمر الأموال والخراج والضرائب .

وكان السلطان يراقب أعمال الأمين ، وقد تبين أن القائد احمد بن الحداد كان يحصي على الأمين حمو الدرعي تصرفاته في خطته ، ورغم أنه لم يكن من المقبول لدى المنصور أن يترك القائد المذكور واجباته في أرض الحرب ويذهب سرا ليحدث

---

(١) الفشتالي ص ١٢٢
(٢) السوسي ـ اليغ ص ٩٥
(٣) السعدي ص ١٩٠
(٤) المكان السابق

سيده عن الأمين ، فان السلطان تجاوز عن غلطته تلك ، واستمع اليه ، واستدعى أمين ماله ودقق معه دفاتره ، فوجد أن الأمين تصرف في مبلغ عشرين ألف قطعة ذهبية فلم يقدم الى السلطان الا مائة الف فقط من مجموع مائة وعشرين ، وقد سجن الأمين في مراكش وسيم سؤ العذاب حتى مات سنة ١٥٩٤ في الوقت الذي والى أصحاب المنصور بحثهم عن الذهب المسروق فوجدوه مخفيا في احدى القرى بدرعة[1] .

وعين السلطان من جديد أميناً في تنبوكتو بموجب ظهير شريف هو الأمين حسن بن الزبير ، وولى في أمانة ديني نفاس الدرعي[2] ، وكان كل من الأمينين يحمل رتبة قائد ، ولذلك فإن الأمين في المدينتين كان يسمى (القائد الأمين) بينما يطلق على المنصب للاعتبار ذاته (قيادة التأمين) ، وكان يوجد أمينان آخران في غاو وتغازي .

لقد كانت للأمير مهمات واسعة في اختصاصاتها ومسؤ ولياتها ومن أبرزها الإشراف على ما يورده الجباة والعمال من الأموال والأقوات ، ومحاسبة حفظة أخماس الغنائم والسبي ، وضبط ديوان أرزاق الجنود ، والخراج[4]، وتحديد أوجه صرف الضريبة العينية التي تفرض على التجار غداة تولية باشا جديد[5]، والوقوف

(١) السعدي ص ١٧٤ ، ولقد كان السلطان متشددا مع أمنائه في السودان ، فقد تعرضوا للعزل والنكبات والقتل ، وفي عهد السلطان مولاي عبد المالك صدر أمر للجيش باعدام الأمين محمد بن أبي بكر ، ونفذ ذلك الحكم يوم ١٢ يناير ١٦٢٩ حيث أتي بالأمين واخضع للتعذيب طيلة يومين ثم علق على حبل المشنقة في السوق ، وجرت العادة أن يحضر الأمين الجديد المعين عملية القتل بأمر السلطان وأن يركب الأمين قبل اعدامه على فرس ويلبس أحسن ملابسه ثم يوضع الكبل في يده والمشنقة في عنقه ـ المصدر السابق ص ٢٢٩

(٢) استمر القائد الأمين الحسن بن الزبير في منصبه بتنبوكتو إلى أن مات في شهر أكتوبر ١٦٠٦ ، وطالت مدة نفاس الدرعي أكثر من ذلك (السعدي ١٩٣) .

(٣) السعدي ص ٢٢٦

(٤) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط لا يعرف كاتبه حرف ك رقم ٢٧٨ ص ٧٧

(٥) المجهول ـ تذكرة ص ١٠٤

مع القاضي على تصفية أموال التركات ودفعها للورثة أو الاحتفاظ بها في بيت المال إن لم يوجد وارث[1]، وتبديل نظام رواتب الجيش عند تقديم سرية على سرية أخرى[2]، وتعيين الحكام أو العمال المحليين[3]، ومراقبة الموازين والأسعار[4] ومحاسبة الحكام في المداخيل غير المشروعة التي تتوفر لديهم من الغرامات ، ومكس النكبات[5]، والاستيلاء على أموال الباشا التي قد يكون جمعها في حياته بطرق غير شريفة ، وكان لا يتصدى لذلك إلا بتفويض من الجيش نفسه [6]، وأخيراً التنازل عن أموال بيت المال ووضعها في يد الجيش إن بدا أن هناك شكاً في تصرفات الأمين إلى أن يفصل السلطان في الأمر[7] وكان يحصل ذلك التنازل تحت تهديد السلاح في الغالب .

وقد تعددت أوجه مداخيل بيت المال وكانت تحسب بعشرات آلاف القطع من الذهب كل سنة ، وفي عهد جؤذر ومحمود كان أهم مدخول يأتي من الضرائب وبلغت من كثرتها حداً جعل السودانيين يتبرمون منها كما كان الشأن في المغرب نفسه[8]، ومع استتباب الأمر للسعديين في السودان وظهور نتائج استغلال تلك البلاد قرر المنصور حذف الضرائب التي كانت تدفع في الأبواب والأسواق وعلى البضائع في المدن والمزروعات والماشية في البوادي وكان يطلق على مجموع تلك

---

(١) السعدي ص ١٩٣

(٢) المكان السابق

(٣) عين الأمين يوسف القصري القائد ملوك بن زرقون حاكماً لديني المصدر السابق ص ٢٢٦

(٤) هذه في الواقع من مهمات المحتسب ، ولكن يبدو أن نظام الحسبة الذي كان معمولاً به في السودان كان يختلف عما عرف في البلاد الشرقية أو في المغرب نفسه ، إذ أن مهمة المحتسب الذي هو موظف لدى القاضي كانت مراقبة الوضوء واستيفاء مبلغ نقدي ممن لا يتوضأ مع وجود الماء ، وإخبار أعوان الأمين بما يرتكبه التجار من غش وتدليس وبيع بالتأخير .

(٥) المصدر السابق ص ٣١٩

(٦) المصدر السابق ص ٢٩٢

(٧) المصدر السابق ص ٢٩١

(٨) الإفراني ـ نزهة ص ٧٤

الضرائب اسم (النائبة) في المغرب[١]، أما في السودان فكان اسمها (الكنايبة)[٢] وكان لإلغائها صدى ارتياح واستبشار في السودان سيما وأنها كانت عبئاً ثقيلاً على التجارة والزراعة ، فعادت الأيام بسبب إسقاطها أياماً مباركة ، وخفت وطأة الأسعار وتحرر الناس من بلاء عظيم[٣] .

وتأتي بعد الضرائب التي كانت تستوفى في بداية الحكم المغربي الغنائم ، وهي الأموال والأنفس والمتاع والماشية التي كان الجيش يعود بها من معاركه وفتوحاته[٤] ، وكانت من الضخامة والأهمية إلى الحد الذي كان أعوان الأمين وشاهدا القاضي يصرفون الأيام في عدها وتقدير أثمانها ، وعندما يتم ذلك العمل كان الباشا أو القائد يمهر الدفاتر بامضائه ، ويصرف الغنائم إلى (دار القيادة) وهي مركز الأمين فيأخذ خمسها لبيت مال السلطان وتصرف الأخماس الأربعة الباقية للجند كرواتب .

والدخل الثالث لبيت المال كان يتمثل في الخراج المرتب على مختلف مناطق السودان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً باعتبارها بلاد فتح[٥] ، وفي الواقع كانت قضية استيفاء الخراج إحدى المهمتين الرئيسيتين لكل (محلة) في تنقلاتها ، وكان الخراج كالنائبة أو الكنايبة يدفع في شكل أموال أو محاصيل أو دواب أو حيتان مجففة[٦] ويجبى من سكان المدن والقرى والبوادي حسب التقدير الذي يضعه العرفاء والمقيد في دفاتر الأمين السنوية .

---

(١) ابن القاضي ، المنتقى المقصور مصدر سابق ص ٢٨
(٢) السعدي ص ٢٢٤ الاشتقاق واحد ، أما الكاف فهو مستعمل إلى اليوم كحرف تحقيق
(٣) المكان السابق
(٤) المجهول/ التذكرة ص ٢٦ و٦٩
(٥) المصدر السابق ص ١٨
(٦) المكان السابق

والدخل الرابع هو ما يأتي كجزية مفروضة على الكفار الوثنيين ، والمكانان الأساسيان لأخذ الجزية كانا هنبوري في الجنوب حيث قبائل الموسى الوثنية وفي الغرب الجنوبي حيث قبائل مالي التي كان بعضها لم يدخل الإسلام بعد ، وفي هذه الجهات كانت تؤخذ الأبقار والمحاصيل الزراعية خاصة ، ويزيد الباشا على ذلك بأن يستوفي ضريبة أخرى كان يطلق عليها حق الشاشية (الطربوش)[1] ، وهذه الأخيرة كانت من نصيب الباشا نفسه وتعتبر راتباً له ولحاشيته حيث أنها ترمز إلى طاعة الباشا وتقبل سلطانه .

والدخل الخامس تمثل في واجبات تسجيل الرسوم العقارية[2] ، فلا يحق لأحد أن يتملك بيتاً أو بستاناً داخل المدن الكبيرة إلا إذا كتبت شهادة بالملكية ، والشهادة يحررها القاضي وشهوده بعد الاستماع إلى البائع والمشتري ، ويأخذ الأمين واجبات الرسم بعد ذلك بواسطة موظفيه .

ولقد عدد صاحب تذكرة النسيان موجودات بيت المال في تنبوكتو على أثر وفاة أحد الباشوات وقال بأنه كان يحتوي على أكداس من الذهب المضروب وعلى الفضة والودع الأبيض ، والثياب الفاخرة ، والجلود المدبوغة الملونة ، والسيوف وحمائلها ، والأقواس والنبال ، والأدوات المختلفة المتخذة من النحاس والحديد والفؤوس والمحاريث ، والقدور المليئة بالعسل والسمن والحبوب من قمح وأرز وذرة بيضاء ، وعلى المسك المجفف ، والأثاث ، والسجاد والنعال ، وعلى الدواب من خيل وبغال وحمير وبقر وإبل[3] .

أما أوجه التصرف في بيت المال فإنها كانت متعددة وفي مقدمتها دفع رواتب

---

(١) السعدي ص ١٩٥
(٢) المجهول / التذكرة ص ٢٧
(٣) المصدر السابق ص ٢٠

الجنود كل أربعة أشهر في حالة السلم أو تقديمها عندما يهم الجيش بالخروج إلى غزوة أو حراسة أو تفقد[1] ، ويتولى الأمين دفع تلك الرواتب في تنبوكتو بنفسه بينما يقوم بذلك الأمناء في تغازي وغاو وديني . أما في الجهات التي لا يوجد بها أمين فإن الرواتب ترسل مع سرايا الحراسة أو بواسطة البريد أو يقدمها الحاكم المحلي نيابة عن الأمين[2] ، ومن أوجه الصرف أيضاً بناء القلاع والحصون ومد الأقنية ، وإخراج الصدقات في عيد الفطر ، وشراء مختلف لوازم الجيش ، ومساعدة الجهات التي تمنعها المجاعة أو ظروف أخرى من جمع الرواتب المعلومة للجنود[3] .

وبالإضافة إلى المسؤوليات التي رأينا الأمين يضطلع بها في مجالي التحصيل والصرف نجد أن من أخطر ما كان يسند إليه أيضاً ضبط الصرف أي تحديد قيم العملة الذهبية بالنسبة لقواقع الودع[4] ، والكشف عن المثقال المتداول حتى لا يعمل التجار أو غيرهم إلى حكه وأخذ برادة الذهب منه ، وفحص المكاييل والمقاييس حتى لا ينتقص منها أو تزال العلامات التي يضعها أعوان الأمين عليها[5] ، وكانت الغاية من كل ذلك كبح الجشع والتحكم في الأسعار وضبط البيوع واستيفاء العوائد العامة .

٧) القضاء والموظفون الدينيون[6] :

لقد لفتت المكانة التي تمتع بها القضاة في عهد ملوك السودان الوطنيين انتباه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤

(٢) السعدي ص ٢٦٢

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٤ و٣٠٦ ، ومن المعلوم أن أموال الصرف لم تكن لها علاقة بواجبات السلطات التي كانت توجه مباشرة إلى مراكش .

(٤) المجهول تذكرة ـ تحقيق هوداس ـ مصدر سابق ص ٤٠

(٥) Charles Monteil «Djenne Metropole de delta central du Niger» societe edution geoggraphique Maritime et colnial Paris 1932 P286 - 287

(٦) كان القضاء طيلة عهد الأساكي وفي السنتين الأوليين من الحكم المغربي يتمتع باستقلال

المؤ رخين الأقدمين منهم والمحدثين ، وذهب بعضهم إلى حد المقارنة بين مكانة الأسكيا ومركز القاضي الديني والدنيوي ، وقرروا ان سلطة هذا الأخير كانت تفوق في بعض الفترات سلطة الملك نفسه[1]، وان العدل الذي نشره القضاة ووقفوا أنفسهم لترسيخه فعل فعل السحر في إشاعة القانون والنظام أكثر مما فعله قادة الأسكيا وجيوشه ، بحيث تحول الناس في تنبوكتو إلى حمل المعول والمحراث عوضاً عن الحريش والرمح[2]، وكان الملك لا يبرم أمراً إلا بمشورة القاضي ومباركته ، وإذا صدف أن القاضي ارتكب هو أو أحد أعوانه خطأ في الحكم أو في التصرف فلا يناله أو ينال موظفه عقاب أو لوم لأن المفروض في القاضي أن يجتهد ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر رغم ذلك حسب منطوق الحديث النبوي ، وقد رأينا ثورات ومؤ امرات تقوم في الجهات الغربية من مملكة السونغاي ضد الأسكيا يشارك فيها القاضي ولكن لا يلحقه بعد انتهائها أذى أو عقاب .

وكان القضاة يتهربون من قبول المنصب عند فراغه لخوفهم من الله ، ومن ارتكاب المعاصي عن حسن نية ، وكمثال على مكانة القاضي ما ذكره المؤ رخون من سعي الوشاة بين القاضي العاقب والأسكيا داود وتيقن قادة الأسكيا الذين كانوا مع هذا الأخير في غزوة ببلاد مالي في الغرب بأن العاقب عازم على وضع أحد الأمراء على العرش بدلاً عن داود ، فأوعزوا لسيدهم أن يعود أدراجه ويوقف حملاته ، ووصل داود إلى تنبوكتو بالفعل وقصد بيت القاضي العاقب فلم يسمح له الحراس بالدخول ، فاضطر إلى أن يتشفع ببعض علماء المدينة وأكابرها وشيوخها ، فقبل القاضي شفاعتهم ودخل الأسكيا متواضعاً متذللا ، وانكب على رأس القاضي

ومنذ نكبة علماء تنبوكتو أصبح القضاة والأئمة والمؤ ذنون والعدول موظفين خاضعين للباشا ، ومن هنا أدرجناهم في إطار الإدارة المغربية ، غير أننا سنميز بين الوضعية التي كانت للقضاة في بداية الحكم المغربي وبين ما أصبح عليه موظفو العدل والمؤ سسات الدينية بعد ذلك .

(١) كعتو ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠

يقبله ، ويلثم أطرافه ثم جلس دون مقعده يسترضيه حتى رضي عنه[1] ، ووقعت حادثة أخرى في عهد الرجلين أيضاً ، ذلك أن الأسكيا داود قتل عن طريق الخطأ أحد أعوان القاضي وكان يسمى محمد الشريف بن مزوار ، فعرض الأسكيا النازلة على العاقب ففرض عليه صوم الدهر وإعطاء عائلة المغدور ثلاثين عبداً ، وقد وصف كعتو ذلك القاضي بأنه كان « متشدداً في أحكامه ثبتاً فيها صلباً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم »[2] ، وخرج القاضي محمود بن عمر آقيت إلى الحج عام ١٥١٩ في موكب شبيه بموكب الملوك وحضر الأسكيا وداعه ، وعمت الأفراح سائر بلاد السونغاي ، وكان القاضي قد عين للنيابة عنه القاضي عبد الرحمان آقيت ، وعندما رجع من الحج رفض النائب أن يعيد المنصب لصاحبه رغم أوامر الأسكيا ، وقد انتهى الخلاف بعودة القاضي محمود إلى كرسي القضاء بعد أن قرر علماء تنبوكتو في اجتماع لهم بمسجد سيدي يحيى حمل النائب على إخلاء الكرسي لمستحقه ، ووصف السعدي محمود بن آقيت الصنهاجي المذكور بأنه عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع وأنه كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به ، ذا ثبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وجلالة[3] .

إن هذه المكانة سواء لدى الملوك أو في أوساط شعوب السونغاي هي التي جعلت المؤرخ (ديوب) يؤكد بأن مدة حكم دولة السونغاي كانت كلها بداية للحكم المغربي في بلاد السودان ، من حيث المظهر الفكري والسياسي[4] ، أما مجيء جؤذر فكان مظهراً عسكرياً فقط لذلك التحكم الذي بدأ قبله بمائة عام ، وقد نقل هذا الرأي عن الكاتب السنغالي المؤرخ الجزائري عبد القادر زبادية وانتقده

---

(١) المصدر السابق ١٠٩

(٢) المصدر السابق ص ١٢١

(٣) السعدي ص ٣٨

(٤) A. Diop. Nations negres et cultures Paris 1954 P91

بقوة ، ذاهباً إلى أن ملوك السونغاي كانوا حريصين على استقلال بلادهم ، وما دام الإسلام هو الوسيلة المثلى لتحقيق وحدة القبائل فإنهم كانوا يتقربـون من العلماء ويضعونهم في المكانة التي كانت لهم قبل مجيء المغاربة[1] .

ولقد كان القضاة السودانيون وهم مغاربة في الأصل مستقلين في أحكامهم طيلة عهد الأساكي ، وقد فصلوا بصفة رئيسية في القضايا الشعبية من عقار وارث وديون وأنكحة وفي المسائل التي لها صفة أخلاقية ، أما الجنايات الكبرى والأعمال السياسية التي يحكم فيها بالاعـدام عادة فهي تعرض عليهم في أغلبيتهـا ولـكن يرجع أمر تنفيذها إلى الأسكيا[2] .

انتصب القاضي عمر بن محمود آقيت الذي وجده المغاربة في تنبوكتو قبـل ست سنوات من وصولهم ، ولأسباب سياسية خطيرة سبقت الإشارة إليها فلم يكن الأسكيا يريد توليته في ذلك المنصب ، وبعد سنة من التردد نزل الأسكيا عند إجماع علماء تنبوكتو وذهب إلى المدينة ليقبل رجلي القاضي ويهنئه بمنصبه[3] .

وقد باشر السلطان أحمد المنصور إتصاله بالقاضي عمر قبل إرساله الجيش السوداني كما قدمنا ، وكان يبدو على رسائله الحرص على التأكيد بأن مكانتـه لن تتأثر بعد وصول الحملة المغربية ، وبالفعل فإن القاضي عمر اعتبر عنـد حلـول جؤذر بالسودان كقاضي للقضاة ، يعين من قبله قضاة الأقاليم كما يعين أعوانـه وموظفيه[4] ، ولم يقلل جؤذر ولا محمود من واجبات الاحترام والتقديم التي كان القاضي يتقبلها من ملوك السودان .

واستلم القاضي عمر ظهيراً سلطانياً عام ١٥٩١ أقره في كرسيه السابق بل

---

(١) زبادية مصدر سابق ص ٢٢٩

(٢) المصدر السابق ص ٧٤ ـ ٧٥

(٣) كعتو ص ١٢٥

(٤) الافراني ـ النزهة ص ٢٧٩

وسماه أكثر من ذلك (قاضياً للجماعة) اسوة بقضاة أكبر أقاليم المغرب[1] .
وبحسب منطوق الظهير الشريف ، والمزاولات الحقيقية للقاضي عمر ، فإن مطلق الحرية ، قد تركت له في ممارسة أحكامه باستثناء إصدار أحكام في الجرائم الكبرى[2] ، وظل القاضي هو الحكم الوحيد فيما كان يشجر من خلاف بين التجار وسكان البلاد الأصليين ، بينما واصل مفتي تنبوكتو الفصل في دعاوى أهل حي سنكوري الذي كان يسكنه العلماء[3] ، وقد اتخذ القاضي من منزله مقراً لمحكمته ، بعد أن كان يقضي في باب المسجد ، فيجلس وحوله تلامذته وخدامه ويأتي الناس إليه بدعاواهم ونوازلهم ليفصل فيها ، فيضرب ويسجن ويتوعد[4] ، وكان يتلقى بعض أحكام القضاة الآخرين فيقرها أو ينقضها إن كانت مخالفة لأحكام الكتاب والسنة[5] ، وبقيت كلمته مسموعة لدى الباشا ، فإن طلب الشفاعة في أحد فقلما كانت شفاعته ترد أولا يؤخذ بها[6] ، كما أن الفئات والجاليات في تنبوكتو كانت تلجأ إليه وإلى الشرفاء في حل خلافاتها حول تجارة أو أرض[7] ، ولما أقلع محمود باشا من تنبوكتو لملاقاة الأسكيا إسحاق في بامبا أدركه عيد الأضحى في الطريق ولم يشأ أن يندب أحداً من بين أفراد جيشه لإمامة جيشه في الصلاة بل أرسل للقاضي محمود يطلب منه تعيين إمام من قبله فعين له القاضي سعيد اكدادو لتلك المهمة[8] ، ويذكر نفس المصدر أن كاهيتين من الجيش وصلا لبيت القاضي عمر في أحد أغراض الجيش ، ولم يأذن لهما بالدخول وظلا وأتباعهما واقفين بالباب تحت أشعة

---

(١) حجي ـ مصدر سابق ص ١١٧
(٢) الفشتالي ص ٢٠٤
(٣) السعدي ص ١١٨
(٤) كعتو ص ١٠٩
(٥) مصدر سابق ٧٦
(٦) مصدر سابق ١٧٨
(٧) المجهول ـ تذكرة ص ١٤٧
(٨) السعدي ص ١٤٦

الشمس ، وبعد أن صلى العصر ركب حصانه واقترب منهم واستمع إلى طلبهم وهم جلوس[1] .

وظل أبو حفص عمر وموظفوه يزاولون كامل اختصاصاتهم ، ويتلقون عوائد من الدولة كما كان الشأن سابقاً ، ولكن بدا أن الباشوات لم يعودوا يسمحون لهم بالتدخل في تسيير شؤ ون البلاد ، ولكن لم يحرم القاضي عمر من أهم مداخيله المالية ألا وهي الغرامات والزكاة ومكس النكبات التي كانت تجمع من الأغنياء لتوزيع على الفقراء[2]، وريع الأوقاف الإسلامية التي كان يصرف على الحجيج وطلبة العلم[3] بواسطة القاضي نفسه وواجبات الفقراء وهي أربعة آلاف كيس من الحبوب سنوياً كانت توزع على العجزة في ملجأ خيري يدعى (جنان المساكين)[4] ، ثم الكسوة السنوية المعتادة له وللمداحين بعد أن يتموا سرد صحيح البخاري في نهاية شهر رمضان في المشور السعيد[5] .

ولكن لأسباب نفسية في أغلب الظن فإن الباشا جؤ ذر ومحمود لم يهبا القاضي عمر عبيداً ولا إماء لخدمته والقيام بالأعمال المتعلقة بالتنظيف ونسج الحصر بالمساجد ، وكان الأسكيا يخص القضاة والأئمة وحتى المؤ ذنين بمثل تلك العطايا على سبيل الحبس[6] .

ويبدو أن الجيش المغربي كان يدفع بسخاء للقاضي والمفتي وللأعوان الدينيين لأن هناك شواهد كثيرة تدل على مدى رخاء عيشهم كما كان الشأن في

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥١
(٢) كعتو ص ١٨٢
(٣) زبادية ـ مملكة سونغاي ـ ص ٦١
(٤) كعتو ص ١١٥
(٥) المجهول ـ تذكرة ص ١٤٦
(٦) كعتو ص ١٠٦

المغرب تماماً[1]، فقد كان ببيت القاضي يحوي أثاثاً أغلبه مبتاع من التجار الأجانب ، وكان يلحق بالبيت اسطبل يحوي كل أنواع حيوانات الركوب والذبح مع عشرات العبيد والإماء والخدم ، ولم يستخدم القاضي في ركوبه إلا الجياد الأصيلة الباهظة الثمن[2].

وكانت هناك شخصية أخرى لا تقل أهمية عن القاضي ان لم تفقها مكانة هي شخصية المفتي الذي كان يفصل بين العلماء في حي سنكوري فقط بموجب ما كان يعرفه أولئك العلماء جميعاً من أحكام الكتاب والسنة ، وبما يفترض ان المفتي يعرفه وحده من تصرفات أهل المدينة المنورة[3]، وكان (محمد بغيوغو) هو المفتي الوحيد في السودان ، ولم يكن من حقه إصدار أحكام الزامية ، غير أنه في حالة تشبث كل من الفريقين المتنازعين برأيه في نازلة ما فإن الأمر لم يكن يرفع للباشا كما هو الشأن في المغرب احتراماً لجانب العلماء بل كان يعرض على جمهرة فقهاء تنبوكتو بمن فيهم القاضي نفسه ، وكان المفتي بغيع وهو شخص عالم طاعن في السن يغلظ الكلام للباشوات حتى بعد نكبة علماء المدينة[4] .

ولقد تغيرت نظرة الباشا محمود إلى عائلة آقيت وإلى القاضي عمر بالذات بعد ثورة تنبوكتو في شهر أكتوبر ١٥٩٣ ، وكانت أول إشارة إلى ذلك هي منع القائد مامي بن برون التركي القاضي عمر من تعيين قاض على مدينة دييني بعد مبايعتها للسلطان وقيام ذلك القائد نفسه بتنصيب أحد الفقهاء المغاربة أحمد الفيلالي في تلك الخطة[5].

---

(١) حجي ـ ص ١١٧

(٢) زبادية ـ مملكة ص ٦١

(٣) حجي المكان السابق

(٤) كعتو ص ١٧٦

(٥) السعدي ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ويعدد مونتي (مصدر سابق ص ٨٢) قضاة دييني كما يلي : أحمد الفيلالي ـ موسى دابو ـ أحمد التراوري ـ سعيد أحمد دابو ـ عبد الرحمان دابو محمد بن مرزرق ـ مولاي الهواري (وكان قاضياً عام ١٦٥٣) .

وبعد ترحيل القاضي عمر وبعض علماء المدينة إلى المغرب ، عرض الباشا محمود منصب القضاء على مفتي تنبوكتو محمد بغيع وعلى الفقيه عبد الله بن أحمد بوريو ، ولكن أحد أئمة المساجد ـ وكان جده قاضياً في السابق ـ قبل بالمنصب ، فاستقدم إلى المشور ، وأبلغ تعليمات السلطان بالتولية إذ لم يكن الظهير قد وصل إلى تنبوكتو في ذلك الوقت ، وجرت حفلة التنصيب وفق ما كان يفعله الأساكي من قبل بحضور جماعة المسلمين وقواد الجيش ووجهاء المدينة [1].

وكان اسم القاضي الجديد محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمان ، وهو فقيه متوسط الثقافة والعلم ، لم يكن عمره يزيد على خمسين سنة وبقي في خطته خمسة عشر عاماً [2].

ولقد أصبح واضحاً أن القاضي الجديد لم يعد يمثل تلك السلطة المدوية السابقة ، فما فتئت اختصاصاته تتقلص ويقتطع منها حتى غدا أضحوكة الناس ، وكان المتخاصمون لا يأبهون لأحكامه أو يلتزمون بها إذا لم ترقهم فيقصدون دار الحكومة لعرض شكاياتهم [3] مما أحدث كثيراً من الخلل في سير الأحكام ، ويذكر المجهول أنه عند وقوع نازلة أو حادثة مما كان القاضي أو المفتي يقضيان فيها أو يبثان في شأنها يخرج البراح (المنادي) داعياً القاضي والأئمة والفقهاء للاجتماع في القصبة ، وفي اليوم التالي يحضر المدعوون ، وتعرض النازلة أو الحادثة أمام الباشا بحضرهم ، فيطلب منهم رأيهم واحداً واحداً ، وغالباً ما كانوا يلوذون بالصمت ، فيصدر الباشا حكمه بالسجن أو الجلد أو القتل [4]، وكان ذلك يحدث

---

(١) ظلت سنة تنصيب القضاة في المشور متبعة وكذلك حفلات التنصيب الرسمية (السعدي ٢٩١ ـ ٣٠٨ والمجهول ـ تذكرة ص ١٢ و١٤٨) .

(٢) السعدي ص ٣٠٨

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٣٠

(٤) المصدر السابق ص ١٣٨

في بقية المدن الأخرى ، ونتيجة لذلك فلم يعد وجود فعلي لسلطة القضاء[1] .

وهكذا فإن أحكام القضاة لم تعد تتجاوز السجن المؤقت والمحدد في أيام قليلة والضرب بالسياط[2]، ثم منع القاضي بعد ذلك من إصدار أحكام السجن التي غدت من اختصاص محكمة الجيش وأصبح أقسى عقاب يمكن أن يصدر عن القاضي هو الجلد فقط[3] والفصل في أمور الشرع وعقد الأنكحة وحصر التركات وتوزيعها[4] ، وعندما كان يحدث بين الطبقة المثقفة ما يستوجب الرجوع إلى المفتي كان القاضي أو المفتي يرسلان أحد أعوانهما ليطلب من « الظالم أن ينصف المظلوم لوجه الله ورسوله »[5] ، وكان على القاضي في تنبوكتو ـ وهو يعد قاضياً للقضاة ـ أن يكتب هو أو غيره من متولي شؤون الشرع في المدن الأخرى إلى الباشا في كنه الحكم الذي صدر عن أحدهم ، ومن حق الباشا أن يقبل ذلك الحكم أو ينقضه[6] .

لقد عرفنا في الفترة التي تعنينا في هذا البحث ثلاثة قضاة هم محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمان في تنبوكتو وأحمد القيلالي في دييني والوافى بن طالبنا في بلد أروان وسط الصحراء[7] ، ولم نجد أية إشارة إلى وجود ذلك المنصب في غاو أو غيرها .

أما بالنسبة للموظفين الدينيين من أئمة للمساجد وعدول وأعوان ، فقد ظل للقاضي الحق في تعيينهم ولكن مع موافقة مسبقة من الباشا أو من الحكام

(١) المصدر السابق ص ٧٨
(٢) كعتو ص ١٢٥
(٣) A. CH. Diop «l'Afrique noire precoloniale Paris 1956
(٤) السعدي ص ٢٤٥
(٥) المجهول ـ تذكرة ص ١١٥
(٦) السعدي ص ٢٧٦
(٧) المجهول ـ التذكرة ص ٤٠

العسكريين المحليين ، ويبدو أن الباشا محمود كان معجبا بأحد الشيوخ الاجلاء في تنبوكتو وهو الشيخ محمد بن الأمام الصديق ، ولذلك فان تعيينه كأمام للجامع الأعظم من طرف القاضي محمد بن أحمد لقي كل ترحيب من الباشا محمود ووافق جؤذر على ذلك لأنه كان صاحب التصرف بالأرض في ذلك الحين وكان سن أمام الجامع الكبير ينيف على سبعين سنة ولكنه بقي في منصبه ذاك ستا وعشرين سنة أخرى [1] ، ولقد بقي الأئمة الآخرون يزاولون مهماتهم منذ عهد القاضي عمر وفي مقدمتهم الأمام بابا أحمد بن الفقيه مصطفى الكورى أمام جامع الهناء ، وعندما مات خلفه أخوه الذي كان حافظا للقرآن مادحا للنبي بصوته الرخيم [2] ، أما جامع القصبة فكان الأمام فيه سعيد كداد الذي عينه القاضي عمر في اكتوبر ١٥٩١ .

ولما كان بعض أئمة المساجد الأخرى قد تركوا مناصبهم لعجز أو موت ، فان القاضي كان يجد صعوبة في إقناع غيرهم بتولي المنصب الشاغر ، وكان بعضهم يهرب من المدينة [3] تهيبا من ذلك المنصب وخوفا من إفساد صلاة المسلمين أو تهربا من ملامسة جثث الموتى لأن من أبرز مهمات الأمام تغسيلهم واعدادهم للدفن [4] ، ولقد كانت أجرة الأئمة في عهد المغاربة تؤخذ من صدقات المصلين [5] وأجور تغسيل الموتى [6] .

---

(١) السعدى ص ٣٠٩

(٢) المجهول - تذكرة ص ٦٨ - و ٧٥

(٣) السعدى ص ٦٣ ويذكر السعدى أن الأمامة عرضت على أحد أبناء القضاة فاعتذر بسبب السلس وقد شهد له الشهود بذلك .

(٤) كعتو ص ١٣٠

(٥) السعدى ص ٦١

(٦) كان أهل الميت يقدمون للأمام ثلاث قطع من الثوب الأبيض فيكفن الميت بواحدة ويأخذ القطعتين الأخريين ، كما كان الأمام يأخذ جزءا من لحم البقر وعبدا وبعض الودع مع غيره من الطلبة بعد الانتهاء من تلاوة القرآن على الميت (كعتو ١٣٠) وقد قام السعدى نفسه باعتباره أماما بتغسيل أحد أصدقائه فأعطاه أهله بعد الصلاة وقبل الدفن خادمين وعمامة (السعدى ٢٦٧) .

وقد حاز بعض الأئمة حظوة خاصة عند الباشوات ، ولطالما كلفوهم بالسعي في إصلاح ذات البين بين الناس في الخصومات العادية أو الأسروية [١] أو طلبوا منهم إحضار مصاحف القرآن وصحيح البخارى إلى المشور لتلقي القسم من أحد السلاطين أو الزعماء في السودان بالتزام الطاعة والوقوف عند العهد [٢] .

أما العدول أو كتاب دار القاضي فهم الذين كانوا يوثقون الشهادات ويحصون التركات ، ويراقبون الأهلة وينوبون عن الغائبين ، وكان القاضي يعين هؤلاء الموثقين باستمرار ويختارهم ممن عرفوا بالكفاءة والصدق ، وكانوا يتقاضون أجورهم من الزبناء حسب أهمية العقود المحررة [٣] ، وكان القاضي يكلف عدوله بالحراسة على أبواب الميت ان كان عظيم الشأن حتى لا يقع التلاعب بأمتعته المنقولة وأمواله ، كما كان يعهد اليهم بمصالحة المتخاصمين والفض فيما بينهم في الأسواق والأحياء [٤] .

ومن الموظفين الدينيين الآخرين مؤذنو المساجد. ، وكان لهم مقام أيضا في المجتمع ، ويتقاضون رواتبهم من الزكوات التي يأخذونها لحما وحبوبا من القاضي [٥] وعندما توفي مؤذن جامع سيدي يحيى أقيمت له جنازة لم تكن تقام إلا للقضاة [٦] ، وقد رأينا أن القاضي عمر أرسل المؤذن (يحم) إلى جوذر ليبلغه تحياته عند وصول ذلك القائد إلى السودان . والى جانب المؤذنين كان هنالك موظفان قائمان على باب المحكمة [٧] ، وعدد من ساردي الأمداح النبوية والمنشدين يترأسهم فقيه

---

(١) كان هذا الصلح يدعى (طريق الطلبة) السعدى ص ٢٥١
(٢) المجهول ـ التذكرة ص ١٥٢
(٣) حجى ـ ص ١١٨
(٤) السعدى ص ٢٥٠
(٥) أخذ مؤذنون في مدينة غاو في إحدى المرات ١٠٠ بقرة / كعتو ص ١٠٨
(٦) المجهول ـ تذكرة ص ٧٥
(٧) كعتو ص ١٧١

يدعى (شيخ المداحين) [1] وكل هؤلاء من موظفي القاضي .

ولقد كان للقاضي في الواقع مهمتان رئيسيتان : الأولى منهما هي التي كانت محل دراسة في مطلع هذه الفقرة أي القضاء بين الناس ، ورئاسة مجموعة مختلفة من الأعوان الذين يساعدونه في تأدية وظيفته تلك ، والثانية الاشراف على بناء المساجد وصيانتها وتوسيعها إضافة الى ترؤس الاطار العامل بها من أئمة ومأمومين ومؤذنين ومؤقتين وخدام .

والمسجد لم يكن محلا للعبادة فقط ولكنه كان أيضا مركزا لنشر الثقافة الاسلامية ، وتعليم اللغة العربية ، وهنا تلتقي مسؤولية القاضي في بناء المسجد ، والنفقة على الطلبة وبين مسؤولية المؤدب أو الأستاذ الذي كانت شهرته وتعلق المثقفين والعامة به ترفعانه إلى صف التقديس ، وكان أغلب أولئك الأساتذة يتحولون بعد موتهم إلى أولياء ، وتصبح أضرحتهم التي تقام لصق المساجد أمكنة للزيارة ، وتنسج حولهم الخرافات والكرامات والمعجزات التي ترقى بهم بعضها الى مرتبة الأنبياء ، ولا يحوز القاضي على إحترام الناس وتعلقهم الا عندما يجتهد في البناء على تلك الأضرحة ، واعدادها لتستقبل المريدين والصوفية والطلبة ، والغريب أن الوثنيين كانوا يمحضون تلك الأمكنة التقديس والاحترام ويتبركون بتربتها ، وقد حدث في عهد المغاربة أن كفار مسينا أغاروا ذات مرة على بلدة (شبل) التي كانت تضم مسجداً وضريحا بجواره فخربوا البلدة حجرا حجرا ولم يلحقوا بالمكانين المقدسين أي أذى [2] .

فكان إذا من واجبات القاضي بناء المساجد والأضرحة (اللاصقة بها)

---

(١) السعدى ص ٢٣٩

(٢) السعدى ص ٢٧٥

وكذلك بناء المصلى في الصحراء لاقامة صلاتي العيدين [١] ، والمصلى عبارة عن حائط من الشمال الى الجنوب يوجد محراب بوسطه وهو غير مسيج أو مسور ، ومن مهمات القاضي كذلك صيانة سور ساحة الاستسقاء وكانت قريبة من روضة المؤدب والقاضي محمد الكابري المغربي [٢] .

ان الملاحظة التي يمكن ابداؤها بكل تأكيد هي أن المغاربة لم يعتنوا ببناء المساجد كما فعل الأساكي الذين كانوا يقدمون الأموال للقضاة لتلك الغاية حتى أصبح عدد مساجد تنبوكتو يصل إلى الثلاثين مسجدا .

ولقد وجد المغاربة عند وصولهم مسجد (جيجاري بيل) الذي خططه وبناه المهندس الأندلسي الطويجن قد أهمل واقتلعت أبوابه وتشققت أعمدته ، والغريب أنهم لم يأخذوه بالترميم أو يعدوه للصلوات ، كما أن المسجد الجامع أو الجامع الكبير الذي عرف كذلك بجامع المغاربة ، لأن مسنى موسى المالي عندما بناه بعد عودته من الحج على يد الطويجن نفسه أوصى بألا يؤم فيه الا علماء من المغرب أو ممن تعلموا به [٣] ، كان في حاجة إلى الصيانة والتوسيع ولكن لم يتم ذلك إلا بعد مرور أعوام طويلة على الحكم المغربي [٤] .

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ٤٦ . كان المصلى يدعى (سركل جبينو) وهو إسم تاركي ، وكانت الصلاة على المؤدبين الأولياء تقام في مصلى الصحراء .

(٢) ولى ملك مالي موسى الأمام (كاتب موسى) كأمام للمسجد الكبير ووجهه إلى فاس لطلب العلم وأناب عنه عبد الله البلبالي وعاد بعد تلقيه العلم وزاول الأمامة أربعين سنة فخلفه أبو القاسم التواتي الذي كان مدرسا بالمسجد وأصبح بعد موته من أولياء الله الصالحين (للتوسع في دراسة الجامع الكبير يراجع :

?. lenz « Tembouctou voyage au Maroc Paris 1887 T. 2P. 151

(٣) المصدر السابق ص ١١

(٤) كان القاضي العاقب آقيت يصرف يوميا على ترميم المساجد الثلاثة الكبيرة في تنبوكتو وهي سنكوري والجامع الكبير وجامع السوق ٦٦ مثقالا ونصف يوميا ، وألف ودع ، هذا عدا الطعام واشراب للعمال (كعتو ص ١٢٢)

فهل لذلك التقاعس علاقة بتدني أهمية خطة القضاء ، أو بضيق ذات يد القضاة الذين لم يكن في استطاعتهم الانفاق على بناء مساجد أو إقناع الناس بدفع الأموال لانشائها .

مهما يكن من أمر فاننا لم نجد الا مسجدين صغيرين تم بناؤ هما في عهد المغاربة ، وهما مسجد (الهناء) الذي وقف الباشا بنفسه على بنائه ثم مسجد البادية الذي لم نسمع عنه شيئا بعد إتمامه ولعله كان مخصصا لجنود المحلات ، غير إننا وجدنا وصفا لحفلة بداية العمل في إنشائه فبعد ان إجتهد الباشا في جمع الأموال والعمال « جاء بنفسه في ذلك الموضع بقباه ، وقام هناك (أي نصب الخيمة) وجلس تحتها مع جنده وعمل ديوانهم فيه ونادى أهل كل حومة من البلد لتعاونه عنها (ليساعدوه في البناء) وأجابوا نداءه، وحضروا بأشياخهم ومزاميرهم مع نسائهم بدفوفهن ويشيخاتهم (أي المغنيات المحترفات) وكذلك المداحين وأمام المساجد (أئمة) وشيوخ المداحين كلهم أجمعين » [1] .

٨) القضاء العسكري :

لقد أوضحنا الأهمية الكبرى التي كانت لخطة القضاء في عهد الأساكي المتأخرين ، وأبرزنا الدور الخطير الذي لعبه قضاة تنبوكتو خاصة في الحياة العامة ، والمكانة التي تبؤوها في الحكم والمجتمع ، ورأينا كيف عمد الحاكمان المغربيان الأولان جؤذر ومحمود إلى التقليل من الدور الذي لعبه القضاة وجعل مشاغلهم تنصرف إلى الميادين المتعلقة بخطتهم وهي الفصل في الدعاوى العادية والجنح والاشراف على المؤسسات الدينية والتعليم ، والواقع أن إختصاصات القاضي عمر في عهد الحاكمين المذكورين كانت تفوق بقدر كبير إختصاصات قضاة المغرب

(١) المجهول تذكرة / ص ٩٨

أنفسهم ، بحيث كانت تلحق بالادارة المغربية الفتية أنواعا من التعقيد ، وضروبا من التنافر وقدرا غير قليل من الخطر ، ومن الطبيعي أن ينتهز الباشا محمود فرصة تغريب عائلة آقيت التي إختصت بقضاء تنبوكتو وحولته إلى إدارة داخل إدارة ، ليعيد القاضي الشرعي إلى حجمه الطبيعي ، وليجعل من متولي الشرع مسندا في الأحكام لا عنصر أرباك وبلبلة ، وهذا ما نهض به القاضي الجديد محمد بن أحمد بن عبد الرحمان .

وقد خلقت عملية التحويل هذه جوا نفسيا غريبا في المدينة ، فمن جهة إختفت من تنبوكتو الوجوه المعروفة بتنفذها وقدرتها على الحسم والتأثير ، ومن جهة ثانية أصبحت نظرة السكان الى القاضي الجديد الذي قبل أن يجلس فوق كرسي عمر آقيت ويدير شؤ ون محكمته ضمن المجال الضيق المحدد له من المغاربة نظرة استخفاف وصل إلى حد المقاطعة والمجافاة .

وعطفا على هذا العنصر النفسي كان هناك موضوع الفصل بين المغاربة أنفسهم ، وكلهم عسكريون ، ثم قضية الممارسات التي تقلق الأمن أو تستهدف التحريض أو تؤ دي إلى عرقلة السير العادي للتجارة وتسويق المعادن .

ويضاف إلى ذلك كله أن المدن كانت تخضع في أحيان كثيرة لأحكام عسكرية صارمة فلا يجوز أثناءها لأحد من غير العسكريين أن يغادر منزله بعد الغروب بساعة واحدة أو قبل شروق الشمس ، حتى في شهر رمضان الذي إعتاد فيه السكان على تأدية (صلوات الشفع) ، كما لم يكن يسمح لأكثر من اثنين أن يجتمعا في مجلس أو في الطرقات [1] ، وما من شك في أن المخالفات التي تحدث في أثناء تطبيق تلك الأحكام كانت تعود في السودان كما في المغرب إلى نظر القضاء العسكري ، وهو قضاء يمكن التأكيد على غلبته وشيوعه في الفترة المعنية بهذا البحث .

(١) السعدي ص ١٩٨

ولقد قلد باشوات تنبوكتو ما كان معمولا به في المغرب في بداية حكم أحمد المنصور الذي كان يتولى النظر في النوازل الخطيرة بنفسه ، قبل أن يحدث بجانبه هيأة للمظالم تتلقى أحكام القضاة فتبرمها أو تنقضها [1] فكان الباشا ينظر في الجنايات ، أو في كل ما يعتبر أنه جناية ، ويباشر مراجعة أحكام قضاة الجهات ويبث فيها بالطريقة التي يراها مناسبة .

ومن المهم أن نذكر هنا أنه كان للباشا جهاز للتحري عن المجرمين ، وتحديد مسؤ ولياتهم الجنائية بعد تقليب الأدلة والملابسات ، وقد ذكر المجهول أن اثنين من سكان تنبوكتو قتلا في ظروف غامضة وبعد بحث دقيق حثيث توصل أعوان الباشا إلى إلقاء القبض على خمسة من المشتبه فيهم ، فجيء بهم إلى القصبة وخضعوا للاستنطاق وبعد ذلك أنزل بهم العقاب المناسب [2] . وقد أعطي للمتهم الحق في الدفاع عن نفسه وتقديم حجته ، ولم يكن ليلقي القبض على أحد الا بعد تحرير أمر بذلك ، وكان من واجب العون المكلف بالاعتقال أن يقف أمام الشخص المطلوب ويعرفه بنفسه ثم ينطق بهذه الجملة « ان الباشا يناديك وأمرنا أن نقبضك إليه » [3] .

وقد تراوحت الأحكام بين التجول بالمخالف في أحياء المدينة وبين الاعدام . فعندما يقوم شخص بالسعي بالنميمة التي تؤ دي إلى المشاجرة أو الخصام يلقي القبض عليه ويجرد من ثيابه العلوية وتوضع عليه الأصباغ الحمراء والسوداء والبيضاء ويركب حمارا ووجهه إلى مؤ خرة الدابة ويطوف بالمدينة والمنادي أمامه يذكر الجنحة التي إرتكبها [4] ، أما في حالة الغش والتدليس في السوق أو زيادة

---

(١) حركات ج ٢ ص . ٣٩

(٢) المجهول ـ تذكرة ـ ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٣) المكان السابق

(٤) السعدى ص ٩٠

أصحاب الحمير الذين يحملون السلع إلى الميناء أجور التحميل فان العقاب هو الضرب بالسوط في السوق نفسه ويختلف عدد الجلدات حسب الجنحة المرتكبة ، وكان الباشا يعتقل المتهمين في مكان بالقصبة إعتقالا مؤقتا إلى أن يتم البحث في قضيتهم وعندما تثبت التهمة يوضع كبل الحديد في يد المجرم ويقاد إلى السجن [1] أو يؤمر بمغادرة المدينة إلى جهة يحددها الباشا ولا يحق للمحكوم عليه بذلك النفي أن يخرج من منفاه [2] .

ولم يكن العقاب ينزل بأفراد الشعب فقط بل كان ينزل أيضا بالطبقات المثقفة والتجار . وقد قام أحد الكواهي بتنفيذ حكم صدر ضد شيخ قبيلة ، وكان ذلك الحكم هو الجلد بالسياط والنفي من تنبوكتو إلى مدينة بامبا [3] . وكان العمال الظالمون يثقفون في الحديد ويوضعون في السجون [4] ، وقد قام أحد الولاة بالقتل العمد والخروج عن أوامر الباشا فألقي عليه القبض وأعدم وألقي بجثته في النهر ، وكان الوالي برتبة (قائد) اسمه محمد التازي[5] . وفر أحد المطلوبين قضائيا من معتقليه وبعد إعادة إعتقاله قطع رأسه وأرسل إلى الباشا فعلقه في وسط السوق على جدار هناك [6] .

ولم يكن أعوان الباشا وخدمه بعيدين عن سلطة العدالة ، فقد قبض أحد الباشوات على أحد عبيده متلبسا بجرم ، وركب الباشا فرسه وقاد المجرم أمامه إلى السوق وأمر بقطع رأسه فتطاير دمه حتى علق بثياب سيده وهو يشهد تنفيذ ذلك الحكم [7] .

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ٢٣٥
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق ص ١٣٦
(٤) المصدر السابق ص ١٢
(٥) السعدى ص ٢٦٠
(٦) المجهول ـ تذكرة ص ٧٠
(٧) المصدر السابق ص ٣٠

وقد إختلفت أشكال الاعدام باختلاف الجريمة ، فمن المجرمين من كان يشنق أو يقطع رأسه بالسيف أو يذبح أو تشق جمجمته أو تقطع أطرافه أو يخنق بالسلاسل [1] ، ولم يكن الباشا يقبل شفاعة أحد في شخص حكم عليه بالموت ، وقد جرب القاضي أن يطلب الرأفة بأحد المغاربة ولكن الباشا نفذ فيه حكم الاعدام ـ كما كان يحدث أيام الأساكي ـ ثم سلمه للقاضي الذي تولى تجهيزه ودفنه في ضريح سيد أبي القاسم التواتي [2] .

ويبدو أن عدد السجون قد تضاعف في بداية العهد المغربي في السودان ، فبينما كانت توجد ثلاثة سجون في كل من تنبوكتو وغاو وديني [3] ، أصبح عددها ستة ، إذ زيد على الثلاثة الأول سجن (كون) [4] وسط حصن إلى الشرق من تنبوكتو ، وسجن (سلتي) الذي كان يتوفر على كل وسائل التعذيب ولعله كان واقعا أيضا بالقرب من تنبوكتو [5] ، وسجن (كروكي) في جبال هنبوري ببلاد الموسى [6] ، وكان سجن تنبوكتو يقع داخل القصبة [7] ، غير انه كان يوجد مكان للاستنطاق والتعذيب بالقرب من ميناء كبارا يدعى (أنكند) [8] .

ولقد قسا الباشوات على من كانوا يتهمون الناس بالباطل ويتسببون في إلحاق الأذى بهم ، فقد إتهم شخص مغربي يدعى محمد السباعي تاجراً سودانيا إسمه (سلتى محمد قلى) بالسرقة فقبض على المتهم وعذب ولكن الباشا إكتشف انه

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٤
(٢) السعدى ص ٢٣٧
(٣) زبادية ـ مملكة سونغاي ص ٧٥
(٤) المجهول ـ تذكرة ص ٩٤
(٥) السعدى ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦
(٦) المصدر السابق ص ٣٠١
(٧) المجهول ـ تذكرة ص ١٣٨
(٨) السعدى ٢٦٠

بريء بعدما إنتهى العدول من إحصاء أمواله ، فأطلق سراح التاجر وأنزل عقاب الموت بالشريف السباعي [1] .

وقد جنح بعض الباشوات الى الغلو في الأحكام كما مر بنا الآن ، وكان إذا خرجت قبيلة عن الطاعة وسعت في الفساد خرج لها الجيش وقتل كبراءها وسبى أطفالها ونساءها [2] ، وقد ظل حكم السارق قطع اليد ولكن بعض السرقات عاقب عليها القضاء العسكري المغربي بالاعدام [3] .

٩) البريد ولغة الادارة :

إهتم السعديون بتنظيم البريد بين مدن المغرب في إطار التنظيم الشامل الذي عرفته البلاد منذ صعود المنصور الذهبي على العرش ، وقد زاد ذلك الاهتمام عندما ترامت أطراف المملكة وتباعدت أقاليمها ، ونحن نعلم ما كان لدى المنصور من حرص على الاطلاع وتتبع الأمور الصغيرة والكبيرة في مملكته ، ومن أجل ذلك فلا غرابة أن نرى خدمات البريد الرسمية والعادية تنتظم بشكل يدعو للاعجاب بين أقاليم السودان والمغرب ، وبين مدن السودان بعضها مع البعض الآخر .

ولم يكن البريد بالشيء الجديد في هذه الأقاليم ، فهي كانت تربط بشبكة من الاتصال البريدي منذ عهود بعيدة ، وقد تحدث الرحالة ابن بطوطة عن دول ذلك الاتصال في خدمة العلاقات بين حوض البحر المتوسط وبلاد السودان ، وذكر كيف أتاه بريد السلطان يطلب منه الرجوع من بلاد السودان الى المغرب ، فوصلته رسالة الاستقدام عندما كان في مدينة (تكادا) في بلاد الحاووصا الشرقية [4] ، وقد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٥

(٢) المجهول تذكرة ص ٦ و ٧

(٣) كعتو ص ١٨٣ .

(٤) ابن بطوطة ص ٢١٠

رأينا أنه بعد وصول القائد جؤذر الى شرق أروان واستولى على ابل هناك بعث صاحب الابل برسالة شكوى الى المنصور السعدي فأتاه الرد ثم أمر السلطان القائد جؤذر بدفع ثمن الابل لصاحبها ، وكانت وسيلة البريد الذي تحمله القوافل هي المستخدمة في الاتصال .

ولقد كان في خدمة الحملة الأولى مجموعة من الجنود تنحصر مهماتهم في نقل البريد من المغرب واليه ، وأقر على رأس تلك المجموعة ، ضابط برتبة (بشوظ) أخذ رسائل جؤذر المخبرة بالفتح الأول الى السلطان [1] ، ثم أصبح البريد بين أقاليم السودان وبين المغرب يسير بعد ذلك بانتظام وخلال كل أوقات السنة ، ويمكن أن نرسم الخطوط البريدية بين الشمال والجنوب وداخل بلاد السودان كما يلي :

- تنبوكتو / مراكش [2]
- تنبوكتو / ميناء الصويرة بالمغرب عبر اروان [3]
- تنبوكتو / دييني [4]
- تنبوكتو / غاو عن طريق هنبوري أي الطريق البري الجنوبي [5]
- تنبوكتو / أروان [6]
- تنبوكتو / الجهات البعيدة [7]

---

(١) السعدي ص ١٤٣
(٢) المكان السابق ص ٣٢١
(٣) ذكر لانز أنه وجه رسالة من مدينة أروان الى اوروبا عن طريق الصويرة فوصلت للمرسل اليه .
(٤) السعدي ص ٣١٥ و٣١٨ وقد تحدث كاييى عن التنظيم المحكم للبريد بين المدينتين وقت سفره الى السودان .
(٥) المصدر السابق ص ٢٨٣
(٦) المصدر السابق ص ٣٢١
(٧) المجهول تذكرة ص ١٢٢ و١٢٣

وكان البريد على نوعين ، البريد الرسمي المتبادل بين الباشا وولاة الجهات وقادة الجيش أو القادم من المغرب في أمر عزل أو تولية أو على شكل أوامر سلطانية في شأن من الشؤون ، وكانت تدخل في هذا المجال الرسائل الاخبارية المفتوحة أو السرية ، وقد قدمنا ضمن الفصول السابقة أمثلة عن الظهائر والأوامر التي وصلت عن طريق البريد ، وبقي أن نذكر أن السلطان كان يخبر باشوات السودان بما كان ينجز في المغرب مما له صلة بالمجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية[1] وأن ولاة المناطق الصحراوية شمال النيجر كانوا ينقلون ما يصلهم من أخبار المغرب الى الباشا في تنبوكتو[2] . وقد كانت تلك المراسلات توجه ضمن جعاب من النحاس يدور بها اللحام من الجهتين ولا يجوز فتحها الا للباشا نفسه[3] ، كما أن بعضها كان مكتوبا بطريقة لا يتمكن من قراءتها وفك رموزها الا الباشا الذي يكون عارفا بمفاتيحها ، وهذا النوع من الرسائل (المشفرة) كان يخص أوامر محددة بالحرب أو السلم أو معاقبة قائد أو ضابط أو معاملة سلطان محلي أو يتعلق بطلبات خصوصية للسلطان . فقد اخترع المنصور أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها ما « لا يجوز الاطلاع عليه من أسراره ومهمات أموره واخباره فيمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح

---

(١) عثرنا على نموذجين من هذه الرسائل : الأولى موجهة من السلطان الى الباشا محمود يطلعه فيها على أحوال المغرب ، وعلى ورود بعض السفراء الأجانب الى مراكش ، والقضاء على ثورة وقعت في جهات فاس ، والأوامر المعطاة لرجال القضاء بلزوم العدل بين الرعية ، والاستعداد العسكري المستمر لفتح الاقطار البعيدة والقريبة (رسائل سعدية ص ١١٧ ، ١٢٣) والثانية موجهة الى الباشا منصور يخبره المنصور فيها بثورة الأمير الناصر الذي تحالف مع الاسبان وأوقد الثورة في مليلية وجبال الريف وبأن المنصور أعطى أمره لابنه بالخروج بجيش فاس وخرج هو من جهته بجيش مراكش ، وفي آخر تلك الرسالة الاخبارية الطويلة يذكر المنصور أن ولي العهد محمد الشيخ قضى على تلك الفتنة وكسر الناصر والمتحالفين معه ، ورغم ذلك فقد قرر المنصور أن يتجول بالانحاء الشمالية من البلاد لاعادة الاستقرار النفسي والطمأنينة الى الناس (نفس المصدر ص ١٧٢ ـ ١٧٨) .

(٢) بريد كاهية أروان الى الباشا في شأن موت مولاي محمد الشيخ بمراكش (السعدي ص ٣٢١)

(٣) كعتو ص ١٦٧

شيء من معاني الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من أسراره ولو ضاع الكتاب أو وقع في يد عدو فلا يمكن الاطلاع على أسراره[1] » .

أما النوع الثاني من المراسلات فهو يتعلق بالمخابرات التجارية والاجتماعية ، ويكون خاصا بالسكان المدنيين وسكان القرى والجهات[2] وهذا الصنف يمكن تعريفه بالبريد الأهلي .

وقد كان يطلق على الرسالة (البراوة) في السودان[3] أما في المغرب فالاسم هو (البراءة) ، وكان أصحاب البريد الرسميون موظفين في الادارة المغربية يتقاضون أجورهم من السلطات الادارية في السودان والمغرب عند تلقي البريد من المرسل ، أما الرسائل الشخصية التي كان يحملها البريد فكان المرسلون يؤدون ثمن نقلها بحسب بعد المكان المقصود[4] ، واذا كان هذا المكان بعيدا عن المصدر وجب على مستلم الرسالة أن يهيىء مكانا لاقامة صاحب البريد الى أن يستريح ويستطيع مواصلة الطريق أو العودة الى المدينة التي خرج منها[5] ، وأهم شيء كان من الضروري أن يتوفر عليه صاحب البريد هو عنصر السرعة في تبليغ الرسائل ، فقد حدد جؤذر للباشوظ على العجمي أربعين يوما للذهاب الى مراكش والعودة الى السودان[6] ، وهذا شيء قياسي عندما نعلم أن جؤذر أمضى أربعة أشهر ونصف في رحلته من الشمال الى الجنوب وان محمود باشا قطعها في ثلاثة أشهر .

ويقص علينا المؤرخون أخبار الاستقبال الحار الذي كان يخصص لأصحاب

---

(١) الافراني ، النزهة ، ص ٢٠٢ ، الناصري ج ٥ ص ١٨٨
(٢) المجهول ـ تذكرة ص ١٠٥
(٣) المصدر السابق ص ٥٦
(٤) المصدر السابق ص ٥٦
(٥) المصدر السابق ص ١٠٥
(٦) المصدر السابق ص ١٢٢ و١٢٣
(٧) السعدى ص ١٤٢

البريد عند وصولهم . فقد كان الناس يخرجون الى ظاهر المدينة لتلقي ما يحمله صاحب البريد من أخبار[1] ، وعندما يصل رسول من السلطان برسائله وظهائره كان الناس يجتمعون في الطرقات لتحيته ويطوفون معه في المدينة ويتبارون في اكرامه والانعام عليه[2] .

ولقد كانت لغة التراسل والمعاملات الادارية بالسودان هي اللغة العربية ، فبالاضافة الى انها كانت اللغة الرسمية عند السعديين ، فانها اعتبرت أكثر اللغات شيوعا في بلاد السودان ، وقد استعان الأساكي في دواوينهم بكتاب مغاربة اتقنوا اللغة العربية منذ عهد سنى على الذي استوزر العالم المغربي ابراهيم الخضير الفاسي وابنه (هويا) من بعده[3] ، وقد كانت لغة قبائل السونغاي تشتمل على ثلاثين في المائة من الكلمات العربية في بداية الحكم المغربي للسودان ، ثم تعربت تلك القبائل على مر السنين حتى أهل المدن لم يعودوا يستعملون سوى اللغة العربية والكتابة العربية[4] ، وكان يوجد في تنبوكتو ودييني كتبة عموميون يقرأون الرسائل الواردة على السكان أو يحررون لهم رسائلهم الى مختلف الجهات مقابل أجر معلوم ، أما الطبقة المثقفة فلم تكن تستخدم سوى اللغة العربية ، وقد ألقيت الدروس، والمواعظ بالعربية أو باللهجة العامية المغربية وفي بعض الأحيان كان الفقيه أو المؤدب أو الواعظ يقدم خلاصة لدرسه ببعض اللهجات حسب نوعية الحضور[5] .

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ١٠١

(٢) المصدر السابق ص ٩٥

(٣) يقول السعدي بأن سنى على نقم على وزيره وكاتبه ابراهيم الخضير وأمر بقتله فلم يمتثل عبيده للأمر واخفوا الرجل ، وعندما أتت رسالة باللغة العربية ولم يعرف أحد قراءتها أخبر العبيد سنى على بأن الكاتب لا يزال على قيد الحياة ، فاعاده لخطته وأكرمه (السعدي ص ٦٨)

(٤) Gat. «a Travers le Desert» P 128 caille journal T. 2. P211

(٥) زبادية ـ مملكة ص ١٤٨

وأخذت اللغة الاسبانية مكانتها في الادارة المغربية بالسودان كلغة ثانية ، وكان الشأن كذلك في مراكش لأن أغلب قادة الجيش المغربي ونسبة مهمة من الموظفين كانوا علوجا أو أندلسيين لا يحسنون الكتابة باللغة العربية حتى أصبحت اللغة الاسبانية تضاهي اللغة الرسمية في انتشارها[1] ، وكانت اللغة البرتغالية تأتي في الدرجة الثالثة من حيث الاستعمال في الدواوين ، ولكن معرفة كبار الموظفين والضباط بها كان سطحيا فلم تبلغ ما بلغته اللغة الاسبانية التي كانت تصاغ بها المراسلات الرسمية[2] ، وقد ذهب بوفيل الى الحد الذي اعتبر فيه بأن لغة السودان الرسمية كانت هي الاسبانية[3] ، وهذا رأي مبالغ فيه بشكل واضح .

غير أنه ينبغي التمييز بين اللغة التي كان يستعملها الجيش في التخاطب الشفوي وحتى المكتوب ، وبين لغة الادارة ككل ، ونحن نعلم أن الأوامر التي صدرت للضباط والجنود بالسودان كانت بالاسبانية وعلى التحديد باللهجتين المعروفتين في جنوب اسبانيا (الاندلسية والرينيغات)[4] ، وقد أورد كعتو جملة من التعابير الاسبانية كانت تجري على لسان الجيش المغربي في شكل أوامر وكلمات للانضباط[5] ، أما فيما يخص الادارة فانها كانت تسير في الغالب باللغة العربية ، ولم نعثر في أي مصدر قديم أو حديث عما يخالف ذلك . ومن دون شك فقد كان باشوات السودان يتخذون كتابا ومترجمين لتحرير رسائلهم أو للتفاهم مع بعض القبائل التي لا تعرف العربية ، وقد استعان جؤذر ومحمود في ترجمة الرسائل والاحاديث بالأمين حمو الدرعي وببعض الطلبة السودانيين وبوزير سوداني سبق له أن تقلد منصب الملك هو بكر لنبارو ، وكان ذلك الوزير يحمل لقب ألفع (أي الفقيه) ، ومع مرور الزمن كان حرص باشوات السودان على تعلم اللغة الرسمية

---

(1) Daver dun «Marrakech» T. 1 P 442

(2) حجي ص ٦٧

(3) بوفيل مصدر سابق ص ١٩٣

(4) تاريخ الفتاش / الترجمة الفرنسية هوداس حاشية ٢٩١

يزداد ، وقد روى صاحب التذكرة أن أحد الباشوات كان « طالبا كيسا سريع الفهم حاضر الجواب يتكلم بالكلام العربي بلسان فصيح كاد أن يفصح من بعض العرب[1] ويؤلف مع العربان ويمشي عندهم في الخيامة ويزوح منهم[2] واذا رأى العالم يكرمه جدا جدا ويسأله عن المسائل ، وكذلك اذا رأى طالب العلم يسأله عن المسائل والالغاز ولا يفارق معه حتى يعرف قدره في العلم والمعرفة »[3] .

وقد حرص الباشوات على تنميق رسائلهم وتدبيجها ، واتباع الأسلوب المخزني في الاستهلال والخاتمة وركوب السجع والمحسنات اللفظية ، وقد كتب عبد الرحمان السعدي صاحب تاريخ السودان عندما كان في وظيفة كاتب للباشا رسالة اعتذر فيها هو نفسه عما حوته من الجمل المزخرفة وسنسوق نتفا منها للدلالة على أسلوب المكاتبات الرسمية في السودان المغربي :

« الحمد لله وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ؛

الابرار المكرمين الأخيار المعظمين الأنجاد المرعيين الاسناد المرضيين القائد منصور بن مبارك الدرعي وكافة من معه من القياد والكواهي والمقدمين والباشوظات وضباشيات وسائر الولضاش رعاكم الله وأنجدكم وأعانكم وسددكم وأصلح بمنه كافة أحوالكم وبلغكم من جميع الخيرات والمسرات مناكم وآمالكم ، سلام تام عميم عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية ونعم الله المتوافية ، كتبناه لكم لله الحمد وله الشكر على ما تشوقتم اليه من معرفة أحوالنا وأخبارنا حسبما هو مسطور في كتابكم الكريم الذي ورد علينا صحبة مراسيلكم في مرسى (كرونزوفي)[4] فأدركنا كل ما تحبون لنا وتتمنون من العافية الباسطة الوافرة والنعم

---

(١) كعتو ص ١٦٤

(٢) كذا في النص

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٢٢

(٤) احدى مراسي تنبوكتو الثلاثة (كابارا ـ مغدكو ـ كرونزوفي) السعدي ص ٢٧٧ و٢٩٢

السابغة الفاخرة .

« لقد وصل بنا السير الى سفح الجبل بعناية من بيده القوة والحيل وسلكنا منها مسلكا ما سلكه أحد قبلنا لا من الأسلاف ولا من الأخلاف فصرفنا لاربابها من مشارقها ومغاربها . . فأجابوا دعوتنا وأنابو لسطوتنا . . وجددوا لمولانا نصره الله تعالى البيعة والطاعة وقالوا (كلما أردتم منا من الخدمة فالساعة الساعة) ، وتبرأوا من جميع أعدائنا وقلعوا من رقابهم كل عروة الا عرى طاعتنا ، وطلبوا منا الأمان على مهجتهم وبلادهم فأعطيناهم ذلك العهد والميثاق فنهضوا معنا الى لحاق ذلك الأبعد الخاسر . [كانت تلك الحملة ضد الوثنيين في هنبوري] .

« وقد سمعنا خبر التوارك أوليمدن الذين نزلوا عليكم ، فان رأيتم فيهم الغرة فلا تتركوهم بل اقتلوهم قتل عاد وثمود . . فان كنتم تقدرون على ذلك بأنفسكم فعلى بركة الله ، والا فاكتبوا للقائد محمد بن عيسى الكوش (بيامبا) أن يمدكم بكل من كان معه من الرماة والعرب ، ولا تفشوا سركم حتى يمكنكم الله فيهم ، لئلا يأخذوا حذرهم منكم ، لأن الحرب خدعة ، بارك الله فيكم وكان لنا ولكم وليا ونصيرا وبه كتب يوم السبت ثاني رجب الفرد عام السابع والخمسين والألف (١٦٤٧) في مرسى كرونزوفي .

خديم المقام العالي المحمدي نصره الله ، صاحب السعادة الباشا أحمد بن عبد الرحمان الحيوني لطف الله به بمنه وكرمه » .

١٠) الادارة الاقليمية أو الجهوية :

كانت مملكة السونغاي مقسمة منذ عهد الأسكيا الحاج محمد والى عام ١٥٩١ الى ست مناطق إدارية أطلق عليها الولايات ، ووضع الأسكيا على رأس كل منها أميرا وقائدا عسكريا كبيرا وأعطاه لقبا بحسب أهميته وطبقته لا بحسب أهمية

الولاية نفسها ، فكان هناك (كويبي) و(فارن) و(فرنا) و(منزو) و(فـاری) و(كلشع) و(ويری) وكل من هذه الألقاب تعني الحاكم أو الوالي في الواقع . ورغم أن بلمعو أو الأمين العام للملكة كان يشرف قانونيا على سير الولايات فان ذلك الاشراف ظل اسميا ، بحيث يمكن القول أن نوعا من اللامركزية كان يسود الادارات المحلية بل ان الحكم في بعضها اتسم بالاستقـلال الاداري وذلك كان شأن دييني .

أما الأقسام الادارية في عهد الأساكي فهي ستة :

- كورما (منطقة شاسعة غرب غاو على ضفة النيجر اليمنى) قاعدتها تنديرما .
- هاريباندا شرق غاو قاعدتها كوكيا
- بالاما (جنوب تنبوكتو ونهر النيجر) قاعدتها هنبوري
- دندی (جنوب كوكيا) قاعدتها جوجيا
- بانغو (حول بحيرة ديبو) قاعدتها دييني
- ولاية النهر قاعدتها غاو ويتولاها بلمعو نفسه[1]

وقد بدأت التنظيمات الجهوية تتبلور منذ السنة الأولى لوصول الباشا محمود (بداية ١٥٩٢) ، وفي نهاية القرن السادس عشر كانت الادارة الجهوية قد أخذت شكلها النهائي ، وبدت المناطق السودانية مقسمة الى أحد عشر اقليما هي التالية :

اقليم تنبوكتو : (ولم يكن يشمل المدينة نفسها لأنها عاصمة والحكم فيها للباشا نفسه) ، وعين على رأسه منذ قيام الحكم المغربي أحد كبار القواد مصطفى التركي ، وقد حدد صاحب تذكرة النسيان نطاق مسؤ ولية ذلك الحاكم أو العامل ، فحكومة البلد كانت تعني الحكم على أطرافها وضبط الشؤ ون واقرار الأمن وجمع

---

(١) زبادية ـ مملكة ص ٣٤

الخراج[1] وأهم القرى التي كانت تحت اشراف ذلك الحاكم من الشرق الى الغرب : كارابار وتوغايا ودوعاييى وكبارا وابراز وتقف حدود عمالته عند الضفة اليسرى لنهر النيجر .

اقليم ديينى : كان في اقليم ديينى عامل مغربي برتبة قائد الى جانب حاكم من أبناء البلد أطلق عليه الحاكم أو السلطان وهو يتبع نظريا الأسكيا المقيم في تنبوكتو ويزاول سلطاته على نمط ديمقراطي ، فله مجلس استشاري وجيش خاص ، وقد ظل الوضع على هذا النحو الى عام ١٦٣٨ حين عزل الباشا مسعود الحاكم التقليدي عبد الكريم وولى عبد الله ابن الباشا أحمد بن يوسف مكانه[2] .

وقد تولى عمالة دييني في الحقبة المعينة لهذا البحث على التوالي الباشوظ على العجمي ، ثم القائد مامى بن برون الذي بقي عامين بها ، ثم باقصو الدرعي ثم ابار رضوان[3] ثم برهم الدرعي ثم بارضوان مرة أخرى ثم العربي ولد موم ثم أحمد البرج[4] ، وكانت العمالة من أخصب مناطق السودان وأكبرها مساحة وقد امتدت من بحيرة ديبو في الشمال الى أرض المحمدية (شمال باماكو) في الجنوب ، وضمت مدن موبتي وكومبا وكومبي ونناندوري وسان .

اقليم رأس الماء (بين تنبوكتو ودييني باتجاه الشمال الغربي) ، قاعدته قرية رأس الماء ، وقد بنى أول عامل للاقليم القائد بن داود قصبته في القرية وأقام الحراسة في المدن المجاورة التابعة له[5] ، ولكن المنطقة المأهولة بالتوار والزغرانيين

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ١٤٣
(٢) السعدي ص ٢٦٢
(٣) المصدر السابق ص ٣٠٥ كان الى جانبه حاكم آخر من قبل الجيش بموجب تقسيم السلطة بين الجيش والحاكم المدني وكان يدعى سيدي منصور .
(٤) المكان السابق ، وقد ذكر هنا اسماء ٣٣ حاكما لمدينة ديينى .
(٥) المصدر السابق ص ١٦٥ .

والأعراب والوثنيين شهدت اضطرابا متواصلا ذهب ضحية له أول حاكم مع كل افراد الحامية وهو ابن داود المذكور ، ولقد طبق في هذا الاقليم ما كان مطبقا في دييني حيث انشأ المغاربة سلطنة للتوارك في تلك الجهات جعلوا على رأسها السلطان أكنزر ، وأدى هذا التدبير الذي اهتدى اليه القائد جؤذر الى استتباب الهدوء في تلك المناطق[1] ، وكانت مدينتان تتبعان عمالة رأس الماء هما : غانط وأوغام .

اقليم ديرما (شمال غرب دييني وجنوب رأس الماء) ، عاصمته تانديرما التي كانت بها دار حاكم المنطقة منذ عهد السونغاي ، وحصن أخذ القائد علي بن عبد الله التلمساني في ترميمه وتحصينه ، ومن أهم مدن هذا الاقليم كوندام وونزع وبارا أما حدوده الشرقية فهي ضفة النيجر اليسرى[2] .

اقليم بامبا (شرق اقليم تنبوكتو) كانت بامبا ثالثة جهة توجهت اليها عناية المغاربة بعد تنبوكتو ودييني نظرا لأهميتها العسكرية واشرافها على الطريق النهري والبري المتجهين نحو الشرق ، وقد بنى بها محمود باشا ثاني قصبة في السودان من حيث الكبر ، وكان أول عامل للمنطقة القائد مصطفى بن عسكر[3] ثم القائد عبد الله الهندي ، ومن المدن التي تبعت بامبا بوريم وتوصايا وكابنكا .

اقليم غاو : وكان يشمل المدينة وضاحيتها فقط ، وقد تولى عمالة اهلمدينة عند دخول محمود باشا اليها القائد احمد بن الحداد ، ثم عين السلطان صدره الأعظم وأحد كبار قواده محمد بن البركة حاكما على المدينة ، ومما يلفت النظر أن أهمية مدينة غاو قد نقصت كثيرا في عهد المغاربة ولم تعد من بين كبريات المدن في السودان المغربي .

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٣

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ و١٩٤

(٣) المصدر السابق ص ١٦٨

اقليم كورما وهنبوري (غرب غاو على الضفة اليمنى لنهر النيجر) ، كان من أهم الولايات في عهدالأساكي وقد احتفظ بتلك الأهمية للضرورة العسكرية والسياسية ولأن سكانه كانوا في أغلبيتهم من السونغاي واحتفظوا باستمرار بالولاء لملوكهم ولقد كان قائد الاقليم على بن مصطفى يقيم في غاو نفسها[1] أما أهم مدن الاقليم فهي غانكيا على النهر ودورى وهنبوري في الجبال .

اقليم دندى : أول حاكم عين في هذه الجهة التي شهدت أكبر المواجهات والحروب بين الأسكيا محمد كاغ ونوح وبين محمود باشا هو القائد الشهير الفتى عمار ، وكانت قاعدته قلعة كلن[2] ، وقد تعرضت القلعة التي بناها حاكم المنطقة عمار للتخريب والاغارة المتواصلة ، ولهذا السبب فان عامل دندى قد استقر بعد ذلك في كوكيا باعتبار أنها أقرب مدينة الى الجهات الجنوبية . وقد هدمت هذه الأخيرة أيضا .

اقليم كبي : يظهر أن هذا الاقليم الذي يقع الى الشرق من دندى داخل بلاد الحاووصا وضمن مملكة كانطا التي تحدثنا عن حرص السلطان على المحافظة لها على كل مظاهر استقلالها قد اعتبر رغم ذلك ضمن الاقاليم المشمولة بالحكم المغربي ، فنحن نجد أن قائدين قد عينا في تلك الجهات في فترتين متباعدتين وهما القائد أحمد بن يوسف والقائد حدو[3] .

اقليم أروان : يقع مركز ذلك الاقليم الذي يعرف بنفس الاسم على بعد ٢٥٠ كيلومترا شمال تنبوكتو ، وتتجلى أهميته في كونه عقدة للمواصلات البرية ، وتوسطه لمجموعة من القبائل العربية التي لم تكن منضبطة في العهد السابق

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٦

(٢) يبدو أنها غير قرية كولان الواقعة على الضفة اليمنى للنهر في تلك الجهة نفسها .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٧ و ٢٢٣

للحكم المغربي ، ولا نعلم الا حاكما واحدا لهذا الاقليم هو الكاهية منصور بن عبد الله العلجي الذي كان يتولى قيادة الاقليم في عام ١٦٥٤[1] .

عمالة النهر : لقد رأينا الأسكيا يعطي لهذه العمالة الأهمية الأولى من بين اقاليمه ويجعلها تحت امرة الأمين العام لمملكته ، والواقع أن نهر النيجر لم تكن أهميته منحصرة في المبادلات التجارية بل كانت تأتي كذلك من اعتبار الاشراف عليه من العوامل الحاسمة في المواصلات والأعمال الحربية ، وقد كان عامل النهر يستقر في جزيرة (زنتا) وسط النهر الى الجنوب الشرقي من تنبوكتو ثم تحولت العاصمة النهرية الى جزيرة (تورى) القريبة من ديني وكان العامل في هذه الأخيرة هو القائد محمد العربي آمر سرية الشراكة[2] .

كانت هذه العمالات بصفة عامة تابعة لحاكم الأرض جؤذر باشا الذي أحدث الى جانبه وظيفا أطلق عليه عامل العمال ، ونصب فيه أحد القواد المخلصين له الآثرين لديه القائد حدو ، وكان هذا القائد يتولى مراقبة العمال الأحد عشر ويتتبع سيرتهم في الاقاليم ، وقد ظل في منصبه ذاك سبع سنوات يفعل في عمالاته ما شاء دون محاسبة ، ولكن الوشاة اتهموه بالتلاعب في أموال الخراج فسجنه جؤذر ثم أفرج عنه ليصبح عاملا على اقليم كبى[3] المذكور .

وكان قائد الناحية يلقب بالحاكم أو العامل ويدعى الموظفون الذين يعملون معه بمن فيهم العامل نفسه (بالحكومة)[4] وهؤلاء الموظفون كانوا مرتبين في درجات ، فهناك الحاجب وكاتم السر وأصحاب المشورة والقاضي وصاحب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢١

(٢) المصدر السابق ص ٣١٨

(٣) المصدر السابق ص ٣١٣ ، وكبى الشرقية هي غير قلعة كوبى الواقعة بالقرب من ديني .

(٤) المجهول ـ تذكرة ص ١٥٦

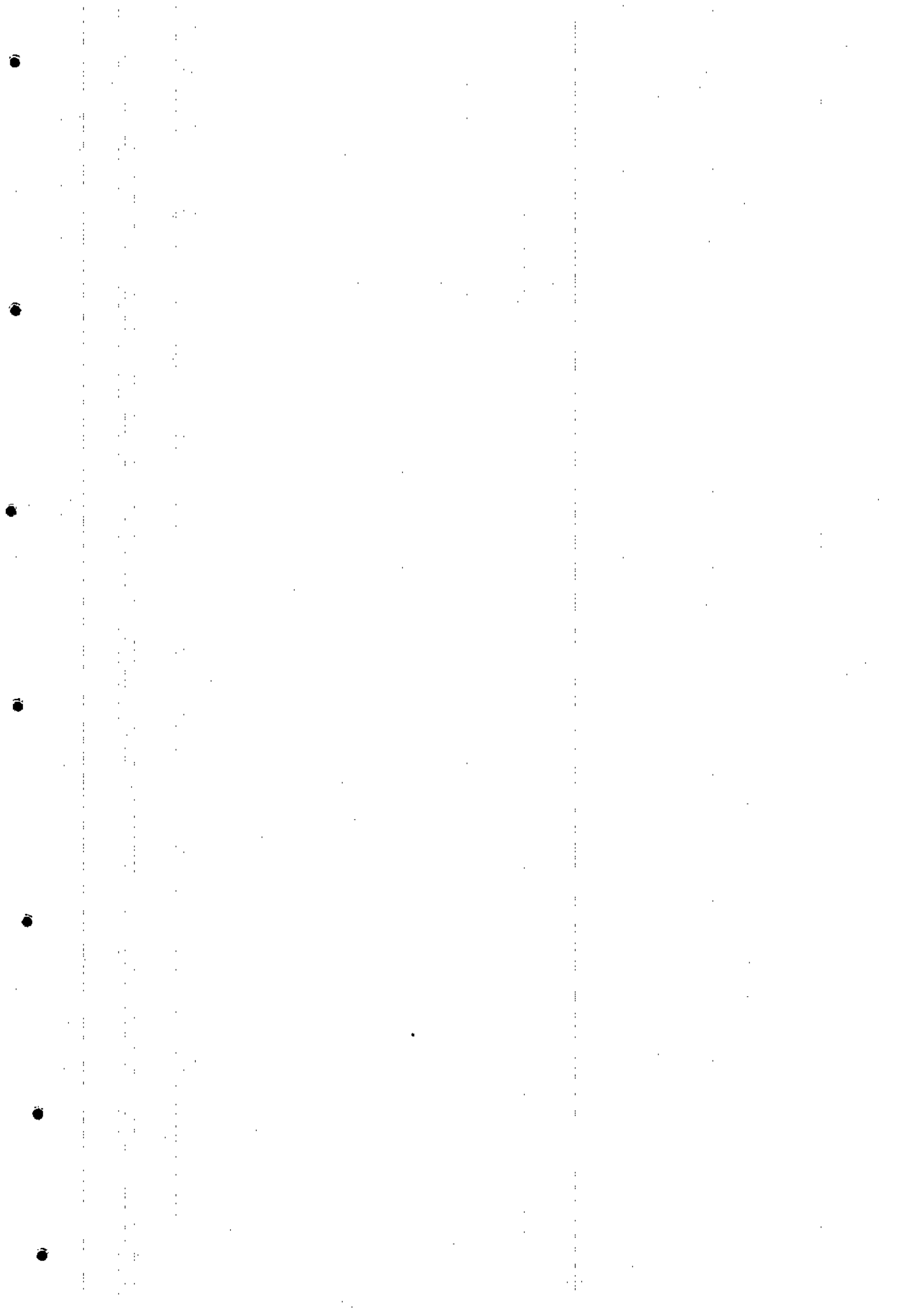
المظالم[1] والأمين ثم الشاوش ، وهو عنصر التحريك والضبط في الحكومة المحلية حيث يتولى تنظيم (حركة العامل وترتيب صفوفها واعداد متطلباتها ويتولى كذلك الكتابة الى العاصمة تنبوكتو أو الى الجهات الأخرى[2] ، وللشاوش جملة من المساعدين ولكنه يرجع في كل شؤ ونه الى الموظف الأكبر منه (كاتم السر) الذي يحتفظ بالرسائل والأخبار ويحجبها عن الاجانب « وان كانوا أحب من كل حبيب وأقرب من كل قريب »[3] .

---

(١) الافراني/ النزهة ص ١٤٧

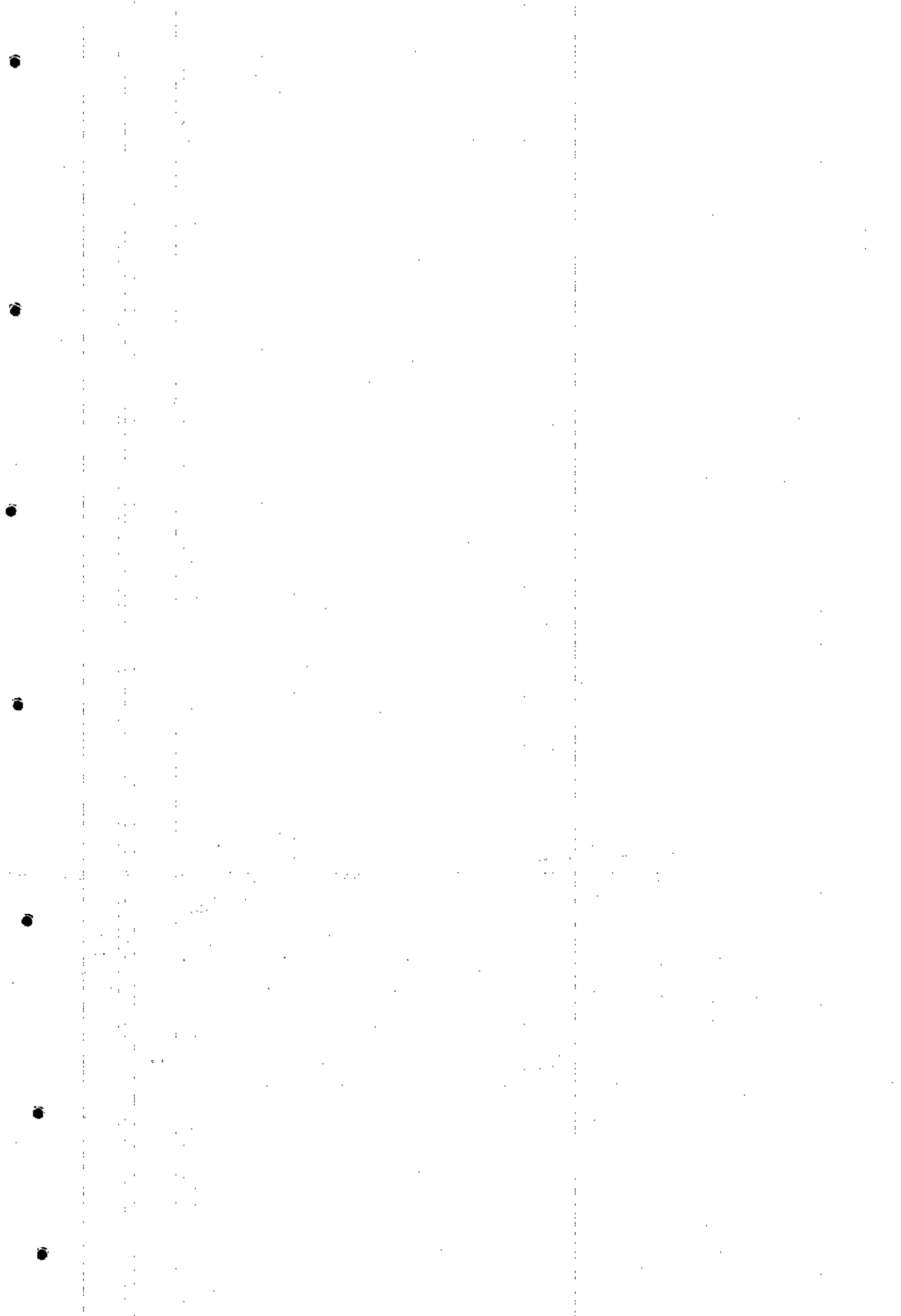
(٢) الفشتالي ص ٢٠٢

(٣) الافراني ـ النزهة ص ١٤٩



الباب الثالث

الأثر المغربي على النمو الاقتصادي والتطور الفكري والحضاري



الفصل السابع

الأثر المغربي على النمو الاقتصادي

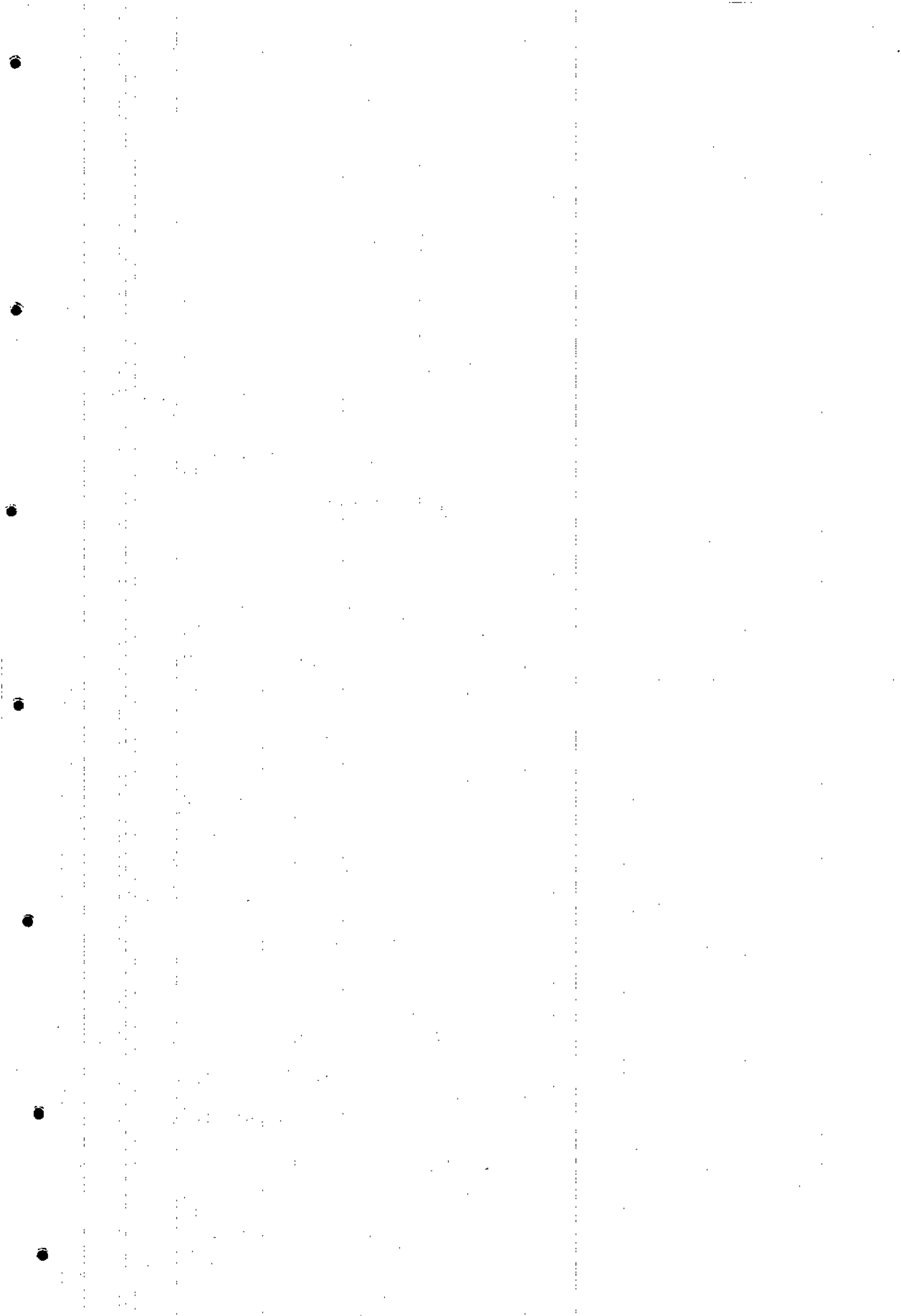
١) التجارة : مقدمة

الأوزان والمكاييل والمقاييس
التجارة الخارجية والداخلية ـ الأسواق
التجارة المحلية .

٢) طرق المواصلات : طرق القوافل
المنازل وسلامة القوافل
النقل النهري

٣) الفلاحة والصيد : الحيوان والصيد النهري
المزروعات والمزارع
الري

٤) المواد الخام والصناعة : المصنوعات القطنية والصوفية
الدباغة وصناعة الجلود
الصناعة الفنية
صناعة الحديد والأسلحة والخزف والخشب وصناعة البناء
صناعة الخبز والمسالخ
صناعات مختلفة .



ليس هنالك من سبيل الى انكار التطور الذي عرفته الحياة الاقتصادية في اقليم السودان منذ وصول المغاربة والى الوقت الذي حل فيه الجيش الفرنسي بتلك الربوع ، واذا كانت الدراسات الأجنبية التي نشرت حول هذا الجانب الهام لا تتسم بالوضوح المطلوب وخاصة فيما يتصل باستغلال المغرب لخيرات السودان وبقضية الذهب السوداني ، فاننا لم نجد مبررا علميا لذلك القصور سيما وأن تلك الدراسات الأجنبية نفسها لم تستطع أن تخفي الآثار العميقة والايجابية للمجهود المغربي في الميدان الاقتصادي .

لقد أثر الوجود المغربي في السودان على نحو لا يقبل التأويل أو الشك في الأسس البنيوية للاقتصاد السوداني مما أدى الى احداث تغيير جذري في كمية ونوعية الانتاج وفي التصنيع والتجارة وساهمت ظروف الأمن والتنظيم الاداري الجديد والقوانين التجارية في تطوير ونمو اقتصاديين كبيرين .

كان الأثر الأول للوجود المغربي في السودان هو الوحدة الادارية بين اقاليم السودان ، ففي عهد الأساكي الخمسة السابقين للحكم المغربي كانت امبراطورية السونغاي التي وحدها الاسكيا الحاج محمد قد تفرقت الى ممالك وامارات واقاليم اقطاعية ، وحتى في فترات السلم والأمن التي كانت تسود تلك الأقاليم في بعض الأحيان ، فان القيود التعسفية التي كانت تفرض على التجارة جعلت انتقال السلع بين جهة وأخرى يكتنفه التعقيد . وتمثلت تلك القيود في فرض الضرائب عند

أبواب المدن وأخذ االغرامات، والاتاوات الباهظة لخزائن الحكام . ويضاف الى تحقيق الوحدة التي حققها المغاربة عودة الأمن والنظام واختفاء قطاع الطرق الذين كانوا في السابق يوالون السطو على القوافل البرية والسفن التجارية .

والأثر الثاني للحكم المغربي كان تزايد اقبال التجار على نقل بضائعهم من والي المغرب ، فالأوضاع التي خلقها النزاع المستمر على مناجم الملح انعكست بشكل سلبي على التواصل التجاري بين الجانبين ، ومع اختفاء ذلك النزاع واسبابه والأوضاع التي نتجت عنه أخذت التجارة في الاتساع والنمو وبدأالحديث عن القوافل التي تضم آلاف الجمال التي كانت تقطع الصحراء من الجهتين .

والأثر الثالث تمثل في استيلاء الحكومة المغربية المحلية وبالتالي مخزن مراكش على مناجم الذهب والملح والنحاس باعتبار أن حكم الشرع فيها يقضي بملكية السلطان لها ، ونحن وان كنا نجهل ـ بمقتضى ما بين أيدينا من وثائق الطريقة التي كانت تدار بها تلك المناجم المحروسة بالجيش ، فاننا نجزم بأن أمر الاستثمار والنقل والبيع قد شهد تبديلا جوهريا ، ونستدل على ذلك من ارتفاع قيمة الذهب .

والأثر الرابع تحول المعاملات في الجملة عن المقايضة الى التعامل النقدي ، وهو أمر أثر بكيفية مهمة على التوازن والنمو الاقتصادي في السودان .

وسنرى في هذا الفصل أن ذهب السودان لم يكن يذهب كله الى خزائن سلطان المغرب ، بل وأكثر من ذلك فان القسم الأعظم منه كان يدخل دار السكة في تنبوكتو ويضرب مثاقيل ودنانير لم تكن تشبه لا في الشكل ولا في الوزن مثيلاتها في الشمال .

والأثر الخامس هو ادخال الموازين والمكاييل والمقاييس الى السودان على يد المغاربة وقد أدى ذلك الى وحدة المعايير السودانية وخضوعها جميعاللدقة المطلوبة

في ميدان التجارة والمعاملات الأخرى والى كبح الغش والتدليس واسقاط الوساطات والمزايدات التي كانت احدى عيوب التجارة السودانية القديمة .

والأثر السادس تنظيم الأسواق المحلية على شاكلة ما كان يوجد في المغرب الشمالي ، فبينما كانت الأسواق الكبرى تعقد كلما قدمت قافلة أو همت قافلة بالتوجه الى الشمال ، وكانت الأسواق الصغرى عبارة عن اتصالات بين القبائل للمقايضة ، أصبحت هناك أسواق يومية في كل المدن الكبرى ، وأسواق اسبوعية في القرى تعقد فيها البيوع على أساس التعامل النقدي بضمانة أكيدة وموثوقة من بيت المال بتنبوكتو .

والأثر السابع ظهور الصناعة التحويلية والكمالية على نحو لم تعرف له السودان نظيرا من قبل ، ولقد كان للأعداد الكبيرة من الصناع المهرة الذين صحبهم جؤذر معه الى السودان أو الذين توافدوا بعد ذلك الى البلاد الأثر المحمود في خلق صناعات جديدة وتحسين الصناعات البدائية التي كانت معروفة قبل مجيء المغاربة الى السودان .

والأثر الثامن تمثل في نقل بذار ومزروعات جديدة الى السودان بما في ذلك أنواع من الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر ، وكذلك في تحسين المزروعات التي كانت موجودة عن طريق تنظيم الدورة النباتية ، واختيار الأماكن الصالحة لكل نبتة واستخدام السماد الحيواني المركب ، وضمن هذا المجال ايضا سنرى الأعمال الهامة في ميدان الري وشق الأقنية وتحويل أذرع نهر النيجر التي أنجزها المغاربة ولم تمر على مجيئهم الى تنبوكتو سوى بضعة أشهر .

١) التجارة

لا يمكن بحال من الاحوال الادعاء بأن المغاربة قبل القرن السادس عشر أو بعده هم الذين ذللوا الحاجز الصحراوي بين الشمال والجنوب وسيروا القوافل فيما بين البحر المتوسط وبلاد السودان ، فذلك قديم قدم الانسان في هذا الجزء من افريقيا وساهمت فيه الشعوب البيضاء في الشمال والشمال الشرقي والشعوب السوداء جنوب الصحراء معا .

فالتجارة بين الافريقيتين كانت باستمرار العمود الفقري للاقتصاد السوداني وللمدن الواقعة جنوب جبال الأطلس وفي فزان وبلاد النوبة ، ولم تتوقف قوافل التجارة في أي وقت الا اذا قامت ظروف بشرية أو طبيعية لا تأخذ صفة الاستمرار لضعف التبادل التجاري دون أن توقفه ثم زالت ليعود ذلك التبادل الى قوته وكثافته .

وكان الأصل في قوة التبادل التجاري هو تنوع المنتوجات والمستوى الحضاري بين الشمال والجنوب ورغبة مدن حوض البحر المتوسط في الحصول على الذهب والرقيق والعاج ، ومدن السودان في المصنوعات والحلي ، وظلت تلك الحاجة التي حملت معها التعب والربح للتجار باستمرار متوالية بتوالي القرون ، ولكن ظهر الى جانبها عامل قوي أتى في أعقاب دخول الاسلام الى الشمال الافريقي وهو ايصال الدعوة الجديدة الى مجاهيل افريقيا عن طريق الغزو حينا وقوافل التجارة احيانا ولقد كان الاسلام حليفا للتجارة في انطلاقته عبر الصحراء ، وعلى ذلك الحلف القوي قامت كل أشكال الحكم في امبراطوريات غانا ومالي والسونغاي[١] ، غير أن نشر الاسلام في الجهات التي لم تصلها جيوش الفتح بافريقيا السوداء يعود الفضل فيه الى التجارة وحدها[٢] ، فقد ذهب الدعاة مع

(١) دافيد سون ـ مصدر سابق ص ١٦٠

(٢) توماس أرنولد ـ الدعوة الى الاسلام ـ مترجم ـ القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٧١ ـ ٣٨٢

القوافل ، وكان بعض التجار قد نالوا قسطا من العلوم الدينية وطمعوا في ثواب نشر الدين وتعليم الوثنيين شؤ ونه ، وعندما نرى أن القبائل التي تصدت للتجارة ، وهي قبائل صنهاجة ومسوفة ولمتونة وبني معقل في الشمال والتكرور (التوكولور) في الجنوب كانت كلها مسلمة[1] ، ندرك مدى دور الدين في دفع النشاط التجاري وتقويته ، لقد كان جواز المرور لكل تاجر يلتحق بقافلة من القوافل هو الدين الذي دخل افريقيا بهدوء ، وكان أهم انجازاته تغيير الوجه الاقتصادي في البلاد التي وصل اليها ، ويبدو أن ما أنجزه الفتح الاسلامي الأول وحملتي الأدارسة والمرابطين لا يعدو أن يكون عملا ثانويا بالنسبة لما أنجزه التجار على مدى قرون كثيرة .

ومنذ القرن السابع أخذت المدن على الأطراف الشمالية والجنوبية للصحراء في النمو والتوسع استجابة لزيادة المبادلات بينها ، وأهم تلك المدن سجلماسة وتونس وطرابلس والقاهرة وكومبى وتنبوكتو وديني وغاو ، وأصبحت طبقة التجار في المدن الأربع الأخيرة ذات يسار ورفاهية مع تطلع مستمر الى الحكم والقيادة . وكان الحي التجاري في كل منها يعج بالعرب والبربر الذين ساهموا بالقدر الوافر في ازدهار حركة العلم والتدريس ونقلوا معهم عاداتهم وأساليبهم الحضارية في المأكل والملبس والعلاقات الاجتماعية والسكنى[2] ، وهكذا فقد كان الدافع التجاري حافزا مهما وفريدا للاحتكاك البشري وايصال الهدى الروحي ولم تقف في وجه ذلك مصاعب الطريق ولا عامل الوقت الذي ظهر وكأنه لم تكن له من القيمة ما له اليوم .

وبحلول الحملة المغربية ببلاد السودان تغيرت الأسس القديمة التي كانت تقوم عليها التجارة بين السودان وبلاد البحر المتوسط ، فقد تضاءل عدد القوافل

---

(١) بوفيل ص ١١٢
(٢) نعيم قداح ـ افريقيا الغربية في ظل الاسلام، ـ دمشق ١٩٦٠ ص ١٢٥ ـ ١٢٩

المتجهة الى الشرق وأخذ المحور الشمالي الجنوبي كل الأهمية التي كانت للطرق الأخرى ، وأصبحت البضائع المتبادلة من نوعية خاصة تبعا لحاجات المغرب والتزاماته التجارية مع الدول الأوروبية[1] ، وأدخلت المكاييل والمقاييس والعملة المضروبة كأسس لا مندوحة عنها في التبادل الواسع أو المحدود وبالاضافة الى ذلك كله بذلت تسهيلات ملائمة للرواج التجاري بين الأقاليم السودانية بعضها مع البعض الآخر ، وبينها وبين المغرب ساهمت في النمو التجاري ومن بين ذلك ، وضع محطات على طريق القوافل ، وخفرها بالجنود وبرجال القبائل المخلصين ، واستخدام الابرة المغناطيسية والخرائط ، واعفاء التجار من رسوم المرور وحقوق الأبواب ، وفرض القوانين التجارية في الأسواق الدائمة والأسبوعية التي أحدثت في كل بلاد السودان .

الأوزان والمكاييل والمقاييس :

لقد أرسل المنصور الى عماله في كل الأقاليم أوامر تقضي بأن يسهروا على استخدام الموازين والمقاييس الصحيحة بحيث يقتفي التجار « آثار الشرع العزيز في بيوعاتهم ويسهروا على طريقه المستقيم في كل تصرفاتهم ومعاملاتهم ويتجنبوا الخداع وكتمان العيب ولا يتعاطوا من الأمور ما فيه شائبة الشك والريب ولا يرتكبوا الربا ولا ما يجر الى حرام »[2] ، وتطبيقا لذلك فقد عهد الى العمال بأن يجمعوا التجار من كل فن والصناع من أية صنعة بمن فيهم اليهود الذين كانوا يقيمون في تنبوكتو ودييني ويعملون كوسطاء وسماسرة ، ويحثوهم على انتخاب (أمناء للحرف) من بين شيوخهم وأصحاب الرأي فيهم ، وتكون مهمة كل أمين فض

(١) كان نقص ذهب أوروبا قد أصبح خطرا على أصحاب البنوك فيها ، فتحولت عقول الناس الى افريقيا التي كان ذهب المغرب يأتي منها - بوفيل ص ١٤٩

(٢) محمد ميارة - نصيحة المغترين - مخطوط بدار الوثائق بالرباط ك ٩٢٣ ص ٢٥

الخلافات بين البائع والمشتري وتنبيه التاجر الى اخطائه قبل أن يعرض أمره على الحاكم أو أمين المال المركزي أو الجهوي[1] ، وقد فرضت مراقبة على الأسواق والتجارة لفتت أنظار المؤ رخين السودانيين المعاصرين ، ووصلت الى علم السفراء الأجانب في مراكش فنقلوها لحكوماتهم ، ومن أبرز الشهادات التي تقدم في ذلك ما جاء في تقرير عميل أجنبي من أن المغاربة لا يتعاملون بالربا رغم أنهم يفضلون التعامل التجاري الحر[2] ، وقد لاحظ الدكتور لانز بعد ثلاثة قرون من مجيء المغاربة الى السودان أن التجارة كانت في عهدهم الذي تميز بالاستقرار في قوة لا حدود لها[3] .

إن الضوابط التجارية التي طبقها المغاربة على المعاملات التجارية كانت الزامية وتخضع للمراقبة ، ففيما يخص تسعير الذهب كان هناك تقييم ينبني على أساس ما يقابل مثقال الذهب من قواقع (الكورى) ، أما مسحوق الذهب والصوف والحبوب والثياب فكانت لها جميعا موازين ومكاييل ومقاييس غير أنها لم تكن موحدة في كل بلاد السونغاي .

لقد كان الصرف في تنبوكتو منذ عهد المغاربة يعني ما يقابل المثقال الذهبي الواحد من آلاف القواقع وكان العدد يتحدد موسميا من طرف الأمين ثم يبلغ للمدن الأخرى للعمل به ، وحسب مونيبي فان المثقال الذهبي الذي كان وحدة العملة الذهبية هو الذي تقدر على أساسه أسعار البضائع والعبيد ومختلف المزروعات ، وذلك بموجب ما يقابل تلك الوحدة الذهبية من قواقع الكورى ، ومعنى ذلك أن الكورى كان هو الوحدة المفردة للمثقال ، فاذا كان المثقال الواحد

---

(١) الفشتالي ص ٣٠٠

(٢) De Castries, France , T.3 P 429 ويراجع السوسي اليغ قديما وحديثا ـ مصدر سابق ـ ص ٢١٨ .

(٣) لانزو ـ مصدر سابق ج٢ ص ١٦٨

يساوي ٢,٠٠٠ ودعة فان نصف المثقال هو ١٠٠٠ ودعة ، وكان المثقال يساوي ثقل ٧٢ حبة من القمح المتوسط ، ويأتي بعده الدرهم الذي كان يعادل سبعة أعشار المثقال ، ثم الدينـار وكان يسـاوي أربعـين درهما ثم الأوقية الفضية وكان وزن الواحدة منها ٣٣ غراما ، وكل وحدة من هذه الوحدات تحـول الى ودع بمقتضى قيمتها الى قيمة المثقال(١) ، ولقد أبقى المغاربة على هذا التعقيد فيما يظهر بحكم اضطرار القرى والمناطق النائية الى التعامل بالودع .

والمؤكد ان عملة السودان كانت مختلفة من حيث الوزن واستقرار القيمـة الشرائية عن عملة المغرب خلال حكم المغاربة للسودان ، فلو قارنا بين الدينـار المغربي الذهبي والمثقال الذهبي في تنبوكتو لوجدنا أن الوزن مختلف بينهما ، اذ كان وزن الدينار المغربي ٣,٨٠ غراما(٢) ، ووزن المثقال السوداني ٤ غ ، أما مشتقات المثقال التي هي قواقع الكوري فكان عددها يختلف من سنة لأخرى(٣) ، ثم ان عملة تنبوكتو في عهد المغاربة لم تكن مضروبة بخلاف العملة المغربية التي بلغت المطارق التي تضربها في عهد المنصور ١٤٠٠ مطرقة(٤) .

ولم تعرف بلاد السودان الذهـب المدمـوغ ، فقـد وجـد ابـن بطوطـة ان السودانيين كانوا يجزئون الذهب الى قطع صغيرة ويكدسونها قناطـير مقنطـرة(٥) ، ولاحـظ ليون الافريقـي أن الدقـة الواحـدة من الذهـب كانـت تصرف بـ ٤٠٠ ودع(٦) ، أما في عهد المغاربة فقد ارتفعت قيمة الذهب خمس مرات عما كان عليه

---

(١) R. Mauny : «Tableau geographique de l'Ouest Africain au Moyen -age» Dakar 1961 - P 430

(٢) J. D. Brethe «Lontribution a l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques» Casablanca 1939 P 202

(٣) at «a Traver le Desert» Gedaloe Paris P 130

(٤) الافراني ـ النزهة ص ١٥٧

(٥) ابن بطوطة ـ مصدر سابق ص ٦٥٨

(٦) ليون الافريقي ـ مصدر سابق ص ٨٢٥ وزيادة ـ مصدر سابق ص ٥٥

الحال عند زيارة الحسن الوزان لتنبوكتو ، ويظهـر ان الثمـن ظل مستقـرا لعـدة سنوات ، ويذكر المؤ رخ المجهول أن سعـر المثقـال بيع في فترتـين متباعدتـين بـ ٢٠٠٠ ودع[١] وقد وجد بارت في تنبوكتو ان قيمة الذهب ارتفعـت عن السابـق ووصل صرف المثقال الى ٤,٠٠٠ ودع[٢] .

وهكذا فرغم الغلاء الذي عرفته بعض السنين وأدى الى نزول ثمن الذهب فان قيمة صرف المثقال بقيت ثابتة تقريبا ، فأثناء الغلاء الذي عرفته السودان في احدى سنوات الحكم المغربي نظرا لضعف المحاصيل بلغ القدح الواحد من الطعام (الكسكس) ستة آلاف ودع والأرز ثلاثة آلاف ، ولكن المثقال صرف رغم ذلك بثلاثة آلاف ودعة[٣] ثم عاد الى مستواه المعتاد وهو ٢٠٠٠ ودعة[٤] .

وكانت مراقبة الأسعار ومحاربة الغش في مقدمة مهمات الأمين ورغم ذلك كانت أسعار العبيد والسلع الغذائية تشهد أكبر التقلبـات تبعـا لفتـرات الحـرب والسلم لسنـوات الرخـاء والقحـط . ولما كان المغـرب يحصـل على العبيد بواسطة الشراء في الغالب وكان السلطان يهتم بجلب العبيد عن طريق التجارة كما جاء في احدى رسائله[٥] ، فان مراقبة النخاسين ومراجعتهم في أثمان عبيدهم لم تنقطع أو تفتر . والغريب أن أثمان العبيد قد ارتفعت كثيرا في عهد المغاربة ، فالأمة التي

---

(١) تذكرة النسيان ص ٦٤ و ٦٨

(٢) Barth «Voyages et des couvertes dans l'Afrique» Paris 1963, T. 2. P 28.

(٣) المجهول تذكرة النسيان ص ٦٨ و ١١٧

(٤) يسمى الودع أو الكورى (couris) علميا (Cyprixa monta) وهو عبارة عن قواقع تتوالد في البحار الحارة ، وكان يستعمل في أوروبا الشمالية في فجر التاريخ البشري ، وعرفته الهند القديمة وافريقيا الغربية حيث عثر عليه في بعض المقابر ، وكان يتعامل به كنقد في غانا وتنبوكتو عند مجيء المرابطين ، ولم تكن القواقع توزن أو تربط بخيوط بل كانت تعد واحدة بعد الأخرى ، وقد حمل بعض التجار عينات من الكورى وربوها في جزر المالديف وأصبحوا يبيعون نتاجها بافريقيا الغربية ، وأبطل المجاهد الحاج عمر نغوتي التعامل بهذه القواقع قبل الاحتلال الفرنسي للسودان .

(٥) رسالة السلطان الى القائد على بن عبد القادر - (السوسي . اليغ . ص ٩٥)

اشتراها ابن بطوطة بخمسة عشر دينارا (لعله المثقال اذ كان يساوي وزن ٤,٧٢ غراما) أصبحت تباع في عهد المغاربة بما يتراوح بين ٥٠ وثمانين مثقالا[1] ، وقد انخفض سعر الملح بعد انفتاح الطريق المؤدية اليه وحلول الأمن في ربوعها ، بينما ارتفعت اثمان الحبوب والدواب وحسب زبادية الذي استقى معلوماته من مصادر عالجت الفترة الأولى من الحكم المغربي للسودان فان أسعار بعض المعروضات في سوق تنبوكتو كانت هي التالية :

الخيول : ٤٠ مثقالا

الجمال : من ٤ الى ٧ مثاقيل حسب نوعيتها

الأبقار : من مثقالين ونصف الى ثلاثة مثاقيل ونصف

التمر : كل ١٠ حبات بخمس ودعات

القمح : أوقية واحدة من الفضة لعشرين مدا[2] .

وقد أكد مؤرخو السودان أن أسعار مختلف السلع قد طرأ عليها انخفاض واضح في عهد الباشوات المغاربة الأول من عام ١٥٩١ الى ١٦٠٤ « عندما انتفى الظلم من تنبوكتو »[3] ، ولكنها عادت الى الصعود بعد موت السلطان احمد المنصور حتى أن أربع قطع من قماش البرنبال (مخمل) بيعت في عهد الباشا سليمان بمائة وستين مثقالا[4] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل ان الربا والتلاعب بوزن مثقال الذهب قد تفشيا كثيرا أيضا بعد الفترة التي نعالجها ، فقدلاحظالدكتور لانز أن اليهود اقبلوا على شراء القطع الذهبية التي كان التجار يحملونها معهم من خارج السودان ،

---

(١) زبادية ـ مصدر سابق ص ٢٠٢ـ ٢٠٣ .

(٢) المكان السابق وما بعده

(٣) كعتو ص ١٨٣

(٤) السعدي ص ٣١٤

وبينما كان سعر الدورو الاسباني يساوي في الصرف الرسمي ٣٠٠٠ كورى كان المرابون يدفعون ٥٠٠٠ كورى للحصول على القطعة الواحدة منه[١] ، ويبدو كذلك أن وزن المثقال الذهبي لم يعد ثابتا بفعل انعدام المراقبة على مطارقه[٢]، غير أن الزعيم الافريقي الشيخ احماد (١٨٩١ - ١٨٩٥) أعاد الانضباط في وزن الذهب وقيمته الى ما كان عليه وأسقط التعامل بالكورى الذي أصبح يحمل من خارج السودان بواسطة المغامرين والتجار الاجانب[٣] .

لقد عرف السودان الموازين الدقيقة منذ مجيء المغاربة وهم الذين جلبوها الى تلك البلاد بكل تأكيد[٧] وكان الرصاص يستخدم في تحديد وحدات الوزن ، ووضعت على كل وحدة من وحداته علامة فارقة هي عبارة عن دمغات دائرية كانت تختلف شكلا وعددا ، أما بالنسبة للسلع الغالية الثمن أو الخفيفة الوزن فان وحدات الوزن كانت تتخذ علامات خاصة وكتابات تحدد ثقل كل وحدة منها ، وقد جلبت هذه الموازين من المغرب أيضا على يد أحد تجار مدينة دييني[٤] .

وبصفة عامة فقد كانت وحدات الوزن المعدنية كما يلي :

الكاورى (وهو كبير وصغير) متخذ من الرصاص ، وكان هناك كاورى خاص بدييني وتنبوكتو وآخر خاص بمسينا .

الواكي : متخذ من الرصاص .

البوانا : وحدة صغيرة جدا لا يمكن استخدام المعدن في صنعها وتتخذ من

---

(١) لانزج ٢ ص ١٦٢ ، وقد ذكر المصدر نفسه في صفحة ١٦٤ أن الكورى كان يرد من زنجبار بواسطة التجار الانجليز الذين نجحوا في زراعته .

(٢) يؤكد لانز بأن وزن المثقال الذهبي في نهاية القرن التاسع عشر كان في حدود ٩٦ حبة قمح ، المصدر السابق ص ١٥٦ .

(٣) Monteil P 383

(٤) المكان السابق .

حبات متساوية الوزن من بذرة الأكاسيا .

الطالي : وحدة معدنية للوزن على شكل متوازي الأضلاع .

ديوط : لوزن الذهب والحرير[2] .

أما المكايبل التي كانت تستخدم لتقييم الحبوب فوحدتها (المد) وهو يعادل عشر حفنات من الحبوب واجزاؤه (نصف المد) و(ربع المد) ، اما (الصوال) فهو أربعة أمداد أو أربعون حفنة من الذرة الكبيرة ، ثم هناك (التو) الذي يعادل ٢٤ صوالا و(الفضة) (بفتح الفاء) وتعادل ٤٠ صوالا[3] .

وسنعمد الى اعطاء بيانات عن كل من انواع الأوزان المذكورة اعتمادا على مختلف المصادر التي اعتمدناها :

أوزان المعادن

وحدة الوزن	الدمغة المميزة	الوزن بالغرام	الشرح
الكاوري الكبير في تنبوكتو ودييني	● ● / ● / ● ●	١٦٧,٥	خمس دمغات مغلقة في الأعلى والأسفل

(١) المكان السابق

(٢) المكان السابق ، ص ٢٨٦ ، وقد لاحظ المصدر أن عدم التفريق بين الكاورى الصغير والكبير يؤدي الى الغش في الوزن الذي قد يصل الى ١٩ غراما .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

الكاوري الكبير في مسينا	●● ●● ●●	١٦١	ست دمغات مغلقة توضع على الجهة العليا فقط
الكاوري الصغير في تنبوكتو وديبيني	● ●● ●●	٣٣,٥	خمس دمغات مغلقة في كل جهة النقطة الخامسة في الأعلى .
الكاوري الصغير في مسينا	● ● ●	٨١,٥	ثلاث دمغات مغلقة في كلى الجهتين وهي مرتبة من الأعلى إلى الأسفل .
الواكي في تنبوكتو وديبيني	●	٢٧,٥	دمغة في الأعلى وأخرى في الأسفل
الواكي الصغير في تنبوكتو وديبيني	●● ● ●●	٢١	خمس دمغات مغلقة في الأعلى فقط
نصف الواكي	●	١٥	علامة مميزة في الأعلى والأسفل
المثقال	●	٤,٥	دمغة واحدة مغلقة في الأعلى والأسفـل والوزن لذهب الخام من عيار ٢٤ قيراط.
نصف المثقال	بدون علامة	٣	لا يستعمل إلا في النادر وكان المغاربة قد منعوا بإستخدام هذا الوزن .

الطالي	●	١,٢٥	متوازي الأضلاع مع دمغة مفرغة مدورة في الأعلى
الديوط	بدون علامة	٠,٠٧	يعادل حبتين من حبات ثمر الأكاسيا ويوزن به الحرير والذهب.
الديوط الصغير	بدون علامة	٠,٠٢٥	يعادل حبة واحدة من حبات ثمر الأكاسيا

أوزان الذهب في تنبوكتو

تتخذ الأوزان الدقيقة التي كانت تستعمل في وزن مسحوق الذهب أشكالاً ومعايير متباينة ، وهي في الحقيقة أجزاء من المثقال الذي كان يعادل ٤ غرامات ، وقد حملت تلك الأوزان أسماء سودانية محلية وهي الباني والصودو والثلث والدياري والعروبو والعروباس ، ونذكر فيما يلي ما تعادله تلك المسميات بالقياس إلى المثقال .

الصودو = ٤ باني = $\frac{١}{٦}$ مثقال

العروبو = ٦ باني = $\frac{١}{٤}$ مثقال عادي مدموغ

الثلث = ٨ باني = $\frac{١}{٣}$ مثقال عادي مدموغ

مثقال الدياري = ١٢ باني = $\frac{١}{٢}$ مثقال عادي مدموغ

مثقال العروباس = ١٨ باني = $\frac{٣}{٤}$ المثقال

أوزان الحرير والتبغ والبخور واللبان

أوزان الحرير

الأوزان	الوزن الحقيقي	شرح
وحدة وزن الحرير	٨٥ غ	تعادل ٣ واكي — وتلاحظ الفروق من جهة لأخرى
الوحدة المتخذة في الغرب	٦٩,٧٥ غ	تعادل ٢,٥ واكي
الوحدة المتخذة في الشرق	٥٥ غ	تعادل ٢ واكي
الواكي	٢٧,٥ غ	تنقص منه وحدة وزن تسمى ميستومي
نصف الواكي	١٣,٥ غ	
عروبو الحرير	٧,١٢٥ غ	يعادل ربع واكي
أتومو	٥ غ	
ميستومي	٣,٥ غ	جزء من ١٦ من الواكي

أوازان التبغ والبخور واللبان

الأوزان	الوزن الحقيقي	شرح
وحدة وزن التبغ	٢٨٢ غ	
المستومي	١٣٨ غ	يعادل من حيث الثمن نصف المستومي الخاص بالذهب .

مكاييل الحبوب

الحبوب	الصوال	المد	نصف المد وحدة مستقلة
الذرة الغليظة	٢,٨٧٥ كلغ	٠,٦٨٠ كلغ	٠,٣٤٥ كلغ
الذرة الدقيقة	٢,٨٧٠	٠,٧١٠	٠,٣٦٥
الأرز المقشر	٣,١٥٥	٠,٨٠٥	٠,٤٠٥
الأرز غير المقشر	٢,٤٠٠	٠,٩٥٥	٠,٢٩٥

أما مقاييس الأطوال فقد نقلت من المغرب واحتفظت بأسمائها العربية دون تحريف واستعملت في جميع أنحاء السودان بكيفية موحدة ، وحسب موني ومونتي فقد كانت على الشكل التالي :

القالة وتسمى أيضاً بالذراع وكانت تعادل خمسين سنتيمتراً

الشبر وهو المسافة بين الخنصر والإبهام عندما تكون اليد اليمنى مفتوحة وهو يعادل ٢١,٥ سم .

الفتر ، وهو المسافة بين السبابة والابهام في حالة انفتاح اليد اليمنى ويساوي ١٨ سنتم .

القدم ، لقياس الأرض وتحسب قدماً بعد أخرى

الحبل ، لقياس الأرض أيضاً وطوله ١٠ أمتار .

الميل ، مسافته ١٩٢٠ متراً[١]

الفرسخ ، يعادل ثلاثة أميال أي ٥٧٦٠ متراً

البريد ، ساعة واحدة بالسير المتوسط للحصان[٢] .

٢) التجارة الخارجية والداخلية والأسواق :

لقد نتج عن فتح السودان اتساع نطاق التجارة بين الشمال والجنوب على نحو لم يسبق له نظير من قبل ، وكان التجار من الجانبين يخوضون رمال الصحراء في قوافل منتظمة يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة وأحمال المتاع الجمة[٣] وأدى ذلك إلى ازدهار الاقتصاد المغربي واتساع ثراء الدولة[٤] ، وكانت العملة الذهبية المغربية إحدى العملات المعتمدة في الأسواق الأوروبية عندما انتظمت التجارة مع انجلترا وهولندا وفرنسا وإيطاليا حيث كانت بضائع السودان والمغرب تلقى الرواج والإقبال المتزايد ، وقدم السلطان أحمد السعدي لهولندا قرضاً بمبلغ مليون ونصف دينار لشراء البضائع المغربية[٥] .

وكمثال على قوة هذه التجارة نسوق ما أورده (كات) من معلومات عن

---

(١) مونتي ـ ص ٤١٢ ، قدر المصدر الميل السوداني بـ ١٩٢٠ متراً ويظهر اختلاف بين هذا التقدير وبين الميل الانجليزي الذي يساوي ١٦٠٩,٣ ، وكذلك بينه وبين الميل البحري المقدر بـ ١٨٥٠ م .

(٢) المكان السابق ومونتي مصدر سابق ص ٢٨٢ ، ويلاحظ المصدران معاً أن الموازين والمكاييل لم تكن دقيقة بالشكل المطلوب دائماً مما كان يعقد مهمة مراقبتها وأعطى مونتي (مصدر سابق ص ٢٨٣) مثالاً عن الكاوري الكبير في مدينة ديولا فقد وجد أنه يساوي ١٨٠ غراماً من الذهب في حين أنه لا يزن في تنبوكتو سوى ١٦١ غراماً ، ولا شك أن تجار الذهب كانوا يلجأون إلى مختلف الحيل لزيادة وزن ما يشترونه من ذلك المعدن مقابل الثمن الذي يعطى لكمية أقل .

(٣) الفشتالي ص ١٢٧

(٤) المصدر السابق ص ١١٤

(٥) بن عبد الله ـ مصدر سابق ج ١ ص ٩٧ .

التجارة بين المغرب والسودان في عهد المغاربة ، فقد اعترف بأنه من الصعب إعطاء تقييم دقيق لحجم التجارة في العهود الأولى لحكم المغاربة وكل ما يمكن أن يقال عنه أنه كان كبيراً وبالرغم من اضطراب حبل الأمن بعد تلك الفترة فقد كانت تصل سنوياً إلى المغرب ٤٠٠ قافلة ، مجموع جمالها ١٤٠ ألفاً محملة بـ ٢٢,٤٠٠ طن من البضائع ، أما بضائع ميناء كبارا وحده فكانت تصل حمولتها إلى ٢٦,٥٠٠ طن ، وكان عدد السفن من حمولة ٢٥ إلى ٣٠ طن بالمئات[1] ، ويقدر مصدر آخر عدد القوافل بين المغرب والسودان بـ ٤٦٢ قافلة سنوياً تتركب كل قافلة من ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ تاجر يستعملون في رحلتهم ٨٠٠ بعير وهو رقم وسطي ، وعدداً من الخيل[2] ، وذكر السوسي أن تاجراً مغربياً اسمه الحاج سعيد الرسموكي عاد إلى وطنه من السودان في عام ١٧٦٦ حيث كان يشتغل بالتجارة وعمل أولاده بعده في التجارة الكبيرة بين المغرب والسودان[3] ، ويذكر السوسي أيضاً أن التجارة ظلت نشيطة بين الشمال والجنوب إلى أن أوقفها الأجانب بعد احتلالهم لبلاد السودان[4] ، فهذه الأمثلة التي أعطيت للعمل التجاري بعد مدة من انقضاء الفترة التي نعالجها ، تمكننا من تصور الأهمية الكبرى التي كانت للتجارة في عهد الاستقرار والغنى اللذين عرفهما المغرب والسودان معاً في عهد المنصور السعدي[5] .

ولقد احتكر المحور الشمالي الجنوبي أغلب النشاط التجاري ، ولم تعد للطريق الشرقية المؤدية إلى الممتلكات العثمانية أية أهمية ، إذ لم نجد في مصادرنا أية إشارة إلى تردد القوافل على الطريق المؤدية إلى تلك الممتلكات . ويذهب بعض

---

(١) كات ـ مصدر سابق ص ١٣٣

(٢) De Castris, France. T 2 P267

وذكر لانز أن بعض القوافل وصلت إلى ٥٠٠٠ جمل ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣) السوسي ـ المعسول ـ مصدر سابق جزء ١٩ ص ٢٤٢

(٤) يذكر زبادية (ممالك ـ مصدر سابق) بأنه بعد إنقضاء الفترة الأولى للحكم المغربي لم تعد للتجارة تلك القوة التي كانت لها ، فقد حصل تقهقر مؤكد في هذا الميدان ص ٩٥

المؤ رخين إلى التأكيد على الفكرة القائلة بأن الطرق الشرقية قد أهملت بشكل كامل بعد مجيء المغاربة إلى بلاد السودان[1] ولا شك أن هذا الرأي لم يخل من المبالغة لأن بلاد الحاووصا وامبراطورية كانم بورنو ظلت على سابق علاقاتها مع المناطق التي كانت خاضعة للحكم العثماني .

ومما لا شك فيه أن حجم البضائع التي كانت تنتقل بين المغرب والسودان وأثقالها قد زادا زيادة كبيرة في العهد الذي نعالجه ، كما انه مما لا شك فيه أن النوعية قد إختلفت بمقتضى إحتياجات السوق المغربية ومستلزمات الأسواق التي كان المغرب يصدر إليها منتوجاته في أوروبا وبلاد الشرق ، وبمقتضى المتطلبات الجديدة للجالية المغربية التي كانت تستقر بأهم مدن السودان . وسنحاول فيما يلي أن نذكر أصناف السلع الواردة والصادرة إعتمادا على شتى المصادر .

لقد كانت الواردات المنتهية إلى أقاليم السودان من المغرب أو من خارج المغرب عن طريق توات وسجلماسة وأقا كما يلي:

المصنوعات النحاسية :

من صناعة فاس ومراكش وتضم أدوات منزلية وزخارف وشمعدانات وفوانيس ولوازم لسروج الخيل وحلق للأبواب وأدوات للزينة .

المصنوعات الحديدية :

اقفال ، أدوات الخيل والجمال ، محاريث وفؤوس ، سلاسل .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ وقد ذهب لانز بعد ثلاثة قرون إلى القول بأن غدامس أصبحت إلى جانب الطرق المؤدية إلى المغرب تشهد مرور القوافل التجارية ج ٢ ص ١٦٧ .

المصنوعات الزجاجية :

كؤوس ، سبح ، عقود الزينة ، قناديل ، قوارير العطور . وكانت هذه البضائع غالية الثمن ولا يقبل على شرائها إلا الموسرون من التجار والولاة والقضاة[1] .

المنسوجات القطنية :

لقد كانت مصانع تنبوكتو وديني تنسج القطن والصوف ، ولكن الأنواع الجيدة كانت تستورد من المغرب ، أو من دول أوروبية عن طريق المغرب ، وقد رأينا إقبال ذوي اليسار في تنبوكتو على إقتناء الثياب المخملية (الملف) واجتهاد باشوات تنبوكتو في إهداء هذا الصنف من المنسوجات القطنية إلى القضاة والفقهاء وولاة المدن ، وكان الملف يستورد من إنجلترا وبعض دول أوروبا الأخرى عن طريق المغرب [2] .

المنسوجات الحريرية :

إشتهرت بها مدينة فاس خاصة وقد كانت عبارة عن حياكة لخيوط الحرير ضمن سدى من القطن وكان يطلق على بعض تلك الأقمشة (السوسية) نسبة إلى منطقة سوس ، وقد إتخذ العلماء منها العمامة والمنصورية ، كما كانت تستخدم في تكفين الباشوات . وكانت السوسية ذات لون أبيض في الغالب ولكن إذا أضيف إلى بعض قطعها ألوان زاهية تصبح عندئذ من نصيب النساء .

العطور :

كان المغرب يصدر الورود المجففة وعصارة الزهر والخزامى إلى السودان أما خشب العود الهندي وعطور إيطاليا فكان يعاد تصديرها إلى بلاد السودان ، ولم يخل مجلس من مجالس الباشوات أو القضاة من أدوات إحراق هذه العطور أو رشها .

---

(١) زبادية ـ ممالك ـ ص ٢١٩ .

(٢) لانز ج ٢ ص ١٦٦

التمور والتين :

كانا يستوردان من الواحات المغربية أو من مدينة مراكش [1] .

قطع المرجان :

لعل هذه القطع التي كانت تستعمل في الزينة كانت تأتي إلى المغرب من مصر والسودان الشرقي وتضاف إلى المرجان الحجارة الكريمة التي كانت تصدر من المغرب [2] .

الأصبغة :

كان المغرب يستورد مادة الشب من السودان ويعيد تصديرها إلى تلك البلاد بعد إدخالها في الأصباغ المتراكبة كاللونين الأرجواني والوردي [3] .

الحلى :

من المصنوعات الدقيقة التي دأب تجار السودان على حملها إلى بلادهم ، وقد برع صناع مهرة في مدينة المحمدية (تارودانت) التي أراد أحمد المنصور من تأسيسها أن تكون بابا للتجارة بين المغرب والسودان ، واشتهرت المحمدية في صنع الحلى من الذهب والفضة والنحاس ، وكانت قطع الحلى تلك تطعم بالزجاج الملون والعقيق ، وضمت أصناف تلك الصناعة القلائد والخواتم والخلاخل والتهاليل [4] والأساور والسبح ، وكانت أثمان تلك البضاعة باهظة الثمن [5] .

الأدوية :

وكانت عبارة عن مركبات عشبية وضمادات وبعض أحشاء الحيوانات النادرة

(١) زبادية ـ ممالك ص ٢٢٠
(٢) لانز ـ ج ٢ ـ ص ١٦٧
(٣) زبادية ـ ممالك ص ٢٢٣
(٤) علبة لوضع المصحف أو دلائل الخيرات
(٥) Assoi et A. lerici Histoire des peuples noir Paris P . 34.

ويبدو أن أهميتها لم تقل عن أهمية أية سلعة أخرى [1] .

الملح :

كان الملح مادة غالية الثمن في السودان حتى في الوقت الذي كانت ممالح تغازى القديمة في عداد أملاك أساكي السونغاي [2] ، وسعيا وراء الربح وبالنظر لمكانة تجار الملح فقد زوّج أحد ملوك السودان أبنتيه لاثنين من تجار الملح [3] ، ويبدو أن أهمية الملح قد قلت بعد إستيلاء المغاربة على مناطق السودان المختلفة بما فيها منطقة تاودوى (تغازى الغزلان) ، فقد زاد العرض على الطلب وتدنت الأسعار بكيفية كبيرة ، واستمرت الأسعار متدنية رغم عودة القلاقل واضطراب حبل الأمن بعد الفترة الأولى للحكم المغربي ثم عادت لترتفع مرة أخرى إبتداء من القرن الثامن عشر ، وقد أكد لانز أن سعر قطعة الملح الواحدة كان يساوي في عهده ٨٥٠٠ كورى أي ما يعادل مثقالا واحدا ، ولاحظ هو نفسه أن الثمن كان قبل سنوات قليلة من ذلك لا يزيد عن ٦٠٠٠ كورى وأرجع ذلك إلى إرتفاع طرأ على سعر الذهب [4] واذا علمنا أن حمولة جمل واحد من الملح لا تزيد على أربعة ألواح كما ذكر لانز نفسه فان ثمن الملح قد إنخفض عن ثمنه في زمن ليون الافريقي عشرين مرة .

وقدأصبحت تنبوكتو في عهد المغاربة عاصمة لتجارة الملح بدون منازع ، وأصبح المشتغلون بتلك التجارة يخضعون لمراقبة رجال الحكومة ولتدابير صارمة وصولهم إلى عاصمة إقليم السودان [5] .

---

(١) De castries, France, T. 2 P 267.

(٢) ليون الافريقي ، ج ٣ ص ٨٢٤ وذكر المصدر أن ثمن حمل الملح كان يساوي في عهده ثمانين دقة ذهبية .

(٣) المكان السابق .

(٤) لانز ج ٢ ص ١٥٧

(٥) المجهول ـ تذكرة ـ ص ١٢٤ و ١٢٥

القمح :

بدأت زراعة أنواع جيدة من القمح في مطلع عهد المغاربة بالمناطق الشرقية والغربي معا ، غير أن الانتاج لم يكن كافيا فأصبح التجار يجتهدون في جلبه من سوس واقليم مراكش لتلبية الطلب المتزايد عليه وخاصة من قبل الموسرين في السودان [1] .

التبغ :

جلب الأوروبيون نبتة التبغ إلى بلاد السنغال ومن هناك إنتشرت زراعتها في الشمال والغرب منذ القرن السادس عشر ولم تلبث منطقة وادي نون في المغرب أن أصبحت تضاهي في عهد السعديين أجود المزارع بانتاجها الوفير الجيد ، وأخذ التبغ منذ منتصف القرن السادس عشر مكانته كأحد السلع الرئيسية الموردة إلى السودان [2] ، وقد إنتشرت عادة تدخين التبغ في كل المدن واشتهر بعض الباشوات والعلماء من أمثال أحمد بابا السوداني بأنهم كانوا مدمنين على التدخين ، ومن البضائع الثانوية التي كانت تستورد من المغرب القصبات التي إستعملت في تدخين التبغ وكانت محاطة بخيوط من الفضة أو النحاس ومنتهية بغليون صغير متخذ من الحجارة أو الفخار [3] .

الجلود :

رغم توفر السودان على الحيوانات ووجود حرفة الدباغة به ، فان الجلود الملونة المدبوغة جيدا كانت في عداد واردات تلك البلاد وكان من خصائصها قابليتها للتطريز بخيوط الفضة والذهب ولامكانية إتخاذ أدق الخفاف منها [4] .

---

(١) زبادية ـ ممالك ص ٢٢٢ .
(٢) لانز ج ٢ ص ١٦٧
(٣) المكان السابق
(٤) زبادية ـ مملكة ـ ص ٢٢٣

الخيول :

كانت تستورد إلى بلاد السودان في السنوات الأولى لمجيء المغاربة فيما يبدو ، وبعد مرور سنوات قليلة أصبحت تربية الخيول مما تمتاز به البلاد ، بل وغدا لخيول السودان من المميزات كتحمل المناخ والعطش ما أهلها لأن تصبح في جملة الصادرات [1] .

الكتب :

جلبها التجار من المغرب ولكن لم تلبث حرفة الوراقة أن إزدهرت في تنبوكتو ودييني فأصبحت الكتب تستنسخ ويعاد بيعها في مناطق السودان المختلفة وفي المغرب نفسه [2] .

الودع :

كانت هذه القواقع التي إستخدمت كعملة لفترة طويلة تجلب من أماكن توالدها في خليج غينيا ثم أصبحت إحدى سلع الاستيراد الرئيسية من جهات متعددة ، وقد توقف الاهتمام بها في نهاية القرن التاسع عشر .

أما صادرات السودان الى المغرب فكانت متنوعة وزادت أصنافها وأحجامها زيادة ملحوظة منذ بداية الحكم المغربي ، وسنذكر فيما يلي أهمها :

الذهب :

كان يأتي في مقدمة الصادرات السودانية من حيث القيمة ولتزايد الطلب عليه ، فقد أكد أغلب المؤرخين أن ذهب السودان كان يغطي إحتياجات المغرب والأقطار الأوروبية معا كما انه كان يغطي وحده أثمان كل البضائع المجلوبة إلى

---

(١) طلب أحد خلفاء المنصور عددا من خيول السودان وأوكل لباشا السودان أمر شرائها له / السي البغ - مصدر سابق ص ٥ .

(٢) زبادية - مملكة ص ٢٢٢ .

الجنوب بحيث تبقى أثمان بقية الواردات الأخرى فائضا في الميزان التجاري [١] ، وكان الذهب يشحن في أكياس صغيرة على شكل مسحوق أو أوراق مطروقة ، ونادرا ما أخذ شكل حبات أو قطع وكان يجلب من مكانه المراقبة من طرف الجيش المغربي إلى تنبوكتو ثم ينقل إلى سوس وميناء الصويرة . [٢] .

العبيد :

يبدو ان تجارة العبيد ظلت على الحالة التي كانت عليها في عهد الأساكي فلم يقع توسع كبير في تصدير العبيد عن طريق النخاسة ، وكان تجار العبيد كتجار الملح يجنون أرباحا طائلة من تلك التجارة بالنظر للفرق الكبير بين ثمن الشراء وثمن البيع ، وقد أشرنا إلى ما أصاب النخاسية من كساد في عهد جؤذر لأن المالكين كانوا مجبرين على تقديم عبيدهم للعمل في بناء المنشآت العسكرية المغربية ، وكان أغلب العبيد من بين أفراد قبيلة الموسى الوثنية وكانوا يجمعون بعد الغارات ويباعون بعد ذلك بواسطة الوسطاء السودانيين في الاسواق الاسلامية[٣] .

ريش النعام وبيوضه :

كان يصدر للمغرب وأوروبا حيث يتخذ للزينة بالنسبة للانسان ودواب الركوب أو للوسائد والمذبات ، وقد إستعملته بعض فرق الجيش السعدى وفرقة حراسة السلطان ، وكان بيض النعام وشحمه يصدران كذلك حيث يستخدمان في الزينة أو يدخلان في المركبات التي كانت تستخدم في علاج بعض الأمراض الجلدية [٤] .

---

(١) Assoi et Clerci Op. P 31

(٢) Gat P/130

(٣) الناصري - ج ٥ - ص ٩٧

(٤) Assoi et Clerci P 34 ولانز - مصدر سابق ص ١٦٧

الصمغ :

إختصت بجمعه القبائل العربية من مناطق الحوض والجوف وفي جهات أروان وأبراز [1] .

الكور :

ثمرة إفريقية منعشة أدخلها التجار السودانيون إلى المغرب في بداية القرن السابع عشر وكان ثمن الكور مرتفعا وقد وصل سعر الثمرة الواحدة بحجم حبة الجوز ٢٠٠ ودعا [2] .

التوابل :

كالفلفل الأحمر الصغير وبعض أنواع الأباريز .

التبغ :

يبدو أن خلط أنواع التبغ للحصول على نكهات متعددة ولارضاء أذواق المدخنين في المغرب وأوروبا هو الذي كان يؤدي إلى نقل نبتة التبغ من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال عن طريق التجارة .

٣) التجارة المحلية :

إزدهرت الأسواق السودانية وزادت معروضاتها تبعا للتوسع التجاري الخارجي ولزيادة الاقبال على مختلف الحاجيات الأجنبية والمحلية .

وكانت تنبوكتو ودييني وغاو هي عواصم التجارة الداخلية ومراكز التبادل التجاري الخارجي ، وقد كان نصف سكان تنبوكتو في عهد المغاربة من التجار الذين يعقدون الصفقات مع التجار الشماليين والمحليين ، ولا يمكن تصور شيء

---

(١) لانز ـ المكان السابق .
(٢) المجهول ـ تذكرة ص ١٣ .

من البضائع الأساسية أو الكمالية إلا ووجد في مخازن تلك المدينة ، وفي كل صباح كانت القوافل تصل من ميناء كبارا أو تنطلق منه محملة بشتى الأصناف السودانية والمغربية والأوروبية [1] .

وكان كبار التجار يلازمون بيوتهم بينما يقوم السماسرة ولقبهم بالسودانية (تيفا) والدلالون بالتوسط في العمليات التجارية . وتصدى التراجمة إلى تسهيل التفاهم بين رجال القبائل السوداء والتجار المغاربة ، وكان هؤلاء التراجمة يجلسون في دكاكين التجار مع السماسرة ، ويحررون العقود إن كانت الصفقات تستدعي ذلك . ورغم وجود كل أنواع السلع في الدكاكين فان بيوع الجملة كانت تفرض أن يقع التسليم في المخازن الملحقة ببيوت التجار ، وأكداس البضائع في تلك المخازن لم تكن تدخل تحت حصر [2] .

كانت أسواق المدن الكبرى الثلاث دائمة تعمل من الصباح إلى ما بعد غروب الشمس مع تعطيل التجارة أيام الجمع والأعياد وأيام الاحتفال بتنصيب أحد الباشوات أو عودة الجيش من إحدى حملاته ، أما في القرى فكانت هنالك دكاكين بسيطة تعرض فيها السلع المحلية وغالباً ما كان صغار التجار يفترشون الأرض مع تظليل المكان بسعف النخل أو أغصان الأشجار اليابسة ، وفي كل قرية أو جهة كانت تعقد سوق في كل يوم من أيام الأسبوع يؤمها سكان الناحية لتأمين إحتياجاتهم ومبادلة انتاجهم ويضرب التجار صبيحة يوم السوق خيامهم أو يتخذون لهم متاجر تحت شجرة أو على الأرض العراء .

السوق الكبرى : عقدت هذه السوق كل أيام الأسبوع كما أسلفنا في كبريات المدن السودانية حيث المراكز الحكومية وموظفو الإدارة ، وفي هذه المدن تقع عمليات التبادل الكبرى وتشحن القوافل بمختلف السلع ، غير أنه كان يخصص يوم من أيام الأسبوع لمبادلة السلع مع تجار المراكز الصغرى والأرياف

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ٧٧
(٢) لانز ص ١٥٤

ويدعى ذلك اليوم بيوم السوق[1]، وفي فصل الصيف فيما بين مايو ويونيه كانت السوق الأسبوعية تفتح بعد الثالثة ظهراً ، وكان وكلاء تجار تنبوكتو من سماسرة وموثقين وتراجمة يبكرون إلى الدكاكين فيعيدون ترتيب البضاعة وتنظيف الموازين والمكاييل ويرشون المسالك والطرق بالماء دفعاً لتناثر الغبار ، وفي ذات الوقت تتوارد مئات الدواب ، وخاصة الحمير من الجهات الأربع محملة بالمنتوجات الفلاحية من حبوب وفاكهة وحيتان وأسماك ومردفة بقطعان البقر والغنم والماعز وببعض الغزال والنعام ، ويأتي البهل (اليول) محملين أبقارهم البطيئة بالجلود المدبوغة وسلال القطن وأحمال الأراشيد وكرات المطاط الخام وأنياب الفيلة المجلوبة أصلاً من فوتا جالون وخليج غينيا ، أما التوارك فيدخلون المدينة من الشمال ممتطين صهوات خيولهم ومسلحين بالأقواس وجل ما يجلبونه قطعان الغنم والحطب والسمن والعسل ، ويأتي البرابيش على أقدامهم ومعهم قطعان الماشية من جمال وماعز وأحمال من ريش النعام وبيوضه ودهونه[2] وبعد ساعتين أو ثلاث من آذان الفجر يخرج المنادي معلناً إفتتاح السوق باسم الأمين وأمناء الحرف . ويجد المشترون في السوق جميع ما يرغبون في شرائه أو مبادلته بالمنتوجات التي يحملونها معهم ، فهناك السلع الأوروبية والمغربية ، والبنادق ومسحوق البارود والحبوب والكولا والتبغ والسكر والملح والشمع ، ومن أغرب ما يصادفه الإنسان في تلك السوق رجال قرى ديرما والفولانيين وقد أحضروا معهم من مسافات بعيدة جماعات من العبيد يبدلونها بالسلع المختلفة وكذلك مربي المواشي من التوارك الذين يدفعون قطعان أبقارهم مقابل بضعة رؤوس من الخيل وبعض الثياب المزركشة والحلى[3]، ومنذ الظهيرة يقصد الغرباء إلى دكاكين اللحم الذي غالباً ما يدق ويشوى أو إلى صاحب الكسكس الذي يصنعه بالتوابل والخضار ولحم البقر أو الغنم أو الدجاج فينالون نصيبهم من الطعام ثم يتناولون الشاي الأخضر

---

(١) السعدي ص ٢٧٣

(٢) Georges Maris. Op cit P193

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٥٥

ويعدون أنفسهم بعد ذلك للعودة إلى قراهم .

ولم تختلف سوق ديينـي الأسبـوعية عن مثيلتهـا بتنبوكتـو باستثنـاء كثـرة المنتوجات الاستوائية التي ترد إليها وقلة البضائع الأوروبية إذ لا يرد إلى ديني من هذه الأخيرة إلا ما زاد على حاجة تنبوكتو ، غير أن هنالك ميزة اختصت بها الناحية الغربية وهي تنظيم الأسواق المحلية الصغيرة بسبب كثرة المدن والقرى القريبة من عاصمة الغرب ، وضعف الجذب التجاري في دييني بالقياس إلى تنبوكتو .

وقد عرفت دييني يومها الأسبوعي في الوقـت الـذي كانـت سوق التبـادل الخارجي دائمة باستثناء يوم الجمعة ، كما أن مدينة سان الواقعة إلى الجنوب منها عرفت نفس النظام أما بقية المراكز فإن أسواقها كانت تفتح يوماً أو أكثر كل أسبوع وهي طريقة جلبها المغاربة معهم إلى هذه الجهة من السودان .

وما دام تنظيم الأسواق في الجهة الغربية كان يمتاز بالأحكام والضبط فإننا سنذكر أيام السوق والجهة المقامة فيها وهو شيء يمكن أن نقارنه مع أي جهة من جهات المغرب الأخرى :

اسم المدينة أو القرية	أيام السوق	
	السوق العادية	السوق الكبيرة (يوم السوق)
دييني	كل يوم ما عدا الجمعة	الخميس
باراماندوغو	الأحد / الاثنين / الثلاثاء السبت	الخميس
كينيكو		الخميس
سوفارا		الثلاثاء / الأربعاء / الخميس
كونينيون		السبت / الأحد
مديومة		الخميس

بارابي		السبت
فاطوما		الثلاثاء
سامبارا		الخميس
بوغو		الأحد
تومينا		الاثنين
كورو		السبت
كيرينا		السبت
سيونسو		الخميس
سان	كل يوم ما عدا الجمعة	السبت
كورورينا		السبت
سا		الاثنين
تاروطالا		الاثنين
كوريوزي		الاثنين
كونا		السبت[1].

إن أهم ما كان يتبادل في هذه الأسواق المصنوعات الجلدية والحديدية والنحاسية والأثواب والخضار والفلفل الأسود والأحمر والملح والبصل والفواكه واللحم والكولا والزبدة النباتية والشاي الأخضر والحطب والحبوب والعاج وريش النعام والصمغ والمواشي والحمام والسمك المجفف والدجاج والبيض ، وقد اختصت ديني بسوق النخاسة وسان بمسحوق الذهب والمطاط والكولا والقواقع التي كان سكان نيجريا الغربية يأتون بها ويحصلون من وراء بيعها على أرباح كبيرة[2].

(١) لانز ج ٢ ص ٢٦٧
(٢) Georges Maris. PP. 193 - 194 وكابيي ج ٢ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥

٢) طرق المواصلات ووسائط النقل

كانت طرق المواصلات البرية والنهرية الشريان الذي يتدفق فيه النشاط التجاري داخل السودان نفسه ، ومن السودان نحو الشمال ، وتميزت فترة الحكم المغربي الأولى للأقاليم الواقعة جنوب الصحراء ، مع ما رافقها من حرص على حماية المسالك الصحراوية وتأمين النقل النهري وزيادة الرحلات بين الشمال والجنوب بحكم الترابط السياسي ، تميزت بزيادة عدد القوافل وتضاعف الأحجام والأوزان المنقولة ، فارتفع عدد الابل في القافلة الواحدة إلى ما يقرب من ٥٠٠٠ [١] تحمل ٢٥٠ طناً ، وكان هناك محوران أساسيان في التعامل التجاري في بداية القرن السابع عشر ، محور شمالي جنوبي من مراكش إلى تنبوكتو عبر أقا وتندوف وتاودوني وأروان وأبراز ، ومحور شرقي غربي تستخدمه السفن من دندى إلى المحمدية وسان عبر كوكيا وغاو وتنديبي وبوريم وبامبا وكارابارا وتوغايا وكابارا وتنديرما وبارا وديني .

أما المسالك الثانوية فكانت تأخذ إتجاهات مختلفة وتربط بين أقاليم السودان ومدنه شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً .

وحسب هذا فإن وسائط النقل كانت مختلفة متباينة .

فهناك النقل البري البعيد الذي يعتمد على الجمال ، وقد استخدمت هذه الواسطة في نقل البضائع بين المغرب والسودان ، وبين الموانيء السودانية الواقعة على نهر النيجر شمالاً والقرى الواقعة على أطراف الصحراء ، وكانت تلك المسافات تبلغ بضع مئات من الكيلومترات .

أما النقل القصير الذي يقتضي إيصال أحمال من قرية إلى أخرى ، أو من الميناء إلى المدينة فقد استخدمت فيه ثلاث وسائط وهي الحمير للمسافات التي لا تزيد على ثلاثين كيلومتراً والثيران للمسافات التي تتراوح بين عشرة وعشرين

---

(١) لانزج ٢ ص ١٦٧

كيلومتراً والحمالة العبيد للمسافات الأقصر من ذلك ، وقد استخدم هؤلاء الحمالة بصفة خاصة داخل المدن أو الجهات الغابوية التي لا تستطيع دواب الحمل ولوجها ، لكثافة أشجارها ولحمياتها وذبابها .

ثم كان هناك النقل النهري الذي استخدمت فيه آلاف السفن المتخذة من الأعشاب والخشب والجلد وبعض تلك السفن كان يقطع المسافات المطلوبة في مدد قد تصل إلى سبعة أشهر .

وكانت وسائط النقل غالية في عهد المغاربة بسبب الحماية التي كانت تقدم للقوافل والسفن ، وقد رأينا سابقاً أن فرقة من الجيش كانت ترافق كل قافلة متجهة إلى المغرب كما رأينا السفن التابعة للجيش تخفر أحمال البضائع المنقولة على متن سفن التجار ، وقد كان على المسافر الذي يود التوجه مع قافلة إلى تافيلات أن يدفع ما بين ثمانية وعشرة مثاقيل ذهبية مقابل ركوبه وطعامه وأمنه ومساهمته في أجرة الكشافة والادلاء ، وبالنظر للاقبال على شراء دواب الحمل فإن ثمنها كان مرتفعاً جداً وخاصة في فصلي الربيع والخريف ، غير أن أجرة الحمالين العبيد كانت متدنية زيادة على أن العبد يتوفر على الذكاء ويستطيع أن يحمل الأخبار والرسائل ويبذل الحماية لنفسه ويتجنب مواطن الخطر ويحافظ على سلامة ما يحمله من بضاعة[1] .

١ ـ طرق القوافل :

فصلنا القول في مطلع الفصل الثالث عن الطرق الصحراوية الأربع الكبرى المؤدية من مصر وفزان إلى كوكيا وغاو ، ومن طرابلس وقسنطينة والجزائر إلى تنبوكتو ومن وهران وتلمسان وتوات إلى حوض النيجر الأوسط ومن مراكش عبر أقا وتندوف وتاودوني إلى تنبوكتو ، وأشرنا إلى الأسباب التي أدت في بعض العهود إلى إهمال الطريقين الأولين[1] وتحول التجارة إلى الطريق الثالثة ثم شرحنا الدوافع التي حدت بالمنصور السعدي إلى إعتماد الطريق الرابعة التي اصبحت منذ نهاية

(١) زيادية ـ ممالك ص ١٩٦

القرن السادس عشر أهم مسلك صحراوي نحو السودان .

إن الطريق المخزنية أو السلطانية التي اعتمدها السعديون في الوصول إلى ممالكهم السودانية ، والتي تبتدىء من مراكش وتنتهي عند تنبوكتو تأخذ في الواقع إتجاهات متعددة ولكنها كانت تلتقي حتماً عند المراكز الموجودة على هذه الطريق وهي تندوف وتاودوني وأروان وأبراز .

فعند الخروج من مراكش كانت القوافل تسلك طريق خوانق الأطلس إلى قرية تزنتيست عند ثنية كلاوة (١٧٥ كيلومتراً) ومنها إلى قرية تالوين (١٢٠ كيلومتراً) ، وعند تالوين كان هناك طريقان :

الطريق الأولى تتجه من :

ـ تالوين / تازناخت / فم زكيد	١٧٥ ك.م
ـ فم زكيد / درعة	٧٥ ك.م
ـ درعة / فم الدفيلي	١٣٥ ك.م
ـ فم الدفيلي / مركالا	١٣٠ ك.م
ـ مركالا / تندوف	١٢٢ ك.م

ـ أما الطريق الثانية فتسير من :

ـ تالوين إلى طاطا	١٩٠ ك.م
ـ طالطا ـ أقا	٦٥ ك.م
ـ أقا / فم العشار	١١٠ ك.م
ـ فم العشار / تندوف	١٥٠ ك.م
ـ تندوف / تاودوني	٨٢٠ ك.م
ـ تاودوني / أروان	٤٥٠ ك.م
ـ أروان / تنبوكتو	٢٥٠ ك.م
ـ تنبوكتو / كابارا	٨ ك.م

فالمسافة من مراكش إلى كابارا عن طريق مركالا تبلغ ٢٤٦٠ ك.م بينما لا تزيد عن ٢٣٣٨ ك.م عن طريق أقا[1].

وقد استعمل الجيش المغربي في السودان وكذلك بعض القوافل التجارية طريقاً أخرى توازي الأولى وتقع إلى الغرب منها وكانت تدعى طريق ولاته[2]، وكان المسافرون يتجهون منذ خروجهم من تنبوكتو نحو الغرب إلى مدينة رأس الماء ثم يأخذون الاتجاه الشمالي الغربي ضمن بلاد قبائل السراكولي والتوارك إلى ولاته ثم إلى بئر الوجاف ويدخلون منطقة الجوف الرملية القاحلة وبعد مسافة تقارب ٧٠٠ ك.م يصلون إلى بئر المريتي الغزيرة ومنها إلى بئر المزيريب ثم بئر الشقة ثم بئر الترترات ثم تندوف ، وطريق ولاته وإن كانت العيون والآبار فيها قليلة فهي أقصر من الطريق الأولى بنحو ٤٠٠ ك.م وقد استخدمها الجيش المغربي في توجيه البريد السريع وفي الرحلات التي كان يحرص على أن تتم في نطاق من السرية[3]، ويبدو أن طريق ولاته كانت أهم من طريق تاودوني قبل أن يبذل السعديون عنايتهم لهذه الأخيرة ، فقد ورد ذكر ولاته في كثير من المصادر كعقدة لا مندوحة عنها للوصول بذهب السودان وخيراته إلى المغرب[4]، ومع إدراكنا لرغبة السعديين في وضع التجارة تحت مراقبتهم وحمايتهم يتبين السبب الأصلي في عدم بذل العناية لتلك الطريق التاريخية المختصرة .

ومهما يكن من أمر فإن مراحل الطريق المخزنية التي كانت تبتديء من بئر أو بمحطة للاستراحة وتنتهي عند بئر أو محطة أخريين كانت تلعب في العهد المغربي الذي نعالجه ما لعبته الموانيء في البحار والمحيطات بعد ذلك في ميداني نقل الحضارة والتجارة ، ولم تشكل الصحراء في ذلك الوقت عائقاً أمام التواصل الذي لم يفقد عمقه وقوته رغم العوادي والنكبات التي عصفت بالمغرب والسودان معاً

---

(١) للاستزادة في الإيضاح يراجع : كنال ـ مصدر سابق ص ١٨٣

(٢) تختلف الطريق الأخيرة عن تلك التي سلكها جوذر حيث رأينا أنه لم يعرج على أروان

(٣) السعدي ـ ص ١٧٤

بعد موت المنصور الذهبي والتي أدت إلى قيام التجارة النفعية وعمليات اصطياد العبيد[٣].

فلقد كانت القوافل تسلك الطريق المخزنية طيلة أيام السنة تقريباً ، وكان عددها يتضاعف في أوائل شهري ابريل واكتوبر[٤]، ولم تكن نهاية سفرها عند مراكش حتماً بل إن البعض منها كان يقصد إلى ميناء الصويرة على المحيط الأطلسي حيث الوسطاء اليهود والتجارة المباشرة مع أوروبا ، إن بعض القوافل الصغيرة كانت تقطع المسافة من تنبوكتو إلى الصويرة في ستين يوماً[٥]، ولكن بالنظر لظروف حياتية وأمنية فإن المسؤ ولين عن تسيير القوافل في تنبوكتو كانوا يرفضون أن تسير قافلة يقل عدد جمالها عن ستين جملاً[٦]، وإلى جانب الطريق المخزنية الرئيسية الشمالية الجنوبية ، وطريق ولاته الثانوية[٧]، كانت هنالك طرق للقوافل تؤدي من مدن السودان الكبرى إلى القرى الواقعة في الأطراف الجنوبية للصحراء ، ومن الشرق إلى الغرب وسنذكر أهم تلك المسالك مع مسافاتها :

- طريق بوريم - تابا بنكورت ، مسافتها ٢٣٠ ك.م تبتديء من ضفة نهر النيجر الشمالية (على بعد ١٠٠ ك.م شمال غاو) وتسير مع وادي تلمسي باتجاه الشمال الشرقي ، وتوازيها طريق أخرى تجتازها القوافل ضمن بلاد التوارك ،

---

(١) المكان السابق

(٢) يراجع على الخصوص بوفيل - مصدر سابق ص ٧٤

(٣) B. Matip «heurts et Halheurs des rapports Europe et Afrique (XVᵉ au X111.S.) Paris 1960 - P46

(٤) Gat. op. cit P126

(٥) المصدر السابق ص ١٣٤

(٦) لانز ج ٢ ص ١٦٧

(٧) لقد ظلت الطريقان شريانين مهمين للنشاط التجاري بين المغرب والسودان إلى نهاية القرن التاسع عشر حيث عمدت القوات الفرنسية إلى شق طرق السيارات لاستكمال احتلالها للسودان والسنغال ، ولم تحل سنة ١٩٣٤ حتى أكملت فرنسا إنشاء طريق سان لويس - أكادير ، وتغيرت صورة المواصلات التي ظلت منذ بداية التاريخ البشري تعمل بهمة وفاعلية بين المغرب والسودان - السوسي - المعسول ج ٣ ص ٤٠٦ وزيادية - ممالك ص ٢١٧ .

وكان المسافر يقطع كل واحدة منها في اثني عشر يوماً .

ـ تنبوكتو ـ بوجبيهة إلى الشرق من أروان ٢١٥ ك.م

كوندام ـ رأس الماء ٨٠ ك.م ، وكانت هذه الطريق تحاذي الطرف الجنوبي لبحيرة فاكوبين وتقطع في أربعة أيام .

ـ نياتونكي ـ ليرى ٨٠ ك.م تجتاز البحيرات والمستنقعات جنوب كوندام وتقطع في أسبوعين .

ـ موبتي ـ سيغو ٢٣٠ ك.م تمر هذه الطريق شمال ديني ضمن منطقة المستنقعات وكان يستخدم فيها الحمير والجمال على حد سواء ، وكان المسافر يقطعها في عشرين يوماً .

ـ ديني ـ سيغو ١٨٠ ك.م ، تمر ضمن بلاد البامبارا ، وتقطع في اثني عشر يوماً .

ويجب أن نذكر هنا ثلاث طرق للسفر البعيد أيضاً تذهب الأولى من تنبوكتو إلى مصب نهر السنغال ويستغرق السفر عليها خمسة وثلاثين يوماً ، وتصل الثانية بين تنبوكتو ومدينة شنقيطي في بلاد . إطار ومدة السفر عليها إثنان وثلاثون يوماً ، وتربط الثالثة بين تنبوكتو وغاو وكانو وبورنو ويمضي المسافر في هذه الطريق عندما يصل نهايتها شهراً كاملاً(١) .

٢ ـ المنازل وسلامة القوافل :

من السهل تصور المتاعب التي كان يصادفها المسافر في رحلته المضنية التي قد تستغرق ثلاثة أشهر ، فزيادة على قسوة المناخ ، وكثرة الزوابع ، وانتشار العروق الرملية أو الحمادات الحجرية وقلة المياه كانت مشكلة الأمن والتعرف على

(١) Gat. P134

المسالك وتوفير العلف لدواب الحمل من بين المشاكل التي حرص السعديون على تذليلها وإيجاد الحلول لها .

وعلى امتداد عشر سنوات من بداية الحكم المغربي للسودان ، قامت المحطات الصحراوية بأهم دور في تخفيف المصاعب والأخطار التي كانت القوافل تواجهها في السابق ، وقد استمرت المحطات تؤدي واجبها بعد تلك السنوات العشر غير أن الإشراف عليها انتقل إلى رجال القبائل .

كانت توجد في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر سبعة منازل كبرى ثلاثة منها بشمال الصحراء ، وثلاثة في جنوبها ، وواحد في الوسط .

فمنازل الشمال هي تزناخت وأقا والمحمدية (تارودانت) ومنازل الجنوب أبراز في شمال تنبوكتو وأروان وولادته ، أما المنزل أو المحطة المتوسطة الكبرى فكانت تندوف ، وبالإضافة إلى تلك المنازل كلفت حكومة المخزن رؤساء القبائل الذين كانوا يظعنون مع قبائلهم في الفيافي الواقعة بين المحطة والأخرى بنصب خيام عند كل بئر أو أي مصدر ماء آخر بحيث لا يزيد الفارق بين مجموعات الخيام عن ٢٤ ميلاً ، وألزمتهم ببذل الحماية للقوافل في الأماكن التي ترتادها قبائلهم وكل شيخ تتعرض عنده قافلة للسوء ينال عقاب المخزن ، وقد جمع المنصور شيوخ قبائل الصحراء في قصره وأخذ منهم العهود بذلك[1] .

لقد اختير منزل تزناخت ليخدم قوافل التجارة التي كانت تسلك المعبر الشرقي المؤدي من تالوين إلى فم زكيد ، وتقع تزناخت على السفوح الجنوبية لجبال سيروة الشاهقة وفي مدخل وادي الكوبية الذي ينحدر تدريجياً إلى درعة ، وكانت المنطقة ذات خصب كبير ، إذ جاءت فيها المزروعات والفواكه ، وحفلت أرباضها بالمراعي الخضراء ، أما القرية نفسها فقد كانت تضم حياً خاصاً بأصحاب الخدمات من حدادين ونجارين ووسطاء تجاريين وأغلبهم من اليهود الذين كانوا

---

(١) ابن القاضي ـ المنتقى المنصور ص ٩٥

يعدون كل وسائل الراحة للتجار مقابل أثمان وتكاليف كان يحددها عامل الناحية في أغلب الأحيان ، ومما لا شك فيه أن اليهود كانوا يلعبون أهم الأدوار في تلك القرية وغيرها من عقد المواصلات الرئيسية[1] .

واحتلت أقا مكانة سجلماسة كعقدة في المواصلات الصحراوية وأصبحت شهرتها لا تضاهى كواحدة من محطات التجار في تاريخ التجارة بين المغرب والسودان ، وفي أقا كان المسافر يجد كل حاجته من الطعام واللحم والسمن والعسل ، ويجد المأوى والإسطبل ، وتكفلت السلطة المحلية التي كانت إلى نظر العامل بحراسة أمتعة المسافرين وبضائعهم ، وإن ضاع شيء جرى التحقيق الدقيق لمعرفة الجناة أو دفع تعويض ما ضاع من بضاعة من أموال الدولة المخزونة بالمدينة ، وكان المسافر يجد التسهيلات والراحة وكأنه في بيته وبين أفراد عشيرته ، وكانت الحماية تبذل بالشكل المطلوب لكل قافلة خرجت من أقا أو تغذ السير للوصول إليها ، وقد تحمل بعض القوافل القناطير من الذهب والأحجار الكريمة فلا تخشى عليها في المدينة أو في الطريق من سطو اللصوص[2] وكان لليهود حي خاص بأقا قوامه ثلاثون بيتاً[3] .

وخدمة للمسافرين على الطريق الساحلية الغربية المارة بولاته فقد أنشأ أحمد المنصور مدينة المحمدية وسط سهل سوس الخصب وعند ملتقى طرقه ، وكان المسافر يصل إلى هذه المدينة من تندوف عن طريق مركالا أو من الساحل مرورا بمدينتي كوليمين وبوزاكارن ، وكانت طريق المحمدية هي أقصر الطرق المؤدية إلى ميناء الصويرة ، وقد وصف الفشتالي تلك المدينة وأبرز أهميتها التجارية فذكر بأنها « من مشيدات مولانا الأمام المهدي رضي الله عنه ، قاعدة بلاد السوس وأم القرى والأمصار وملاك باب السودان ، ذات القصور المشيدة ، والأواوين الموظفة

---

(١) R. Mauny les juifs d'Afrique noire. Dakar 1949 P360

(٢) ابن القاضي ـ المنتقى ص ٩٥

(٣) السوسي ـ خلال جزولة ج ٣ ص ٧١

والرباط ، والأنهار المطردة والمساجد المزخرفة ، والمآذن المقرطة بلآلىء النجوم المشنفة إلى معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم أهرام مصر » . [1] .

ولم تكن المنازل الجنوبية التي بذلت لها العناية أيضا واجتهد المخزن في أن يوفر فيها ما في المستطاع توفيره من حاجات وتسهيلات المسافرين بالتي تقل أهمية عن أخواتها في الشمال ، ولكن بالنظر للظروف الحياتية في الجهات التي أقيمت فيها تلك المراكز فان خدماتها كانت متواضعة نسبيا ، فقرية أبراز بحكم وقوعها شمال تنبوكتو في منتصف الطريق بينها وبين أروان ، وبالنظر لوجود بئر عزيزة بها وهي بئر (التويرات) فانها حازت على إهتمام الادارة المغربية بالسودان ، وكان قسم من الرماة المغاربة يعسكرون بها ويحتجزون القوافل التجارية بها حتى تدفع ما عليها من واجبات لبيت المال أو إذا كان هناك خطر من توجهها الى تنبوكتو عبر الطريق المطروق من رجال التوارك وقبيلة البرابيش . وذكر المجهول ان الجيش إحتجز لمدة شهرين قافلة من الملح في إبراز قبل أن يسمح لها بالذهاب إلى تنبوكتو [2] .

وكانت المنازل المعدة لاقامة التجار واراحة الدواب في أروان واسعة ونظيفة [3] ووجد المسافر ضالته في الدكاكين الصغيرة وسط المدينة ، وكانت بعض المعاملات التجارية تجرى في أروان نفسها حيث يستبدل عرب البرابيش بعض ماشيتهم بالملح والثياب والبقر السوداني ذي السنام .

وفي محطة أو منزل تاودوني حول السكان وادي التيليغ ذا المياه العذبة الدائمة والزراعة الفصلية إلى محطة لاستقبال المسافرين ، وقد رأينا سابقا أن تاودوني وتغازي الغزلان كانتا تابعتين لباشوات تنبوكتو ، وكان يوجد على رأسهما حاكم برتبة قائد ، وقد ظلت المحطتان تؤديان وظيفتيهما في خدمة التجار إلى نهاية القرن الماضي [4] .

---

(١) الفشتالي ص ٢٥٤
(٢) تذكرة ص ١٢٤ و ١٢٥
(٣) لانزج ٢ ص ٩٣
(٤) أحمد الأمين الشنقيطي - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط - القاهرة ١٩٥٠ ص ٤٦٠

واحتفظت مدينة تندوف بأهميتها كعقدة للمواصلات الصحراوية ، وقد ذكرنا أنها كانت تابعة لأقا في عهد الدولة السعدية ، وكانت عساكر العامل تذرع الطريق بين المدينتين خدمة للتجار وحماية لأثقالهم .

وفيما عدا المحطات والمنازل السبعة الكبرى بذلت عناية أيضا لمنازل أخرى أقل أهمية وكبرا ، وقد تردد كثيرا في الفترة المعنية بالبحث إسم تغازى التي كانت تضم جملة من البيوت لايواء المسافرين وشنقيطي في جبال أدرار [١] التي إشتهرت بنخيلها وينابيعها ، ويظهر أن السعديين إجتهدوا في إكتشاف أماكن تواجد المياه الجوفية القريبة من السطح ، وفجروا فيها آبارا إرتوازية عملوا على حمايتها من الزوابع الرملية ، وكبحوا جماح الأعراب الذين كانوا يتحينون الفرص لازعاج المترددين عليها [٢] .

أما في جهات العمران شمال وادي درعة فقد شجع السعديون سدنة الزوايا ، وهي دور للعلم والتعبد ، على فتح زواياهم أمام المسافرين وتحويلها إلى ما يمكن تسميته اليوم بالأبناك والى منازل لاقامة الأعراب ، وبالنظر لما كانت تحتله تلك الزوايا من إحترام وتقديس عند رجال القبائل فانها ظلت وعلى مدى قرون من إنتهاء عهد المنصور أفضل المنازل لاستراحة التجار ، وكمثال على أهمية الزوايا ودورها التجاري والائتماني ما أورده السوسي من أن أحد الثوار إسمه سيدي إبراهيم نهب إحدى الزوايا بسوس وحمل منها عشرين ألف قنطار من الذهب [٣] .

ومما كان يلفت النظر زمن الادارة السعدية بالسودان أن حاميات عسكرية كانت تقيم باستمرار في بعض المحطات المنقطعة لغرض بذل الحماية للتجارة . وفي الأوقات التي كان حبل الأمن يضطرب أو يلوح ما ينذر بوقوع خطر ضد قافلة كانت فرق صغيرة من الجيش تصطحب التجار في ذهابهم ومجيئهم ، وقد حدث

---

(١) Gat P 134

(٢) زبادية ـ ممالك ، ص ٢١٧

(٣) السوسي ـ اليغ . ص ٤٧

ذلك باستمرار في الطريق المؤدية من تنبوكتو إلى ابراز التي كان التوارك والبرابيش يترددون عليها ، وفي طريق تنبوكتو كابارا حيث كانت فرق من جيش الفاسيين أو المراكشيين تتبادل الحراسة والمراقبة [1] ، وكانت تلك الفرق تقيم في مراكز مراقبة صغيرة منبثة على طول الطريق .

ومن جملة منجزات السعديين في ميدان خدمة القوافل تنظيم مهنة التكشيف والقيافة وقيادة القوافل ، ويبدو أن كل مجموعة من تلك الفرق كان لها أمين يقيم في تنبوكتو أو أقا ، ولا يقبل أي دليل لا يكون له إلمام كاف بالطرق الصحراوية بحيث يكون مستذكرا لكل نبع ماء وجبل وعرق وحمادة وشجرة ، وعارفا بأماكن الرعي على الطرق ، ومتمكنا من المعلومات الفلكية كمواقع النجوم واتجاه الرياح [2] وبعض أولئك الأدلاء كانوا معدودين من أفراد الجيش أو من سكان جنوب المغرب[3] .

٣ ـ النقل النهري :

كان النقل على نهر النيجر أهم وسيلة لحمل البضائع داخل السودان وأكثرها أمنا وسرعة وأقلها كلفة ، فأهم مدن السودان كانت واقعة على النهر مباشرة أو قريبة منه عدا أن السفينة الواحدة التي لا تكلف صاحبها علفا أو ماء ولا تنفق كما تنفق الدواب تستطيع أن تحمل من ستة إلى عشرة أطنان أي ما تحمله قافلة عدد دوابها ١٢٠ جملا ، وكانت السفن والعبارات النهرية العريضة التي تسير بالتجديف تقطع المسافة بين كوليكورو بالقرب من باماكو وبين إقليم دندى في سبعة شهور مع التوقف الضروري للشحن والتفريغ على طول هذه المسافة البالغة ١٧٨٠ ك . م.

كانت المواصلات النهرية تبتدىء فيما وقفنا عليه من ميناء أيورو ببلاد دندى

---

(١) المجهول ـ تذكرة ـ ص ١٠١

(٢) De Castries. France. T. 2 P 267

(٣) الفشتالي ص ١٢٨

وهو ميناء واسع يحتكر التجارة ووسائط النقل فيه رجال السونغاي ، وتقصد السفن بعد ذلك إلى ميناء أنسونغو قاطعة مسافة تبلغ ١٤٠ ك . م ، ومن هنا إلى ميناء تنشي الذي لا تبعد عنه كوكيا إلا مسافة قصيرة [١] وبعد قطع خمسين كيلومترا تدخل السفن ميناء غاو ، ويكون على الربابنة أن يتفادوا المساقط المائية ويتحاشوا الاصطدام بعشرات الجزر المرتصفة وسط النهر قبل وصولهم الى ميناء بوريم على مسافة ١٠٠ ك . م من غاو ، ويأخذ النهر بعد بوريم إتجاها غربيا شرقيا ، والمسافة من هنا إل بامبا تصل إلى ١٣٥ ك . م ، وتمر السفن بمحاذاة موانيء صغيرة هي على التوالي كارابارا وتيركا وطوغايا قبل أن تلقي مرساتها في ميناء كبارا (المسافة بين بامبا وكبارا عن طريق النهر ٢٠٠ ك . م) ولم تكن كابارا التي تبعد عن تنبوكتو بثمانية كيلومترات هي الميناء الوحيد للعاصمة ، بل كانت السفن تتقدم نحو الشمال وقت الفيضان فتصل إلى الميناء الصيفي المسمى كرونزوفي [٢] البعيد عن تنبوكتو بنحو خمسة كيلو مترات .

لقد كان مرسى كابارا أهم ميناء سوداني في مطلع القرن السابع عشر ، وكان رصيفه متطاولا من الشرق إلى الغرب على مسافة ثلاثة كيلو مترات تزدحم عليه السفن والعبارات كخلية للنحل [٣] ، ولضمان العمق اللازم عند الرصيف كان قائد الميناء يوظف عددا من العمال لنقل الأشواك والحجارة والطين المشوي ووضع ذلك بعضه فوق البعض الآخر عند تماس الماء مع الأرض . ولم يكن الدخول الى الميناء سهلا ، ذلك أن بعض الجزر الحافلة بالأعشاب الطويلة كانت تنتشر قبالة المدخل ، ولكن السكان تمكنوا من إحداث فجوة واسعة بات في وسع السفن من حمولة ٢٥ طنا أن تدخل منها إلى الميناء ، وكان عمال الميناء كلهم من العبيد الذين يذرعون المكان واضعين حبالا غليظة لجر السفن وللتحميل فوق أكتافهم ، أما التجار فقد أعدت لهم خيام صغيرة يستريحون فيها أو ينجزون أعمالهم التجارية

---

(١) السعدي ص ١٥٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٧

(٣) كايي ج ٢ ص ٢٩٢ إلى ٢٩٨

منها ، وفي الطرف الشرقي للميناء كانت تقف سفن الصيد الطويلة الضامرة ، وعلى مسافة قريبة منها على اليابسة كان الصيادون يعرضون أسماكهم للبيع أو يضعونها لتيبس تحت أشعة الشمس المحرقة ، وبصفة عامة فلقد كان ميناء كبارا كأي ميناء في المغرب أو أوروبا من حيث كثرة القوارب وتعدد الأجناس واختلاط الباعة بالزبائن وكثرة المتاجر الصغيرة التي لم تكن تبتعد عن المرسى إلا قليلا ، وازدحام الرصيف بالحمالين ودواب الحمل مع تعالي صخب السماسرة والدلالين[1] .

وتلاقي السفن التجارية المتاعب الجمة عندما تتجه من كابارا نحو الغرب ، فمياه النهر تضيع في سهل الفيضان الواسع ولا يصبح إلا في مقدور العارفين بالمسالك المائية الاهتداء إلى الطرق الأكثر والأقل أنصابا ، وكانت السفن القوية المتخذة من الخشب المشدود بالحبال هي التي تتمكن من السير إلى ميناء ديرى على بعد تسعين كيلومترا جنوب تنبوكتو ، وكانت أهمية ديرى تأتي من قرب مينائها المستنقعي الموبؤ من مدينة كوندام[2] وفي وقت الفيضان تستطيع السفن الجلدية أن تربط بين المدينتين ، وتتجه السفن بعد ديرى إلى ميناء ساراتيرى وسط مياه ضحلة منتشرة على مد البصر ، وتقطع السفينة المتوسطة مسافة ٦٠ ك . م بين المدينتين في سبعة أيام وقت الشح وفي يومين زمن الفيضان وتواصل السفن طريقها نحو ميناء نكوما القريب لتدلف بعده في مياه بحيرة كورارو الضحلة الكثيرة الأعشاب .

وعند وصول السفن إلى ميناء كونا تكون قد قطعت مسافة مائة وثلاثين كيلومترا منذ إنفصالها عن ساراتيرى السابقة الذكر . وقد إشتهرت كونا في عهد المغاربة شهرة مدوية باعتبارها المكان المفضل للمبادلات التي كانت تجرى بين تجار الشرق وتجار الرقيق من قبائل البهل . وفي مسيرة السفن نحو موبتي ثاني أكبر مدينة في مسينا كانت تبتديء متاعب التجار في تلك البلاد الوثنية ، وقد كان

---

(١) المكان السابق

(٢) تبعد كوندام عن ديرى بنحو ٣٠ ك . م

الجيش المغربي يشكل دوريات للحراسة ، ويضطر الجيش المقيم في قلعته بتانديرما إلى التحرك بانتظام لتأمين سلامة السفن والطرق البرية [1] ، ولا تبعد موبتي عن ديني إلا بنحو ١٢٠ كيلو مترا ، وهي مسافة كان الملاحون يقطعونها بصعوبة أقل بالنظر لاتضاح سير النهر ووجود الأعماق المناسبة [2] ، ويجب التنبيه إلى ان السفن استخدمت هنا مياه نهر (باني) وهو أحد روافد النيجر الذي يبتعد مجراه أو سهل فيضانه الواسع نحو الغرب داخل بلاد مسنا ، فهذا الرافد الهام المنتظم هو الذي يربط في الحقيقة بين مدينتي موبتي وديني .

يعد ميناء دييني ثاني ميناء في السودان المغربي من حيث الأهمية التجارية وأقدم ميناء ذكره التاريخ في تلك الجهة من أفريقيا ، ومنذ القديم كان يلتقي عند رصيفه تجار الملح وتجار الذهب والرقيق [3] ، وفي بداية القرن السابع عشر إهتم المغاربة بتنظيم الميناء إداريا وتجاريا ، وقد سموا في بداية حكمهم للسودان حاكما لميناء دييني ورسموا قاضيا للفصل في نزاعات التجار [4] . ولم تقل حمولات الميناء ولا تنوع البضائع عن مثيلاتها في كابارا . وكان الميناء القديم يقع على الضفة اليسرى لنهر باني ، ولم تكن السفن الكبيرة تستطيع الوصول إلى الرصيف الموحل العشبي إلا وقت الفيضان بين شهري يونيه ومارس ، وفي الأشهر الأخرى كانت تلك السفن تتوقف وسط النهر وتترك للقوارب الصغيرة مهمة نقل الحمولات الى الرصيف ، وكما هو الشأن في كابارا فان ميناء دييني الذي أطلق عليه إسم (بيرو) كان يبعد عن المدينة بأربعة كيلو مترات ، ومن الخواص التي إمتاز بها ميناء دييني أنه كان يوزع البضائع على الموانيء القريبة فكانت هنالك تجارة تقوم فوق النهر نفسه [5] .

---

(١) السعدى ص ١٧٩

(٢) كابي ج ٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٦٠

(٣) السعدى ص ١١

(٤) Monteil Op. cit P 84

(٥) يراجع كابي ج ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٨

وقد خاض المغاربة بسفنهم نهر باني من دييني إلى سان على بعد ١٠٠ ك . م جنوبا ويبدو انهم لم يتجاوز وابتجارتهم أو حملاتهم قرية سانزانا [١] حيث لم يرد أي ذكر في المصادر السودانية للمدن الواقعة إلى الجنوب من ذلك المكان ، ونعتقد أن ذبابة تسي تسي التي كانت تحفل بها تلك الجهات هي التي سدت الطريق في وجه تقدمهم الى جهات لم يكن هناك من مانع قوي يحول دون الوصول إليها .

٣) الفلاحة [٢] والصيد

تعتبر أقاليم السودان التي كانت مشمولة بالحكم المغربي ضمن الاقليم المداري الجاف ، ورغم التباين بين مناطقها الشمالية والجنوبية من حيث المظاهر النباتية ، ودرجات حرارة الليل والنهار ونسبة الرطوبة وكمية الأمطار فان طابع الجفاف على تفاوته عند الانتقال من خط عرض إلى آخر يبقى هو المميز لكل تلك الأقاليم ، ولكن المجرى المائي الهام المتمثل في نهر النيجر يغير المناظر في الحيز الذي يجري فيه أو يدفع إليه مياه فيضانه ، وهكذا فان حوض النهر لم يقدم فقط إمكانية إقامة زراعة كثيفة ولكنه سمح بالتحكم في مياه النهر وجرها إلى أماكن واطئة بعيدة ، واتخاذ أجود المزارع واستنبات مختلف الأشجار المثمرة منذ فجر التاريخ الافريقي ، ولا شك أن المناخ الحار والتربة الرسوبية المكونة في الغالب من طمى النهر قد ساهما مساهمة قيمة في ذلك الجهد الفلاحي .

ولقد كان أغلب سكان السودان في عهد السونغاي فلاحين ، وكان العبيد يعملون بهمة ونشاط في مزارع النبلاء والتجار ، ولم يقف في وجه العمل الفلاحي أي عائق سوى الثورات والحروب وأعمال السلب والنهب [٣] ، وكانت الفؤ وس والمحاريث الخشبية هي عدة الفلاح في تعامله مع أرضه ، غير أن فلاحي السودان

---

(١) تقع على بعد ٣٠ ك . م شرق باماكو
(٢) يقصد المغاربة بالفلاحة الزراعة والغراسة وتربية الحيوان والأحياء المائية .
(٣) زبادية ـ مملكة ص ١٧٢

تعلموا أساليب زراعية متقنة كجر المياه للري الواسع واستعمال الأسمدة من بضعة فلاحين جلبوا من توات للعمل في مزارع الأسكيا الحاج محمد ، أما المحراث الذي كان يستعمله فلاحو ولاتة العرب فقد أدخل إلى السودان في بداية القرن السادس عشر [1] .

وكان السونغاي يستغلون الغابات ، وأغلبها من نوع السافانا القليلة الكثافة القصيرة الأشجار فيقطفون الثمار وينشرون الأخشاب ويدفعون بقطعان مواشيهم من البقر والغنم والماعز للرعي في الغابات وفي أطراف المستنقعات [2] .

وكان المزارع السوداني في صراع مع الآفات والأوبئة ، ومع تقلبات المناخ وانحباس المطر وضعف الفيضان أو عندما تحل آفة من تلك الآفات كان يترك مزرعته وييم شطر جهة أخرى ، وكان هناك شر لا مفر منه تمثل في زحف الصحراء وضيق الأمكنة المستغلة سنة بعد أخرى .

ويبدو أن مجيء المغاربة إلى السودان وتوطيدهم العزم على الاستقرار فيه كانا بركة ورحمة على هذا الجانب الاقتصادي الأساسي ، ولم تكن الحملة المغربية تتكون من جنود فقط ، بل ان آلافا من الخبراء قد بعثهم المنصور ليعملوا على تغيير وجه السودان الاقتصادي وتحقيق إستغلال أراضيه وتوسيع إنتاجه .

وقد أتت الخبرة الأندلسية في ميدان الفلاحة أكلها بالسودان في كل بقعة إمتد إليها الحكم المغربي ، « فقد دخل الناس في الحرث واشتغلوا به وأكثر الله الغيث وأنبت الزرع ورخص الطعام في كل جانب ومكان وأطفأ الله نيران الفتن » [3] و « أخذت المزارع السودانية وخاصة في الغرب شكل البساتين الأندلسية فشهدت تطورا مهما من ناحية الانتاج الغذائي وكان يشرف على تلك البساتين فلاحون من

---

(١) المكان السابق
(٢) بوفيل ص ١٧٣
(٣) الفتاش ص ١٨١

المغرب » [١] ، وتجلى ذلك التحول أيضا في نظام الاستغلال الحثيث للأرض وفي التجاوب مع إمكانياتها في العطاء فاستغلت سفوح الجبال وشقت بالمساطب والقنوات وهكذا « مهر الأفارقة في الزراعة على سفوح الجبال وقممها ، واتقنوا صيانة التربة على مهاوي التلال ، وبنوا نظما زراعية معقدة ونقلوا من أهل الشمال الافريقي النظم الاجتماعية والقدرات الفنية ، وأضافوا إليها ما حذفوه في السابق ، وطوعوا كل هذا لتجربتهم هم أنفسهم ، ثم إخترعوا ما إحتاجوا إليه من أدوات وفنون على هدي ما إقتبسوه من الشمال [٢] .

ولا شك أن الأندلسيين الذين انتقلوا إلى السودان مع حملة جؤذر أو بعدها قد لعبوا دورا في التطور الملموس الذي شهدته الفلاحة السودانية ، فقد تفرق الأندلسيون في البوادي « واستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحية الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات ، ومال أهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها ففاق أهل الصنائع أهل البلاد ، « ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد » [٣] .

وفي ميدان الري سنرى الوسائل التي أدخلها المغاربة إلى السودان فأدت إلى إستغلال المياه وتسخيرها وللاكثار من الدورات النباتية ، كما اننا سنؤكد على ما أدخله المغاربة من أصناف وأغراس لم تكن معروفة في السودان ، وما إجتهدوا فيه لتجويد المزروعات التي كانت موجودة قبل مجيئهم ، وما بذلوه من جهد لتصليب أجناس الحيوان ، ومقاومة الأوبئة الضارة به عن طريق البيطرة التي عمل فيها أطباء مختصون وخبراء وكذلك الأدوية وأصناف التطعيم [٤] .

---

(١) Monteil. P 53

(٢) دافيد سون ص ٦٥

(٣) المقري - نفح الطيب ص ٧٦٤ ، هذه الفقرة تعطينا فكرة عن إتجاه الأندلسيين إلى العمل الزراعي بعد نزوحهم إلى المغرب وانتشارهم في حواضره وبواديه وفي الجهات التي ألحقت به .

(٤) Dupuis- yakoula «industries et principales professions des Habitants de la region de Tambouctou- Paris 1921 P, P 183 — 184

١ ـ الحيوان والصيد النهري

كانت الغابات والجبال والمستنقعات في السودان المغربي تعج بالحيوانات الضارية والبرمائية الضخمة المفترسة ، ورغم تبدل المناخ والصيد الحثيث واستعمال أساليب المكافحة فلا زالت تلك المناطق تعطي إلى اليوم صورة مصغرة عما كانت عليه في أوائل القرن السابع عشر .

وقد ورد في كل المصادر التاريخية ذكر للأسود والفهود وغيرها من الحيوانات المفترسة التي كانت تعيش في كل جهات الأقاليم السودانية وبصفة خاصة في بلاد مسينا ، ولم يكن عدد الفيلة كثيرا بفعل عملية الصيد التي جرت في عهد السونغاي ، وقد إمتازت فيلة السودان بصغر الحجم ودكانة اللون ، أما حمير الوحش والزراف التي كان السكان يتخذون من جلودها ملابس أو يعلقونها في بيوتهم ويأكلون لحومها فكانت وفيرة العدد ، وقد نقل الباشوات أعدادا منها إلى المغرب [١] ، وكانت توجد أعداد كبيرة من الوعول والبقر الوحشي في شمال نهر النيجر ، أما الغزلان فمراتعها المعتادة بين أروان وتنبوكتو وكان العرب وقبائل البرابيش منهم خاصة يصطادونها ، وكذلك التوارك الذين فضلوا لحومها على لحوم أية دواب أخرى .

وكان النعام يتكاثر فيما بين تنبوكتو وولاته ، واجتهد السكان في إصطياده لارتفاع أثمان ريشه وبيضه ولاستخراج زيوته التي إستخدمت كدواء [٢] وقد إصطاد السودانيون بعض النعام في عطفة النيجر ولكن المغاربة لم يجدوا إلا أعدادا قليلة منه في تلك الجهة ، وكان فصل الصيف هو الفصل المفضل لاصطياد النعام ، وكان العرب يطلقون على ذكره (ظليم)

وعرفت كل أنحاء السودان الذئب والثعلب وبنات آوى .

---

(١) R. Mauny Tableau P 323

(٢) زبادية ـ مملكة ـ ص ١٨١

واشتهرت بلاد السودان بأنواع غريبة من الطيور كالعقاب والغراب الملون والقنبرة ذات الريش الطويل والعرف الملون ، ولم يعد لهذا الطائر وجود منذ القرن الماضي حيث قضى عليه الصيادون ، وكذلك أنواع أخرى من البجع (أبو سعن) [1] ، أما البط النهري المهاجر الذي كان يقطع الصحراء الساحلية من المغرب ويعيش في جزر النيجر فكان يتكاثر بكيفية غريبة ولاحظ كايي أنه كان في وقت وصوله إلى السودان يغطي كل مساء سماء كابار وغيرها من المراسي السودانية [2] ، وقد حفلت المستنقعات على طول النهر بالحيوانات البرمائية الضخمة وفي مقدمتها التمساح وهو من النوع الطويل الخطر ، وكان السكان يفضلون إصطياده حيا عندما يخرج لتعريض جسمه لأشعة الشمس ، وفرس البحر الذي كان يعرقل الملاحة في بعض أجزاء النهر ، وقد حفلت أسواق السودان بجلود الحيوانين ، أما لحومها فكانت مستساغة لأهالي السودان.

ونجد أوصافا لطرق اصطياد الحيوانات الوحشية جميعا ولم تخرج تلك الطرق فيما لاحظناه عما إعتاده السودانيون منذ فجر تاريخهم [3] .

كانت الحيوانات المستأنسة من مستلزمات الحياة السودانية ، واشتهرت بتنوعها واختلاف أشكالها وخواص جلودها ولحومها تبعا لاختلاف طبيعة أقاليم السودان ، وقد جلب المغاربة أنواعا منها فتناسلت في تلك البلاد وأعطت سلالات جيدة ، وكان الماعز وكلاب الحراسة وأصناف الحمام في طليعة ما جلبه المغاربة ، أما الحصان العربي فقد أدخله الجيش المغربي إلى تلك البلاد ولم يكن يوجد قبل إحضاره سوى نوع متوحش صغير الهيأة يدعى كيمراس ولم تمر سوى سنوات قليلة حتى تناسلت الخيول المغربية من الصنف المحلي وأعطت نوعا لا يتأثر بلفح الهواء ولا بلسع الحشرات القاتلة ، وقد إختص الكنتيون بتربية الخيول في شرق تنبوكتو [4]

(١) لانز ج ٢ ص ١٢٩

(٢) كايي ج ٢ ص ٢٩٢

(٣) لانز ج ٢ ص ٢١٢

(٤) الشنقيطي ص ٥٣٣ وقد ذكر السوسي أن المغاربة كانوا يشترون الخيول القوية من السودان بعد مرور سنوات من قدوم جؤذر - اليغ قديما وحديثا ص ٩٥ .

ونذكر من أهم أصناف الحيوانات الأليفة في بلاد السودان على عهد المغاربة :

الأغنام : كان المكان الأمثل لتكاثرها هو شمال نهر النيجر وبلاد الحوض في موريطانيا الحالية ، وكان هناك نوعان منها ، نوع سوداني أصيل قليل الصوف مرتفع القوائم يستطيع تحمل وطأة المناخ [1] ونوع مغربي صحراوي طويل الذيل كثيف الصوف ولكنه لا يستطيع العيش في المناطق الرطبة إذ يعتريه الاسهال والسقم إذا هبت عليه رياح ساخنة رطبة أو تعرض لسقوط المطر [2] .

الماعز: تولد نوع من الماعز أخذ مميزات الصنفين السوداني والمغربي ، غير أن تكاثر الماعز كان ضعيفا لأن عدد الماعز في السودان قليل [3] بالقياس إلى الأغنام باستثناء المنطقة الشمالية الغربية وبصفة خاصة النعمة وولاتة .

البقر: الأنواع السودانية صغيرة الحجم بشكل عام مع قرون طويلة ملتوية وسنام قليل البروز، ولم يكن للمغاربة عناية بتربية الأبقار فظلت قاصرة على القبائل السوداء وبعض أفخاد التوارك ، ويكون وزن بقرة عمرها ثلاث سنوات ١٦٠ ك . غ منها ٦٠ ك . غ من اللحم الخالص ،وأقبل السودانيون على شرب اللبن البقري بينما فضل المغاربة لبن الماعز والغنم ، أما الأعراب فلم يرضوا بديلا عن لبن النوق ، وكان المغاربة يتخذون السمن المملح من زبدة لبن البقر أما الجبن فلم تعرف صناعته بتلك البلاد [4] .

الحمير: رمادية وصغيرة الحجم وقليلة العدد .

الجمل: حيوان صحراوي أصيل عرفته الصحراء منذ العهد الروماني ،

---

(١) Gat. P. 130

(٢) لانزج ٢ ص ٢٢٢

(٣) Monteil P 219

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٣

والجمل بحكم تكوينه لا يحتمل المناخ الرطب الماطر ، وقد أغفل المغاربة إستعماله في المناطق القريبة من نهر النيجر لتعرضه للمرض وكانت أهم مناطق تواجده في إبراز واروان وولاتة .

الدواجن : كانت من مستلزمات البيوت السودانية ، والدجاج الافريقي صغير الحجم قليل البيض ويميل طعم لحمه إلى طعم السمك بحكم ما يتناوله من ديدان وحيتان نهرية ، أما أعشاش الحمام فوجدت في كل حائط ولم يكن أهل المدن يميلون إلى تناول لحم الحمام الذي يضع أعشاشه في المساجد والزوايا .

ويظهر أن المغاربة قد أبطلوا تناول لحم الكلاب الذي كان مستساغا قبل مجيئهم [1] .

النحل : عرفت تربية النحل في السودان منذ القديم [2] ، ولعل المغاربة عندما جلبوا أغراس الليمون كانوا يخططون لاستنباط العسل الشمالي الذي كان يمتاز بنكهة خاصة [3] .

وعد نهر النيجر ، بالنظر لاتساعه وطول مجراه وللأعشاب والديدان والحشرات التي تعيش على ضفتيه وبالنظر للمناخ السوداني الملائم ، من أهم أمكنة توالد الأسماك النهرية في العالم ، وهناك نسبة كبيرة من السكان كانت تعيش على تلك الثروة السمكية وتحرز على قدر كبير من المهارة في صيدها وتجفيفها لاتخاذها أساس في الغذاء والتبادل التجاري ، وقد إستفاد الافريقي منذ القديم من لحم السمك في التغذية ومن عظامه في صنع الأدوات المنزلية وغيرها ، ومن دهنه في تحضير الطعام ، كما كان يستخرج مادة العنبر الغالية الثمن من رؤوس سمك

---

(١) زبادية ـ ممالك ـ ص ١٨٦

(٢) المكان السابق

(٣) إعتنى المغاربة بتطبيب الحيوان وتحسين نسله ونتاجه ، وكانت تلك الصنعة تحوطها السرية ولكن الأفارقة لم يلبثوا أن تعلموها Dupuis - yakouta p. 185

العنبر الذي كان يلقي به التيار على الساحل وقت شح النهر وتدني منسوبه [1] ، ولم يكن نهر النيجر يقدم ذلك كله فقط بل ان النباتات العميقة الجذور والشديدة الحلاوة المسماة (بورغو) كانت تنمو على ضفتيه فيعمد الأهالي إلى قطعها واستخدامها في تحلية الطعام والشاي أو في تغذية الأبقار والدجاج ، وقد دخلت نبتة البورغو كمادة أساسية في التجارة الداخلية بالسودان .

كانت أنواع أسماك نهر النيجر كثيرة ولم يكن السكان يهتمون الا بالكبير منها ومن تلك الأنواع .

سمك القبطان [2] ، يمتاز بألوانه الزاهية الفضية والذهبية وبطوله الذي يصل إلى ٨٠ سم وبلحمه اللذيذ الطعم ، ومن المناظر المألوفة على ساحل النيجر رؤ ية الصيادين وهم يحملونه من رأسه وذنبه يجر على الأرض ، ويأكله السودانيون باردا مع المرق أو ساخنا مع الزبدة والأرز ، ويتم صيده بالشبكة التي تلصق بها بعض الديدان .

سمك (الصابر) ، رأسه ضخم وفمه واسع ، يعرف بجلده الأملس الداكن وتلونه باللونين البنفسجي والأصفر ، ويصل وزن السمكة الواحدة من الصابر إلى ١٥ ك . غ ، أما صيده فيكون بواسطة الحيلة إذ أن مما عرف عنه أن يصيح عند موت إحدى أسماك جنسه ، ولمعرفة الصيادين بهذه الخاصية فانهم يأتون بسمكة ميتة ويدلونها من قاربهم بواسطة مخطاف فتتجمع الأسماك حولها منتحبة فاقدة للوعي ، وعندها يضربها الصياد بالرمح ، ويصدر هذا النوع من السمك أفواجا مكهربة للاستشعار وللدفاع عن نفسه ضد السمك الأكبر منه . إن سمك الصابر مكتنز اللحم تستعمله النساء في تحضير الكسكس [3] ، ويعرف الصيادون معرفة دقيقة الأماكن التي يقصدها هذا النوع للتوالد كما يلمون بالطرق التي تعيش

---

(١) زبادية ـ ممالك ، ص ١٨٢
(٢) الرايس أو القبطان كانا يطلقان في عهد السعديين على قائد السفينة .
(٣) تحضير الكسكس بلحم السمك عادة أندلسية لا زالت مستعملة في المغرب إلى اليوم

عليها مختلف أنواع الأسماك [1] .

القوسيا : سمك مسلح بأسنان وعضلات قوية ، يمتاز بعيونه الواسعة وجلده المخطط باللونين الأسود والبني ، يطلق عليه أهل تنبوكتو، سمك الكورارو وقد يصل طول السمكة إلى ٤٠ سم .

الكيين : يضرب لونه إلى الحمرة مع خطوط خضراء على ظهره ، أما صدره فأبيض اللون يتراوح طول السمكة بين ٢٥ و ٣٠ سم .

الصوفا : نفس أوصاف الكيين مع عيون صغيرة وحجم أكبر .

السماني : عيونه صغيرة سوداء يميل لونه إلى الخضرة طوله من ١٧ إلى ٨ سم .

البوري [2] : سمك طويل واسع الفم مع أسنان دقيقة حادة ، يتميز بوجود خمسة أذرع إثنتان منها على ظهره ، لونه رمادي مصفر مع بياض البطن ، ولا يتعدى طول السمكة ٣٠ سم .

الكانبو [3] : سمك دهني مكتنز اللحم ، فمه دقيق وقد يصل طول السمكة منه إل ٥٠ سم ، وهو لا يخاف من الصيادين وقد يدعوه أحدهم إلى دخول الشبكة فيدخلها بكل هدوء ، وكان يضرب به المثل في السودان والمغرب معا على الغباء والبلادة .

تاكو بامبام : يعيش في ناحية ديبني حيث يقوى التيار المائي ، وهو أملس الجسم دهني اللحم ، منتفخ الأوداج لونه أخضر غامق ، ويأكل السكان هذا الصنف طازجا لأنه ينتفخ وينتن عند تجفيفه ، طول السمكة من ٣٠ إلى ٤٠ سم .

---

(١) مونتي ص ٢٠٠

(٢) تسمية أندلسية تستعمل إلى اليوم في المغرب .

(٣) تعنى هذه التسمية بالأسبانية القديمة ابليد .

ديوبي : لونه أحمر مع خطوط ذهبية قد يصل طول السمكة إلى أكثر من متر واحد ، ويعرف الديوبي بأنه مهاجم وخطير ولا تتمكن الا الشباك من إصطياده .

وازي : يمتاز برأسه الكبير المندمج في البطن ، لونه بنفسجي رمادي وقد يبلغ طوله ٦٠ سم .

[١] : مكسو بالزغب والزعانف ورأسه مستدير ويبلغ طوله ١ م .

فواكه البحر : جمع السودانيون بعض أصناف من الحيوانات القوقعية أو ذات اللحاء كالسلور والربيان ، وهي تتوالد في شرق تنبوكتو حيث يجتاز النهر خوانق صخرية كوارتزية ، وفي منطقة كولاني جنوب غاو [٢] .

لقد كان الصيد النهري في عهد المغاربة أحد المصادر الرئيسية للتجارة ولغذاء نسبة مهمة من السكان ، وقد إعتمد حاكم كابارا شيخا للصيادين كان يطلق عليه لقب (الأمين) ، أما الصيادون فكانوا طبقة خاصة في كابارا وتنبوكتو وديني ، ويطلق عليهم إسم (الصوركو) ، وأغلب أفراد طبقة الصوركو كان من العبيد الذين يعيشون في أحياء خاصة بهم ، وعرف الصياد بلباسه القصير المختصر وبسحنته الملوحة بالشمس وبما كان يحمله كل مساء لسيده من السمك المجفف ، غير أن بعض الصيادين كانوا أحرارا في عملهم ولكنهم كانوا أشد فقرا من الآخرين حيث لا يتوفرون على الوسائل الضرورية للصيد فيقبعون على ضفة النهر ينتظرون أن يلقي الموج ببعض الأسماك الميتة فيجففونها ويأخذونها إلى السوق [٣] .

لقد إستعمل الصيادون السودانيون الشباك والرماح والمخاطيف والسلال في عمليات الصيد بنهر النيجر وفي المستنقعات القليلة الأعماق الراكدة المياه ، وكانت الشباك تتخذ من نبات ليفي يدعى (دا) إستنبته المزارعون في الجهات الغربية ،

---

(١) تعني كلمة بيبي باللهجة المغربية الديك الرومي

(٢) يراجع M. Brak «la peche moderne» Paris 1907

(٣) تاريخ الفتاش ص . ٥٧

وتراوح طول الشباك بين ٤٠ و ٥٠ مترا وعرضها بين ٤ و ٥ أمتار ، وهكذا فقد كانت الشباك متطاولة تتخللها عقد مربوطة إلى دوائر خشبية أو كرات مجوفة دعيت باللهجة السودانية (فورو) وبين كل ثلاث كرات خشبية كانت تربط قطع من الرصاص أو من الخزف المشوي ليغمر الماء جزء من الشبكة ، وبعض الشباك كانت على شكل مثلث تتخلله جيوب ومداخل متعددة لاصطياد الأسماك المتوسطة والصغيرة ، واستعملت في إصطياد الأسماك أيضا الشباك الصغيرة المربوطة إلى عصى بحيث تأخذ شكل السلة عند إنفتاحها ، كما استخدمت الرماح والعصي . أما المخاطيف فكانت عبارة عن رماح من الحديد أو الخشب ذات رأس واحد إلى ثلاثة تنتهي بخيط يقصر كلما تعددت الرؤوس ، وقد أطلقت على المخاطيف أسماء متعددة حسب مناطق السودان وهي : داما وهارودي وديوونادوبي ، ولم يعرف الصيادون السنارة مع الخيط والقصبة بل إكتفوا بالخيط والسنارة فقط لاصطياد الأسماك الصغيرة أما السلة فكانت مما إستعملته النساء والأطفال في الصيد وذلك في الأماكن الضحلة عند الشاطىء مباشرة .

وأفضل الأماكن للصيد هي الواقعة قبل مساقط المياه ، وقت تدني منسوب المياه ، فعند ما يفتح الصيادون شباكهم أسفل الفتحات التي تتخلل الصخور يدخل السمك بكل سهولة في فتحة الشبكة ، ولا بد من إستعمال الشواقير الحديدية أو الحجرية لقتل الضحية بعد ذلك ، ومن المناظر التي كانت مألوفة مشهد جمهرة الصيادين وهم يقومون باثارة الأسماك وتوجيهها إلى فتحات الشباك ، أما في الليل فان أضمن الطرق كانت إشعال النيران على دفة السفن لجلب الأسماك إلى السطح ، ويباشر صيدها عندئذ باحدى الوسائل المتخذة لذلك .

٢ ـ المزروعات والمزارع :

كان المناخ ملائماً في القرنين السادس والسابع عشر لنجاح المزروعات البعلية[١]، ولم يقع النقص الكبير في كميات الأمطار المتهاطلة على مختلف مناطق

(١) تاريخ الفتاش ص ١٨١

السودان إلا في عهود متأخرة تعود إلى نصف قرن[1] وقد رأينا الباشا جؤذر يشكو من عنف الأمطار التي كانت تسقط فوق تنبوكتو ، واعتباراً لذلك فقد كنا نجد المزارع منتشرة على سفوح الجبال وفي الأودية ، وفي الجهات البعيدة عن النهر شمالاً وجنوباً .

لقد عرفت مناطق السودان مزروعات البلاد المدارية منذ القديم ، وإن كانت معالجة الأرض تمت بالطرق البدائية التي قللت من أهمية المنتوج السنوي ، وبذلت بعض الجهود المتواضعة لري الأراضي القريبة من النهر ولكنها لم ترق إلى العمل الذي أنجزه الفلاحون المغاربة والأندلسيون واستطاعوا معه التحكم في مياه النهر وجرها وقت الفيضان إلى جهات بعيدة ثم اختزانها وراء سدود ترابية للاستفادة منها في فصل الشتاء الجاف .

وبالإضافة إلى ما تحقق من تقدم في عهد المغاربة في ميادين تحسين الأنواع ، ومعالجة التربة واستخدام الوسائل الفعالة في الحرث وفي مقدمتها المحراث الحديدي ، والتحكم في المياه لاستخدامها في الري ، فإن الخبراء الأندلسيين بما حملوه معهم من معرفة وإلمام بظروف الفيضان وخواصه في إنبات الحبوب والأعشاب التي تتطلب كميات كبيرة من الماء وبخواص الطمى فإنهم دأبوا على مراقبة النهر لمعرفة أوقات ومنسوب الفيضان ، ونجد في كتابي السعدي والفتاش إشارات واضحة إلى وجود محطة لقياس ارتفاع المياه في قرية (معدوكو) جنوب تنبوكتو[2] ، وقد اعتمد الأندلسيون التقويم الشمسي كما كان الشأن في المغرب ، فالأشهر المعتمدة في الزراعة كانت تبتديء بيناير وتنتهي في دجنبر ، وكان (الشهر الفلاحي) يبتديء بأحد عشر يوماً بعد يوم ابتداء الشهر الشمسي[3] أما تقويم الأحداث فكانت الأشهر القمرية هي المعتمدة فيه .

---

(١) لانز ج ٢ ص ١٤٣ ذكر أنه في نهاية القرن الماضي كانت أمطار شهر يوليو غزيرة وكافية لحاجة المزارع .

(٢) السعدي ٢٧٨ و٢٩٢

(٣) المكانان السابقان .

زرعت بالسودان منذ القديم كل أنواع المزروعات التي تتحمل الرطوبة والحرارة ومنها :

الأرز : عرفت المناطق الغربية (سهول ديبني الفيضية) نوعين من الأرز أحدهما قصير منتفخ والآخر طويل ودقيق ، وقد ظل فلاحو البهل متخصصين في زراعة الأرز في المزارع المروية ومنها التي اشتراها المغاربة أو استصلحوها ، وقد ظلت زراعة الأرز الذي كان الطعام الشعبي في السودان تقليدية بدائية ، كما أن قشوره وقشه استعملا في صنع الطوب إلى جانب التراب للبناء أو لتقوية أرصفة الموانيء .

الدخن : كان غذاء رئيسياً كذلك وزرع نوعاه الدقيق والكبير في كل أرجاء السودان .

القمح : أدخله المغاربة إلى السودان وزرعوه بالقرب من تنبوكتو[1] ثم نقله بعض المزارعين إلى أرباض ديبني وضيعات غاو[2]، وكان القمح يستهلك خاصة من قبل الطبقة المترفة والمغاربة ، ولكن أغلب القمح المستهلك في السودان كان يستورد من المغرب .

الشعير : اقتصرت زراعته على الواحات الصحراوية ، وكان الأعراب ينقلون أحماله إلى أسواق المدن السودانية .

الصورغو : حباته أصغر من الحمص كانت تزرعه وتستهلكه القبائل السوداء حول نهر النيجر .

الفوني : حب شبيه بالخرطال استخدم في عهد السونغاي لصناعة المشروبات المنعشة وقد أبطل المغاربة زراعته[3].

(1) لانز-ج ٢ - ص ١٦٦
(2) زبادية - ممالك - ص ٢٢١
(3) المصدر السابق ص ١٧٤

المانيوك : زرعه البامبارا في بلاد مسينا وكان ينقل إلى الأسواق السودانية :

الخضار : عرف السودان أغلب أنواع الخضار مثل البصل والثوم واللفت والفلفل ، وقد جلب المغاربة إلى مزارعهم في تنبوكتو وغاو وأصنافاً لم تكن معروفة من قبل مثل القرع الصغير والبقدونس والنعنع المروي والبقول ، وكانت أثمان الخضار متدنية حيث كان الإقبال عليها ضعيفاً .

التوت الوحشي والبطيخ : استفاد المغاربة من ثمرة التوت الوحشي القزم ذي الحموضة الكبيرة في صنع المشروبات ، فكانوا يحضرونها بخلط العصير مع السكر أو العسل ، أما البطيخ الأحمر فقد دخل إلى السودان في نهاية القرن السادس عشر وأصبح الفاكهة الأكثر شعبية في تلك البلاد[1] .

وبالنسبة للمزروعات الصناعية فقد احتلت مكانة مرموقة في عهد السونغاي ، وجلبت أنواع منها إلى السودان في عهد المغاربة حيث دخلت مع السابقة كمواد للاستهلاك والتصدير ، وسنذكر أهم تلك الأنواع مع بيان أهميتها وأماكن زراعتها وبعض خواصها :

التبغ : لا نملك معلومات عن الكيفية التي وصل بها التبغ إلى بلاد السودان ، ولكن يبدو أن بذاره أدخلها البرتغاليون إلى المزارع التي كانت تتبع مستعمراتهم شمال وجنوب نهر السنغال ، وقد نقلت تلك البذار بطريقة ما إلى السودان ثم أدخلها الأفارقة السود إلى المغرب في بداية عهد الدولة السعدية كما رأينا ، وبقي التبغ يشكل واحداً من أهم الصادرات الإفريقية ومن المزروعات التي أقبل المغاربة على زراعتها في جهات غاو وبامبا شرق تنبوكتو[2] وكانت زراعة التبغ تخضع لمراقبة شديدة من الإدارة المغربية عندما قامت في المغرب ضجة كبرى حول تحليله أو تحريمه ، ولكنه كان يزرع في بعض الجهات التي لا تصل إليها

---

(١) Dupuis - Yakouba P183

(٢) المكان السابق

المراقبة وأحياناً كان الموظفون المغاربة يتلفون المزارع ويغرمون أصحابها[1].

الكولا : احتلت ثمرة الكولا ويسميها الأفارقة (الكور) مكانة فاقت مكانة كل أنواع المزروعات السودانية ، وكان السوداني يتخلى عن جزء من قوت أولاده لشراء بعض حبات الكولا التي كان يمتصها طيلة النهار ويجلس في سطح بيته ليتلذذ بطعمها وبما تثيره في نفسه من النشوة[2].

وشجرة الكولا قصيرة تنمو في الجهات الحارة الرطبة على ارتفاع يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ م ، وتعطي النبتة أولى ثمارها بعد عشر سنوات من غرسها ، وهي تزهر مرتين في العام الواحد بحيث تحمل الثمر والزهر في آن واحد وبالتناوب ، وتبلغ الغصون الحاملة للفاكهة عشرة سنتمترات طولاً تتفرع عنها غصينات تثمر كل واحدة منها من خمس إلى خمس عشرة حبة ، ويعمد المزارعون إلى لفها بأوراقها حتى لا تتصلب في حالة نقلها إلى أماكن بعيدة ، وكان الجيش المغربي يقتني قسماً هاماً من الانتاج ليصرف للجنود قبل ذهابهم إلى الحرب أو ليوزع كهدايا في الحفلات[3]. وتستهلك نواة الكولا مباشرة حيث تترك آثارها على الأسنان ، أو تطحن في الفصل الجاف ويصنع منها شراب كان المغاربة يدعونه (قهوة السودان) ، ويؤكد بوفيل أن أي مجلس من مجالس الكبار كان لا يتم أو يشعر فيه الساهرون بالمتعة إلا إذا دارت حبات الكولا أو شرابها عليهم ، وكانت الكولا إلى ذلك علاجاً ضد التسمم والإسهال والنحافة[4] ولاحتوائها مادة الكافيين مع قدر آخر من المنبهات فإنها كانت تؤثر على الحالة النفسية لمن يتعاطاها، ولم يكن منتوج السودان من الكولا يكفي للاستهلاك المحلي ولذلك فإن جلب الكولا من الجنوب الشرقي وخاصة من شمال سير اليوني كان يسير بانتظام ، وقد قامت محاولات لم تكن ناجحة تماماً لنشر زراعة الكولا في نواحي غاو وبلاد الحاووصا ، ومن أجل

(١) لانز ـ ج ٢ ص ١٦٨

(٢) احتلت الكولا في المجتمع السوداني ما احتلته نبتة القات في شرق افريقيا وبلاد اليمن .

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ١٤٦

(٤) بوفيل ص ٣١٠

اختصاص الأماكن البعيدة بانتاج الأنواع الجيدة فقد كان ثمن الكولا مرتفعاً جداً[1] ولا شك أن التجار قد جنوا أرباحاً طائلة من ترويج نواة الكولا في المدن السودانية فقد ذكر لانز أنهم كانوا يحصلون عليها من الأسواق الجنوبية بأثمان معتدلة للقنطار ثم يبيعونها في تنبوكتو بمائة كوري للحبة الواحدة[2]، وقد صدر السودان الكولا إلى المغرب منذ عهد سابق لمجيء المغاربة إلى تلك البلاد ، وكانت أحمال منها تصل إلى سواحل البحر المتوسط منذ بداية القرن السادس عشر حيث كان التجار الغانيون يشترطون كثمن لها الخزر والزجاج والحرير[3].

القطن : كانت زراعته محدودة في عهد السونغاي ، وقد اجتهد المغاربة في تجويد أنواعه والاعتناء بنبتته وتربته حتى أصبح من أهم المنتوجات الصناعية .

الكتان : زرع في بعض المناطق الغربية واتخذت حبال السفن والخيوط الغليظة من أليافه .

قصب السكر : أدخله المغاربة وزرعوه في الأماكن المرتفعة الجافة المتوسطة الأمطار وبالقرب من نهر النيجر ، وكانت زراعته إحدى الاختصاصات المعروفة للمهاجرين من غرناطة[4] ولكن لم يقع استخراج مادة السكر من القصب لأن هذه المادة ظلت دائماً على لائحة الواردات .

الصمغ : كانت هذه النبتة على شكلين : الصمغ الأشقر ويؤخذ من شجرة (Acacis Vereck) والصمغ البني من شجرة(Acacia Adansonai) وبالإضافة

---

(١) المكان السابق ، ويعطي السعدي والفتاش أثمان الكولا وتقلباتها في مواطن عديدة[5] من تاريخها .
(٢) لانز - ج ٢ ، ص ١٥٧ - ١٦٠
(٣) بوفيل المكان السابق
(٤) ولقد نشرت الجمعية الجغرافية لمرسيليا في حوليتها لعام ١٨٨٦ بحثاً للأستاذ M. Edouard HECKEL عن الكولا في بلاد السودان قال فيه بأنها كانت تلعب دوراً اقتصادياً واجتماعياً كبيراً ، وأنها شجرة تشبه شجرة القسطال وتدعى STERCULIA ACUMINATA وقد نقلها الأوروبيون إلى أمريكا والهند .
(٥) بن عبد الله - ج ١ ص ٩٤

إلى أمكنة تواجد الصمغ في الصحراء الساحلية والسنغال فإنه كان يجمع من الضفاف اليسرى لنهر النيجر ومن منطقة كوندام بين شهري نوفمبر ومايو وكان المزارعون من عرب وفولانيين يأتون بأحماله إلى سوق ديني وتنبوكتو .

الأراشيد : يدعى في السودان هيبو ويظهر أن زراعته كانت متواضعة .

السي : شجر طويل ملتف الأغصان يستخرج منه سمن نباتي يستعمل في الطهي والإنارة .

السمسم : كان يستخرج منه الزيت لصناعة الحلويات أو يستهلك مباشرة .

الأصباغ : عرف الأفارقة خواص في بعض الشجيرات الغابية في إعطاء ألوان مختلفة ولكنها باهتة .

الحناء : جلبها العرب معهم من المغرب في عهد سابق حيث زرعوها في الواحات وقد زادت أهمية استعمالها في الزينة والعلاج بعد مجيء الحملة المغربية .

الأخشاب : حفلت الأماكن العليا جنوب نهر النيجر (وخاصة غاو وهمبوري) بالغابات ، ولكن غابات السودان على العموم كانت متباعدة الأشجار ، وأهم الأصناف التي كانت تنشر وتتخذ منها الأبواب والسفن ، شجرتا الباوباو والأكاسيا ، غير أن الغابة اعتبرت أهم مكان لرعي المواشي .

وعرفت كل بقاع السودان أصنافاً من الأشجار المثمرة التي أدرك السكان خواص ثمرها منذ القديم أو التي جلب المغاربة بذورها أو أغراسها معهم ، ومن بين أهم تلك الأشجار :

النخيل : وكان يزرع في الواحات غير أن التمر اعتبر دائماً من الفاكهة المستوردة .

الكروم والتين : من أشجار البحر المتوسط التي جرب المغاربة زراعتها في

السودان دون نجاح كبير وكانت أثمانها مرتفعة[1].

الحمضيات : جلبت أغراسها من المغرب وأعطت ثماراً صغيرة وقليلة العصير .

الطوسو : فاكهة شبيهة بالإجاص يميل طعمها الشديد الحلاوة إلى المرارة .

الدوكورا : ثمر شبيه بالتفاح مع حموضة .

الكوانا : فاكهة صغيرة تستخرج منها عصارة منعشة وكان بعض الفقهاء قد حرموا شرب عصيرها المختر .

وكانت الفواكه على العموم تتأثر بلفح الرياح الحارة في شهري يوليوز وشتنبر فتتساقط أوراقها وتجف ثمارها ، كما أن العواصف الشديدة وأمطار شهر أغسطس كانت تلحق الضرر بتلك الأشجار[1]

٣ ـ الري :

عرف السونغاي أساليب الري قبل عهد الأساكي ، ولكن تحكمهم في ضبط مياه الفيضان واحتجازها وراء السدود لم يقع الحديث عنها إلا في عهد الملك سنى علي ، فقد اختمرت في ذهن سني فكرة شق قناة من رأس الماء في الطرف الشمالي لبحيرة فاكوبين إلى منخفض بيرو في الشمال الغربي على طريق ولاتة ، ولا شك أن الملك كا يأخذ بآراء جملة من الخبراء في شؤون المياه الجوفية والتجاويف الصحراوية ولعله كان قد سمع بخبر المجرى القديم الذي أوصل العرب بواسطته الماء من بحيرة فاكوبين إلى ولاته[2]، وعلم بسر تغذية آبار المنطقة من مياه البحيرة وأدرك سر الأخاديد التي تدل على أن الدلتا الداخلية لنهر النيجر كانت تنتشر في

---

(١) زبادية ـ ممالك ص ١١٧
(٢) لانز ج ٢ ص ١٤٨
(٣) Geographie universelle O.P. cit P462

ذلك المكان ، فقرر القيام بمشروعه الكبير ، وأخبر السعدي أن العمل في ذلك المشروع قد بدأ بكل همة واجتهاد ، ولكن سني عدل عن إتمامه لاضطراره إلى شن حروبه ضد قبائل المرشي[1] ، ويذهب بوفيل إلى أبعد من ذلك فهو بعد أن أظهر اندهاشه لتفكير سني بذلك المشروع أكد أن النهاية التي كان يريد إيصال قناته إليها هي مدينة ولاتة نفسها التي تبعد عن رأس الماء بحوالي ٢٠٠ ميل ، وحسب تحرياته فإن مياه البحيرة كانت تصل بالفعل إلى قرية باسيكونو على مسافة ٢٠ ميلاً نحو الغرب في القرن الخامس عشر[2] .

والمؤكد أن تفكير السودانيين بمشاريع الري الصغيرة كان يعود إلى زمن أبعد من ذلك بكثير ففي الجهات الصحراوية التي كانت تحت الحكم المالي وحكم السونغاي فيما بعد اهتدى السكان إلى خواص الآبار الارتوازية التي استخدموها في ري الواحات والأراضي القاحلة ويقول ابن خلدون ان ماء بعض تلك الآبار كان ينبعث في السماء ثم يجري ودياناً غزيرة[3] .

ومنذ بدء القرن السابع عشر ظهرت المشاريع الصغرى والكبرى للري فقد أخذت المزارع على ضفاف النهر وبعض البحيرات شكل البساتين الأندلسية ، واستشار الباشا محمود السلطان في مراكش في مشروع كبير للري تمثل في حفر قناة عريضة من غرب كابار إلى وسط تنبوكتو ، وقد شبه الفشتالي تلك القناة بنهر الفرات وقال بأنها ستضفي على البلاد الخير والبركات لأنها ستكون أول تجربة في مشاريع كبيرة أخرى في غير ما موضع من ضفاف النهر[4] .

ويبدو أن الفشتالي اطلع على مشاريع محمود التي أنجزت أو التمس الأذن لانجازها لأن حديثه عنها ينم عن دقة كبيرة وإحاطة واسعة ، ففي مقارنة أجراها

---

(١) السعدي ص ٧٠
(٢) بوفيل ١٣٦
(٣) ابن خلدون مجلد ٧ ص ١١٩
(٤) الفشتالي ص ١٦٧

بين خواص النيل المصري ونيل السودان النيجر ذكر أن من خواص النيجر « أنه يمكن اقتطاع الخلجان والوهاد التي تغل ضروب المزارع وتنتظم عليها الجداول الغلب من البساتين ومغروس الشجر والثمار والأدواح ، ملتفة الأغصان والرياض الملفوفة الخمائل الموشحة البرود بضروب الزهر الغض والرياحين الأنيقة التي يمكن إتصالها فراسخ وبرداً فتضفي على واسطة الأقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجموم أقوات وحبوب وفواكه جنية قطوفها دانية ، أما نيل مصر فليس الانتفاع بسيحه إلا أوان مده . . »[1] .

فيتضح من قول الفشتالي أن مشاريع الري الكبرى كانت تسير بهمة في مختلف أرجاء السودان الغربية من النيجر وأن الانتفاع بالمياه لم يعد قاصراً على وقت الفيضان بل كان اختزانها والتصرف بها قد تحققا على يد الباشا محمود ، ولا شك أن المشاريع المتوسطة والصغيرة كانت تتحقق أيضاً بشكل أقوى وأوسع . ويستدل على ذلك من حادثة حضرها السعدي نفسه بالقرب من بحيرة كاراما القريبة من هنبوري (على بعد ٢٣٠ ك . م من تنبوكتو إلى الجنوب) فقد أراد الباشا الانتقام من حاكم المدينة الذي كان يمتلك مزارع مروية هناك فأمر بقطع الساقية عن زرع الحاكم ، فاضطر هذا الأخير إلى طلب الأمان فعزله الباشا وعين أخاه مكانه وأعاد الساقية كما كانت[2] .

ولقد أعد السودانيون الأراضي المروية لزراعة محصولين من الأرز والقمح والذرة ، كما زرعوا في بعضها الخضار والحمضيات ، فالقمح كان يرمي ببذاره بعد دفع المياه وراء السدود في شهر دجنبر وتيبيس التربة عن طريق التقليب والفلح ، ويبقى على الماء في برك خزن واسعة بنيت حولها أسوار من الطين وعند ظهور سيقان القمح في شهر فبراير يكسر أحد الاسواء الاربعة فيسيل الماء في الأقنية ويصل إلى القمح ، وتعاد تلك العملية مرة واحدة في الأسبوع ، وعندما يستهل شهر ابريل

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٦
(٢) السعدي ص ٢٨٣

يحبس الماء نهائياً في البرك حيث يكون وقت الحصاد قد حان ، وتعاد العملية نفسها مع بداية شهر أغسطس حيث تتناوب مياه البرك مع الأمطار في ري القمح .

أما الأرز الذي كان يتطلب مياهاً أكثر وخاصة في المراحل الأولى لاستنباته ونقل أشتاله فكان يتطلب أكثر ، ولذلك فمكان زرع حبوبه هو المستنقعات ، وكان الماء يندفع من النهر وقت الفيضان عبر فتحات في السور الذي يحيط بالمزرعة ، ويمر في أقنية صغيرة متوازية تحفر على أشكال متقاطعة طولانية وعرضانية ، ويقع التحكم في جريان الماء وغمره للمزرعة حتى لا يغرق الشتلة بعد ارتفاعها عن الأرض وتنقل جذور الأرز إلى الأرض العراء في نهاية الفصل المطير ليتم حصدها في نهاية شهر أغسطس أو دجنبر ، وقد عرفت مزارع غاو وتنبوكتو وديني هذا النوع من الري منذ العهد المغربي .

أما الذرة فلم تكن لها مزارع مستقلة بل كانت تزرع بنوعيها الصغير والكبير في جوانب مزارع القمح وكذلك الأمر بالنسبة للقطن واللوبياء واللفت والقرع .

ولم تستعمل القنوات في الري فقط بل استخدمها السكان كوسيلة للمواصلات بين النهر والمدن القريبة منه ، وقد وجد لانز أن قناة كان تربط بين تنبوكتو وكابارا على مسافة ثمانية كيلومترات يستخدمها أصحاب الزوارق الصغيرة وقت فيضان النهر في التنقل بين المدينتين[1] ولا تزال القناة ماثلة إلى اليوم .

٤) المواد الخام والصناعة

كان الذهب على مر الأحقاب من أهم وأشهر المنتوجات السودانية ، ولعل القصص والخرافات التي نسجت حوله والجدل الذي دار حول استغلال المغاربة له أو تحويلهم لتجارته إلى ما يقرب من الابتزاز ، وما قيل ويقال عن وصول الجيش المغربي إلى مصادره أو عدم اهتدائهم إليها لسبب من الأسباب لعل كل ذلك أعطى

(١) لانز ج ٢ ص ١٤٨

لذلك المعدن الافريقي ما أشرنا إليه من أهمية وشهرة .

ومما لا شك فيه أن وصول الذهب إلى المغرب قد تضاعف كثيراً عما كان عليه في السابق ولم يكن أي تقرير يرسله الأجانب إلى بلدانهم يخلـو من حديث عن أحمال الذهب التي شاهدوا وصولها إلى العاصمة ، وقد أكد السفير الانجليزي في مراكش في رسالة له إلى حكومته بتاريخ شتنبر ١٥٩٤ بأن المنصور إزاء ما وصله من الذهب أصبح ولا شك أغنى حاكم في العالم[١] ومن أجل ذلك فقد رأينا الحكومة البريطانية تسعى بكل الوسائل لربط أوثق العلائق مع المغرب ونتيجة لما كانت تلوح به من مشاريع طموحة ، فقد كان التجار الانجليز يجنون الأرباح الطائلة من وراء تجارتهم مع المغرب ، وكان مسحوق الذهب يصل إلى الموانيء البريطانية بانتظام[٢] وكان الذهب يلفت نظر كل المؤرخين السودانيين والمغاربة والأجانب بعد القرن السادس عشر ، وذكر الفشتالي أنه مع نقل القناطير المقنطرة من ذهب السودان إلى المغرب لم يعد المنصور يخشى أي توسع في الإنفاق أو يخاف عيلة أو فقراً[٣]، وقد نقل ذلك المؤرخ الشعور الذي كان سائداً في البلاط عن تلهف أقطار الأرض إلى ذهب السودان المغربي[٤]، وكان من أسباب إسقاط الضرائب عن الشعب المغربي في عهد المنصور كثرة الذهب بخزائنه ، وبالرغم من اجتهاد التجار الأجانـب في الحصول على الذهب عن طريق التجارة أو التهريب[٥] فإن مخزونه كان يتضاعف سنة بعد أخرى ، وتحدث مؤرخاً السودان السعدي وكعتو عن أحمال الذهب التي وجهت إلى المغرب في غير ما مناسبة ، ولكن المؤرخ السوداني المجهـول يعطينـا فكرة مدققة عن نقل الذهب من مكامنه في بامبوك إلى دينيي ويأتي بمثال عن عملية نقل واحدة ، فضمن أربعة وثلاثين قارباً للتجـارة حمـل أحـد القـوارب بأكياس

---

(١) De Castries Angleterre T. 2 P 68

(٢) المصدر السابق ج١ ص ٦٢

(٣) الفشتالي - ص ١٩٧

(٤) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٥) حركات ج٢ . ص ٣٠٩ - ٣١٠

الذهب الصغيرة ، ومجموع ما كان به من مسحوق المعدن سبعة وثلاثون ألف مثقال ذهباً تبراً[1] (أي ١٤٨ كغم) .

ومما لا شك فيه أن بعض القصص التي نسجت حول كميات الذهب التي كانت موجودة بالسودان حفلت بالمبالغة ، وقد وجدنا تضاربا في ما ورد من أخبار عن الثروة التي حملها الأسكيا الحاج محمد معه الى الحجاز ، وكذلك فان ما أورده بوفيل عن تيجان ملوك السونغاي وكرسي العرش الذهبي والافراس ذات السروج الذهبية ، والدروع والسيوف وأطواق الكلاب المتخذة من الذهب الخاص[2] ، لم نجد له أي أثر في الأخبار التي كتبها مؤرخو السودان عن ملوكهم وكان المفروض أن يبالغوا في ذكر الثراء والرفاهية ان وجدا بالفعل ، ونحن نتذكر هنا وصف جؤذر لقصر الأسكيا بأنه كان أكثر فقرا من بيت حمال بمراكش ، وأهم من ذلك كله فان الحديث عن الذهب كأهم مادة في التصدير ، والتقديرات التي أعطيت لكمياته في عهد المغاربة تؤكد أن هذا المعدن لم يختف بمجيء المغاربة الى السودان ولكنه في الحقيقة ظهر وعظم شأنه وتوسعت المعاملات المتعلقة به .

ولقد حمل بعض الذهب السوداني الى بيت المال ، في مراكش باعتبار أن السلطان هو المالك الوحيد لخيرات ما تحت التربة ، ولكن قسما هاما منه ظل رائجا ضمن العمل التجاري وكان هذا القسم المخصص للتجارة الحرة ينمو باطراد وخاصة بعد أن توقف الباشوات عن ارسال نصيب السلطان حتى أصبح الذهب يروج عن طريق التجارة وحدها .

وهكذا فقد أصبح تجار المغرب والسودان ـ بدلا من المخزن ـ هم أصحاب الذهب ومالكي مكامنه وتجارته وقدر السوسي انه كان يخزن في احدى زوايا سوس في بداية العهد العلوي ٢٠ قنطارا من ذهب التجار وأن الذهب ظل يتدفق على

(١) المجهول ـ تذكرة ـ ص ٩٣ ، كان الذهب يوضع في أكياس فيحمل كل كيس ما بين ٧ و٨ ك.غ من مسحوق المعدن .

(٢) بوفيل ص ١٠٨

المغرب الى مجيء الفرنسيين[١] .

والخلاصة انه بالرغم مما قيل من أن الجيش المغربي لم يصل الى مواطن الذهب ولم يعرف كيفية استخراجه[٢] فان الواقع أن ذلك الجيش وطد عزمه على استغلال ذلك المعدن ووضع اليد عليه منذ أن حل بالسودان، وقد وصل إلى غايته تلك بكل نجاح بالقدر الذي نجح في الهيمنة على مصادر الملح وتجارته[٣] . وتلقى جؤذر في السنة الأولى لولايته الأمر بملاك ومعادن الذهب الثلاثة والبناء عليها واختطاط الحصون حولها[٤] وقد أكد السوسي أن الحصون قد انشئت بالفعل بجانب أحسن ذهب في العالم[٥] « وأن السلطان كان يغترف منه ثروة هائلة »[٦] و « حتى كانت مملكته تفيض ذهبا وقد نقل لي كل هذا وسمعته بأذني مرات كثيرة من لدن اناس كانوا في تلك البقاع[٧] » ، وذكر في موضع آخر أن أهل الساحل سجنوا أحد أعيان سوس وطلبوا قنطارا من الذهب لافتكاكه فقدم لهم ذلك الذهب فأطلقوا سراح السجين[٨] ، وفي ترجمته للسلطان احمد المنصور قال السوسي « لقد ألحق السودان بمملكته الى بلاد النوبة في مصر وأرسل قواده وجيوشه الى تلك البلاد يجنون له خيراتها ويسوقون اليه أهلها خدما وحشما فكثرت عليه الأموال وصار الذهب يجبى اليه بالاحمال والأثقال فازداد قوة وعظمة وصار من أقوى ملوك عصره »[٩] .

---

(١) اليغ ص ٣٧ وص ١٥٦ والمعسول ج٣ ، ص ٤٠٦

(٢) كنال ص ١٨٢ وزياده ٩

(٣)
G. Pianel « les preliminaires de la conquete du soudan par Maulay Ahmed Al Mansour» Hesperis XL 1953 PP. 185 - 198.

(٤) الفشتالي ص ١٦٥ ، وذكر بوفيل أنه وقع العثور على بقايا أبنية حجرية حول منجم لوبي في فولتا العليا ص ٢٥٥

(٥) اليغ ص ٢١٥ ويراجع أيضا De Castries - France . T.3 P 350

(٦)اليغ ص ٩٢

(٧) المصدر السابق ص ٢١٧

(٨) المصدر السابق ص ١١٤

(٩) المصدر السابق ص ١٢ حاشية

وقد ذكر بوفيل أن ما كان يصل من ذهب السودان الى المغرب أخذ شكلين : الشكل الأول هو الخراج الذي كان مضروبا على اقاليم السودان ، وكانت تنبوكتو « تدفع للخزينة بمراكش ٦٠ قنطارا أي ١٥٠ الف جنيه ذهبي وتدفع غاو حمولة ثلاثين دابة أي ١٧٥ الف جنيه ذهبي ، والشكل الثاني كان على هيأة الواجبات المباشرة لبيت مال المسلمين ، فقد حمل جؤذر معه عند عودته ٨٠٠ ، ٦٠٤ جنيه وقدر مصدر آخر ما تلقاه بيت المال خلال السنوات الأولى للحكم المغربي بـ ٤,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ذهبي[1] .

أما ما كان يصل من الذهب عن طريق التجارة فلم يقل أهمية عما ذكر ، ولعل تسويق ذهب الأشانتي وبوري كان من اختصاص التجار الذين نقلوه على هيأة مسحوق أو رقائق أو حجارة[2] ، غير أننا لا نملك أرقاما مدققة عن الكميات التي شملتها التجارة بهذا المعدن ، ويؤكد بوفيل أن تجارة الذهب على نطاق واسع جاءت متأخرة بالنسبة لبقية البضائع الأخرى[3] .

لقد كانت مواطن الذهب السوداني واقعة في الجنوب الغربي ، وهي بامبوك عند منابع نهر السنغال في جبال فوتاجالون وبوري عند التقاء نهر النيجر برافده تنكسيو (وهي منطقة امتدت اليها بالفعل الادارة المغربية) ولوبي الواقعة على نهر فولتا جنوب اقليم هنبوري الذي كان تابعاً لتنبوكتو واشانتي في بلاد غانا[4] .

وقد كان المرابطون يعرفون المنجم الأخير ويشدون الرحال اليه من كومبى صالح حيث يسيرون عشرين يوما قبل الوصول اليه كما حصلوا على ذهب لوبي بواسطة التجار ، أما المغاربة فقد وصلوا الى المناجم المعروفة وكانوا يستغلون منجما قريبا من تنبوكتو وآخر في مملكة كاتشينا[5] التي كانت تابعة للمغرب .

---

(١) بوفيل ص ٢٣٤
(٢) Gat . P 130
(٣) بوفيل ٢٤٤
(٤) بوفيل ص ٢٤٩
(٥) بوفيل ص ٢٦٠

وينبغي عدم المبالغة عند الحديث عن أحكام قبضة الحكم المغربي على كل المناجم ، فبعض المكامن كانت بعيدة عن مراكز ذلك الحكم كما أن ما تردد عن السرية التي كان السودانيون يحيطون بها مناجمهم[1] لم تكن ضربا من الخيال ، ولا نملك الا أن نأخذ ببعض الثقة الرواية التي أوردها بوفيل في هذا المضمار[2] غير اننا نشك في أنها كانت تنصرف على كل مناجم الذهب السودانية ، ونستطيع أن نجزم بأنها كانت تتعلق بمنجم أشانتي ضمن أرض غانا التي لم يطلها الحكم المغربي ، فقد ذكر ذلك المؤرخ أن التجار عندما يصلون الى ضفة النهر كانوا يضربون الطبول فيخرج الوطنيون العراة من كهوفهم وينتقلون الى الضفة المقابلة فيكومون الذهب ثم يتراجعون بعيدا عن الأنظار بعد أن يأخذوا ما تركه التجار لهم من السلع وقد حاول أحد التجار اكتشاف أمر ذلك المنجم حين قبض على بعض الزنوج ولكن هذا الأخير تحين الفرصة وانتحر[3] .

ولم يكن المغاربة يستخرجون الذهب مباشرة أو يحصلون عليه عن طريق المقايضة مع سكان الجهات البعيدة ولكنهم كانوا يحصلون عليه أيضا من بقايا الرواسب التي يحملها لنهر النيجر من مجراه الأعلى ، فقد كان النيجر ينحت الصخور المحتوية على الفلز ويجرف معه حبيبات لامعة يعمد السكان الى جمعها حين ينخفض مستوى النهر[4] ، ونجد عند المؤرخين الأجانب رواية أخر تدور حول حصول سكان تنبوكتو على الذهب وتفيد تلك الرواية بأن الأفاعي الكبيرة التي كانت تعيش قرب النهر كانت تلجأ الى جحور في باطن الأرض وقت الحر وعندما تخرج ليلا من مكامنها تكون أفواهها مملوءة بالرمل الممزوج بالذهب فتلقيه في أماكن رعيها لتعود الى تلك الأماكن في اليوم التالي مهتدية ببريق المعدن فيأتي السكان ويستولون على الذهب[5] .

---

(١) زياده ص ٥٢
(٢) بوفيل ص ١١٠
(٣) المكان السابق .
(٤) زبادية ص ١٨٨
(٥) De Castries . France T. 2 P 267

ولم يكن الذهب هو المعدن الوحيد في بلاد السودان ، بل عرفت تلك البلاد منذ عهود قديمة معادن أخرى ، غير أنها لم تدخل كعنصر في التصدير ولم تلفت اليها الأنظار كثيرا ، وجميع تلك المعادن كانت تعالج في المدن السودانية وتحول الى مصنوعات مختلفة ، ومن أهمها :

النحاس : كانت مواطنه في أكذر معروفة لدى السونغاي وأقطعها المغاربة لبعض التجار في تلك الجهات فكانوا يحملونها لتباع لصناع غاو وتنبوكتو ، وقد استغل أيضا منجم كان يقع في أزوليك ببلاد العير[1] ، أما منجم اكجوجت بجنوب غرب موريطانيا فيظهر انه لم يستغل الا مؤخرا وذلك لصعوبة النقل .

الحديد : كان يجلب من غينيا على شكل كرات تحتوي على نسبة كبيرة من الاتريت .

القصدير والرصاص : كان استعمالهما ضعيفا لصعوبة معالجتهما[2] .

- أما المواد الخام النباتية والحيوانية فكانت كثيرة وسنرى استعمالاتها عند حديثنا عن الصناعات السودانية .

لقد كانت الصناعة تقليدية وحرفية وتكتفي بمعالجة المواد الأولية المحلية بأدوات بدائية لم يطرأ عليها تغيير كبير حتى نهاية القرن السادس عشر . ومنذ هذا الوقت ساهمت الخبرة المغربية في تجويد المصنوعات .

وأصبح الصناع المحليون يجتهدون في ارضاء زبائنهم والسعي وراء ربح أكثر من وراء انتاجهم ، ولم نعرف أن المغاربة قد ساهموا بشكل واسع في الصناعة السودانية كصناع ، كما لا نعلم أن انتاج السودان المصنع قد تجاوز حدود تلك البلاد ، ولعل أبرز ما عرفته المدن السودانية في هذا المضمار :

---

(1) Mauny . Tableau P. 404

(2) المصدر السابق ص ٤٠٥

المصنوعات القطنية والصوفية :

لقد بدأت هذه الصناعة في بلاد السنغال ثم انتقلت الى مدن الشرق على يد صناع فضلوا الحياة تحت حكم السونغاي[1] ، ونقل زبادية عن ليون الافريقي بأنه كان يوجد في تنبوكتو خلال زيارته لها ٢٦ دكانا يحوى كل دكان من ٥٠ الى ١٠٠ صانع[2] ، ويظهر أن النساء قد دخلن في عهد السونغاي معترك هذه الصناعة حيث كن يقمن بتنظيف القطن وحلجه واعداده لمرحلة الحياكة التي كانت تجري على أنوال مثبتة في الأرض ، وطور الصانع بعد القرن السادس عشر أنواله بحيث أصبحت تقوم على قوائم ثلاث أو أربع ويعمل فيها شخصان في آن واحد ، وكان الصانع يباشر صباغة أثوابه مجتهدا في تركيب الألوان المختلفة[3] .

وكان القطن عند وصوله الى دكان الحياكة يترك في البداية للنسوة اللائي يأخذن ازهاره ويضعنها فوق حجرة ملساء ثم يمرون على القطن بقضيب حديدي عدة مرات حتى تنفصل عنه بذوره ، وتبدأ بعد ذلك عملية الغزل حيث تربط كتل القطن بعضها مع البعض الآخر ، وتدار عدة مرات حول مغزل الى أن تدق ، وعندها تدار على آلة دوارة متصالبة الأركان تدعى البربرية[4] ، وفي هذه المرحلة يكون القطن مؤهلا لعملية الحياكة[5] .

وكانت آلة النسيج في العهد المغربي شبيهة بمثيلاتها في فاس ومراكش ، فهي تقوم على قوائم متعددة قد تصل الى أربع مربوطة بحبال ومتباعدة بواسطة جملة من العصي التي يعتمد عليها السدى في تباعد خيوطه من بعضها ، ويعمل الصانع على ادخال المكوك الخشبي بين السدى مستعملا يديه معا ورجله اليمنى في رفع النول

---

(١) De la fosse . H.S.T. 2 p 163

(٢) زبادية ـ ممالك ص ١٩١

(٣) Dupuis - Yakouta p 26

(٤) يطلق عليها في المغرب البريبرة

(٥) Dupuis Yakouta p 24 - 25

وانزاله تبعا لحركة يديه ، ولم يكن عرض الثوب المصنوع يزيد على ٣٠ سم ، وبعد الانتهاء من نسجه يوضع في اناء يحتوي على الماء ثم تضاف اليه الأصباغ المختلفة[١] ، وصنعت من القطن عدة أنواع من الأنسجة ، فالنسيج الناعم تتخذ منه السراويل وأغطية الرأس أو قطع شفافة لاتقاء الذباب وتوصل تلك القطع مع بعضها حتى يصل عرضها الى ١,٥م ، والنسيج الخشن يخاط عصابات وبرانس وبسطا .

وتتبع حرفة الحياكة حرفة أخرى متممة لها هي حرفة الخياطة والتطريز ، وكان الخياطون من الرجال فقط ، ويسمى الخياط البارع (الفا)[٢] أي المعلم ، وكان يوجد في السودان ستة وعشرون مشغلا للخياطة يباشر العمل فيها الكبار بمساعدة بعض الأطفال ، وقد يصل عدد الخياطين والأعوان في المشغل الواحد الى سبعين شخصا[٣] ، ويصنع الخياط بواسطة ابرته الحديدية كل الألبسة المطلوبة من مختلف الطبقات ومنها : الدراعية (وكانت تسمى توبا) وهي لباس فضفاض واسع توضع عليه رسوم بخيوط القطن أو الفضة ، والبرنس وكان لباسا للمغاربة والعلماء في السودان[٤] ، والكوسابو وهو عبارة عن دراعية أو توبا بدون خياطة على الجوانب ، والسراويل التي كانت تدعى (سيبي تاموسو) وكانت تطرز في اسفل فتحتيها وتزين بأربعة خطوط ، اثنين في الخلف واثنين في الامام (وهي أرقى الأنواع) ، والى جانبها كان الخياطون يعدون سراويل قصيرة ضيقة ، وسراويل واسعة طويلة تصل الى الكعبين أو الى الأرض ويتميز كل نوع منها باسم خاص الى جانب الاسم الجامع سيبي[٥] .

---

(١) استعملت خمسة أصباغ محلية هي اللون الأصفر الذي كان يعتصر من نبات محلى اسمه (كومه كومه) ، والأحمر من صخر مشبع بمادة اللاتريت ، والأسود المأخوذ من النخيل القزم والأخضر من نبات نهري والأحمر الباهت من نواة الكولا ،مصدر سابق ص ٧

(٢) مشتقة من الفقيه وكانت تطلق أيضا على الأستاذ

(٣) الفتاش ص ١٨٠

(٤) Gat . P. 129

(٥) جميع تلك الأنواع تعرف بجنوب المغرب .

ولم تكن صناعة الصوف تختلف عن صناعة القطن الا فيما يتعلق باعداده للحياكة ، وكانت النساء تستعملن أقواسا من الخشب والكتان في تليين الصوف وغزله .

الدباغة وصناعة الجلود :

كان الدباغون (واسمهم السوداني كورو) يشترون الجلود من سوق اللحم ويأخذونها الى القناة أو الى النهر لغسلها وعلاجها بالأعشاب الدابغة وازالة الصوف أو الشعر عنها بعد يومين أو ثلاثة ، وبعد غسلها بالماء تكون جاهزة للصباغة ، وكانت قشور بعض الثمار الوحشية تستعمل في عملية دبغ الجلود ، أما الألوان فكانت حمراء أو صفراء أو سوداء يحصل عليها الصانع من أنواع من الصلصال أو من ثمر الأشجار أو صدأ الحديد المخلوط بالعسل .

ودعيت مهمة الاسكافيين (طام تيكو) وقد تصدر لها بعض المغاربة الذين تقاعدوا من الجيش المغربي[٢] وكانت الأدوات المستخدمة في صناعة الأحذية مشابهة لمثيلاتها في المغرب وهي المقص (ويدعى الماصو) وخمس قطع لتدليك الحذاء تدعى بالقوالب وأكبرها يدعى التمان[٣] ، والمسامير والمطارق والمدى الكبيرة والصغيرة ، واستعمل طحال المواشي كغراء .

وكانت أحذية النساء مميزة عن أحذية الرجال ، فحذاء المرأة ناعم أملس تضاف اليه قطعة جلدية في مؤخرته لستر القدم ، ودعي هذا النوع (التلة) وكان من ملبوسات الطبقة الثرية ، أما النوع الصلب فاسمه (السلبى) وهو حذاء المرأة البدوية أو القبلية ، وكان لكل حذاء نسائي اسم خاص ، وتختلف الأنواع والأسماء حسب لون الجلد وضروب التطريز ولون الخيط المستعمل ، وكانت

---

(١) Dupuis Yakouta p 62

(٢) يدعى في المغرب التمن وهو قطعة من الخشب الأملس تأخذ شكل جوف الحذاء

أحذية نساء الباشا تطرز بالذهب أو الفضة وتدعى (الشربى)[1] ، وامتازت نعال الرجال بالبساطة وتباين الأنواع وأشهرها البلغة[2] ، وهي متخذة كما هو الشأن في المغرب من جلد الماعز المصبوغ باللون الأصفر ولا تزين البلغة ويكتفي بوضع خطين متوازيين بواسطة آلة حديدية على الظهر وفي الداخل ، وكان للبلغة عقب يجعل الرجلين مشتين فيها ، ولم يكن يستعمل هذا العقب داخل المدن كما هو الشأن في المغرب .

الخف : بلغة متخذة كلها من الجلد اللين وقد لبسه العلماء حتى أثناء الصلاة .

السباطو[3] : هو عبارة عن بلغة مرتفعة الجوانب تلتصق عند ربطها بخيط على جلد الساق .

البويمسي : نعال متخذة من جلد أحمر وأصفر مطرز الجوانب .

التماكيو: هو من نوع السباطو ولكنه مطرز وقد تلبسه المرأة أيضا .

وقد مهر الصناع في صناعات جلدية أخرى منها :

المحافظ : التي كان يتقلدها الرجال والنساء على السواء ، ومن أنواع هذه المحافظ كيس التبغ العادي أو المطرز وكان يغلق بواسطة خيط متين من الكتان .

الوسائد : كانت تتخذ من قطعة جلد واحدة أو من قطع ملونة متعددة ، وتكون عادية أو مطرزة ، مستديرة أو مستطيلة وتملأ بالقطن أو الصوف أو القش .

الأغلفة : للكتب والسيوف والحجب والتمائم .

---

(١) يدعى هذا النوع في المغرب بالشربيل ولعل الاسم كان ينطق محرفا في تنبوكتو

(٢) تسمية مغربية Dupuis Yakouta p 70

(٣) يدعى السباط في المغرب ويلبسه الخيالة

العلب : وتكون عادة صغيرة مطرزة أو ملونة وتتخذ من جلد الثور ودعيت باطا[1]

الصندل : عبارة عن قطعة جلد بقري مربوطة بخيوط متخذة من المصران .

لقد كان السكان يضيفون الى اسم كل حذاء أو مصنوع جلدي كلمة فاسي اذا دخلت خيوط الذهب في صناعته فيقال سباطو فاسي أو الريحية الفاسية وهكذا ، وبينما كانت الصناعات الجلدية من اختصاص الرجال فان نساء التوارك كن يصنعن كل الأنواع دون مشاركه الرجال لهن في ذلك ، وقد برع (البهل) في غرب السودان في تلك الصناعات أيضا وكانوا يكونون طبقة خاصة عرفت باسم طبقة (السكى)[2] .

الصناعة الفنية :

يدخل في هذا المضمار التطريز والصياغة وصقل المجوهرات والأحجار الملساء ، وكان للطرازين الذكور دكاكين يعملون فيها ويساعدهم في أعمالهم أجراء من العبيد أو الأطفال ، أما النساء فكن يباشرن أعمالهن في البيوت ويبعن الثوب أو الجلد المطرز الى أصحاب الدكاكين ، وقد استعملت خيوط الحرير والذهب في ابراز جمال الثوب أو الحذاء ، وكان لكل رسم اسم خاص به حسب كمية الحرير والذهب المستعمل أو حسب الرسم[3] .

وكان يطلق على أصحاب مهنة الصياغة (جام) و(غراسا) وقد عالجوا في حرفتهم الذهب والنحاس والفضة والخشب المطعم ، وهذه الحرفة قديمة في بلاد السودان حيث كان أهل تنبوكتو وغاو يصنعون الأساور والخلاخل والأطواق

---

(١) لعل الاسم مشتق من كلمة Boite
(٢) المصدر السابق ص ٧٩
(٣) المصدر السابق ص ٣٤ و ٣٥

والخواتم والرماح المطعمة بالفضة والخناجر لكبار الناس [1] والغريب أن أرباب تلك الصناعة كانوا محتقرين في المجتمع لاعتقاد الغش والتدليس فيهم وكان يضرب المثل بهم ولا يرضى أحد بتزويج بناته لهم [2] .

صناعة الحديد والأسلحة :

كان الحديد متواجدا في الجهات الجنوبية الغربية ورخيص الثمن ، وقد استعملت الأفران العادية لتليينه ، وكان صوت الأكيار يسمع بعيدا من سوق الحدادين ، وقد صنع الحداد السوداني منذ القديم السيوف والدروع والفؤوس والمطارق والملاقط والسلاسل وأدوات الحصان ، وكانت بعض الدكاكين متخصصة في صناعة حدوات الحصان أو الأدوات الدقيقة كالموازين والابر [3] .

صناعة الخزف :

قامت بصناعة الخزف طبقة اجتماعية خاصة في المدن دعيت (المابى) وكانت مكونة من أفراد قبيلة منعزلة اجتماعيا استقدمها الأسكيا داود عام ١٥٥٠ الى تنبوكتو ونقل قسما منها الى عاصمته غاو ، واشتهر المابي منذ القديم بتلك الصناعة فأحب الملك أن ينقلها لبلاده ، وقد تعلم نساء هذه الطبقة الضرب على الآلات الموسيقية وخاصة على الرباب [4] .

استعمل المابي الخزف الأحمر في صناعتهم ، وكانت تلك الصناعة يدوية كلها رغم الرسوم والأشكال المعقدة التي تدل على المهارة الفائقة ، وقد اشتهر رجال مابى كابار منذ القديم باجادة صنع أوعية الطعام وقطع الزينة والتماثيل والجرار المزخرفة واستعانوا بالشمس في شوي مصنوعاتهم واكسابها النضارة المطلوبة [5] .

---

(١) Mauny - Tableau p 294

(٢) Dupuis Yakouta P 93

(٣) زبادية ـ ممالك ص ١٩٣

(٤) Dupuis Yakouta P 80

(٥) Mouny - Tableau P 244

وكان يلحق بالخزف صناعة الطوب والآجر والبلاط ، ولم تكن أشكال تلك المواد ولا استعمالاتها تختلف عما كان يوجد في بلاد العالم الاسلامي .

صناعة الخشب لم يكن لها شأن كبير ، وقد ظلت الأبواب التي كانت تزين بالمسامير والنقوش والشبابيك المحفورة تعطي مثالا مشوها عما كانت عليه أبواب المغرب وشبابيكه ، أما عدة السفن والسقوف فكانت من اختصاص اصحاب البحر أو البنائين .

صناعة البناء : لم تكن هذه الحرفة وقفاً على طبقة معينة أو حرفيين متفرغين وكان باستطاعة أي عامل أجير أو صاحب بيت أن يعمل بناء ، وكان البناؤون، يسمون بالمعلمين (ألفا) ويمتلكون بعض الحمير لنقل مواد البناء التي يشترونها من الضواحي ، وقد استعمل البناؤرن مختلف الأدوات التي كانت معروفة في المغرب ، ولكن أسماءها كانت محلية وهي : المنقر (أندوسو) والفأس (كومو) والسلة (الكركر) وجراب الحمار (سنية) والمجرفة (ياربوندو) ، كما استعملوا القالة والحبل والشبر كمقاييس[1] .

صناعة الخبز : أطلق على هذه الحرفة (الطلم) وكانت من اختصاص النساء من جميع الطبقات ، وتعد المرأة الخبز في البيت بعد طحن الحبوب في الطاحون الحجري وغربلتها ، ويكون الخبز على شكل أقراص غير مجوفة يتراوح قطرها بين ١٥ و٢٠ سم ، أما الفرن فكان عبارة عن قبة صغيرة من الطين توضع أخشاب الحرق في أسفلها ، ويقلب الخبز ويستخرج من الفرن بواسطة أداة خشبية مسطحة موصولة بعمود ، وتلحق بصناعة الخبز الحلويات التي ترتبط في الواقع بالعادات الاجتماعية والسوية الحضارية .

الذبائح : لم يكن ذبح المواشي محتكراً أو وراثياً فلكل شخص الحق في أن يبيع اللحم بباب بيته أو في أحد الدكاكين بالسوق ، ومن المناظر التي كانت معتادة

---

(١) المصدر السابق ص ١١

شوي لحوم الغنم والبقر والسمك بواسطة قضبان من الحديد أو على الجمر مباشرة ، ولم يستسغ السودانيون كروش المواشي أو أمخاخها وإن كانت الرؤوس والأرجل المطبوخة قد لقيت الرواج في الأسواق ، وكان الجزار يعمل أيضاً كبائع لجلود حيواناته وصوفها أو شعرها وأرجلها[٢] .

صناعات مختلفة :

لعل أغرب ما كان يراه الإنسان في السودان منظر الحلاقين وهم يصففون شعر الأطفال الأجعد . أما حلاقة النساء فكانت أكثر من ذلك غرابة وسنعرفها في فصل لاحق .

الدوم : من جنس النخيل الأرضي المسطح اتخذت منه الحصر ، والسقوف وأواني التحميل والعلب والأكياس .

القواقع : كانت حرفة اعدادها للزينة منفصلة عن حرفة الصياغة نظراً لزهادة أثمانها .

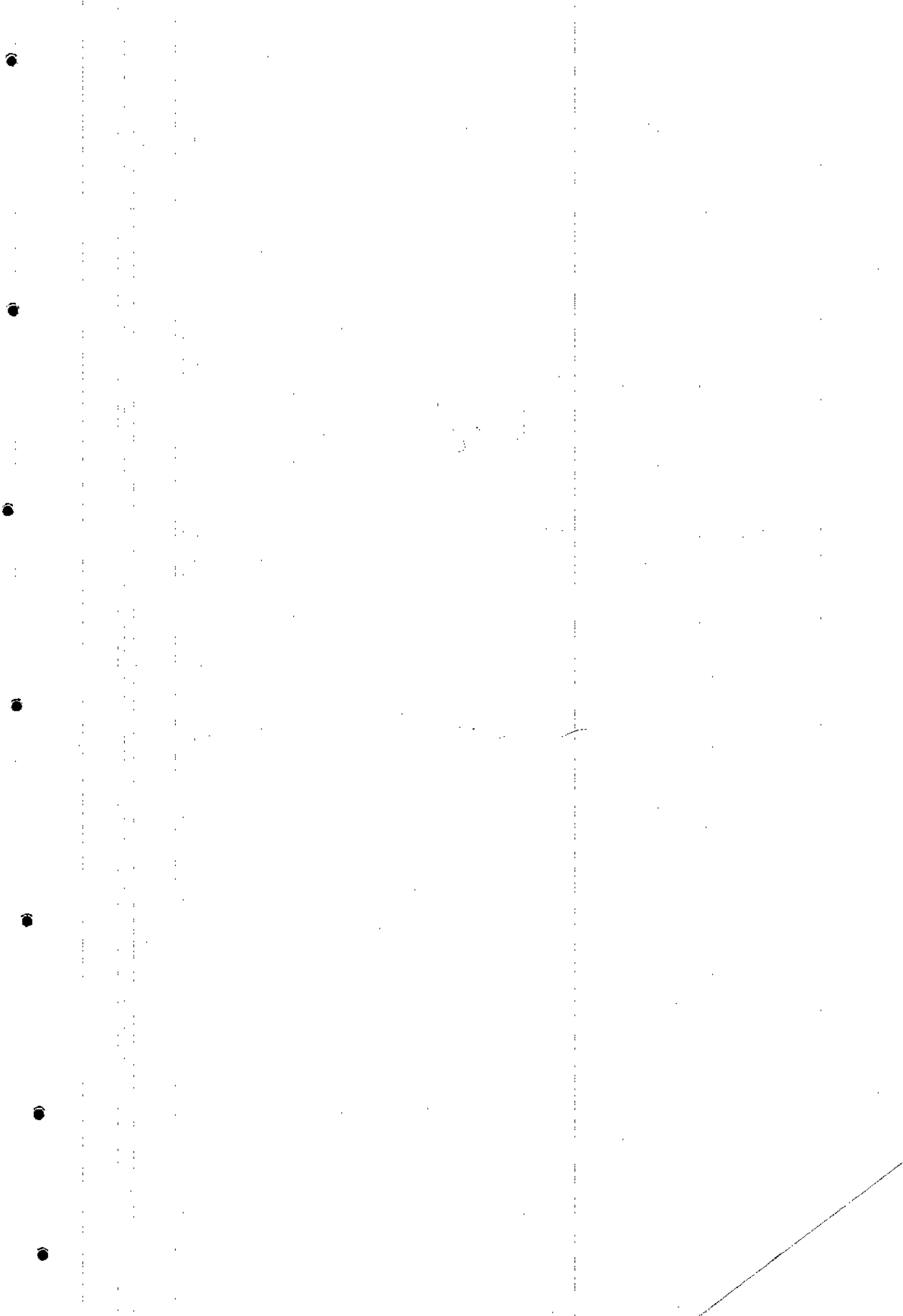
الأرائك والأسرة : ألواح متراصة من الخشب استخدمت في الجلوس وللنوم عليها وكانت تربط بالمسامير أو المصران .

الفحم : أحرق الحطب في تجاويف في الأرض تعد لذلك وتدعى (الكوشا)[١]، وكان يعمل في تلك الصناعة عبيد المغاربة .

---

(٢) المصدر السابق ص ٤

(١) تطلق التسمية نفسها في المغرب .



الفصل الثامن

التطور الفكري في السودان

١) الحركة الفكرية في القرن السادس عشر

٢) الحركة الفكرية في العهد المغربي

أ ـ الشرعيات وعلوم اللغة

ب ـ التاريخ والرحلات

جـ ـ التراجم

د ـ الآداب وفن الكتابة

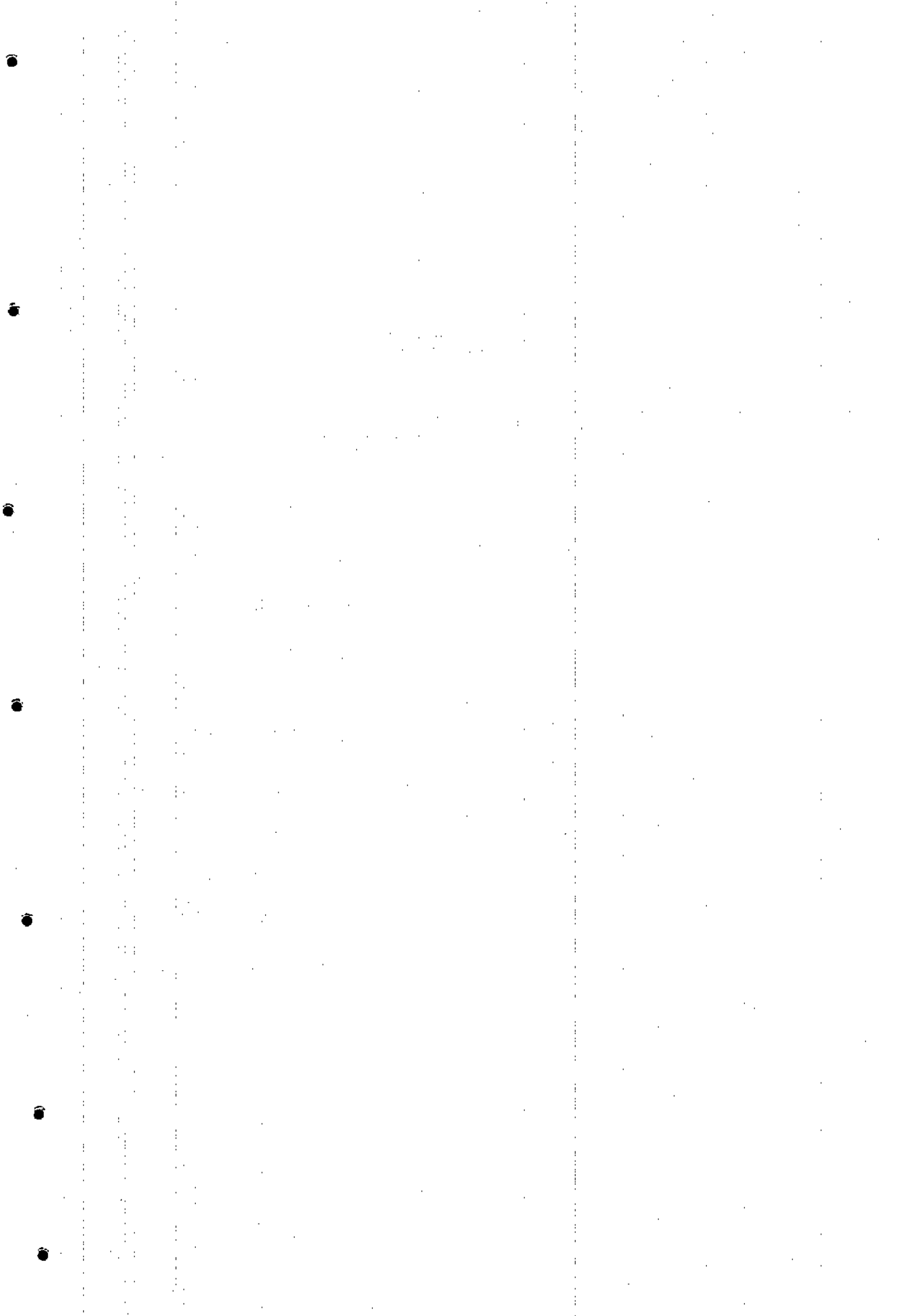
٣) التعليم . التعليم الأولي والمدارس الأولية

التعليم العالي

الإجازات

الكتب والمكتبات

٤) التصوف والحركة الإصلاحية .



١) الحركة الفكرية في القرن السادس عشر :

كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة من السودان الغربي ، ولم يكن لجهود الدعاة والوعاظ ولا لحلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانيين بالآداب الإسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة ، ولم تعرف الشعوب التي أسلمت عنف الصراعات المذهبية التي عرفتها الأندلس والمغرب لأن المذهب المالكي كان منذ عهد المرابطين هو المعتمد بكيفية تكاد تكون شمولية ، أما الطابع الثقافي ، فلم يخرج عن النطاق الديني أيضاً وربما لم تلعب اللغة العربية أي دور في مدى سبعة قرون منذ دخول الإسلام إلى السودان ، فالقول بأن الفكرة الإسلامية التي تحالفت مع التجارة كما قدمنا سابقاً ، كانت العامل الأساسي في بناء الممالك السوداء[1] لا يعني بالضرورة قيام مجتمع يعتمد في تجانسه الفكري على الثقافة العربية الإسلامية .

إن كل ما وصلنا من معلومات عن التفاعل الديني ، والتفاعل الديني القائم على الثقافة العربية ، مع الأسس الفكرية التي كانت موجودة بالسودان يقودنا إلى تصور ثلاث ملاحل عبرت خلالها الثقافة الإسلامية العربية إلى المجتمعات السودانية .

المرحلة الأولى نهض بها الدعاة وسط القبائل والمساجد في المدن واستمرت

---

(١) بن عبد الله ـ مصدر سابق ١٢ ص ٤١

حتى أواسط القرن الرابع عشر ، وكان مما نتج عن تلك المرحلة تعليم سواد الناس العبادات والمعاملات والسلوك الديني .

والمرحلة الثانية امتازت بتوثيق العلائق المغربية والمشرقية مع السودان وانتقل خلالها علماء الفقه والحديث ، وجماعة من المهندسين المعماريين إلى مناطق متباعدة في السودان ، وأدت جهودها إلى إدخال الثقافة العربية والفنون العربية وخلق مدرسة إسلامية سودانية وبصفة خاصة في مجال علوم الدين من فقه وحديث ومسائل ونوازل .

والمرحلة الثالثة تبتديء من أواخر القرن السادس عشر وقد وسعت المجالات السابقة وصقلتها وأضافت إلى أغراضها الفكرية مجالات وآفاقاً تمثلت في فنون أدبية أكثر عمقاً وإشراقاً وإبداعاً كالفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والإنشاء والشعر .

وإذا كان الهدف من دراسة الحياة الفكرية هو تلمس الأسس والدافع والمؤثرات ثم المردود والنتاج فيجب أن نبدأ من حيث بدأت المراكز العلمية في أكثر من مدينة سودانية تعلن عن نفسها وعن المستقبل الذي ينتظر الثقافة العربية ، ونحن لا نعلم يقيناً شأو النهضة العلمية ، ولا أهمية المراكز الدينية التي قامت حتى منتصف القرن الرابع عشر ، فالمؤرخون القدماء وحتى الرحالة لم يسعفونا إلا بأسماء علماء أو فقهاء أو أصحاب كرامات كانوا يعيشون بتلك البلاد وكانت لهم حظوة عند الحكام والشعوب . ولكننا لا نجادل في بروز سلطة دينية حازت التقدير والتقديس وأدت بجمهرة رجال الدين المسلمين إلى أن يحشروا سلطتهم تلك في خضم المعتركات السياسية بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، ويجتهدوا في التأثير على الجوانب الاقتصادية كذلك[1] .

وكانت هنالك فترات مد وجزر في ذلك التدخل أو هذا التأثير ، فقد رأينا

---

(١) نعيم قداح ـ مصدر سابق ص ٤١

بعض ملوك السودان كسني علي ينكل بعلماء الدين ويطاردهم في الصحارى ويقتلهم ، كما رأينا البعض الآخر منهم كالأسكيا الحاج محمد يتشبه بالحكام المسلمين في عصره ويمحض أولئك العلماء العناية والتكريم والتقديس ، وبصفة عامة فقد كانت الحركة العلمية تندفع إلى أهدافها في نقل المعرفة وتكريس الثقافة العربية ، وكان يبرز من بين رجالها الفقهاء والأدباء والشعراء وحتى المشعوذون والمتنبؤون .

ولكن لا ينبغي تسمية الأشياء بغير أسمائها ، فإذا كانت طبقة افريقية مختلطة مثقفة بالثقافة الإسلامية العربية قد ترعرعت وأخذت مكانتها في المجتمع الإفريقي ، فإن رجالها لم يصلوا قبل القرن الرابع عشر إلى ما كان يمكن أن يشكلوا معه الحركة الفكرية الناضجة .

ويمكن القول بكل اطمئنان بأن المراكز الثقافية الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد حققت نجاحاً مهماً في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات الإفريقية[1] ، وسار ذلك الربط في نطاق التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أي مظهر للرفض من طرف الأفارقة الذين أصبح ما تعلموه وخبروه جزءاً من كيانهم الخاص ، وهذا ما أطلقنا عليه المدرسة الإفريقية .

غير أنه ينبغي التساؤل : هل كان هناك امتداد كبير للثقافة العربية الإسلامية ، وهل شملت تلك الثقافة غالبية سكان الغرب الإفريقي المسلمين ، أم أن الطبقة المثقفة ظلت تدور حول نفسها أو لا يستفيد منها إلا العدد القليل من الراغبين في العلم ، ثم هل كانت طبقة المثقفين تشكل طبقة منعزلة وغير فاعلة أو متحركة وأخيراً هل وقع التخاطب بالعربية أم ظلت تلك اللغة سجينة المساجد لا يفقهها إلا العديد من المقبلين على حلقات الدروس .

الواقع أن الإسلام وإن كان قد طبع التاريخ الإفريقي والحضارة الإفريقية

(١) حسن أحمد محمود ـ « الإسلام والثقافة العربية في افريقيا » القاهرة ١٩٦٣ ص ١٠ ـ ١١

بطابعه المميز ، فإنه كان مع ذلك نموذجاً افريقياً ، فسكان القرى والبوادي لم يكونوا يعرفون إلا النطق بآيات القرآن دون فقه لمعنى ما يحركون به ألسنتهم ، وكانوا يمسكون في رمضان من الفجر إلى غروب الشمس ويتقربون بالذبائح بالقرابين والنذر ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا يعبدون قوى الطبيعة ويقدسون الأصنام والأيقونات ، ويؤمنون بأقوال الكهان والسحرة [1] وقد مر وقت طويل قبل أن تتغلب المدارك الإسلامية على السحر [2] .

لقد بقيت الشعوب الإفريقية الموزعة إلى أجناس متعددة تتحدث مئات اللغات المختلفة واستمرت على تقاليدها وعاداتها القديمة رغم دخولها الإسلام واتحادها ظاهرياً تحت مظلته ، ولكن قد تأكد أن تلك الشعوب لم يوحدها شيء حتى الآن كما وحدها الفن [3] ، فالدين بالنسبة إليها كان رابطة ولم يكن عنصر تحويل جذري ، ونستطيع القول انه في هذا المحيط البشري المتلاطم لم تستطع قلة من المثقفين بالعربية أن تفعل أكثر من لفت النظر إليها ، وبالرغم من أن تذوق الثقافة العربية كان يتزايد مع ازدياد قوة الرفد من الشمال ، فإنه لم يكن هناك من مفر لتغليب الصبغة الإسلامية على تلك الثقافة ، حيث ظلت الفنون تجذب السواد الأعظم نحو الماضي وتمتنع عن فك الارتباط به [4] ، وهكذا فإن حكايات البطولة وقصص المعارك وأهوال الطبيعة غير المكتوبة بقيت تستهوي الإفريقي أكثر مما تشده قصيدة شعرية أو عمل أدبي رفيع ، لقد ظل العمل الفكري الفني يعطي باستمرار أفكاراً عن المعتقدات الإفريقية القديمة وعلى هذا المقياس لم يكن من السهولة أن تكسب اللغة العربية مواقع جديدة في البداية بل تطلب ذلك جهداً ووقتاً كبيرين [5] .

---

(١) زبادية ـ ممالك . ص ١٣٥

(٢) V. Honteil «le Monde musulman» Geneve 1963 P:67

(٣) زبادية ـ ممالك ص ١٥١

(٤) المكان السابق

(٥) H. Deschamps «l' Afrique precoloniale Paris 1962 P11

ومما لا ريب فيه أن النصف الثاني من القرن الرابع عشر شهد بعض الأحداث التي أثرت على تطور الحياة الفكرية في المراكز الثقافية التي ذكرنا ، فقد زار المغرب وفد من مالي في عام ١٣٤١ واتصل بالسلطان أبي الحسن المريني وحمل رسالة وهدايا إليه وطلب منه توجيه مجموعة من الفقهاء والعلماء والمعماريين ، ولم يتأخر السلطان عن التلبية ، وأدى الأمر بعد أعوام قليلة إلى ظهور نهضة علمية حقيقية في المدن تقوم على الثقافة العربية ،واتضاح معالم فن مغربي أندلسي أصيل في القصور والمساجد التي بناها مهندس أندلسي شهير هو أبو إسحاق الطويجن[١] ، ويظهر أن التعاون الثقافي والفني بين مالي والمرينيين كان مرغوباً فيه ، فقد توجهت بعثة من الطلبة إلى فاس ، وندب المرينيون والوطاسيون مجموعة من العلماء للعمل في مدارس السودان وسمحوا لبعض الرحالة بالتوجه إلى أصقاع السودان للإطلاع على أحواله ، واشتهر من بين أولئك السفراء الحسن الوزان ووالده .

ولقد كان من أثر ذلك بروز الحضارة السودانية الفكرية والعمرانية على النسق الأندلسي المغربي[٢]ولكنها لم تتجاوز نطاق المدن الكبرى الواقعة على نهر النيجر .

ولم تتأثر قضية التبادل الثقافي عبر الصحراء بما كان يجري من تحولات سياسية في السودان والمغرب معاً ، فقد انتهت مالي كامبراطورية ، واستلم قادة وزعماء من السونغاي مقاليد السلطة ثم حول أحد أولئك القواد البلاد إلى مملكة ونصب نفسه اسكياً عليها وهو الحاج محمد ، أما في المغرب فقد برز شرفاء مجاهدون في جنوب المغرب وأقاموا دولة لهم هي دولة السعديين وأخذت العلاقات السودانية المغربية في العهدين الجديدين أشكالاً إيجابية تمخضت عن ارتباط عضوي سياسي واقتصادي وحضاري .

ولقد توارد على بلاد السودان عشرات العلماء من المغرب ، واستقبلت

(١) Niam, Djibril «L'Empire de Mali» Conakry 1948 P60

(٢) السعدي ص ٢١ و٢١ و٥١ و٥٧

جامعة القرويين العشرات أيضاً ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين معاً ، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفاً من كتب في مختلف الفنون ، وبارك الأساكي الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء ، وأسقطوا عنهم وظائف للسلطنة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للأسكيا وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه[1] . واعتقد أهل السودان الولاية في العلماء ونسبوا لهم الكرامات وكانوا يقيمون الأضرحة لمن مات منهم ويتقدمون بالذبائح إلى تلك المقامات .

وسنورد نبذاً عن أهم رجالات العلم في هذه الفترة مستهدفين إبراز الأهمية التي أصبحت للثقافة العربية ولرجالها .

محمد بن عبد الكريم المغيلي : ولد بمدينة توات في حي كان يسكنه اليهود وانتقل إلى فاس برسم الدراسة العليا ، وكان سنياً لا يقول بالاجتهاد ولذلك كانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل الخلاف ، واشتهرت تلك الخلافات ثم اتسعت بعد ارتحاله إلى تونس ، وفضل المغيلي أن يهاجر إلى السودان حيث أصبح أكبر أستاذ في تكدة وغاو وكانوا ، واتصل في غاو بالأسكيا الحاج محمد وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية ، وألف في السودان عشرات الكتب والشروح وحشّى بعض المؤلفات الأخرى ذكر صاحب الديباج واحداً وعشرين منها ، وأهم تلك المؤلفات : مغنى اللبيب في شرح مختصر خليل واكليل مغنى اللبيب والمنسيات وأسئلة الأسكيا الحاج محمد وأجوبة المغيلي عليها[2] .

كان الإمام المغيلي يميل إلى الدراسة المنهجية التي أبانت عن قدر كبير من سعة الإطلاع ، وكما اشتهر بتعدد المدارك ، فقد عرف بتعصبه لمذهبه وعدائه لغير المسلمين .

واذا كان هناك من فضل للأمام المغيلي فهو أنه أول من أخضع المعارف

---

(١) كعتو ص ٧٣

(٢) مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم ج (٣٧) ج

الاسلامية في السودان لمحك النقاش وللأخذ والرد ، ودفع العلماء والحكام إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة[1] ووسع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي . [2]

صالح بن محمد أندى عمر المعروف بالشيخ العمري : كان من أهل الفضل والعلم . « مستحرم عند السلاطين يشفع للمساكين عندهم فلا يردون شفاعته على كل حال ، ألف شرحا على مختصر الشيخ خليل » [3] .

عبد الله بن أحمد بن سعيد : تلقى العلم في ولاتة وعاش حتى سنة ١٤٨٣ ، وكان أديبا فيلسوفا ألف كتابا في شرح الشفا للقاضي عياض دفين مراكش .

محمد بن عيسى بن علي التلمساني : إشتهر بوضع كتاب حلل فيه شرب الخمر باعتبار أنها تتخلل بالخل وهو حلال ويقول أحمد بابا التنبكتي بأنه عرض كتابه ذاك على بعض شيوخه فأعجب بطريقة عرضه وتحليله [4] .

أبو القاسم التواتي : جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت ، وابتنى دارا بالقرب من المسجد الأعظم كان يستقبل فيها طلبة العلم ، وقد كان الأسكيا

---

(١) مما يدل على عدم نفوذ الفكر والثقافة الاسلاميين الى شعوب السودان ما جاء في السؤال الثاني الذي وجهه الأسكيا الحاج محمد إلى الأمام المغيلي « إن أهل بلادي يزعمون أنهم مسلمون . . بالجامع والجمعة والآذان للصلوات الخمس وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم وسكنوها بالاسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل سني علي . . ومن صفات سنى علي أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة إنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا بالذبائح عند المساجد ونحوها ومع ذلك يعبد الأصنام ويتصدق على الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم (مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر) .

(٢) بوفيل المكان السابق ، ومن بين القضايا التي أثارت الخلاف بين علماء السودان تحليل أو تحريم بعض الذميين ، والصلاة في الأضرحة ، ودفن الأموات في المساجد .

(٣) السعدى ص ٣٦

(٤) أحمد بابا

الحاج محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه ، وأنشأ مقبرة تنبوكتو الكبرى التي حبس عليها الأسكيا صندوقا يحتوي على ستين جزء من القرآن ، وعندما توفي بتنبوكتو عام ١٥١٦ كان يوجد بتلك المدينة خمسون عالما من توات [١] .

عبد الرحمان بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفياني : ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط ، هو شيخ الأمام المنجور أشهر علماء المغرب في بداية عهد المنصور الذهبي ، قال عنه المنجور : هو الفقيه الأستاذ المحدث المسند المحقق الرحالة أخذ عن شيخ الجماعة إبن غازي والشيخ زروق بفاس وأخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان ودخل كانو وغيرها فعظموه ثم عاد إلى فاس سنة ١٥١٨ [٢] حيث أصبح من علماء جامع الأندلس يدرس الموطأ والكتب الستة المعتمدة في العلوم الدينية (البخاري - مسلم - النسائي - الترمذي - ابن ماجه اباداود) له عدة تآليف وتوفي عام ١٥٤٩ .

محمود بن عمر بن محمد آقيت : من مواليد تنبوكتو عام ١٤٦٣ ، عين قاضيا وهو إبن خمس وثلاثين سنة ، وكان يدرس مدونة الامام سحنون ورسالة أبي زيد والفية إبن مالك ، وكان أول من بدأ بتدريس مختصر خليل وألف في ذلك كتابا من جزئين ، وجادل علماء مصر وناقشهم عندما كان في طريقه للحج عام ١٥٠٩ ومن بينهم إبراهيم المقدسي والقلقشندي ، وعاد إلى بلاده ليزاول التدريس [٣] .

عبد الله بن عمر بن محمد آقيت : كان أستاذا في ولاتة ثم في تنبوكتو ، متضلعاً في العلوم الشرعية وكان مهيب الجانب لورعه وزهده ، وقوي

(١) السعدى ص ٦٠ .
(٢) أحمد بابا - نيل - ص ١٧٦
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، وقد ذكر السعدى أن الأسكيا الحاج محمد هو الذي وجهه للحج وعند عودته ركب سفينة وذهب لاستقباله (السعدى ص ٧٦)

الحافظة [٣] .

محمد بن أحمد التكراتي : ولد في نواحي توات ودرس على الشيخ المغيلي ثم إنتقل إلى مصر للدراسة ودخل السودان حيث رسمه الأسكيا في القضاء ، وكان مدرسا في بعض مساجد تنبوكتو مات عام **١٥٢٩** وعمره دون الستين .

مخلوف بن علي البلبالي : درس في ولاتة مبادىء العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه ، وارتحل للمغرب وحضر بفاس دروس علي بن الرازي ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشينا ، وحن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش ، ومات مسموما عام **١٥٣٣** بعد عودته الثالثة للسودان ، وقد كتب مؤلفا في النوازل [١] .

الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت : كان أكبر الأخوة الذين عرفوا بالعلم في تنبوكتو وصفه أحمد بابا « بأنه كان فقيها نحوياً لغويا عروضيا محصلا بارعا حافظا معتنيا بتحصيل العلم ونسخ كتبه ، كتب عدة دواوين وجمع كثيرا من الفوائد والتعاليق [٢] ، عمل في القضاء بولاتة وتنبوكتو ، ثم إرتحل للشرق برسم الدراسة والحج ، وجلس للتدريس بعد عودته ، ومات سنة **١٥٣٦** .

العاقب بن عبد الله الأنساموني : ولد بتوات ودرس على المغيلي في مسقط رأسه وعلى الأمام السيولي في مصر ، ألف أربعة كتب في الفقه ، مات عام **١٥٤٣** .

محمد بن محمود بن عمر آقيت : وصفه أحمد بابا بأنه كان ثاقب الذهن صافي الفهم ومن دهاة العلماء « تولى القضاء بعد أبيه فأسعفته السعادة فنال ما شاء الله من دولة ورئاسة تفيأ منها ظلا ظليلا واكتسب من الدنيا عريضا وطويلا » [٣] ، وكان

(١) المصدر السابق ص ١٦١
(٢) السعدى ص ٣٩
(٣) أحمد بابا ـ نيل ص ٨٩
(٤) المصدر السابق ص ٣٤٠

أستاذا للمنطق والبيان وله تآليف على رجز الأمام المغيلي في المنطق ، توفي عام ١٥٦٥ عن سن تناهز السبعين عاما .

أحمد بن محمد بن سعيد : ولد في تنبوكتو عام ١٥٢١ ودرس على جده محمود بن عمر آقيت مختصر خليل ورسالة أبي زيد ، وأصبح مدرسا عام ١٥٥٣ ، ألف دراسة على مختصر خليل وتوفي سنة ١٥٦٨ .

أحمد بن أحمد بن عمر آقيت : ولد في بلاد السونغاي ، وأخذ العلم عن والده وجده وبرع في الحديث والفلك والهندسة ، مرض مرة في غاو فكان الأسكيا داود يعوده كل يوم حتى شفي ، كان جماعا للكتب وأتى بقدر منها من مصر عام ١٥٤٩ . وترك سبعة تآليف بعضها في الأدب والحديث ، كان يدرس في المسجد عندما ثقل لسانه فحمل لبيته ومات بعديومين(١٥٨٣) .

العاقب بن محمود بن عمر آقيت : أخذ عن أبيه وعمه ، تلقى العلم في مصر في مجالس الأمام أبي الحسن البكري ، تصدر للقضاء والتدريس في تنبوكتو وتوفي عام ١٥٨٣ .

محمود بن محمد الزغراني التنبكتي : تلقى العلم في مدارس تنبوكتو عن الفقيه محمد بن أحمد بن سعيد ومهر في النحو واللغة وأصبح مدرسا لهما ، توفي عام ١٦٠٢ [١] .

٢) الحركة الفكرية في العهد المغربي

بدأت مع بداية الحكم المغربي للسودان عام ١٥٩١ حلقة جديدة من الصراع بين السياسيين والعسكريين من جهة والطبقة المثقفة من جهة أخرى ، ولم

(١) المصدر السابق ص ٢١٥

يكن إجتهاد الحكام المغاربة في الحفاظ للعلماء على مراكزهم الاجتماعية وعلى التقدير والاحترام إلا بالقدر الذي لا يؤدي إلى إربـاك العمـل السياسي والاقتصـادي ، والذي يهمنا هنا هو إنعكاس ذلك التجاذب أو الصراع على الحياة الفكرية وما تركه من آثار عليها .

وعندما حاولنا في فصول سابقة أن نكشف عن أبعاد الانتكاسة العلمية التي رافقت نكبة علماء تنبوكتو وجدنا أن هناك ضررا قد لحق بالحركة العلمية التي لا شك أنها إهتزت لفترة بسيطة ، كما حدث تماما عندما هجر سنى علي علماء تنبوكتو إلى بيرو وولاتة وقتل من قتل منهم ، فالثقافة الاسلامية والعربية كانت من العمق والانتشار بحيث صمدت في الأزمتين معا وتابعت طريقها بعد زوال الظروف التي كانت معاكسة لها .

لقد أنزل الحكم المغربي ضربة مؤلمة بفئة محصورة ومحدودة من علماء تنبوكتو شملت فقط عائلة آقيت الصنهاجية التي كانت لرجالها سطوة ونفـوذ في المجتمـع السوداني والتي اتهمت بخلق المتاعب للجيش المغربـي عن طريق مداخلـة قواد الأساكي وزعماء السونغاي ، ورؤساء عائلة الصقلي الحسنية ، وقد أعدم بعض العلماء والشرفاء مع أتباعهـم ونقـل أقـل من مائـة منهـم إلى مراكش مصفـدين بالسلاسل ، وجمعت الكتب والتحف الودائع التي كانت تحويها دور أولئك العلماء ووجهت إلى المغرب أيضا .

إن ما وقع في تنبوكتو لم يزد على أن يكون حادثة سير في مسير الحركة العلمية بتلك المدينة ، ذلك لأن الباشا محمـود بادر إلى تعيين قاض جديد بدل القـاضي المنفي ، ورسم أئمة لبعض المساجد ، وحمل المدرسين على إستئناف دروسهم التي توقفت لعدة أشهر ، وبصفة عامة فان الحياة الثقافية واصلت عملها بنفس الثقة والفاعلية السابقتين ، وأكثر من ذلك فقد تجدد الوجه الثقافي للسودان بعد ظهور

عوامل دافعة جديدة من بينها مجيء مدرسين وعلماء من المغرب وانتقال الكتب والورق عن طريق التجارة ، وتوالى عدد العلماء المهجرين إلى مدينتهم بعد إخلاء سبيلهم في المغرب وكانوا قد أطلعوا على فنون جديدة وصقلت مواهبهم الأدبية والدينية .

ولقد ساهم أولئك المهجرون في الحركة العلمية بالمغرب ، فأخذوا وأعطوا ، وألفوا في كثير من الأغراض ، ولكن أهم مادة إمتاز بها نشاطهم العلمي هي التراجم ، ذلك لأنهم وجدوا من المصادر حول اعلام الاسلام ما لم يكن متوفرا لهم في بلادهم فأعانهم ذلك على إغناء المكتبة المغربية والسودانية بالجديد والطريف في هذا الميدان ، وكانت المؤلفات السودانية التي وضعت بمراكش تستنسخ ويتهافت التجار على شرائها لبيعها في السودان .

ومن أبرز الخصائص الأخرى التي إمتاز بها العهد المغربي تطور اللغة العربية التي لم يدخل عليها المدرسون الجدد الجزالة ويأخذوها بالتبسيط فقط ، ولكنهم فوق ذلك لم يتورعوا عن إدخال بعض التعابير من اللهجة الدارجة المغربية ، والأمثال المحلية ، الأمر الذي جعل تلك اللغة واسطة مهمة وأداة فعالة في التبليغ ، أما في المساجد فقد أجاز العلماء وأصحاب الفتيا للمدرسين أن يتحدثوا لجمهرة المستمعين باللهجات المحلية في أمور الدين والعبادات ، ولم يعد مستغربا في كل المساجد أن ينهي الفقيه حديثه ويلقي خلاصة عنه باحدى اللهجات المفهومة أو يترك للترجمان أمر نقل ما ألقاه إلى الحضور باحدى لغات السونغاي ، والأحكام الدينية لم تعد كما كان الشأن في السابق قوالب لغوية يسمعها الطالب وعليه أن يفهمها أو أن يحفظها دون إدراك لمعناها ، أما بالنسبة لدروس الوعظ فكانت تلقى باللغات الأفريقية أو باللهجة الدارجة المغربية وكان يتصور لها في الغالب فقهاء من أبناء السودان نفسه [1] .

---

(١) M. Delafosse — Hante — T. 2 P 351

وقد حظي التعليم بنوع من التنظيم والعناية لم يكن يعرفهما من قبل ، ولم تعد المدارس وقفا على أبناء العلماء أنفسهم وعلى عدد قليل من الطلبة ينفق القاضي عليهم من الوقف أو من مداخيله المحدودة ، بل أصبح التعليم بجميع أطواره مفتوحا أمام كل راغب في تحصيله والجلوس له ، وتكفلت الادارة المغربية بأمكنة التعليم ورجاله وبالطلبة الأغراب ، وقد ذكر السعدي أن تنبوكتو أصبحت في بداية الحكم المغربي تعج بالطلبة الذين كان بعضهم يهاجر من أقصى مناطق الغرب التي كانت محرومة من التعليم ، ومن بلدان المغرب كمراكش وغيرها [1] ، وفيما يخص النظم التعليمية فقد أصبح هناك تعليم إبتدائي ومتوسط ومتخصص ، وأعطيت أول إجازات علمية في بداية العهد المغربي [2] وبالقرب من جامع سنكوري كانت تصطف حوانيت الوراقين الذين إستنسخوا الكتب للطلبة ، ونقلوا مسودات التآليف الجديدة في نسخ متعددة لغرض بيعها محليا أو لتصديرها للجهات البعيدة ، وكان من المناظر المألوفة رؤية فقيه يملي على الكتبة فصولا من كتاب أو حاشية ولا ينتهي من إملائه إلا وقد حصلت للوراق عدة نسخ من ذلك الكتاب .

وأهم ما يلاحظ على الحركة الفكرية في السودان المغربي أيضا ظهور مناح وأغراض فكرية متنوعة بعد أن إنحصر العمل العلمي في السابق كما رأينا في الناحية الدينية وفي الأراجيز اللغوية والمنطق . وقد ظهر مؤرخون سودانيون ندين لهم بكل الفضل في أغلب ما نعرفه اليوم عن تاريخ السودان من أمثال أصحاب تاريخ السودان وتاريخ الفتاش وتذكرة النسيان ، ويرز كتاب التراجم وعلى رأسهم أحمد بابا ، ومؤلفون في الأصول والتفسير والمسائل وعلوم اللغة ، وأدباء وشعراء أعطوا للحركة الفكرية دفقا جديدا ونفسا لم تعرفه تلك البلاد قبل إحتكاكها الواسع بالمغرب .

---

(١) السعدى ص ٤٨

(٢) المصدر السابق ص ٢١٨

ولقد أصبح السودان بحق يساهم بالقدر الذي لا ينكر في إغناء الفكر العربي ودفع الثقافة العربية بالنسبة للقارة الأفريقية كلها ، بل وأصبحت بعض تآليف علماء السودان تدرس في جامعات المغرب والمشرق ، وتصدر للتدريس مفكرون سودانيون بتلك الجامعات أيضا ، وقد ذكرغويبي أن أستاذا سودانيا متضلعا في التفسير كان يعلم تلك المادة في جامعة الأزهر [1] .

أ) العلوم الشرعية وعلوم اللغة :

ظلت العلوم الشرعية وعلوم اللغة مادتين أساسيتين في الحركة الفكرية السودانية خلال الفترة التي نعالجها . ورغم ظهور مؤلفات وحواشي وشروح لبعض الأمهات المعروفة فانه لم يبد عليها إبداع متميز لا من حيث الموضوع ولا في أسلوب العرض والتحليل ، ولعل ما كان يظهر على الأعمال الفكرية الشرعية من إلتزام بالقوالب القديمة في النقل والأسناد يرجع في الأساس إلى الحافظة والخوف من التحريف والخشية من ولوج ما يمكن أن يحمل على المؤاخذة والتعنيف ، وليس أكثر من المذهب المالكي الذي كان مذهب المغرب والسودان حرصا على النقل الدقيق والعرض الأمين ، ومن هنا صدر تقييم أثر تقييم على المدرسة الشرعية السودانية فاتهمت بالقصور وبالمعرفة السطحية لأغراض الشريعة [2] .

ولعل بعض علماء السودان كانوا محاصرين بما يمكن تسميته باختلاط المفاهيم عند بني جلدتهم ، وبتصور الجمهرة السودانية من المثقفين وأنصافهم بأن الفكرة وحامل الفكرة لا يختلفان موضوعا ولا شكلا عن السحر القديم والساحر القديم ، ولذلك فان العلماء والمدرسين كانوا يلقون دروسهم في الأصول بلغة تكاد تكون

---

(١) A. Guilley «L'Islam dans l'Afrique occidentale Paris 1912 P 62

(٢) زبادية ـ ممالك ص ١٥٩

غير مفهومة ولا يستعملون اللهجات واللغات المحلية إلا إذا تعلق الأمر بالسلوك والفرائض والمعاملات والسيرة النبوية ، وكان السوداني يعتبر عالم الشرع والفقيه والقاضي جزء من كيان الشرع نفسه ، ومن أجل ذلك فقد نسب لبعض أولئك الرجال الخوارق والكرامات وصفوا في عداد الصالحين والأولياء ، وسنرى أمثلة لكل ذلك ضمن تراجم من نبغ من العلماء في بداية العصر المغربي ، أما في ميدان اللغة وفقهها والنحو وأسرار البيان فقد إشتهر أيضا علماء عرفوا بما تركوه من آثار وبما طبعوا به المدرسة السودانية في هذا الميدان [1] ولكن إحترام المجتمع لهم كان دون إحترامه للعلماء والفقهاء الشرعيين :

ـ محمد بن محمود بن أبي بكر الوتكري التنبوكتي(المعروف بيغيوغو)[2] :

قال عنه أحمد بابا بأنه « كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتديء ولا من بليد ، أفنى فيه عمره مع تشبثه بحوائج العامة وأمور القضاء ، وقد أدركته أنا يقريء من صلاة الصبح أولى وقته إلى الضحى الكبير دولا مختلفة ، ثم يقوم لبيته . . حيث يقرأ إلى وقت الزوال ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر ثم يصليها ويذهب إلى موضع آخر يدرس فيه إلى الاصفرار أو قربه واذا صلى المغرب درس في الجامع إلى العشاء ثم رجع لبيته ، وكان مع ذلك محققا دراكا ذكيا فطنا غواصا على اللطائف » [3] .

درس بغيوغو علوم العربية والفقه على أبيه القاضي محمود ، وفي تنبوكتو درس المختصر ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ١٤٣

(٢) عده الدكتور زبادية حجة الاسلام في السودان الذي طارت شهرته في أنحاء العالم الاسلامي (مملكة سونغاي. ص ١٣٨)

(٣) أحمد بابا ص ٣٤١

العلماء من أمثال الناصر اللقاني والتاجوزي ومحمد البكرى وبعد الحج رجع إلى تنبوكتو لمتابعة تخصصه في الفقه والحديث والبيان والمنطق .

ويضيف أحمد بابا « لقد صار في آخرة الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه ، أما خليل فمرارا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري وحضرت عليه التوضيح كذلك ، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم ، وحضرته كثيرا في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات ، والفية العراقي في علم الحديث مع شرحها أو حضرتهما عليه مرة أخرى وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين بمختصر السعد وصغرى السنوسي ومع شرح زروق عليه ، ونظم إبن مقرعة ، والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه ، ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف والدماميني وكثيرا من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليه ، وسمعت بقراءته هو كثيرا من البخارى ، ودولا من مدخل إبن الحاج بقراءة غيري ، ودروسا من الرسالة والألفية وغيرهما وسمعت بلفظة جامع معيار الونشريسي كاملا وهو مجلد كبير . . . وباحثته كثيرا في المشكلات وراجعته طويلا في المهمات . . وهو شيخي وأستاذي ما إنتفعت بأحد إنتفاعي به وبكتبه . . وأجازني جميع ما يجوز له ومنه وكتب لي بخطه في ذلك » [1] .

وكان بغيوغو إلى جانب دروسه مؤلفاً ومحشياً على بعض أمهات كتب الفقه والحديث ، وحرر عدة فتاوى ، وقد جمع تلميذه أحمد بابا مؤلفاته في مجموع

(١) أحمد بابا ، نيل الابتهاج ٣٤٢ وقد تعمدنا ذكر تلك المؤلفات التي سرد أحمد بابا بعضها على أستاذه لاعطاء فكرة عن كيفية القاء دروس التخصص ، وعن أصناف التآليف التي كانت تلقى على مسامع الطلبة ، وكيف كان بعضها يدرس ويمحص ويحرر على شكل مذكرات في الكراريس وعلى الهوامش ، وعن طريقة النقاش ثم إجازة الطالب إذا ختمها بما يجوز للأستاذ عن أصحاب تلك الكتب وعن نفسه إذا تعلم الطالب بعض كتبه وأحسن مناقشتها .

مستقل ، وكان بغيوغو في مدينة تنبوكتو يوم نكبة بعض علمائها ولكن لم يمسه ضرر من الجيش المغربي ، وكانت وفاته سنة **١٥٩٣** عن عمر يناهز **٧٢** سنة[١] .

ـ محمد بابا بن محمد الأمين حبيب (أبو عبد الله) :

وصفه السعدي بالعالم العلامة الفاضل الخير المدرس[٢] ، درس في تنبوكتو تخصص في شتى الفنون وخاصة في الفقه والنحو الذي كان يتقن قواعده ، ومن اساتذته عبد الرحمان بن محمود في علم الكلام (وكان يدرس عليه بواسطة المراسلة) والفقيه معيا الذين قرأ عليه مختصر خليل والتوضيح لابن الحاجب وجمع الجوامع ، وعبد الرحمان بن أحمد المجتهد درس عليه المدونة والموطا في الفقه . وأجازه بعض أولئك الأساتذة .

ولقد اشتغل محمد بابا بالتأليف ومن كتبه : شرح الفية السيوطي ، وتكملة البجائي على اللامية ، وشرح ملفقات شواهد الخزرجي ، وأنشأ مقامة على شاكلة مقامات الحريري ، وخاض ميدان الشعر حيث كان ينشيء قصيدة كل سنة ، وقد رثاه بعض الشعراء عند موته عام **١٦٠٥**[٣] .

ـ عبد الله بن محمود بن عمر آقيت :

تضلع في نوازل الفقه واختص بكتب خليل والرسالة بحيث كان يستحضرهما ، وكان يشتغل بالتدريس في جوامع تنبوكتو عندما قبضه الجيش المغربي ونفاه إلى مراكش مع أهل بيته وكتبه ، وقد مات في مراكش بعد إصابته بالطاعون سنة **١٥٩٧**[٤] .

---

(١) المكان السابق

(٢) السعدي ص ٢١٧

(٣) المكان السابق

(٤) أحمد بابا ـ نيل ص ١٦١

ـ الأمين بن أحمد المجتهد :

ولد في تنبوكتو سنة ١٥٥٠ لعائلة اشتهرت بالعلم والتدريس ، وقد نقل السعدي ترجمته عن العلامة محمد بغيوغو السالف الذكر[١] الذي عرفه بأنه كان رطب اللسان بالذكر ، فقيهاً نحوياً تصريفياً لغوياً مع حظ في معرفة الصحابة وكانت وفاته سنة ١٦٣١[٢] .

ـ أحمد معيا :

من علماء تنبوكتو البارزين ومن مدرسيها ومؤلفيها المعروفين : تخصص في الشرعيات وعلم الكلام ، وقتل يوم نكبة العلماء بتنبوكتو[٣] .

ـ محمد كعتو بن الحاج المتوكل :

من علماء الفقه ومدرسي تنبوكتو وقد تولى القضاء لفترة ، وأدركته المنية عندما كان في سفر فنقل شلوه إلى تنبوكتو سنة ١٥٩٣[٤] .

ـ القاضي عمر بن سيدي محمود بن عمر (أبو حفص) :

ولد في تنبوكتو ودرس فيها على علماء عصره وأغلبهم من أسرته ، وجلس للتدريس ثم تولى القضاء والإفتاء ، وكان السبب فيما تعرض له علماء تنبوكتو على يد الباشا محمود كما قدمنا ، وقد عرفه السعدي « بأنه الشيخ الفقيه الصالح البارع

---

(١) قد يدل هذا على أن العالم بغيوعو اهتم بالتراجم .
(٢) السعدي ص ٢٤٦ و٢٤٧
(٣) المصدر السابق ص ٢١١
(٤) المكان السابق

في الحديث والسير والتواريخ وأيام الناس البالغ الغاية القصوى في الفقه حتى قال بعض من عاصره من الشيوخ أنه لو كان موجوداً في زمن ابن عبد السلام في تونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها ، توفي بمدينة مراكش في شهر شبتنبر ١٥٩٤ ودفن بمدينة مراكش في شهر شتنبر ١٥٩٤ ودفن بمقبرة القاضي عياض السبتي[١] .

ـ محمود بن محمد الزغراني :

ينسب لقبيلة الزغرانيين في غرب السودان ، نشأ في تنبوكتو ، وتعلم الفقه على الأستاذين أحمد بن محمد سعيد وعبد الله بن محمود آقيت الصنهاجي ، وأخذ علوم اللغة عن كبار أساتذة عصره حتى أصبح يعرف بالنحوي ، وتصدر للتدريس وكان إماماً في جامع التولتيين بتنبوكتو ، توفي عام ١٦٠٢[٢] .

ـ عثمان بن محمد بن دنبو :

ينتسب لقبيلة الفولبيه (الفولان) التي كانت تقطن غرب السودان ، كان مدرساً ومشاركاً في العلوم ووافته المنية سنة ١٥٩٩[٣] .

ـ أحمد بن محمد الفولاني (أبو العباس) :

ينتسب هذا العالم لمنطقة ماسينا التي كانت تقطنها قبيلته ، درس في تنبوكتو وبرز في العلوم الشرعية وتصدى للتدريس ، وعندما داهمه المرض في بلده ، نقل من قرية (انكم) بواسطة مركب نهري ، ومات عند وصوله ميناء كبارا فنقل على ظهر محفة إلى تنبوكتو ، وقد خرج أهالي تنبوكتو وعلماؤها في جنازته تعظيماً لقدره وكانت وفاته عام ١٦٢٥[٤] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٢

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤

(٣) المصدر السابق ص ٢١٥

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٢

ـ محمد بن سعيد كدادو :

من أبناء قبيلة الفولبيه بغرب السودان ، مهر في الحديث والفقه وكان مدرساً وواعظاً ، توفي عام ١٦٢٥[1] .

ـ محمود سرى بن سليمان :

كان علماء تنبوكتو يطلقون عليه (الفع)[2] ، وقد تعلم في دييني ثم انتقل للتدريس في تنبوكتو ، وفي أخريات حياته عاد إلى مسقط رأسه للتدريس وكان عالماً محدثاً منطقياً ، توفي في دييني عام ١٦١٨[3] .

* * *

لقد عمدنا إيراد تراجم بعض علماء السودان في بداية العهد المغربي للبرهنة على استمرار النهضة العلمية بتلك البلاد على يد الأغلبية الكبيرة من حملة العلم والمثقفين في المجالات الشرعية والأدبية ولتقديم نماذج عن مجالات التخصص العلمي في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، ولإبراز النشاط الذي ظل دائباً في ميدان التأليف والتحشية والتعليق والمناقشات في المسائل والنوازل الفقهية واللغوية ، ولإيضاح العمل المشترك الذي نهض به العلماء البيضان والسود لخدمة العلم ونشره بين طبقة المثقفين والمتطلعين إلى المعرفة .

وإذا كانت تلك الجوانب قد اختصت منا بالإيضاح والتنويه ، فمن الضروري أن يشكل ذلك إقراراً بالمكانة الممتازة التي حظي بها العلماء في أعين الناس والتي لم ينل منها ما أصاب مجموعة من العلماء على يد الجيش المغربي

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٣

(٢) محرفة عن (الفقيه)

(٣) المصدر السابق ص ٢٤١

لدوافع وأسباب لم يكن لها علاقة بالعمل العلمي ولا بالأفكار التي حملتها تلك المجموعة .

لقد استمر التقدير والاحترام للعلماء كما كانا في السابق سواء تعلق الأمر بالسكان أو بأصحاب الحكم الجدد الذين كان يبدو عليهم الحرص على استتباب تلك المكانة والحظوة ما دام العلماء بعيدين عن الخوض فيما لا يعنيهم من شؤ ون الحكم والسياسة ، وقد قدمنا أمثلة على ذلك من فترة حكم جؤ ذر ومحمود ، وبقي أن نقدم أمثلة أخرى من بقية الفترة التي هي مجال بحثنا ، فقد أعفى الباشوات جمهرة العلماء من التكاليف المخزنية ، ولم يكن لأحد الحق في النظر في أية شكوى ترفع ضد عالم أو فقيه أو موظف ديني كبير إلا للباشا نفسه عملاً بوصية الأسكيا الحاج محمد[1] ، ولم يكن الباشا يقوم وهو في مجلسه متصدر للنظر في الشؤ ون العامة إلا إذا دخل عالم عليه ، وكان الباشا لا يسمح لأحد بتناول الطعام معه باستثناء الشرفاء والعلماء وأولادهم[2] ، وقد حدث كثيراً أن سمح الباشوات للفقهاء بالشفاعة في بعض رجالات الجيش فعفا عنهم[3] ولم يستنكف الحكام المغاربة عن سماع النقد واللوم والنصيحة من العلماء فقد ذكر السعدي أنه بعد موت أحد الباشوات حمل جثمانه إلى مسجد (محمد ناضي) في تنبوكتو للدفن ، فاخترق العالم محمد بغيوعو الصفوف وتقدم من الباشا الجديد وهو يهم بتأدية الصلاة على الميت وقال له : « لقد نهيتكم مراراً عن دفن الأموات في المسجد فلا تلتفتون لقولي ، ان وزر هذا العمل في عنقكم أيها الباشا فالميت نجس والنجس لا يدخل المسجد »[4] ، ولا شك أن الباشا استمع لنصيحة العالم ولم يلحق به أي أذى

---

(١) كعتو ص ٧٤ و٧٥
(٢) المصدر السابق ص ١١
(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٤٠
(٤) السعدي ص ٣٠٢

تشبهاً بما كان ينقل عن أحمد المنصور من أخبار حول تقديره للعلماء السودانيين واحترامه لهم ، فقد كان معروفاً أن أحمد بابا السوداني عندما أتي به للسلام على السلطان جعل موظفو القصر حجاباً بين الرجلين فرفض أحمد بابا أن يتحدث مع المنصور قبل رفع ذلك الحجاب وقد لبى طلبه[1] .

ب) التاريخ والرحلات :

لم يصل إلى علم من اهتموا بتاريخ بلاد السودان منذ القديم أن أبناء تلك البلاد قد وضعوا كتباً مستقلة في التاريخ أو الرحلات قبل الحكم المغربي ، ولم يشر أي مؤرخ سوداني إلى أن شيئاً من ذلك قد أنجز ، والإشارة الوحيدة التي يمكن الاعتداد بها هي التي وردت في خطبة كتاب تاريخ السودان حيث ذكر أن التاريخ السوداني لم يكن مدوناً قبله ، وكان عبارة عن قصص تروى في الأسمار والمجالس وتتناول حياة الرؤساء مع أنباءهم ووفياتهم ، وسير الصحابة والصالحين ، ولكن ذلك كله انقرض واندثر ولم تعد الأجيال اللاحقة تلقي إليه بالاً وانشغلت في نقل أخبار التباغض والتحاسد والتنابز والاهتمام بما لا يعني من القيل والقال ، وكان ذلك من أسباب خاتمة السوء[2] .

وقد يكون من الصواب التصور بأن الأسكيا الحاج محمد الذي اجتهد في تقليد أمراء المشرق بعد رجوعه من الحج ، ونقل إلى بلاده جملة من كتب التاريخ والسير قد رغب في تسجيل سيرته وأعماله ومن سبقه من الملوك ، ونحن لا نستبعد أن يكون طالب نجيب اسمه محمود كعتو قد ندب للقيام بذلك لأننا نحس فيما كتبه عن الأسكيا بنبرة عاطفية تتراوح بين الإنفعال والتملق ولكنها مجافية للصدق

---

(١) محمد الجزولي اللكوسي ـ مناقب الحضيكي ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د ١١٢٤ ورقة ١٦

(٢) السعدي ص ١ و٢

والموضوعية ، والواقع أن كعتو بدأ حياته قريباً من الأسكيا[1] ، وتولى والده كما تولى هو مناصب بارزة في عهده وفي عهد بعض أولاده .

ولكن الأمر الذي لا ريب فيه هو أن فن التاريخ مستقلاً أو مشوباً بآداب الرحلات وتراجم الرجال لم تعرفه تنبوكتو إلا منذ أواخر القرن السادس عشر ، وقد ظهر على التوالي : محمود كعتو وعبد الرحمان السعدي ومؤ رخ مجهول ترك لنا كتاباً قيماً درج فيه على طريقة التراجم .

محمود كعتو :

ولد هذا المؤ رخ السوداني عام ١٥٤٨ في منطقة كورما غرب غاو ، وعاصر في بداية شبابه الأسكيا الحاج محمد وبعد أن سكن تنبوكتو وتلقى العلم على فقهائها ، وبرع في الأدب والفقه معاً تقلد منصب القضاء ، وكان زاهداً مكاشفاً أحبه الأسكيا وقربه إليه وجعله في زمرة مستشارية ، ولم تطل حياته كثيراً إذ مات وهو ابن خمسين سنة عام ١٥٩٣ ، ولكنه شهد مجيء المغاربة إلى السودان وما سبق ذلك من أزمات سياسية بين البلدين مما يعطي لكتابه ميزة خاصة سيما وأنه كان يصور تلك الأحداث وهو مقيم في البلاط السوداني ويروي كل ما سمعه من الأسكيا ورجال دولته ، ولم يكتب كعتو الفصول الأخيرة من كتابه بنفسه لأن الأحداث في ما احتواه تاريخه تنتهي وقد مر على وفاة من يفترض أنه كتبها بنفسه ست سنوات ، ونميل إلى الاعتقاد أيضاً بأنه لم يحرر بنفسه خطبة الكتاب لأنها تختلف من حيث أسلوبها السلس المتين وتعابيرها الصافية المنتقاة عن أسلوب الكتاب نفسه الذي لا يخلو سطر منه من هنة أو لحن أو ركاكة ، وأغلب الظن أن تلك الخطبة قد حرر بدايتها عالم أو فقيه لأنها لا تتضمن إلا جملة من الأدعية

---

(١) كعتو . ص ١٦ ذكر أنه كان يحضر مجالس الأسكيا مع الأمراء وقادة الجند

الموضوعة في قالب جميل تزينه المحسنات اللفظية وضروب البديع والبيان والسجع الخفيف على السمع ، أما نهايتها وهي لا تتعدى عدة أسطر فلا شك أنها من إنشاء المؤلف نفسه لأنها تأخذ نفس الطابع وذات الأسلوب الذي اتبع في مجموع الكتاب تقريباً ، وسنورد الفقرة الأخيرة من بداية المقدمة والفقرة الأولى من نهايتها لنرى أن ما ذهبنا إليه قد يكون هو الحقيقة أي أن كتاب كعتو اشترك في وضعه ثلاثة كتاب على الأقل :

« فجزاهم الرب عنا أفضل الجزاء وأنابهم يوم التنادي أجزل الثواب وجعلنا بكرمه من المهتدين بهم وفي زمرتهم من المنخرطين وباحسانهم من المتبعين بجاه خير الورى وأفضل من أعطى الهدى وأكرم من وطىء الثرى . وبعد ، فلما كان ذكر قصص الأنباء والسلاطين والملوك وأكابر البلدان من عادة الحكماء والعلماء الأعيان إتخاذاً بسنة القرآن وتذكيراً لما غبر من الزمان ورداً للغبي عن الحيف والهوان وعوناً للتقى على مساعدة الاخوان ومن الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التردي أصلاً الكوكوي داراً ومسكناً فأنار لنا الهدي بعد ظلم الدجى وأماط عنا الهدى بعد الجبن والردى . . أردت أن نجمع من أحواله الحلوان مع ذكر شي عال (سني علي) الملعون ما سهل على اليد واللسان وإلى الله سبحانه التكلان وسميته (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار) »[1] .

ولا يحتوي الكتاب على أية أبواب أو فصول بل هو مكتوب دفعة واحدة ، ولا توجد به فقرات أو مواقف مع ما حفل به من الاستطرادات وتداخل الأحداث

---

(١) كعتو ص ١٠ و١١ وقد نشر هذا الكتاب في باريس في بداية هذا القرن المستشرق هوداس بمساعدة المؤرخ دولافوس ثم أعيد طبعه بدون تغيير عامي ١٩٢٣ و١٩٦٤ .

والحشو ، غير أنه يعتبر ذخيرة هامة في تتبع التطور الحضاري والثقافي والاقتصادي ، وقد استطاع محققه هوداس أن يقسمه إلى ستة عشر فصلاً مهتدياً في ذلك بالفواصل التاريخية الهامة .

ويبدي كعتو في كتابه عطفاً وتقديراً لملوك السودان ، ويقف إلى جانب علماء تنبوكتو فيما أصابهم على يد الباشا محمود .

عبد الرحمان السعدي :

هو الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ، ولد في بداية العهد المغربي عام ١٥٩٦ ، وقد درس في تنبوكتو وبدا عليه الاهتمام بالتاريخ منذ شبابه ، ولا شك أنه كان يتتبع الأحداث عن كثب ويدون ما يسمعه أو يراه ، أما الفترة السابقة لحياته فقد نقلها ولا شك عن كعتو وغيره وكان إثباته لها يتسم بالاختصار مع الإنصاف والبعد عن المبالغة ، ويبدو أن السبب في ذلك راجع إلى أنه كان يعيش في عهد لم يكن يسمح بالأطناب في الحديث عن ملوك ودول السودان .

ولا شك أن السعدي كان مطلعاً أكثر من سابقه على كتب التاريخ المعروفة لعهده وعلى طريقة وضعها وعرض أحداثها وإصدار الأحكام حولها ويظهر أنه بذل مجهوداً في تتبع أخبار المغرب حيث أنه عرضها في فصلين منفصلين وكأنه حضر بنفسه الفترة الحالكة التي أعقبت موت السلطان أحمد المنصور وكعادة المؤرخين في ذكر السبب في التأليف فقد قدم لكتابه بعد ديباجة قصيرة لم تزد عن بضعة أسطر على هذا النحو :

« ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه ، وذهاب ديناره وفلوسه ، وإنه كبير الفوائد كثير الغرائد لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم

وتواريخهم ووفياتهم ، فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت عن ذكر ملوك أهل سغى وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية، سلطان مدينة حمراء مراكش فأقول وبالله تعالى أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل : الباب الأول : ذكر ملوك سنغى »[1] .

وقسم السعدي كتابه (تاريخ السودان) إلى ثمانية وثلاثين باباً : ويتراوح طول الفصل الواحد بين صفحتين (الباب الأول) وخمسين صفحة (الباب الخامس والثلاثون) ، وتكون بعض الأبواب عبارة عن تنبيه لشيء نسي المؤرخ ذكره في السابق (الباب الثالث والثالث والعشرون) أو استدراك ورجوع (الباب الرابع والعشرون) وفي ذلك دلالة على أن السعدي لم يجمع مواده دفعة واحدة وكان يثبت كلما وقع له في فصل ويقطع بذلك تسلسل أحداث كتابه .

أما تقسيم فصول الكتاب على الجملة فهو :

- من الباب الأول إلى الرابع : خصصه للحديث عن تاريخ مالي وبداية سني علي .
- الباب الخامس والسادس خصصهما لمدينة ديني وعلمائها وصلحائها
- الباب السابع : ذكر مدينة تنبوكتو ونشأتها .
- الباب الثامن : تعريف التوارك .
- الباب التاسع : بعض علماء تنبوكتو وصالحيها .
- الباب العاشر : نبذة من كتاب الذيل لأحمد بابا[2] .

---

(١) السعدي ص ٢
(٢) لا شك أن السعدي اطلع على الكتاب في وقت كتابته للفصل السابق فأثبت تلك الخلاصة في غير موضعها .

ـ الباب الحادي عشر : ذكر أئمة المسجد الجامع ومسجد سنكري .
ـ الباب الثاني عشر : حياة سني علي
ـ من الباب الثالث عشر إلى الباب العشرين : الأساكي من الحاج محمد إلى مجيء المغاربة .
ـ من الباب الحادي والعشرين حتى السابع والعشرين : باشوات السودان الأوائل .
ـ البابان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون : أخبار الدولة السعدية .
ـ الباب الثلاثون : ذكر الوفيات إلى عام ١٠٢١ هـ
ـ الباب الحادي والثلاثون : الباشوات من عام ١٠٢١ هـ إلى سنة ١٠٣٩ .
ـ الباب الثاني والثلاثون : سياحة مؤلف الكتاب في بلاد مسينا .
ـ الباب الثالث والثلاثون : الباشوات من عام ١٠٣٩ إلى ١٠٤٢ هـ
ـ الباب الرابع والثلاثون : ذكر الوفيات من ١٠٣٩ إلى ١٠٤٢ .
ـ الباب الخامس والثلاثون : الباشوات من ١٠٤٢ إلى ١٠٦٣ .
ـ الباب السادس والثلاثون : الوفيات من ١٠٤٢ إلى ١٠٦٣ .
ـ الباب السابع والثلاثون : ذكر من تولى أمور البلاد من السودانيين من مجيء الباشا جؤذر إلى عام ١٠٦٣ .
ـ الباب الثامن والثلاثون : تاريخ السودان من ١٠٦٣ إلى ١٠٦٥ هـ .

ويلاحظ على فصول الكتاب أنها ضمت أغراضاً ثلاثة لا نستبعد أن يكون السعدي قد كتبها بشكل منفصل ثم ضمها إلى بعضها : الغرض الأول هو تسجيل أحداث تاريخية محددة المعالم واضحة الاتجاه ، والثاني يمكن أن ندرجه في نطاق فن التراجم ، والثالث عبارة عن رحلة متميزة قام بها هو نفسه إلى بلاد مسينا برفقة أحد الباشوات ، ومما حملنا على تصور عملية الدمج التي أشرنا إليها أن بعض الأحداث تتكرر عند ذكر أعمال أحد الرجالات ثم عند إيراد اسم تلك الشخصية نفسها حين

الحديث عن وفاتها ، والأمر الثاني هو الاختلاف البين الذي يظهر على أسلوب المؤلف في كتابة كل غرض من الأغراض الثلاثة ، والأمر الثالث هو أن المؤلف نفسه يسمي كتابه المجموع أو المجموعة وهذا تعبير مغربي عن تأليف مركب[1] .

وهناك ملاحظة أخرى وهي أن الفصل الأخير حرره المؤلف بعد انتهائه من كتابة تأليفه ، وكان يسرد فيه الأحداث كيفما اتفق ، وقد افتتح السعدى ذلك الفصل بالحمدلة وكأنه كان يتطلع الى بداية جزء ثان ، غير أن المنية داهمته قبل أن ينجز عمله .

المجهول :

لا نعرف اسم هذا المؤلف [2] ولا أية معلومات عن حياته ، ولكن الثابت أنه كان يعيش في تنبوكتو وانه تعلم هناك ، وكلفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي ، وقد فرغ من تأليف كتابه (تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان [3] في ١٩ يوليه عام ١٧٥١ .

ويذكر كتاب التذكرة باشوات السودان وأعمالهم وحروبهم وصراعاتهم مع القادة المغاربة أو مع رجال القبائل اعتبارا من عام ١٥٩١ الى ١٧٥٠ باستثناء بعض الفترات القصيرة ، وكان يلجأ الى ذكر اسم الباشا فقط اذا لم تكن لديه أية معلومات عنه أو اذا بقي ذلك الباشا يوما أو بضعة أيام في الحكم .

---

(١) السعدي ص ٣١٤

(٢) ضاعت الورقة الأولى من ذلك التأليف فلم يهتد المحقق هوداس الى معرفة اسمه ، ولقد وردت في صلب الكتاب اسماء بعض أقاربه فعمه اسمه سعيد بن محمد مودى وجده محمد بن الأمين .

(٣) عثر القبطان GADEN عندما قاد حملة ضد المجاهد ساموري على مبيضة الكتاب وسلمها لمحققها ومترجمها هوداس ، ونشر كتاب التذكرة عام ١٩٠١ بباريس .

ويقول هو نفسه عن الطريقة التي أتبعها في جمع مواد الكتاب بأنها طريقة الترتيب الأبجدي الذي يبتديء بحرف الألف وينتهي بحرف الياء ، ولكنه لم يجد سوى احدى عشرة مجموعة من أسماء الباشوات تبتدىء بالحروف المعروفة ، فقد ابتدأ بحرف الجيم واعطى نبذة صغيرة عن جؤذر ثم حرف الميم وأورد فيه اسماء أربعة وعشرين من الباشوات دون أن يتحدث عن الثمانية الاوائل بشيء باعتبار أن ذكرهم ورد في كتاب السعدى .

ثم حرف العين واورد فيه حياة ٢٦ باشا .

ثم حرف السين وذكر فيه ١١ باشا ، ثم بقية الحروف الأخرى .

ويلاحظ أن الكاتب لم يستطع أن يتجنب التداخل والاختلاط في تواريخ الحكام والأحداث وكذلك في ترتيب حروف المعجم وترتيب اسماء الباشوات حسب تتابع تلك الحروف الامر الذي يجعل البحث في الكتاب صعبا وشاقا .

كتب الرحلات :

اننا نعلم تطلع الأفارقة في الشمال والجنوب عموما الى السياحة في البلاد الأجنبية ، وتشوقهم لزيارة الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية واجتهادهم في تدوين ما شاهدوه بأقلامهم أو بواسطة محررين يتولون عنهم ذلك العمل .

ولقد رأينا أن العديد من ملوك السودان وفقهائه وعلمائه كانوا يتوجهون الى المشرق ، ويعودون بأوفى الأخبار وبأجلى الصور عما سمعوه وشاهدوه ، ولا نملك ازاء صمت المصادر السودانية الا أن نتصور فقط أن تقاييد ومذكرات قد حررت بشكل أو بآخر ، واكبر دليل على ذلك ما ورد في نيل الابتهاج من أن احمد بابا عثر على رحلة في سفر واحد للفقيه خالد بن عيسى بن أحمد البلوري فنقل منها فوائد وتراجم متعددة ، ولم نعثر على تلك الرحلة الضائعة .

وحسبما تقدم لنا عند تحليل كتاب تاريخ السودان فان الرجل كتب رحلة وأضافها لكتابه ، واذا كان لنا أن نعتبر ذلك الانجاز نموذجا لما قد يكون كتبه خالد بن عيسى أو غيره فهو نموذج يستحق التقدير .

ولقد قام السعدي برحلة قسمها الى ثلاث مراحل الأولى من تنبوكتو الى مسينا[2] ، والثانية ضمن بلاد ماسينا[3] ، والثالثة من دينبي الى تنبوكتو[4] وقد تضمنت الرحلة التي أنجز جزءا منها مع الباشا حين كان كاتبا له أوصافا دقيقة للأمكنة والقبائل والحالة الاقتصادية وأحوال الأمن ووسائل النقل .

جـ) التراجم :

لقد كانت كتابة تراجم الملوك والرؤساء والقضاة والعلماء من أبرز ما اهتم به الكتاب والمؤرخون السودانيون فالحديث عن الماضي كأحد مستلزمات الأسمار والمجالس وتعلق السودانيين بانباء البطولات وأخبار العظماء أعطت لهذا الجانب أهميته وأبرزته الى جانب العلوم الشرعية وعلوم اللغة ، بحيث أصبحت هذه المظان الثلاث تحتكر العمل الثقافي والفكري كله تقريبا .

ويتبين من خلال دراستنا لتواريخ السودان أن كتاب أو تقاييد يدخل بعضها في مضمار التراجم كانت موجودة في السودان ولكنها لم تصل الينا ، وقد مر بنا أن المؤرخ السعدي ربما يكون قد وضع كراستين عن تراجم الرجال مرتبة حسب تواريخ الوفاة ولكنه ارتأى أن يلحقهما كفصلين مندمجين في تاريخه . وكذلك الشأن

---

(١) احمد بابا ـ نيل ص ١١٥

(٢) السعدي ص ٢٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٩

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٩ ـ ٢٨٧

عند المؤ رخ الموري (المجهول) الذي عرض كتابه عن باشوات السودان على شكل تراجم مرتبة على حروف المعجم .

وحتى إن وجدت تلك التراجم المفقودة ، واعتبر بعض ما كتبه السعدي والمجهول من قبيل التراجم حسبما هو متعارف عليه فان ما تركه العالم السوداني أحمد بابا يعد فتحا كبيرا لا على مستوى السودان والمغرب ولكن على صعيد كتابة التراجم في العالم الاسلامي قديما وحديثا .

انحدار احمد بابا من عائلة صنهاجية بربرية عرفت بالعلم ، وقد انتقل جده من بيرو التي نفاه اليها الملك سنى علي الى بلاد مسينا خوفا على أولاده من أن يفتتن أحدهم ببنات الفولبيه ويتزوجها[١] ، ولكن والده عمر بن محمد آقيت فضل سكنى أروان حيث ولد له أحمد بابا في شهر حجة عام ٩٦٣ (١٥٥٦) ، وقد مر معنا ما بذله أحمد بابا من جهد في تحصيل مختلف العلوم حتى أصبح « عالما علامة فريد عصره والبارع في كل فن من فنون العلم »[٢] ، وعندما وصل الجيش المغربي الى تنبوكتو كان عمره ٣٦ سنة ، وقد انضم الى بعض علماء أسرته في التصدي للمغاربة ومعاكسة السلطة المغربية فسجن ونقل الى منفاه في مراكش التي وصل اليها في رمضان عام ١٠٠٣ (١٥٩٢) وأودع السجن ثم أطلق سراحه عام ١٥٩٦ [٣] حيث تفرغ للعمل العلمي لمدة عشر سنوات قبل أن يعود الى مسقط رأسه سنة ١٦٠٦ [٤] .

وكانت السنوات التي أمضاها في المغرب حافلة بالعمل العلمي سواء على

---

(١) نقل السعدي هذه المعلومات من احمد بابا نفسه ـ تاريخ السودان ص ٣٦

(٢) المكان السابق .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية اكتوبر ١٩٣٣ العدد الأول ص ٤٥٨ ، ويذكر السوسي انه سجن سنة واحدة فقط واطلق سراحه يوم الأحد . ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ ـ اليغ ص ٢٨ .

(٤) يذكر السعدي أن دخوله الى تنبوكتو كان يوم الثلاثاء ١٠ قعدة سنة ١٠١٦ ص ٢١٨

مستوى التدريس أو التأليف ، فعمل استاذا مبرزا في جامع الشرفاء بمراكش ، وتتلمذ عليه طلبة لم يلبث اسمهم أن لمع وشهرتهم أن طارت من أمثال العالم الركراكي مفتي فاس والقاضي أبي القاسم بن أبي نعيم الغساني ، وأبي العباس احمد بن القاضي صاحب جذوة الاقتباس[1] .

وكان يجلس هو أيضا الى بعض كبار العلماء يأخذ عنهم ويجادلهم ، وكانت له مساجلات مع المقرىء صاحب نفح الطيب الذي انتفع به وأخذ عنه[2] .

وذاعت شهرة احمد بابا حتى أصبح الحكام وأصحاب القضايا يتوجهون اليه بفتاواهم وكان يضيق ذرعا بذلك ويدعو الله أن يصرف تلك الفتاوى عنه[3] .

أما دروسه في جامع الشرفا فقد ابتدأها بمختصر خليل الذي ختمه عشر مرات ، ثم تسهيل ابن مالك في النحو ، وألفية العراقي في الشمائل النبوية ، وتحفة الحكام ، وجمع الجوامع للسبكي ، وصحيح البخاري وصحيح مسلم والشفا للقاضي عياص والموطا للامام مالك ، ويقول احمد بابا انه بسبب ذلك « فقد اشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى الى الجزائر وعنابة والى ما وراءهما »[4] .

وعند رجوع احمد بابا الى بلاده عاد الى التدريس مع عناية خاصة بالتأليف وكان يدرس في مختلف الجوامع بتنبوكتو الفقه والحديث والأصول والبيان والنحو والمنطق والعروض والحساب[5] ، أما تآليفه فهي تفوق الأربعين[6] ومن أهمها هامشه الهام على كتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب لبرهان الدين

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ المكان السابق

(٢) السوسي المكان السابق

(٣) المراكشي ـ الاعلام ص ١٠٢ ـ مصدر سابق

(٤) المكان السابق

(٥) السعدي ص ٢٣٨ و٣٢٢

(٦) دائرة المعارف ـ المكان السابق

ابراهيم بن فرحون وقد سمى ذلك الهامش الذي أتى أكبر من الكتاب نفسه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج »[1] ، وكان الهدف من وضعه ذكر علماء المذهب المالكي السودانيين الذين لم يكن فرحون يعرف عنهم شيئا ، وتصحيح بعض الهفوات والنقص في الكتاب الاصلي .

ويقول احمد بابا في تقديمه لنيل الابتهاج :

« فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه ببعض ما فاته أو جاء بعده من الأئمة الأعيان ، فقيدت فيه بحسب الاماكن حين كنت ببلد بعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها عن مدن العلم وكتب هذا الشأن ، فقصر بي الحال مع عدم مساعدة الزمان لما بلينا به من حوادث الوقت ، وفتنة تشغل عن كل فرض وترمي بشرر في الطول والعرض . . . ولولا فضل المولى ذي الفضل والاحسان . . ما جمعت في هذه الكراريس ما تيسر لي من ذلك مما ليس في ديباج ابن فرحون مذكورة ، وزدت في تراجم من ذكره ما ترك من أوصافه المشكورة فجاء بحمد الله تعالى فوق ما أردت ، وزائدا على ما نويت وقصدت ، وسميته (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) جعله الله تعالى خالصا لكريم وجهه وموجب الفوز لديه بفضله . . . »[2] .

وقد ابتدأ احمد بابا كتابة نيل الابتهاج في تنبوكتو واتمه في مراكش ، ثم وضع له تكملة سماها (تكملة الديباج)في ١٨ جزء اشتملت على تراجم أئمة المذهب المالكي ثم جعل لتلك التكملة ذيلا عنونه بـ (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج) أو (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج) ووجدت في مخطوط بدار الوثائق بالرباط أن ذلك الذيل كتب برسم ضمه الى خزانة أحمد المنصور ولذلك قد جاء في

---

(١) طبع في مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢٩ هـ

(٢) ابن فرحون ـ الديباج ص ١٢ ـ ٢٢

مقدمته « بوصولي الى منبع العلم في الديار المغربية حضرة الامامة العلية والمولوية الهاشمية المنصورية . . بادرت الى كتب ذلك الـذيل وأردت أن أخـدم خزانتـه المشتملة على الطم والرم من كتب العلم ، أهديته وان كنت في صنعي كجالب تمر الى هجر أو قارض شعر لدى أل حضر »[1] .

أتبع أحمد بابا في أعماله الثلاثة فن كتابة التراجم كما كان معروفا في عصره فهو يذكر المترجم حسب الأحرف مع نسبه الى نهاية معرفته به ثم يذكر الأصـل ومسقط الرأس وتاريخ الولادة والدراسة الأولى والأشياخ والمشارب العلمية ، وما يتعلق بالمترجم أو ينسب اليه من أعمال ونوازل وقضايا فكرية ، وأهم ما امتازت به أعمال احمد بابا في هذا المجال عمق النظرة وغزارة المادة مع تجنب الاسفـاف أو الاستطراد ، وقدرة كبيرة على الترتيب[2] .

د) الآداب وفن الكتابة :

وجد المغاربة عند حلولهم بالسودان نمطا من الآداب شعـرا وقصصـا وطرفاً

---

(١) ذيل الابتهاج ـ مخطوط بدار الوثائق بالرباط د ٧٦٦ ص ١

(٢) من أهم مؤلفات العالم السوداني احمد بابا « شرح على مختصر خليل » (من باب الزكاة حتى باب الزواج) في جزئين وقال عن ذلك العمل « لقد يسر الله تعالى لي في وضع شرح عليه جمعت فيه لباب كلام من وقفت عليه من شراحه وهم أزيد من عشرة مع الاختصار والاعتناء بتقريب الفاظه منطوقا ومفهوما وتنزيله على النقول ثم وقع علينا محنة وشتت شملنا وذهبت نفائس كتبنا . . . ولما جبر الله على ببعضها بعد دخولنا لمراكش أصبت منها ذلك التعليل . . وكتبت أيضا تحريرات ونكتا على كثير من مشكلاته » (نيل الابتهاج ص ١١٤) .

ووضع أحمد بابا أيضا كتابا بعنوان « الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان » تحدث فيه عن مشكلة الرق وكتاب « من الرب الجليل في بيان مهمات خليل » في جزئين ، وكتاب « درر الوشاح » في مسائل الزواج و« ترتيب جامع المعيار » الذي كتبه الونشريسي ، و« نيل الأمل » في مسائل فقهية ودينية ، « وشرح الصغرى » للسنوسي في أربعة أجزاء و« ذيل السنوسي » في ثلاثة أجزاء ، و« شرح لامية ابن مالك » ، و« مسائل من الألفية » .

يراجع : M.A. Cherbonneau «Essai sur la litterature Arah au Soudan - constanti ne - Algerie

يستمد أصالته من الحكايات الافريقية وقصص البطولات والحروب ، ولكن لم يكن مكتوبا بل يلقى في حلقات القصاصين بالأسواق ويدار في المجالس ، وينقل بالرواية من مكان الى آخر ومن شخص لأشخاص آخرين[1] ولكن كانت هناك محاولات سجلت على الورق لم تبلغ شأوا يمكن الاعتداد به ، كما لم تتجاوز بعض المدن السودانية .

ففي ميدان الشعر يبدو أن أدباء افريقيا الغربية لم يكن لهم ولع بهذا الجانب الجمالي من الأدب ، وقد تركوا لنا جملة من القصائد لا يمكن بحال أن تشكل عملا رفيعا ، كما أن اشارات وردت حول نبوغ شعراء سودانيين والأغراض التي تناولوها ولكن تلك الأعمال ضاعت كلها ، واشارت اخرى حول قصص كتبت على نمط خرافات عهد الانحطاط العباسي والأندلسي أو على شاكلة المقامات ، غير أن المصادر لا تقدم لنا أية نصوص يمكن النظر فيها ودراستها وبالتالي تقييم العمل الأدبي السوداني بموجبها[2] .

ولا نعلم عن شعر اختص به شعراء وتفننوا فيه ، وما بين أيدينا لا يعدو أن يكون محاولات من فقهاء وعلماء كبار لم يبرعوا في قصائدهم كما برعوا في علومهم ، وأكبر دليل على ذلك ثلاث قصائد احداها في الرثاء والثانية في المدح والثالثة في الحنين الى الوطن .

فقد نقلت الينا المصادر السودانية قصيدة منسوبة الى العالم الشيخ سيدي يحيى التادلسي في رثاء القاضي محمد الكابري عدد أبياتها ٢٢ بيتا منها :

تذكر ففي التذكار خير الفوائد   وفي طيه ورد على خير وارد

---

(١) H. Deschamps «l'Afrique precoloniale» Paris 1962 P 11

(٢) ذكر السعدي مثالا عن كاتب للمقامات وبعض شعراء عصره دون أن يعطي أية نماذج ص ٢١٨

ألم تر سفر الحث بالفصل خصصوا   وسفر ذوي الأفكار أحظى بزائد
تفيء لب المرء طيبة الصبا   فيلحق فتياننا ويقوى لساعد

* * *

فياعجبا هل بعده من مبين   ويا عربا هل بعده من مجالد
فلولا التعزى بالنبي وصحبه   واعلام علم الدين منه وراشد
لحق لدمع العين سيح على الولا   لا فناء أشباح واطفاء واقد

* * *

عليه من الرحمان ذي العز والعلى   سلام بألطاف عزيز الفوائد
وصلى اله العرش ربي بمنه   على خير مبعوث وأفضل شاهد
محمد المختار للختم رحمة   بتتميم اخلاق كرام المعاهد[1]

ونسبت قصيدة لأحمد بابا التنبكتي قالها في مراكش وهو يتذكر وطنه ويحن اليه عدد أبياتها ثمانية ومنها :

أيا قاصدا كاغو فعج نحو بلدتي   وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاما عطيرا من غريب وشائق   الى وطن الأحباب رهطى وجيرتي
وعندي أقارب هناك أعزة   على السادة الألى دفنت بغربتي
وشبان بيتي سارعوا عن أخيرهم   الى ملك الأملاك في وقت غربتي
فوا أسفا منهم وحزني عليهم   فارب فارحمهم بواسع رحمة(ى)[2]

أما القصيدة الثالثة فقد ألقاها محمد بن محمد الأمين حين ورد من المغرب أحد شيوخ سوس محمد يحيا الولاتي وغرضها المدح والترحيب :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩

(٢) اليفرني ـ النزهة .

نيل الرباح، أو النجاح السرمدي   والسير في النهج القويم السرمدي
فازت به (تنبكت) دون مغارب   ومشارق من كل قطر أبعد
فتباشرت أيامها وتشامخت   أعلامها من راسيات ركد
وبحبها من فضله ارجاؤها   محمول سر الوحي نور المهتدى[1]

واذا كان ما جاءت به أخيلة شعراء السودان على هذا المنوال من التكلف ، وتجاوز أبسط قواعد العروض وعمود القصيد ، فان ما قاله الشعراء لا يبتعد كثيرا عن النظم الخالي من الجمال والخيال الشعري[2] .

أما أسلوب الكتابة عند السودانيين فكان يمتاز بالحرص على أن تدل الجمل على ما يقصده الكاتب بفكرته حتى ولو أدى الأمر الى استخدام كلمات غير عربية أو جمل ملتوية ، ويظهر تأثر اللغة العربية في السودان بالتراكيب الخاضعة للمعنى لا بالمعنى الذي يخضع للتركيب الى درجة اللجؤ الى التعابير العامية ، وباستثناء اسلوب احمد بابا الذي امتاز بالجزالة والموضوعية العلمية والتمكن من المفردات ، وكتابة الجمل متناسقة وقصيرة ، فان الكتابات الأخرى شرعية كانت أم تاريخية لم تبتعد في أسلوبها عن الكلام العادي الدارج أو عن لغة الفقهاء ، ويكون الحشو والتهلهل والخلل في التراكيب والاستطراد وعدم ارتباط الأفكار هو القاعدة التي تنصرف على كل تلك الأعمال الفكرية .

ونحن لا نتهم كتاب السودان بالسطحية أو عدم التمكن من أصول اللغة العربية وقواعدها ، ولكننا نجد في استعمالهم الواسع للكلمات العامية والتراكيب الضعيفة ، ما يقوم دليلا على أن اللغة العربية لم تكن في أحسن أحوالها ببلاد

---

(١) السوسي ـ المعسول ـ ج ٨ ـ ص ٢٨٥
(٢) ذكر احمد بابا في نيل الابتهاج أن العالم محمد بن محمد آقيت نظم ارجوزة في شرح منظومة المغيلي ، ولكن هذا المعمل وان لم نطلع عليه لا يختلف عما عرفه المغرب والبلاد المشرقية ص ٣٤٠ .

السودان ، وبالاضافة الى ذلك فقد لاحظنا استعمال تعابير وكلمات من لغتي البامبارا والبهل (اليول) ومن لهجة قشتالة القديمة .

وهناك أمر أكيد يبدو على الأسلوب السوداني وهو استعمال الكلمات الدارجة المغربية ، الأمر الذي يدل على أنها كانت شائعة الإستعمال بتلك البلاد[1] .

ومما يلاحظ على أسلوب كتاب السودان المخضرمين أنه اختلف اختلافا بينا بحلول القرن السابع عشر عما كان الشأن عليه سابقا ، فنجد أن السعدي مثلا يكتب في آخر أيامه بأسلوب سلس بعيد نسبيا عن الركاكة بعد احتكاكه بشكل أفضل بالثقافة العربية واطلاعه على أسرارها وجماليتها .

٣) التعليم

حظي التعليم في مدن السودان ، وفي تنبوكتو خاصة باعتبار كبير من السلطة والشعب بالنظر لما كان يتيح لطالبه من مكانة مرموقة في المجتمع بعد تحصيله ، ولارتباطه بالمقومات الدينية ، ولما كان يتمتع به العالم من تقدير من الحكام

---

(١) من النماذج على استعمال الأمثلة والألفاظ العامية :

« اذا دنوت مني لجرجت مصارينك في الأرض » السعدي ص ١٤٨

« هذا رأس (منذو) متاع بلادكم ومن لم يقعد عند روحه (يلزم الهدوء) هكاذ يفعل به ، وجعل الرماة يحمرون وجوههم بالشر » السعدي ص ١٤٨

« ادركه قاعدا عندد راباب مسجد سنكري وقت الزوال والمسجد ما زال ما فتح « السعدي ص ٥٣

«فاذا السحاب (المطر) قد ثارت فأول ما نزل من أقطار المطر غلظ لنا في الكلام » السعدي ص ٥٤ .

« فلما شور (استأذن) عليه تعجب من اتيانه فاذن له بالدخول « السعدي ص ١٨

« ووكد عليهم الا يبلغ معهم التمريت (العذاب) »السعدي ص ٨٠

« وبعدما ساقط(بعث) من مراكش » السعدي ص ١٩٣

« وهذا ما عينوه الناس (رأوه) وما سمعوه وانما عينوه » المجهول ـ تذكرة ص ١١٧

« وخرجوا في عسكر عظيم وطاحوا عليهم (هاجموهم) فانكسرهم المحلة (كسرتهم) وتمالو (كلمة سودانية تعني جمعوا شملهم) على أن يغيروا على المحلة » المصدر السابق ص ٧٤

وتقديس من العامة ، وحظيت تنبوكتو وجامعتها بسمعة مدوية في العالم الاسلامي مثل السمعة التي حظيت بها فاس والقاهرة وتونس ، وقد رأينا الطلبة يتوافدون لطلب العلم بتنبوكتو من مراكش والجهات البعيدة السوادنية وخاصة من مسينا وبلاد الفولبيه[1] ، وكان أولئك الطلبة بعد المرحلة الأولية يدرسون أمهات الكتب على الأساتذة السوادنيين ثم يذهب عدد منهم إلى المغرب الأقصى حيث يحضرون مجالس العلم بفاس أو مراكش أو يتوجهون الى مصر والحجاز للدراسة واداء فريضة الحج ، ويجتهد أولئك الطلبة في الحصول على ثناء مكتوب من بعض أساتذتهم أو على إجازة علمية جزئية أو عامة لأن من شأن ذلك أن يفتح لهم أبواب التدريس والتوظيف في بلادهم ، وكما كان الشأن في المغرب فان الطلبة الغرباء أو الآفاقيين كان يتلقون المساعدة من تجار المدينة وأخيارها ويقدم لهم الطعام والكسوة من أموال الوقف المخصص لهم أو من صندوق المحكمة الشرعية [2] .

وكان أغلب الأستاذة اللامعين من قبيلتي مسوفة وصنهاجة المغربيتين الصحراويتين ، أو من توات وفاس ، أما المعلمون، فكان أغلبهم من أبناء السودان ، وقد قال السعدى بأن تنبكتو « ما أتتها العمارة إلا من المغرب سواء في الديانات أو المعاملات » [3] .

والأمر المؤكد هو أن المدن السودانية التي كانت تضم المراكز الثقافية قد تحولت مع بداية الحكم المغربي من الاشعاع الديني الى الاشعاع الثقافي والحضاري ، وأصبحت تعد من المراكز الشهيرة في العالم العربي التي ترفد العلم والثقافة الاسلاميين بالمؤلفات والأساتذة [4] . وقد تطلع العالم الاسلامي

(١) كعتو ص ١٨٠
(٢) كعتو ص ١٧٩
(٣) السعدى ص ٢١
(٤) د. عبد الرحمان شبلى « تاريخ التربية الاسلامية » دار الكشاف بيروت ص ٢٧١

والأوروبي لمعرفة الكثير عن المراكز الثقافية في وراء الصحراء ، وكانت أوروبا تتلقف الأخبار منذ إطلاعها على كتابات إبن بطوطة وليون الأفريقي والمؤ رخين المغاربة عن تنبوكتو وغاو ، وبدأت محاولات الرحالة الأوروبيين من مختلف الأجناس لاستجلاء سر تنبوكتو التي تفتقت فيها الثقافة العربية الاسلامية وأصبحت تشكل مدرسة إلى جانب المدارس العلمية في بلاد الاسلام الأخرى [1] .

والواقع أنه منذ نهاية القرن السادس عشر لم يعد التعليم مقتصرا على الجوامع ، ومحصورا في طبقة من الطلبة المحظوظين الذين كان أغلبهم ينتسب لعائلات العلماء نفسها ، فبينما كنا نسمع أن طالب علم أخذ عن والده أوجده أو خاله أصبحنا نلاحظ إختلاف الأسماء وتنوعها وأخذت المدارس الأولية مكانتها الثابتة في توجيه الصبيان نحو المراحل الأعلى ، وبرزت أنواع من التعليم الذي له صلة بالصنائع وهو الذي كان يؤ هل المتدرب على أن يبرع في قطاع من القطاعات وينال شهادة تخريج كان يحمل معها لقب (الفا) أو المعلم فتتاح له الفرصة لأن يدخل المعترك العملي وأن يصبح أستاذا في فنه [2] .

وعلى هذا فقد عرفت السودان كل مراحل التعليم من التطور الأولي الى المتوسط الى العالي بالاضافة إلى التكوين المهني .

فالتعليم الأولي ينهض بمهمة تدريب الصبي على القراءة والكتابة ، مع حفظ السور الأخيرة من القرآن وتعلم الفرائض والسنن والمستحبات ، ولم يكن سن الأطفال في هذا التعليم يتجاوز حدا معينا ، وقد أطلق على المعلم الفقيه أو المدرس أو السيد وسمي المتعلمون بالصبيان [3] .

---

(١) للاستزادة يراجع : Cathrine Coquery La decouverte de L'Afrique Paris 1915

(٢) كعتو ص ١٨٠

(٣) كعتو ص ١٧٨ و ١٨٠

ويقبل في المرحلة المتوسطة أو التي تعد الطالب للتعليم المتخصص التلاميذ من سن معينة أيضا وممن أنهوا تعليمهم الأول ، وكانت مواد التدريس أكثر تعقيدا من السابق إذ يطلب من التلميذ أن يحفظ القرآن كله وأربعين حديثا نبوياً وبعض المتون وفي مقدمتها الألفية في النحو والأجرومية في الفقه .

ولم يكن يفترض في المعلم أن يكون عالما بل يكفي أن يعرف بالحفظ والتفقه في الكتب التي يدرسها وقد سمى ذلك المعلم بالشيخ [1] ، وقد يباشر الشيخ التدريس في ساعات الصباح الأولى ثم يتحول بعد الغروب إل حلقة علمية يحضر فيها درس أحد كبار العلماء وربما تولى السرد أمامهم .

وأما ألتعليم العالي فهو للتخصص في بعض الفنون مع وجوب ختم كل الأمهات والشروح ، ومقياس التخصص هو عدد المرات التي يختم فيها الطالب كتاباً بلفظ غيره وبلفظه هو ، ومدى إلمامه بخصوصيات ومسائل الفن الذي أقبل عليه ، وكان أساتذة هذا الطور من كبار العلماء وأصحاب الفتيا الذين لهم الشروح الخاصة بهم ، وقد أطلقت عليهم ألقاب كثيرة حسب مكانة كل واحد منهم العلمية أو الوظيفية مثل العالم العلامة الدراكة الفهامة ، حجة الإسلام ، الذي لا نظير له في فنه .

أ) التعليم الأولي والمدارس الأولية [2] :

عندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يدفعه والداه إلى (السيد) قصد تعليمه مبادىء القراءة والكتابة العربية ، وتحفيظه النصف الأخير من القرآن ،

---

(١) السعدى ص ٣٩ ، كان إسم (الشيخ) يذكر في بداية ذكر الأساتذة الذين يأخذ عنهم الطالب فيقال : أخذ أول الأمر عن الشيخ الفلاني ثم حضر مجالس العالم الفلاني .

(٢) ينطبق ما جاء في هذه الفقرة على جميع مظاهر التعليم والمتوسط ، وتعد المرحلتان معاً إعداداً لدخول مرحلة التخصص .

ويجتهد السيد في تلقين الصبي الصلوات الخمس ، ولكن أداءها لا يصبح إجبارياً إلا في سن العاشرة حيث يتعرض الصبي للضرب وأنواع العقاب إذا لم يواظب على تأديتها في أوقاتها[1] ، ويكون الأب هو المسؤ ول عن مراقبة ولده في صلاتي المغرب والعشاء .

واستعان الصبيان بالألواح الخشبية المكتوبة بصبغة روث الدواب التي تزال كتابتها بالماء ، وتوضع الألواح في محلول غضاري أصفر لتعاد كتابتها من جديد ، ويروي كعتو عن شيخه أن مدارس الصبيان كانت تتراوح في بداية عهد المغاربة بين ١٥٠ و١٨٠ كتاباً أو مكتباً ، ثم يذكر أنه حضر مكتب معلم اسمه علي تكريا[2] بعد ظهر يوم أربعاء (وهو يوم دفع واجبات المعلم) ورأى الصبيان يأتون بخمس ودعات أو عشر حسب مقام أسرهم وقد تحصل لذلك المعلم يومها ١٧٢٥ ودعا ، وكانت تلك الرسوم تدعى (حق الأربعاء)[3] .

وتنتهي مرحلة التعليم الأولى عادة بحفظ بعض المبادىء الفقهية وبختم القرآن كله أو جزء منه وتكون حفلة ختم (جزء الرحمان) مناسبة لتكريم الصبي حيث يخرج من الكتاب مع أفراد عائلته وبقية الصبيان تتبعهم الموسيقى والزغاريد إلى البيت الذي يعد فيه الأب وجبة طعام[4] ، أما المعلم فكان يتلقى جائزة هامة هي عبارة عن كسوة أو ٥٠٠ ودعة[5] .

وربما كان المعلمون يجدون صعوبة في تعويد الصبيان على النطق بالحروف

---

(١) C. Monteil P153

(٢) الاسم سوداني

(٣) كان ذلك الكتاب يضم ٢٥٠ صبياً في المتوسط ، ويذكر كعتو نفسه أن عدد الألواح في كتاب عرضه دار أحد الفقهاء كان يبلغ ١٢٣ لوحاً ـ كعتو ص ١٨١ ، لا يزال تعبير حق الأربعاء مستعملاً إلى اليوم في المغرب .

(٤) C. Monteil P153

(٥) المصدر السابق ص ١٥٥

العربية حيث كانوا ينطقون الصاط بدل الصاد والدط عن الضاء ويهملون الياء[1] ، ويخرجون بعض حروف الحلق أو اللسان من أنوفهم[2] .

ولقد كان التعليم بجميع أطواره يجري في المساجد أو الجوامع ، وفي نهاية عهد السونغاي بدأ ظهور الكتاتيب القرآنية ، واتخذت العرصات والدور وبعض المخازن التجارية المهجورة كأمكنة لاحتضان الصبيان المقبلين على التعليم الأولي ، واختصت الدور بتعليم البنات في الغالب فكانت الفقيهات يتولين العناية بهن وحتى ببعض الصبية الذكور[3] ، وفي فصل الصيف كان المعلمون والشيوخ يأتون بالأطفال إلى الساحات الخارجية من المساجد ، وذكر عن الشيخ سيدي يحيى أنه كان يحفظ أطفاله وهو متكيء على صومعة الجامع ، وإذا سقط المطر أدخلهم إلى المسجد[4] .

وكان التعليم في القرى الصحراوية كاروان وولاته إجبارياً على الذكور والإناث من أبناء الزوايا أو البيوتات العلمية ، فإذا بلغ الصبي سن الخامسة يحفظوه الحساب من الواحد إلى العشرة فان تعلم ذلك يدخل الكتاب الملحق عادة بالمسجد ويبدأ دروسه بتعلم الحروف وحفظ الآيات القرآنية ثم ينتقل الصبي إلى القراءات أو تجويد القرآن ثم يبدأ في دراسة المتن على شيخه ، وكان النظام المتبع في الصحراء هو المشاركة أي أن المعلم ينال أجره من التمر أو الحبوب أو الحيوان بعد وصول الصبي إلى مرحلة معينة في تعليمه ، وقد عرف نظام المشارطة هذا في مدن السودان أيضاً واختص به المعلمون والشيوخ الصحراويون[5] .

(١) الشنقيطي ـ الوسيط ـ مصدر سابق ص ٥١٨

(٢) يسمى السعدي الشريفة أو (للا) نانا ، ص ٢٢١٩ ويعود ذلك إلى تأثير اللغات السودانية .

(٣) الشنقيطي المكان السابق

(٤) السعدي ص ٥١

(٥) الشنقيطي المكان السابق

ب) التعليم العالي وأماكنه :

لم يكن هذا التعليم الذي كان يتم في الجوامع قاصراً على الطلبة ، بل كان في إمكان المستمعين أن يأخذوا أماكن لهم في الصفوف الخلفية للحلقة . وتحت أعمدة الجامع كانت تنصب كراسي لجلوس الأستاذ وهي أعلى من كراسي الوعاظ والفقهاء ، ومن عادة الأستاذ المدرس أن يضع رجليه على درجة للكرسي كجلوس الإمام على المنبر ، ويمسك طرف عمامته بيده اليمنى ، ويشير به إلى طلبته أو يحك به ذقنه ان استعصى الفهم على بعضهم"[1] ، فلم تكن العادة أن يستعمل الأستاذ القضيب كما هو شأن المعلم والشيخ ، ويجلس الطلبة على شكل نصف دائرة يوضع كرسي المدرس في مركزها ، ويجلس قبالته مباشرة أنجب الطلبة يسرد النص فقرة اثر فقرة فيتولى المدرس الشرح والتعليق على النص الملقى ويسمى ذلك الطالب (المسرد) ، وقد يكون المسرد عالماً أو فقيهاً تطوع لذلك العمل ، وربما يتم السرد في بعض الأحيان حتى بدون حضور الأستاذ إذا كانت الغاية هي حفظ النص أو تلاوة السيرة النبوية أو الشفا للقاضي عياض ، وذكر السعدي أن العالم (اندو بن المختار) وكان ضليعاً في علوم العربية تولى لعدة سنوات سرد كتاب الشفا في مسجد سنكوري وقد خلفه ابنه عبد الله في ذلك"[2] ، ولتواضع بعض العلماء فقد كانوا يسردون أمام من هم أعلى منهم قدراً أو أغزر منهم علماً أو أكثر منهم معرفة لفن لا يعرفونه هم"[3] .

وكان الأساتذة يفتحون باب المناقشة مع طلابهم في النوازل ويمتحنونهم فيما تعلموه في نهاية كل درس ، واعتبر صبرهم على تبليغ أدق المسائل ولجوءهم لأبسط الطرق في ذلك من مستلزمات نجاح الأستاذ وشدة تمرسه بمادة التدريس ، وكان

---

(١) كريم (نقلاً عن كتاب تنبيه الولدان) ص ١٦
(٢) السعدي ص ٢٩
(٣) كعتو ص ٢٢ وص ٥٤

بعض المدرسين يطلب من تلامذته تسجيل النقاط الجديدة والأفكار والملخصات فيثبتون ذلك في هوامش الكتاب أو في دفتر خاص ، وحيث كان كل أستاذ يدرس أكثر من مادة واحدة وقد يلقي دروساً من كتاب يدرس منه أستاذ آخر في ذات الوقت فإن الطلبة دأبوا على اختيار المدرس وحلقة الدرس المناسبة لهم ، ولذلك كانت بعض الحلقات تكتظ بالمتعلمين بينما لا يحضر بعضها الآخر سوى نفر قليل منهم ، وكان من شروط الأستاذ الناجح حسن التوضيح ، والابتعاد عن التكرار وعدم الحرص المبالغ فيه على تحقيق النقل وإيراد الأسانيد[١] ووضوح الصوت والمواظبة على الدروس .

ولقد اعتبرت جميع مساجد المدن السودانية أمكنة للتدريس ، ولكن شهرة جامع سنكري أو سنكوري في تنبوكتو ضاهت شهرة جامعتي القرويين والزيتونة في فاس وتونس ، وكان ذلك الجامع بمثابة جامعة لافريقيا السوداء[٢] وقد بنت ذلك الجامع سيدة ثرية من قبيلة الأغلال من جبال أدرار الصحراوية[٣] ونظراً لتهافت الطلبة واتساع حلقات العلم فقد شهد المسجد توسيعاً أكثر من مرة ، وكان يأتي بعد جامع سنكوري جامع سيدي يحيى (وهو عالم مغربي من سوس بنى المسجد في جوار قبره) . ثم جامع خالد الذي درس فيه شيوخ التعليم المتوسط في الغالب ، وقد عدد كعتو جملة من المساجد الصغيرة التي لم تكن الدراسة فيها منتظمة[٤]، ومما يلفت النظر أن بعض الحلقات الدراسية كانت تعقد في الهواء الطلق خارج المدينة ، أو في المشور إذا رغب الباشا في سماع درس من الدروس[٥] .

---

(١) كريم ـ المكان السابق
(٢) M. Delafosse Haut T. 2 P346
(٣) السعدي ص ٦٢
(٤) كعتو ص ٣٨
(٥) السعدي ص ٢٩٧

جـ) الإجازات :

إن شهادة التخريج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج ، ولقد وجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة ، وهي : شهادة السماع وتعني أن الطالب تتبع أقوال العالم وحفظها ، وشهادة العرض أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره للنصوص ومعرفته بشروحها ، ثم الإجازة الكاملة وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون .

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً ولكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً ، ويلاحظمواظبتـه على تلك المادة واهتمامه بها ، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد ، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها[1] .

ولا تعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد : فلم تكن شهادة جماعية ، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متمايز ، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها .

تتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأن طالبه حضر عليه مواد متعددة ولكنه برع في مادة خاصة ، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يجوز له ان كانت

---

(١) السعدي ص ٤٦

للمدرس كتب من تأليفه وما يجوز له عن غيره ان كان الكتاب من وضع شخص آخر[1] .

ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على الانصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيوعو السالفة الذكر ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقري في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات ، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في ١٥ ربيع الثاني عام ١٠١٠ (١٣ أكتوبر ١٦٠١) .

ولقد تشابهت الإجازات في السودان والمغرب بفعل الاتصال بين علمائهما وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم ، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبوكتو وفقهاء المالكية السودانيين أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين :

إجازات خاصة تهم فناً أو عدة فنون متحدة الموضوع ، وإجازات عامة تشمل فنوناً وعلوماً متباينة ، ويقع النص على كل نوع في نص الإجازة نفسها ، ومن أمثلة النوع الأول الإجازات القرآنية والحديثية ، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف الروايات الحديثية ، أما الإجازات العامة فهي تقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين ، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب .

وقد أعطيت الإجازات مباشرة أو أرسلت لأصحابها أن لجأ الطالب إلى مراسلة أستاذه الذي لم يتمكن من مقابلته ، مع وجوب أن يكون الأستاذ عارفاً

---

(١) ان أول إجازة قرأنا عنها هي التي نالها العالم محمد بابا بن محمد الأمين المختار من الفقيه السوداني عبد الله بن أحمد بوريو ، وكانت حول كتابي الشفا والبخاري ، السعدي ص ٢١٨ .

بباع الطالب ونبوغه وبعد إطلاعه على تآليفه ، وقد ذكر حجي أن أحمد بابا السوداني وجه في أخريات حياته إجازة عامة للعالم المغربي عبد الرحمان التمنارتي الذي سبق له أن تعرف به بمراكش وكان التمنارتي قبل حصوله على الإجازة قد ولي القضاء واشتهر بالافتاء والاجتهاد[1] .

د) الكتب والمكتبات :

إعتنى السودانيون باقتناء الكتب واستنساخها وتملكها ، واستوى في ذلك الملوك والعلماء والتجار الذين لم يفرطوا في متعة تكوين خزائن في بيوتهم ، وذكر كعتو أن الأسكيا داود كان سلطانا مهيبا فصيح اللسان وانصرفت همته إلى مهاداة علماء تنبوكتو بالكتب التي كان له نساخ ينقلون له أمهاتها ومشاهيرها وأصبحت له خزائن من وراء ذلك[2] .

ومع إتساع الحركة الفكرية في نهاية القرن السادس عشر ،واتساع استيراد الكتب من المشرق والمغرب وتشجيع الحكم المغربي بعد قيامه بالسودان على الترويج للثقافة العربية ، وتوفر الورق[3] وزيادة عدد المتعلمين أصبح الكتاب يلاقي رواجا كبيرا فيقتنيه أكثر الناس للانتفاع به أو للتبرك أو للزينة ، وكانت أثمان الكتب مرتفعة بالقياس إلى مراكش أو فاس ، وأغلى الأثمان كان يدفع في الكتب المغربية مثل المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي مع شروحها .[4]

---

(١) حجي ـ مصدر سابق ج ١ ص ١٠٨

(٢) كعتو ص٩٤ ، وقد بيعت نسخة من قاموس عربي في عهد الأسكيا داود بـ ٨٠ مثقالا نفس المصدر ص ١٠٨

(٣) كان في فاس أكثر من مائة معمل لصناعة الورق وفي مراكش أكثر من ذلك العدد .

(٤) أنظر Ch. André Julien « Histoire d'Afrique du Nord » Payot . Paris 1952 T. 2. P: 122

(٥) زبادية

(٦) زبادية ـ ممالك ص ١٤٨

وكانت أهم مكتبات السـودان هي التـي امتلكهـا آل آقيت ، فقـد إقتنـوا معظمها من التجارة ومما كان يجلبه الحجاج معهم من المشرق ، ويبدو أن قسما مهما منها قد وجهه الباشا محمود إلى المغرب ، ولكن تلك الكتب أعيدت لأصحابها أو بيعت واستقرت في الزوايا والخزائن الصحراوية ، وقدر أحمد بابا مؤلفات مكتبته التي كانت أقل من مكتبات أسرته كتبا وأهمية بألف وستمائة مجلد ، ونجد في كتب التاريخ السوداني ذكرا للخزائن التي إمتلكها أكثر العلماء من أمثال بوغيوعو ومحمد بن محمود آقيت الذي كانت مكتبته بمثابة خزانة عامة يستعير منها الطلبة والقراء ما يشـاؤون من الكتب [1] .

واعتنى أهل الصحراء بجمع نوادر الكتب في قراهم وواحاتهم مثلما فعل أهل سوس وأهل السـودان ، وقـد شاهـد السـوسي مخطوطـا لمحمـد الحضيكي صاحب الطبقات يتضمن معلومات عن خزائن السعديين في الجنوب المغربي ونقل عنه القول بأن السعديين » بعد أن تسلموا مقاليد المغرب والصحـراء والسـودان صرفوا عنايتهم لجمـع الكتـب العلمية من أقـاصي السـودان إلى أقـاصي المشرق وصانعوا علماء مصر والحرمين وأمراءها على إرسال الخزائن العلمية كما صانعـوا نصارى إسبانيا لذلك أيضا » . . . ولا سيما أيام المنصور الذهبي الذي إنقادت له ممالك المغرب وممالك السودان إلى نيل مصر » « ولما قام الثائر الفقيه العلامة أبو محلى عام ١٠١٩ (١٦١٠) على الدولة الزيدانية في الجنـوب ودنـا من مراكش نقـل السلطان بابا زيدان بعض خزائنه الملوكية ومـن جملتهـا ستـة وثلاثـون حمـلا من الكتب [2] .

ويذكر السوسي في مجلده الثاني عشر من المعسول تاجرا إسمه سيدي إبراهيم

---

(١) أحمد بابا ، نيل الابتهاج ص ٣٤١ كان محمد بن محمود « جماعا للكتب وافر الخزانة ، محتوية على كل علق نفيس سموحا باعارتها » .

(٢) السوسي ـ المعسول ج ٣ ص ٣٣١

البصير ذهب إلى السودان ووجد في طريقه قرية من عدة أكواخ عثر فيها عل كتب كثيرة وتدعى تلك القرية شمامة [1] .

ومن المكتبات المهمة بالصحراء المكتبة المسناوية بتيكورارين التي كانت تضم في العهد السعدى كتبا من السودان والعراق والحجاز واليمن ومصر والمغرب [2] ، ومكتبة الشيخ ماء العينين بالسمارة التي رأى السوسي فيها « مخطوطات صحراوية وشنكيطية وسوسية وسودانية وفاسية » [3] .

٤) التصوف والحركة الاصلاحية

إرتبط التصوف في بلاد السودان بالتصوف الاسلامي العربي منذ بدايته وتأثر بنظريات المتصوفين الأندلسيين والمغاربة منذ عهد الغانيين ، وقد تأثرت مناطق السودان الغربية بالرباطات التي أدخل المرابطون فكرتها إلى تلك الجهات وغدت الفكرة الصوفية ترتبط بالعمل الجهادي وبالتطلع إلى الحكم لاقامة حكم إسلامي مرتكز على الكتاب والسنة ، وفي عهد الماليين تسللت إلى الصوفية عناصر متوسطة العلم اهتمت بالسلوك أكثر من الفكرة ، فتحول رجال التصوف إلى أولياء تنسب إليهم الخوارق والكرامات .

واذا كنا لا نعرف أن كتب الفلاسفة والصوفية قد وصلت جلها إلى السودان [4] وأحدث بعضها ما أحدثه في المغرب من صراعات تمثلت في مقابلات

---

(١) المصدر السابق ج ١٢ ص ١١٢

(٢) حجى ص ١٩٣

(٣) السوسي ـ المعسول ج ٣ ص ٣٢٧

ويذكر (Georges Maris O. P .Cit P 189) أنه شاهد مخطوطات نادرة في خزائن كثيرة بالسودان وقد نقلها الفرنسيون بعد ذلك إلى دكار وفرنسا .

(٤) لقد وصل كتاب المدارك للقاضي عياض السبتي / المراكشي إلى السودان في العهد المغربي وهو كتاب يترجم لطبقات المالكية ويذهب إلى أن صفتى التبتل والزهد إتصفت بهما تلك الطبقة ووصل إلى

إتسمت بالعنف بين المؤ يدين والمنكرين ، فاننا نلاحظ ما وصلنا عن الزهاد والنساك السودانيين أن الانحراف عن مبادىء الصوفية البريئة كان هو القاعدة ، ولا شك أن إمعان الشعوب السوداء في تصديق الخرافات القديمة وتسليمها بالخوارق قد ساهم أيضا في الاساءة إلى المعنى الحقيقي للصوفية ، ولم يخل أي مصدر سوداني من تراجم وأحداث تظهر طبقة من الناس بمظهر التبتل والتقشف والزهد ، كما أن الحديث عن الربط والزوايا يتردد في تلك المصادر بشكل لا يحمل على الشك بأن الحركة الصوفية في السودان سارت بنفس القوة التي عرفها المغرب وان بدا عليها نوع من الشذوذ يجده المتصوفة على العموم خروجا عن الصوفية الحقة .

إن حالة الفساد التي عمت الطبقة الحاكمة في آخر عهد السونغاي حتى وجدنا كعتو يندد بما أتاه الملوك من الفسق والتزوج بالأخوات ثم نمو الروح الجهادية ضد النصارى الذين كانوا يحتلون سواحل المغرب والسودان من جهة أخرى ، قد أديا في أواخر القرن السادس عشر إلى بروز طبقة من المتصوفة أغلبهم من أصل مغربي نادوا بتغيير المنكر وتساند المسلمين والاعتناء بالدين ومن أبرزهم سيدي يحيى ، والمغيلي وبعض علماء آل آقيت ، وكان أولئك المفكرون يتجولون في البلاد داعين الى مناهضة الكفار وتجنب الفساد والرجوع إلى جادة الشرع ، ويذكر أحمد بابا في ترجمته لأبي بكر بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت وكان أستاذه في النحو ونال بركته بأنه كان من أغنياء تنبوكتو « فرفض الدنيا والرغبة في زهرتها مع ما أوتي أهل بيته حينئذ من الرئاسة والدولة ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في معناه ، وله تآليف صغار في التصوف، وغيره و (معين الضعفاء) في القناعة » [1] .

السودان أيضا كتاب التشوف إلى رجال التصوف لأبي يعقوب التادلي المعروف بأبي الزيات وقد ترجم لمن كان بمراكش من الكبراء والصالحين ، وقد مر معنا ذكر التأليفين في الفصول السابقة .

(١) أحمد بابا ـ نيل الابتهاج ص ١٠٢

وقد كان للعلماء في نهاية القرن السادس عشر نفوذ على العامة لا يصدق ، ولكنهم فضلوا نصح الدولة ودعوتها للاهتمام بالدين دون نضال ، غير أن قبيلة جزولة التي كانت منتشرة في الصحراء على مشارف السودان وسوس نهضت بالجهاد ضد السعديين لحملهم بالسيف على تغيير المنكر ، وانطلقت حركتها من الزوايا والربط التي كانت منتشرة في كل ربوع الصحراء [1] ، ولقد كان بعض رجالات السودان يقصدون إلى تلك الزوايا ، فذكر السعدى أن الأمين القائد عبد القادر العمراني ، وكان يشعر بالكآبة والغم هرب إلى زاوية سيدي على بسوس « لما رأى الخلل والفساد والرذيلة فيهم (في الحكام المغاربة) فلقيه المرابط سيدى على صاحب الساحل بالخير والاكرام وسكن عنده في عز ومنعة » [2] .

إن نظرة السودانيين إلى الزوايا والمريدين كانت نظرة تقديس وتقدير ، فاتخذت الأضرحة في تنبوكتو وغيرها أمكنة للذكر والتهجد والاعتكاف الأمر الذي عارضه المصلحون كما عارضوا تحويل المساجد إلى مقابر ، ولم تخل حلقات الذكر في الأضرحة من الشعوذة التي إختلطت بأفكار أبناء القبائل السوداء فنسبت الكرامات للمتصوفة والزهاد ، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده كعتو عن ضريح « الفع (الفقيه) محمد تولو في حند بير يأتيه صاحب البرص والجذام فيشفيه الله فيه » [3] وما ذكره السعدى عن « الولي الصالح التقي الفاضل صاحب الكرامات

---

(١) من أهم الزوايا والربط في بداية القرن السابع عشر الزاوية المصلوحية ومؤسسها سيدى عبدالله بن حسين المتوفى سنة ١٥٦٩ والزاوية الجزولية التي أنشأها سيدى أحمد بن موسى المتوفى عام ١٥٦٣ م ، والزاوية العيساوية المنتسبة لسيدى محمد بن عيسى المهدى السملالي ويقال بأنه من أولاد أبي السباع وقد عرفت طريقته الشاذلية رواجا في مجموع الشمال الأفريقي وقد توفي المؤسس عام ١٥٣٤ (المراكشي - الاعلام مصدر سابق ج ٤ ص ١٤٧) وزاوية الشراقة المنتسبة لسيدى أحمد بن يوسف الراشدي المتوفي عام ١٥٢٣ وقد مر معنا أن عددا من هؤلاء الشراقة قد أتوا مع جؤذر باشا ضمن حملته ، وزاوية سيدى على بسوس التي كان لها شأن في نهاية الدولة السعدية .

(٢) السعدى - ص ٢٢٥ و ٢٥٦

(٣) السعدى ص ٢١٦

الفقيه على سل الولاتي . . لما أصلح القاضي العاقب المسجد القديم هدم قبره ولا يعرف أنه هنالك ، فظهر وما تغير من جسده ولا من كفنه شيء فوضع عليه العلامة شيخ الاسلام الفقيه محمد بغيوعو الونكرى برنسه حتى سوى القبر وبنى عليه » [1] ، وقد تحول أحد علماء السودان من التدريس إلى الصوفية وعرف باسم عريان الراسي لأنه أزال العمامة وأطال شعر رأسه ، وقد « لازم بيته ولا يخرج ولو إلى الجمعة ، ولكن لعذر والله أعلم بذلك ، واشتهر عند الناس بالولاية فزاره من الباشوات وغيرهم واشتهرت بركته عند العرب وقصدوه بالنذور والفتوحات ، لا يفارق بيته ، حاسرا حافيا ليس له بواب » [2] وقد توفي هذا الصوفي في ٢٨ ذي القعدة ١٠٢٧ (٢٨ دجنبر ١٦١٧) .

غير أن الاتجاه العام للحركة الصوفية في السودان لم يتعد السلوك الفردي والزهد في الدنيا والاقبال على الأذكار والانقطاع عن الناس الى التدخل في الشؤون العامة ، وكان المتصوفة السودانيون، ينظرون إلى قيام الزوايا الصحراوية والسوسية على الكرسي الخلفي السعدى في مراكش فتنة كبرى وخروجا عن الدين ، وقد وصف علماء السودان ثورة الصوفي سيدي أحمد بن أبي محلي[3] ضد السلطان وتقدمه إلى مراكش عام ١٦١٣ بالفتنة العظيمة والمحنة الجسيمة التي شتت الشمل وبتت[4] الأصل والفصل . . دخل أصحابه المدينة وأفسدوا وأبرزوا الحرائر من

---

(١) السعدى ص ٢١٦

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠

(٣) ولد في سجلماسة عام ١٥٥٩ وينسب نفسه إلى العباس بن أبي عبد الله بن عبد المطلب درس بفاس وتحول إتجاهه العلمي إلى التصوف ، وكان يراسل القبائل في أنحاء المغرب ويحثهم على إتباع السنة ويسمي نفسه بالمهدى المنتظر ، وضع تآليف في التصوف منها : الأصيلت الخريت ومنجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور (يراجع إبن سودة دليل مؤرخ المغرب ج ١ ص ١٥١ ومخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم ٣٣٠ / ق ص ١٢٨ .

(٤) كذا في الأصل .

الخدور وجردوهن وفعلوا فيهن الفواحش مثل ما فعل محمود بن زرقون بديار أولا سيدي محمود سواء بسواء جزءا وفاقا » [1] .

ويعود الفضل لارباب الزوايا والمريدين السودانيين في نشر التعاليم الاسلامية بين رجال القبائل الوثنية وادخال اللغة العربية إلى جهات بعيدة ، فأصحاب الطرق كالتيجانية والبكاية القادرية لعبوا دورا ثقافيا ودينيا في الجهات التي لم يصلها العلم أو ظلت بعض قبائلها على الوثنية ، بالقدر الذي تطوعوا في تعليم الكبار بالمدن ممن لم تتح فرصة التعليم الأولى [2] وقد بلغ بعض أولئك الرواد شأوا بعيدا في ذلك وأقيمت الأضرحة على قبورهم في أماكن نائية بأفريقيا السوداء [3] .

وهكذا فان الحركة الصوفية الصافية المستهدفة نشر العقيدة الصحيحة ، وتوحيد المسلمين للوقوف في وجه المد الاستعماري لم تظهر إلا في وقت متأخر ، وقد تسلح المريدون حينئذ بالسيف لمحاربة الأجانب وبالسبحة لمقاومة أهواء النفس والرجوع إلى الجادة [4] ، واذا كانت تلك الطرق قد تأسست في وقت سابق فانها لم تشهد إزدهارا وشيوعا إلا في نهاية القرن السابع عشر ،فالقادرية التي دخلت السودان في أواخر القرن الخامس عشر على يد مهاجرين من توات واستقرت أول ما استقرت في ولاتة لم تنتشر إلا على يد الشيخ محمد فضيل وهو صاحب فرع القادرية

(١) السعدى ص ٢٠٥

(٢) C . Monteil P 154

(٣) كان ضريح سيدى محمود فودى في مجاهل مسينا يقصده الباشوات والقواد للتبرك ويدعون فيجاب دعاؤهم ، السعدى - ص ٢٢٨ .

(٤) كان دور الزاوية القادرية البكاية التي نهضت بها قبائل كنتة شمال وغرب تنبوكتو والزاوية التيجانية المنطلقة من فاس نحو السودان والتشاد ونيجيريا من أبرز ما نجده في النشاط الصوفي بتلك الجهات ، وقد أدى التنافس بين الزاويتين في بداية القرن التاسع عشر إلى حرب بين كنته البكاية والفولبيه التيجانيين بمن معهم من الولوف والسرير إلى إنحطاط أمر تنبوكتو وتضعضع كنتة والتوارك وقيام وحدة سودانية على أساس الصوفية ، يراجع :
general Bonnier « L'Occupation de Tombouctou Paris 1929 PP 15 — 16

المعروف بالفضيلة وأحمد بامبا صاحب الفرع المسمى المريدية [1] .

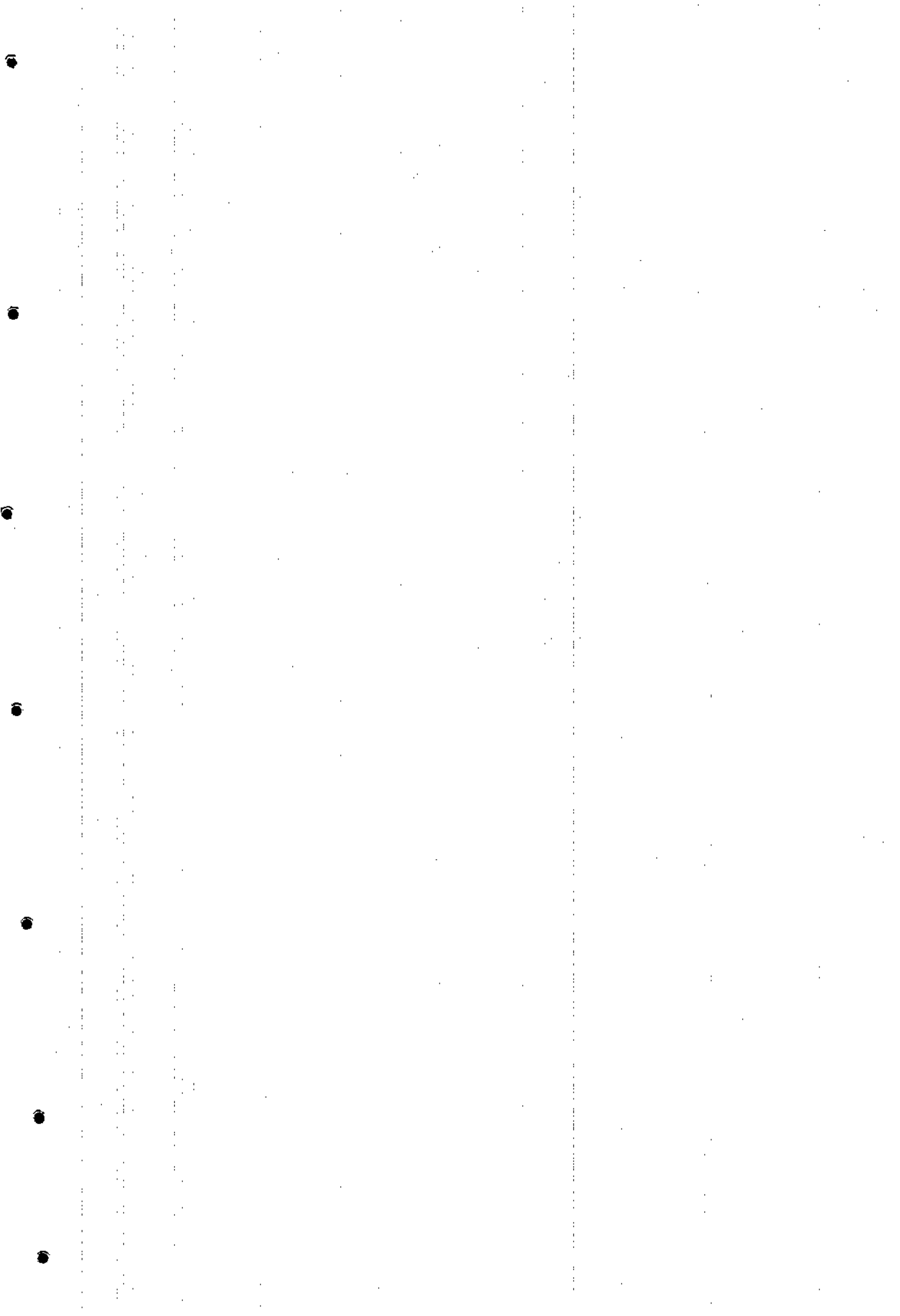
أما التيجانية فقد أخذت شكل الربط في غرب السودان ثم حولها الحاج عمر مفوتي إلى حركة مسلحة وكان المريدون يتلقون العلم والتدريب على السلاح في أكثر من زاوية أو رباط ، وقد خلفه ابنه إبراهيم بعد موته في إحدى الغزوات عام ١٨٦٥ . لقد درس إبراهيم مفوتي بمراكش واشتغل بالعلم فيها كمدرس ، واعتبر بيته منتدى للوزراء والعلماء ، وكان يذهب مذهب المتصوفة على طريقة ابن العربي الحاتمي ، وعد في المغرب وبعد رجوعه إلى السودان من اعلام الطريقة التيجانية ، ولقد شهدت المنطقة في ذلك الوقت حركة للهجرة من المغرب إلى السودان لنشر الطرقية بأصقاعه[1] ، ولعب الحجاج دوراً هاماً في ذلك كما لعبه كتاب (دلائل الخيرات) في نشر التيجانية بأرجاء السودان ، لقد أدى كل ذلك إلى حمل الناس على الاتجاه إلى الله والابتعاد عما شاب الدين من عادات وتقاليد وثنية ، والتوجه إلى الجهاد بروح صافية ورغبة حقيقية في الشهادة .

ويجب أن تعتبر أن الصوفية بافريقيا كانت مدرسة حقيقية للإصلاح ولمحاربة الأجنبي ، وظلت وإلى اليوم تحمل مشعل الثقافة الإسلامية العربية .

---

(١) محمد بلو - إنفاق الميسور في أخبار بلاد ' تكرور ، مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم ٢٣٨٤ / ٥ ص ٢٠٣ .

(٢) الناصري - ج ٤ ص ٦٤



الفصل التاسع

التطور الحضاري

ملامح المجتمع السوداني في بداية القرن السابع عشر

١) الحياة الاجتماعية

أ ـ المدن والحياة الحضرية ـ تنبوكتو ـ دييني ـ غاو

ب ـ الحياة في القرى

جـ ـ الحياة القبلية : الشعوب الزنجية المترحلة التوارك ـ كنتة والبرابيش .

٢) الطبقات الاجتماعية :

الطبقة الأولى

الطبقة الثانية

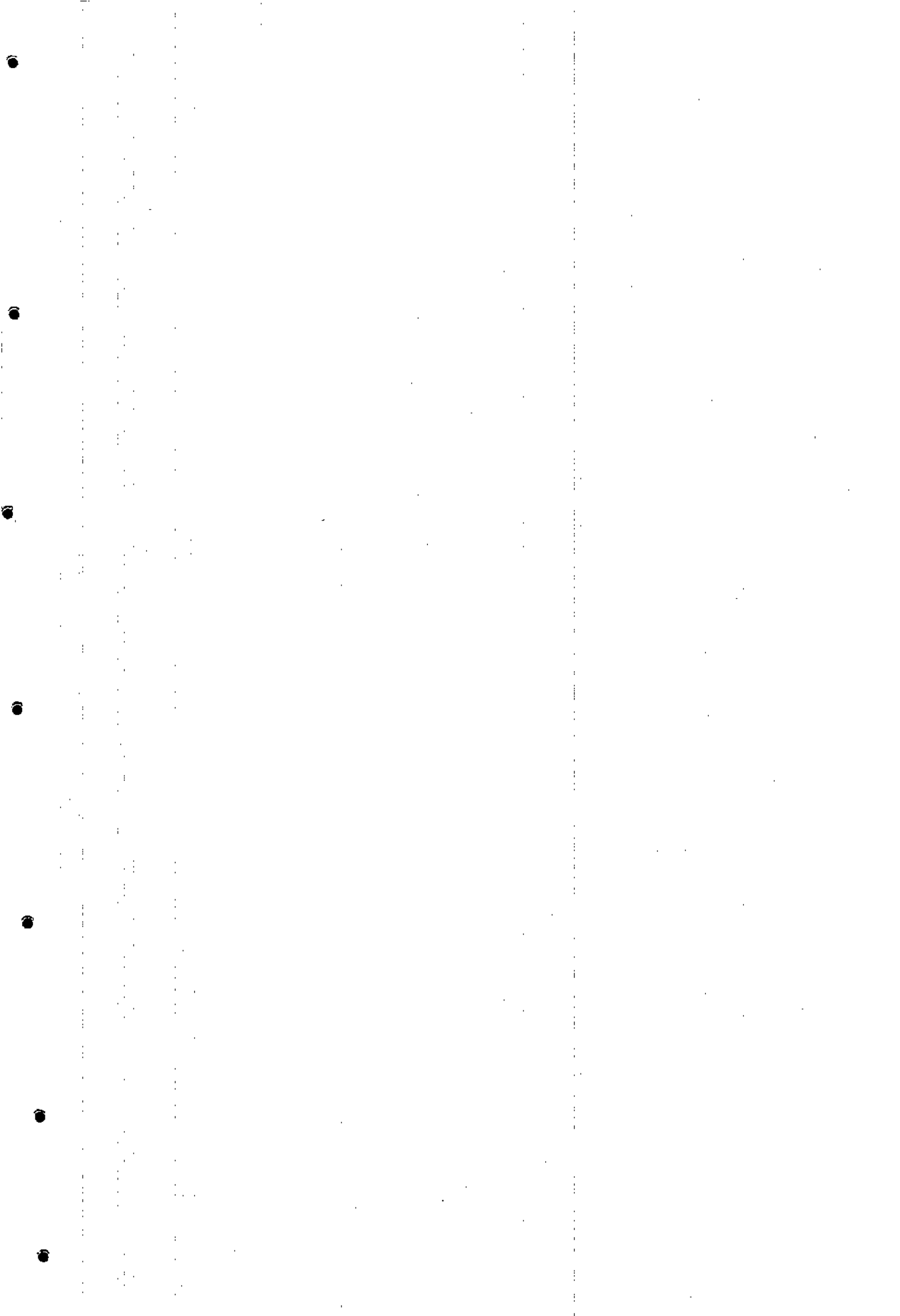
الحرفيون والعبيد

اليهود

٣) عادات المجتمع الحضري : اللباس والهندام ـ الطعام والشراب ـ الفنون ـ الأعياد والحفلات ـ أثاث البيوت .

٤) الفن المعماري السوداني ـ المغربي :

البيوت ـ مواد البناء ـ الهندسة المعمارية ـ المساجد



١) ملامح المجتمع السوداني في بداية القر ن السابع عشر

كان تأثير الإسلام والعلاقات الإنسانية التي واكبت التجارة عبر الصحراء ، والهجرات البيضاء نحو الجنوب والدفق الحضاري المغربي قوياً وعميقاً ، وقد نفذ ذلك التأثير إلى البنية الأساسية للمجتمعات ، بنفس القدر الذي غير العلاقات فيما بينها وطبع المظاهر الحضارية والعادات بالطابع العربي الإسلامي .

لقد وجد الإسلام منذ الأعوام الأولى للفتوحات سنداً أكيداً في القبائل البربرية التي تقدمت نحو المجاهل الإفريقية قبل ذلك الوقت ، كما أن القوافل التجارية على مر الأحقاب قادت الدعاة والمعلمين المسلمين إلى دروب افريقيا وسهلت بالقدر الذي لا ينكر الإشعاع الحضاري بتلك الجهات .

وإذا كان الإسلام قد ساهم في التطور السياسي والاقتصادي للمجتمعات السودانية فإنه زعزع النظام القبلي الذي كان يقوم على العلاقات العشائرية والولاء للزعامات القبلية وأدى الحال إلى أن تصبح الفكرة والقيم وليس الشخص محور التجمع العضوي للعشائر والمجتمعات ومكان التقائها ووحدتها ، ولم يسع الإسلام إلى هدم الأسس السابقة وتقويض القيم وجل العادات الإفريقية القديمة ، بل عمل على أن تلائم الدين الجديد بحيث تنتهي عما ينهي عنه ، وتلتزم ما يشير به ، وقد شهدت افريقيا ما لم تشهده أكثر البقاع الإسلامية الأخرى إحتكاكا بين

التقاليد المحلية والأحكام الجديدة أدى إلى ملاءمة وانصهار بينهما وإلى ظهور المجتمع الزنجي الإسلامي ذي الخصائص المتميزة .

ولا شك أن الدين الذي حمله العرب والبربر على السواء قد وجد أولى العقبات عندما سعى لتبديل بناء الأسرة ، وتدخل في مواضيع الزواج والإرث بصفة خاصة ، ولكن الإنسان السوداني كان يرغب في حسنات الدين الإسلامي دون التنازل عن المكاسب التي كانت تتيحها له الوثنية ، ومن أجل ذلك فإن المسطرة النموذجية للإسلام لم تطبقها الشعوب التي أسلمت إلا في نطاق محدود ، وكان هناك تمييز بين سكان المدن وسكان الأرياف فيما يتعلق بأوجه ذلك التطبيق ، ويمكن في بعض المناطق أن نتأكد من أن الثقافة والآداب الإسلامية لم تمس في العمق إلا الحواضر والقرى الكبيرة .

وبشكل عام فإن الصلات الثقافية بين السودان والمغرب ابتدأت منذ دخول الإسلام إلى افريقيا ، ولكنها لم تأخذ في التأثير على المجتمع الإفريقي إلا في عهد المرابطين الذين اعتبرت حركتهم الإصلاحية ورغبتهم في إيصال الحضارة المغربية الأندلسية إلى مجاهل القارة دفعاً جديداً وقوياً في انتقال الإسلام إلى أبعد الجهات وتدشيناً للعمل الحضاري العربي الذي عم الغرب الإفريقي فيما بعد .

ولقد أنجب السودان فقهاء وعلماء أغلبهم من البربر أغنوا العلوم الشرعية والأدبية بمؤلفاتهم وكونوا أجيالاً حملت على مر القرون مشعل النهضة العربية بالسودان ، وقد استقطبت أولئك العلماء مراكز ثقافية ظهرت في الصحراء أولاً وفي مقدمتها بيرو وولاته ثم عمق السودان مثل تنبوكتو وغاو ودييني وكانو .

وحدث تطور مهم آخر أسهم في التغييرات الاجتماعية والحضارية أيضاً وهو وصول القبائل العربية المهاجرة من المشرق عن طريق المغرب إلى الصحراء وأطراف السودان وقد دفعت تلك الهجرات القبائل القديمة من الزنوج والبربر نحو

الجنوب ، وقد أدى ذلك الامتداد العربي إلى نقل اللغة العربية والتقاليد العربية إلى السودان الذي لم يكن يعرفها أو تعلمها على ذلك القدر الكبير الهام .

أما العامل الثالث الذي أثر في التطـور الاجتماعـي والحضـاري بالسـودان بالإضافة إلى مجيء المرابطين وتوافد العلماء ، فقد تمثل في العمل التجاري الـذي نسب إليه بعض المؤ رخين ما عرفته أقاليم السودان من ازدهار حضاري وتطـور سياسي واقتصادي[1]، وذلك لما أتاحته القوافل من فرص الإطلاع على العـادات والمصنوعات الحضارية في حوض البحر المتوسط ، وما أدخلته من طرق جديدة في الزراعة والصناعة وفي استخدام النقد والأوزان والمكاييل والمقـاييس العـربية ثم لمواكبة اللغة العربية تلك القوافل وولوجها ميدان المعاملات والعلاقات الاجتماعية حتى أصبحت لغة مشتركة لا يمكن الكتابـة أو التسـجيل بغيرهـا ، وقـد كانـت الجاليات المغربية والعربية في مدن السودان مهمة من حيث النوع لا من حيث الكم وتمثلت في أسر تجارية أو علمية سكنت في مدن السودان فقط ، وكان بعضها يتوطن البلاد بينما يعود البعض إلى مساقط رأسه في الشمال ، ولكن مع نهاية القرن السادس عشر وصلت مجموعات كبيرة من المهاجرين المغاربـة مع الحمـلات أو في أثرهـا واستوطنت الحواضر والبوادي ولم يكن يهزها الحنين إلى وطنها ، وبسبب إقبالها على الزواج من نساء زنجيات ، فقد ظهرت أجيال جديدة مختلطة أطلـق عليهـا المؤ رخون اسم الأراما[2] ، وكان ذلك الاسم يطلق في المغرب نفسه على من انحدر من الموسكيين بعد إقامتهم في المغرب[3] .

لقد برزت بالفعل في الغرب الإفريقي حضارة مغربية عربية امتدت من

---

(١) F. Dubois «Tombouctou la mysterieuse» Paris 1897 P263.

(٢) مشتق من الرامي أي الجندي المغربي

(٣) General Boinnier «l'Ocupation du Tombouctou» Paris 1926 P14. Lenz P.153.

العمارة وتخطيط المدن وتقديم الخدمات فيها إلى العادات الاجتماعية من لباس وطعام وشراب ومسكن ، وقادت إلى رفاهية عرفتها أغلب مدن السودان وبواديه ، وكان الأمر من الأهمية والعمق حتى أن بعض المؤرخين شبهوا ما حدث في السودان بالاستعمار الفكري انطلاقاً من أن تغيير مفاهيم الناس وأساليب حياتهم أتيا عن طريق القهر والاستيطان معاً[٣]، وعزا بعضهم الآخر ذلك إلى خواص المكان وجاذبيته ، فالصحراء وأطراف السودان كانتا بحسب ذلك مصدر جذب للعربي مع ما حمله معه من حضارة ولغة على نفس الدرجة من محبة ذلك العربي نفسه إلى رمال الجزيرة العربية التي قدم منها ، ومن دون شك فمن الملاحظ أنه لم توجد عراقيل كثيرة في طريق تغلغل الدين واللغة والتقاليد ورسوخها في قلب افريقيا ، وكأن المستوطنين والقادمين كانوا على موعد مع تلك الربوع[٤]، وقد بدت تنبوكتو لبعض المؤرخين الأوروبيين وكأنها لم تعرف في تاريخها قط غير الثقافة والحضارة العربية[٥]، كما ترجع للبعض الآخر أن تصالب المغاربة مع النساء الإفريقيات وضح الدور الكبير للمغاربة في مسينا في قلب النظم الاجتماعية وتغيير المفاهيم الفكرية والاقتصادية والسياسية ، وفي بناء الأسرة والمجتمع على أساس جديد[٦].

ولم يكن هذا التطور الذي استوجب عدة أجيال قبل أن يحدث ينصرف منذ القرن الحادي عشر إلى مجتمع المدن فقط بل أخذ طريقه إلى البوادي ولكن باتزان أكبر وعمق أقل ، وإذا كان الاتصال عن طريق المساكنة والزّواج يبدو مع ذلك ضعيفاً فإن اللغة العربية استطاعت لا أن تفرض نفسها كلغة وحيدة ، ولكنها أصبحت اللغة الأكثر انتظاراً واستعمالاً ، وغدت إلى جانب الدين المظهر الأساسي

---

(١) A. Guilley «l'Islam dans l'Afrique occidentale Paris 1952 P30.

(٢) M.A. Cherbonneau. O.P cit P41.

(٣) Gerges Maris. O.P. cit P189.

(٤) Monteil P84.

لوحدة المجتمع السوداني ، ولقد أقام الجنس الأسود في غرب افريقيا البرهان على أنه لم يكن يوجد في آخر السلم البشري[١] لأنه وجدت بالفعل حضارة فاعلة متحركة قامت بعمل تأهيلي للزنوج أكثر عمقاً وإشراقاً مما حصل قبل المغاربة أو مما عرفه الحكم الوطني في عهد الشيخ احمادو في نهاية القرن الماضي[٢] .

ولقد قيل الكثير عن مظاهر الرفض السوداني للحضارة العربية المغربية ، وكان الانطلاق في تلك الاجتهادات من المقاومة المتوالية التي قابل بها الغانيون والماليون والسونغاي الوجود المغربي سواء كان ذلك الوجود على شكل هجرة أو في هيئة حملة عسكرية ، ولكن لم يبد على تلك المقاومة في الواقع أنها كانت نابعة من ثورة عرقية أو قومية أو دينية ، بل لقد أخذت شكل المدافعة السياسية كما كان يحدث آنذاك بين الدول الإسلامية نفسها ، ومن الخطأ مقارنة ما وقع في السودان في القرن السادس عشر بالحركة التي قادها السودانيون ضد الأجانب فيما بعد ، ولم يلبث الأفارقة بعد سنوات قليلة من مجيء جؤذر باشا أن لمسوا فوائد المجهود الحضاري الذي بذله المغاربة ، فاستسلم المجتمع الإفريقي بالتدريج لأشكال إيجابية من التطور الاقتصادي والاجتماعي . وهكذا فإن القرن السادس عشر كان هو الوقت الذي بلغت خلاله الحضارة الإسلامية إشراقها وأوجهها بالسودان الغربي[٣] ، فبينما كانت المدن الملكية عبارة عن أسواق وتجمع ثقافي محدود ، أصبحت بفضل التوسع التجاري والإشعاع العلمي والحكم السياسي القوي والأمن وازدهار البوادي تشهد تطوراً اجتماعياً مغربياً ذا مسحة سودانية ، وأخذت المدن دورها المرموق في الإشعاع ووقفت وقفة الند بجانب العواصم الإسلامية الشهيرة في ذلك الوقت .

---

(١) M.A. Cherbonneau P42

(٢) Monteil OP cit

(٣) M. Delafosse «les noirs de l'Afrique» paris payot 1921 P64.

وقد يصح القول بأن نظرة السعديين إلى الحياة كانت تختلف عن نظرة المرابطين إليها ، ولذلك فنحن نلاحظ ـ فيما يخص العادات والحياة اليومية ـ ان شعوب غرب افريقيا قد استقبلت الحكم السعدي بحرارة أكثر من استقبالها للغزو المرابطي ، فالإفريقي بطبعه ميال إلى المرح والتسلية وإلى الحفلات ومظاهر الحضارة في الملبس والغذاء والزينة ، وقد وجد ضالته في المغربي والأندلسي بما حملاه معهما من مدن المغرب من فنون ورغبة في الاحتفال بالمناسبات الدينية والاجتماعية ، وتأنق في اللباس والمأكل[1] .

ولا شك أن الأطباء وأصناف الدواء والتطعيم والعناية الصحية والنظافة ، وطمر المستنقعات حول المدن وجر الأقنية إليها مما أدخله المغاربة أو اجتهدوا في إنجازه قد أدى إلى شيوع الصحة والعافية على شكل لم يتحقق من قبل ، ونعطي على ذلك مثالين بارزين .

ففي مقارنة أولية بين متوسط الأعمار عند من ذكره المؤ رخون السودانيون في تواريخ ولادتهم ووفاتهم خلال ستين عاماً تبتديء من أواخر القرن السادس عشر وتنتهي في أواسط القرن السابع عشر ، يتبين أن ذلك المتوسط قد زاد سنة أو سنتين عن ذي قبل[2] .

والمثال الثاني هو ما كان يصيب الحيوانات وعلى رأسها الخيول من أمراض وهلاك في نهاية القرن السادس عشر ، ثم ما أصبحت عليه تلك الدواب بعدما بذل لها من العناية والتطبيب .

أما من وجهة بناء الأسرة والنظام الطبقي فقد خضعا لبعض التغيير أيضاً ،

---

(١) Deverdum. Marrakesh. T. 1 P417

(٢) لقد أجرينا تلك المقارنة بين الوفيات في تنبوكتو في الفترتين من ١٥٩١ إلى ١٦١٢ ومن ١٦٣٢ إلى ١٦٥٢ (السعدي ص ٢١٠ و٢٩٤) .

فمكانة المرأة ظلت رفيعة ، لكن الحرية التي كانت أعطيت لها في عهد السون اي[1] قد شهدت بعض التقلص .

وهكذا فإن قضية الاختلاط ، وربما لدافع سياسي أو دعائي ، قد حوربت بدون هوادة من طرف الإدارة المغربية ، ومقابل ذلك فإن الزواج الذي أصبح يتم على الطريقة الشرعية في الغالب أعطى للمرأة قدراً من الاحترام لم يتوفر لها من قبل . ولقد أصبحت المرأة شريكة فعلية للرجل تطبخ في البيت وتطحن وتحوك ، وتنال قسطاً من العلم والشهرة[2] بعد أن كانت إحدى ممتلكات الرجل .

١) الحياة الاجتماعية

أ) المدن والحياة الحضرية

تنبوكتو

عندما أسس توارك (مغشرن) مدينة تنبوكتو في القرن الحادي عشر أرادوا من وراء اختيارهم لموقعها أن تكون لهم مشتى عندما يغادرون جهات أروان في الأشهر الأولى من العام[3] ، وكانت تجارة أواسط السودان في ذلك القرن تروج في بلد بيرو ، فيقصد إليها التجار من موانيء حوض البحر المتوسط ومن المدن الواقعة في الأطراف الشمالية للصحراء كفزان وغدامس وتوات ودرعة وتافيلالت وسوس ، ومنذ أواخر القرن الحادي عشر لفتت تنبوكتو نظر تجار المغرب ، فنقلوا إليها بعض تجارتهم وشرعوا في عمارتها ، ويرجع مؤ رخو السودان الفضل في ازدهار تنبوكتو

---

(١) زبادية ص ١٣٠
(٢) السعدي ص ٢٤٠ إلى ٢٤٢
(٣) Canal - P158

وتفردها بالمكانة التجارية المرموقة فور تأسيس التوارك لها إلى تجار المغرب خاصة[1] .

ويبدو أن ملوك مالي لم يهتموا بتلك المدينة لبعدها عن عاصمتهم ومراكز عصبتهم ، ولم يجتهدوا في توسيعها والعمارة بها إلا بعد ثلاثة قرون ، وقد استدعى كنكان موسى مهندساً من غرناطة كان يقيم بفاس ليبني له قصراً ومسجداً بالمدينة ، وفي تلك الأثناء كان علماء مسوفة وصنهاجة يتوافدون على تنبوكتو للإقامة بها ، وهكذا فقد أدى تنصيب الإدارة المالية ، وتوافد التجار والعلماء إلى بروز المدينة كأهم وأشهر حواضر السودان[2] في أواسط القرن السادس عشر ، ففي ذلك القرن انتظمت شوارع تنبوكتو وأحياؤها وبدت بعض المباني على الشكل الهندسي المغربي الأندلسي[3] ، وأحيطت المدينة آنذاك بسور ،والحقت الحدائق بالبيوت ، وأزيلت الخيام وأكواخ القش لتبنى مكانها المخازن والبيوت المتعددة الطوابق ، وأخذ السوق التجاري طابعه النهائي بعد أن كانت دكاكينه موزعة على جهات البلد ، وانتقل تجار الآفاق إلى حي خاص بهم ، كما أصبح للعلماء والصناع والعبيد والصيادين والعمال أحياء خاصة بهم[4] ، وبصفة عامة فقد أصبحت تنبوكتو في نهاية القرن السادس عشر العاصمة الثانية لدولة السونغاي ، والمركز العلمي والتجاري الأول فيها ، ثم لم تلبث تنبوكتو أن احتلت الدرجة الأولى من بين مدن

---

(١) المصدر السابق ص ٢١

(٢) حسب الأوصاف القديمة لداخل افريقيا وبصفة خاصة ما كتبه هيرودوت فان نهر النيجر كان معروفاً منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وذكر بطليموس ذلك النهر القاري الكبير في القرن الثاني للميلاد ، أما البكري فقد نقل أوصاف النهر عن إفادات الفقيه عبد المالك ، وفي القرن الثاني عشر أورد الأدفيس معلومات قيمة عن النيجر وتحدث عن مدينة عظيمة أقيمت على ضفته ، ولا شك أن ابن بطوطة هو الذي سمح للأوروبيين بالحديث لأول مرة عن تنبوكتو التي كتبت في الخريطة النصفية الكاطالانية التي ظهرت عام ١٣٧٥ تحت اسم (تنبوش) .

(٣) F. Dubois Tembouctou, PP313 - 318

(٤) السعدي - ص ٢٠ - ٢٢

السودان بعد أن حولها المغاربة إلى عاصمة إدارية للأقاليم السودانية فقد « جبر الله كسر تنبوكتو . . . وجمع شملها وعمرها وأفاض البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جيش مولانا أحمد وأكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغاي»[1] .

وكانت تنبوكتو في بداية القرن السابع عشر على شكل مثلث رأسه للأعلى ففي شمال المدينة كان يوجد حي سانكورى الخاص بسكنى العلماء والعائلات الصنهاجية ، والى الجنوب الشرقي منه كان يقوم حيان أحدهما إحتوى على القصبة والمشور وسكنى كبار القواد وهو حي ساراكينا والثاني حي بوبوكينا الذي أقيمت فيه مساكن الجند (المعسكرات) وقصر الأسكيا عندما كان يحل بالمدينة ، والى الجنوب من ذلك حي (سانغير وبير) ويسمى حي الجامع الكبير أيضا [2] ، وهو الحي الروحي الذي أقيمت فيه المساجد الكبرى والأضرحة ، والى الشرق منه حي يوبو ، ويوجد فوقه الآن السوق المركزي الجديد ، والى الغرب حي باغاندي الذي تهدم بسيل اجتاح المكان، عام ١٦٤٠ ، أما في الجنوب الشرقي للمدينة فكان يوجد حيساينغونغو الذي أقيمت فيه بعض المتاجر ودور السكن المتواضعة ، وهكذا فان تنبوكتو كانت تضم سبعة أحياء كبيرة دعيت بالحومات[3] وقد وجد لانز عند زيارته لتنبوكتو في نهاية القرن الماضي أن الأحياء الشمالية الثلاثة قد هدمت وقت هجوم الفولبيه على تنبوكتو أما الأحياء الثلاثة الوسطى فقد هجر السكان معظم بيوتها وتحولت الى خرائب ، ولم يبق قائما سوى حي ساينغونغو الذي تطور واتسع عمرانه بعد حكم الباشوات ، ويرجح لانز أن القصر الملكي في عهد السونغاي كان قد أقيم في هذا الحي بالذات ، وبني مكانه سوق للجزارين منذ قرن تقريبا [4] .

---

(١) كعتو ص ١٨١
(٢) المجهول ـ تذكرة ص ٥١
(٣) لانز ج٢ ص ١٥٠ ، ويراجع كايي ج ٢ ص ٣١٣ فيما يخص هندسة المدينة القديمة .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٢

كانت تنبوكتو آهلة بالسكان في نهاية القرن السادس عشر ، ويستدل من احصاء المساكن المهدمة الذي أنجزه موني ومن بعض المعلومات التاريخية التي أجرى ذلك الباحث مقابلات بينها أن سكان المدينة قد ناهز مائة ألف نسمة [1] ، أي أنها كانت أكبر بكثير منها اليوم ووصلت أرباضها الجنوبية وبعض المزارع والبيوت المتباعدة التابعة لها إلى النهر وميناء كبارا[2] .

ويستفاد من أوصاف المؤرخين السودانيين أن تنبوكتو كانت موطنا لكثير من الأجناس في المعهد المغربي ، فكان هناك المغاربة (من فاس ومراكش وتوات ودرعة) والتونسيون والمصريون والتوارك وصنهاجة ومسوفة وأهل ولاتة وزنوج من مختلف الأجناس وأهمهم الفولانيون والماندينغ والبورنيون والبامبارا والفوطاليون .

ويعطينا (كات) معلومات قيمة عن هندسة المدينة وسكانها بعد ثلاثة قرون من الفترة المعالجة وطريقته في المقابلة بين ماضيها وما آلت إليه لا تخلو من فائدة : « عند وصولنا عن طريق السهل الرملي الشمالي كان علينا أن نقطع منطقة متسعة مغطاة بالأنقاض المتبقية من البناءات والمآثر القديمة ، وهكذا فان المدينة كانت في القديم تمتد بعيدا نحو الشمل ، وكانت كبيرة بالقياس الى اتساعها الحالي ، وبعد هذه البقايا والمآثر اجتزنا حيا لم نجد فيه سوى بيوت مستديرة متخذة من الاعشاب اليابسة ، ومن هذا المكان طالعتنا آلاف البيوت المسطحة البيضاء مع بعض بقايا الصوامع التي كانت تتخللها هنا وهناك ، ولم نعثر في أي مكان على شجرة أو مظهر نباتي أخضر ، وحتى أشجار النخيل الوحشي الأربع أو الخمس التي ذكر

---

(١) Mauny. Tableau P 491

(٢) Georges Maris P 162 وأفاد الرحالة بارت أن عدد البيوت عندما زارها كان لا يتعدى ٩٥٠ بيتا وعدد السكان ١٣ ألفا ، في حين قدر لانز سكان تنبوكتو بـ ٢٠ ألفا وعدد البيوت ٣٥٠٠ (بما فيها بيوت القش والأكواخ) ، وأعطى كايي رقما مختلفا لعدد السكان وهو ١٢ ألفا (كايي ص ٣١٢ ولانز ص ١٤٩)

(بارت) إنه شاهدها إختفت الآن ، ولكننا وجدنا في المستنقعات الواقعة في شمال المدينة الغربي مجموعة من أشجار الميموزا والنخيل .

« ان المدينة التي هي أقل من نصف ما كانت من حيث العمران لا زالت ممتدة على حيز شاسع وقد يعطي ذلك الانطباع بالعظمة والحضارة بالنسبة لمن قام برحلة طويلة عبر الصحراء ، والواقع فان تنبوكتو اليوم أكثر تواضعا مما كان الزائر قد سمع عنها أو تخيله في أحلامه ، فالسور الذي كان يحيط بها هدمه الفولبيه أو البهل عند إجتياحهم لها ، كما أن أغلب طرقاتها اليوم ضيقة لدرجة ان فارسين لا يمكنهما أن يمرا عبرها إلا بصعوبة ، ولا توجد بتنبوكتو حدائق أو أغراس أو ساحات عامة ، وقد ظل السكان محتفظين بالطابع القديم للبناء لأنه يبدو جيدا وذا مظهر مقبول » .

« وقد وجدنا كثيرا من العرب قدم أجدادهم من الشمال ومن المغرب على الخصوص ، ولبعضهم سحنة بيضاء أكثر من بعض سكان (تيل) الفرنسية ، ولكن أغلب هؤلاء إكتسب سحنا داكنة بفعل الاختلاط الدموي ، والغريب أن اللون الأبيض قليل جدا عند النساء أما الأجناس السوداء فهي متمايزة ويمكن التعرف عمن هم من سلالة السونغاي صاحبة السلطان السابق أو من الماندينغ أو الحاووصا أو البامبارا مع عدد كثير من التوارك والبهل »[1] .

ولقد غلب على أسواق تنبوكتو الطابع الاسلامي مع بعض الخصوصيات التي أعطتها طابعا متميزا ، وقد أطلق على السوق الذي كان تجار الآفاق يتبايعون فيه السوق الأكبر أو (بوبو كين وكان يعج بالمشترين ودواب الحمل ، أما أمكنة البيع فهي عبارة عن مكاتب صغيرة تعرض في بعضها العينات ، ويرتادها الزبائن والسماسرة ، ولكن تسليم البضاعة يقع في أمكنة الخزن الخاصة بكل تاجر ، وهي بنايات واسعة تتوسط كل منها ساحة تجري فيها عمليات الوزن والكيل ، وكان

---

(1) Gat. op. cit P 127 — 128

يوجد بتنبوكتو في بداية العهد المغربي كذلك سوق جهوية في موضع بشمال المدينة يدعى (فنتكر) وكانت السوق خاصة بالتجارة الاقليمية التي تجري بين المدينة والمناطق القريبة منها ، فالبضائع تكدس في دكاكين السوق أو توضع على الأرض ويتولى التاجر عملية البيع بنفسه وقد يتخذ من دكانه مسكنا له ، ووجدت سوق ثالثة في حومة الجامع الكبير وهي أصغر من الأولين ولم تكن دكاكينها الصغيرة المتباعدة تضم كل البضائع بل يقتصر التجار على بيع المواد الضرورية كالزيت والزبدة والشمع والصابون ، وكان علماء تنبوكتو يجلسون عند أبواب تلك الدكاكين في أوقات فراغهم لتجاذب الحديث والترويح عن النفس[١] ، وقد نقل الباشا محمود بعض دكاكين ذلك السوق إلى باب القصبة [٢] .

غير أن المدينة كانت في الواقع تعج بالباعة المتجولين وهم يبيعون السمك أو الخضار أو الحلويات للأطفال وقد يأتي بعضهم في الصباح الباكر بأبقاره وغنمه لبيع الحليب وما تجمع له من الزبدة واللبن المجفف المدعو (كاسي) وكان أصحاب المخزن يتبعون أولئك الباعة بين أزقة الأحياء لتحصيل الضرائب المستحقة عليهم [٣] .

وبالنظر لهذه الوظيفة التجارية ولما كانت تحويه المدينة من أموال وبضائع وتجار من مختلف الأجناس وبالنظر لكون المغاربة إتخذوا منها عاصمة لادارتهم فقد كانت حماية تنبوكتو من أي خطر خارجي وتزويدها بكل ضروريات الحياة الحضرية من أبرز ما إجتهد المغاربة في تحقيقه ، وكان سور المدينة يقدم أكبر ضمانة في ذلك ، فهو يغلق بعد صلاة المغرب ولا يسمح الحراس لأحد بالدخول بعد ذلك الوقت ومن أتى من سفر أو بريد فعليه المبيت في الضواحي حتى الصباح ، وكان للباشا موظفون للاستخبار عن أحوال السكان وجهاز للحراسة في الأسواق والأحياء[٤] ،

---

(١) المجهول - تذكرة ص ٤٧
(٢) السعدى ص ١٧٣
(٣) Dupuis — vakouba P 5
(٤) السعدى ص ١٩٠

وقد إستعملت الفوانيس لانارة الطرق المؤدية إلى المساجد وأضيئت أماكن العبادة بالشموع والقناديل وكانت زبدة الانارة تشترى من أموال الوقف كما هو الشأن في المغرب [1] ، ووضعت جرار كبيرة من الماء في الأسواق والأماكن العامة ، واجتهدت السلطة المغربية في توفير الماء الصالح للشرب بأن حفرت مطافيء في الشمال الغربي من المدينة كانت تتجمع فيها مياه الأمطار ، كما أن القناة التي جلبها جؤذر الى تنبوكتو عملت على تلبية حاجات السكان من مياه الاستعمال العادي [2] وقد شقت في تنبوكتو أقنية لتصريف الماء الحار ومياه الأمطار ، وألزم بعض أصحاب البيوت ببناء السقوف على نحو يسمح لمياه المطر بالوصول إلى تلك الأقنية [3] ، كما إجتهدت السلطة الحاكمة في حفر الآبار في ساحات الأحياء ، ويبدو أن الحفر كان يتم بشكل تطوعي إذ كان المنادي يذرع المدينة ويطلب من التجار ذبح الأبقار للعاملين في حفر تلك الآبار فتمد الموائد كل يوم إلى أن ينتهي العمل [4] .

دييني :

كانت مدينة دييني ثاني أهم مدينة في السودان قبل إنتهاء القرن السادس عشر ، وقد إعتبرت العاصمة الادارية والتجارية لاقليم دييني ولشرق وشمال مسينا ، كما أن وقوعها وسط مناطق زراعية غنية أعطاها أهمية إستثنائية على بقية حواضر البلاد .

يمتد إقليم دييني من مدينة سان حتى بحيرة ديبو على مساحة ١٧ ألف ك . م مربع أما المدينة نفسها فدائرتها الحضرية بلغت في العهد المغربي ما يقرب من ميل ونصف [5] ، وقد بنيت على الضفة اليمنى لنهر باني في منطقة تشعب الروافد التي

---

(١) الفشتالي ص ٢٣٧

(٢) قدم الأستاذ سليم زبال دراسة عن هذه القناة التي كان طولها ١٥ كلم والتي لا زال ماء الفيضان يصل بواسطتها إلى المدينة حتى اليوم (مجلة العربي - عدد ٢٤٤ مارس ١٩٧٩ - وزارة الاعلام الكويت ص ٧٩ .

(٣) لانز ص ١٤٨

(٤) المجهول - تذكرة ص ٨٣

(٥) كابي ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٠

كانت تقدم للمدينة حماية طبيعية من جهة وتسمح لمياه الفيضان أن تروي الحقول الملحقة بالبيوت بشكل منتظم مع إمكانية كبيرة للتحكم في الفيضان نفسه .

إن الفضل في بناء ديينى يعود إلى برابرة صنهاجة ، فقد إختطوها لتكون ملتقى لتجار الملح وتجار الذهب ، ولم يلبث تجار الوانكارا القادمون من الجنوب الغربي أن ساكنوا صنهاجة بها ثم أصبحت أعدادهم تتزايد حتى شكلوا أغلبية السكان ، وعرفت ديينى التنظيم السياسي والاداري منذ القرن الثاني عشر وقامت فيها حكومة قوية كانت تحت حماية مالى ثم السونغاى ، ويبدو أن حاكمها كان ينادي بألقاب السلطان والامارة حيث أشير إلى بعض ذلك بمناسبة أسلامه في القرن الثالث عشر[1] ، وتفيد المصادر السودانية أن ذلك الملك إسمه (كنبر) ، وعندما أسلم حول دار السلطنة إلى مسجد وبنى قصره بجانبه ، وكان عدد القرى في ظل حكمه سبعة آلاف ، وكانت أوامره تنقل بنقر الطبول إلى أقصى البلاد ، ورغبة منه في محاربة الوثنيين فقد أنشأ جيشا قويا جعل على رأسه أربعة وعشرين قائدا نصفهم يحمي الشرق والنصف الثاني يراقب الغرب ، وقد بنى الأبراج حول المسجد ومضى في تحصين المدينة ، غير أن بناء السور لم يتم إلا على يد إبنه الذي وصف بالتقى والورع وكان إسمه آدم وقد فعل ذلك تحسبا لهجوم سنى علي الذي لم يلبث أن تقدم نحو المدينة وأمضى سبعة أعوام في حصارها قبل أن تدين له بالطاعة على عهد السلطان المحلي عبدالله بن السلطان أبي بكر[2] .

وقد شهدت دييني نهضة علمية زمن الأسكيا الحاج محمد ، ولكنها كانت دون تنبوكتو في هذا الخصوص ، وكان قاضي المدينة يعين من بين علماء عائلة آقيت وبأمر من الأسكيا ، وبعد موت الأسكيا الحاج محمد غدا القضاة ينتخبون من بين علماء المدينة ذاتها أو من تنبوكتو ، وقد ذكر منهم السعدى القاضي العباس كمبو ،

---

(١) Ca nal. P 158

(٢) السعدى ص ١١ و ١٢

ومحمد بن أبي بكر بغيوعو ، وعمر تورفو ، وتلماكلس وأحمد تورفو ومؤدب بكر ومحمد بانبا الذي وجده المغاربة قاضيا على المدينة عند إحتلالهم لها [1] .

وقد نظم المغاربة مدينة دييني تنظيما إداريا محكما ، فكان هناك رئيس محلي وحاكم عسكري مغربي وحاكم مدني وادارات تهتم بالمالية وشؤون الضرائب والأسواق والخدمات ، وعرفاء لمختلف المهن ومعلمون للتعليم الأولي وأساتذة للتعليم العالي [2] .

ولا شك أن تحويط المدينة لضمان الحماية والأمن لها قد ظفر بأول مجهود صرفه المغاربة عند قدومهم ، وقد أحيطت بسور جديد أكبر وأعلى من السور الذي بناه السلطان آدم وجعلت على السور أبواب لدخول الناس وخروجهم في ساعات النهار .

وكانت المدينة على شكل بيضوي تبعا لخط سير النهر حولها ، وبني السور عند الضفة اليمنى ، أما الأحياء فقد تزاحمت في الداخل ، وتحلقت في البداية حول المسجد في الوسط ، ثم إمتدت نحو الشرق ثم إلى جهة الغرب وكانت أهم الأحياء في عهد المغاربة هي حي المسجد الأعظم ، وحي القصبة المغربية بالقرب من الميناء في الجنوب الشرقي ، وحول القصبة قامت الأحياء التجارية الثلاثة وهي : سامسي وسيان وفارمانتالا ، أما في جنوب حومة المسجد فأنشيء حيان كبيران للعبيد والمزارعين ورجال القبائل السوداء وهما كونوفيا وجوربورو . وفي شمالها كانت أحياء كورانرى وكويتان دمى ودمبوكال ذات البيوت الصغيرة المتراصة والأزقة الضيقة وأعتبرت موطنا للصناع والحرفيين وصغار التجار ، وقد شجع المغاربة على بناء الحي العلمي وخصصوه لسكنى الفقهاء وموظفي دار الشرع وأطلقوا عليه حي سانكورى أيضا ، وكان العلماء قبل ذلك يقطنون نفس المكان الذي أقيمت فيه القصبة المغربية .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣

(٢) Monteil P 84

واشتملت دييني على حيين إداريين ، ففي القصبة كان يسكن الحاكم العسكري وكبار الجند وتنشر خيام العسكر ، أما الحاكم المدني ورئيس دييني المحلي فكانا يسكنان في شمال المدينة وسمي المكان بحي المخزن أو الحكومة [1] .

إن أبرز الصعوبات التي واجهت الادارة هي المياه التي كانت تغمر المناطق الغربية وتحولها إلى مستنقعات موبؤة ، وينبغي أن نقر بالمجهود الذي بذل لتعلية جوانب النهر حتى أصبح في الامكان تحويل كثير من المناطق إلى إحياء سكنية وبساتين وجنائن [2] وزرعت الخضار التي جلبت من تافيلالت على جوانب الأحياء الجديدة [3] .

ومن الأوصاف التي نقرأها عن دييني في بداية القرن السابع عشر يبدو جليا أنها كانت منتظمة الشوارع والأحياء التي بدت عليها النظافة والأناقة أكثر من شوارع تنبوكتو ، وتحدث كايي عن بعض العادات التي إحتفظت بها المدينة حتى عهده مثل الاعتناء بالساحات الخضراء ، والمواظبة على كنس الشوارع والأزقة كل صباح [4] وطلاء واجهات البيوت والدكاكين بالأصبغة الفاتحة ، ولم تعان دييني من مشكل الماء سواء للشرب أو للاستعمال البيتي أو الزراعي ، وكان يكفي حفر متر أو مترين لتظهر الطبقة المائية التي تتغذى من النهر .

ويجب التفريق عند الحديث عن سكان دييني بين القاطنين منهم في القرى الملتصقة بها وبين السكان داخل أسوارها ، وقد أجرى مونتي إحصاء مدققا لسكان الضواحي فوجد أن عددهم يقرب من ٨٣ ألفا نصفهم من البهل و ٢٠ ألفا من البامبارا و ١٢ ألفا من البوزو وخمسة آلاف من النونو وألفين من المغاربة وأربعة آلاف من الأخلاط [5] ، أما داخل المدينة فتقل نسبة الزنوج لتحل محلها النسبة

---

(١) المصدر السابق ص ٧

(٢) أقيم حيان سكنيان في موضع مستنقعي وهما حي يوبوكينا وكانغا (المصدر السابق ص ٨٤) .

(٣) كايي ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٤) المكان السابق

(٥) موني ص ٨٥ - ٨٨

العالية من المغاربة والصنهاجيين والسونغاي ، ومن أجل ذلك فان أهل دييني لم يعرفوا غير اللغة العربية في الكتابة والمعاملات التجارية ، وامتاز العرب القادمون من تافيلالت عن غيرهم من فئات السكان وأناسهم بالسعة في الرزق والثقافة والعادات الحضرية [1] .

أما عن الوظيفة التجارية والصناعية للمدينة ، فان أهمية الموقع الذي سمح للتجار من الشمال والجنوب بمبادلة الملح بالذهب ، قد ازدادت مع الاتساع التجاري الذي عرفته السودان في العهد المغربي ، فقد أصبح للتجار المغاربة والبامبارا وغيرهم دكاكين ومخازن لبيع المصنوعات المغربية والأوروبية من ملابس وحلي وزجاج وأثاث وسكر وشاي ، وظهرت طبقة من الأثرياء الفلاليين التي كانت تقبل على بناء الدور ذات البساتين النضرة [2] وقامت منافسة في الانشاءات حتى وصف بعض مؤرخي السودان سكان المدينة بأن لا هم لهم إلا التنافس على الدنيا والسعي لتحصيل مباهجها [3] وازدهرت الصناعات الحرفية في دييني ، التي عمل فيها العبيد فكان هناك الخياطون والحدادون والبخارون والإسكافيون وقامت كل الفروع الحرفية الأخرى ، ولكن بشكل لم يرق إلى ما عرفته تنبوكتو في ذلك الحين .

غاو :

حول السونغاي مدينة غاو [4] إلى عاصمة لهم بعد أن أمضوا الفترة الأولى من حكمهم في عاصمتهم الأولى كوكيا ، وقد أتى اهتمامهم بغاو لقربها من منطقة كورما التي كانت قبائلها موالية للسونغاي ولاعتدال مناخها بالنسبة لكوكيا ،

---

(١) المكان السابق ، يذكر المصدر الأجناس التي عاشت في دييني وطبقاتها ونحل معاشها ص ٢٠٨ .
(٢) Monteil P83 - 84
(٣) السعدي ص ١١
(٤) يسميها بعض المؤرخين السودانيين كاغو أو كاغ واطلق عليها المغاربة غاو وكاغو وغوا

ولوقوعها على الطريق الملكي الرابط بين بلاد الحاووصا في الشرق وبلاد التوارك في الشمال والمراكز التجارية الهامة في الغرب .

وبالرغم من كبر المدينة ، واتساع أحيائها ووفرة سكانها فإنها لم تبلغ في نهاية القرن السادس عشر ما بلغته تنبوكتو وديني من رفاهية وتقدم عمراني وثقافي وقد فوجيء الباشا جؤذر عندما دخل المدينة لأول مرة إذ وجد القصر الملكي نفسه عبارة عن بيت متواضع[1] ورأى أن أكثر البيوت متخذة من الطين والقش ولا أثر للرفاهية أو النظافة فيها ، ولا نعلم إلا القليل عن مباني المدينة وتنظيمها في بداية الحكم المغربي ، ولكن يبدو بشكل أكيد أنها كانت أقل من تنبوكتو من حيث انتشار العلم والصناعة والتجارة ، ولم تعرف المدينة أشجار الفاكهة أو الخضراوات باستثناء البطيخ والليمون الحامض اللذين جلبا إليها في وقت متأخر[2] .

وأكدت التحريات التي قام بها العالم موني بأن غاو بالرغم من ذلك غلبت تنبوكتو فيما يخص تعداد السكان فوصل سكانها قبل بداية العهد المغربي ٧٥ ألفاً[3] ، وإذا قارنا هذا الرقم مع الإحصاء الذي قدمه كعتو لعدد السكان قبل ذلك يتبين أن غاو قد شهدت توسعاً في سكانها في القرن السابع عشر ، فهذا المؤرخ يذكر « أن أناساً من أهل السودان تجادلوا مع أناس من أهل كاغ حول أكبر مدن السودان فقال السودانيون (كانـو) أعظم من كاغ وأكبر منها وبلغوا في أمر ذلك وجداله نهاية وغاية وذلك في مدة سلطنة الأسكيا الحاج ، ودخل أولاد تنبكت المرجفون وبعض أهل كاغ ، وأخذوا ورقة ودواة وقلماً ودخلوا بلد كاغ وابتدأوا من أول بيت بمغربها يعدون القصور ويزممونها واحداً بعد واحد إلى ثلاث (ثلاثة) أيام ، دار فلان ودار فلان إلى انتهاء بنيان البلد من المشرق ، فجاءت سبعة آلاف دار وستمائة وست وعشرين غير بيوت مبنيات بالحشيش »[4] .

---

(١) نقولا زياده ـ مصدر سابق ص ٨٤

(٢) المصدر السابق ص ٥٦

(٣) R. Ma uny «Notes d'archeologie au sujet de Gaa Dakar 1951. p499

(٤) كعتو ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ويذكر المؤرخ زبادية أن ذلك الاحصاء أجرى سنة ١٥٨٥ مملكة ص ١٠٩)

ب) الحياة في القرى :

كانت القرى السودانية في العهد المغربي الأول عبارة عن تجمعات قبلية إنتاجية لا تكاد تتميز عن المدن إلا من حيث المستوى الحضاري ، ولم يعد رئيس القرية زعيماً قبلياً أو بطلاً في المعارك أو أحد قواد الأسكيا المتقاعدين ، بل غدا موظفاً حكومياً يرأس المجلس القروي (توتيجي) ويوزع الأرض بين السكان ويحرص على أخذ الضرائب والحقوق العامة ، ويعيل الطلبة والمنقطعين الغرباء ويتخابر مع الحكومة في مصالح قريته أو في المصالح العامة [1] ، وقد احتوت القرى بعض الدور بحيث بدت متجمعة حول المسجد أو دار الحكومة أو متفرقة وسط الغابات أو المزارع أو على طرق المواصلات الرئيسية البرية والنهرية ومن أشهر القرى في العهد المغربي :

كوكيا :

ظهرت هذه القرية في عهد غانا ، وازدهرت واتسع بنيانها وغدت عقدة للمواصلات الصحراوية والنهرية ، وفي القرن الحادي عشر أسلم برابرة كوكيا ووسعوا نطاق مدينتهم بعد أن أصبح تجار غاو وغدامس وورغله يصلون إليها [2] ، واتخذها السونغاي عاصمة لهم في البداية ثم أخذت غاو مكانتها الإدارية والتجارية ، وعندما وصل المغاربة إلى كوكيا كانت عبارة عن ميناء صغير اتخذه الباشا محمود قاعدة لتحرك أسطوله باتجاه الجنوب ، ولحقها الخراب بفعل الهجمات التي قامت بها قبائل السونغاي ضد المغاربة قبل ابتداء القرن السابع عشر .

أروان :

تقع أروان في واد كثير النخل محاط بتلال من الغرب ، وأخذت أهميتها منذ

---

(١) Monteil P154 - 155

(٢) Canal. P.159

القديم من وقوعها على طريق قوافل الملح والتجارة وزادت أهميتها في عهد المغاربة حيث تحولت إلى نقطة للعبور نحو المغرب ، امتازت أروان ببيوتها الصغيرة النظيفة ، ودكاكينها الصغيرة المصطفة على الطريق الرئيسية ، وعدا عن هذا الطريق فلم توجد بأروان أية أزقة أو شوارع ، وكانت أقوات أروان تأتي من تنبوكتو بينما اجتهد السكان في تربية الجمال والأغنام السودانية والدجاج القزم .

وكانت تقطن بأروان أكثرية عربية من كنتة والبرابيش (عشائر أولاد ادريس وأولاد سعيد والغنايم والعرتيرات أولاد الحاج) وقد تعامل أهل أروان بالعملة الذهبية والفضية حيث لم تكن لهم ثقة بالكوري ، وكان الكنتيون في أروان يمتلكون سبخة للملح في شمال موريطانيا الحالية تدعى سبخة (اجيل) ويأتون بقطع الملح لبيعها لتجار السودان من (السانساندينغ) ولم يكن في أروان شجر ولا زرع ، وقد تمر سنوات دون أن تنزل قطرة من المطر فوق القرية[1] .

كابارا :

كانت قرية كابارا تبعد عن الميناء بثلاثة كيلومترات ، ويمكن تشبيهها بأروان في القرن السابع عشر من حيث استطالتها وتراصف بيوتها على الطريق المؤدي من الميناء إلى تنبوكتو وصغر البيوت ونظافتها وتشكلها من طابق أرضي واحد ، ولم يتجاوز عدد السكان الألفين ، وكلهم من عمال الميناء أو الحمالين الذين امتلكوا دواب للحمل أو من التجار الصغار أصحاب الدكاكين ، أو من أرباب الفنادق الذين يؤجرون غرفاً للتجار الغرباء والمسافرين ، واحتوت كابارا على بعض الأزقة الضيقة المؤدية إلى الشرق حيث مزارع النخيل وإلى الغرب حيث قامت حقول التبغ والفواكه .

وكانت سوق القرية حافلة بمختلف أنواع السلع المحلية والمستوردة ،

---

(١) الشنقيطي ـ الوسيط ـ مصدر سابق ص ٤٣٤ و٤٥٨

ولذلك فقد بذلت سلطات الميناء جهوداً مهمة لحماية القرية وتوفير وسائل الراحة للتجار[1]، وكان أغلب سكان كابارا من المغاربة والفولبية ، ولم تختلف حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم الحضارية عن جيرانهم في تنبوكتو .

تاودوني :

قامت قرية تاودوني حول سبخة الملح الشهيرة باسم (تغازي الغزلان) ، ورغم أن ملح تغازي القديمة الواقعة على بعد ١٠٠ ك.م إلى الشمال وملح إيجل كانا أجود مما توفرت عليه تاودوني فإن القرب من تنبوكتو (عشرة أيام) أعطاها المقام الأول من حيث كمية الأحمال المنقولة منها[2].

ومما لا ريب فيه أن مكانة تاودوني كعقدة في طريق الشمال قد زادت في العهد المغربي كما مر معنا .

تنديرما :

أسسها الأمير عمر كمزاغ زمن الأسكيا الحاج محمد سنة ١٤٩٦ ، وقد وجد فيها مجموعات من العبيد تعمل في الصيد والقنص والرعي لمالكها الشريف السعدي ، وفي العهد المغربي كانت تعيش بتنديرما جالية يهودية كبيرة تسكن بيوتاً لا تقل مظهراً وأناقة وأثاثاً عن بيوت أغنياء تنبوكتو ، وقد حفر أولئك اليهود آباراً

---

(١) لانز ص ١٣٨

(٢) الشنقيطي - ص ٤٦٠

يذكر لانز بأن القرى السودانية وحتى الصغيرة منها كانت منظمة إدارياً وترتبط مع بعضها أو مع المدن السودانية الكبرى بطرق مأمونة ، وعندما حاول جمع المعلومات عن طريق رجوعه من الغرب توفرت لديه المعلومات التالية عن تلك الطريق : من تنبوكتو إلى باسي كونو ٧ أيام شيخ البلدة الشيخ البخاري - من باسي كونو إلى رانغو ٥ أيام الشيخ هو محمد ولد دحمان - من بانغو إلى باقوينيت ٣ أيام الشيخ شموسي - من باقوينيت إلى الغاب ٣ أيام الشيخ أجيب بن الحاج عمر - من الغاب إلى كونياكاري ٥ أيام الشيخ باشير ولد الحاج عمر - من كونيا كاري إلى مصب السنغال ١٠ أيام .

وصل عددها إلى ٣٣٣ بئراً ، وكانت كل بئر محاطة بسور من الطين المشوي المخلوط ببعض الدهون مما جعل جوانبها قوية وكأنها مصنوعة من الحديد[١]، وكانت تنديرما عاصمة لإقليم زراعي واسع يدعى ديرما ، واعتبر الجيش المغربي تلك العاصمة من المراكز الهامة للانطلاق نحو بلاد العرب الغربية ولذلك فقد كانت الإدارة عسكرية في الغالب ، وأسندت إلى الحامية وقوات الحراسة مهمات معقدة في مجموع المنطقة ، وكان يقضي كل ذلك بأن يقطن الجيش في تلك القرى ويشكل نسبة هامة من سكانها .

ومن القرى المهمة الأخرى قرية (ديبيي) على ضفة النهر اليمنى غرب تنبوكتو ووصفت بيوتها بأنها كانت مبنية بالطين ومتجمعة في مركز القرية ، (ورأس الماء) التي سكنها التوارك واعتبرت إحدى السلطنات المشمولة بالحماية المغربية ثم سكنتها قبيلة أولاد علوش العربية إلى جانب التوارك (وأبراز) شمال تنبوكتو (وأزواد) في منتصف الطريق بين ابراز وأروان ، و (داعنكا) و (دوري) في منطقة هنبوري ، وكل من تلك القرى شهد تطوراً واتساعاً وحمته القوات العسكرية المغربية لوقوعه على الطرق المؤدية من تنبوكتو نحو الشمال والجنوب[٢] .

جـ) الحياة القبلية :

كان السودان في بداية القرن السابع عشر يتميز بوجود نوعين من المجتمعات القبيلية : المجتمع القائم على الزراعة والتجارة المتوسطة والصيد ، والمجتمع

---

(١) كعتو ـ ص ٦٣ ـ ٦٤ ويضيف المصدر أن بعض يهود تنديرما أصلاً في المنطقة ، وكان لهم ملوك بلغ عددهم السبعة وجيش قوى من الزنوج الخاضعين لهم قوامه ١٢ ألف رجل .

(٢) ابن القاضي ـ المنتقى المقصور ـ ص ٩٥ ، ويذكر المجهول ـ تذكرة ، أحد أمراء السعديين اسمه مولاي الذهبي قدم من المغرب إلى غرب ولاتة واختط هناك مدينة حول ضريح لولي صالح يدعى سيدي سعيد (ص ١٥) ، وتوجد بالفعل بقايا بناءات قديمة في موضع مهجور يسمى أريجيف قد يكون هو مدينة سيدي الذهبي المذكور .

المتنقل ، ويعود ذلك التميز الذي لا نجد له نظيراً في جهات افريقيا الأخرى إلى تجاور الجنسين الأبيض والأسود ، وإلى وقوع إقليم السودان ضمن المناخ المداري الجاف أو الرطب ، وإذا كانت التقسيمات العرقية التي أخذ بها علماء الأجناس للتفرقة بين الزنوج السودانيين وزنوج البانتو على أساس لغوي قد أدت إلى تصنيف عام للشعوب الإفريقية السوداء إلى العنصرين السالفين ، فإن مناطق غرب إفريقيا لا يمكن أن تخضع لتلك القاعدة العامة ، فاللغة العربية لم تعد ترتبط بجنس معين في هذه الأقاليم تتقدم فيها رمال الصحراء إلى مشارف النيجر ، والتي تكلم الزنوج اللغة العربية في أكثر أرجائها ، ومما لا ريب فيه أن الدين الإسلامي قد أثر قبل ذلك على الكيان القبلي وأحدث تغييرات في نظام الملكية والإرث والزعامة ، وأدى ذلك إلى تبديل العوائد القبلية والإقلال من ظاهرة الاعتزاز بالعرق واللغة والبطولة ، وقد رأينا في السودان أن قبائل كبيرة عريقة بدأت تقبل زعامات من خارجها ، وتتبنى عادات وأحكاماً دون أن يبدو على مجتمعها رفض أو تهرب ، فالتداخل العرقي والثقافي والخصائص الشالية بالإجمال أعطت للسودان صفة التمازج الاجتماعي بين العناصر السوداء القديمة وبينها وبين العناصر البيضاء الوافدة ، ومكنته من أن ينهض بدور الجسر الاجتماعي حتى أطلق عليه الجغرافيون بلاد الساحل (ساحل النهر وساحل الصحراء وساحل الجنس الأبيض)[1]

وحتى العصر الوسيط كان الزنوج يستوطنون الصحراء ، وبواسطة الهجرة والغزو تمكن الصنهاجيون والتوارك والعرب من دفع القبائل الأصلية إلى ضفة النهر ، وكان الاختلاط بين الجنسين الأسود والأبيض هو أحد النتائج البارزة لعملية الدفع التي استمرت قروناً[2] ، وفي الأعوام الأخيرة للقرن السادس عشر بدأ آلاف من الفتيان المغاربة يتوافدون على السودان وينشؤون عائلات مختلطة تمازج فيها دماء العرب والتوارك والبهل والفولبية والسونغاي ، وقد اتضح ذلك النتاج في

---

(١) Canal P48

(٢) R. Ca pot - Rey «le Sahara français» Paris P.U.F 1953. PP.169 - 170

الجيل الثالث والرابع على نطاق مكاني واسع ، حيث وصلت التأثيرات البيضاء إلى تشاد ، أما السودان الشرقي فكان التأثير المصري فيه قوياً كذلك وعلى نفس القدر من الأهمية[1] .

وعند دراسة المجتمع القبلي المستقر في السودان الغربي ، ينبغي التمييز بين قبائل الشرق وقبائل الغرب وقبائل الجنوب من الموسى الوثنيين ، ففي الشرق ، عاشت قبائل السونغاي المتباينة الأصول ، ولكننا نجد قبيلتين من السونغاي شكلتا الأغلبية المطلقة بحيث نستطيع أن نعتبر العشائر الأخرى ذات أهمية ثانوية بالنسبة لهما . والقبيلتان هما : السوركو ويتعيشون من الصيد والكابيبي يحترفون الزراعة ، وقد انتشر السوركو على شاطيء النيجر منذ بداية دولة السونغاي حتى وصلوا إلى مشارف مسينا قبل بداية القرن السابع عشر واحتكوا بالعرب الصنهاجة والفولبية والبهل ، واستولى الكابيبي على السهول الفيضية فيما وراء النهر على نفس الدرجة من الامتداد ، وكانت بعض مزارعهم تقع على البحيرات الكبيرة غرب تنبوكتو[2] وعلى حافة السبخات التي تصلها مياه الفيضان في بعض السنين .

أما في الغرب فقد احتفظ إقليم مسينا بخصائصه القبلية والاجتماعية وتعايش فيه الفولبية ذوو الشعور الملساء[3] والقامات العالية مع البامبارا والماندينع والمغاربة[4] ، وكانت اقتصاديات قبائل مسينا تقوم على الزراعة (الأرز - الذرة - القطاني - الخضار) وعلى تربية المواشي وخاصة البقر والخيل وعلى التجارة مع ديني والمراكز التجارية الصغيرة في الغرب .

وقد قسم المغاربة إقليم مسينا الواسع إلى أربع مشيخات : هي أنيبا ،

---

(١) Henri Ehote «d'extraordinaire aventure des peuls» presence Afriquaine xx11. octobre - novembre 1958. PP.48 - 57

(٢) بوفيل - مصدر سابق ص ١٣١

(٣) كابيي ج ٢ ص ٢١٧

(٤) المصدر السابق ص ٢٢١ - ٢٢٣

وبوبوأل ، وبوبو ألماكانت وعلى أرد مغـن[1]، وضمـت كل مشيخـة عدة قبائـل متحالفة تسكن جملـة من القـرى المتميزة بأنـواع أكواخها وبوظيفتهـا الاقتصـادية وأشكال الحياة الاجتماعية السائدة فيها ، ويمـكن إجـراء تقسيم عشائـري لا على أساس اللغة بل حسب الموطن ومن شأن ذلك أن يؤكد على حقيقتين ، الأولى هي أن قبائل الغرب احتفظت بتجمعاتها العشائرية في العهد المغربي أكثر من قبائـل السونغاي في الشرق ، والثـانية أن المغاربـة حرصـوا على الإبقـاء على العـادات الاجتماعية والتنظيمية التي عرفتها مسينا منذ القدم وشجعوا قبائل الغرب على بناء القرى والاستقرار بها .

إسم العشيرة	القرى وأماكن التجمع[2]
التينانكو	صوديو ـ توكيل ـ ديلي ـ كوما ـ سبندي ـ تييكوي ـ توكل ـ كوصام ـ داكا ـ كالي ـ فونبانا ـ أميري ـ كوبلي ـ بينكا ـ سيلي ـ كيكي ـ سندي ـ كوربو .
كومبي	كوماكا ـ بيبري ـ نياصو ـ توكلي ـ بونتا ـ تينا ـ نالو ـ تكودري ـ كيليدجي
كوامكولو	جنجوري ـ أسي ـ ساريما تجابو ـ كينتا ـ كيا ـ باكا ـ تيينيل ـ بوكاري ـ صباري ـ هبوروي ـ جونكي ـ تندابيوني
أوروبوبو	ساريتومو ـ سندي بوكي ـ بكونا ـ لونكيل ـ كاتيالا ـ امانكان ـ صورمي .

(١) السعدي ص ١٨٩
(٢) لانز ج ٢ ـ ص ٩٣

اسم العشيرة	القرى وأماكن التجمع
أورو أردومايو	كولي صابا ـ منكيلا ـ كنكال ـ موبتي ـ صايبري ـ نينكا تينتان ـ جاييل ـ جوموكيري ـ كويصي ـ كولي ـ مابوي ـ تاربي ـ سيمبو .
أورو أردوتوكي	سينو ـ كودو ـ كوتاما ـ صامينا ـ نيني ـ جيرما ـ كاندي ـ كورلوكيكي ـ بنكينا ـ صاندارو ـ دييني .
تروبي	سيدي ـ روندي ـ ناريفيل ـ تاكانيني ـ ديبني ـ مؤوندي ـ مندي يودي .
أورو كيلي	كوبلي ـ سنا ـ سيان ـ بيكا ـ توكو ـ بينكا ـ كومبي ـ فونبانا ـ كانكيلي .
صوكوناري	مايو ـ تاكي ـ توكيري ـ سانغا ـ باكومي ـ فلينكارا ـ كونا ـ نينكا.
صوصوبي توكورو	صوصوبي ـ كومال ـ كالا ـ كانكيدوجورو ـ نفيبورد ـ ديبوركونا ـ دبوبوي ـ سامينا ـ أسي ـ مالانكال .
صوكولبي	كورا ـ كيبورو ـ نبالوما ـ كوري ـ كينكا ـ كومبيل ـ توكي ـ صوني ـ نيو تولدو .
صوصوبي دوكيل	كيلي ـ أودولاري ـ أوريزانا ـ فاري ـ بيلي ـ دونديقال ـ بينتينال ـ جويلي ـ تيليندي ـ لوكوني.

أما القبائل المترحلة فهي التي كانت تعيش في أطراف السهول الزراعية وفي الواحات أو تظعن للبحث عن الكلأ والماء في الصحراء والسهوب السودانية ، وتشمل تلك القبائل ، العرب والتوارك والبهل وبعض عشائر الفولبية .

لقد كانت جملة من الخصائص تجمع تلك القبائل كلها وهي نحلتها المتشابهة في المعاش وتداخلها العرقي الناتج عن الزواج ، وقربها من العادات الاشتراكية البدائية وغياب الدافع السياسي أو الاداري في التجمع ، ومن الطبيعي أن تكون قطعان الماشية ، والصيد البري هما الأساس المعاشي لتلك القبائل التي لم تكن لها بالأرض سوى إرتباطات ثانوية ، واعتبر رئيس العشيرة المجسد لكيان الجماعة دون أن تكون له في الواقع حقوق خاصة أو مزاولات إدارية ، وتنصرف سلطته على رجال قبيلته بشكل غامض وغير محدد ، ولم تتخذ المكانة الاجتماعية مقياسا لتنصيب الرئيس ولكن يجب أن تتوفر فيه جملة من الشروط كالسن ورجحان العقل والغنى وكثرة الأولاد [1] .

إن رأس مال القبائل المترحلة هو الرجل ، فمن شأن كده أن يعكس الرفاه والغنى عليه وعلى قبيلته ، ويكون إمتلاك الأراضي والواحات المزروعة والآبار وسبخات الملح مشتركا بين أفراد العشيرة أو بين العشائر المنتسبة إلى قبيلة واحدة ، وملكية العبيد الذين يعملون في الواحات ومزارع النخيل وفي المراعي تعود لأفراد القبيلة بشكل مشاع ، وقد تغيرت بعض أنواع الملكية منذ مجيء المغاربة ولكن الطابع القديم في ذلك ظل على حاله ولم يشهد تبدلا في العميق .

التوارك :

ينحدر التوارك من قبيلة مسوفة التي هي إحدى أقسام صنهاجة ، وقد رحلوا من اليمن عن طريق المغرب ، وتفرقوا في الصحراء ما بين السودان وجبال الأطلس وقيل بأن الأمير أبا بكر بن عمر بن إبراهيم بن تورقيت المرابطي هو الذي أخرجهم

---

(١) يراجع Richard Molard « Afrique occidentale francaise »
Paris Berger — Levrault — 1949 — ch. 11

(٢) Gelbert Vieillard « Notes sur les coutumes des Peuls au fouta - Djalon » — larose
1939 Coutumiers Juridiques de L'A. O. F. T. 111. P. 144

من جهات مراكش وطاردهم نحو الجنوب[1] ، وحسب القياسات والدراسات العرقية الحديثة فان التوارك المسوفيين هم من الجنس القوقازى الأبيض أي أنهم من أجناس البحر المتوسط ، ويطلق على التوارك لقب ايموغار أي الأحرار ، وثبت إنتسابهم إلى صنهاجة أي مباشرة إلى البربر المغاربة ذوي القامات الطويلة والسمرة الخفيفة والأنف الطويل الضيق ، والأطراف الدقيقة ، ويعتز التوارك بأنسابهم تلك ، ويصرون على الظهور بمظهر النبالة والسيادة ، وقد حافظوا على نقاوتهم الدموية ولكنهم كغيرهم من قبائل الصحراء المترحلة لم يستنكفوا من التزوج بالزنجيات ، فأتت أجيال منهم داكنة اللون ، مع بروز الأرداف عند النساء ، ورغم أسلامهم ، ومساهمتهم المعروفة في نقل الاسلام فقد ظلوا على بعض عاداتهم الوثنية في الامتناع عن أكل الدجاج والبيض والسمك ووزغ الصحراء .

وقد يصح أيضا أن التوارك كانوا عشائر وقبائل متعددة الأصول اتحدت مع بعضها ضمن صنهاجة التي كانت تشكل الأغلبية من بين تلك العشائر [2] ومهما يكن فان التوارك لعبوا دورا في التأثير على الحياة الاجتماعية والسياسية بالسودان ، فقد أسسوا به بعض الحواضر ،وأغنوا المجتمعات السودانية ببعض عاداتهم الحضارية ، وقد يكون الفضل عائدا إليهم في الايحاء بالأخذ بالطبقات الاجتماعية بالسودان وتحديد مقاماتها إذ عرفوا ذلك النظام قبل أن تأخذ به الممالك السودانية فيما بعد[3] ، وكان التوارك يقسمون مجتمعهم إلى طبقات ثلاث : طبقة الأسياد (ايماجيهان) وطبقة الأحرار (أيها كارن) وطبقة الخدم والعبيد (إيمغاد) ، ويتكلم التوارك لغة خاصة بهم لها علاقة بلغة التامازيغت التي يتكلم بها سكان جبال الأطلس وتدعى عندهم (التماجة) ، ويكتبون تلك اللغة بحسب نطق حروفها بأبجدية (التيفيناغ) ، وهي مشتقة في الغالب من كتابة لوبية قديمة [4] .

(١) السعدى ص ٢٥ ـ ٢٦

(٢) Geographie Universelle. OP. cit. pp. 326 — 327

(٣) بوفيل ص ٧٢

(٤) المكان السابق

(٥) المكان السابق وGeographie Universselle. P 328

وعند مجيء المغاربة إلى تنبوكتو حالفهم التوارك وتعاونت أكثريتهم فعلا مع الجيش المغربي الذي أسكنهم في شمال وشرق تنبوكتو ووجه قسما منهم للتوطن في قرية رأس الماء ، وتوج عليهم سلطانين أقاما نظاما ملكيا في الجهتين معا ، وكان هؤلاء التوارك الحلفاء ينتسبون في معظمهم لقبيلة (مغشرن) ولعشيرة (اليولمدن) التي إزدادت أهميتها فيما بعد ، وفي السنوات الأولى من القرن السابع عشر هاجرت أفخاذ من قبيلة كبرى كانت تقطن في جبال الهكار الى أرباض تنبوكتو مع أبنائها وقطعانها وطلبت من الباشا قبول طاعتها للسلطان والموافقة على سكنى تنبوكتو .

وكانت تلك الأفخاذ الوافدة الجديدة وفيرة العدد فيما يظهر حيث زادت قوة العنصر التاركي في المدينة فأصبح له دور أهم في المجال الاقتصادي والسياسي كذلك ، وتلك الأفخاذ هي تدموكيت وسلطانها (بابا أما) وأدروفن وسلطانها (بابا أكمني) وأولاد شروكان ،وسلطانها، أومولوسو[1] ، وقد كان لأولئك السلاطين مقام عند الجيش ، وتقلد بعضهم مناصب إدارية مختلفة إلى جانب مسؤ ولياته التقليدية . وتولى الجيش المغربي تنصيب السلاطين والزعماء واقالتهم ، ولم تكن البيعة تتم لسلطان منهم إلا في المشور بتنبوكتو « وتلك عادة معروفة من زمان أسلافهم »[٣] ، ويصف المجهول حفلة تنصيب السلطان وصفا مشوقا » فعندما أتى غمان التاركي سلطان ولمدان لطلب الرئاسة عندهم [٤] . . أحضروه بين يدي الباشا مع حضور الجيش وأعطاه عادته المعروفة من بينهم وهي إثنان من الخيل أشهب وأحمر وقميص لثال السوسي وشربيل (حذاء) من الدحى . . وحضرت له أصحاب الشغل كالغياطة والرباب وضربوا عليه ، وخرجوا معه في القصبة وهو راكب إلى البر عند قباه ، ومعه (أي الباشا) أهل

---

(١) السعدي ص ٣٢٠ - ٣٢١
(٢) المصدر السابق ص ٣٧
(٣) المجهول - تذكرة - ص ١٥٥
(٤) المكان السابق

الدائرة والباشوظات والضباشيات إلى أن وصلوه إلى منزله في البرو ورجعوا إلى القصبة »[1] .

كان التوارك يعيشون حياة الترحل ، ولكنهم إمتلكوا بعض القرى فيا بين تنبوكتو وأروان وفي غرب بحيرة فاكوبين إتخذوها مشتى لهم ، وكانوا يمتلكون قطعانا من الأغنام والأبقار ويربون الخيول ويجمعون الأعشاب اليابسة من المستنقعات ويبيعون كل ذلك في الأسواق القريبة من مضاربهم ، وقبل فصل الأمطار (أغسطس) كانوا يتركون المزارع لعبيدهم ويتجهون إلى الشمال ، ويعود الفضل إلى التوارك في حفر الآبار على طرق القوافل[2] ، وحماية القرى على طريق تنبوكتو ، غير أنهم أصبحوا وبالا على الأمن بعد العهد المغربي الأول ، وأدى صراعهم مع البرابيش إلى تهديد التجارة وقطع الطرق في بعض الأحيان[3] .

يكثر عند التوارك الانتساب الى الأم ، والاختلاط بين الرجل والمرأة ، ويستعمل الرجل الكحل الأزرق ويضع اللثام على وجهه حتى وقت الأكل والنوم ، بينما تبدو المرأة حاسرة الوجه مع خطوط الوشم التي تغطي الجبهة والدقن ، ويغلب على الأنثى السمن بسبب قلة الحركة والتغذية الجيدة ، وبينما تكاد تنعدم الأمراض التناسلية والوبائية بينهم فان مرض التراخوما اعتبر من الأمراض المستوطنة في بلاد التوارك ، وينسب مؤ رخو السودان إلى توارك السودان عادات سيئة[4] ولكن تلك الأحكام تحوي الكثير من الظلم والتجني لأنها صدرت عن مفكري تنبوكتو الذين إتهموا التوارك بأنهم ضلعوا مع الجيش في تعذيب العلماء والحاق الأذى بهم أثناء ثورة تنبوكتو .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٦
(٢) بوفيل ص ٧٤
(٣) المكان السابق
(٤) السعدى ص ٢٣

كنتة والبرابيش :

تعتبر كنتة من الزوايا أو المرابطين ، وهم في الواقع « قبائل كثيرة أغلب سيرها في تعلم العلم وتعليمه وتعمير الأرض بحفر الآبار ، وتسيير القوافل وقرى الضيف ، وبقيت خطة هذه الطائفة التي هي عمارة الأرض مستمرة على ذلك »[1] .

وكنتة كالبرابيش قبائل عربية صرفة عاشت في أدرار حول شنقيط ، وقد تقدمت إلى الواحات الصحراوية[2] وسكنت في شرقي تنبوكتو على بعد ثلاثة أيام منها في أواخر القرن السادس عشر ، ولما كانت مضارب كنتة وقرى مشتاها ضمن بلاد البرابيش فان الخلاف بين القبيلتين كان محتدما باستمرار ، وبصفة خاصة حول موضوع ملكية إحدى أكبر قرى السودان : أزواد ، ولكن الغلبة كانت لكنتة لقوة شوكتها وكثرة بطونها وغناها بالماشية وتسييرها للقوافل التجارية وامتلاكها لمالح أيجيل الصحراوية ، وكانت لكنتة منافسة أيضاً مع توارك إقليم تنبوكتو حول الآبار والمراعي ، ولكن احترام الشعوب السودانية لكنتة كان ملحوظا لمكانتها العلمية ولنسبها الشريف[3] ، ومن أجل ذلك فان السودانيين كانوا يوسعون لها في الأرض ويتيحون لرجالها أسباب التشجيع في التجارة والزراعة .

وقد كان لكنتة دور رئيسي في حماية قوافل التجارة شبيه بدور التوارك في بداية القرن السابع عشر وتطوع رجالها كل سنة لمرافقة وفد الحجاج إلى مكة ، ولهذا كان

---

(١) الشنقيطي مصدر سابق ص ٤٧٨

(٢) لا يستبعد بوفيل أن يكون بعض رجال كنتة قد صاهروا اليهود جنوب غرب الصحراء ص ٧٩

(٣) حسب لانز فان شجرة كنتة كما يلي . عقبة بن نافع فاتح المغرب - سقبرة - يدروبة - سعيد - عبد الكريم - محمد يشا - دومان - يحيي - علي - سيدي أحمد الكنتي (دفين الساقية الحمراء) - سيدى أحمد البكاي (دفين ولاتة) - سيدى عمر الشيخ (توفي بالسودان عام ١٥٥٣) - سيدى الوافي - سيدى هيبل الله - سيدى محمد - سيد أبو بكر - بابا أحمد - المختار الكبير (المتوفي عام ١٨١١) - سيدى محمد المختار المتوفي في ١٥ مايو ١٨٢٦ - سيدى المختار - سيدى أحمد البكاى - عابدين (المولود عام ١٨٤٨) ، لانز ج ٢ ص ١٣٣ .

الحجاج من شمال أفريقيا يتعلقون بالركب الذي تحرسه كنتة ، والذي كان يسمى ركب شنقيط [1] .

ولكن لم تبلغ هذه القبائل في العهد المغربي ما بلغته فيما بعد من قوة وانتشار في الأرض وكان عدد عشائرها بالقرب من تنبوكتو منذ مجيئها خمسة وهي : الركاجدة ـ أولاد الوافي ، وأولاد سيدي المختار ، وأولاد الحمال والطوغات ، ولعلها كانت في ذلك الوقت منعزلة عن المجتمع السوداني ، وقد ظلت حياتها على صفائها الأول وعاداتها نابعة من أصالة قبلية عربية صرفة ، وقد وصف الشنقيطي رجال كنتة بأنهم لا يشهدون الزور ولا يتحرجون من مال الغير « وان أهل الجاه منهم لا يأخذون على جاههم ثمنا ، وان التعليم والأمامة يكونان مجانا عندهم ومن كان مع العالم في بلد لا يأخذ منه أجره . . وربما التزم هذا العالم نفقة الغريب وكسوته وعلمه أيضا » ، « وكان ينتقد عليهم كثرة التيمم . . وقد رأينا بعضهم يأخذ الدلو إلى فم البئر ويصبه في الحوض فيخوض في الماء إلى الكعبين ثم يخرج ويتيمم » [2] .

وقد كانت لقبائل كنتة المقيمة في أدرار أو تنبوكتو علاقة الدم مع بعض الفروع التي إنتقلت أيضا إلى الساقية الحمراء وسوس ، ويقول السوسي بأن أصل هؤلاء من تجاكانت بناحية تندوف وقد إنتقلوا إليها من اليمن ثم توزعوا ما بين (القصابي) في سوس وولاتة في الصحراء ، ومن ولاتة هاجر الكنتيون إلى أروان حيث إشتغلوا بالتجارة وتربية المواشي والعلم ، ويعطي المؤ رخ كثيرا من المعلومات القيمة عن الصلات التي كانت قائمة بين فروع تلك القبيلة في سوس والسودان وعن بعض عاداتها وانتاجها العلمي والأدبي [3] .

أما قبائل البوابيس فكانت أقدم هجرة إلى السودان من كنتة وأكثر إختلاطا

---

(١) الشنقيطي ص ٤٢٦
(٢) المصدر السابق ص ٤٤٩
(٣) السوسي ـ خلال جزولة ج ٣ ص ٤٧ ـ ٤٨

بسكانه منها ، وكانت مضارب رجال البرابيش في بداية القرن السابع عشر فيما بين موطن التوارك ونهر النيجر ، أما أقسامهم فهي : النصرة ـ أولاد بوحنطة ـ التواشي ـ الطرشان ـ أولاد البات ـ تاشوط ـ الغكارة ـ يطوز ـ السكاكنة ـ موشيلا ، وقامت حياتهم على تربية الجمال والغنم والماعز ، وزراعة النخيل وجمع الصمغ ـ والقيافة ، واحتفظوا بعاداتهم العربية الأصيلة التي تأثر بها من إختلط بهم من أقوام السودان [1] .

٢) الطبقات الاجتماعية

عرف السودان منذ القديم نظام الطبقات في مجتمعه الحضري والريفي والقبلي على حد سواء ، وقد يبدو على هذا النظام انه كان متسامحا إذا ما إنتقل شخص من طبقة لأخرى بفضل ما قد يكتسبه من مال أو علم أو ترقية في الجيش بخلاف ما كان عليه الشأن في أوروبا عند بداية العصور الحديثة ولكنه كان كثير التشدد إذا ما رغب منتسب لطبقة معينة في تجاهل القيود التي يفرضها عليه إنتماؤه لطبقته كأن يزوج إبنته من فتى دون مركزها الاجتماعي ، أو يوصي لعبد من عبيده بتركته أو ببعضها ، وحاول الاسلام أن يمحو هذه القيود دون أن يحصل من وراء ذلك على نجاح كبير ، وأقصى ما إستطاع الوصول إليه هو توفير الاعتبار لمن نطق بالشهادتين من العامة فأصبح بذلك أخا للملك أو الأمير أو القائد بشكل مبدئي ، وتمكين العلماء من أن يكسبوا قدرا من التقدير رفعهم في أعين كل طبقات المجتمع السوداني .

وعندما أتى المغاربة الى السودان وجدوا ثلاث طبقات إجتماعية ، واضحة المراتب ، بينة الحدود وهي : طبقة الأمراء والنبلاء وقادة الجيش ، والطبقة الوسطى التي ضمت التجار الكبار وعلماء الدين والموظفين السامين والطبقة الدنيا وشملت الجنود ، والأقيان والحرفيين والعبيد ورعايا الممالك المحمية [2]

(1) Geographie Universelle, op. cit P 329

(٢) ربادية ـ مملكة ص ١١٣

ولم يحاول الباشوات تغيير هذا النظام أو تعديله لأن إستمراره كان مفيدا لهم من حيث كونه يبقي على المواجهة داخل المجتمع السوداني ، وكان من جهة أخرى غير مختلف عما عرفه المجتمع السعدى الطبقي نفسه [1] .

غير أنه لم تعد لطبقة الأمراء وقواد الجيش ما كان لها من إمتيازات في عهد السونغاي ،فالأسكيا الذي كان هو وأفراد عائلته يمتلكون النهر وسفنه والأرض ومن عليها لم تطلهم الأحكام أو يحاسبوا على شيء باعتبار أن أرض السودان وما حوت ملك لهم وتحت إشارتهم لم يعد يسمح لهم وضعهم الجديد في ظل الحكم المغربي بشيء من ذلك وحتى الطبقة الحاكمة المغربية لم يكن في نيتها أن ترث الحكم السابق بكل إمتيازاته بل أعطت الانطباع بأنها تؤدي واجبا كلفه بها الخليفة في مراكش .

وبصفة عامة فان طبقة أمراء البيت المالك لم تفقد كل إمتيازاتها الطبقية الرمزية وظلت تتمتع بها لمدة قرون عديدة [2] كما أن الطبقة الحاكمة الجديدة المشكلة من الباشا والوزراء وكبار القادة لم تطمع في أن تستأثر بما فقده الأولون بل وأكثر من ذلك فانها سعت في تحطيم الحدود التي كانت قائمة بين الطبقة الأولى والثانية في بعض المجالات .

والأمر الذي يمكن التأكد منه هو أن الطبقة الثانية قد نمت واتسعت في العهد المغربي ، فبعد أن ضمت في السابق كبار التجار وجمهرة العلماء آصبحت تحوي بالاضافة إلى ذلك الصناع المهرة الأندلسيين والشرفاء ورؤساء القبائل ونبلاء التوارك من طبقة (أيها كارن) ، ويبدو أن مقياس الانتماء لتلك الطبقة الوسطى

---

(١) يذكر الدكتور كريم ان أمراء البيت السعدى المالك وأفراد الأسرة كانوا في قمة الهرم الاجتماعي ، وتأتي بعد ذلك طبقة كبار السياسيين والحكام والقادة العسكريين وكانت لها مداخيل قارة من الهبات والاقطاعات ثم طبقة الشرفاء والقضاة والكتاب والأشياخ ، ثم طبقة التجار ، وفي أسفل الهرم تأتي طبقة العامة من حرفيين وجنود وجمهرة الناس ، (المغرب في عهد الدولة السعدية ص ٢٩٠ ـ ٢٩١)

(٢) كابي ج ٢ ص ٣٠٨

كان هو المال والمستوى الفكري والحضاري[1] والانتساب للبيت النبوي ، ولا شك أن الفضل يعود لهذه الطبقة في ترسيخ أقدام المغاربة بالسودان ، بما كان لها من نفوذ إقتصادي وسياسي ، وللصلات المتينة التي ربطتها بالطبقة البورجوازية المغربية التي علقت آمالها على خيرات السودان وعلى التحكم في الطرق التجارية[2] .

واذا كانت هذه الطبقة قد نمت في العهد المغربي فانها أصبحت أيضا تتولى المناصب الادارية والوظائف بخلاف ما كان عليه الشأن في عهد السونغاي[3] .

وهناك فرق ثالث بين امتيازات الطبقتين الأولى والثانية في العهدين . فبينما كان يحظر على افراد الطبقة الثانية امتلاك الأراضي التي كانت من نصيب النبلاء ، أصبح الأندلسيون والشرفاء من بين أكبر ملاكي الأرض ، بالاضافة الى امتلاك العقارات داخل المدن والقرى الذي كان مباحا للجميع ، وبصفة عامة « فقد أصبح المغاربة العرب يؤلفون أحسن وأهم عناصر سكان السودان »[4] .

وكان من أهم ظواهر الانتماء للطبقة الوسطى النسب العائلي ، ومن العائلات الكبيرة التي عرفتها تنبوكتو ودييني وغيرهما نذكر :

ـ عائلات فاسية : العلج ـ ابن حسون ـ ابن علي ـ ابن سعيد ـ ابن الشيخ ـ الحيوني ـ الجرواسي ـ بن جلون ـ بن منصور ـ القصرى ـ المنبهي ـ الغرناطي ـ الرامي .ـ العمراني .

ـ عائلات مراكشية : حسوا ـ ابن مبارك ـ بن رحمون ـ بن القايد ـ الأجناسي ـ ابن سعدون ـ الزعري ـ الفرجي ـ الشتوكي ـ أو نظام ـ بويوقف ـ الحكيل .

---

(١) كابي ص ٣٤٤
(٢) كريم ـ ص ٢٦١
(٣) زبادية ـ مملكة ص ١١٦
(٤) لانز ج ٢ ص ١٥٣

ـ عائلات قدمت من شراكة : ذو النون ـ بن عثمان ـ التلمساني ـ الشركي ـ الفشتالي ـ عجرود ـ المحمودي ـ المداسني ـ العامري ـ السناوني .

عائلات درعوية : الزرقيني ـ الأعمشي ـ الدرعي ـ الكنتي ـ الجراري ـ الماسي ـ الحساني . أما الطبقة الثالثة فكانت حتى في ظل الحكم المغربي تمثل طبقة الانتاج والعمل ، وتضم مجموع الفئات الشعبية اذ اندرج تحتها الحرفيون والأقيان والعبيد والحراطون والرعاة والصيادون .

العبيد : كانوا خمسة أقسام هي ، الأقيان الذين ارتقى بهم ذكاؤهم وجهدهم الخاص الى أن يصبحوا قادة وموظفين ، وعبيد الدار الذين عملوا في المشور وكان لهم دور سياسي بعد الفترة الأولى للحكم المغربي ، وعبيد الحكام وكبار رجال الدولة والضباط وكانوا ينفذون الأحكام ويزاولون بعض المهام الادارية ، وعبيد الحكام وكبار رجال الدولة والضباط وكانوا ينفذون الأحكام ويزاولون بعض المهام الادارية ، وعبيد العلماء والشرفاء الذين تلقوا بعض العلوم ، ثم عبيد التجار وملاك الأراضي وقد وضعت قيود على تلك الفئات سواء فيما يخص معاملة أفرادها أو فيما يتعلق بالزواج بينها أو منها ومكانة الطفل المولود في احداها ومكانة العبد المقدم كهدية أودية أو فدية أو صدقة[1].

لقد كان المفروض في السودان أن يتصف شخص بالعبودية عندما يؤسر ضمن بلاد الوثنيين ، أو عندما تقوم علاقة انتاج بين مالك الأرض والعاملين فيها ثم تتحول الى حالة من الارتباط الدائم بتلك الأرض عن طريق خدمتها وخدمة المالك ، ويبدو أن ازدهار النخاسة في القرن السادس عشر قد أدى ببعض أساكي السودان الى تنظيم فئات العبيد وطبقاتهم على النحو المذكور آنفا ، فالأسكيا داود جعل على عبيد كل قرية رئيسا سماه (فنفي) ، ويأتمر الفنافي بأمر رئيس أعلى يوجد

---

(١) كعتو ص ٧٢

مقره بغاو يدعى (ميساكل الله) ، وكان على العبيد تحت أمرة رؤ سائهم أن يعملوا في الأراضي التي هي ملك اعتيادي للملك والحكام والأمراء ، ويدفعوا منتوج عملهم الى موظفي القصر بعد كل موسم[1] ، وكان الأسكيا يستولي على تركة العبيد وباعتبار أنه المالك الشرعي لهم وكان يسمح ببيعهم بالسعر المحدد لذلك (ما بين ٥٠ ـ ٨٠ مثقالا للواحد) أو يبيعهم بنفسه للتجار[2] ، وقد قام بعض الأساكي بحملات لا مبر ر لها الا اصطياد العبيد في بلاد التوكولور[3] ، وبعد ذلك تصبح عائلات بكاملها ملكا له ولعائلته ، وتعتبر جزءا من أثاث القصور ومن الأرض التي يملكها هو أو النبلاء[4] ، ولم يكن في عهد الأساكي احترام للعبيد باستثناء عبيد كنتة والتوارك وعبيد الشرفاء السعديين الذين لم يدخلوا في ملكية العائلة المالكة[5] .

ولقد كان من طرق الحصول على العبيد بالاضافة الى الغارات قيام القبائل ببيع بعض ابنائها وقت المجاعات أو بتقديم الدية أو الهدية للحكام وعند اقتراف بعض النساء جريمة الزنى يقع طردهن وبيعهن ، أما سكان الواحات فلجأوا الى طريقة المقايضة للحصول على عبيد للعمل في الزراعة وجمع الصمغ والرعي وأغلب رقيقهم أتى من قبيلتي البوزو والبامبارا ويسمى أولادهم بالحراطين عندما تعاد اليهم حريتهم لسبب من الأسباب[6] ، وقد عمل العبيد خارج المدن في زراعة

---

(١) المصدر السابق ص ٩٥

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ، ويذكر السعدى أثمانا أقل من ذلك في عهد الأسكيا اسماعيل (ص ٩٥) .

(٣) بوفيل ص ١١٢ ذكر أن رجال قبيلة الفراوى التوكولورية كانوا مفضلين على غيرهم .

(٤) H. Techer «coutumes des Tandas». Bull de la commission d'Etudes hist et seien de l'A.O.F- 1933 - No: 4 p 636

(٥) كعتو ص ١٢٣ و ١٤٣

(٦) بوفيل ص ٣١٧

الأرز والصيد النهري والبناءوفيالمدن عملوا في المهن الحقيرة كبيع الماء لفائدة مالكي دواب الحمل[1] وبيع الحطب والحليب.

كان جلب الرقيق الى المغرب يجري ضمن العمل التجاري الكلاسيكي منذ العصور القديمة[2] ، ولم تتأثر تلك التجارة بالتوسع الكبير في صيد رجال القبائل وارسالهم عبر البحار الذي باشره النخاسون الأوروبيون[3] ، كما لم يكن للمغرب يد أو مشاركة في ذلك ، ويقدر غات أن وسطى ما كان يصل الى المغرب بواسطة التجار لم يزد على الألف كل سنة[4] ، ولكن رافقت هذه التجارة المحدودة هجرة جماعية اختيارية لبعض الزنوج الذين توجهوا الى واحات وقرى سوس طلبا للعمل[5] ، ولاحظ كثير من الجغرافيين وعلماء الاجتماع وجود هذه الأعداد الكبيرة التي لم تدخل قط في نطاق الاسترقاق الذي كان يلقى كثيرا من النقد في عهد السعديين[6] ، أما ما أرسله باشوات السودان الى مراكش كهدايا للسلطان فكان يجند في الغالب ضمن فرق الجيش وفي الاسطول ، ولم تكن أعداده كبيرة[7] .

وقد قام المختار السوسي بدراسات ميدانية حول زنوج سوس واصولهم وأماكن استقرارهم ، فوجد بعض القرى كقرية (اكرض) لم يسكنها غيرهم تقريبا (٢٣٠ كانونا من ٢٨٠)[8] ، وبعضها الآخر تسكنه أغلبية سوداء كقرية

---

(١) كاييي ج٢ ص ٣١٥ و٣٢١ و٣٢٢

(٢) بوفيل ص ١١١

(٣) يراجع A. Dim Delobsom «l'Empire du Morko- Naba» Paris Domot, 1932
كانت أول شحنة من العبيد الغانيين قد وصلت كوبا سنة ١٥١٠ ، وزادت هذه التجارة حتى وصل مجموع ما أرسل لأمريكا ٢,٥ مليون نسمة .

(٤) Gat. (A.T) ch. 5

(٥) Deverdum, «Marrakech - OP. cit T.1 P 440

(٦) زياده - ص ٩٢

(٧) الفشتالي ص ١٦٧

(٨) السوسي - خلال جزولة ج٢ ص ١٥

حصن الحجر ، التي كان رئيسها في القرن السابع عشر وأبناؤه من بعده يتاجرون مع السودان[1] ، وتحدث السوسي كذلك عن قرية أقا التي وجد سكانها السود عراة كما ولدتهم امهاتهم[2] ، وأبرز المؤرخ في موضع آخر المكانة التي كانت للسود في سوس خلال القرن السابع عشر والثامن عشر ، فقد أغاروا على القرى المجاورة بالسلاح الناري واستولوا على مزارع وقصور متعددة[3] ، وأكد أيضا أن قرية بسوس اسمها تامدولت بناها وسكنها مهاجرون أتوا من تنبوكتو مباشرة ولم يكونوا سودا كلهم[4] .

ويتحدث المختار السوسي في دراسات مطولة عن التجارة بين جنوب المغرب وتنبوكتو والزيارات التي قام بها علماء وفقهاء من سوس الى مدن السودان ، أو شخصيات علمية سودانية الى المغرب بعد القرن السادس عشر ، ويتعرض لتجارة العبيد التي زاولها حتى بعض الفقهاء ، وكانت نتيجة كل ذلك ازدياد الوشائج الدموية بين الشمال والجنوب وسنذكر أمثلة من ذلك :

ـ الحسين بن عبد الله الجشتيمي : كان من رجال العلم ، سافر الى بلاد السودان بنية شراء العبيد ولكنه عندما اجتمع مع الشيخ سيدى المختار الكنتي دخل خلوته الصوفية وأصبح من مريديه ثم لازم ابنه من بعده[5] .

سيدي أحمد الجشتيمي : سافر بقصد التجارة في السودان وتوفي هناك ، وقد أخذ حفيده الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر مكانته في العلم والتجارة معا[6] .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٥
(٢) المصدر السابق ص ٤٢
(٣) المصدر السابق ص ٦٧
(٤) المعسول ج ١٨ ص ١٦٧
(٥) السوسي ، المعسول ، الجزء السادس ص ١٩
(٦) المصدر السابق ص ١٦٢

ـ محمد الصغير دوكنا : كان مشهورا بالبسالة والعبادة وله مشاركة في المعارف اشتغل بالتجارة الى تنبوكتو فاكتسب أموالا طائلة من تجارة العبيد[1] .

ـ منتلا بن احمد دوكنا : عالم جليل ، تلقى العلم في أقا وتندوف وتضلع في الفقه وانتقل الى ولاته وتنبوكتو[2] .

ـ القاضي محمد الأقاوى : حفيد سيدى يحيى دفين تنبوكتو ، وقد نزح قسم من عائلة سيدي يحيى من السودان الى تامدولت ثم انتقلوا الى أقا ، وكانوا أصحاب شرف وعلم وتجارة[3] .

والخلاصة أن الاسترقاق الذي عرفه السودان المغربي لم يخرج عن نطاق التجارة العادية والمحدودة وكان العبيد يعاملون معاملة حسنة بالمغرب ، ويعتبرون خداما للسلطان وتحت حمايته فلم يكن يسمح باستعمال العنف في معاملتهم وغالبا ما كانوا يتحررون بموجب أحد الأوجه التي كان يقرها الشرع الاسلامي[4] .

وكان عدد السود في المغرب كبيرا في نهاية العهد السعدي وأغلبهم من البامبارا ، وقد أصبحوا في حياة السلطان مولاي اسماعيل يشكلون احدى فرق الجيش وينالون أحسن المراكز السياسية والعسكرية ثم لعبوا أدوارا مهمة في التاريخ المغربي[5] شبيهة بما لعبه الأفارقة السود في الأندلس من قبل .

وأعطيت الأهمية للعبيد في ظل الحكم المغربي بالسودان أيضا ، فاعتمد

---

(١) المصدر السابق ج ١٨ ص ١٦٠

(٢) البمصدر السابق ص ١٦٥

(٣) المصدر السابق ص ١٦٦ ، ينتسب أولاد سيدي يحيى للامام علي بن ابي طالب ، وموطنهم الأول كان بقرية (أسا) في جنوب المغرب ، ثم انتقل من هناك الولى سيديلأيحيى الذي كان له مقام كبير في تنبوكتو .

(٤) لانز ج٢ ص ٣٩٦

(٥) المصدر السابق ص ٣٩٤

عليهم الباشوات في تحريك عملية الانتاج ، واشركوهم في مسؤوليات الادارة وخاصة منهم طبقة الأقيان والخصيان التي عهد اليها بالعمل في مناجم الذهب وكذلك في المشور لحراسة الحريم[1] ، وما من شك في أن المولدين الذين سماهم المغاربة (بأهل الدار) وأطلقت عليهم التسمية السودانية (ولوزو) كانوا احسن حالا من بعض فئات الطبقة الثانية[2] ، وقد تكونت في نهاية العهد المغربي الأول فرقة عسكرية خاصة بهؤلاء المولدين دعيت (لوغا) ، ومما كان يسند اليها المحافظة على الأمن في الأسواق وحماية الطريق الى كابارا ، واقامة الحراسة حول المشور وعند أبواب المدينة بعد موت حاكم واجراء المشاورات لانتخاب حاكم آخر وانتشرت تلك الفرق في أغلب الأقاليم السودانية فيما بعد[3] .

ولم تنل الفئات الاجتماعية الأخرى الواقعة في أسفل الهرم أية مكانة في المجتمع السوداني وان كانت أحوال الحرفيين قد تحسنت في العهد المغربي[4] إذ أصبح الصناع يمتلكون الدور ووسائل العمل ويشاركون التجار ويتصلون مباشرة بأصحاب القوافل والسفن ، وانه عند الحديث عن الطبقات الاجتماعية السودانية لابد من التعرض لطبقة مغلقة منعزلة عرفتها أغلب حواضر السودان ، وهي طبقة اليهود .

لقد توطن **اليهود** المناطق الغربية من السودان منذ العهود الرومانية حيث رافقوا القبائل البربرية التي كانت تفر تباعا من العسف الروماني ، وتحدث مؤرخو السودان عن مملكة يهودية وعن ملوكها السبعة وجيوشها الكثيرة المشكلة أساسا من المرتزقة ، وأتت جاليات أخرى في العهد المسيحي هربا من عمليات

---

(١) بوفيل ص ٣١٥

(٢) لانز ص ١٦٥ ـ ١٦٦

(٣) يراجع Charles Monteil «les Bambaras de Segou et du Kaarta. Paris Larose. 1924

(٤) زبادية ـ مملكة ص ١٢٣

اضطهاد اليهود[1] ، ويبدو أن موجة جديدة من توات قد احضرت الى غاو بطلب من الأسكيا الحاج محمد ، كما واصل يهود تافيلالت معاملاتهم التجارية مع تنبوكتو في العهد المغربي ، وتوطن بعض هؤلاء المراكز التجارية التي مرت منها قوافل التجارة أو التي كانت تنتهي اليها ، وقد أصبح اليهود الوسطاء المفضلين بين تجار السودان وسماسرة أوروبا وأصحاب السفن على اختلاف جنسياتهم[2] ، اذ كان أتقانهم للغات الأجنبية وتمرسهم بالعمل التجاري معروفين لقد تحدثت كثير من المصادر الأوربية عما لاقاه اليهود في السودان من قتل وتشريد بعد دعوة المغيلي الذي بدأها في توات وحملها معه الى تنبوكتو وكانو وغاو[3] ، وعن استمرار اضطهاد اليهود بعد ذلك ، ولكننا لا نميل الى تصديق هذا الأمر حيث لا نجد في التاريخ المتأخر للسونغاي وفي بداية الحكم المغربي أن دور الجالية اليهودية قد تقلص أو اضطرب اكثر من هذا فان السعديين واظبوا على رعاية اليهود بالمغرب ومنحتهم السلطات المحلية حمايتها ومنعت الاعتداء عليهم في احيائهم الخاصة (الملاح) وبلغ عدد يهود مراكش في عهد المنصور السعدي ستة آلاف نسمة وكانت بيعتم تلعب دورا لم يقل عن دور المسجد أو الكنيسة[4] ، وتحدث لانزعن الحرية التي تمتع بها اليهود في مدن السودان وخاصة اولئك الذين أتوا مع الحملة المغربية وخص منهم بالذكر يهود الأندلس الذين كان لهم حاخام في بداية القرن السابع عشر يدعى (مردخاي) وعمل بعض أولئك اليهود كمرشدين للقوافل التجارية أو نوابا لكبار تجار أقا وتافيلالت الذين بلغ عددهم الآلاف (١٠٠٠ في تارودانت (المحمدية) و ٦٠٠٠ آلاف موزعين على مختلف المدن الأخرى[5] . .

---

(١) بوفيل ص ٧٥
(٢) حجي - مصدر سابق ص ٢٦٦
(٣) بوفيل ص ١٤٢
(٤) حركات ج٢ ص ٦٢
(٥) لانز ج٢ ص ٣٩٢

وكان لليهود في مدن السودان احياء خاصة بهم ، وقد دفعوا الجزية للأسكيا ولباشوات السودان مقابل الحماية المبذولة لهم ، وكانت لهم عاداتهم الخاصة في المأكل والملبس والاحتفال كما قصدوا الى أضرحة حاخاماتهم بالذبائح والصلوات ، غير أن تأثيرهم على المجتمع السوداني ظل ضعيفا ومحصورا في بعض الجوانب المظهرية .

٣) عادات المجتمع الحضري

لقد كانت عادات المجتمع الحضري السوداني خليطا معقدا من التقاليد القديمة ، ومن التأثيرات التي حملها المغاربة معهم وانتقلت الى السودانيين على مر السنين وظهرت هذه التأثيرات في الحياة اليومية ، والعادات واللباس والزينة والطعام والشراب والأثاث المنزلي والفنون .

أ) اللباس والهندام :

كان اللون الأسود والأزرق مفضلين في المجتمع الاسلامي السوداني منذ عهد المرابطين ثم اتخذ كانكان موسى بعد عودته من الحج اللون الأخضر شعارا للدولة وانتشر استعماله في دولة مالي ولكن بقيت للألوان الداكنة رواجها واتساع استعمالها ، وكان اللون الأبيض مع عمامة زرقاء اللباس التقليدي للعلماء والأئمة الى أن أصبح شعارا للدولة في بداية القرن السابع عشر ، وغدا كبار القادة وكبار الموظفين يتخذونه في المناسبات الرسمية ، حتى شاع استعماله بين مختلف الطبقات ، وكان اللباس في المدن شبيها بلباس سكان الواحات وجنوب المغرب ، وقد لبس التجار والعلماء الدراريع والسراويل على اختلاف أطوالها واتساعها مع عمامة كبيرة لبسها الرجل والمرأة معا وسميت (ديالاموكو) ، أما في الفصل البارد فقد استعمل البرنس الصوفي الخشن ذو الألوان البنية أو القمحية أو الزرقاء وكان

البرنس السوداني يدعى (برموسو)[1] .

والطابع العام الذي طبع الملابس والبيوت السكنية في المدن هو النظافة وجمال المظهر ولم يكن الرجل يغادر منزله للصلاة أو السوق اذا كانت ثيابه غير نظيفة[2] وخاصة يوم الجمعة ويوم العيد .

واختص قادة الجند وامراء السونغاي في العهد المغربي بلبس البدل العسكرية الفضفاضة مع تعليق السلاسل الذهبية والتهاليل الفضية[3] وكان الغرباء يلبسون ملابسهم التقليدية في شوارع المدن واسواقها فالتواركي بلباسه الأزرق ولثامه وأساوره[4] وبعض أفراد القبائل أو العبيد ببدلاتهم المتخذة من جلود الحيوانات ، أما توارك الهكار فكان في الامكان التعرف عليهم بمعاطف الجلد الواسعة التي كانوا يرتدونها في الفصل البارد[5] .

ولعل من أطرف ما يمكن أن يراه الانسان في مدن السودان شعر الأطفال والنساء بعد تصفيفه أو حلاقته ، فالنساء المغربيات أو التواركيات كن يرسلن ضفائر على جوانب الرأس أو يجدلنها على هيأة جدائل صغيرة منسقة حول العنق والصدغين ، وتحاط بالحلي وتشد بالخيوط المناسبة للون الشعر ، والنساء الزنجيات من ذوات الشعر الأجعد القصير كن يتخذن أشكالا أكثر تعقيدا ، ويمكن ذكر ثلاثة

---

(١) الواضح أنها تحريف لكلمة برنس ، والظاهر أن السونغاي استعملوا البرنس قبل القرن السابع عشر اذ يذكر كعتو أنه شاع في زمن الأسكيا داود وكان ارتداؤه قاصرا على العلماء وبعض الوجهاء (ص ١٢٣) أما القفطان والمنصورية فقد دخلا السودان في العهد المغربي لانه كان من اختراع احمد المنصور (المقرى - نفح ج٩ ص ٢٨٦) .

(٢) كايي ج٢ ص ٣١٩

(٣) M. De la fosse «haute Senegal- Niger» Paris 1912 P 117

(٤) كايي ج٢ ص ٣٢٧

(٥) D.A.M. Richer «les Touaregs du Niger (les Ollimidens) region de Touboutou et Gao. Paris 1924 P 240

أنواع في مضمار تصفيف شعر الزنجيات وهي : اليويو : وتعني حلاقة ما فوق الأذنين مع ضفيرة واحدة مشدودة بخيط من وبر النخيل القزم ، وديين ديني : وهي أن يحلق الشعر كالسابق ويصف الباقي وسط الرأس على شكل ثلاث كرات ، وكوربوتوريري : وهي تظهر في شكل خصلة ترتفع من على الرأس في الهواء مع خصلتين تتدليان على الخدين وثالثة على العنق واستعملت بعض أنواع الدهون وخاصة الزبدة في تليين الشعر[1] .

وقد أدخل البرابرة ثم العرب حرفة الحلاقة الى السودان ، وجميع الأساليب التي اتخذت في تلك الصنعة وكذلك الآلات كانت كلها عربية ، وكما حدث في المغرب فقد كان الأساس في معالجة شعر الرأس هو قص الشعر كله ، غير أنه في أحوال أخرى كانت تترك بعض أجزاء غير حليقة وتراوحت هذه الأجزاء بين نقطة واحدة في احد جانبي الرأس أو وسطه ، وبين أن يترك نصف شعر الرأس بدون حلاقة وهذه الأشكال لا علاقة لها بمقام الطفل بقدر ما كانت متصلة بالسن ، فبينما تكثر الرسوم في رؤ وس الأطفال واليافعين يقع حلق الشعر كله عند بلوغ سن العشرين ، وأنواع الحلاقة هي : ديكوتى : أي أن يترك الحلاق خصلة صغيرة في رأس الصبي ، ويتولى جدلها في كل حلاقة[2] ، والدازى : عبارة عن ديكوتي مع وجود الخصلة في مؤخرة الرأس وأخذها شكل زينة الطربوش ، وكانت حلاقة الدازي يتميز بها ابناء الشرفاء ، والمانكا : نقطة فوق الأذن وكان يتميز بها أبناء العبيد ، والبونو : وهي أن يحلق نصف الشعر ويترك نصفه الآخر غير حليق[3] .

---

(١) لانز ص ١٨٢ ، دوبوى يعقوبا ص ١٣٠ ، وكاييى ص ٢١١ .

(٢) لازال هذا النوع يوجد في المغرب ويدعى (القرن)

(٣) Dupuis- Yakouba P 134- 135 وفي الأعياد والمواسم يتزاحم الأطفال وحتى الكبار على الحلاقين الذين يتكاثر عددهم بعد أن يتخلى بعضهم عن أعماله الأخرى ليصبح حلاقا ، والحلاق يفترش الأرض في السوق ويضع أدواته في حقيبة جلدية معروفة الشكل ، وقد يعمل كطبيب للجلد والأسنان أو يقوم بالحجامة .

ولا شك أن سكان مدن السودان كانوا اكثر من سكان أي بلد اسلامي تعلقا بالزينة وجمال المظهر فقد استعمل الرجال الخواتم وعلقوا السلاسل والتمائم على أعناقهم وتقلدوا الأسلحة والخناجر ، وتطيبوا بالعطور الزيتية والعشبية التي كانوا يحرقون أنواعا مستوردة منها كالعود أو محلية كالعنبر وقلدوا المغاربة في اتخاذ أواني البخور ومواقده وقوارير الزهر والورد ، أما النساء فكن يعمدن الى وضع الأصباغ على وجوههن ، ولبس القلائد والأحجار الكريمة والزجاجية والأساور والخلاخل والأقراط التي كانت تتدلى من الشعور أو من الأنوف[1] .

ب) الطعام والحلوى والمشروبات :

كان من خصائص المطبخ السوداني البارزة في القرن السابع عشر استعمال الزبدة[2] والتوابل ، والاستهلاك الواسع للسمك ، وغلبة اطباق الأرز على أية أطباق أخرى ، والواقع أن هذه الخصائص مست السواد الأعظم من السكان ، أما الطبقات المترفة في المدن فلم تأكل السمك بل استعاضت عنه بلحوم الغنم والبقر والجمال والدجاج والحمام ، ولم يدخل الأرز في مطابخها الا بشكل ثانوي حيث أصبح الكسكس المتخذ من القمح والشعير والذرة الأكلة المعتمدة في الموائد[3] .

وقد أدخل المغاربة تقليدا فيما يخص وجبات الطعام اليومية تمثل في تناول طعام العشاء ، وكان أهل المدن قبل ذلك يشربون الشاي في العشاء مع بعض الفطائر فقطولا يتناولون شيئا بعد ذلك . أما في الصباح فكانت بعض العائلات في المدن تتناول الأطعمة الدسمة واللحوم والحساء وهذا التقليد الفاسي لم يعرف في

---

(١) لانز ص ١٧٩ ـ ١٨٠

(٢) وصلت كميات قليلة من زيت الزيتون الى تنبوكتو من الشمال في بداية العهد المغربي وبصفة عامة فالطبخ بالزيوت لم يكن معروفا في السودان .

(٣) كابيى ج٢ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤

السابق بتلك البلاد ، ومما لفت نظر من كتبوا عن السودان الأساليب المدهشة التي أتبعت في اعداد اصناف الطعام المعقدة والحلويات ، وخاصة أنواع البسيطة .

وكان ساكن المدن يتناول ثلاث وجبات في اليوم ، فبعد الشروق وحتى الساعة التاسعة صباحا كانت الأسرة تتناول وجبة الفطور ، وقد تضم تلك الوجبة الحساء واللحم المشوي أو المبخر ولكنها تشتمل بشكل عام على الخبز الطري والزبدة والعسل وفي الضحى يتناول السوداني الشاي الأخضر المعطر بالنعنع الى أن تحين الوجبة الرئيسية بعد الظهر ، وقبيل الغروب تصعد الأسر الى أسطح المنازل لتناول الشاي والحلوى وقد يتناول طعام العشاء هناك ولم يكن يختلف الا قليلا عن طعم الغذاء من حيث الدسامة والأنواع المعقدة المتنوعة ، ويقضي الناس جزء من الليل في الأسمار وتداول الأخبار ، ويقبلون أثناء الطعام على تناول المشروبات المختلفة وفي طليعتها الماء المحفوظ في الخوابي والذي يشرب في أواني خزفية مطلية بالقطران ، وقال لانزعن كل ذلك « بأن جميع أدوات الطعام ذكرتني بما شاهدته في المغرب »[1] « أما التنوع في الأطعمة فان الأثر المغربي يمكن أن يلمس في كل الأصناف[2] » .

وغالبا ما يتناول رب المنزل طعامه وحده أو مع ضيوفه ، ولا تأكل المرأة مع زوجها الا في النادر أما أن تأكل المرأة مع محرم فهذا لم تعرفه المدن السودانية قط ، وقد ذكر كايبى أن الحاكم المغربي في عهده (سيدى عبد الله) كان يقدم له الكسكس بلحم الغنم يوميا ولم يلاحظ وجود امرأته وقت تقديم الطعام ، واستمر الحال كذلك عندما انتقل الى دار الضيافة حيث أعد له مضيفه فراشا على الأرض ، أما الطعام فكانت اطباقه تصف على منديل فوق الأرض[3] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨

(٢) لانز ج٢ ص ١٢٩

(٣) كايبي ج٢ ص ٣٠١

وتختص الأعياد وأيام رمضان بأنواع معينة من الأطعمة ويقوم أغلبها على أساس الاستعمال الواسع للسكر والعسل ، ونجد تشابها كبيرا بين ذلك وما عرف عن السعديين من احتفال بهذه المناسبات[١] .

ومما يلفت النظر حقا التنوع الواضح في أصناف الحلويات التي عرفها السودان في العهد المغربي ، وليس من الصعب مقارنة كل نوع منها بما كان يوجد في الأندلس أو المغرب ، وسنذكر جملة من الأمثلة مع محاولة التعرف على أصل كل نوع :

ـ الكوبيى : رقاق من عجين القمح بسمك الورقة تنشف بالنار الخفيفة ثم تحشى باللوز واللحم الناعم وتغلف بأوراق أخرى حتى تصبح على هيأة رغيف الخبز وعندها تقلى بالزبدة ويوضع عليها دقيق السكر أو بعض العسل[٢] .

ـ الفطمة : نوع صغير من البسطيلة مثلث الشكل ، وكان يقدم في حفلات فطام الطفل[٦] .

ـ فيتاتي : عجين مقلي بالزبدة يقطع بعد نضجه ويؤكل مع العسل[١]

ـ الكاتية : عجين يدخل في تحضيره القمح والزبدة والبيض ، يقلى في الزبدة ويغطس في العسل ويأخذ بعد نضجه شكل رقم ثمانية العربية[٢] .

ـ القطيفة : عجين مقلي بالبيض والعسل والسمسم يؤكل في ليالي رمضان[٣] .

---

(١) المناهل ص ٢٣٧"

(٢) شبيهة بالبسطيلة التي نقلها الاندلسيون من اسبانيا

(٣) إسمه في المغرب الفتات ويؤكل أيضاً مع مرق الدجاج

(٤) يسمى في الغرب (عينا الشواري) أي جراب الحمار المدلى جانبيه

(٥) يدعى (البغرير) ويؤكل في المغرب صباح يوم العيد

- نمتي : عجين من الذرة ينضج بالنار ويكون شكله مستديراً[1].

- الطاوسا : سميد القمح أو الذرة أو الأرز ينضج على البخار بدون مرق ، ويتناول مع اللبن[2].

وإلى جانب هذه الأنواع حضر سكان المدن أنواعاً أخرى من الحلويات ذات الطابع السوداني مثل الحلوى الشعبية المعروفة باسم (ديميتا) شكلها مستدير وتحضر بالفول السوداني ودقيق الأرز والتوابل والعسل[3].

ولقد كان الكرم والاحتفاء بالضيوف من المميزات البارزة للمجتمع السوداني ، وتطالعنا في جميع المصادر السودانية أخبار الزيارات والولائم والحفلات التي كانت تقام بمناسبة أو بدونها غير أن بعض المدن وصفت رغم ذلك بالبخل والتقصير في تكريم الضيوف ، فبينما يتحدث كاييي مثلاً عن صفة الكرم عند مضيفه المغربي في تنبوكتو لدرجة أنه لم يتقاض منه أي أجر على مبيته ومأكله وإنه كان يبدي استعداده لتلبية أي طلب له نرى السعدي يتحدث عن بخل أهل مسينا وقلة ما يقدمونه على موائدهم وفي هداياهم[4].

ولقد كان الشاي المعطر بالنعناع هو المشروب الشعبي بالسودان ، وكان يقدم على الطريقة المغربية الصرفة عدة مرات في اليوم ، ولم تخل جلسة أو سمر من صواني الشاي وعدته[5]، وإلى جانب الشاي كان السودانيون يصنعون أنواعاً أخرى من المشروبات الساخنة والباردة ، ووجدت حول المستنقعات أعشاب عرفت منذ القديم بطعمها القريب من الشاي وفي ضمنها عشبة (كوندو) الشبيهة بالأسل كان سكان ديرما يحصدونها ويبخرونها بالحطب ثم يضعون قطعها في

---

(١) يسمى الحرشة وهو يقدم في القرى المحيطة بفاس

(٢) يدعى السفة

(٣) Dupuis - Yakouba pp. 6.7.

(٤) السعدي ص ٢٣٢

(٥) Georges Maris P188

أكياس لتخزن أو تباع في أسـواق المدن ، وكان شاي كونـدو يشرب مع الحليب بخلاف الشاي الأخضر المستورد ، ولكثرة اليهود بمدن السـودان فقـد شاع شرب الخمر الذي اعتصر من العنب والتين والبلح[1]، وتحدثت المصادر السـودانية عن تناول المسلمين للخمر سراً وعلانية في العهد المغربي حتى أن جيش العبيد (لوغا) كان « يشرب الخمر شاهراً ظاهراً ليلاً ونهاراً »[2].

جـ) الفنون ووسائل التسلية والترويح :

اشتهرت الشعوب السودانية بفنونها منذ القـديم ، وكان فن النحـت على الطين والخشب والموسيقى المعتمدة على الطبول والأبواق ، والأغاني والرقص من أبرز تلك الفنون وأكثرها شيوعاً ، غير أن فن النحت تضاءلت أهميته مع انشار الإسلام وتشدد العلماء في تحريم تقليد صور الحيوانات والأشخاص التي هي من مخلوقات الله وحده .

ولقد احتفظت الموسيقى السودانية بإيقاعها في العهد المغربي ، ورغم دخول الآلات المغربية كالآلـة الوتـرية المعروفـة (بالكنبـري)[3] وأشـكال من المزامـير القصبية أو الفخارية ، فإن الأوزان والسلاليم ظلت سودانية صرفة ، وكان الغناء جماعياً وسريعاً بشكل عام .

وبينما كان الغناء غير احترافي بالقرى والأرياف ، فإنه كان في المدن خاصاً بقبائل معينة وبفرق متخصصة يستدعيها السكان في المناسبات لإقامة الحفلات وقد عرفت قبيلة المابي في تنبوكتو وغاو بأنهـا أشهر من غيرها في فني الرقص والغناء وتستدعي لقاء أجر معلوم وهدايا نقدية تقدم أثناء أو بعد انتهاء الحفلة[4].

---

(١) السعدي ص ٢٨ ويراجع في الموضوع Caille «la petite Histoire OP. cit. T. 2Pm

(٢) المجهول ـ تذكرة ص ٢٨

(٣) آلة عربية قديمة تتخذ من الخشب المكسو بجلد الماعز مع ثلاثة خيوط من المصران وتشبه الآلـة في شكلها العود إلا أنها أصغر منه وأكثر ضموراً .

(٤) Dupuis - Yakouba P80

وكانت الآلات القديمة عبارة عن أصناف من الطبول ومن القصب والقرع الكبير المفرغ[1]، وأدخل البربر آلة تشبه الأرغن تعزف على أربعة عشر إيقاعاً ، ومع مجيء المغاربة شاع إستعمال الصنجات الخشبية والنحاسية الأندلسية والرباب والكنبرى والغيطة ، وكان نساء المغاربة يستدعين فرق الغناء إلى منازلهن في المساء ويطربن لسماع الموسيقى والغناء والرقص[2]، ويذكر المؤرخون السودانيون أن الباشوات كانوا لا يسافرون على النهر إلا وجوقة موسيقية بصحبتهم ، أما إذا كانوا في عاصمتهم فإن الموسيقيين يأتون إلى فناء المشور بعد صلاة العصر ويمضون ساعة أو أكثر في الغناء والرقص ، وقد يكون بعض هؤلاء الموسيقيين أو كلهم موظفين لدى المخزن لأن بعض الآلات التي استعملوها ومنها النفير الطويل لم تكن تستعملها الفرق الغنائية العادية[3].

أما على المستوى الشعبي فكان أصحاب الموسيقى يتوجهون إلى السوق في المساء حين يكون خالياً ويقيمون حفلات عمومية يتحلق فيها المشاهدون حولهم ويدفعون لهم قليلاً من المال بعد انتهاء كل وصلة وقد تطول تلك الحفلات وتمتد إلى ساعات إذا كانت الليالي مقمرة .

وفي ساحة السوق نفسها كان أصحاب القصص والخرافات وحفظة الأنساب وأخبار البطولات يجمعون الناس حولهم بين العشاءين ، وقد يأتي بعضهم بالقردة أو الأفاعي ويعرض على مشاهديه ما علم تلك الحيوانات من حركات ، ولم يكن ذلك يختلف عما عرفته مدن المغرب في ذلك العصر ، ولم تكن حكومة تنبوكتو ولا فقهاؤها يسمحون بعقد حلقات الرقص العمومية كما كان

---

(١) ابن بطوطة ص ٦٦٧

(٢) Georges Maris P162

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٤٥ ، وصف المصدر آلة النفخ بأنها بقدر قامة الرجل ، وكانت تستعمل في المغرب من طرف حراس الأبراج ثم أصبحت تستعمل في الصوامع لتنبيه الناس إلى قرب وقت الإمساك في رمضان .

يحدث في الأرياف والغابات إذ كانوا يعتبرون ذلك ضرباً من الوثنية ومخلاً بالآداب العامة لأن الرقص السوداني ينتهي إلى نوع من الهوس والإخلال بالنظام(١).

ويفيد السعدى أن باشوات السودان كانوا يقضون بعض وقتهم في لعب الشطرنج وكان من النوع السوداني وينهمك فيه لاعبه ويشد إليه ساعات طويلة (٢) أما لعب الورق فيبدو أن الجنود الأندلسيين أدخلوه إلى السودان وأطلعوا بعض السودانيين على قواعده (٣).

وقد إنتشر تدخين التبغ في بداية القرن السابع عشر ويؤكد السودانيون أن الباشا محمود هو الذي أدخله الى بلادهم (٤)، وكان لسكان المدن ولع شديد بهذا النوع من التسلية، ولم يستثن العلماء والباشوات المغاربة من ذلك، وأصبح التدخين من العادات التي لا غنى عنها في البوادي وعند التوارك بوجه خاص.

د) الأعياد والحفلات :

كان لدى السوداني ميل غريزي إلى البهجة والمرح، فوجد ضالته في التعبير عن ذلك من خلال الحفلات التي أقامها أو حضرها أو إشترك مع غيره فيها ووصف

---

(١) زبادية مملكة ص ١٦٥

(٢) السعدى ص ٨٩

(٣) Caille: La petite, T. 1 P 122

(٤) كعتو ص ١٨٣، ويدعى المؤرخون المغاربة أن عادة التدخين أدخلها السودانيون إلى المغرب عندما رافقوا حيوان الفيل الى مراكش عام ١٥٩٣ والى فاس عام ١٥٩٩ (الافراني - النزهة ص ١٤٦) وقد قامت ضجة في المغرب ضد التدخين الذي أخذ في الانتشار فطلب أحمد المنصور رأي العلماء المغاربة فيه فأفتى جلهم بكراهيته أو تحريمه، أما أحمد بابا السوداني الذي كان بمراكش آنذاك فقد أصدر كتابا سماه (اللمع في الاشارة الى حكم طبغ) توجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة تمكروت بسوس رقم ٢٩٩٩ بخط أحمد بابا نفسه انتهى من تأليفها في نفس المكان بتاريخ ١١ اكتوبر ١٦٠٧ وقد أبان أحمد بابا رأيه في جوار تدخين الطابة ما دامت غير منومة ومفسدة للوضوء فهي ليست كالخمر ولا تتصف بأوصافه، ولم يجز أحمد بابا تدخين الحشيش لأن الاكثار منه يسكر ويذهب العقل على طهارته وأتى في ذلك بأرجوزة تضمنهاالكتاب المذكور مطلعها:

قل لمن يأكل الحشيشة جهلا يا   خسيسا عشت شر معيشة

المجتمع السعدى أيضا بأنه المجتمع الضاحك اللاهي ولذلك فقد لقي المغاربة عند مجيئهم - وفيهم نسبة كبيرة من الأندلسيين - تجاوبا نفسيا نجد صداه فيما بين أيدينا من أخبار وأحداث ، وقد تعددت المناسبات وتنوعت فكانت هناك الأعياد والمواسم والمناسبات الدينية والوطنية والشعبية والحفلات الاجتماعية التي أقيمت بمناسبة أو بدونها طلبا للمرح والسمرة .

ومن الطبيعي أن يعمد الحكام الجدد الى اغتنام الفرص لاضفاء الأبهة على الحكم والحكام مع ما يسمح به ذلك من النفوذ الى عمق التقاليد الأفريقية القائمة على حب العظماء وترديد أخبار البطولات ومن تصعيد الميل الأفريقي إلى البهجة .

وقد تقدم لنا ما كانت تظهر به شوارع العاصمة من حلل قشيبة ، وما أظهره السكان من التكريم للباشوات حين خروجهم لغزوة أو عودتهم منها ، أو عندما يعلن إنتهاء حكم أحد الباشوات ويتسلم خلفه دست الحكم .

واختصت الأعياد الدينية بتكريم لا حدود له ، فكانت الموسيقى تصدح بعد رؤية الهلال فيتسارع الناس عبر الشوارع المضاءة بالفوانيس لشراء لوازم العيد من أطعمة وملابس وهدايا ، أما في ليلتى القدر ومولد الرسول فكانت مدن السودان لا تنام أو تهدأ فيهما الحركة ، ويخرج السكان الفوانيس إلى الطرقات فيعلقونها أو يصحبونها معهم في تجوالهم بالمدينة[1] وذهابهم لزيارة الأقارب .

وكان كبار القوم والأعيان والعلماء يبكرون إلى المصلى لتأدية صلاة العيد مع الباشا ، وبعد تناول طعام الافطار الخاص يتواردون على المشور للسلام عليه [2] .

وعرف شهر الصيام في مدن السودان بأنه شهر العبادة والصدقات فيأتي الناس إلى أبواب المساجد قبل الغروب بحبوب التمر وقطع الخبز والحساء ويوزعون ذلك على الفقراء ويقول كعتو « إذا كانت ليلة القدر يأمر (بعض كبار

---

(1) Monteil P 191

(2) المجهول - تذكرة ص ١٥

الناس) بطبخ الطعام ثم يجعل المطبوخ في المائدة أي القدح الكبير ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلونها والقدح على رأسه وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيما له » [1] .

وبمجرد رؤ ية أهلة الأشهر الحرم يقصد العدول إلى المشور للشهادة بذلك ، وتهتز المدينة بالزغاريد والتهاليل[2] ، أما في ليلة أول شهر الصيام فيهرع العلماء إلى المشور ليأموا بالباشا في صلوات التراويح بعد صلاة العشاء ، ثم يبدأ سرد صحيح البخارى في المشور وبالجامع الأعظم ، ولا تنتهي القراءة إلا بنهاية الشهر[3] ، وكان علماء السودان يجتمعون في بيوتهم لقراءة كتاب الشفا للقاضي عياض ، وربما كلفوا أحدهم بشرح الكتاب للأطفال في الدور لقاء أجر أو هدية [4] ، أما الاعتكاف في العشر الأواخر فكان معروفا بكل المساجد [5] .

وعند ظهور هلال العيد تعم البشرى بواسطة الطبول والأبواق وتتعالى الزغاريد على النحو الذي أستقبل به هلال أول الشهر ، ويخرج الباشا لصلاة العيد في هيأة رسمية ، ويحضر بنفسه الحفلات التي تستمر سبعة أيام [6] .

أما في عيد الأضحى فكانت المدافع تطلق من أبراج قصبة تنبوكتو كما كان يحدث في جميع مدن المغرب[7] ، ويخرج الباشا إلى المصلى في موكبه الرسمي ممتطيا جواده الأشهب وحوله رجال الدولة وقادة الجند وحملة الاعلام وأصحاب الموسيقى ، وتنحر ضحيتا العيد الخاصتان بالباشا والقاضي وتحملان إلى المدينة على

---

(١) كعتو ص ١٨٠
(٢) المجهول ـ تذكرة ص ٨٤
(٣) المصدر السابقص ١٧
(٤) السعدى ص ٢٦٦
(٥) يذكر السعدى أن المغاربة من تافيلالت كانوا يأتون للاعتكاف بالمسجد الأعظم طيلة شهر رمضان ، ص ٦٠ .
(٦) المجهول ـ تذكرة ص ٢٠
(٧) المناهل ص ٢٦٤

ظهر الجياد السريعة ، وتقام ألعاب الفروسية وتصدح الموسيقى في الطرقات ويخرج الناس لمشاهدة تلك الألعاب بملابسهم الجديدة [١] .

وكانت الاحتفالات بالعيد النبوي تكتسي طابعا فريدا في جميع أقاليم المغرب إبان الحكم السعدي بما فيها السودان ، وذلك لأن يوم مولد الرسول كان هو العيد الرسمي للدولة [٢] ، وكان الناس في تنبوكتو يخرجون ليلة المولد النبوي إلى الشوارع ويأخذون « بضرب الطبول ، ويمدح المداحون ويزينون المساجد ويخرجون [٣] الناس رجالا ونساء ، ويخرجن [٧] حرائرهن [٧] وأمايهم [٧] بزينتهم [٧] ولباسهم [٧] ويلبسون [٧] أحسن لباسهم [٧] وبمفاخر زينتهم [٧] ويمدحون [٧] المادحون من أبواب المساجد ويضربون الطبول في مواضع معروفات [٧] ويركبون [٧] الرجال على جوادهم [٧] ويلعبون بهم [٧] في الطبول إلى ثلث [٧] الآخر من الليل » [٧] .

وكانت هناك مناسبات دينية أخرى مثل الاحتفال بأول السنة الهجرية وعاشوراء [٤] وبيوم ختم القرآن في الجامع الكبير الذي كان يصادف دائما أحد أيام الجمع [٥] ، وبذكرى مرور أربعين يوما على وفاة أحد العلماء أو كبار القوم ، وقد أكثر أهل المدن من الصلوات التي لا ترافقها حفلات أو مظاهر ملتفة للنظر ومنها صلوات الاستسقاء [٦] والخوف والشكر وصلاة الكسوف [٧] .

---

(١) المجهول ـ تذكرة ص ١٤٠

(٢) كانت الأوامر تصدر سنويا لأقامة ذلك العيد على انماط من الاحتفال يقترحها المنصور نفسه على جميع الأقاليم المغربية بحيث تشمل كل أيام شهر ربيع الأول ، وكان يطاف في بعض المدن بالشموع الكبرى المزخرفة ، ولا يزال هذا الطواف يتم حتى اليوم في مدينة سلا شمال الرباط ، وتقرأ قصة المولد في المشور والجوامع والدور ، وتعمل الفرق الموسيقية طيلة الشهر في بيوت الأغنياء ، ويلقى الشعراء قصائد مديح الرسول التي تشيد بمآثر الشرفاء السعديين وكان حكام النواحي يتصدقون أو يهبون من بيت مال الدولة في أيام العيد (ابن القاضي / المنتقى ص ٣٣ ـ الفشتالي ص ٢٢٢ و ٢٤٣ .

(٣) كذا في النص ـ المجهول ـ تذكرة ص ١٥٢

(٤) المصدر السابق ص ١٣١

(٥) السعدي ص ٦٠ وكان الاحتفال يدعى (الختمة) ويحضره الناس من جميع الطبقات .

(٦) المجهول ـ تذكرة ص ١٥٧

(٧) المصدر السابق ص ١٥٧

أما الاحتفالات بمناسبة إجتماعية أو دينية إجتماعية فلم تكن تدخل تحت حصر ، ومن أبرز ذلك إحتفال الباشا بزواجه ، ويذكر السعدى أن الباشا في عهده خطب إبنة الأسكيا داود (حفيد الأسكيا داود الكبير) ووجه هدايا عظيمة ثم بعث قاربا خاصا لحمل الأميرة الى مشورة في تنبوكتو[1] ، ولم يكن الزواج على ذلك النوع من البذخ في البلاط الزنجي السابق ، لأن الأسكيا داود الكبير نفسه عندما تزوج وجه لخطيبته بعض الحلى وبضعة أماء ومهراس ومدق[2] ويصف لانز حفلة زفاف إبن الكاهية المغربي التي حضرها بنفسه بأنها حفلت بالرقص والغناء وألعاب الفروسية حتى الصباح ، وقد حرص الكاهية أن يزوج خمسة شبان آخرين في ذلك اليوم على حسابه الخاص كما كان يحدث في البلاط المغربي نفسه[3] ، ومن عادات الزواج إقامة حفلة الفاتحة التي يشهد فيها العدلان على الزوجين وحفلة العرس تحت الخيام ، وارسال موائد الطعام لبيت العريس والاحتفال بأول عيد يعقب يوم الزفاف ، وكانت المهور غير مرتفعة عند الأغنياء ولكن كان يدخل فيها تقديم (الخادمة التي لاتموت) وهي أمة يهديها الزوج لزوجته يعوضها بأخرى في حالة موتها[4] .

ومن الاحتفالات الاجتماعية الأخرى ؛ العقيقة ، والختان ، وختم جزء الرحمان ، وختم القرآن ، والاحتفالات الجماعية بمناسبة خروج الركب السوداني للحج[5] ، وكان من السنن الذي إقتفى الباشوات أثر أحمد المنصور فيها ختان أطفال الضعفاء في حفل عمومي وبعد الاحتفال ينال كل طفل قطعة من الثوب وحصة من اللحم .

---

(١) السعدى ص ٢٣٣

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤

(٣) لانزج ٢ ص ١٣٩

(٤) كانت للقبائل الزنجية والعربية وخاصة التوارك عاداتها المتميزة في الزواج وحفلاته وقيوده (كابيي ص ٣٢٧) .

(٥) Anta Diop « L'afrique noire Pre-coloniale Paris 1952 , ch 2.

هـ) أثاث البيوت :

لقد إعتنى المغاربة بتجميل بيوتهم وتأثيثها على نحو ما خلفوه وراءهم عندما تركوا منازلهم في الأندلس والمغرب ، وعلى بساطة بيوت كبار القواد والتجار والعلماء فقد كانت تحوي تحفا سودانية وأجنبية وكما هو الشأن في المغرب فان الفرش كان يوضع على الأرض أو يرفع قليلا عنها بواسطة ألواح ، ورغم البرد أثناء ليالي، فصل الشتاء فان إيقاد النار بقصد التدفئة كان نادرا وقد عزا كايي ذلك إلى قلة الحطب[1] ولكن الواقع أن تلك من العوائد الأندلسية الشهيرة ، وكانت أغطية اللحف مطرزة ، وقد يضع صاحب البيت فوقها سجادا متطاولا أو جلد أحد الحيوانات ، وغالبا ما كانت الحيطان مزينة ببعض التحف كأنياب الفيلة وبيض النعام وريشه أو بآيات قرآنية أو أسماء الله الحسنى أما عند مدخل الباب فكانت ترفع حدوة حصان أو ترسم كف رجل أو يوضع خطان من القطران عند المدخل لاتقاء العين .

وكانت التحف والأغطية المطرزة تستورد من المغرب غالبا ، ومن المفارقات التاريخية الغريبة أنه بعد موت أحمد المنصور الذهبي قام الثائر أحمد بن عبد الله الساوري ضد السلطان مولاي زيدان من المناطق الجنوبية على أبواب الصحراء والسودان وتقدم نحو مراكش واحتلها ونهب قصر البديع الذي كان من أجمل قصور العالم وباع بعض أثاثه لتجار السودان ، « فجاء كثير منها الى تنبوكتو لرسم التجارة فتبايعها الناس بينهم وتملكوها ودخل منها متاع إلى دار أولاد سيدى محمود[2] لينظروها من زينتها (ليتأملوا جمالها) وحسن تراكيبها فكان ذلك عظيم الاعتبار لأولى الأبصار »[3] .

---

(١) كايي ج ٢ ص ٢١٠

(٢) ال اقيت .

(٣) السعدى ص ٢٠٥ - ٢٠٦

٤) الفن المعماري

إن إتخاذ البيوت المبنية بالطين المشوي مع أساس حجري ، واتباع أساليب معينة في التصميم وفي وضع الأبواب والسقوف وطلائها بجملة من الأصباغ هو من التأثيرات المغربية الخالصة(١) التي أخذ بها المجتمع السوداني منذ القرن الخامس عشر ، وقبل ذلك كانت السكنى في المدينة أو القرية الكبيرة ضمن خيام أو أكواخ من النبات أو الطين أو الأخشاب ، وكان الفناء الخارجي للسكن محاطا بأكوام الشوك القصيرة (٢) .

وكانت أولى المنشآت العمرانية في غاو و بوكتو ونياني من تصميم واشراف المهندس الأندلسي ابراهيم الساحلي والمعلم المغربي أدريس ، وقد وصف إبن بطوطة المساجد التي بناها الساحلي ، ووصف القصر الملكي في نياني الذي ضم قاعة مجلس السلطان التي أنشأها على شاكلة قصور مراكش وغرناطة ، وقد رأى إبن بطوطة ذلك بنفسه سنة ١٣٥٣ ، وقلد السودانيون منذئذ ألوان الحضارة المغربية في البناء وحاول كبار رجال الدولة والجند والأمراء تقليدها (٣) ، واستعانوا بمهندسين مغاربة في تعليم صناع سودانيين وأخذ تقنيات النقش والحفر ووضع الشمسيات الزجاجية والكتابات بالخط الكوفي والفارسي .

والظاهر أن التنازع على السلطة والثورات المتلاحقة قد جمدت أو حدت من التقدم في فنون العمارة ، ويمكن إعتبار فترة حكم الأساكي وخاصة المتأخرين فترة

---

(١) بوفيل ص ٢٣٠

(٢) السعدي ص ٢١

(٣) نعيم قداح ـ ص ١٥٤ ـ ١٦٠

ويصف إبن خلدون القبة المربعة التي بناها أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن ضمن القصر الملكي بأنها كانت مربعة الشكل واضفى عليها الصانع من الكلس ووالى عليها الأصباغ المنمقة فجاءت من أتقن المباني ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ـ إبن خلدون م ٦ ص ٤١٦ .

كما يصف السعدي مساجد تنبوكتو الكبرى وفن العمارة والنقش المغربيين ص ٥٦ وما بعدها .

تراجع بالقياس إلى ما عرف عن الماليين والأسكيا الحاج محمد من رغبة في الأخذ بالأساليب الهندسية المغربية ، ولذلك فاننا لم نجد أي أثر لانجازات معمارية مهمة طيلة القرن السادس عشر ، وحين قدم الجيش المغربي إلى السودان إنصرف إهتمامه إلى تعمير القصبات والحصون دون أن يكون الفن المعماري الجمالي بارزا فيما فعلوه باستثناء مشور الباشا وبيوت الحكام وكبار الأغنياء ، غير انه لا توجد أوصاف كافية يمكن الاعتماد عليها في تبين طبيعة ما تركه المغاربة من أثر في الميدان المعماري خلال فترة حكمهم الأولى ، ويمكن التأكيد على ان الانشاءات الهامة في العمارة لم تظهر الا بعد مرور عشر سنوات على مجيء جؤذر .

وعلى العموم فقد كانت مراكز الاستقرار المدني وبناء المساكن حسب المواصفات الحضرية تنحصر في المدن السودانية الكبرى ، أما في الأرياف والقرى فاحتفظت البيوت بالشكل السوداني القريب من البدائية ، وكانت تقام داخل الحقول في الغالب ، والمقياس الوحيد الذي يمكن إعطاؤه لنشوء أو توسع المدن الثانوية هو عدد السكان لا عدد الابنية ، فحين يصل السكان إلى ألف نسمة كانت تقوم مدينة [1] .

وعلى الرغم من أن حركة العمران لم تشهد تقدما بارزا خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع فان تنظيم مهنة البناء كان ملحوظا مع ذلك ، ويظهر أن الأسكيا الحاج محمد حاول تجميع البنائين وتوجيههم للنهوض بمهنتهم تحت إرشاد مقاولين ، وأن بعض الابنية الشاهقة ذات الطابع الأندلسي المغربي قد أسست في غاو تحت إشراف شخص يدعى (وهب برى) ولعله مغربي كذلك ، غير أن ما تركه المعماريون هو من قبيل ما شاهده جؤذر ووصفه بوصفه المشهور [2] وسار المغاربة على نهج الأسكيا الحاج محمد في تنظيم مهنة البناء ، وجعلوا على رأس الصناع مهندسا اندلسيا إسمه إبن الطاغ وكان يعرف بلقب (المعلم الأمين) [3] ،

---

(١) دولافوس ص ٢٠٩

(٢) Monteil P 194

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٥٣ و ٨٣

أما في ديني فكان الفن المعماري أحسن حالا ، وكان الصناع المغاربة يعملون حسب المبادىء الراسخة التي تركها مهندس مغربي عاش في المدينة بعيد مجيء المغاربة إسمه المعلم أدريس [1] .

وقد أدخل المغاربة مادة الكلس في صنع النقوش على الحيطان والأعمدة الحجرية أو المتخذة من ألواح الطين المشوي في الأفران ، واستعملوا الجير الطبيعي والأخشاب المخروطية والمدورة لصنع الأبواب والشبابيك والأقفال [2] ، ومن المؤكد ان أكثر مواد البناء كانت تستورد من المغرب حيث لم يكن لبعض المنتجات من أثر في مدن السودان ، فالمسامير الدقيقة والخشنة التي تسمر بها الأبواب والشبابيك أو توضع على شكل زينة إستوردت من تافيلالت ، والأقفال الحديدة المتقنة من مراكش ومدن المغرب الأخرى ، وكذلك قوالب الكلس والزجاج والمزالج[3] ، وقد أدخل الجير الصناعي أيضا كمادة في بناء مساكن مدن السودان وطلاء الحيطان الداخلية [4] .

ويقدم لنا المؤرخ المجهول وصفا دقيقا لقصر بناه أحد الباشوات في تنبوكتو على نسق البيوت التي إتخذها تجار المغرب وكبار رجال الدولة ، فقد كان القصر قوي البناء متقن الصنع ، إستعملت فيه الحجارة العظيمة الحجم والخشب المتين الطويل المنمق . وبلغ سمك الحيطان أكثر من ذراعين ، مع إتساع في القبب والحجرات ، وقد طلاه بالصبغة الصفراء من الخارج وبالكلس الشديد البياض في الداخل [5] .

ولقد كان النموذج المميز لجميع المباني المغربية في تنبوكتو هو الشكل النصف

---

(1) Monteil P 195

(2) كابي ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣١٥

(3) المكان السابق

(4) Mauny . Tableau P 312

(5) تذكرة النسيان ص ١٣٢ .

كروي في السقوف[1] واذا ما شذ بناء عن تلك القاعدة فيجب أن يكون السقف منحدرا من جهة واحدة أو من الجهتين ، وعلى هذا الأساس فان سقوف المنازل كانت على الطابع الأندلسي والصحراوي معا ، فالسقف المسطح يجعل السقف لا يتأثر بنزول الأمطار الشديدة والثلوج رغم ضعف الأمطار وانعدام الثلوج في أكثر مدن السودان ، والسقف النصف كروي يحتفظ بالرطوبة والبرودة في الغرف أثناء النهار ، وكانت سقوف البيوت المقببة تبنى بالآجر الصغير المتراص بموجب قانون هندسي مع فتحات في الجنبات أما السقوف المنحدرة فكان الخشب يدخل في بنائها ، حيث ترتصف العيدان بشكل متواز وتوضع فوقها ألواح رقيقة تجلب من المغرب تسمى (الورقة) ، وفي البيوت الأقل شأنا يستبدل كل ذلك بأغصان الأشجار[1] .

ويبدو الشكل الهرمي على بيوت السودان التي بنيت في العهد المغربي وفي المساجد التي أنشئت قبله ، وذلك من تأثير الانشاءات العمرانية في الجنوب المغربي وتكثر في الأبنية ذات الطابقين النوافذ الصغيرة المتجهة نحو الغرب ، أما النوافذ الكبيرة فهي تفتح على فناء المنزل بهدف تجنب الرياح الساخنة والغبار ولسبب ديني اجتماعي ، ويلاحظ في القسم العلوي للمبنى بروز أطراف الأعمدة الخشبية المتبقية من السقف ، وكانت تربط فيها المزاريب الفخارية التي تصرف ماء السطح الى مجرى محفور في طرف أوسط الزقاق ، وتوضع تلك المزاريب في الجهات الأربع من المبنى[3] .

كانت المنازل تحتل مساحة كبيرة من الأرض قد تصل الى ألف متر مربع ، وذلك بسبب ترك الباحة الواسعة في وسط المنزل ، وقد يتألف البناء من ثلاثة طوابق

---

(1) Mauny . Tableau P 312

وتبدو السقوف من الداخل على أشكال كثيرة حسب وصف أخشابها وقد ميز منها مونتى أربعة أنواع وأورد أسماءها السودانية ص ١٩١ .

(٢) دولافوس ج٢ ص ٩١ .

(٣) المجهول ـ تذكرة ص ٧٢

على شكل القصور في تافيلالت ولكن ذلك كان نادرا بسبب ضعف الأساس المشكل أغلبه من تربة الفيضان وعدم اتخاذ الحجارة في بناء الحيطان ، ولكل منزل مدخل خارجي واحد يقود الى سرداب طويل يحتفظ بالرطوبة ، وفي يمين السرداب يخصص بيت للعبيد الذين يتولون الحراسة ، وعلى اليسار كان يقوم درج يصعد به للطابق الأول ، وفي نهاية السرداب كان يوجد باب الدار وهو يقود مباشرة الى الفناء الأوسط[1] ، أما الغرف فهي مصطفة على الجهات الأربع ولها أبواب تفتح على الفناء .

وفي البيوت الكبيرة تترك ساحتان الأولى أمامية تقع بعد باب الدار الداخلي مباشرة يسلكها صاحب البيت وضيوفه الى غرف الضيافة والثانية في الداخل يحجبها عن الأولى حائط قصير ويستغلها الخدم لأعداد الطعام ولايواء الحصان وبعض الأغنام المعدة للذبح[2] ، وتدعى الساحة الأولى (المزوار)[3] وتكون حيطانها مزدانة بالنقوش وقد توضع وسطها بعض الورود واقفاص الطيور ، وفي أحد أطرافها يبني صاحب البيت صالة الضيوف (التازيكة)[4] .

ويكون باب المنزل الخارجي من ألواح شجرة (الدييى) وهي من فصيلة الأكاسيا اللينة الخشب ، ويتميز بمدقه المستدير الحديدي وبالمسامير ، ويدور الباب على رؤوس من الخشب نفسه ، وقد تدخل الرؤوس في حلقات من الحديد ، وعند أسفل الحائط من الخارج تبنى مساطب على الجانبين يبلغ عرضها من ٦٠ الى ٨٠ سم وتخصص لجلوس صاحب البيت حين يكون في انتظار أحد زواره أو ليسمع الأذان .

وتحتوي البيوت في الداخل على غرف متعددة بالاضافة الى التازيكة ، فهناك ما يخصص للنساء أو للخدم أو للاطفال ، أما الطابق العلوي فهو لنوم صاحب

---

(١) في هذا الفناء توجد المطابخ في الهواء الطلق وخزان الماء الذي تتجمع فيه مياه الأمطار

(٢) مشتقة من الزيارة

(٣) Dupuis - Yakouba P. 12- 16

البيت ويحجب عن الباحة الوسطى بحائط قصير يسمى (الستارة) وتبنى فوق الطابق الأول أو الثاني حيطان هرمية الشكل مثبتة على أعمدة من الآجر المشوى يطلق عليها الاسم العربي (السواري) ، وهي زينة للبيت فقط[1] .

لقد جمعت بيوت تنبوكتو بين الفن المغربي الجنوبي والعادات الأندلسية في بناء السقف وتزيين الساحات الداخلية ، وبين الطابع السوداني القديم أيضا ، وكانت تبدو على البيوت من الخارج صفة الاتساع مع التقليد غير المتقن لفن معماري متقدم ، وقد أعطت المساكن التي اختص بها كبار رجال الدولة المغاربة والتجار صفة العظمة لساكنيها في هذا المحيط الاجتماعي الغريب ، ويذكر المؤرخ المجهول ان تاجرا مغربيا اسمه الحاج ميلاد بنى لنفسه قصرا وسط تنبوكتو وكان من أجمل البنايات وأعلاها بحيث كان يتمكن صاحبه من رؤية أطراف المدينة من كل الاتجاهات[2] واكد كاييى أن قصور التجار المغاربة كانت من أجمل ما رآه[3] ، وأعطى لانز أوصافا لا تقل عن ذلك اشراقا لبيوت تنبوكتو وأروان وصورها على شكل قلاع جيدة البناء مهيبة المظهر بناها أناس نسوا في بعض الأوقات أنهم يعيشون في مناخ ومستوى حياتي يختلفان عما ألفوه في مساقط رؤوسهم[4] .

وعدا عن قصور الطبقة الموسرة حفلت أحياء تنبوكتو وغيرها ببيوت أفراد الطبقة الوسطى والصناع والعبيد ، ويعتقد مونتي بأنها كانت تعطي نماذج متبقية لمساكن السونغاي الذين حكموا السودان قبل المغاربة ، فقد وجد الأشكال الافريقية المستديرة ، والنماذج المربعة للمسقوفة بالأخصاص والتراب وبعضها نقلت عن هندسة مستوحاة من الأبنية في العالم الاسلامي الشرقي[5] .

---

(١) المكان السابق

(٢) المجهول ـ تذكرة ص ٨٠

(٣) ج٢ ص ٣٠٩

(٤) لانز ص ٩٣ ـ ١٩٠ ، حفلت دراسة مونتى بتصاميم البيوت وأشكالها الخارجية وبمختلف أنواع النقوش التي ظهرت على الأبواب والنوافذ (المكان السابق)

(٥)

ومما لا شك فيه أن أعظم أبنية تنبوكتو وأكثرها اتساعا وأروعها هندسة كانت هي المساجد التي أسس أغلبها قبل بداية العهد المغربي ، وقد شيد كل جوامع تنبوكتو وغاو وديبني مهندسون اندلسيون ومحاربة على أعمدة من الحجارة تتوسطها أقواس على شاكلة مسجد قرطبة والقرويين ونقشت عليها الآيات القرآنية وأسماء الله ، وتدلت منها ثريات النحاس وغطى أسفل حيطانها وأرضها بالحصر ، وان دلت تلك الجوامع على شيء فهي تدل على عظمة العطاء الفني وما قدمه المغرب في المضمار الديني والحضاري لهذه الجهات من بلاد الاسلام[1] .

---

(1) كابيى ج٢ ص ٣٣٤ الى ٣٤٣ ، لانز ج٢ ص ٣٣٩ ـ السعدى ٥٦ الى ٦٣

خاتمة

لم يكن من السهل الاجابة ، بالكيفية التي نهضت بها الدراسة ، عن كل الأسئلة أو التساؤلات المحيرة التي وضعها جل من كتبوا عن المغاربة في السودان الغربي ، سواء تعلق الأمر بالفترات السابقة للغزو السعدي أو بحقبة الحكم المغربي أو بالتطور الذي خضعت له منطقة غرب افريقيا كلها اعتبارا من القرن السابع عشر . ولم يكن من السهل أيضا ازالة علامات الاستفهام التي وضعها المؤرخون والرحالة والباحثون على اختلاف ما تناولوه من أغراض حول الأفكار وحتى الحقائق التي أدرجوها في كتاباتهم ، الى الحد الذي بدت عليه جملة من الحقائق التاريخية على شكل اجتهادات أو ضربا من الافتراض .

واذا كنا قد وصلنا الى جملة من المؤيدات التاريخية وأثبتنا كثيرا من المعلومات والشواهد في أماكنها ، فاننا مع ذلك لا ننسب لأنفسنا فضلا أو مأثرة ، اذ لم يعد الأمر أن البحث وصل الى خفايا لم يكن في المستطاع قبل عدة سنوات بلوغها وكشف جوانبها . ان أغلب المؤرخين كانوا في الواقع مفتقرين الى معلومات كانت ضرورية وكانت بمثابة حلقات ضائعة في أبحاثهم . ومن جهة أخرى ، فان أولئك المؤرخين لم يربطوا على النحو المطلوب بين الاحداث وبين الاماكن التي جرت فوقها ما خضعت له تلك الأماكن من تغير وتبدل مستمرين .

ويجب التأكيد هنا على جانبين :

الجانب الأول : عدم تمكن الباحثين من الوصول الى تأليفين ظلا ضائعين

أحقابا طويلة ، وعثر عليهما في السنوات الأخيرة بمحض الصدفة وأحد الكتابين هو « مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفا » لعبد العزيز الفشتالي ، ولم يكن معروفا عن هذا الكتاب الا أنه وضع في عدة مجلدات ، عثر منها على خلاصة غير وافية كتبت في عهود لاحقة وأهملت بشكل واضح أخبار المنطقة التي هي مدار الدراسة . لقد كتب النسخة الأصلية الموسعة مؤرخ عاصر الأحداث وعاش بالقرب منها وحرر بقلمه أغلب الوثائق المتعلقة بها ، وتتجلى أهمية تلك النسخة في أنها ألقت الضوء على جوانب كانت مجهولة تماما ومن أبرزها :

- حدود المنطقة التي مورس عليها الحكم المغربي في الصحراء والسودان وجزر الكناري .

- خفايا الصراع بين باشوات السودان وبينهم وبين علماء تنبوكتو وأساكي السونغاي .

- قضية الوصول الى الذهب السوداني .

- فتح بلاد السنغال ومالي وثلاث ممالك تقع في بلاد الحاووصا .

- الأعمال الانشائية وفي طليعتها الري والزراعة .

- مشاريع المنصور وطموحاته السياسية .

والكتاب الثاني كتبه أحمد بابا بخط يده وسماه « الذيل لما ليس في الديباج » ، وقد ترجم فيه لعلماء المالكية في السودان ، فضمنه نشاطهم وأعمالهم ومناهجهم في التدريس ودورهم في نشر الوعي الاسلامي واللغة العربية .

أما الجانب الآخر الذي حرصت الدراسة على بلوغه وركوبه فهو ربط الحدث بالأرض وبالتفاعل البشري الناتج عن ذلك الحدث نفسه .

فاذا كان المناخ مع ما يتعلق به من المظاهر الحياتية المتنوعة قد تبدل منذ القرن السابع عشر ، فان الدراسة تقودنا الى حقيقة ماثلة للعيان وهي أن الخريطة

البشرية ـ ولا نقول السياسية فقط ـ قد تبدلت بشكل يكاد يكون شاملا . فمنذ قرنين لم تعد قبائل السونغاي تستوطن وحدها المنطقة الوسطى من نهر النيجر وذلك بفعل فتوحات قبائل البهل والفولبيه التيجانية في القرن التاسع عشر .

وقد كشفت الدراسة عن العمق البشري للعلاقات التي قامت ونمت بين طرفي الصحراء منذ فجر التاريخ ، ولم تهتم الدراسة بالتعميم والاطلاق كما فعل أغلب المؤ رخين ، بل أولت العناية لكل علاقة قامت بين أية منطقة سودانية وأية منطقة مغر بية سعيا وراء ابراز الخصائص النوعية الموضوعية والدافع المباشر دون أن يصرف ذلك عن الانتباه الى التأثير الجانبي لتلك العلاقات المحدودة ، أي الى شمولية الاغناء وامتداده . وقد بدت الدراسة حسب ذلك وكأنها سلسلة مترابطة الحلقات ، غنية بالروافد .

وكان من أهم ما أخذت به الدراسة التفريق بين مظاهر التواصل وبين وسائله . فقد رأينا أن جماعات وفيرة متلاحقة من برابرة صنهاجة هاجرت الى السودان ووصلت ـ وهي تدفع أمامها السكان المحليين ـ الى ضفاف نهري النيجر والسنغال . وكانت الموجة الأولى قد وصلت في القرن الثالث الى بلاد الساحل والهكار والعمير وأسست بعد قرون مدينة تنبوكتو ، ودخلت الموجة الثانية الى غانا في القرن الرابع وأسست أدغوشت، والتحقت الموجة الثالثة بجهات غاو وأقامت مملكة في كوكيا في القرن الخامس .

ولم تكن مملكة غانا دولة سوداء ، بل قامت على نفوذ صنهاجة التجاري والديني وعلى محاربيها الاشداء ، وبالمقابل لم تكن امبراطورية المرابطين دولة شمالية بيضاء ، بل أقامها أبناء افريقيا جنوب الصحراء عندما اندفعوا من مصب نهر السنغال في اتجاه المغرب واسبانيا . ولم يكن للمرابطين دولة واحدة لها عاصمتان في مراكش وأشبيلية ، بل كانت هناك دولة مرابطية عتيدة في السودان اتخذت من ادغوشت عاصمة لها على مدى قرنين من الزمن ثم انتقلت الى التاكانت

بوسط موريطانيا الحالية ، وهي لا تزال قائمة نظريا الى هذا اليوم تحت اسم امارة « التاكانت » .

ومنذ عهد الموحدين بدأت الهجرات العربية الكبرى المعاكسة من الشمال ، وأصبحت بلاد الساحل شمال النيجر والسنغال مناطق عربية تكاد تكون خالية .

أما وسائل التواصل المغربي السوداني ، فقد تمثلت في الدين الاسلامي القائم على المذهب الواحد ، مذهب الامام مالك . ولقد نهضت هذه الرابطة الدينية بدور خطير في توحيد الامم الافريقية معتمدة على الدعاة والتجار أولا ، ثم على الحكم السياسي والتواجد العسكري ، وأخيرا على الحركات الصوفية . وتوافقت هذه المراحل الثلاث مع حركة علمية نيرة قادها علماء من البربر والعرب ، فأوجدوا المدرسة العلمية السودانية والجامعة السودانية التي غدت احدى جامعات العالم الاسلامي . فالعامل الديني ورث أهمية التعرف على المعادن واستخدامها والمتاجرة بها ونقل الخبرات المتعلقة بها ، واستعان بالوسيلة التي لم تكن هناك مندوحة عن ركوبها ، ونعني بذلك الطرق والمسالك الصحراوية ومجرى نهر النيجر .

ورغم ذلك فقد احتفظت المعادن بدورها وتأثيرها على كل فاعلية تجارية ، وعلى التطور الاجتماعي والسياسي للمنطقة كلها الى نهاية القرن السادس عشر عندما ضعف شأن الملح والذهب معا ، وتحولت مناطق السودان الى منجم ومزرعة للمخزن السعدي .

وقد حاولنا أن نعلن الحقيقة المجردة عن الأسباب والدوافع الأصيلة للحملة التي سيرها السعديون الى السودان ، دون أن نتأثر في ذلك بوازع وطني أو بأحكام أصدرها المؤرخون المغاربة المعاصرون بدافع من الخوف أو التملق أو عن رغبة في اخفاء العيوب والمثالب . وحصرنا تلك الاسباب والدوافع في ثلاث نواح أساسية

هي : الاسباب الدولية ، وتمثلت في عزلة المغرب بعد أن أخرج العرب في اسبانيا ، وجثم الأتراك العثمانيين على حدوده الشرقية ، وفي ظهور الأطماع الأوروبية في الساحل الجنوبي للبحر المتوسط وفي مدخله ، وطموح العثمانيين الى ضم آخر بلد عربي استعصى عليهم الى امبراطوريتهم ، وقد واجه أحمد المنصور هذه الوضعية المعقدة والخطيرة معا بتحركات سياسية استخدم فيها سلاح المال والأحلاف والعمل الدبلوماسي ، ومرة أخرى في تاريخ المغرب لم يمتشق المغاربة السلاح للمحافظة على حريتهم ، بل ليوسعوا رقعة بلادهم ، ويدلفوا من الباب الوحيد المفتوح أمامهم : باب الجنوب .

الأسباب الدينية : وقد شرحنا في هذا المجال ذريعتين تذرع بهما المنصور لفتح السودان . الأولى منهما واجب الخضوع والطاعة لأمير المؤمنين خليفة الله في الأرض الذي لا خليفة غيره ولا أهلية لسواه في الاستخلاف . مع اعتبار سياسي أتضح كل الوضوح وهو بسط السيادة المغربية . والثانية هي نشر الاسلام في الجهات التي لم تصلها كلمة الحق والشهادة . واذا كانت المناطق التي وصلتها الحملات السعدية تعتنق الاسلام بالفعل ، وفتحت سلما منذ فجر الاسلام ، واذا كان الجيش الذي كلفه المنصور السعدي بالغزو يضم في أغلبه عناصر غير مسلمة أو مسلمة بالاسم ، ولا تعرف اللغة العربية ، فان تحليل هذا الجانب الذي أثار النقد في عهد المنصور وفي العهود اللاحقة خصته الدراسة بالتحليل الوافي والاستقصاء .

الأسباب الاقتصادية : وقد أكدت الدراسة على تقدمها على كل الدوافع الأخرى ، لأن المنصور السعدي وان تذرع بالحجة الذاهبة الى رغبته في تكثير مداخيل المخزن لغرض الجهاد ، فانه في الواقع كان تواقا الى الرفع من شأن المغرب نفسه وامداده بوسائل القوة الاقتصادية ، ولا أدل على ذلك من أنه بالرغم من مشاريعه لاستعادة اسبانيا ، ولاحتلال الهند بمشاركة انجلترا ، والاستيلاء على بعض الجزر في المحيط الأطلسي والبحر المتوسط ، فانه لم يخرج في كل ذلك عن

نطاق التمنيات ، ولم يتحقق أي هدف وضعه لجيشه رغم وصوله بالفعل الى مكامن الذهب في السودان .

الأسباب السياسية : وتمثلت في عزم السعديين على تطويق العثمانيين من الجنوب ، وخلق المتاعب في وجههم من حدود المغرب الى جنوب مصر . والوصول الى كانم - بورنو التي رأينا المنصور يلحقها بالمغرب عن طريق البيعة ، والى الممالك المسيحية في السودان التي كانت تابعة أسميا لامبراطورية كانم - بورنو والتي رغب أحمد المنصور ولا شك في حمل الاسلام اليها .

والحقيقة أن أحمد المنصور الذي كان يضع نصب عينيه كل هذه الأهداف ، عقد العزم على اعداد المغرب اقتصاديا وعسكريا لبلوغها. وقد انطلق في ذلك من منطلقات ثلاثة :

الأول = تهيئة البلاد لمرحلة الانطلاق والتوسع .

الثاني = تمهيد الطريق الى السودان . وقد قام بنفسه بجولة نظم خلالها بلاد سوس الى منتهى العمران ، ثم جرد ثلاث حملات عسكرية احتلت الاولى منها الصحراء الكبرى ، ووضعت الثانية يدها على بلاد السنغال ، ووصلت الثالثة الى مدينة وادان المعدنية في مهمة تدريبية واستخبارية .

ودأب المنصور على جمع المعلومات عن بلاد السودان ، فبعث السفراء الى كل بلاط ، ودس موظفين كعيون على الملوك ، واستعمل التجار والعلماء في أغراض الدعوة الى خلافته . وواصل في ذات الوقت اعداد جيش منظم مجهز بأفضل الاسلحة ، وبكل ما يلزم من المعدات والآلات ، ووضع على رأس ذلك الجيش عشرة من القواد اشتهروا بالحنكة والقسوة معا . وقبل أن يعطي اشارة التحرك ، كان علماء المغرب والمشرق وأصحاب الرأي والمشورة قد فوضوه أمر وضع اليد على السودان وعلى خيراته ليستعين بها في الجهاد .

وقد احتوى الباب الثاني ثلاثة فصول كسابقه ، فالأول من تلك الفصول

عني بالفتح الأول على يد الباشا جؤذر، وتطرق الثاني الى معاودة الفتح على يد الباشا محمود بينما اهتم الفصل الثالث بالادارة المغربية في أصقاع السودان .

وحيث أن الطريق التي سلكها القائد جؤذر والمشاكل التي اعترضته طيلة الرحلة التي استغرقت أربعة أشهر لم تجد من بين المؤ رخين من يتناولها بالتحقيق المطلوب ، فقد اهتمت الدراسة بكل جزئية أمكن الكشف عنها واستقصاؤها سواء تعلق الأمر بالطريق نفسه أو بالجيش أو بأرباب الخبرة أو بالأحمال .

ووجدنا من الضروري أن نحاول النفاذ الى فكر القائد جؤذرلنتبين ما كان يعتمل في صدره من نوازع وهواجس بعدما وضع قدمه فوق أرض السودان وألحق بخصمه أول هزيمة . لقد أرسل المنصور هذا القائد ليحقق هدفين هما : اقرار السلطة الاسمية للمخزن أي الاكتفاء بأخذ البيعة ، واستغلال معادن السودان التي هي حق شرعي للخليفة . ولكن عندما وصل جؤذر الى الهدف الأول وبدا له أن الهدف الثاني غير بعيد عن متناوله ، بات يتوق الى تنفيذ مأربين متناقضين آخرين : الأول منهما ربط السودان بالمغرب عن طريق التبعية الكاملة ، والثاني محاولة الاستقلال وتقسيم البلاد بين الأسكيا في الشرق ، والأندلسيين في الغرب . ولقد قدمنا عدة شواهد على رغبة بعض قادة الجيش في الانفصال عن المغرب حيث لم يمنعهم من ذلك سوى اختلاف كلمتهم من جهة ، والامكانيات العسكرية التي كان في مقدور المنصور أن يستخدمها للقضاء عليهم ان فكروا في أمر من ذلك القبيل .

ولقد أبرزنا ما كان يتمتع به القائد جؤذر من كفاءة نادرة وحنكة وقوة شكيمة ، وليس من شاهد على ذلك أقوى من الوسائل التي استخدمها في عبور الصحراء ، ومن تصميمه على عدم الاقتراب من المدن الآهلة ، ومن تغيير خط سيره عندما اقترب من تنبوكتو ، الأمر الذي ألحق أضرارا بالخطة التي وضعها خصمه لمواجهته .

ولم يعتمد جؤذر على تفوقه النوعي ، ولا نقول العددي ، بقدر ما اعتمد

على الوسائل النفسية وسياسة المراوغة والتمويه . ولعل أهم ميزاته كقائد محنك هي حذره الشديد الدقيق . وقد أدى به ذلك الى الفتك باثنين من الباشوات وعدد كبير من القادة المغاربة والعلماء . كما أنه تولى بنفسه عملية استئصال شاملة لكبار السونغاي وعلى رأسهم الأسكيا .

أما الباشا محمود الذي استلم الجيش من جؤذر ، فقد وجهه السلطان لتنفيذ ثلاثة أهداف هي ـ العمل بكل الوسائل للاجهاز على مقاومة السونغاي والحاق السودان بالمغرب ، ثم الاجتهاد في الوصول الى مناجم الذهب ـ وأخيرا تنظيم الأقاليم بالسودان باعتبارها جزء من المغرب . وبينما وفق الباشا الجديد الى تحقيق الهدف الاول مستعملا البطش والحيلة ، وتمكن من تنظيم الايالة السودانية ، بعد تمهيد أرجائها وقطع دابر الفتن ومحاولات الثورة ، فانه لم يستطع الوصول الى بلاد مالي أي الى المصادر الهامة لمعدن الذهب .

وقد واجه محمود في طريقه جملة من المشاكل ، استطاع أن يتغلب على معظمها ، وكان أمامه ثلاثة أساكي هم ، الأسكيا محمد كافو الذي عقد معه صلحا ثم قتله مع أركان مملكته ، والأسكيا نوح الذي تحول في عهده الى متشرد متزعم لزمرة ، لا تنسب أغلبيتها للسونغاي ، والأسكيا سليمان الذي وضعه تحت حماية المخزن وحوله الى رمز للشخصية السونغائية دون أن يكون له في أمر مملكته حل ولا ربط . وقام محمود بالاضافة الى ذلك بتمهيد أقاليم السودان بواسطة قوات خفيفة مسلحة أحسن تسليح ومدربة لحروب الأدغال . وبعد أنْ بدا أن كل شيء يسير وفق ما رسمه وتمناه ، قامت ضده ثورتان مسلحتان ، احداهما في تنبوكتو بقيادة حاكم المدينة السابق ، والثانية في ديينى بزعامة أحد أمراء السونغاي ، فقضى عليهما معا بمنتهى القسوة . ثم ثار التوارك وقبائل الغرب ، وناهض علماء تنبوكتو الحكم المغربي ، فتصدى لتلك الثورات جميعا وأخمد جذوتها .

ولكن محمودا فشل كما رأينا في تحقيق احدى أمنيات السلطان المتمثلة في الوصول الى الذهب ، وفي غمرة اليأس والقنوط ، قاد حملة صغيرة ضد قبائل وثنية

تفوقه عددا ، وتسكن أوكارا في الجبال ، فكان في تلك الحملة حتفه .

وتوالى على قيادة الجيش السوداني أربعة باشوات هم الباشا منصور الذي عرفت البلاد في عهده الرخاء والرفاهية ، وقتله جؤذر ، والباشا محمد طابع الذي عمل على جمع الأموال لخزائن السلطان ومات مسموما بدس من جؤذر نفسه ، والباشا الفتى عمار الذي قاد حملات موفقة الى مالي ، ووضع يده على مناجم الذهب الثلاثة ، ثم عزل من منصبه ، والباشا سليمان الذي أحكم السيطرة على أقاليم السودان وبقي حاكما للأرض والجيش معا الى أن عزله السلطان أبو فارس بن أحمد المنصور .

وقد تناولت الدراسة في الفصل الثالث الادارة المغربية في السودان ، فضبطت الحدود الجغرافية للايالة ، وحددت الوضع القانوني لأقاليم السودان التي كانت تدين بالولاء للسلطان عن طريق البيعة العامة ، وتخضع للسيادة المغربية الكاملة مع وجود سلطة تقليدية رمزية للأسكيا .

أما الرابطة القانونية الوضعية ، فانها تمثلت في الظهائر الشريفة « وكتاب السياسة » الذي وضعه المنصور لادارة الجهات المختلفة الأجناس والألسن ، وفي مجلسين استشاريين ، أحدهما عسكري والآخر مدني . وفي الأوامر المخزنية الآنية . وقد بينت الدراسة محاسن ومساويء الحكم المغربي ، وأظهرت ما جره وجود حاكمين للأرض وللجيش من مآسي وتعقيدات انعكست بشكل سلبي على المحكومين وخاصة في البوادي .

لقد وجدت ادارة مركزية في السودان كان قوامها الباشا وحكومة المخزن والقيادات المحلية التي كانت لها اختصاصات حددت في جمع الأموال وحفظ الأمن وبذل الحماية وتقديم المعونة للجيش حال تحركه لجهاتها . وكان هناك قضاء مدني على رأسه قضاة من أبناء البلاد أو من المغاربة تحول مع مرور السنين الى قضاء شرعي محدود المسؤولية والسلطة ، أما القضاء العسكري وعلى رأسه الباشا وكبار القواد في النواحي ، فقد زادت أهميته وتوسعت اختصاصاته بتوالي الأعوام .

ثم حاولت الدراسة تقييم الادارة المغربية وضبط العلاقة بين السكان والادارة . واذا كانت الأحكام العسكرية القاسية هي التي غلبت في خلال الفترة التي تناولتها الدراسة ، فان الابقاء على المظاهر التقليدية ، مع مراعاة الأوضاع القبيلية ترك للأعراف مكانة مهمة ضمن مجتمع ما كان في الامكان تخليصه من عاداته دفعة واحدة .

والغريب أننا لم نلمس ما ينبيء عن رفض المجتمع السوداني لهذا الجسم الغريب الذي بدا عليه أنه أتى للاستقرار والتعايش لأمد بعيد . وتكاد المقارنة بين تقبل السودانيين لحكم المغاربة السعديين وتقبلهم من قبل لحكم البرابرة ولبني صالح وللمرابطين أن تبدي التشابه بينها جميعا . ولعل السبب يعود الى ضعف الوازع الوطني عند أغلبية شعوب تلك المنطقة ما دام هؤلاء الوافدون أفارقة وجيرانا والى كون السعديين انطلقوا أول أمرهم من الصحراء وظهروا كمجاهدين نازلوا البرتغاليين أمام المستعمرات الصغيرة شمال بلاد السنغال .

أما الباب الثالث الذي ضم ثلاثة فصول أيضا ، فتناول الأثر المغربي على الاقتصاد السوداني ، وعلى التطور الفكري والاشعاع الحضاري . وقد بدا جليا أن الأساليب التجارية والأسس البنوية للاقتصاد عامة قد تغيرت تبعا لحاجيات المخزن ولمتطلبات التجارة المغربية نفسها . ولا شك أن اقتصاديات السودان كانت شبه مسخرة لخدمة تلك الحاجيات والمتطلبات . ونستطيع أن نصف الاقتصاد السوداني بأنه كان اقتصادا موجهاً . ولكن مع الاستقرار الذي ران على الاقاليم السوداء ومع الوحدة الادارية التي كانت قريبة من الأحكام وتأمين الطرق والمجاري المائية ، فقد اتسعت التجارة بين السودان والبحر المتوسط وفي داخل افريقيا الغربية ، وضبطت الأسعار والأوزان والمقاييس والمكاييل . أما الزارعة ، فقد نمت نموا مهما بفضل تصدي الفلاحين الأندلسيين واليهود لأعمال البستنة ، ومدهم قنوات الري وادخالهم مزروعات لم يكن للسودان عهد بها من قبل .

وكان من المفروض أن تنجم من استيلاء الحكم المغربي على خيرات

السودان ، وبصفة خاصة على الملح والذهب باعتبارهما من أملاك السلطان اصابة سواد السكان بالعوز والخصاص ، ولكن الذي نتج بالفعل هو اتساع ذات اليد عند جميع الطبقات لان الادارة كانت تمنع الوسطاء من استغلال الطبقات الدنيا ، وتحدد الاسعار تحت طائلة التغريم أو الجلد أو الموت ، وتتيح للعبيد والأقيان فرص العمل في الأرض ، وتلزم التجار بشراء الغلال بالأسعار المقررة . وكان يشرف على هذه الأعمال أمين المال نفسه ، وهو موظف لا يخضع للباشا بل يأتمر فقط بأوامر السلطان .

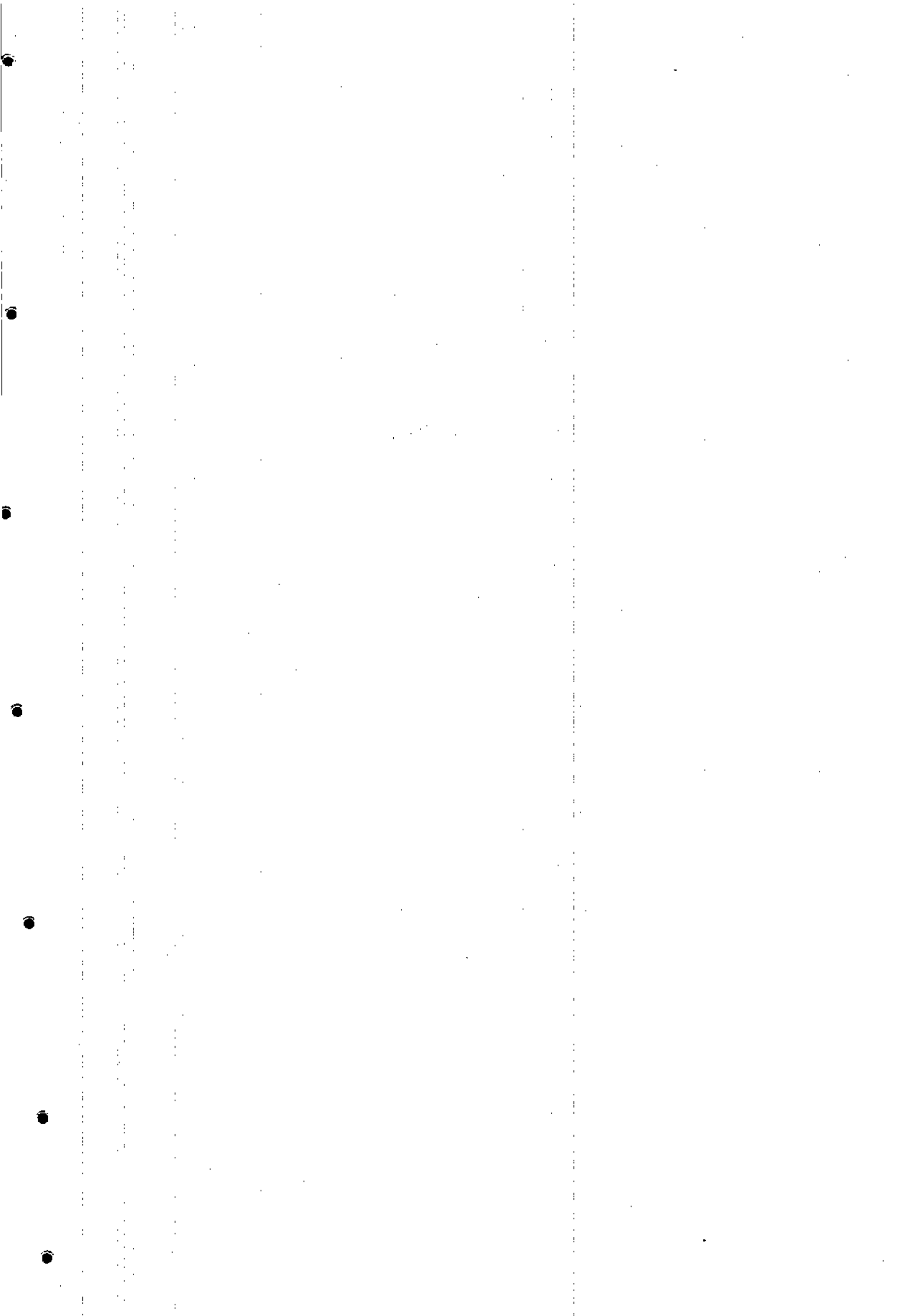
وخلافا لما كتب عن تقهقر العلم في السودان المغربي بعد تغريب العلماء ، فان الحركة العلمية والأدبية لم تعرف التطور الشامل الا بعد مجيء جؤذر بحملته ، وقد وصفنا ما حاق بالعلماء ، بأنه حادثة سير فقط لم تؤثر في شيء على سير الحركة الفكرية باصقاع السودان . والمؤكد أن هذه البلاد لم تعرف التعليم المنهجي وتعدد الأغراض العلمية والأدبية الا في العهد المغربي ، فقد ظهر مؤرخون وشعراء ورحالة ، وأعطت جامعة سنكورى أول اجازة علمية في بداية القرن السابع عشر .

ولقد ارتقى المجتمع السوداني ، ودخلته المظاهر والآداب الحضرية . وبعكس ما كان عليه المرابطون من انغلاق اجتماعي وتعصب ديني وضغط على الناحية السلوكية ، فان السعديين وهم أصحاب حضارة ورقة وتفتح ، وجدوا مناخا طيبا داخل المجتمع السوداني الميال الى البهجة والمتعلق بالفنون والنواحي الجمالية . وهكذا فقد نشطت حركة البناء الفني في المدن ، واعتنى الرجل الافريقي بسكناه وملبسه ومشربه ، واجتهد في توفير أسباب الرفاهية والمتعة له ولعائلته وعشيرته . وحيث ذابت الفوارق الطبقية ، وأصبح المعيار للارتقاء هو النبوغ والكد ، فان الفرص أتيحت لمن في مقدوره الوصول الى أعلى الهرم الاجتماعي .

لقد لمس الافريقي فوائد الحضارة ، فاندفع يغترف منها بالقدر الذي يستطيع . أما المغاربة ، فانهم بعد أن أداروا وجوههم عن بلدهم ، تزوجوا

بزنجيات وامتلكوا الدور والمزارع واستعدوا للاقامة بهذه الربوع ، باذلين الجهد في أن يوفروا لأنفسهم ظروف التلاؤم مع هذا المجتمع الذي كان غريبا عنهم في البداية . وأن يحملوا السودانيين على القبول بهم والعيش معهم على قدم المساواة .

الملاحق



١) باشاوات السودان

من ١٥٩١ الى ١٧٦٠

الترتيب	اسم الباشا	تاريخ التولية والوفاة أو العزل
١	جؤذر بن عبد الله	١١/١٥٩٠ - ١٧/٨/١٥٩١
٢	محمود بن علي بن زرقون	١٧/٨/١٥٩١ - ١٢/٥/١٥٩٥
٣	منصور عبد الرحمان بن يك	١٢/٣/١٥٩٥ - ٩/١١/١٥٩٦
٤	محمود طابع	٢٨/١٢/١٥٩٧ - ١١/٥/١٥٩٨
٥	الفتى عمار	/٢/١٥٩٩ - ١٩/٥/١٦٠٠
٦	سليمان	١٩/٥/
٧	محمود لانكو	/٧/١٦٠٤ - ١١/١٠/١٦١٢
٨	علي بن عبد الله	١١/١٠/١٦١٢ - ١٣/٣/١٦١٧
٩	احمد بن يوسف العلج	١٣/٣/١٦٠٧ - /٧/١٦١٨
١٠	حدو بن يوسف الأجناسي	٧/٨/١٦١٦ - ١٧/١/١٦١٩
١١	محمد بن احمد الماسي	١٧/١/١٦١٩ - ٤/١١/١٦٢١
١٢	يوسف بن عمر القصري	١٩/١/١٦٢٢ - ٦/٥/١٦٢٧
١٣	ابراهيم عبد الكريم الجراري	٦/٥/١٦٢٧ - ٨/٥/١٦٢٨
١٤	علي بن عبد القادر	٨/٥/١٦٢٨ - ٢٠/٧/١٦٣٢
١٥	علي بن مبارك المامي	٢٠/٧/١٦٣٢ - ١٧/١٠/١٦٣٢
١٦	سعود بن احمد اجرود الشركي	١٧/١٠/١٦٣٢ - آخر ٨/١٦٣٤
١٧	عبد الرحمان ابن القائد حمادى بن سعدون الشياظمي	آخر ٨/١٦٣٤ - آخر ٧/١٦٣٥

١٨	سعيد بن علي المحمودي	آخر/٧/ ١٦٣٥ - ٢٢/ ١٠/ ١٦٣٧
١٩	مسعود بن منصور الزعري	٢٢/ ١٠/ ١٦٣٧- آخر ٤/ ١٦٤٣
٢٠	محمد بن محمد بن عثمان	آخر ٤/ ١٦٤٣ - ١٠/ ١١/ ١٦٤٦
٢١	احمد بن علي بن عبد الله التلمساني	١٠/ ١١/ ١٦٤٦- ١٤/ ٢/ ١٦٤٧
٢٢	حميد به عبد الرحمان الحيوني	١٤/ ٢/ ١٦٤٧ - ٢٤/ ١٠/ ١٦٤٨
٢٣	يحيى بن محمد الغرناطي	٢٤/ ١٠/ ١٦٤٨ - ١٥/ ١٠/ ١٦٥١
٢٤	حمودى بن حدو بن يوسف الأجناسي	١٦/ ١٠/ ١٦٥١ - ١٨/ ٨/ ١٦٥٤
٢٥	محمد بن موسى	١٨/ ٨/ ١٦٥٤ - ١٥/ ٥/ ١٦٥٥
٢٦	محمد بن أحمد سعدون الشياظمي	١٥/ ٥/ ١٦٥٥ - ٢٦/ ٣/ ١٦٥٧
٢٧	محمد بن الحاج بن داود الشتوكي (القايد بويا)	٥/ ٨/ ١٦٦٠
٢٨	علال بن سعيد العروسي	٨/ ١٦٦٠ (يوم واحد) ٢٩
٢٩	الحاج المختار الشركي	٨/ ١٦٦٠ - ١١/ ١٦٦٠
٣٠	حمو بن عبد الله العلج	١١/ ١٦٦٠ - ٢/ ١٦٦١
٣١	علي بن عبد العزيز الفروكي	٢/ ١٦٦١ - ٣/ ١/ ١٦٦٢
٣٢	علي بن باشوط محمد بن عبد الله الزرقييني	٣/ ١/ ١٦٦٢ - ٣/ ٤/ ١٦٦٢
٣٣	عمار بن احد الجرود الشركي	آخر ١٢/ ١٦٦٢ - ٢٨/ ٨/ ١٦٦٦
٣٤	محمد بن الحاج بن داود الشتوكي (القايد بويا)	٢٨/ ٨/ ١٦٦٦ - ٢١/ ٣/ ١٦٦٧
٣٥	نعام به عبد الله العزيز الدرعي	٢١/ ٣/ ١٦٦٧ - ١٩/ ٩/ ١٦٦٧
٣٦	عبد الرحمان بن سعيد الأندلسي بن سعيد أو نضام	٢٨/ ٩/ ١٦٦٧ - ٨/ ١٠/ ١٦٦٨

٣٧	مامى بن علي بن عبد الله التلمساني	٨/١٠/١٦٦٧ - ٢٠/١٠/١٦٦٩
٣٨	محمد بن احمد الكويحل الشركي	٦/٩/١٦٧١ - ٢٨/٢/١٦٧٢
٣٩	محمد بن علي مبارك الدرعي	٢٨/٢/١٦٧٢ - ٢٨/٨/١٦٧٣
٤٠	عبد الرحمان بن محمد الشركي	٣/٩/١٦٧٣ - ١٢/١٠/١٦٧٣
٤١	علي بن ابراهيم الدرعي	١٥/١٠/١٦٧٣ - ١٠/١١/١٦٧٥
٤٢	سعيد بن عمر الفاسي	١٨/١١/١٦٧٥ - ٢٣/٦/١٦٧٨
٤٣	عبد الله بن محمد بن القائد عسو الدرعي	٦/٨/١٦٧٨ - ٢٢/٦/١٦٧٩
٤٤	ذو النون بن الحاج المختار الشركي	٢٢/٦/١٦٧٩ - ١٦/٨/١٦٧٠
٤٥	محمد بن بارضوان العلج	١٩/٨/١٦٨٠ - ٢٢/٨/١٦٨٠
٤٦	يحيى بن علي مبارك الدرعي	٢/٩/١٦٨٠ - /٨/١٦٨١
٤٧	ذو النون بن الحاج المختار الشركسي	/٨/١٦٨١ - /٣/١٦٨٢
٤٨	محمد بن الشيخ علي الدرعي	٢٦/٣/١٦٨٢ - /١٠/١٦٨٢
٤٩	باحدو سالم الحساني	/٢/١٦٨٣ - /٩/١٦٨٣
٥٠	الفا بن كانو الشركي بن محمد المداسني	/٩/١٦٨٣ (ثلاثة أيام)
٥١	زنكة عبد الرحمان بن بوزناد الفاسي	٢٠/٩/١٦٨٣ - /٥/١٦٨٤
٥٢	محمد بن بارضوان	٢٠/٦/١٦٨٤ - ١٣/١٠/١٦٨٤
٥٣	علي بن حميد العمري	/١٠/١٦٨٤ - /١٠/١٦٨٥
٥٤	مبارك بن محمود بن مزاود الزعري	

٥٥	سعود بورقرنة بن محمد بن عثمان	/٤/١٦٨٦ - /١١/١٦٨٦
٥٦	الحسن بن منصور المنبهي	١٧/١١/١٦٨٦ - /٤/١٦٨٧
٥٧	عبد الله بن محمد بن القايد عسو الدرعي	١/٥/١٦٨٧ - /١/١٦٨٨
٥٨	العباسي بن سعيد العمري	/١/١٦٨٨ - ٢٩/٤/١٦٨٨
٥٩	منصور بن موسى بن منصور الزعري (زنيبر)	/٥/١٦٨٨ - /١١/١٦٨٩
٦٠	احمد بن علي الزرقيني	/١١/١٦٨٩ - ١٤/٧/١٦٩٠
٦١	سعود بوقرنة بن محمد بن عثمان	١٤/٧/١٦٩٠ - /١/١٦٩١
٦٢	زنيبر بن محمد بويا الشتوكي	١٥/١/١٦٩١ - ٢٨/٥/١٦٩١
٦٣	ابراهيم بن حسون الدرعي	٤/١٢/١٦٩١ - /١١/١٦٩٢
٦٤	بابا سعيد بن الطالب حمدي الشركي	/١٢/١٦٩٢ - /٦/١٦٩٣
٦٥	مبارك بن منصور الزعري	/٨/١٦٩٣ - آخر ١١/١٦٩٣
٦٦	ابراهيم بن حسون	/١٢/١٦٩٣ - ٢١/٨/١٦٩٤
٦٧	ذو النون بن الحاج	/٩/١٦٩٤ (١٣ أو ١٧ يوم)
٦٨	احمد بن احمد بن علي بن عبد الله التلمساني (أحمد الخليفي)	/١١/١٦٩٤ - ١٦/٢/١٦٩٥
٦٩	زنيبر بن محمد بويا الشتوكي	١٦/٢/١٦٩٥ - /١٠/١٦٩٥
٧٠	عبد الله بن ناصر بن عبد الله الأعمشي الدرعي	/١/١٦٩٦ - آخر ٥/١٦٩٦
٧١	حمدي بن علي بن عبد الله الزرقيني	٣/٦/١٦٩٦ - ٦/٤/١٦٩٧
٧٢	مبارك بن حمدي بن علي مبارك الدرعي	١٥/٦/١٦٩٧ - /١٠/١٦٩٧

٧٣	محمد بن محمد السيد الشركي السناوني	/١١/ ١٦٩٧ (يوم)
٧٤	علي بن محمد بن الشيخ علي الدرعي	١٦٩٨/٦/ - ١٦٩٧/١١/
٧٥	يحيى بن محمد زنكا الفشتالي	١٦٩٨/٨/ - ١٦٩٨/٦/
٧٦	عبد الله بن ناصر بن عبد الله التلمساني	١٦٩٨/ ١٠ / - ١٦٩٨/٨/
٧٧	منصور بن مبارك بن منصور الزعري (زنبير)	١٧٠٠/٧/ - ٩٨/٩/١١/
٧٨	حمدي بن علي الزرقيني	١٧٠١/٣/ - ١٧٠٠/٩/
٧٩	عبد الله بن ناصر بن علي بن عبد الله التلمساني	١٧٠١/٩/ - ١٧٠١/٧/
٨٠	يوسف بن عبدا لله الدرعي	١٧٠٢ /١/ - ١٧٠١/١٠/
٨١	محمد بُن سعيد بن عمار الفاسي	١٧٠٣/١/ - ١٧٠٢/٥/٢٩
٨٢	احمد بن منصور الشركسي	/٥/ ١٧٠٣ (٢٠ يوم)
٨٣	علي بن المبارك بن علي المبارك الدرعي	١٧٠٣ /٧/ - ١٧٠٣/ ٥/
٨٤	سنطايا بن فريز الفاسي	١٧٠٣/١٠/ - ١٧٠٣/٨/
٨٥	مامي بن علي الزرقيني	١٧٠٤/٦/٢٤ - ١٧٠٤ ٣/٢أو
٨٦	محمد بن سعيد بن عمر	١٧٠٤/٨/٢٩ - ١٧٠٤/٨/٩
٨٧	محمد بن محمد السعدي الشركسي	١٧٠٥/١/ - ١٧٠٤/١٠/
٨٨	يحيى بن محمد الزنكا الفشتالي	١٧٠٥/٣/ - ١٧٠٥/٢/
٨٩	عبد الله بن ناصر بن علي بن عبد الله التلمساني	١٧٠٥/٦ / - ١٧٠٥/٤/
٩٠	سعيد بن بوزيان الخياري	١٧٠٥/١٠/ - ١٧٠٥/٨/

٩١	مامى بن علي الزرقييني	١٧٠٧/٣/ - ١٧٠٥/١٠/
٩٢	مبارك بن محمد الغرناطي	١٧٠٧/٨/ - ١٧٠٧/٤/
٩٣	ناصر بن عبد الله بن ناصر عبد الله الهاشمي الدرعي	١٧٠٨/٣/ - ١٧٠٧/١١/٢٥
٩٤	عبد الله بن ناصر بن علي بن عبد الله التلمساني	١٧٠٨/٥/٣٠ - ١٧٠٨/٣/٢٦
٩٥	علي بن رحمون المنيعي	١٧٠٨/١١/ - ١٧٠٨/٩/
٩٦	محمد بن حمدي بن علي الزرقييني	١٧٠٩/٧/٧ - ١٧٠٩/٢/٧
٩٧	حمد زنكو بن عبد الرحمان بن علي المبارك	١٧١٠/٤/١٢ - ١٧٠٩/٨/
٩٨	يحيى بن محمد الزنكا الفشتالي	١٧١٠/٩/ - ١٧١٠/٧/
٩٩	علي بن محمد بن الشيخ علي الدرعي	١٧١٠/٩/ - ١٧١٠/٩/
١٠٠	ابو بكر بن محمد السعيدي	١٧١١/٣/ - ١٧١٠/٩/
١٠١	يوسف بن عبد الله الدرعي	١٧١١/٦/ - ١٧١١/٣/
١٠٢	عبد القادر بن علي الزرقيني	١٧١٢/٢/ - ١٧١١/٩/
١٠٣	عبد الله بن ناصر بن علي التلمساني	١٧١٢/٢/ (يوم واحد)
١٠٤	علي بن مبارك الدرعي	١٧١٢/٤/ - ١٧١٢/٢
١٠٥	منصور بن موسى بن منصور الزهيري	١٧١٢/٩ آخر - ١٧١٢/٦/٤
١٠٦	مام بن علي الزرقيني	١٧١٣/٤/ - ١٧١٣/١/١
١٠٧	علي بن رحون المنبهي	١٧١٣/٨/ - ١٧١٣/٥/
١٠٨	عبد الله بن الحاج بن سعيد العمراني	١٧١٤/١/ - ١٧١٣/٨/

١٠٩	عمار بن سعود بوقرنة بن محمد بن عثمان الشركي	١٧١٤/١/ - ١٧١٤/٢/
١١٠	باحادو بن يحيى بن المبارك الدرعي	١٧١٤/٢/ - ١٧١٤/٨/
١١١	عبد الله بن الحاج العمراني	١٧١٤/٨/ - ١٧١٥/١/
١١٢	باحادو بن يحيى بن المبارك الدرعي	١٧١٥/٢/ - ١٧١٥/٤/
١١٣	محمد بن حمدي بن علي الزرقيني	١٧١٥/٨/ - ١٧١٥/١٠/
١١٤	علي بن محمد بن الشيخ علي الدرعي	١٧١٦/١/ - ١٧١٦/٣/
١١٥	عبد الله بن الحاج العمراني	١٧١٦/٣/١٧ - آخر/٦/١٧١٦
١١٦	منصور بن موسى بن منصور الزعري	١٧١٦/٧/٥ - ١٧١٩/١٠/١٤
١١٧	باحدو بن يحيى بن مبارك الدرعي	١٧١٩/١٠/١٤ - ١٧٢١/١٠/٧
١١٨	عبد الغفار بن علي الزرقيني	١٧٢١/١٠/ - ١٧٢٢/٢/
١١٩	عبد الله بن الحاج العمراني	١٧٢٢/٢١/٢٣ - ١٧٢٢/٧/١٤
١٢٠	عبد الله بن الحاج العمراني	١٧٢٢/٢١/٢٣ - ١٧٢٢/٧/١٤
١٢٠	عبد الله بن الحاج العمراني	١٧٢٢/١١/١٣ - ١٧٢٣/٣/٢١
١٢١	محمود بن القايد محمد بويا بن الحاج داود الشتوكي	١٧٢٦/٦/٩ - ١٧٢٦/٧/١٨
١٢٢	عبد الرحمان بن حمدي بن علي الزرقيني	١٧٢٦/٩/١٢ - ١٧٢٧/١/
١٢٣	عبد الله بن الحاج العمراني	١٧٢٧/١٠/٢١ - ١٧٢٧/١١/١١

١٢٤ باحدو بن يحيى بن مبارك الدرعي ١٩/١١/١٧٢٧ - ٢٩/٦/١٧٢٨

١٢٥ يوسف بن عبد الله الدرعي ١٤/٧/١٧٢٩ - ١١/٨/١٧٢٩

١٢٦ عبد الله بن الحاج العمراني ١٩/٣/١٧٣٠ - وسط ٧/١٧٣٠

١٢٧ محمد بحو بن زنيبر بن منصور الزعري ١٨/٩/١٧٣٢ - ٣/١١/١٧٣٢

١٢٨ الحسنى بن حمدي بن علي الزرقيني ٢٨/٥/١٧٣٣ - /٦/١٧٣٣

١٢٩ محمد بن حمدي بن علي الزرقيني ١١/١١/١٧٣٤ - ٢٣/١/١٧٣٥

١٣٠ سعيد بن علي الزرقيني ١٣/٥/١٧٣٥ - ٢/٧/١٧٣٥

١٣١ حمدي بن زنيبر بن منصور الزعري ١٦/٣/١٧٣٦ - ١٨/٦/١٧٣٦

١٣٢ سعيد بن علي الزرقيني ٢/٧/١٧٣٦ - ٣/١١/١٧٣٦

١٣٣ حمدي بن زنيبر بن منصور الزعري ٩/٢/١٧٣٧ - ٢٣/٥/١٧٣٧

١٣٤ محمد بن حمدي بن علي الزرقيني ١٩/٩/١٧٣٧ - ١١/٤/١٧٣٨

١٣٥ الفا ابراهيم بن منصور بن محمد بن علي مبارك الدرعي ٢١/٤/١٧٣٨ - ١٦/٦/١٧٣٨

١٣٦ حمدي بن منصور بن محمد بن علي المبارك الدرعي ١٨/٦/١٧٣٨ - ٢٢/٨/١٧٣٨

١٣٧ ألفا ابراهيم بن حمد بن علي الزرقيني ٢/٩/١٧٣٨ - ٢٧/١٠/١٧٣٨

١٣٨ سعيد بن زنيبر بن منصور الزهيري ٦/١١/١٧٣٨ - ٢٢/٤/١٧٤٠

١٣٩	يحيى بن حمدي بن علي الزرقيني	١٩/٥/١٧٤٠ - ٧/٦/١٧٤٠
١٤٠	بابا سيد بن محمد الزنكوين عبد الله مام بن علي الدرعي	٦/٨/١٧٤٠ - ١٠/١٢/١٧٤٠
١٤١	الحسن بن محمد العمري	٦/٣/١٧٤١ - ١/٦/١٧٤١
١٤٢	سعيد بن زنيبر بن منصورالزعري	٤/٧/١٧٤١ - ٢٤/١٠/١٧٤١
١٤٣	سعيد بن زنيبر بن منصور الزعري	٢/١١/١٧٤١ - ١٦/٦/١٧٤٢
١٤٤	سعيد بن حمدي بن علي الزرقيني	٢١/٦/١٧٤٢ - ٣١/٨/١٧٤٢
١٤٥	سعيد بن حمدي بن علي الزرقيني	١٨/٩/١٧٤٢ - ٣/١١/١٧٤٢
١٤٦	سعيد بن زنيبر بن منصور الزعري	١/١٢/١٧٤٣ - ٢٢/٤/١٧٤٥
١٤٧	بابا سعيد بن محمد زنكو بن عبد الله مام بن علي الدرعي	٢٢/٥/١٧٤٥ - ١٥/٩/١٧٤٥
١٤٨	الفا محمود بن زنيبر بن محمد بويا الشتوكي	١٥/٤/١٧٤٦ - ١٩/٤/١٧٤٦
١٤٩	عبد الغفار بن عثمان بن علي الزرقيني	١٦/٣/١٧٤٨ - ٢٧/٧/١٧٤٨
١٥٠	بوبكر بن منصور بن محمد بن علي المبارك الدرعي	٣٠/١٠/١٧٤٨ - ٢٢/١٢/١٧٤٨
١٥١	ابو بكر بن منصور بن محمد بن علي المبارك الدرعي	١٩/١/١٧٥٠ - ٢٩/١١/١٧٥٠
١٥٢	سعيد بن حمادى بن علي الزرقيني	

١٥٣ علي بن عبد الرؤوف بن
صالح بن محمد الشيخ علي الدرعي

١٥٤ علي بن عمار بن سعود
بكارنا الشركسي

١٥٥ باحدو بن أبو بكر الفا منصور
بن محمد بن علي المبارك الدرعي

١٥٦ علي بن منصور بن علي الزرقيني
المعروف بلقب بابا . ١٤/ ٢/ ١٧٦٠

٢) رسالة من أحمد المنصور السعدي إلى أمير منطقة أكدز[1] الحاج محمد العدال

محمد بن العاقب

الرياسة التي ما زالت تمد أسباب الخدمة الواضحة لهذه المثابة العظيمة الحلال ، والمنزلة المعتبرة بأضاحي[2] قاصية أكدز وما إليه من الأعمال ، رياسة المعظم الجليل ، المكرم الأصيل الأجل الأسمى ، الأعز الأحمى ، المعتبر الخطير ، الأنجد الكبير الأرفع الأوجه ، المكين الأنوه ، الحاج محمد العدال بن المرضي الفذ الرئيس الكبير المرفع أبي عبد الله محمد بن المعظم الأشمخ الأسنى الأسمى الأصيل الأثيل العاقب أبقى الله قاعدة قعدة ولائكم راسخة ، وآية جنوحكم واعتصامكم بحبال علائنا لأي التشكيك ناصخة ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي من على سعداء عباده بالانتماء للجناب النبوي منا جسياً ، مصداق : (ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد الله فسنوتيه أجراً عظيماً) . الصلاة والسلام على لبنة التمام من شوامخ أبنية الرسالة الذي ورث الله خلافة نبوته عترة بنوته وآله ، سيدنا ومولانا محمد الماحي بأنوار هدايته سدف الضلال ، الدافع

---

(١) أكاديس تقع اليوم وسط جمهورية النيجر وكانت تعتبر الحد الشرقي الشمالي للحكم المغربي في السودان ، واشتهرت بوقوعها على طرق القوافل الشرقية ووجود مناجم النحاس بالقرب منها ، وقد عمرها برابرة صنهاجة (أحمد بابا ـ نيل الابتهاج ص ٢١٨) .

(٢) كذا والصواب بضواحي .

ببرهان صدقه شبه الأشكال ، والرضى عن آله الذين تسنموا من مجده الذروة الشماء ، واقتعدوا من الشرف الباذخ مراتب العزة القعساء ، وشجرة فخرهم أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فمساور الإنحراف عنهم لا يبيت من رقشهم بغير ليلة نابغية ، ولا يرتدي بسوى حلة ابن حجر القيصرية ، وعن أصحابه الذين أشرعوا الأسنة في الانتصار للدين والسنة ، وجردوا من السيوف الحرار ، ما مكن الدين من ربوة ذات معين وقرار ، والدعاء لهذا المقام الإمامي ، الأحمدي المنصوري الذي أقام الله منار اهتدائه ، فدل عليه من انتقاه من أوليائه ، وانحرف عنه من قادته أيدي الأقدار بأرسان شقائه بما ينظم أمر البسيطة في سلكه وبحشر سكان المعمور بحشر ملح ، ويسرج بأضواء امداده وآلاء إسعاده ، مصابيح عزماته ، ويمد بتأييده وحسن تسديده ، مراجيح اتباعه وحماته ، بمنة الله تعالى وعزته ، فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم سعداً لا يزال ميمون الطوالع موفور البضائع ، من هالة أبدارنا ، والحضرة المشرفة باستقرارنا ، حمراء مراكش حرسها الله وصنع الله متهلل الأسرة ، وأدلة اليمن والإقبال كفيلة إن شاءالله بنيل كل مسرة ، والأمة بحول الله وبعزائمنا الإمامة محوطة ، وأسبابها من هذا الأمر العزيز بعرى عنايتنا وكفالتنا منوطة ، وقد وصل معروضكم لمثابتنا الإمامية ففض بنادينا ختامه ، وتلي على مسامعنا الشريفة مبدأه واختتامه ومحصوله ما أقمتم على صحته شواهد جلية الظهور ، من كونكم عند إرادتنا في السعي المشكور ، وممن له علاقة المحبة القديمة التي لا يخفر ذمامها ، ولا يجب بأيدي التهاون غاربها ولا سنامها ، معتمدين على متات أواصر انتصاركم لهذا الأمر العزيز ، مستندين إلى دليل ليس بمختصر في الحرمة ولا وجيز ، فليتقرر لديكم أنكم من أولياء هذه الكلمة التي هي عنوان السعادة ، ودليل نيل الحسنى عند الله تعالى «وزيادة» ، وهم حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون ، ومن الذين آمنوا وعملوا الصالحات الموعودين بروضات الجنات ، بما زاد على الأمنية وأربى بقوله جل اسمه « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فبهداهم اقتده ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، فاشكروا الله على هذه النعمة العظمى ، واذكروه كما هداكم ،

واستديموا عظيم مواهبة بتطابق الظاهر والباطن ، وجذبهم[1] بمقاد بصيرتكم إلى كلمة الجماعة وزمام الإيمان ، والله ولي المؤمنين فأنتم بمنة الله وحواشيكم وأتباعكم وبلادكم في أمان الله وحفظه ، نرى إن شاء الله ما يبدو منكم ، ويصل في أمره عنكم ، وبهذا وجب الكتب إليكم والله يرشدكم بمنه والسلام .

* * *

---

(١) كذا ، ولعل ها هنا حذفا .

٣) رسالة من أحمد المنصور السعدي
إلى أحد ملوك الحاووصا محمد باي بن سوري

الرئيس المكرم الأرضي ، الأوجه الأثير الأحظى ، الأمجد الأنـزه ، المكين الأنبه ، محمد باي بن سوري شكر الله تعالى في المساعي الجميلة سعيكم ، وأجمل فيما يرضيه نظركم ورأيكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله مولي النعمة لأوليائه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم رسله وأنبيائه ، والرضى عن آله خيرة خلقه وأصفيائه ، وعن أصحابه الواضحين نهج اتباعه واقتفائه ، ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي النبوي باتصال امداد نصره وتأييده على مجاهدة الملحدين أعدائه ، فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله وعناية الله منسدلة الرواق ، وأنوارها الساطعة دائمة الإشراق ، على هذه الآفاق ، لله المنة .

هذا وقد أنهى إلى مقامنا العلي كتابكم الأثير قرر انكم على السعي الجميل فيما يرضي هذا الجناب النبوي في كل حال ، وعلى الخدمة التي تتظافر عليها الأفعال والأقوال ، فاستوعبنا كل ما قررتم من ذلك جملة وتفصيلا ، وشكرنا فيه تعريفكم شكراً جميلاً وإلى هذا فاعلموا أن هذا المقام العلي مقام رعيكم ولحظكم ، ومحل اجزال قسطكم من البرور وحظكم وأن أغراضكم في هذه الأبواب العلية مقابلة بوجه الترحيب ، وما ينهي من رسائلكم مودع من جميل رعايتنا وشريف التفاتنا بالمحل الفسيح والمكان الرحيب مواجه بالبشر والطلاقة المؤذنة بالقبول ، والبر الموصول ، والسلام .

* * *

٤) رسالة ثانية إلى الملك محمد باي بن سوري

الرئيس الذي أخلص له خلوص ولائه لمقامنا العلي جميل الرعي والاعتبار ، وأوضح له صفاء وده من جنابنا الكريم شفوف المنزلة وسمو المقدار ، المكرم المعتبر الأثير المكين المرعي الملحوظ محمد باي بن سوري شكر الله في المساعي الجميلة سعيكم وأجمل فيما يرضيه نظركم ورأيكم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله مولي النعمة لأوليائه ، والصلاة والسلام على صفوة رسله وأنبيائه والرضى عن آله خيرة خلقه وأصفيائه ، وعن أصحابه الجارين على نهج أتباعه واقتفائه ومواصلة الدعاء لهذا الجناب العلي بإمداد نصره وتأييده على مجاهدة الملحدين أعدائه .

فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ، وعناية الله تعالى منسدلة الرواق ، وأنواره عزه ساطعة دائمة الإشراق ، على هذه الآفاق ، لله المنة .

هذا وقد أنهى إلى مقامنا العلي كتابكم الأثير أسدى إلى علمنا الكريم ما أنتم عليه من المحبة لهذا الجناب الشريف ، والخدمة التي أوضحتم سننها اللاحبة ومنهاجها المنيف ، استوعبتم لمقامنا العلي بها التعريف ، وأوضحتهم بها لجنابنا الكريم رسمها الواضح المنهاج وأنكم على السعي فيما يرضي هذا المقام العلي في كل حال ، وعلى الخدمة تظافرت عليها الأقوال والأفعال ، فشكرنا لكم ذلك شكراً جميلاً واستجدنا ذلك منكم جملة وتفصيلا .

وإلى هذا فاعلموا ان هذا المقام الكريم مقام رعيكم واعتباركم ، والتنويه

بشان مقداركم ، وأن أغراضكم في هذه الأبواب العلية مقابلة بوجه الترحيب ، وكل ما ينهي من مسائلكم ويرد من رسائلكم مودع من جميل رعايتنا ، وشريف التفاتنا ، بالمحل الفسيح والمكان الرحب ، مواجه بالبشر والطلاقة الموذنة بالقبول ، والبرور الشامل لكم والبر الموصول ، والذي أوجبه إيصاء مكانكم المكين بجانب المكرم الأثير الكاتب المسعود الوهراني القافل من هذه الأبواب العلية الإمامية إلى محل إمارتكم الأثيرة السامية في الالتفات إلى جهته بجميل الرعاية ، وسدل أردية العز عليه وجلابيب الرحمة والعناية ، ومعاملته في جميع أحواله بما يتكفل له إن شاء الله بجميل الصنع بدأ ونهاية ، ويقطعه جانب العز الذي يسحب رداءه السابغ ضافياً ، ويسرح في رياضه الأريض إن شاء الله رائحاً وغادياً وهذا موجبه إليكم والله يرعاكم بمنه والسلام .

* * *

٥) رسالة من المنصور السعدي
لأمير توات الشيخ عمر بن محمد

الجمع المرعي بالله تعالى المحفوظ ، والرهط الـذي هو لدينـا بعـين الـولاء ملحوظ ، الشيخ الأجر ، الأثير الأفضل ، الأبـر الأرضي ، الأخص الأحظـى ، الشيخ عمر بن محمـد وجملـة إخوانـه وجماعتـه أهـل تمنتيط وتواتـه حفظهـم الله ورعاهم ، وسلك بهم من طرق الرشـاد ، وسبـل السـداد ، ما يخصـب روض مرعاهم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله جاعل الخلافة مصباحاً لا يطفأ نوره ، ولا يجحد في غياهب الضلال بدوه وظهوره ، والصلاة والسـلام على من أخمـد الله به نار الشرك بعـد اشتعالها ، وفل به غرب الضلالة بعد تجريد نصالها ، سيدنا ومولانا محمد المبعوث لإقامة أود الحق وإظهار مناه ، وحسم مواد الغي مع توفر جموحه وتكاثف أنصاره ، فأعمل الأسنة والبواتر ، وأقحم العساكر بالعساكر ، حتى أصحت ملة الإسلام باهرة الإشراق ، وانعقد لها بالعالم العلوي وأكناف البسيطة الإجماع والاصفاق ، والرضى عن آله الذين بمحبتهم يتم للقلوب عقد إيمانها ، وبـالانضمام لولايتهـم يكمل لها نظم جمانها ، وعن صحابته الذين بذلوا النفوس في نصرته واتباعه ، حتى صار أمر الدين لغاية لا تنكر من علوه وارتفاعه ، واستدامة ما خص الله به هذه المثابة العلوية من النصر الذي خفق في جو السعادة جناحه ، واليمن الذي تبلـغ بأفق الإرادة صباحه ، والعز الذي أسست على تقوى من الله قواعده ، وامتازت بسمو القدر معاليه ومصاعده ، ونبجست من ينابيع الإسعاد مشاربه ومـوارده ،

والتأييد الذي ألقت إليه الأقاليم الاستسلام ، وتسابق في مضمار خدمته الليالي والأيام ، فتمهدت بذلك أقطارها ، واتسع لأجله مدارها ، فأنا كتبناه إليكم كتب الله لكم توفيقاً وافر الأقسام ، وعرفكم عوارف آلائه الجسام ، من حضرتنا المراكشية ، وهالة أقمارنا الهاشمية حرسها الله وكلأها بحلي الإسعاد وتيسير الأمنية والمراد حلالها ، ولا متعرف بفضل الله إلا أن هذا السر الذي استأثرت به هذه الإيالة وحازته الفرعية منها والأصالة ، هدى الله إليه من عباده من وفق ، فأراش عزمه في مرضاتها وفوق وركب راحلة اعتقاده ، وعد الانتظام في سلكها ذخراً لمعاده ، فجرى إلى أبعد غاية في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) الآية ، وتولى نصرها بالنشر والإذاعة ، عملاً بقوله ﷺ - يد الله مع الجماعة ، وإنكم معشر الجماعة المرعية والفئة المرضية من خب في هذا المضمار وأوضع وتأرج نسيمه بخدمة هذا المقام وتضوع حيث أنتم كتبكم لمقامنا واتصلت بمنابع انعامنا وأنتم فيها على ما يرضي الله ويرضينا من المحبة والطاعة والإنخراط في سلك الجماعة ، فقد أنتجت لكم مقدمات التدبير ما تحمد به إن شاء الله عقبى الصغير منكم والكبير ، في استفياء وارف هذه الظلال ، واسترشاف أعذب هذا الزلال ، والاعتماد على مركز علائنا والوقوف مع خط استوائنا ، فإذا انتهى إليكم إن شاء الله هذا المدرج وقصدكم في الوقوف على أبوابنا والاحتلال بالضخمة أعتابنا ، فثقوا بأن أبواب القبول والكرامة لكم مفتوحة وقواعد الاعتناء بكم مفسرة مشروحة ، وتحلون من إكرامنا إن شاء الله محلاً رضياً ويقابلكم من أفضالنا وجه الإحسان جلياً وتتسربلون من رعايتنا إن شاء الله أردية لا تبلى وأثرة على مر الدهور تسرد سور عنايتها وتتلى بحول الله وقوته ، وهو سبحانه ولي توفيقكم لما يرضيه بعزته ، والسلام .

* * *

٦) رسالة من أحمد المنصور السعدي لكبراء وأشياخ منطقتي توات وتيكورارين

المرابط الخير الدين الأتقى الأنقى الأزكي المكرم الأثير (أبي فلان بن فلان) وصل الله كرامتكم ، وأوضح بشيات التقوى علامتكم ، وأمدكم بتوفيقه ، وسلك بكم من الرشاد لأحب طريقة ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي جعل هذا الأمر العزيز رحمة لم اهتدى ، ووبالاً على من اعتدى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أرشد وهدى ، وبين سبيلا رشداً لن نجد من دونه ملتحداً ، والرضى عن آله شموس الهدى ، وبحور البأس والندى ، وأصحابه الذين استأصلوا بسيوفهم شأفة العدا ، والدعاء لهذا المقام العلي بنصر يطوى البسيطة حسامه ، وترف على معالم المعمور راياته المنصورة وأعلامه ، فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية الفاسية كلاها الله ولا جديد بحمد الله إلا ما عوده سبحانه لهذا الأمر العزيز من النصر والإقبال والبشائر المتواترة في البكر والآصال لله المنة .

هذا والذي أوجبه إليكم أكرمكم الله بتقواه ، ووفقكم لما يحبه ويرضاه ، اعلامكم أنه لما كانت تلكم البلاد من أجل ممالكنا التي لها عندنا الخطر والبال ، ونتوجه إليها بوجه الايثار والإهتبال ، ونحمي حماها من طوارق البغي والفساد ، باستئصال شوكة أهل الغي والعناد ، وحسم أدواء الأشرار عن العباد ، وبسط العدل الذي يشمل إن شاء الله كل حاضر وباد ، وبحسب هذا وجهنا إليها بمحلالتنا السعيدة التي نهض فيها عساكرنا المظفرة وأجنادنا المؤ يدة بالله لنسلكها إن

شاء الله وتطوق أرجاءها ، وتوطد أنحاءها ، وتشيد بها منار العدل الشامل ، وتقيم أعلام الحنيفية البيضاء لإرشاد أهل السنة في تلك المجاهل ، وترحم المطيع وتردع العاصي ، وتمهد الداني بحول الله من أقطارها والقاصي ، وقدمنا إليكم هذا الخطاب الكريم ، تعريفاً لكم وإعلاماً أن كل من أوى إليكم من أهل الفساد ، رجع عن غيه وبغيه وحاد ، وسلك بهدايتكم طريق الرشاد ، وأقلع عن سوء فعله الذميم ، من قبل أن يحل به من سيوفنا المظفرة بالله العذاب الأليم ، فباب التوبة له عندنا مفتوح ، والعفو له منا إن شاء الله مبذول وممنوح ، فأشيدوا بهذا الأمر الكريم وعرفوا به من قبلكم ، وأخلصوا لله في كل سعي صالح عملكم ، وبهذا وجب الكتب إليكم والله يرعاكم والسلام .

وفي الوجه الآخر من المبيضة :

وقدمنا إليكم هذا الخطاب الكريم ، إعلاماً بما قصدنا إليه من صلاح البلاد ، وهناء العباد ، ونشر العدل والعافية التي ينامون منها إن شاء الله على ألين مهاد ، تحت ظلال عدلنا ، وكنف رعينا وفضلنا وعرفوا بذلك من قبلكم من قبائلكم وعشائركم وسائر من إليكم من رعايانا وفرها الله لتنبسط آمالهم ، ويصح إعتلالهم ، وتجرى على مجاري الخير والسداد إن شاء الله أحوالكم وأحوالهم ، وإذا انتهت إليكم عساكرنا وفرها الله وأجنادنا فلتسعوا أمامها السعي الذي يحسن بلاغه عنكم ، وأدوا لها من النصح والخدمة ما يشكر لكم ويحمد إن شاء الله صدوره منكم ، والسلام .

* * *

٧) ما عثر عليه من رسالة من أحمد المنصور السعدي إلى الأسكيا إسحاق[١]

هذا وإن نبينا عليه السلام لما ابتعثه الله تعالى بهذه الحنيفية السمحاء ، وأرسله بالحق إلى الخاصة والدهماء ، كان من الشرائع التي سنهاﷺ وفرضها الأعذار بالكتب من قبل الكتائب ، والترغيب من قبل الترهيب باصطكاك الركائب ، قال تعالى فيما أنزله على نبينا عليه السلام : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) ونحن بحمد الله في هذا وغيره للسنة متبعون ، وبكتاب الله عاملون ، لا نوقع قبل وعيد ، ولا نزمع إلا بعد إعذار نبدي فيه ونعيد ، فمن وفقه الله لسبيل الرشاد وجنح إلى التي هي أحسن في الحال والمعاد ، يتفيأ من أمان الله ورعايته ظلاً ظليلاً ومددنا عليه وعلى بلاده جناحاً مستطيلاً ، لا يروعه رائع ، ولا تشير إلى جهته الوقائع ولا تثير الغبار في وجهه الطلائع ، ومن أضله الله تعالى ودام على الاستعصاء أمره ، والتهب بوقود الغواية جمرة ، جهزنا نحوه من جنود الله تعالى كتائب كالليل البهيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، تزأر زئير الضراغم وتزخر كالبحر المتلاطم ، تنتشف ماءه ، وتكشف سماءه وتغنم طارفه وتلاده ، وتخرب أرضه وبلاده فيلوم نفسه حين لا يغني الملام ، ويستسلم ولا نفعه الإستسلام .

وبحسب هذا فانا ندعوكم إلى ما فيه إن شاء الله الخير العاجل والآجل والنجاح الذي هو بحول الله بعز الدارين شامل وهي طاعة الله ورسوله ، والجري

(١) عبد الله كنون ـ رسائل سعدية ص ١٣٦ ـ ١٣٩

على نهج الهدى وسبيله ، مداينة الله بمفروض طاعتنا ، والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا ، والإئتمام بشريف أمامتنا .

فصل آخر منه :

وإذا تقرر لديكم أن من البر اقتفاء أثر الآباء ، والجري في المآثر الجميلة على جادتهم ، البيضاء ، وأخبرتم أن جدكم ابن ذي يزن أول من أمن بجدنا المصطفى ﷺ وصدق ، وبشر جده شيبة الحمد بما من أمره الحكيم قد تحقق ، وأتحفه لذلك بأجل التحف وخصه من بين عشيرته بمزية الفضل والشرف هذا والرسول ﷺ لم يتفتق عن جوهره المكنون صدف الوجود ، ولا اعتمت بأنوازه الساطعة الأغوار والنجود ، بل آمن به وهو عليه الصلاة والسلام حينئذ بستر الغيب محجوباً وصدق بنبوته وأمره لم يكن إلا في الكتب المنزلة مسطوراً وفي اللوح مكتوباً ، فأحرى أن تؤمنوا أنتم باتباع شرائعه ﷺ التي هي بعد البعثة أوضح من شمس الظهيرة ، وأضواء من الكواكب المستنيرة ، وأمره ﷺ قد لاح للعيان كالفلق ، وطلع طلوع البدر في الغسق ، وتأتموا بهذه الإمامة المقدسة التي عمت أنوارها مشارق الأرض ومغاربها وجابت جيوب البسيطة ومناكبها ، وتمتثلوا أوامره الشريفة فيما افترض الله لهذه الخلافة النبوية من السمع والطاعة ، والانخراط بمبايعتها في سلك الجماعة ، وتساجلوا جدكم في مثل هذا المضمار ، وتقتفوا أثره في الإرتقاء إلى ذروة هذا المنار ، والاستضاءة بهذه الأنوار ، وتحرزوا ببركتها خير الدارين في الإيراد والإصدار ، وتنتظموا في سمط حزب الله الملحوظ بعين العناية والاعتبار .

* * *

٨) رسالة من أحمد المنصور السعدى
إلى الأسكيا إسحاق بن داود[١]

رئيس كاغوا وكبيرها والقائم بأمرها وتدبيرها إسحاق سكية بن داوود وصل الله لكم أسباب هدايته وتوفيقه وجعلكم ممن إنتمى إلى حزب هذا الجناب النبوي الكريم وفريقه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمدالله الذي صرف لهذه الامامة النبوية الكريمة وارثة الأرض ومن عليها وجعل زمام الأمة بيدها والنظر فيما لهم وعليهم موكولا إليها والصلاة على سيدنا ومولانا محمد المبعوث من أطيب المعادن وأشرف من تنصرف إليه الوجوه من كل ظاعن وقاطن والرضى عن آله الأئمة الاعلام خلفاء الاسلام وأصحابه الذين عزروه ونصروه بالسنان والحسام وصلة الدعاء لهذا المقام العلي الأمامي النبوي المنصوري الأحمدي الحسني الفاطمي بنصر تدور به الافلاك وتستنزل به الملائك وتخضع له الأملاك فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية وكرسي إيالتنا العلوية ومقر أمامتنا الهاشمية الحسنية مراكش حاطها الله ونعم الله على هذا المقام المنصور ضافية السربال وافية السيال والاعتناء بحفظ نظام الدين وتشييد قواعده من كاسه العنوق والاصطباح والاهتمام بمصالح الأمة المحمدية مستغرق فيه المساء والاصباح وارسال سوابق الفكر في تتبع المصالح التي تتعلق بها أعلام التوحيد على أهل التثليث هو الديدن في الغد والرواح كل ذلك علم الله لنقدم في هذا الدين المحمدي المقام الشريف ونبرأ على أكمل الوجوه من عهدة التكليف فقد نيطت بنا التكاليف الشرعية التي لم تنط بغيرنا أي مناط وارتبطت بنا

(١) الفشتالي ـ مناهل الصفا / ص ١٢٣ ـ ١٢٥

أي إرتباط ولا مطمع في التقصى من ربقتها والانفلات من عهدتها إلا بمواصلة الجد في السالمات والانا وأعمال الحزم والعزم وترك الهوينا ومتى يقع الخلاص من أعباء عرض حملها على السموات والأرض فابت ووعدها بالثواب عليها خالق العالم فتابت فاليه سبحانه نمد أكف الضراعة في تيسير الخلاص من هذه الأثقال ومنه نستمد الأمانة التي بها تنال الآمال وغير خفي على من ذاق حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه وألقى إلى هواتف الشريعة كتابا وسنة سمعه ولبه إننا بهذه الأثقال دون غيرنا مطالبون وبأعبائها مضطلعون إذ الناس في هذا الأمر تبع ونحن المتبعون وان طاعة هذا الأمر الذي تقلدنا قلادته مفروضة على أهل الأرض وواجبة على كل من أحاط من اسياج المعمور على الطول والعرض لما إختصنا الله له من امامة الجماعة التي أوتيتها حكم الولاء والكفالة ووراثة الأرض ومن عليها لا عن كلالة وقلدنا من حماية بيضة الاسلام والذب عن أمة نبيه عليه السلام وانى لمن بهذه المنزلة أن تطرق المنزلة ان تطرق أجفانه سمة إغتماض أو يتأتى له عن رعي المصالح الخاصة والعامة صدود أو أعراض وعدو الدين إلى شق عصا الاسلام وافساد بيضته على طول المدى فأغرفاه معمور الفكر والبال فارغ مما سواه ولهذا ومن أجله لم تزل بحمد الله سهام أنظارنا السديدة إلى أهداف مصالح الأمة المحمدية مفوقة وأرونا ولا كفران لله بحوله وقوته إلى صوب الصواب موفقة نعثر منها على ما جر عليه قبل الأيام ذيل الاغفال فأسدل دونها رواق الاهمال وكلما أثرنا من مهامه الفيح قنصا وقعنا به على مهارق الاعلام والتعريف لكم ولغيركم ممن أوجب الله عليه الانصات لامرانا قصصا لتلبي في الأقطار والآفاق دعوتنا إليه المطاعة وتعطى إشارتنا به على الانام ما يجب لها من الشهرة المقرونة بامتثال والاذاعة ويشتد به أزر هذه العصابة الاسلامية وهذه الجماعة ويحصل لها به بعد سبر غوره الفرح والاغتباط ولنا ان شاء الله أجر الاشارة به عليها والاستنباط هذا وان مما وقف بنا عليه بعد إستخارة الله زائد الاختيار وسبرنا غوره من سديد النظر بمسبار وما تعاضدت شواهد الشرع على إعتباره واباحة إجتناء ثماره وانه من القلاوة التي طوقتنا دلائل الكتاب والسنة طوقها وأسالت أرواح الأذن الالاهي من سماء التمكين على أكناف ودقها وأوجبت عليكم

خصوصا وعلى الناس عموما تلبية منادينا وانهاء التعريف بالقبول لها إلى شريف نادينا وذلك هذه الملاحة المعدنية التي تضرب إليها أكباد الابل وتشد بسببها لبلاد تغازى على الدوام الاقتاب والرحال وتعمل المطي إليها الوخد والارقال وتشق البيد نحوها باحمال الثقال قد إنطوى على مصلحة لهذا الجيش الاسلامي والأسطول الجهادي الذي جعل المولى سبحانه بأيدينا زمامه وصرف بفضله إلى احياء دينه ظعنه ومقامه وشرق من أجله طاغية التثليث بريقه وضاق متسع الفضاء فرقا به وبحزبه وفريقه لا يصلح في قانون الشرع ان تقابل بالاهمال ولا يبرى من عهدته إلا البدار إليها والأعمال لما فيها من الاعانة لهذه الجيوش الاسلامية والعساكر المظفرة بالله الهاشمية الأمامية وتقوية هذه العصابة النبوية التي بها يقع الدفاع عن الملة ويحمى حماها بسيوفها المستلة وصرفها في إقامة أسطول الجهاد وفيما إعتدناه للرباط في ذات الله من الصافنات الجياد مع ما فيها للأمة المحمدية من المنفعة التي ان ضيعناها توقعنا فيما ولانا الله من أمرها تقصيرا وزجرا بارتكابها وانتهاز الفرصة فيها من عظيم فضله أجرا كبيرا وذلك بأن وظفنا زنة مثقال تبرا على كل حمل من الجمال التي تغشى هذه الملاحة للحمل على طول المدى والزمناهم ذلك ما أعقب غدا بحيث لا يوسق رحل إلا بعد إعطائه ونقده ومن تأبى فليتيقين بصده عن حملها ووروده وها نحن قد أنفذنا إليكم بما لائمة المذهب في هذه المسألة على الخصوص وما لعلماء السنة فيها من الحجج والنصوص والبراهين المحكمة كالبنيان المرصوص لتعلموا أن للأمام فيها النظر والاجتهاد وصرفها فيما يراه من وجوه السداد وبخاصة في إقامة فريضة الجهاد وتستشعروا ما لكم في إمتثال ذلك من السعادة التي تجدونها ذخرا والفلاح الذي تفوزون بليله ان شاء الله دنيا وأخرى وعرفناكم بهذا لتكونوا أول من ثني إليه أعناق الرجال وأول من أحرى الاستماع إليه والامتثال ومن شممتم منه رائحة الانحراف عن هذا الأمر العلي والازورار فقوموا اعوجاجه بثقاف الالجاء إليه والاضطرار فأنتم أحق الناس والحمد لله بحشر الناس لهذا الباب وما يذكر الا أولو الألباب .

٩) رسالة من أحمد المنصور السعدى
إلى الأسكيا إسحاق

إلى كبير كاغو وأميرها ومالك زمام أمورهـا وتدبيرهـا والمرجـوع إليه عنـد خاصتها وجمهورها ، الأمـير الأجـل الأثيل الأحفـل ، الأمـير سكية وصـل اللـه كرامته ، وجعل التقي سمته وعلامته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مسهل المرام ، وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنـام ، المبعـوث بالحنيفية السمحـاء إلى الخـاص والعـام ، والرضى عن آله الأيمة الاعلام ، وخلفاء الاسلام وعن أصحابه الذابين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم بالعـز السامـي المقـام ، والنصر المنشور الرايات والاعم ، فأنـا كتبنـاه إليكم من حضرة فاس المحروسـة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والاقبال دائمة الهبوب بالبكر والآصال ، لله المنة .

هذا وموجبه إليكم سدد الله طريقكم ، وجعل التقي رفيقكم اعلامكم ان معدن الملح بتغازي التي من إيالتنا ، وفي حكم أمامتنا ، هو كما لا يكاد يخفاكم من جملة المعادن التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد ، وللأمام فيها النظر والاجتهاد ، وبحسب هذا فانا رأينا ان شاء الله من الرأي السديد ، والنظر المبارك الرشيد ، أن نضع عليه خراجا يعود ان شاء الله بمـزيد النفـع على المسلمـين ، وبالضر على أعداء الله المشركين ، وهو انا افترضنا مثقالا على كل جمل من سائر الابل التي ترده ، وتؤمه من سائر الجهات وتقصده ، وقصدنا بما يحصل من ذلك

صرفه ان شاء الله في سبيل الغزو والجهاد ، وفي أرزاق ما لنظرنا العلي من العساكر والأجناد ، التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتدناها للذب عن كلمة الاسلام وحياطة البلاد والعباد ، وهي جنود الله التي لولا ما خجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت في وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام في عقر داره ، لفاض عليكم طوفانه السائل ، وسال على أرضكم منه شؤ بوب هاطل وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نمتم في كفالتها آمنين ، وفي حياطتها وادعين مطمئنين ، وأنفذنا إليكم هذا الخطاب الكريم لتعلموا ما وقاكم الله بسيوفنا التي أقرتكم في هدوء وسكون ، في جنات وعيون ، وتقابلوا ما رأيناه من النظر الكريم بالاسعاف والاسعاد ، جريا على مقتضى إشارتنا العلية في إصلاح البلاد والعباد ، وان لا تسعوا فيما يبطل هذه الفريضة العائدة بالنفع على الاسلام ، ويؤ يد حزب الله على مواصلة قتال عبدة الأصنام .

ثم اعلم أن أخاكم الذي قد نزل بنا واستجار بحرمنا الكريم النبوي ، وأم إلى هذا الجناب العلي العلوي قد وصل إلى حضرتنا المراكشية وأناخ منها على أبوابنا الشريفة ، وعتباتنا السامية المنيفة ، وكتب لمقامنا العلي من هنالك لأول وصوله ، ومناخه ونزوله ، وها كتابه يصلكم طي هذا المكتوب الكريم لتتأمله ، وتقف على ما قصده من جنابنا العلي وأمله .

وها نحن أمهلناه في الجواب ، وعاملناه بما نعامل به كل من يرد على مقامنا العلي من القبول والبر والترحاب ، حتى نرى إن شاء الله ما يبدو منكم ، ويصل في أمره عنكم ، وبهذا وجب الكتب إليكم والله يرشدكم بمنه والسلام .

١٠) رسالة من أحمد المنصور السعدى الى
ملك كابيا داود كانتة ببلاد الحاووصا

إلى رئيس المملكة الكابية ، من تخوم ممالكنا السودانية داود كانته ألهمكم الله رشد أنفسكم ، وأخذ بناصيتكم إلى التي تحمدونها في يومكم وغدكم وأمسكم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي أوضح بهذه الدعوة النبوية مراشد الهدى كل باغ ، وأقام بسيوفنا المنصورة أود كل من حاد عن الحق وزاغ ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أرسله بالحق إلى الخلق فشهد له بالبلاغ والرضى عن آله الذين إستأصلوا بشفارهم شأفة كل عاص وباغ ، وعن أصحابه الذين شرق الكفر بريق سيوفهم فلم يجد له من مساغ ، والدعاء لهذا الأمر العلي العزيز بنصر تنظم من سيوفه سلاسل القهر في الحق وتصاغ ، ويترقرق على صفحاتها البيض من نجيع الاعداء صباغ ، بعزالله وعنايته ، فكتابنا هذا إليكم عن حضرتنا المراكشية حرسها الله ونظرنا إلى الأمة متكفل بحول الله باقامة الأولياء تحت ظل الأمن والهناء ، وللأعداء الأشقياء باسترسال سحائب البأسأ والضراء ، بحول الله وقوته .

هذا وانك تتعرف ان سكية جارك المقطوع الدابر ، بسيوفنا البواتر ، قد كان وما لنا في بلاده من أرب ، وسيوفنا نائمة عنه في قرب ، إلى ان كاتبناه على مصلحة تعينت من مصالح المسلمين المهمة ، ثم ندبناه إلى طاعتنا التي أوجب الله على الأمة ، فلما لم يستجب إلى المصلحة التي كاتبناه عليها ، ولا إلى الطاعة التي ندبناه

إليها ، وحق عليه القول ، سال عليه من عساكرنا المظفرة بالله أعظم سيل وأنت خبير بما آل إليه أمره ، من بوادرنا التي طحنته طحنا ، ومن سيوفنا التي حصدته فلم تبق له أثرا ولا عينا ، فسلبه الله على أيدينا ومحا آثاره ، وملك سيوفنا والمنة لله أرضه ودياره ، ورأيناك قد تساهلت في الأمر ، وأخذت في أمور تقود إلى التي هي أدهى وأمر ، وذلك بغفلتك عما أوجب الله عليك من الطاعة ، ثم بايواء من إستبقته من الشرذمة السنغائية التي لا تقوم لها بحول الله قائمة إلى الساعة ، فقد بلغ أنك تؤ ويهم ، وتصل يدك بأيديهم ، وتمدهم بالخيل ، وتريد أن تعاند قدر الله فيمن سلبه وقضى عليه بالثبور والويل ، وانك مع ذلك تصد من جاء من أهل الممالك التي وراءك كأهل أكنوا وأهل كاشنة ومن اليهم ممن يبتغي الدخول في الطاعة لينتظم في حزب الله المفلح ، فتردهم وتصدهم بذلك عن السبيل المنجح ، ونحن وان أقدرنا لله تعالى بعونه على معاجلة كل من حاد عن طريق الهدى ، ولم يسلك سبيلا رشدا ، فلا بد ان نجري في طريق الأعذار على مجاري السنة ونمتثل قوله تعالى : أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

ونحن ندعوك أولا إلى الطاعة ، والدخول في سلك الجماعة ، إلا انك إن كنت آخذا بشعائر الاسلام ، فلا يخفاك ما إفترض الله لامامتنا النبوية عليك وعلى طوائف السودان من الطاعة الواجبة بالكتاب والسنة واجماع الأيمة الاعلام ، ثم نأمرك بمقاطعة الشرذمة الباغية السنغائية وبالقبض على كل من هو منهم بأرضك وتمكين ولاة مملكتنا منهم على يدك ، ثم سد باب القبول بعد ذلك في وجه كل من أمك منهم وقصدك ونفيه عنك كل النفي حتى لا يصل الينا انه آوى اليك أحد ، أو إتصلت لهم بك يد ، ثم باعطاء كل ما كنت تعطيه لسكية عن كل سنة من القوارب ، ولزوم أداء فرضها الواجب ، لأنك إذا كنت لا تستنكف من إعطاء ذلك لسكية الذي هو مثلك وقرنك بحيث لا مزية له عليك في شيء إلا الغلب الذي له عليك ، فكيف لا تعطيه لأمام أوجب الله طاعته عليك وعلى من وراءك من ممالك السودان على الطول والعرض ، ولمن صاغه الله من معدن النبوة التي لها

الفضل وكمال الشرف على الكل والبعض .

والى هذا فان أجبت الى الطاعة وشروطها من تمكين من هو لديك من سنغاي لولاة مملكتنا السودانية وطرد من أم بلادك منهم الى الأرض الخالية ، والتزمت أداء ما كنت تعطي لسكية من القوارب ، وتخليت عن كل من جاءك من أهل الممالك التي وراءك ، إلى الدخول في طاعتنا التي عليك وعليهم فرض واجب ، فأنت آمن مطمئن في نفسك ورعيتك وبلادك ، ومكنوف برعايتنا التي تكنفك من جميع جهاتك ، بحيث لا ترى من إيالتنا العلية أبد الأبدين ان شاء الله ما يسوءك أو يروعك ، بل تنام آمنا مطمئنا على مهادك ، ولك منا مع ذلك الاعتضاد بأجنادنا المظفرة بالله على أعدائك وأضدادك ، ثم ان أبيت الاجابة ، ونكب بك سوء رأيك عن طريق الاصابة ، فأبشر بعساكرنا المؤيدة بالله الظافرة ، وأجنادنا المنصورة بالله الوافرة ، تسيل على أرضك من هنا إن شاء الله ومن تكرارين وتوات ومن الأجناد التي هناك بازائك كسيل العرم أو البحر الطام ، تخالها شؤبوبا بالخسف والتدمير هام ، حتى ترد بحول الله أرضك قاعا صفصفا ، وتلحقه بسكية للذي أذاقته حتفا وخسفت به وبمملكته إذ عصى أمرنا العلي خسفا ، وقد أعذرنا إليك وأنذرناك ، فاختر لنفسك وتوخ سبيل رشدك ، والسلام .

(١١) ظهير من المنصور أحمد السعدي يحمل خبر فتح السودان إلى جهات المغرب ، وقد تلاه قضاة الجهات من على منابر المساجد

بسم الله الرحمن الرحيم ﷺ سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني أيد الله بعزيز نصره أوامره وظفر عساكره ، إلى الشرفاء والفقهاء وكافة الأعيان من أهل كذا أسمعكم الله من البشائر ما يملأ صدوركم ارتياحاً ويغمر قلوبكم إنشراحاً ويوسع أرجاءكم وأنافكم في ظل الأمنة انبساطاً وانفساحاً سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله الذي شرف ملة الإسلام على الملل والدول القرشية على سائر الدول وخصوصاً الدولة الحسنية التي جعل الله بيض سيوفها الفاطمية قاهرة لأعدائها الصفرية وعبيدها السودانية وصدع بأنوار خلافتها النبوية دجنة سوداء طالما نعق غرابها منذ حام ووصل بدعوتها الشريفة بين سام وحام والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي خفقت أعلام هدايته على الربى والآكاك وكاثر بآياته الباهرة كنهور السحاب ومثعنجر الغمام والرضى عن آله خير آل سادات الاقيال وآساد الأغيال خلفاء الإسلام وورث بالعدل وشرف الخلال وايمة الخلق الذي ذيلوا معالم النصر بالإكمال وفتحوا الأقطار على التوال وعن أصحابه الذين جاهدوا في الله حق جهاده بالسيوف والنصال وواصلوا في إعزاز ملته ونصرة دينه البكر والاصال ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الأماد النبوي المنصور الأحمدي بنصر يكفل الإسلام وعز يخلع جماله على الأيام واتصال البشائر تستخدم في

نشرها المحابر والأقلام فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم من البشائر أسرارها إلى النفوس امتزاجاً وهداها إلى الأرواح مسرة وابتهاجاً وأقطعها في الآفاق سبلاً فجاجاً وأرقاها إلى السبع الطباق سموا ومعراجاً من حضرتنا العلية مراكش حاطها الله وبركة هذه الإمامة الكريمة تستمد الأقطار من مقاسها وتروى رواية الإفادة والإبادة من ضحاكها وعباسها والفتوحات الربانية تحتفل الملائكة لولائها وأعراسها فله الحمد على نعمه التي لا يحيط الوصف بأنواعها وأجناسها وعنايتها التي تضرب بعصاها الصخرة الصماء ممن عصاها فتبادر بانفلاقها وانبجاسها لله المنة ، هذا وقد علمتم فسح الله أملكم وواصل أسباب الخيرات قبلكم ما كان من تجهيز عساكرنا المظفرة بالله إلى بلاد السودان لافتتاح القاصي من ممالكها بحول الله والدان وما كان من عظيم احتفالنا لذلك بما لم يعهد مثله ولا سلف لأولى الحزم من الملوك بعضه فكيف كله من انتقاء العساكر والأجناد وأسود الحرب الذين دربوا على الطعن والجلاد ومعانقة السيوف والصعاد من كل أبناء حرب شرف في أنساب الوقائع جدهم ويرد الجموع الصحيحة إلى التكسير مزدهم وإمدادهم بما لا يحصى عدداً وكثرة ، وبما لا مزيد فوقه بسطاً وقدرة من قوة الظهر وصواعق الحرب التي تفرق لها صروف الدهر وغير ذلك من كل ما يقتضيه الحزم ويبعث عليه العزم ولما تكامل بحمد الله هذا الاحتفال والاستعداد وأخذت أهبتها العساكر والأجناد وأقلعوا في الألوية وساروا على التعبية ونصر الله تعالى يظللهم غمامة وتتراءى لهم ثنية الإقبال أعلامه وتخفق عن يمينهم وشمالهم راياته وتبدو لهم في كل حركة وسكون آياته هذا وما كان يخفاكم ما سلف هنا بالمغرب من الدول العظام وممالك الإسلام ومع هذا فما كان أحد منهم ليروم فتح هذه البلاد بسيف أو تتطاول هممهم إلى اغزائها ببعث ولا زحف أو يسموا أنفسهم بالمقدرة عليها وعلى الصمود بجنودهم إليها والحالة أنهم أضخم ملكاً وأعمالاً وأفسح خطة ومجالاً وأوفر نفعاً وأوسعن أحوالاً مما كان يشقهم وينفقون فيه أنفسهم وأموالهم ويستغرقون معاناته طول أيامهم بكرهم وأصالهم وما ذاك إلا بعجزهم عن مقاومتها وعلمهم من أنفسهم عدم القدرة على مصادمتها وإنها عند جميعهم غيل لا يزحم وعريسة لا تقحم وحسناء آبية لا تنقاد

العنقاء تكبر أن تصالا لأن البلاد كما علمتم قد توغلت في الجنوب إلى أبعد الأقاليم من المعمور واعترضت دونها من القفر وسرابه المتموج بحور وصحارى تضل القطافي مهامها الفسيح وتكل في جوب عرضها بل بعضها سوافي الريح كم اغتالت من أمم غولاً وترد من حر الأوام وعولها وكم أفنت من خلق جيلاً فجيلاً وألقت على الرحال وأهلها كثيباً مهيلاً تغلى من رمضائها الرؤ وس وتذوب من حيمها النفوس وتنزل شمسها على الهام حتى تكاد تلمس باليد ويشتبه على الخريت فيها اليوم بالغد لا ماء ولا شجر ولا ورد ولا صدر إلا شراباً يعشي العيون ويقرب المنون واجاج يغلى في البطون كغلي الحميم وهو اجر يصلي الناس من حرها الجحيم حتى ظن بذلك أهل السودان ان سربهم من أجل البعد والمفاوز المعترضة دونهم لا يراع وليلهم الديجوجي لا يرجى لفجره انصداع وحماهم من هذه المشاق لا يطرق ولا يحام وبلادهم حتى بالوهم لا ترام فاستخرنا الله الذي لا يخيب من توكل عليه ولجأ في عظائم الأمور إليه واحتفلنا لذلك بما يليق من الأهبة والاستعداد وبنينا الأمر من الثقة بالله على أوثق عماد ، فجهزنا جنود الله تلقاءهم في عساكرنا تحمل الأسل والنار وأسوداً تأنف الدنية والعار فخاضوا إليهم بحار الآل وصابروا في قطع الشقة البعيدة عظائم الأهوال ولما شارفوا البلاد وهم على ما كانوا عليه بحمد الله من شدة الحزام وسل الحسام لم تضعف لهم والحمد لله شدة ولا نقص منهم ما كابدوه من المشاق عدداً ولا عدة زحف الشقي بكافة جموع السودان وحشودها وطلعوا في الجو حنادس واقبلوا إقبال الليل الدامس فالتقى الجمعان على ثلاث مراحل من كاغوا فأحدق منهم بعساكرنا المؤ يدة بالله سواد لا يحصيه إلا محصى الخطرات والأنفاس ومن أحاط علمه بالأنواع والأجناس فدارت رحى الحرب ووقفت على ساق وأرعدت رعود نارنا فرجت من صعقتها الآفاق فثبت الأشقياء لزلزالها ثبات الجبال الراسية وأقدموا من الشدة والصبر على الموت إقدام الأسود الضارية لا تثنيهم صوارم ولا أسل ولا يعرفون ما الخوف والوجل يتهافتون على النار من كل جانب تهافت الفراش على الذبال ويتسابقون للسيوف والصياد تسابق الجياد في المجال مع كثرتهم التي ذكرت بالحشر الثاني حشرها الأول ومغالبتهم كانت لذلك من قبيل

المحال لولا الثقة بالله سبحانه وتعالى وعونه الذي كان عليه المعول فلم يكن إلا ان هبت ريح النصر والظفر وجاء نصر الله الذي هو لراياتنا حليف في الورد والصدر فانكشف الشقي وجموعه وولوا الادبار وركبتهم الأسنة والشفار وفضتهم جنود الله فضاً يهز الجبال زلزاله وتصيب النواصي أهواله واستمر القتل في الأشقياء وتركتهم سيوفنا الهاشمية حصيداً بالعراء ونقل الله عساكرنا ذلك السواد وكمل الفتح بحمد الله بالاستيلاء على البلاد وانتظام ممالكها في سلك الطاعة والانقياد والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين ولما استوى القدم بعساكرنا وفرها الله في البلاد وأصبحوا في دنيا لا تفي العبارة لها بكنه ولا تعارض بشبه ولا نظير لها في الأرضين بوجه ما شئت من ممالك متعددة الأقطار متنوعة الأوطان والأوطار جمة المرافق والفوائد ومألف الوافد والرائد لا تحد بغاية ولا تدرك لها نهاية محشر الأمم وبستان العالم ومدرج الذر من بني آدم وملك ضخم لا تصل إليه الهمم لولا عنايته التي لا تقاوم وناهيك بممالك يخترقها بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه الرحمة تسقيهم النهل والعلل بحجة ويجبى إليهم الثمرات والخيرات بشجة إلى أسواق تزخر بالنعم واتصال عمران كالعقد المنظم وبالجملة فهي غريبة لا تثبت إلا في الحلم وموهبة لا يفي بشكرها لسان ولا يحيط بوصفها قلم وما عسى أن تبلغ العبارة فالأمر أضخم والحال أجل وأعظم ولقد اجتمعت اليوم بحمد الله بانتظام هذه الممالك كلمة الإسلام وارتقى الأمر بحول الله إلى الكمال الذي دل منه حسن الابتداء على حسن الاختتام ولم يبق بحول الله إلا صرف العزائم إلى جهاد العدو الكافر وان تدور عليه من سطى الإسلام بحول الله الدوائر حتى نغزوه بجنود الله في عقر دياره ومحل قراره ويعلوا حزب الله على حزب الشيطان وأنصاره بعز الله وتأييده ولما طلعت علينا بهذا الفتح العظيم طلائع البشرى والمسرة الكبرى بادرنا تعريفكم بصنع الله فيه الهنى الغريب وإعلامكم بحديثه الحسن الغريب لتقدروا صنع الله فيه حق قدره وتقبلوا بحمده سبحانه على هذا المن الجسيم وشكره فإنه فتح لم تلد مثله الأيام ولا عوهد فيما سلف من دول الإسلام ولا علم نظيره فيما تقادم من الأعصار ومضى من الأعمار بما جمع من هذه الممالك العظيمة التي لم يشتمل عليها ملك ولا نظمها سلك وإن

خبيئته في طي العصور السالفة إلى هذه المدة الكريمة والدولة الجليلة العظيمة لدليل على عناية الله بشأنها بما أظهر على يدها من خوارق العادة وجمع على عهدها الكريم من هذه الممالك المنتظمة في سلك الانقياد انتظام القلادة فاشكروا الله تعالى على هذه المفاخر التي أذخرها لعصركم وأظهر بها آية إنجادكم على الأعادي ونصركم واغتبطوا بما خولكم الله من هذه البشرى والمسرة الكبرى أتم اغتباط وتأخذوا بحظكم فيها من السرور والانبساط واتخذوا يومها الأغر المحجل عيداً ومهرجاناً وأقيموا لها سوقاً من البسط نافقة سراً وإعلاناً واستشعروا عاقبة هذا الفتح العظيم فهو بكل خير شامل إن شاء الله كفيل وعلى ما وراءه بحول الله من الفتوح المتوالية عنوان ودليل وقيدوا نعم الله لديكم بالشكر للنعم قيد وعقال وعصمة بحول الله تؤمن من الزوال والله يكلؤ وا جميعكم فلا رب غيره ولا خير إلا خيره والسلام ، وفي ليلة الجمعة سابعة شعبان المكرم عام تسعة وتسعين وتسعمائة (٣١ مايو ١٥٩١) .

* * *

١٢) رسالة من أحمد المنصور السعدي للباشا محمود بن زرقون

الجيش الذي نعتد به إعتداد اليد بالصارم ، والجناح بالخوافي والقوادم ، جيشنا الموفور ، وجندنا المشكور ، وعساكرنا التي نرعى لها حق الخدمة المرضية في كل ورد وصدور ، ولها عند مقامنا العلي مزيد الاعتبار ، والمزية التي تتكفل لها بجميل الإيثار ، مملوكنا الأخص الأخلص الأقرب الأنجب المكين ، محمود باشا ومعشر القواد والكواهي والمقدمين والباشوظات وبلكباشيات والضباشيات وجمهور ولضاش وسائر أجنادنا المرضية الزيدانية بمالكنا الجوفية السودانية أمنها الله وفر الله جمعكم وملأ بالبشائر سمعكم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الكفيل لراياتنا المنصورية الناصرية بمزيد النصر والتأييد ولممالكنا القاصية والدانية بكمال التدويخ والتمهيد والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الداعي إلى كلمة التوحيد الصادح بالحق حتى انتشر في الأرض على رغم أنف كل جاحد وعنيد ، والرضى عن آله الذين خلفوه في نشر الحق ومحو الباطل فكان لهم فيه الذكر الحميد ، وعن أصحابه الذين أحرزوا خصل السبق في الجهاد والجلاد حتى أناموا الأنام تحت جناح الأمن المديد والدعاء لهذا المقام العلي الإمامي السلطاني الحسني الناصري الزيداني ، بنصر تخضع له الأملاك من جملة العبيد ، ويطوى من كل مصر الريف والصعيد ، ويرمي بشهب الخسف والتدمير كل شيطان مريد ، فكتابنا هذا إليكم من معسكرنا السعيد ، بظاهر مراكش حاطها الله ونظرنا للأمة نظر يتكفي لها بحول الله بالهناء الوطيد ، واستقبال كل

خير جديد ، وزمان بطوالع المسرات سعيد ، وللدين والإسلام بإعلاء ركنهما المشيد ، والإقامة تحت ظل سيوفنا التي تحسم بحول الله علائق الفتن من كل أرض وتبيد ، بعز الله وعنايته .

هذا والذي تتعرفونه أنجدكم الله من الأنباء المثيرة للسرور ، والأخبار المثلجة للأفئدة والصدور ، أن الأحوال بحمد الله على ما يسر الإسلام من كمال النصر والظهور ، والإقبال الذي تعرفناه من الله في كل ورد وصدور ، وخبرنا منه جميل صنع الله لمقامنا العلي في جميع الأمور ، فالأجناد بحمد الله وافرة ، وأسيافنا حيثما أمت بعز الله ظافرة ، والجهات بحماة الدين من عساكرنا المظفرة آهلة عامرة ، والأهواء على حب ايالتنا العلوية متوافرة ، والألسنة والقلوب على الإعلان بشريف دعوتنا والتدين بإظهار كلمتنا في كل قطر مواطئة متظافرة ، ورسل الملوك من كل أرض إلى أعتابنا الشريفة متتابعة متواترة ، وامداد النجح والتوفيق بمن الله لآرائنا السديدة في كل قصد ومرام متعاضدة متظاهرة لله المنة .

وما قرع أسماعكم من دخولنا فاس وموت مملوكنا في الوقعة التي كان سبب الخذلان فيها الحياينة ومن في معناهم من الجيش الذين نافقوا في المعترك فجروا الهزيمة فما هو إلا أن الله تعالى بفضله قد طوى لنا بذلك المحبوب في المكروه ، وأرانا سبحانه كيف يجري لنا عوائد النصر والإقبال الذي تعودنا منه سبحانه في جميع الوجوه ، فجر القوم بسلاسل القدر إلى حيث تتمكن فرصة بعضهم في بعض ، ليجعل سبحانه بذلك أمرهم آئلاً إلى حل ونقض ، فأزاغ الولد وخذله ، فوثب على عمه ليلاً فقتله ، فتفرق بسبب ذلك الناس عنه وانحلت حزمته ، وارتبكت أحواله وتشتت كلمته ، واتسع عليه الخرق ، وتزايد الفتق ، وأعوز الرتق ، فتصرمت حباله ، وانتقضت أعماله ، وتفرقت أيدي سخيله ورجاله ، وانقطعت أوصاله ، وأفضى إلى الإضمحلال حاله ، ونحن الآن إن شاء الله بحال العزم واردون على الأنحاء الفاسية ، والجهات الغربية ، في عساكرنا الظافرة ، وأجنادنا المحفوظة الوافرة ، لضبط أحوال تلك البلاد وسد خللها ، ومحو آثار

الفساد بحول الله من سهلها وجبلها ، وابلالها من أدواء التعسف والجور وإزاحة عللها ونشر سيرة العدل إن شاء الله في بدوها وحضرها وإقامة القسطاس لعربها وبربرها ، حتى تتمشى الأحوال فيها بحول الله على أحسن استقامة ، ويحمد الحاضر والبادي فيها إن شاء الله ما يشمله من عدلنا الواضح العلامة ، ويصحبه ببركة إيالتنا الشريفة الهناء الشامل في الظعن والإقامة ، وبهذه النية الصالحة انبعثت عزائمنا الماضية للمسير إليها والورود في العساكر والأجناد عما قريب عليها لا لحرب ولا قتال فإن القوم كما أشرنا قد اضمحل أمرهم كل الإضمحلال ،والتاثت أحوالهم فتلاشوا تلاشي الخيال ، ولم يبق فيهم بقية لحرب ولا نزال ، وبالجملة فليس في تلك البلاد ما يشغل البال ، أو يهم في جميع الأحوال ، فما بجانبها وأعمالها سهولاً وجبالاً وقرى وأمصاراً إلا من يدين بطاعتنا ، ويصدع بشريف دعوتنا ، ويشيد في السر والإعلان بالسمع والطاعة لعلي إمامتنا وعرفناكم لتكونوا إن شاء الله على أتم اغتباط وأكمل سرور ونشاط ولتعلموا أن هذا المقام العلي أسماه الله موعود له بالنصر والتمكن في الأرض ، وبتمهيد الممالك إن شاء الله على طولها والعرض ، فلتكونوا بوعد الله مغتبطين وبكل خير إن شاء الله فارحين مستبشرين ، والله تعالى يصل أنجادكم ، ويتولى بمنة إرشادكم والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

١٣) رسالة من أحمد المنصور السعدي
إلى الباشا منصور بن يك[١]

مملوكنا الأثير الأرضي ، الأنجد الأمضى ، الأنصح الأخلص ، الأقرب الأخص ، منصور باشا أفعم الله صدوركم أفراحاً وأثلج أفئدتكم انبساطاً وانشراحاً وأترع لكم من خمر السرور أقداحاً وأدراها عليكم اغتباقاً واصطباحاً ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله الذي أيد الإسلام بحمد فأصبح وهو من كيد الأعداء مأمون وحمى الحقيقة بسيفه الذي لا تزال جماجم العدا ساجدة لحده المسنون ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم الذي سطع به نور الحق المبين ، وأقام به أود الدين ، فأضحى وحبله قوي متين ، والرضى عن آلة الشم العرانين ، وأصحابه الذائدين بسيوف الحق دعاة الباطل فصار الهدى منهم في حرز أمين ، والدعاء لهذا المقام العلي بنصر يطوي الأضين ، ويؤسس الدين على دعائم التمكين ويروي صدى السيوف من قبل قلوب المشركين ، وأولياء حزب الشيطان المارقين الملحدين ، بعزه وعنايته ، فكتابنا هذا إليكم من معسكرنا السعيد على نهر تانسيفت ولا جديد بحمد الله إلا ما عود من عوائد النصر والإقبال ، والبشائر التي تنتاب أبوابنا العلية صباحاً ومساء وتنثال .

---

(١) يقدم الفشتالي (المناهل ص ١٨٣) نص هذه الرسالة كما يلي : إلى كبيري المماليك المقتسمين لأعمال الممالك السودانية وهما منصور باشي وجؤذر باشى أسمعكم الله من البشائر ما يملأ صدوركم انشراحاً ويولي لديكم مسرة وأفراحاً سلام عليكم . . . »

هذا والذي ننهيه إلى جهتكم من الأنباء المثيرة للفرح والسرور ، والبشائر المثلجة للأفئدة والصدور ، أعلامكم أن الشقي الناصر حليف الصليب وولي الطاغوت ، ورضيع لبان الموالاة لدولة الأقنوم والناسوت ، كان الطاغية خذله الله قذف به إلى جهة مليلة قذف النواة ، ورمى به رمي السلا عن الشاة متحامياً للخروج بجبهتنا لما يظن أن الغرب أخف بأساً ، وألين مساً ، وكان بظننا أن النصارى خذلهم الله لا يفلتونه من أيديهم أو يسلمونه للبعث عنهم ، وإنهم إنما يريمون به فقط مغالطة وزبونا منهم ، لكنا مع هذا لم نضيع شيئاً من أسباب الحزم ، ولم نهمل أمراً من موجبات العزم ، بل أنفذنا في الحين إلى ولدنا الأجل (بب) الشيخ أعزه الله أن يأخذ للوثبة عليه الأهبة والاستعداد ، ويجلس على براثنه للاجلاب عليه بالعساكر والأكناد ، وبرزنا نحن هنا بعساكرنا المراكشية المحمية بالله الوافرة ، وأجنادنا المؤيدة بالله الظافر ، بحال من الاحتفال والاستعداد ، تسر الإسلام ، وتسؤ عبدة الأقنوم والأصنام ، فما كان إلا أن قادة وباله لما فيه حمامه ، وسعت به إلى إراقة دمة أقدامه ، فحمله الجهل بعواقب الأمور ، والدوائر التي عليه وعلى من التفت معه من الأحلاف ومن تبعهم من أهل الفساد تدور ، فأقبلوا حتى تخطوا تازي وراءهم ، واتخذوا جبل غياث مطغرة موئلهم والتجاءهم ، وما كرهنا نحن التوغل منهم إلى حيث لا ينجو منهم أحد ، ولا يخلص لهم مال ولا ولد ، ولا سبد ، ولا لبد ، فلما أتاح الله فيهم الفرصة بادر (بب) الشيخ أعزه الله انتهازها ، وركب إلى الأشقياء جسر السعادة الربانية ومجازها ، فما راعهم إلا انقضاضه عليهم بجنود الله الأسود الأبطال ، وليوث الحرب والنزال ، وضراغم الهياج الذين تزول لصدمتهم رواسي الجبال من كل رام بشرر ، وذرب بالنبل والوتر ، وشهم يقيم هامته المغفر ، وبطل يقدم إقدام الغضنفر .

لا يأكل السرحان شلو صريعهم ... مما عليه من القنا المتكسر

فصبح أسعده الله الأشقياء في يوم أغر محجل ، وطل عليهم بالردى تحمله

السيوف والأسل ، فصدقهم القتال ، وهجم عليهم هجوم الأسد على الرئبال ، وهو أعزه الله يندفع مرات عديدة للترجل عن فرسه زاحفاً في مستنقع الموت على قدمه ، وقد أخذ مكحلته وملأ بالرصاص أشداق فمه ، فيعزم عليه الانكشائرية أصحابه بالركوب فيمتنع عليهم ، ولا يكاد بعد الإلحاح العظيم يلتفت إليهم ، وتبدى له في ذلك الموقف الضنك من الصبر والشجاعة والإقدام ما قرت به والمنة لله عين الإسلام ، ولم يكن كلا ولا حتى منحه الله الظفر فولى الشقي وجموعه الأدبار ، واستأصلتهم السيوف والنار ، وأخذهم الله على يد ولدنا أسعده الله أخذه رابية ، وأتت عليهم سيوفنا المشرفية ، ورماحنا الزيدانية ، فلن ترى لهم باقية ، هذا بعد أن لم يأل الشقي وجموعه جهداً في الاحتفال والاستعداد ، بما لا مزيد عليه عدداً وعدداً بلا اقتصاد ، فأتى السيف عليهم بحمد الله أجمعين (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وذلك في يوم الخميس سادس عشر ذي قعدة الحرام والعاقبة للمتقين ، والحمد لله على جزيل خيره وإحسانه حمد الشاكرين .

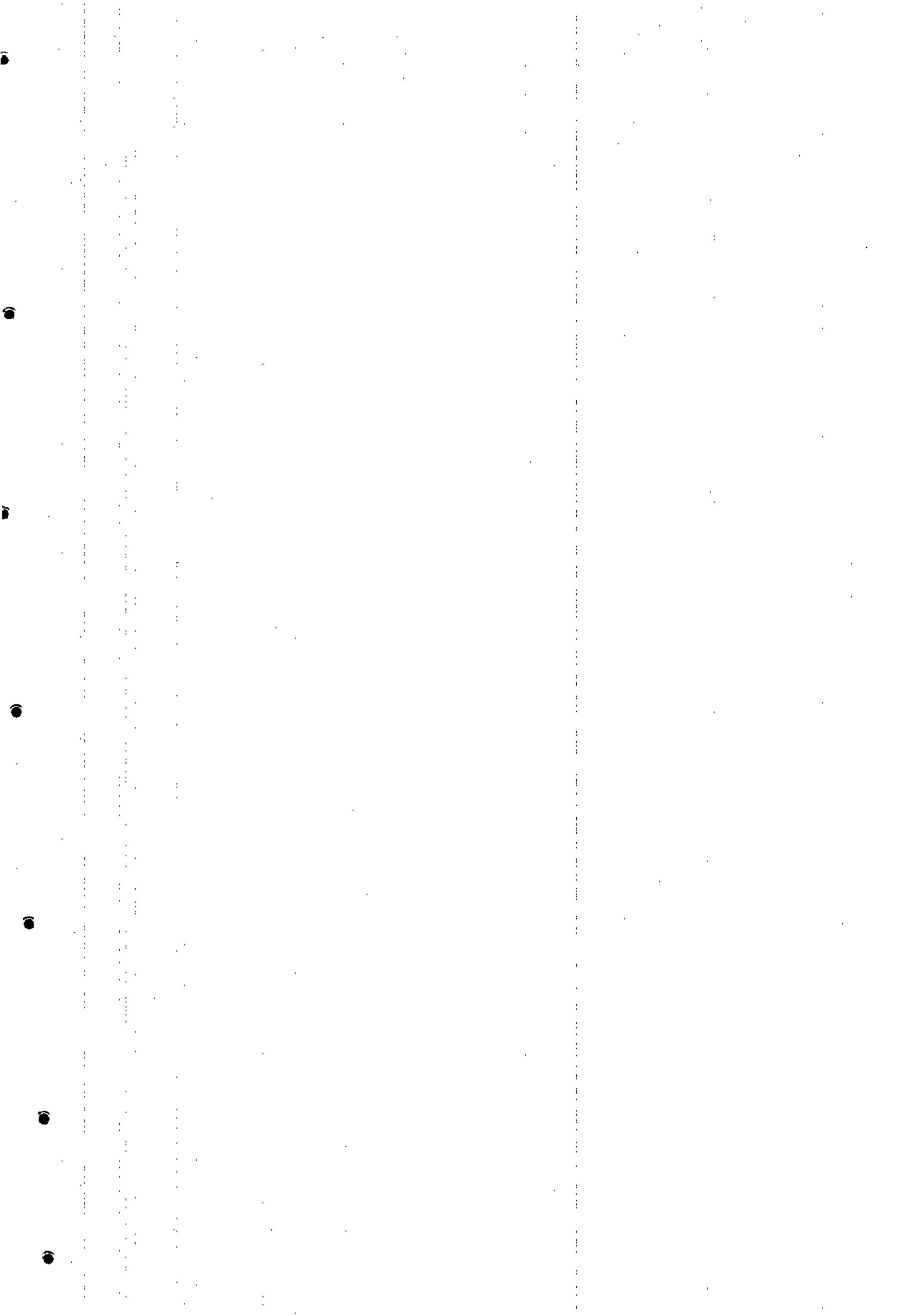
وعرفناكم بما سنى الله لنا من هذا الفتح المبين ، لتأخذوا من السرور ببشارته بحظكم الوافر ، وتشكروا صنع الله الكفيل بالزيادة للشاكر ، وتبثوه إلى من هناكم من عساكرنا المؤ يدة بالله والأجناد ، وإلى سائر أهل ممالكنا المحوطة بالله بتلكم البلاد ، حتى يأخذ الجميع إن شاء الله تعالى بحظه من السرور بهذا الفتح العظيم ، والمن الجسيم ، ويطمئنوا بما عود الله لمقامنا العلي من عوائد النصر والإقبال ، ومساعدة الأيام لأمرنا العلي والليال ، حمداً لله على ما أنعم ، وشكراً على ما كمل وتم .

ثم اعلموا أن بروز محلتنا السعيد بساحة حضرتنا العلية ما كان إلا لمجرد استشراف أحوال ولدنا أسعده الله تعالى لا غير ، والتطلع لما يأتينا من قبله من أخبار الخير ، واليوم لما أجمل الله العاقبة بما منح من الظهور ، والظفر لجيشنا المنصور ، وأولى الأولياء من الفرح والسرور ، وعم العباد من الجذل والحبور ، وأراح الله من الشقي وجموعه العباد ، وطهر منهم ومن بغيهم وغيهم البلاد ، واطمأنت برسوخ

الهناء والعافية الجهات والأقطار ، وسائر القرى والأمصار ، ها نحن بحمد الله داخلون لدارنا العلية لنأخذ في شأن ما نمدكم به إن شاء الله من العساكر والأجناد ، ونجهزه تلقاءكم من العدد والإمداد ، فهو الشغل الأكيد عندنا الذي نعمر به الوقت في الحال ، ونصرف إليه وجه الاعتناء والاهتبال ، ثم نؤكد عليكم حيث فتح الله في استئصال شأفة ذلكم العبد الذي قطع الله على يدكم دابره ، واستأصلت سيوفكم المنصورة حذافره ، ورسخت قواعد العافية والهناء في تلكم البلاد ، وجرت الأحوال فيها على مهيع الرشد والسداد ، أن تتوكلوا على الله تعالى وتقلعوا بعساكرنا المظفرة بالله عن تنبكتو إلى جهة كوكية ودندى وما يليها طلباً لتوفير الخراج بتنبكتو وتثميره ، وتقوية ما يعود عليكم إن شاء الله نفعه وتوفيره ، ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليتم من ذخائر العبد نوع وأثاثه ، وجميع أمتعته وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلي توجهه لأبوابنا الشريفة ، وتسديه لمثابتنا العلية المنيفة ، بحال الفور والبدار ، واجتناب التواني في ذلك والاقتصار ، وأولاد سكية فالذكور منهم أبعث بهم كافة لمقامنا العلي ، وأما الإناث فابحثوا في أمر آل سكية فإن صح عنهم ما قرع أسماعنا الشريفة من كون أصلهم مماليك تحت الرق وأن ذلك صحيح ورقهم عند الناس صريح ، وكان فيهن من تليق بمقامنا العلي ابعثها وإلا فلا والسلام .

* * *

المصادر والمراجع



١ ـ المصادر

- ابن أبي على سيدي أحمد / الأصيلت الخريت
  منجنيق، الصخور في الرد على أهل الفجور
  دار الوثائق بالرباط رقم ٣٣٠ ق .
- ابن تيمة / السياسة الشرعية ـ المطبعة الخيرية ١٣٢٣
- ابن خلدون / « بعد طرد المسلمين بالأندلس » الملتقى التاسع للفكر
  الاسلامي ، وزارة التعليم الأصلي ـ الجزائر .
  كتاب العبر ـ دار الكتاب اللبناني / ١٩٥٩ .
- ابن سودة عبد السلام / دليل مؤ رخ المغرب / دار الكتاب ـ الدار البيضاء
  ١٩٦٥
- ابن عسكر محمد بن علي بن عمر / دوحة الناشر ، مخطوط د . و . الرباط ٧٦٤ د
- ابن القاضي احمد بن محمد / ادبيات ابن القاضي ـ مخطوط د . و . الرباط ٧٢٤٨
  المنتقى المنصور على مآثر مولانا المنصور / مخطوط د . و . الرباط
  ٧٦٤ د
  جذوة الاقتباس ، مخطوط د . و . الرباط ٢٤٢ / ك و٥٨٩ ك .
  درة الحجال في غرر أسماء الرجال ـ تحقيق ونشر علوش / الرباط
  ١٩٣٤
- أرلوند توماس ـ الدعوة الى الاسلام ـ مترجم ، القاهرة ١٩٥٧

- ب -

- بوفيل (ترجمة زاهر رياض) الممالك الاسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب - القاهرة ١٩٦٨ .

- بلو محمد انفاق الميسور في اخبار بلاد التكرور » / مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم ٢٣٨٤ ك .

- بنعبد الله عبد العزيز / مظاهر الحضارة المغربية / الدار البيضاء ١٩٥٨ .

- ت -

- التمكروني حسن علي / النفحة المسكية في السفارة التركية / مخطوط الخزانة العامة / الرباط ٧٩٥ د

- ج -

- جْروينباوم جوستاف ، ترجمة عبد العزيز جاويد الألف كتاب .

- الجيلاني ابراهيم ، تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان - مخطوط خ عامة / الرباط ك ٥٧١ .

- ح -

- حجي (محمد) الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين - دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ١٩٧٩ .

- حركات ابراهيم - المغرب عبر التاريخ - دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء ١٩٧٨

- الحسيني عبد الهادي بن الطاهر/ فلك السعاد الدائر بفضل الجهاد والشهادة - مخطوط . و . الرباط ٣٩٩٢ .

- خ -

ـ الخطيب عبد الكريم ، الخلافة والامامة ـ دار المعرفة / بيروت ١٩٧٥ .

- د -

ـ دائرة المعارف الاسلامية .ـ العدد الأول .

ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ العدد الأول ـ اكتوبر ١٩٣٣ .

ـ دافيدسون (دافيد) ، افريقيا تحت أضواء جديدة / ترجمة محمد أحمد / = بيروت ١٩٦٢ .

ـ الدكالي محمد بن علي / اتحاف اشراف الملا ببعض اخبار الرباط وسلا مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم ١١ د

- ز -

ـ زبادية عبد القادر / « مملكة سونغاي في عهد الاسقيين » الشركة الوطنية / للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٧١ .

ـ زيادة نقولا / المغرب والسودان في ايام المنصور الذهبي ـ بيروت ١٩٦٧ .

ـ الزياني ابو القاسم محمد الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب / مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم ٦٥٨ د

ـ الزياني عبد العزيز ـ الجواهر المختارة / مخطوط د . و. الرباط ك ٢٧٤ .

- س -

ـ السعدي أحمد المنصور / رسالة في موضوع التبشير في افريقيا / مخطوط مبتور د . و . اغرباط ٢٧٨ ك .

ـ السعدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران / تاريخ السودان ـ نشر هوداس باريس ١٨٩٨

ـ السوداني احمد بابا / كفاية المحتاج بما ليس في الديباج / نسخة بخط المؤلف دار الوثائق / الرباط ك ٣٩٠

ـ السوداني احمد بابا

ذيل الابتهاج ـ مخطوط د . و . الرباط ٧٦٦

تذييل الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب بكتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج / مطبعة السعادة / القاهرة ١٣٢٩

اللمغ في الاشارة الى حكم طبغ / مخطوط بمكتبة تمكروت بسوس رقم ٢٩٩٩ تحفة النضلاء ببعض فضائل العلماء / مخطوط د . و . الرباط ٦٤١ / د

ـ السوسي محمد المختار / اليغ قديما وحديثا ـ المطبعة الملكية / الرباط ١٩٦٦ المعسول (١٩ جزء)

خلال جزولة / المطبعة المهدية ـ تطوان بدون تاريخ

ـ ش ـ

ـ شلبي د . عبد الرحمان / تاريخ التربية الاسلامية / دار الكشاف / بيروت .

ـ الشنقيطي احمد الأمين / الوسيط في تراجم اغباء شنقيط ـ القاهرة ١٩٥٠

ـ ط ـ

ـ الطاهر عبد الله بن علي لباب مراقي الجنة مما ورد في الجهاد في السنة مخطوط د . و . الرباط ٣٩٩٣ .

- غ -

- الغربي محمد أحمد - موريطانيا ومشاغل المغرب الافريقية في القرن السادس - مولاطو - الرباط ١٩٦٣ .

- ف -

- الفاسي محمد بن العربي - مرآة المحاسي - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ٥٦٧ د

- الفاسي منحمد المهدي / ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع / طبع فاس ١٨٩٥ .

- الفشتالي عبد العزيز / مناهل الصفا في اخبار موالينا الشرفا تحقيق دكتور ع . كريم / الرباط ١٩٧٢

/ مناهل الصفا في اخبار موالينا الشرفا تحقيق عبد الله كنون (مختصر) - المطبعة المهدية تطوان ١٩٦٤ .

- ك -

- كريم (دكتور عبد الكريم) / « المغرب في عهد الدولة السعدية » شركة الطبع والنشر - الدار البيضاء ١٩٧٧ .

- كعتو محمود / تاريخ الفتاشي في أخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، تحقيق هوداس وبونوا - باريس ١٩٦٤ .

- كنون عبد الله / رسائل سعدية - المطبعة المهدية / تطوان

/ النبوغ المغربي في الأدب العربي / دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦١

الحلل الموشية

ـ مجهول (تحقيق كولان) « تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية / معهد العلوم العليا ـ الرباط ٩٣٤ .

ـ مجهول ـ تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان / تحقيق هوداس / باريس ١٩٠١ .

ـ محمود حسن احمد / الاسلام والثقافة العربية في افريقيا / القاهرة ١٩٦٣ .

ـ المراكشي ـ عباس بن ابراهيم المراكشي / الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات في الاعلام » المطبعة الجديدة / فاس ١٩٣٦ .

ـ المقري احمد بن محمد / روضة الآس ـ الرباط ١٩٦٤ .

نفخ الطيب ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٩٤٩ .

نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ المطبعة التجارية / القاهرة ١٩٤٩ .

ـ المغيلي (الامام محمد بن عبد الكريم) اجوبة المغيلي على اسئلة الأسكيا الحاج محمد مخطوط المكتبة الوطنية / الجزائر رقم ج (٣٧) ج

ـ ميارة محمد / نصيحة المغتربين وكفاية المضطرين في التفريق بين المسلمين مخطوط د . و . الرباط رقم ٩٢٣ ك ورقم ٧٢٤٨

ـ ل ـ

ـ اللكوسي محمد الجزولي / مناقب الحضيكي ـ مخطوط دار الوثائق / الرباط ف ١١٢٤

ـ ن ـ

ـ الناصري (أحمد بن خالد) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى / الدار البيضاء ١٩٥٥

ـ الناصري محمد المكي الدرعي / الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة / مخطوط د
«و . الرباط ٢٦٥ ٢ د

- ى -

ـ اليفرني محمد الصغير المراكشيي / نزهة الحادي باخبـار الملـوك القـرن / فاس
١٣٠٧ صفوة من انتشر في اخبار القرن الحادي عشر مخطوط د . و .
الرباط ٦٧١ د

-A-

- Arambourg. C. «L'Ominien fossile d'Oldoway, sa decouverte et sa signification» Bulleting steprehit. f.r. L. VII, 1960.
- Assoi et clerici (A) «Histoire des peuples noires» paris.

-B-

- Barak (M) «La peche moderne» Pairs 1901.
- Berth «Contribution a l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques» Casablance 1939.
  «voyages et des couvertes dans l'Afrique» Pairs 1963.
- Bonnier (general) «l'Occupation de Toumbouctou» Paris 1929.
- Boulangier. E. «Les voies sahariennes. BSG. Tours.
- Brodel Fernardo: La maditerranee et le monde mediterraneen a l'epoque de philippe II paris 1949.

-C-

- Caille Jacques, la petite histoire du Maroc, Ed. Casablanca 1953.
- Caille (Rene) «Journal d'un voyage a Toumbouctou et a Dienne dans l'Afrique centrale - Paris 1965.
- Capot-Rey. R. «le Sahara francais. Pairs P.V.F 1953.
- Pot-Rey. (R) «Le Sahara francais» P.U.F. Paris 1953.
- Cheikh Anta Diop «Nations negres et culture» Paris. E. africaines. 1955.
- Chemik der sultane von Bornu, Gesellschaft. xI. 1960.
- Cherbonneau -Essai sur la Litterature Arabe au Soudan Constantine (Algerie 1931).
- Cour Auguste - l'Etablissement des Dr nasties de Chorfas au Maroc. Ed. Ernest Leroux Paris 1904.

السيوف والأسلحة ، فصدقهم القتال ، وهجم عليهم هجوم الاسد على الرئبال ،

-D-

- De Castries Henry «La Conquete du Soudan par al-Mansour» Hespiris vol 111 (1923).
  Les sources Inedites de l'Histoire du Maroc I.t.l. portugal.
- De Chenier «Recherche Historique» Paris.
- De la chappelle-Hesperis no: 11 1930.
- Delafosse (M) les noirs de l'Afrique Paris Payot 1921.
- Delafosse (M) «Haute Senegal-Niger» Paris 1912.
- Deschamps «L'Afrique precoloniale» Paris 1962.
- Doip (Anta) «L'Afrique noire pre-coloniale Paris 1952.
- Doip (A) «Afrique noire precoloniale» Paris 1956.
  «Nations negres et cultures» Pairs 1954.
  Gat «a travers le Desert» Gedalge Paris.
- Dubois «Tombouctou la mysterieuse» Paris 1897.
- Dupuis-Yakouba «les Industries et principales professions des Habitants de la region de Toumbouctou» Paris 1921.
- Gat «A travers le Desert» Gedalge-Paris.
- Gautier E.F. le passe de l'Afrique du nord, nouvelle edition Rayot. Paris.
- Geographie Universelle T.XI. Armand colin 1937.
- Grand Larousse encyclopedique L.L. 1962 T (V. Koukya).
- Guilley (A) L'Islam dans l'Afrique occidentale «Paris 1912.

-H-

- Hartshorne, R., «political Geography in the modern world, » Journal of conflict Resolution 1960.
- Hombourger. L. «La langue et les langages» Paris payot 1953.
- Hombourger. L. «Les langues negro-africaines» Paris. Payot 1941).
- Huard paul «Contribution a l'etude du cheval, du fer et du chameau au sahara occidental» Bull. I.FA.N. xxII- B, 1-2-1960.

-J-

- Julien (ch. Andre) «L'Histoire de L'Afrique de Nord» payot. Paris 1952.

-L-

- Lenz (Dr Oskar) «Toumbouctou voyage au Maroc au Sahara et au Soudan» Traduit de l'Allemand. Paris. Hachette 1886.

- Lhote (Henri) «L'extraordinaire aventure des peuls» P. Af. XXII. octobre - novembre 1958.

-M-

- Maris (georges) et Dubreuil (Luis) «La premiere traversee du sahara par automobile» paris 1923.
- Matip (B) «heurts et Malheurs des rappots europe et Afrique» (XVe au XIIIs) paris 1960.
- Mauny. R. «Actes des congres panafricains de prehistoire» II e session, Alger, 1952, Paris.

  «Un age du cuivre au sahara occidental» Bull. I.F.A.N. XIII NO. 1. 1951.

  «Essai sur l'Histoire des metaux en afrique occidentale» Bull. I.FA.N. XIV no: 2 1952.

  «Les Juifs d'Afrique noire» Dakar 1949.

  «L'Ouest africain chez ptolemee» Lisboa, t I.

  «Une route prehisterique a travers le sahara occidental Bull. I.FA.N. 1947.

-T-

- «Tableau geographique de l'ouest a africain au Moyen Age» Dakar 1961.
- Notes d'archeologie au sujet de Gao» Dakar 1951.

-M-

- Mercier Ernest «Histoire d'Afrique Septenttrionale (E.L)» Paris 1891.
- Millot Louis 3 Demenbrement des Habous, Edit Ernest Leroux paris 1981.
- Molard (Richard) «L'Afrique occidentale francaise» Paris - Berger - Levrault 1949.
- Monteil (Charles) «les Bambaras de Segou et du Kaarta Paris Larose 1924.
- Monteil Charles «Une cite soudanaise» : Djenne Paris 1932.
- Monteil (V) «Le Monde Musulman» Geneve 1963.
- Mormol Histoire des cherifs des Royaumes du Maroc, traduction Duc d'Angloutisme - Paris.

-N-

- Niam (Djibril) «L'Empire de Mali» Conakry 1948.

-P-

- Pianel G. Les Preliminaires de la conguete du Soudan par Moulay Ahmed Al Mansour. Hesperis XL 1953.

-R-

- Richer (Dr. A.M) Les Touargs du Niger (Les Ollemidens) region de Toumbouctou Paris 1924.
- Recard Robert - Sources Inedites de l'Histoire du Maroc Espagne T.2.

-S-

- Sobatur C. «Touat, sahara et soudan» Etude Geog. Polit. Econom et militaire B.S.G. Paris t. XIII.
- Soleillet. P. «voyage dans le sahara centrale B.S.G. lyon.
- Suret Canal Jean «Afrique noire occedentale et centrale» Edit sociale Paris 1961.

-T-

- Techer (H) «coutumes des Tandas» Bull de la commission des hist et Scien de la L'A.O.F - 1933.
- Terrasse Henri, Histoire du Maroc, Edit Atlantide Casablanca 1949.
- Thomassey R. et R. Mauny «compagne de Fouilles a Koumbi Saleh» Bull. I.F.A.N., XIII No: 2 1951.

-U-

- URVOX. Y. Histoire de l'empire de Bornou, Paris, larose 1949.

-V-

- Vieillard (Gelbert) «Notes sur les coutumes des peuls au Fouta-Djalon». Paris-Larose 1939 (coutumiers juridiques de L'A.O.F.T. 111)

-Z-

- Ziegler Lieutenant... «Travail de deux monnaies romaines» Libuca, Alger. Serie archeologie, Epigraphie, T. II, 2e semestre 1954.

De Castries «Les sources inedites de L'histoire du Maroc».

٢ ـ الوثائق

رسالة من الغالب بالله الى انطوان دوبوربون آخر رمضان ٩٦٦

S.I.H.M. France . T. 1. P170

معاهدة الغالب مع فرنسا آخر رمضان ٩٦٦

S.I.H.M. France. T. 1. P178

رسالة من الغالب بالله الى اليزابيت جمادى الأولى، ٩٧٧

S.I.H.M. Angleterre. T. 1. p98

رسالة من السلطان العثماني الى محمد الشيخ السعدي (قصر طبقبو) مكتب قوغوشلر ـ دفتر الأمور المهمة رقم ٨٨٨

رسالة احمد المنصور الى فيليب الثاني ٢ رمضان ٩٨٦

B.N. Madrid .M.NO: 257

من أحمد المنصور الى امير اسماعيل بن المعتصم ١٥ محرم ٩٨٧

دار الوثائق بالرباط ـ ك 278 ص 37

من رمضان والى الجزائر الى داود بن عبد المؤمن أواخر ربيع ١ ٩٨٨

سيمانكاس ـ اسبانيا رقم ١٦٠

رسالة من المنصور الى الملكة اليزابيت ٢٠ جمادى ١ سنة ٩٨٨

S.I.H.M. Angleterre T.L. p 335 988

رسالتان من السلطان مراد الثالث الى المنصور B.N. Madrid . no : 257

رسالة من المنصور لباشا الجزائر حسن، أوائل ٩٩٠

دار الوثائق بالرباط ك ٢٧٨ ص ٢٤

رسالة من المنصور الى الملك فيليب الثاني ٢٦ رجب ٩٩٠

B.N. Madrid No: 257

رسالتان من المنصور الى السفير الاسباني ١٧ و٣٠ محرم ٩٩١

B.N. Madrid No: 257

رسالة من المنصور الى الاسباني فينيغاس ١٥ رجب ٩٩١

B. N. Madrid No: 257

رسالة من المنصور الى الاسباني دوق سيدونية ٢٣ رجب ٩٩١

B.N. Madrid No: 257

رسالة من المنصور الى الملك فيليب الثاني رمضان ٩٩١

B.N. Madrid No: 257

رسالة من المنصور الى السفير الاسباني بالمغرب ٦ شوال ٩٩٢

B.N. Madrid No: 257

أربع رسائل من المنصور للملك فيليب الثاني
قعدة وحجة ٩٩٢ - ربيع ٩٩٤١ و٩٩٥

B.N. Madrid . No: 257

ظهير تعيين علي بن المنصور على سوس (بدون تاريخ)

دارح الوثائق بالرباط ك ٢٧٨ ص ٧٦

رسالة من السلطان العثماني مراد لأحمد المنصور

المكتبة الوطنية مدريد ـ مخطوط ٢٥٧

رسالة من المنصور لحاكم الجزائر ـ مخطوط بدار الوثائق بالرباط ٢٥٨ ك .

رسالة من المنصور لاليزابيث ـ مخطوط بدار الوثائق بالرباط ٢٧٨ ك .

رسائل احمد المنصور الذهبي الى الملكة اليزابيت / تحقيق ونشر محمد بن تاويت من زوايا التاريخ المغربي / مجلة تطوان لعام ١٩٦٣ .

وثيقتان متعلقتان باقتسام المستعمرات بين المغرب وانجلترا
دار الوثائق / الرباط ك ٢٧٨ ك .

رسالة من المنصور الى الملكة اليزابيت أول سنة ١٠١٠
دار الوثائق بالرباط ك ٢٧٨

وثيقة حول ارزاق الجنود والخراج في العهدى السعدي / دار الوثائق بالرباط ٢٧٨ ك .

خطبة سياسية دينية من عهد المنصور ـ مخطوط دار الوثائق بالرباط ٤٣١

Table des Abreviations

A.	Annales, Annali, Annals
Ac	Academie,
Afr.	Afrique, africain (e),
Agr.	Agricole, Agriculture.
Ann	Annuaire.
Anthr.	Anthropologie.
Arch.	Archeologie
Ass	Association.
B.N	Bibliotheque Nationale
B.	Bulletin
B.S.preh:	Bulletin de la societe prehistorique francaise.
B.S. geol Fr:	Bulletin de la societe geologique de France.
C.H.E.AM:	centre de Hautes etudes administratives sur l'Afrique et l'Asie moderne (documents inidites).
Civ.	Civil.
Clim	Climatologie
Col.	Colonies, colonial
Com	Comite
Comm	Commerce, commercial (e)
Corr	Correspondance.
C.R.	Compte rendu
Dipl.	Diplomatique
Dr.	Droit
Ec.	Ecole
Encyc	Encyelopedie
Ethn	Ethnographie
Etr.	Etranger.
Expl	Exploration, explorateur.
Fr.	France, francais (e).

G.	Geographie, geographique.
Geol	Geologie, geologique
Gen.	General
Hist	Histoire
Ing.	Ingenieur.
Int.	International
Isl	Islam, islamique
J.	Journal
Jahrb.	Jahrbuch.
Jur.	Jurisprudence.
Mem	Memoires
Met	Meteorologie, meteorologique
Mil	Militaire
Mus.	Museum.
Nat	Naturel (les)
Not.	Notice
Nouv.	Nouveau, nouvelle.
O.	Officiel.
Off	Office
Or.	Orient (al).
Pol	Politique
Preh.	Prehistoire, prehistorique
Publ.	Publication, public (que).
Quest.	Questions.
R.	Royal (e), Reale
Rev.	Revue
S.	Societe
Sah	Saharien (e,S)
Sc	Sciences, scientifique
Ser.	Serie
Serv	Service
S.I.H.M	les sources indiites de l'histoire du Maroc
Suppl.	Supplement
Univ.	Universel, Universite
Zool	Zoologie

المطبوعات

ابراهيم حسن ـ انتشار الاسلام في القارة الافريقية ـ القاهرة ١٩٦٤ .

ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ ليون ١٨٨٩ .

الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ القاهرة ١٩٦١ .

أرنولد ـ الدعوة الى الاسلام ـ ابراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٤٧ .

الألوري ـ آدم عبد الله ـ موجز تاريخ نيجريا ـ بيروت ١٩٦٥ .

البكري ـ المسالك والممالك ـ تحقيق دوسلان ـ بغداد ١٨٥٧

جانهاينز حون ـ الثقافة الافريقية ، ترجمة عبد الرحمان صالح القاهرة / بدون تاريخ .

حشيمة عبد الله ـ في افريقيا السوداء ـ بيروت ١٩٦٢ .

شبيكة المكي ـ مملكة الفونج الاسلامية ـ القاهرة ١٩٦٤ .

ضرار محمود ـ تاريخ السودان ـ بيروت ١٩٦٥ .

قداح نعيم ـ افريقيا الغربية في ظل الاسلامن ـ دمشق ١٩٦٣

-A-

- ACCARDO F. - Noms arabes des principaux vegetaux, arbres, arbustes et plantes herbacees spontancs des Hauts-Plateaux et du Sahara, in: Le pays du Mouton Alger, 1893, in-4° 127P.
- ALQUIER (Doctour). - Le Sahara. Les causes du desert Hydrogenese du Sahara et des pays secs. Alger, Vollot, 1933.
- ALZUYETA (Lieutenant). - Tombouctou Tropiques, no: 371 Mars 1955.
- ANDRE (Capitaine p-j.). - l'Islam noir. Contribution a l'etude des confreries religieuses islamiques en Afrique occidentale. Paris, Geuthner, 1924, 131 P.
- 58 2633 ARAMBOURGE Camille. - La succession des faunes mammalogiques en Afrique du Nord au cour du Tertiaire et du quaternaire. C.r.S de biogeogr., t. XXVIII, 1951 PP 49-56.
- 2636 ARAMBOURG C. et JOLEAUD. L- Vertebres fossiles du Bassin du Niger. B. Dir. Mines A.O.F., Dakar, no 7, 1943, PP 31-84, 5 pl., bibl.
- 9106 ARBAUMONT (J.d) - Le sel en Mauritanie et au Souda n, 1949, 25 p., no 1609.
- 9172 AZAM (Captaine P.) - Sedentaires et nimades dans le Sud marocain: le coude du Dra. 1945, 19 P., 1009.
- 9173 Les cites rurales du Ktaoua. 1946, 54 P. no 2038.
- La structure politique et sociale de l'Oued dra 1947 20p., no 2039.

-B-

- BACCARD Andre. - De la coutume matriarcale successorale des Kel Rheris. 1956, 23 P., no 2622.
- BARON A. - Voyages en Afrique et vers le Niger de Mungo-Park. Limoges, Ardant, 1869 et 1875.
- BARTHE (Lieutenant A.). - Taoudenne et son sel gemme. 1951, 21 P., no: 1772.
- Les Teureg du Gourma 1951, 12 p., no 1911.

- 9110 - Vie econocique et nomadis, e des Berabiches 1951, 16 P., no 1890.
- BASSET Andre. - Note sur les parlers touaregs du Soudan B. Com. Et. hist. et sc. A.O.F., t. XVII, 1934 PP. 496 - 509.
- BEAUMIER. - Premier etablissement des Israelites a Tombouctou. B.S.G. Paris, (5), t. XIX, AVRIL ®MAI 1870, PP. 354-370, 1 Pl., cart h.-t. au 1: 28.000.000^{e}.
- CHAPELLE (Colonel J.) Nomades noirs du Sahara. Paris 1958, 450p. 12 phot. noir, 2 phot. coul, 9 cartes et croquis, 1 carte en dpl. H. - t., bibl.
- CHAPELLE (Colonel J.). - Les Touareg de l'Air. Cah. Ch. de Foucauld, (3), vol. 12, 1948, PP 70 - 95,
- CHEVALIER A.- Sur l'existence probable d'une mer recente dans la region de Tombouctou. Sc., t. 132, 1901, P. 926.
- CHUDEAU Rene. - Excursion geologique au Sahara et au Soudan (mars 1905 - dec. 1906). B.S. geol. r., (4), t. VII, 1907, PP. 319 - 346, 2 fig., pl. xI.
- Sahara soudanais. Paris, colin, 1909.
- Rapport de tournee dans le bassin de Tombouctou. Suppl. au J.O. de l'A.O.F., Rapp. et Doc., 22 janv. 1910.
- CHUDEAU Rene. - Sahara soudanais. Paris, A. colin, 1909.
- CLAVER (sœur blanche). - Caractere et symbole des animaux selon la conception des Arabes du Sahara B. liais. Sah., t. II, no 7, dec. 1951, PP 39-49.
- COLIN G.-S.- Des juifs nomades retrouves dans le Sahara marocain. Melanges d'etudes iuso - marocaines dedies a la memoire de David lopes et Pierre de cinival Lisbonne et paris, Edit. Les Belles Lettres, 1945, PP. 51 - 67.
- COPPDLANI Xavier. L'action religiouse muslmane dans le sud-Ouest africain, les cheurfa, les marabouts, les cobfrerues Rev. franco - musulmane et sah., 1-2, 1902 PP. 12-31 et 15-33.
- CORTIER (Capitaine M.) .- les salines du sahara soudanais. la G. 15 fev. 1922, PP 91-98.
- Notice sur le Sahara soudanaise (PP. 1-30), in: Missions du Transafricain. Rapports du capitaine Cortier et de M. Chudeau, Paris, 1925, 130 P., 18 fig., 4 pl., 2 cartes geol. coul.
- De Tombonetou a Taoudeni. Relation du raid du capitaine Cauvin, 26 fev. 17 juin 1926. La G., 15 dec. 1926, pp 317 - 342.
- CROIZARD et GALANTEP. - Les Hommes Bleus du Maroc, Lausanne payot, 1956, in - 8, 92 p. 66 pl coul. h.-t.
- CROZALS (J. de) .- Le commerce du sel du sahara au Soudan Rev. de G..

t. XVIII, 1886, PP. 241 - 253 et 326 - 343, et A. Univ. Grenoble, t. VIII, 1896, PP. 33-95.

-D-

- DELAFOSSE M. - HAUT-Senegal- Niger (Soudan francais). Le pays, les peuples, les langues, l'histoire, les civilisations paris, Larose, K912, 5 vol. in 8°.
- La question de Ghana et de la mission Bonnel de Mezieres. B. Com. Et. hist. et sc. A.O.F, 1916 - 1917.
- Le Ghana et le Mali et l'emplacement de leurs capitales. Ibid. 1924. PP 479 - 542.
- Les relations du Maroc avec le Soudan a travers les ages. Hesperis, 2e trim. 1924, PP. 153 - 154.
- DELAPORTE A. - Extrait d'une lettre de Tanger du 14 avril 1826 adresse a M. Jomard (sur le trajet a chameau du Tafilalet a Tombouctou). B.S.G Paris, XIII, janv-fev. 1827, PP 82-83.
- DELON M. - L'amenokalat dans les confederations touaregues. 1951, 20 P. no 1863.
- Le Tamesna du Cercle de Gao. 1951, 35 P., no 1759.
- DEPONT Octave. l'Islam dans nos possessions de l'Afrique du Nord et de l'Afrique occidentale Rev. universelle, 1901 PP. 467 - 468, 491 - 492, 514 - 517, phot.
- DEVERDUN G. - Un voyage de Marrakech a Tombouctou en 1804 - 1805 B.Liais. sah, t. III, no II dec. 1952 PP 24-29.
- DUBIEF Jean. Decouvertes prehistoriques et archeologiques dans le Sahara central, (Tassili des Ajjer et Ahaggar). Trav. IRS, t. IV, 1947, PP. 189 - 191).
- DUVEYRIER Henri. Historique des voyages a Tombouctou. B. SG. paris, mars 1881, PP. 195-198.

-E-

- ERCEVILLE (c.d) - La recherche de l'eau en zone sahelienne. 1950, 10 P. no 1652.
- ERROUX J. Les blis des oasis. B.S. Agric. d'Algerie, 1952, no 567.
- EZZOUHRE. Description du Sous el-Aqsa, par R. Basset. B. Corresp. afr., Alger, 1883, pp. 154 - sq, 1884, pp 192 - 198.

-F-

- FAIDHERBE (General). Passignements geographiques sur la Partie du Sahara comprise entre l'Oued Noun et le soudan. Nouv. A. des Voy., (6), V, aout 1859. PP 129- 156 et le Moniteur univers, no 248, 5 sept 1859, pp 1023 - 1024.
- FERRANDE (Lieutenant - colonel). Le centre africain francais Paris, 1930.
- FINBERT ELIAN - J. La vie du Chameau, le vaisseau de desert. Pair, Albin Michel, 1938, 254 P.
- FONFERRIER (Capitaine). Etudes historiques sur le mouvement caravanier dans le Cercle d'Agades B. com. Et. his. et sc. A.O.F., 1923.
- FOREST Jules. l'habitat de l'Autruche en Afrique B.S.G. Paris 3° trim 1893. PP 399 - 416.
- FORGEOT A. Monographie regionale de Menaka 1952, 26 P. 1990.
- La societe nomade touaregue, s evolution. 1955, 16 p no 2577.
- FRANCO (Capitaine de) Etude sur l'elevage du cheval en Afrique occidentale (Rapport au gouv. gen. A.O.F) Melun, Impr. administrative, 1905, in 8°, 109 P. fig.
- FULCRAND C. Exploration de la Baie d'Arguin. Rev. marit, et col. mai 1861, PP. 495 - 510, 2 cartes h.-t.

-G-

- GAILLARD M) Ameliorations rurales en pays presaharien et en oasis, 1951, 13 P no 1877.
- Deux oasis du Bani, Tata et Tissint 1950, 64p no 1558.
- GARROT H., L'islamisme et son action en Berberie. B.S.G. Alger, 2ᵉ trim. 1906, PP 154 - 188.
- GAUDIO ATTILIO - La libre femme du Targui. Sc. et voyages no 140, aout 1957, PP. 27 - 30, fig.
- GAUTIER Emile - Felix. Au Sahara marocain. Rev. de Paris IV, 1910, PP. 35 - 52.
- GENEVIERE J. Les Kountas et leurs activites commerciales. 1948, 103 P., no 1240.
- GENEVIERE J. - Les Kounta et leurs activites commerciales. B. IFAN, t. XII, no 4 oct. 1950. PP IIII-II25.
- GOUILLY A. L'Islam dans l'Afrique occidentale francaise. Paris Larose, 1952, 318, P. carte.
- GUIDETTI. Vocation industrielle des oasis, 1953, 10p no 2143.

-H-

- HENRIET. Un probleme de l'Extreme - Sud Marocain, 1937 199 P, no 6.
- HOURST. Sur le Niger et au pays des Touaregs. Paris Plon, 1898.

-J-

- JACQUEMOND serge. Les pecheurs de la boucle du Niger 1956. 61 P. no 2614.
- JANNIQUIN Claude. Voyage de libye au Royaume de Senegal le long du Niger. Paris, Rouillard, 1643.
- JOLEAUD L. Remarques zoo-geographiques sur le Sahara marocain. Hesperis, 1930 (1931), t. II, PP 145 - 152.
- JOLY F. A propos d'un voyage de Marrakech a Tombouctou B. Lais. Sah. t. IV, no 13, juin 1953, PP 61-62.
- JULLIEN Charles - Ander. Histoire de l'Afrique du Nord Algerie, Tunisie, Maroc, des origines a la conquete arabe (2e edit. revue et mise a jour par Christain Courtirs). Paris Payot, 1951.
- JULIEN (Lieutenant). Noirs et Blancs dans le Cercle du Hodh 1947, 33P. no: 1130.
- JOLY Jules- Poesies du Sud. Vev. afr. LIII, 1909. PP. 285 - 307.

-K-

- KILIAN Conrad. L'art des Touaregs. la Renaissance, 1934, no: 7-11, 9 P. i11.

-L-

- LA CHAPELLE (Capitaine de). problemes actuels du Sahara, Rio de Oro et territoire d'Ifni. 1937, 8 P. no 179.
- LE Sahara vant la conquete, 1937, 19 p no 148.
- Le Sahara occidental. Considerations geographiques, peuplement, histoire 1937, 13 P, no 161.
- LAFFITTE J. p. - Les grottes peintes du Soudan. la Nature, 9 avril 1910, PP. 85 - 86.
- LAFUENTE D. La zone sud du Dra. son orographie, son hydrographie Africa, Madrid, no 103, 1950.
- LA PAILLONNE (de). Notice sur la tribu des ouled Bou Aitta S. d 20P, no 304.
- LA RONCIERE (Ch. de). La decouverte de l'Afrique au Moyen Age.

Cartographes et explorateurs. Mem. S.r. G. Egypte, le Caire, 3 vol, 1924 - 1927.

- LARTIGUE (Cdt R. de,) - Notice sur les Maures du Senegal et du Soudan, Rens. col, juil 1897, PP 41-72 1 cart.

- LAVOCAT (Abbe R.). Decouverte d'un squelette humain prehistorque au Nord de Tessalit (soudan) Notes afr. no 60 oct. 1953, P 99.

- UNE POINTE «aterienne» de grande taille trouve dans la region de Gao (Soudan francais) Ibid. t. XLI, 1944.

— LE CHATELIER A.-Tribus du Sud Ouest Marocain. Bassins cotiers entre Sous et Draa. B. Corresp. afr. publ. Ec. Lettres d'Alger Paris, leroux edit) VI, 1891, 89-2 P.

- L'islam dans l'Afrique occidentale. Pairs, Steinheil, 1899, in -8°, 376 P., cartes en coul.

- LERICHE Albert. Coutumes maures relatives a l'elevage. Ibid. Pp. 1316 - 1320.

- LEROUX Henri. Le probleme des droits fonciers dans la boucle du Niger. Subdivision de Bourem. 1953, 22p no 2177.

- LEVI-PROVENCAL E.- Le titre souverain des Almoravides et sa legitimation par le califat abbaside. Ibic. II sept 1955.

- LHOTE HENRI - Au sujet d'objets anciens de la region de Tombouctou et des puits de l'Azaouad. Ibid. no 55, juil 1952. PP 79 - 82.

- Chars de guerre et routes antiques du Sahara B. Liais. sah. t. IV, no 12, avril 1953, PP. 53-58.

- LHOTE Henri. Les Touareg du Hoggar. Paris Payot, 1944 415 P. fig. pl, cartes bible.

- Bijoux en paille de TImbouctou Notes afr. no 38, oct 1946, PP 4-8.

- LIGNIVILLE (de). La coutume privee des Ait Atta du Sahara 1937, 32 P. no 551.

-M-

- MARC-SCHRADER Lucien. Tombouctou et le trafic saharien. Rev. de paris, 15 mars 1912, PP. 369-390.

- MANGEOT (colonel) et MARTY P. Les Touaregs de la boucle du Niger. B. Com. Et. hist. et sc. A. O.F. 1918, pp 87-136, 257-288 et 432-475.

- MARCAIS Philippe. Note sur le mot hartani. B. liais. sah. t. 11 no 4, avril 1951, PP 11-15.

- MARTIN (Capitaine) Reconnaissance de la region du Sud et du sud -

Ouest de l'Erg iguidi et de la Hamada de Tindouf. B.S.G. Alger, 1919, PP 186 - 216.

- Observations geographiques sur les Eglab et le haut plateau du Draa. VIIe Congr. des H.Et. du Maroc, Rabat, 1930.
- MARTY P. Etude sur l'Islam et les tribus du Soudan Tome I: les Kounta de l'Est, les Berabich, les Iguellad. T. II: la region de Tombouctou, Dienne, le Macina et dependances. T. III: les tribus maures du Sahel et du Hodh. Paris, Leroux 1918 - 1919, 1920 - 1921.
- MARTY. P. Le judaisme, les juifs et l'Afrique occidentale B. Ifan, t. XI, 1949, PP 354 - 378.
- Le Sahara chez Ptolemee. B. Liais. sah. t. II no 6 oct. 1951, PP 18-23.
- MATHEY P. Etude sur les coutumes des Kagoro du Cercle de Noiro, 1950, 23 P, no 1527.
- MAUNY RAYMOND « Prehistoire, Protohistoire et Histoire ancienne de l'A.O.F. in: Encycl. marit. et col, t. I l'A.O.F. 1949, PP. 23 - 42.
- Essai sur l'histoire des metaux en Afrique occidentale. B. IFAN, t. XIV, no 2 avril 1952, pp 545-595.
- MAUNY Raymond. Autour de la Croix d'Agades Notes afr, no 65, janv. 1955, P. 15, 1 phot.
- MAUNY Raymond - La tour et la mosquee de l'Askia Mohammed a Gao, Notes afr. no, juil. 1950, PP. 66- 67, 1 fig.
- MERIC. Le pays de Ida ou Blal. 1941, 55 P. no 541.
- MEUNIE Dj. Jacques. - Les oasis des lektaoua et des Mohammed, Hesperis, t. XXVII, 1947, PP 399 - 429, fig et phot.
- Sur le culte des saints et les fetes rituelles dans le Moyen Draa et la region de Tazarine. Ibid. t. XXVII, 2e - 3e trim 1951, PP 365 - 381.
- MEYNIER (General O.) Les relations humaines a travers le Sahara dans la Prehistoire et l'Histoire. Doc. alg, Serie monographies, no 10, 15 dec. 1952.
- La gravure rupestre de Merkala (Maroc saharien) .B. spreh. Maroc, Casablanca t. VIII, 3e - 4e trim, 1934, PP 47 - 58.
- MICHAL F. Le chameau du Sahara soudanais. B. S. G. Alger, 1905 PP 368 - 385.
- MONOD Th. Histoire de l'Afrique occidentale francaise. Paris Delagrave, 1926, 344 P.
- MONTEIL V. La civilisation du chameau, 1948, 5p. no 1306.
- Le peuplement des qsour du Bani. 1948, 8 P, no 1307.
- MONTEIL Ch. De Saint - Louis a Tripoli par le Lac Tchad, Paris. 1894.

- MOURGUES Gaston. le Moyen Niger et sa boucle dans la region de Tombouctou. L'Afr. fr. XLII, 1932.
- Murray G.V. Sahara et soudan. (Traduction Gourdault), Paris 1881.

-N-

- Nicoles F. Etude sur l'Islam, les confreries et les centres maraboutiques chez les Touareg du Sud. Ibid. PP 480 - 491.
- NOIR Louis. Chez les Maures. le grand sorcier. Paris Fayard freres, 1899, 128 P.

-P-

- PALAUSI G. Au sujet du Niger fossile dans la region de Tombouctou. Rev. Geomorphol, dynam. t. VI, 1955, PP. 217 - 218, 1 pl.
- PALAUSI G. - Au sujet du Niger fossile dans la region de Tombouctou (Soudan). B. Dir., Mines A.O.F., no 20, 1957. PP. 143 - 147, 1 pl.
- PANET Leopold. Relation d'un voyage du Senegal a Soueira (Mogador) Rev., Col, (2), V, nov. 1850, PP. 379 - 445 et 473 - 563, 1 cart h. - t. au 1/5.000.000e.
- PARIS E. Sur deux armes blanches de la region de Tombouctou Notes afr. no 59, juil. 1953, PP 84 - 85.
- PARK Mungo. Voyage en Afrique et vers le Niger, Limoges, Ardant, 1869.
- PEFOTAN (Lieutenant). Histoire de Tombouctou de sa fondation a l'occupation francaise (XIIe siecle 18983). B. Com. Et. hist et sc. A.O.F., 1922, PP. 81-113.
- Araouan. Ibid, 1933, PP 411 - 442.
- PELLEGRIN J. Les Poissons des eaux douces de l'Afrique du Nord AFAS, Sess. de Paris, 1920.
- PERES H. Relations entre le Tafolalet et le Soudan a fravers le Sahara, du XIIe au XIVe siecle. Melanges de G. et d'orientalise offerts a E. R Gautier, Tours, 1937. PP 409 - 414.
- PIANAL G.- Les preliminaires de la conquete du Soudan par Maulay Ahamd al Mansur. Hesperis, t. XL, 1953, PP 185 - 198.
- «Le Maroc a la recherche d'une conquete: l'Espagne ou les Indes» Hesperis 1953. P 342.
- PIETRANTONI. Les Touareg Kel Gress. 1949, 19p no 1574.
- POULET G. Les Maures de l'afrique occidentale francaise paris Challamel, 1904, VI+ 172 P.

- La zyara du Cheikh Mohammed Fedel. B IFAN, t. XIII, 1951, PP 1218 - 1226.
- PRELIMI J. L'eau et le sel dans les divers milieux du Sahara occidental et les possibilites agricoles dans les palmeraies. Rev intern. Bot appl. et Agr. trop. 1952 PP, 359 - 360.
- PROST. Notes sur le songhai. B. IFAN, serie B, t. XVI, 1954. PP 167 - 213.
- PRUNAC.- Araouan. 1950, 17 P, no 1529.

-R-

- RICARD R. les portugais et le Sahara atlantique au xv[e] siecle, Hisperis, t. XI, 1930, fasc. 1-2 PP 97-110.
- ROBIN J. - Maures et Canariens sur les cotes du Sahara occidental. Notes afr, no 58, oct. 1955, PP. 101-105 cart.
- ROHLFS Gerhardt. Tagebuch einer Reise durch die Sudlichen Provinzen von Marokko. Pet. Mitt IX, 1863, PP 361 - 370 (Coude du Dra et Tafilalet). Voyage de ... du Marox a Tombouctou. Nouv. A. des Voy. dec. 1863.
- RONCIERE Ch. (de la). Decouverte d'une relation de voyage datee du Touat et decrivant en 1447 le bassin du Niger. B.S.G. Paris 1918 - 1919, PP 5-32.
- Les salines de Taoudeni. B. Inf. et Rens. G.G.A.O.F Dakar, no 149, 21 JUIN 1937, P. 3
- ROUSSELOT R. - Notes sur la faune ornithologique du Cercle de Mopte. B. IFAN, t I, no 1, 1939, PP 1-88.

-S-

- SAGAZAN (G. de). - l'Afrique interieure d'apres Ptolemee. A. de G., mars - avril 1951, PP 110-126.
- SALVY (Capitaine G.) - les Kounta du Sud marocain.
- Trav. IRS, t. VII, 1951, PP 161-186.
- SALVY (Capitaine G.) Les Kounta du Sud marocain. Trav, Irs, t. VII,
- SAUVAGE Ch, et MONTEIL V. Contribution a l'etude de la flore du Sahara occidental, Inst. Htes Et. maroc. Notes et Documents 1949.
- SLANE (Mac Guckin de). Lettre a M. Hase sur les premieres expeditions des Musulmans en Mauritanie J. asiat, 1844 no 9, 39 P.
- Conquete du Soudan par les Marocains en l'an 999. Rev. Afr. 1857.
- SOLLER Charles. Les Caravanes du Soudan occidental et les pecheries d'Arguin B.S.G. comm. paris t x, 1888 PP 280 - 287 cart.

- Le Maroc et le Soudan occidental L'ile d'Arguin. B.S.G. Lyon, t. VIII, 1891, PP 443 - 449.
- Sur le Maroc et l'ile d'Arguin. B.S.afr. de Fr., t. I 1981, PP. 37 - 63.
- SOMMER J.R. - Restes anciens dans le Cercle de Sikasso (soudan). Notes afr. no 47, juil. 1950, P 68.

-T-

- TAODENNE et TEGHAZA, d'apres les notes du capitaine Grosdemange. l'Afr. fr. Janv. 1910, PP 13-16, 1 cart.
- Itineraire Tombouctou - Taodenikidal - Gao. Cr. Ac. Sc, 1[er] fev. 1915, PP 178 - 180.
- TEFFAHI M. La poesie populaire maure: les tal'at et les guifen. Ibid. no 60, oct 1953, PP 116 - 117.
- TERRASSE H. Notes sur l'origine des bijoux du sud marocain. Hisperis XI, 1930, fasx. 1-2 (Et. Notes Doc. Sahara occ, VII[e] Congr. Inst. H.Et. Marocaines) PP. 125-130 5 pl.
- THOMASSEY P. Note sur la geographie de l'habitat et la region de Koumbi Saleh B.IFAN t.XIII, no 2 avril 1951 PP 476 - 486 2 fig.
- TUAILLON G. L'Afrique occidentale francaise par l'Atlantique ou par le Sahara. Paris, Charles Lavauzelle, 1936, 456 P.
- TURMEL J. L'eau et le sol dans les divers milieux du Sahara occidental. Rev. intern. Bot. appl. et Agr. trop. no 359 - 360, sept. oct. 1952, pp 482 - 488.

-U-

- URVOY Y. Bibliographie des populations du Soudan central B. Com. Et. hist et sc. A.O.F., t. XIX, 1936, pp. 243 - 333.
- URVOY (Capitaine Y). Histoire des Oulliminden de l'Est. B Com. Et. hist. et sc A.O.F. t. XVI, 1933 PP 66 - 97.
- Chronique d'Agades. J.S Africanistes, t. IV, 1934 PP 145 - 177.
- Histoire des populations du Soudan central (colonie du Niger) Paris. Larose, (publ. Com. Et. hist et sc. A. O. F.) serie A. no 5, 1936.
- Histoire de l'Empire du Bornou, paris. Larose (Mem. IFAN) 1949 168 P.

-Z-

- ZELTNER (Flde). Les Touaregs du Sud Rev. anthropol. mai 1915.

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

فتح السودان

الفصل الخامس

الفتح الثاني

الفصل السادس

الادارة المغربية في السودان

الفصل السابع

الأثر المغربي على النمو الاقتصادي والتطور الفكري والحضاري

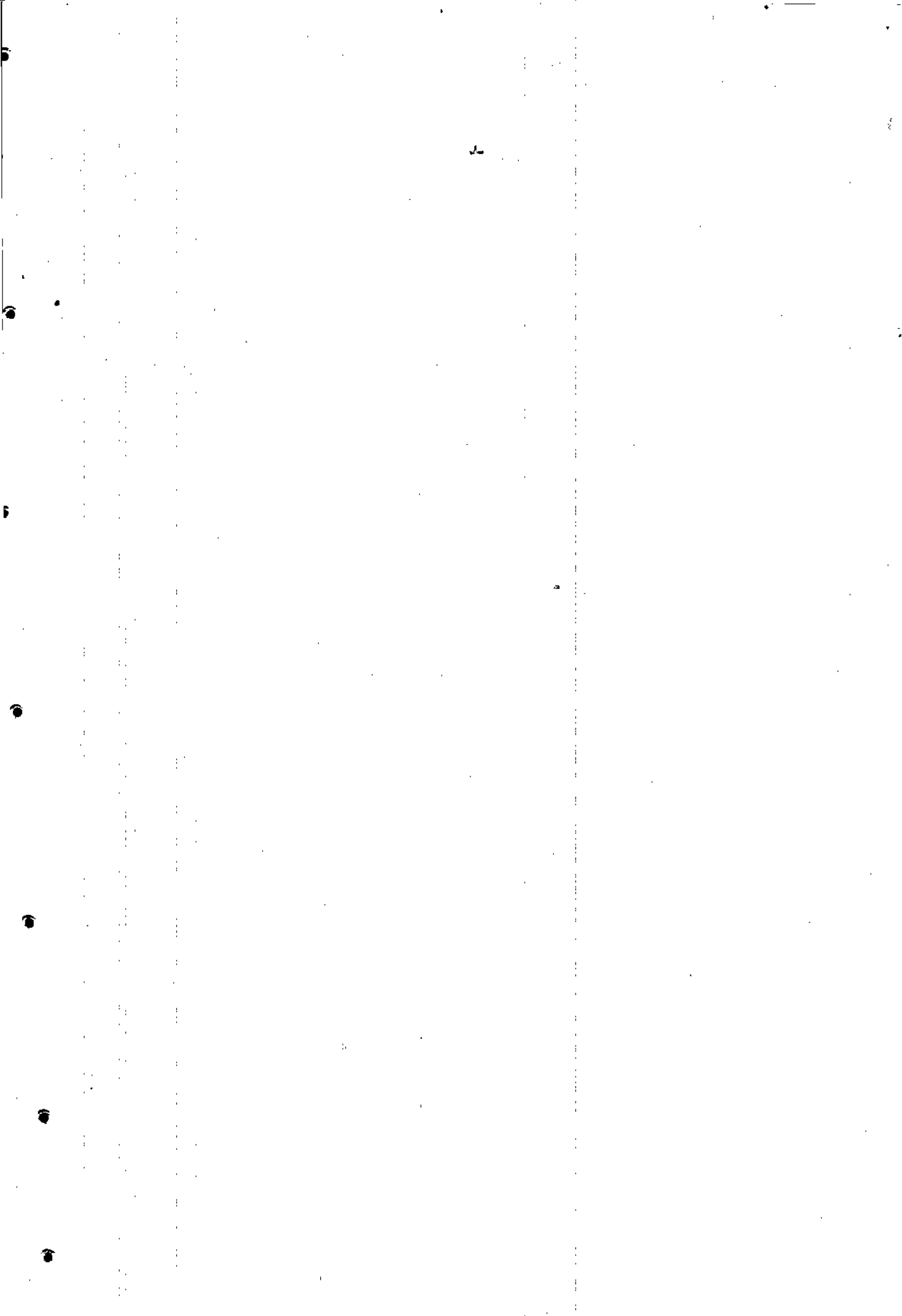
الفصل الثامن

التطور الفكري في السودان

الفصل التاسع

التطور الحضاري

الملاحق



الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

خديمنا ومحبنا الأود الأرضى الشيخ محمد بن عبد الرحمن التلمودي أعانك الله وسلام عليك ورحمة
الله تعالى وبركاته وبعد فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه وعلمنا ما حصل لكم من الفرح والسرور
بالخبر الذي أخبركم به أخوكم خديمنا الشيخ الرضي العتيق والشيخ بن حامد عن سبيل الاستغاثة من أهل تلك
النواحي وكيف لا وأنتم من خاصة خدامنا وأهل المحبة وعلى جانبنا أصلحكم الله وعلمنا ما أخبرت به
من أن [illegible] وسكينه وصيرورة أمير فلان [illegible]
والعفو منه عليه وقيامه بأمر الجهاد وحصول النفع للإسلام. ووصل بعض ما ذكرت أنه سيبلغ بواسطة
أخيكم ومن الكور والعسل حسبما في كتابه والسلام في 25 شوال عام 1269

رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بتاريخ شوال 1269 هـ (1852) إلى عامل الصحراء والسودان في شأن الحركة التي قادها الرئيس الذين بالصحراء الجنوبية وفي هذه الرسالة يعلن السلطان موافقته على تعيين امير جديد للقبائل (المولاية) وذلك لكونه سيقوم بجهاد المستعمرين، ويخبر بوصول بعض الأشياء الموجهة اليه من السودان.

(الأصل بخزانة المؤلف)



ثلاث جنود ينتسبون لثلاث فرق مختلفة



جندي في جيش مراكش

(الفرقة الثالثة)



جندي في حرس « اللوغا »



جيش الأسكيا



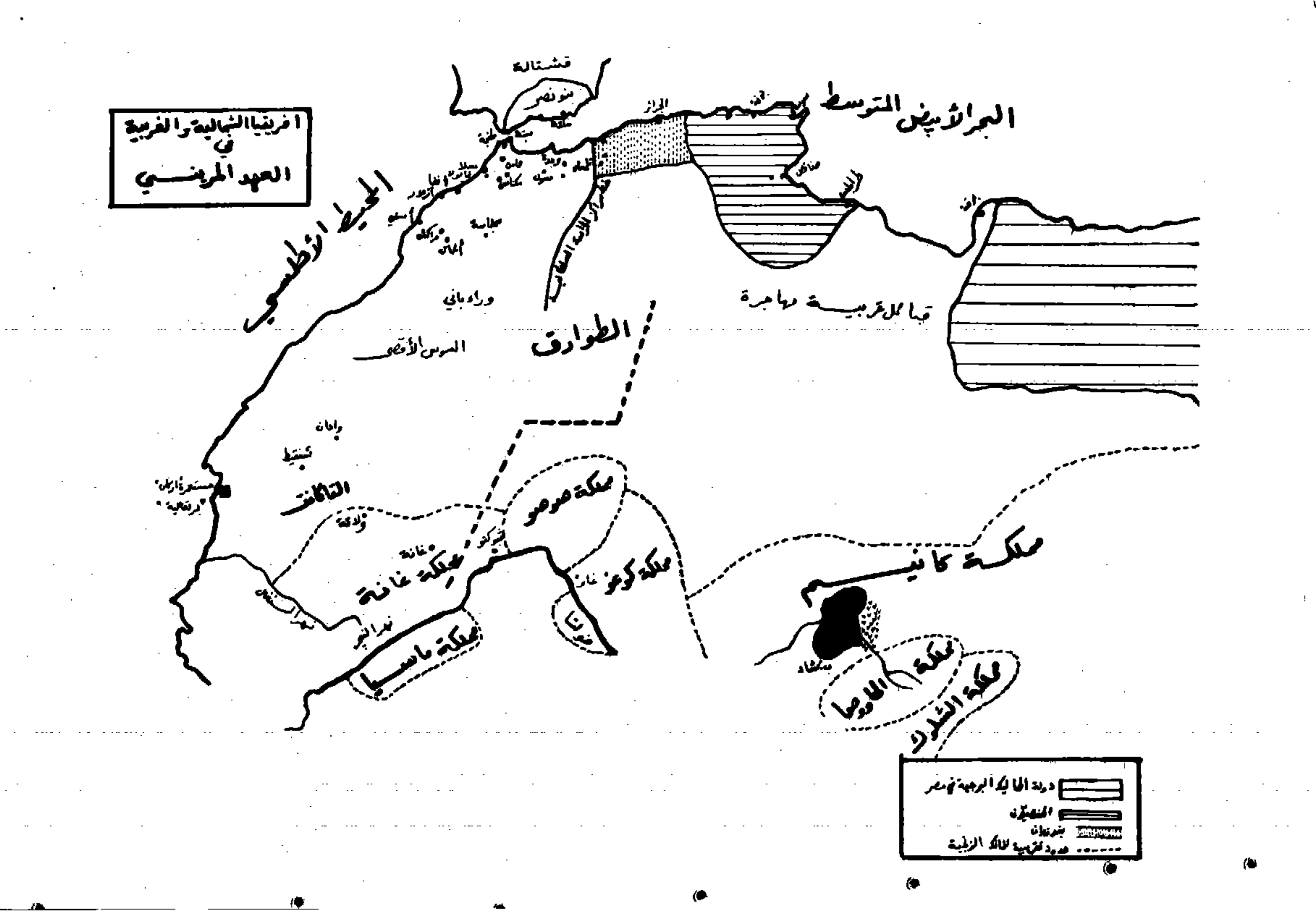
شيوخ الجيش السوداني



معركة تندديبي

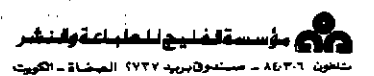


احدى حملات الباشوات



افريقيا الشمالية والغربية
في
العهد المريني
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
قشتالة
الطوارق
السوس الأقصى
قبائل عربية مهاجرة
مملكة مالي
مملكة غانة
مملكة صوصو
مملكة كوكو
مملكة كانم
مملكة الشلوك
المنصورة
دولة المماليك البرجية في مصر
الحفصيون
بنو زيان
حدود تقريبية للممالك الزنجية

رقم الأيداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٦٣٢ لسنة ١٩٨٢


مؤسسة الخليج للطباعة والنشر
تلفون ٨٤٠٣٠٦ - صندوق بريد ٢٧٣٧ الصفاة - الكويت